أبعاد القصية وأحصروا دلائل الإتبات والشهود

وهناك بعض المفقودات الأخرى التي تعاد الى أصحابها بأساليب مماثلة فعندما يكون البدو وعائلاتهم على سفر وخاصة وقت ترحال القبيلة بأكملها يحدث أن تتساقط بعض البسط والثياب أو معدات الخيمة عندما ترتطم الجمال ببعضها البعض خاصة في الليل ولا يعتبر - وفق قانون الصحراء - آثما من يلتقط أي شيء من الأشياء الملقاة ولكن عليه أن يعيدها الى أصحابها عند التعرف عليهم حتى لا يتهم بالسرقة ، فإن كان الشيء المفقود حملا أو مهرة أو رأس غنم يقدم صاحبها عادة مكافأة صغيرة لمن يعيدها اليه

ويطمح البدوي ، بعد بندقيته وجماله وروحته ، الى الحصول على مهرة وفلو والبدوي العادي لا يملك مهرة بأكملها ، وإنما يتقاسم ملكيتها حوالي ستة أشخاص او تكون لهم حصة في كل مهرة وعادة ما يعيش الشركاء على بعد مسافات كبيرة عن بعضهم البعض وكم هو مضحك ومقبض في آن واحد بالنسبة للأوروبي الذي تعجبه مهرة في الصحراء ويبغي شراءها أن يخبره صاحبها بأن لا مانع لديه أن يبيعه مقدمتها ولكن عليه أن يذهب الى شخص اخر قد يعيش على بعد مئة ميل ليشترى بقيتها ! وهذه الملكية المشتركة تنطوى أيضا على شروط تحدد من سيكون صاحب الفلو الأول والثاني وهكذا ، كذلك بعد أن يتفق الشارى مع جميع الأطراف المالكة بعد إجراء مفاوضات طويلة طبعا قد يقال له أن فلانا الذي يعيش على بعد ثلاثمائة ميل له حق إمتلاك أول مهرة صغيرة وعلى الشارى أن يذهب اليه لأخذ كلمته في هذه الصفقة وعادة ما يرفض الأخير عملية البيع اذا علم أن المهرة ستغادر البلاد وبالتالى لن يحصل على مولودها

والحصان العربي ليس ذلك الحيوان المعتنى بهيئته وتنظيفه وتغذيته وإسكانه كما هو الحال في الاسطبلات الأوروبية ففي البادية تترك المهرة شعثاء بدون تنظيف أوصقل وتطلق شعورها على مداها وعادة ما تكون نحيلة الجسد مررية الشكل فيما عدا وضع شكالات حديدية في قدميها الأماميتين وفي الشتاء يوضع بساط رث فوق ظهرها ليقيها البرودة وتعامل المهر مثل الجمال والغنم فتتجول في منطقة الخيام السوداء ترعى حيث تشاء ثم تعود الى البيت لإرواء عطشها ولا تسقى المهر على فترات منتظمة ، ولكنها متى أحست بالعطش تأتى الى خباء النساء وتصهل او تقف تنتظر وفي الشتاء عندما تكون المراعى مزدهرة ووفيرة فهى لا تحتاج الى الماء لبضعة أيام وتقدم الحبوب للمهر لمدها بالقوة والنشاط اذا استدعى الأمر القيام بغارة أو حرب بين القبائل ، وفي الصيف عندما تكون المراعى فقيرة تعطى بالقدر الذي يبقيها على قيد الحياة لذلك فإن



حواد البدوي مهما كان تميبا يعتمد بالدرحة الأولى ق عدائه على الطبيعة وليس على ما يحود به الإنسان وتكون المهر صحيحة وقوية البنية ق الربيع وأوائل فصل الصيف حيث تكون المراعي مزدهرة وعنية بالأعشاب ولكن حالتها تسوء ق الصيف

وتعامل المهر داخل الحيمة بمحبة ورعاية من أصحابها وكأنها ابنة لهم ومن الطريف حدا أن ترى كيف تدخل المهرة خيمة سيدها طلبا للدفء ق ليلة باردة أو تحطو الى حباح النساء ق منتصف نهار شديد الحرارة لتحتمى من أشعة الشمس اللادعة ق صيف عربى حارق وتأحد المهرة مكانها ق الخيمة كحق طبيعى لها وتستقبل بترحاب ويقدم لها التمر والماء

ولا يحتفظ بالمهرة الا اذا كانت من أصل نبيل وحتى أن قيمتها قد تعلو أو تهبط بحسب العلامات التى تحملها ق حسدها ويميز العرب خمسة انواع رئيسية من الخيول الأصيلة وهى

الكحيلان

عبيان

الصقلاوى

حمداني

العدنان

وخمسة أنواع فرعية هى

دهمان

مناقى

شويمان

حلفان

أبو عر كوب

بسم الله الرحمن الرحيم

2 - AL WATHEEKAH ٢ - الوثيقة

الوثيقة

دورية نصف سنوية
تصدر عن
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

رئيس التحرير
الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

نائب رئيس التحرير
د. علي أباحسين

مدير التحرير
السيد أحمد حجازي

العدد الثاني والعشرون - السنة الحادية عشرة
رجب ١٤١٣ هـ - يناير ١٩٩٣ م

4 - AL WATHEEKAH

٤ . الوثيقة

الوثيقة

لجنة المجلة

العنوان مركز الوثائق التاريخية ص ب ٢٨٨٨٢
تليفون ٦٦٤٨٥٤
جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير

الفــــــــــهرس

الموضوع	الصفحة
القسم العربي	

القسم الانجليزي

صورة الغلاف :

للفنان البحريني
ناصر اليوسف

جميع الابحاث المنشورة في هذا العدد تمثل وجهة نظر كاتبها

(الوثيقة)

كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الأرشيفات العربية

بين ابداع الأجداد واهمال الأحفاد

اذا كان التاريخ هو ذاكرة الشعوب فان الأرشيفات هي حراسات التاريخ وقد كانت الأرشيفات ومازالت أحد أهم مصادر المعرفة وهي الينابيع الدافقة التي يستقى منها الباحثون والدارسون المادة الأساسية لأبحاثهم ودراساتهم التي يسهمون بها في دفع عجلة الحياة وفي تحقيق غد افضل للانسان أينما يكون الانسان وقد حفظت لنا الأرشيفات كميات ضخمة من المعلومات حول مختلف ابداعات العقل البشري . كما حفظت لنا كميات اضخم من الوثائق والوقائع والمادة الخام لكثير من الاحداث التي واكبت خطوات الانسان على هذه الأرض منذ ابتكر هذا الفن وتطور وانتشر وحتى اليوم واذا كانت بعض الوان النشاط محدودة المجال أو محدودة التاثير أو محدودة الاستفادة . فان مجال الحركة والتاثير والاستفادة للأرشيفات لا يمكن الا ان يكون عالميا ذلك لأنها تنمو أخذا وعطاء وانها تقدم خدماتها ـ بحكم طبيعة نشاطها ـ بتجرد شديد دون توجه او توجيه واذا كان العصر الحاضر قد شهد قفزات اسطورية في بعض معطيات العلم فقد

نال الارشيفات منها نصيب لا بأس به وادي أخذها بالإساليب الحديثة فكرا ، والمنتجات الحديثة وسيلة ، الى تطور كبير سهل لها حشد أكبر كم من المادة في أصغر حيز من المكان كما سهل لها ولروادها تقديم المعلومة أو الحصول عليها في سرعة ويسر وأتاح لها أن تمتد بهذه الخدمات الى ساحة أوسع وعبر مسافات أبعد على ظهر هذا الكوكب

والسؤال الذي يطرحة هنا هو أين الأرشيفات العربية من كل ذلك اليوم ؟

هذا السؤال كان المحور الرئيسي للاجتماع الذي عقد مؤخرا للجمعية العمومية للفرع الاقليمي العربي للمجلس الدولي للأرشيف بالجمهورية التونسية الشقيقة بل كان ومازال المحور الرئيسي لأى حوار أو نقاش بين المهتمين بالأرشيف في كل مكان من عالمنا العربي ومختلف قطاعات المثقفين والباحثين

والغريب أن التاريخ العربي يؤكد أن العرب كانوا من أوائل من عرف هذا الفن اهتموا به ، ونظموه ، وطوروه واستحدثوا فيه الكثير والغريب أيضا ان مجموعة الوثائق الخاصة بالمنطقة تعتبر احد أكبر المخزونات الأرشيفية في العالم بحكم أن المنطقة ذات تاريخ ممتد من ناحية وانها كانت ساحة للكثير من الأحداث الهامة طوال التاريخ من ناحية اخرى وباعتبار ان الأمبراطورية العثمانية كانت احدى القوى الدولية الهامة في تاريخ المنطقة وهي دولة احتفظت في أرشيفات قصورها بمخزون هائل من الوثائق من ناحية ثالثة

ولكن الأغرب من كل ذلك وبعد كل ذلك أن كما هائلا من الوثائق الخاصة بالمنطقة نقلت او سرقت أو تسربت الى الأرشيفات الأجنبية والأغرب أيضا أن العرب الذين أبدعو في فن الأرشيف في تاريخهم الزاهر اصبحت أرشيفاتهم اليوم أو معظمها يحتاج الى تطوير كبير لتواكب الأرشيفات الأجنبية اضافة الى أن الملايين من الوثائق الهامة في بعض أرشيفات منطقة الشرق الأوسط مازالت حبيسة المخازن دون الاستفادة المرجوة منها

هذا الواقع كان كما قلت هو محور الحديث في لقاء تونس وهو الواقع الذي كان لا بد أن تأخذ نتائجة اشكالا غير مرغوبة او صورا تمثل تحديا قائما لكل المهتمين بهذا الفن فقد أصبح كثير من الباحثين والدارسين في

المنطقة العربية يلجاون للارشيفات الأجنبية للاطلاع على وثائق تتعلق اصلا سلادهم و اوطانهم و اصبح العمل في الأرشيف مهنة محوطة بكثير من الظلال الكئيبة فيكفي ان تسمع ان فلانا يعمل موظف ارشيف حتى ترتسم على الفور صورة رجل متعب مما صرف الكثر من شبابنا عن دراسة هدا الفن او الاشتعال به

نحن سالطبع لا نحلم بان تتغير الصورة بين يوم وليلة ، فتغيير الصورة في قطاع مثل هدا القطاع ، يحتاج لجهد كبير و امكانيات أكبر وان كنا نحلم بان تحظى الأرشيفات في عالمنا العربي بدرجة من الاولوية تتيح لها ان تبدا طريق التطور نحو مستوى افضل وربما كان لوضع الفرع العربي الاقليمي باعتباره فرعا للاتحاد الدولي ما يبعث على محاولة الاستفادة من المعطيات الحديثة في الأرشيفات المتطورة لتكوين خبرات عربية في هدا المجال تكون قاعدة لانطلاقه جديدة تعيد الحياة للأرشيفات العربية هدا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الحاجة اصبحت ملحة لخلق نوع من التواصل بين الارشيفات العربية وبعضها البعض ، لا شك ان هناك بعض الأرشيفات الحديثة خاصة في منطقة الخليج ولا شك ايضا ان التعاون الدي أرسيت دعائمة بين هذه الارشيفات يعتبر صورة ناجحة بل مثالية في هدا المجال ، ولكن الأمر يكون افضل واجدى لو امتد هدا التعاون ليشمل كل ارشيفات المنطقة العربية فالأرشيفات كما ذكرت في مقدمة هدا الكلام انما تنمو وتتطور احذا وعطاء

ياتي بعد دلك امران في غاية الاهمية يجب ان يطرحا للبحث على أكثر من مستوى

الأول هو البحث عن كيفية استعادة الكم الهائل من الوثائق الموجودة في الأرشيفات الأجنبية أو على الاقل الحصول على صور ميكرو فلمية لها

والثاني هو مواصلة الجهود التي بدات بالفعل للاستفادة من ملايين الوثائق في الارشيفات العثمانية

وبعد ان الامر هام بل هام جداً ونعتقد أن البحث عن حل يجب أن يتجاوز نطاق الحديث والكلام الى حيز العمل والتنفيذ

عبدالله بن خالد آل خليفة

التفكير الحضاري

في البحرين

في ضوء إشكالية العلاقة بين

تتالف كل دراسة سوسيولوحية احمالية لمحيط التحربة الاحتماعيه من ضرورة المقاربه بين تلاث منطومات رئيسية تمتل تلاث مراحل منفصلة ، لا متراتبه ، من شانها تحريك الية السيرورة الاحتماعية فهناك الواقع من حهة واعادة انتاحه بالمقابل وتقف حيويه العلاقة المتغيرة طرفا تالثا ، وذلك في اعتبار باحث سوسيولوحي بارز متل ايف باريل الذي يرى

ان فائدة مفهوم اعادة الانتاج الاجتماعي هي في اتاحة وضع عدد من الفرضيات حول طبيعة تغير المجتمعات ودوام المجتمعات النسبي وحول طبيعة التناقضات ، كما هي في الايحاء بنمط من الصياغة البنيوية للمجتمعات ، بالانطلاق من سيرورة اعادة الانتاج الرئيسية والمنظومات الاجتماعية ـ الثقافية التي تكونها. (١)

«١»

المثال والواقع



بقلم الدكتور علوي الهاشمي

وهناك الطوباوية، والاستقبالية والايدلوجيا، كمرتكزات منظومية أو أبعاد اساسية في حركة المجتمع، في اعتبار دارس سوسيولوجي آخر يرى في الايدلوجيا «منظومة اجمالية من تفسير الحوادث التاريخية والسياسية الحاضرة والماضية والمقبلة» (٢)

وهو يكاد، في ربطه الجدلي بين تلك الابعاد المنظومية الثلاث، يجنح نحو وضعها على مرتكزات الزمن في وحداته التقليدية الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل، بعد حشو أطرها التجريدية بوقائع المجتمع وسيرورته

التاريخية

كما كانت النظرية الماركسية تقوم على ما يسمى بالواقع والانعكاس عنه اي العلاقة بين الواقع والفكر او بين «البنية التحتية والبنية الفوقية» في تصنيف لينين

وهو ما تطور فيما بعد ليصل على يد باحث بنيوي مثل تشومسكي الى ما اطلق عليه «البنية العميقة والبنية السطحية» والعلاقة بينهما، متخذا من النص الأدبي حيزا لتطبيق رؤيته لتلك الابعاد الثلاثة. ثم جاء اخيرا لوسيان غولدمان بنظرية، ضمن نفس السياق عن البنيوية التكوينية او التركيبية التي تركز على سوسيولوجية الادب الجدلية [٣]

ولنشير هنا ضرورة الحاجة الى عرض تاريخي لنشوء هذه النظرية منذ فلاسفة اليونان القدماء (نظرية المحاكاة) مرورا بالنقاد والفلاسفة العرب (المعني والمبنى) حتى عصرنا الحديث الذي تركز البحث فيه، بعد ان تطور في اطار النظرية السابقة نفسها، على العلاقة بين الشكل والمضمون، والذي تطور تطورا نوعيا منذ فرديناند دي سوسير وبحوثه اللغوية الرائدة في علم الالسنية الحديث. حيث «ميز دي سوسير بين البعد الداخلي والبعد الخارجي للألسنية فالبعد الداخلي يحتوي على النظام الذاتي للغة في حين، يرتبط البعد الخارجي بتاريخ الشعب المتمتع بها وبحضارته وبناديه وبالأبعاد الجغرافية السياسية الخاصة به» [٤] ولذلك صارت اللغة «هي مرآة الانسان الاساسية» [٥] ان ما يعنينا حقا من هذا العرض المتسرع، سواء على الصعيد السوسيولوجي او الفني او اللغوي هو ترابط هذه المجالات من ناحية وانساء منظومتها الإجمالية المشتركة على ابعاد رئيسية ثلاثة تولف في علاقتها الجدلية قوانين الحركة والسيرورة داخل اطار المنظومة من الناحية الثانية

ولا بد من الاشارة هنا الى ان درجة وعي هذه العلاقة قد مرت بمراحل من التطور منذ سقراط وافلاطون وارسطو حتى عصرنا الحاضر، وبمراحل من التعقيد والتداخل، امتدت بين المثالية والواقعية فالواقعية الجديدة كما ان طبيعة التفكير وعمقه في كل مرحلة كانا معا يرجحان درجة العلاقة ونوعها من جهة، وميلها نحو احد ابعادها من جهة اخرى فالمحاكاة لدى افلاطون، غيرها لدى ارسطو، وهي غيرها لدى لينين (ان جاز تسمية «الانعكاس» نوعا من المحاكاة بصورة او باخرى). [٦]

فهي مثالية طوباوية عند الأول وواقعية عند الثاني، وجدلية عند الأخير غير انها في المراحل جميعا تقوم على أساس العلاقة بين الابعاد المنظومية الثلاثة التي تعكس الواقع وصورته في الذهن وترابط بين الانسان

والطبيعة والفن الأمر الذي يجعل «المثالية» قاعدة كل الفلسفات ، «لأن بناء المفاهيم والتطورات ، انما هو نشاط مثالي بطبيعته (٧)

الا ان للأمم في ذلك خصوصياتها ، بين شرق وغرب ، كما يعتقد هيغل ، ففارق البيئة والتاريخ وسيرورة العلاقة بينهما يؤدي بالطبع الى فوارق بله فويرقات في التفكير والتعبير وتتسع مسافة الاختلاف خاصة في العصور الحديثة حيث ميزت طبيعة المدنية الحديثة (خاصة جانبها التكنولوجي والفلسفي) بين الطرفين تمييزا واضحا في نظر هيغل حيث «اللامنقسم ، الثابت ، الواحد ، الجوهري هو ما يصطلع في الشرق بالدور الرئيسي ، وهذه النظرة الى الاشياء ، حتى وان لم تتوصل الى حرية المثال ، يمكن ويجب أن تعد أكمل النظرات ، وبالقابل يعكف الغرب ، وبخاصة في أيامنا هذه ، على تشتيت وتخصيص لا متناهيين للامتناهي ، ونتيجة هذا الاختزال للأشياء نظرا الى نقاط منعزلة ، يتلبس المتناهي في نظر التمثل طابعا مستقلاً ، مما لا يعني مع ذلك من ضرورة رده الى النسبة، على حين أن لا وجود في نظر الشرقي لاي شيء مستقل ، بحصر المعنى ، وانما يتجلى له كل شيء وكأنه عرض طارىء للواحد وللمطلق ، به يندمج وفيه يلقي المبرر الأسمي لوجوده» (٨)

ان تلك الرؤية الشمولية (الصوفية) التي يتميز بها الانسان الشرقي هي ما يجعلنا نتبنى النظرة البنيوية الكلية في محاولتنا الكشف عن بنية التجربة الحضارية في البحرين ، مادام انها جزء صميم من تجربة الشرقي ونظره مع وعينا التام بأن عملنا هذا لا يخلو من التناقض من الناحية المنهجية كما هو ظاهر ، من حيث اننا نستخدم البنيوية وهي منهج غربي حديث ينتمي الى واقع «التشتيت والتخصيص»، كما لاحظه هيغل ، في المجتمع الغربي الحديث ، ونطبقه في دراسة تجربة تنتمي الى الواقع المقابل ، وحقيقة الأمر التي تزيل أو تخفف عن عملنا هذا صفة التناقض ، هي ان البنيوية التي افرزها الغرب منهج نظري ووسيلة عملية في نفس الوقت ، حيث ان واقع «التشتيت والتخصيص» ، خاصة بعد ان استفحل امره في الغرب مع تطور المجتمعات الصناعية ونمو الراسمالية والتقدم التكنولوجي ، اقتضى من المفكرين وسيلة جديدة للنظر فيه ومعالجته علميا ، وذلك بالكشف عن منظوماته الكبرى المحركة لكل ذلك الشتات من التخصص Specialization وتقسيم العمل Devision of Labour الذي يسم بطابعه القوى مجتمعات الغرب الحديثة اما بالنسبة الينا فالبنيوية وسيلة نظر بالدرجة الأولى تساعدنا

بقدرتها على اكتناه القوانين والمنظومات الأساسية ، في الكشف عن اشكاليات التجربة الحضارية في البحرين باعتبارها جزءا من تجربة الشرق العربي ، خاصة تلك الاشكالية الرئيسية التي اومأ اليها هيغل في نصه السابق حول المسافة بين النظرة الشمولية الى الاشياء التي يمكن ويجب ان تعد اكمل النظرات ، وبين توصلها الى حرية المثال حيث يمكن لمنهج الغرب التسيوي ان يكشف في رأينا عن حقيقة هذه الاشكالية الشرقية على مستوى الوعي والواقع تماما كما كشفت تكنولوجيا الغرب ونظرياته العلمية عن جوانب عدة من مخزون الشرق وثرواته الاقتصادية والفكرية مع ضرورة الوعي هنا للتمييز بين أهمية الاداة وامكانية استغلالها

ان اشكالية المثال الواقع المذكورة تضعنا وجها لوجه امام الاطار الواقع الذي يمكن ان تندرج فيه صورة التجربة الحضارية في البحرين بشكل عام فهي اشكالية نموذجية حية جامعة (من حيث شرقيتها) ومميزة لمكونات واقع شرقي عن اخر عربي حيث ينعكس بصورة اوضح في اشكالية الروح الجسد التي هي وجه اخر من وجوهها غير انه هنا ، ينبغي التذكير بان غلبة الحضارة العربية وسيطرة قوانينها المادية على العالم الحديث باكمله ، قد جعلت تلك الاشكالية الشرقية اكثر حدة وبروزا ، خاصة وان مقتضيات الظروف الحاضرة ومجريات التاريخ المعاصر قد جعلت الشرق والغرب وجها لوجه في كثير من الاحيان وداخل بينهما في اكثر الاحيان مما انعكس اثره واضحا في فكرنا المعاصر «واني لاعتقد ان مثل هذا الصراع بين الطرفين - بين مقتضيات العلم ومقومات الانسان - والرغبة في ايجاد الحلقة التي توفق بينهما فتزيل الصراع هو ما تختلج به نفوسنا نحن ابناء الامة العربية اليوم وننتظر صاحب الفكر الفلسفي الاصيل النافذ ليغوص الى اعماقنا الثقافية فيستخرج لنا الصيغة المنشودة التي نقروها فنجد انفسنا منعكسة فيها» (٩)

ثم يشير الدكتور زكي نجيب محمود الى جهود اعلام الفكر ابان عصر النهضة أمثال محمد عبده والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم التي كانت تصب جميعها في مجرى هذه الاشكالية التي اتخذت لها عدة وجوه واسماء حسب طبيعة الشخصية وزاوية النظر والبحث عند كل واحد من أولئك المفكرين فهي عند محمد عبده توفيق بين الدين والعصر وعند العقاد امتزاج بين الثقافتين الأوروبية والعربية دفاعا عن الاسلام ، وعند طه حسين نقد للادب العربي القديم على ضوء الفكر الحديث (الاوربي طبعا) ، وعند الحكيم تعادلية او «عناق» بين الروح والمادة ، وبين الازلي والحادث وهكذا تستطيع ان تتعقب اعلام

الفكر في تاريخنا الحديث والمعاصر ، فنجد كل واحد منهم قد أراد بطريقته الخاصة أن يصهر ثقافة العرب الحديث وثقافة التراث العربي في جديلة واحدة»[10] إن اشكالية المثال/الواقع ، إذن ، اشكاليـة أساسية قديمة متجددة في تجربة الانسان العربي والشرقي بوجه عام وهي تمثل أبرز خصائص اشكالياته الوجودية المميزة كما أشار هيغل ولأنها اشكاليـة ثنائيـة أساسيـة وشمولية ، فلا غرو أن تكون الجذر المولد لعدد غير متناه من الاشكاليات الثنائية التي يعبر كل منها عن وجه من وجـوهها وصـورة من تجليـاتهـا اللامحدودة ، والتي يثوي جذرها الحي المولّد عميقا في النفس كالمبدأ الراسخ الذي يشير اليه في ثقة تامة الدكتور زكي نجيب بقوله «ماحسب أن لو تعمقنا ضمائرنا ، لوجدنا هناك مبدأ راسخا ، عنه انبعثت ـ وما تزال تنبعث ـ سائر أحكامنا في مختلف الميادين ، هو مبدأ ، لوعرضته على الناس في لغة واضحة صريحة ، لما وجدت منهم أحدا يحتج أو يعارض ، وأعني به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجود شطرين ، لا يكونان من رتبة واحدة ولا وجه للمساواة بينهما ، هما الخالق والمخلوق ، الروح والمادة ، العقل والجسم ، المطلق والمتغير الأزلي والحادث ، أو قل هما السماء والأرض ، أن جاز شذا التعبير»[11] وأما عن طبيعة العلاقة بين طرفي هذه الثنائية فيقرر الكاتب غلبة طرف على آخر وسيطرته المطلقة عليه فهي «ثنائية لا تسوي بين الشطرين ، بل تجعل للشطر الروحاني الاولوية على الشطر المادي ، فهو الذي أو جده ، وهو الذي يسيره ، وهو الذي يحدد أهدافه»[12]

إننا وإن كنا نقر مع الدكتور زكي نجيب محمود بوجود هذه الثنائية في فكـر الانسـان العـربي ووجـوده وسيطـرتها عليهمـا منـذ أقـدم العصور ، إلا أننا نرى في نفس الوقت عدم ثبات طبيعة العلاقـة بينهما واقتصارها على تلك التفرقة الحادة الواضحة بين عالمين عالم الكائنات المتناهية ـ أعني الكائنات المقيدة في وجودها بمكان وزمان معينين ، وعالم اللامتناهي ، الذي يتعالى عن اية صفة تحدد له مكانا أو زمانا[13] ، وعلى «أولوية الشطر الروحاني على الشطر المادي» ، لأن طرفي الثنائية ليسا منفصلين كما يبدو بل هما متشاكلان دائما (أي أن الثنائية ذات طبيعـة إشكاليـة أساسـا) تعتمد اشكاليتهما على طبيعة العلاقة التي يقررها الوعي (درجته ونوعه وطبيعته) في كل مرحلة من مراحـل تطور المجتمعات العربية زمانا ومكانا كما أنها اشكاليه متفاوتة في مفهوم الفرق الاسلامية والفلاسفة والمتصـوفين العرب والمسلمين ، فهي ذات طبيعة تقابلية عند المسلمين الاوائل وذات طبيعة عقلانية عند المعتزلة وذات طبيعـة اندمـاجية حلـوليـة عنـد المتصوفة ، وذات طبيعة اجتماعية

عند القرامطة وذات طبيعة باطنية عند بعض الفرق والمذاهب الاسلامية الاخرى

ان هذه العلاقة ذات الطابع الاشكالي الحي المتغير بين طرفي الثنائية هي ما جعل المؤلف يزعم في ثقة وعمق ان مبدأ الثنائية صارت بجذورها الى اعماقنا الثقافية وهي ما جعلته يفرع عن ذلك نظرات متعددة في الاجتماع والاخلاق والدين والفلسفة والفن والمعرفة (١) اضافة الى ان الاشكالية الحيوية هذه التي يمتاز بها مبدأ الثنائية جعلته عنصرا متطورا متحولا في مختلف جوانب الحياة العربية الثقافية والسياسية والاجتماعية الخ وقادرا في الوقت نفسه بسبب اشكاليته لا غير على تجسيد مستويات الوعي التي تحكم العلاقة بين طرفيه والتي تكشف من خلالها ايضا درجة ذلك الوعي وطبيعته الاشكالية التي ينبغي ان تكون نتاجا طبيعيا لاشكاليات العصر المحيط ونوعها ودرجة تأثيرها فيه وتأثرها به من هنا يتكشف منهج المؤلف التوفيقي ونزعته المثالية التي تؤمن بانه لا مندوحة لنا عن ان نزيل التعارض القائم اليوم في ارجاء الدنيا جميعا بين العلم الذي يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة وقيمة الانسان التي تنهار بنوبات كنوبات الشياطين (١) لكون ذلك «التعارض القائم اليوم» يمثل ابرز سمات العلاقة الاشكالية بين طرفي الثنائية في هذه المرحلة بالذات من تاريخ الانسان العربي التي تتميز بحدة صراعها حيث يكون العلم وادواته وفوائده حكرا على طبقة دون اخرى

أولاً : صورة المثال

نعني بالمثال مجموع القيم العليا والخصائص النفسية والفكرية والسلوكية المستقرة الثابتة ، نوعا ما ، والمترسبة في قاع تجربة الانسان وذاكرته الأولى ونحن لا نفهم هذه القيم والخصائص هنا ، فهما افلاطونيا او مثاليا ولا حتى فهما فرويديا ، وان كنا لا نستبعد عن فهمنا لها منجزات علم النفس الحديث خاصة عند يونج وادلر بل نفهم (المثال) فهما ماديا تاريخيا منتزعا من طبيعة حركة المجتمع الانساني ونضال الانسان اليومي منذ فجر تاريخه وسعيه الدؤوب لخلق مجتمع فاضل ومهما يكن في هذا التطلع الحلمي من بعد طوباوي واضح هو جزء لا يتجزأ من كيان الانسان وتركيبته في كل زمان ومكان ، الا ان



تفسيره ، بالنسبة الينا على الاقل ينبغي ان يظل مربوطا بحركة الواقع التاريخية التي تنتج خصائص (المثال) الثابتة وتتكيف في نفس الوقت بها حيث دائما يعدل الانسان من سلوكه ليتناسب مع صورة المثال وليضيف الى تلك الصورة بسلوكه وبروعه الجديد ملامح اضافية تزيد من غناه وصلابته ، فليس «المثل الاعلى» عالما سريا او حقيقة غامضة» ينزع نحوها الشعور الخلقي نزوعا صوفيا او شبه صوفي ، بل هو حقيقة اجتماعية مشتقة من صميم الواقع وان كانت في الوقت نفسه تعلو عليه(١٦)

ان صورة المثال وان كانت تمثل خلاصة صافية لحركة الواقع وقوانينه «وليست مجرد تصورات عقلية

وضع ديلمون كمركز ديني..
كان الأساس في نشأتها كمركز تجاري

باردة او تاملات فكرية عقيمة بل هي عناصر فعالة محركة تكمن من ورائها قوى حقيقية موترة»[١١] الا ان هذه الصورة نظرا لغناها واكتنازها وكثافتها الشديدة ومركزيتها في حياة الانسان وتنوع مصادر تكوينها وبعدها التاوي في قاع الذاكرة الانسانية وتشوفها المستمر الى افق الحلم والمستقبل نظرا لكل ذلك وغيره غدت صورة المثال عرضة لاختلافات متباينة في وجهات النظر والتفسير منذ ان غداها الانسان الاول بتصوراته الساذجة وتاملاته الفجة إزاء الكون والطبيعة التي وجد نفسه امامها في صراع لم يهدأ حتى اليوم والى عصرنا الحاضر حيث ساهمت الفلسفة والمعارف الاخرى بصورة مستمرة وفي كل المراحل في تغذية صورة المثال ورفدها بخصائص هذا المجتمع او ذاك دون ان يستغني الانسان في اي مجتمع وفي اي مرحلة عن المساهمة في صياغة صورة لـ «مثال». وإذا كان من المستحيل على الانسان ان يستغني عن تصور بعض المثل العليا فذلك لانه في صميمه كائن اجتماعي. ومعنى هذا ان المجتمع هو الذي يدفع الفرد دفعا لان يعلو على نفسه وهو الذي يلزمه الزاما بان يحقق ضربا من التسامي الخلقي»[١١]

وهذا نفسه ما يجعل «الفنون تمثل احد اهم تاملات الحضارة المنتمية اليها. كما يجعل «الحقيقة والاعتقاد لفنون حضارة ما ينبعان في العالم من المثاليات الفكرية لها»[٩]

ويرجع غنى صورة المثال وثرائه وسائر المميزات التي ذكرناها، الى تلك البؤر المكثفة من الاشكاليات الثاوية الكامنة في ثناياها والمنطوية عليها بصورة مدهشة تجعل منها نموذجا اختزاليا فريداً لاشكاليات الواقع. كما تجعل منها، في نفس الوقت، بوتقة تنصهر فيها كافة تلك الاشكاليات وفعالياتها مكونة السمة العامة ومميزات الانا الاجتماعية المشتركة في بعديها الادراكي والشعوري ولذا فان الانا الاجتماعية بدورها ليست مبنية من مادة مثالية، بل من العواطف الحقيقية الملموسة والمطامح التي يمر الانسان بتجربتها من خلال حياته في مجتمع حقيقي ملموس[٢]

وهكذا يجد الانسان نفسه، وهو كائن اجتماعي يعيش في اطار من

التعاون بالضرورة ، محاصرا بمتاله الدي صنعه ونسجه حوله ليسجن فيه ، تماما كدودة القز التي لا تتوقف عن صنع سجونها وهدمها وبهده الطريقة العملية وحدها في الهدم والبناء المتصل يمتلك الانسان بوعيه وليس بغريزته فحسب ، حريته الحقيقية ولكن بعد ان اصبحت الانا الاجتماعية العليا قانونا صلبا او شرطا من شروط تحققها ، كما ان اكتساب هده الحرية من خلال العمل وتحقيقها المستمر عبر الهدم والبناء هما عبارة عن تصليب مستمر لصورة المثال او الأنا العليا وهنا تكمن اشكالية المثال والواقع القائمة على الجدل المتصل بين طرفي الثنائية ولذلك اخدت العلوم التطورية الحديثة ، خاصة علم النفس ، على عاتقها مهمة التصدي لصلابة (المثال) وتحجره ، وذلك بربطه دائما بحياة الفرد والمجتمع إد غدا من أحد أهداف التحليل الرئيسية ان يعيد الحياة الى هذا القانون الديكتاتوري ، والمصاب بالتحجر ، الذي يعبر عن حالة متحجرة الى الأبد ، لا عن دينامية[21] ويصدر هذا الموقف التحليلنفسي عن اقتناع عملي تجريبي بضرورة بقاء صورة المثال حية لا تموت ، غنية متدفقة بالحيوية والثراء لا تنضب ، وذلك لما لوجودها في حياة الانسان من خطورة واهمية حاسمة في توازن حياته الاجتماعية وتقرير مصيره الوجودي . ولهذا اعتبرها التحليل النفسي الحديث بمثابة الأنا العليا او القانون او حتى «الإله» يقول جامون «والحال اننا نراعون بفضل سيرورة غريبة ، لأننا نحتى بصورة غريزية تلك المغامرة الكبيرة ، مغامرة الحياة الى ان نجعل من هذا القانون ، على نحو مستمر ، ضربا من الوجود الغامض جدا ، الذي نجعل موقعه موقتا ، في البعيد ، والذي ينتهي ، في اخر المطاف ، الى ان يتوحد بالإله وعندئذ انما يبدل القانون ايضا من تصريف الفعل ، فيتحول عن المضارع ، ويتبنى صيغة الأمر «ينبغي عليك» وبدلا من ان يبقى القانون وسيلة (ضرورية) ليدخلنا في كثافة الواقعي كلها وفي متطلباته ، وبدلا من ان يبقى دعوة لكي نتلاءم باستمرار مع هذا الواقعي الذي يتصف دائما بانه غير متوقع وسيّال ، فإنه يصبح قاعدة الواقع عوضا عن ان يكون تعبيراً متواضعاً عنه[22]

وتكتشف هذه النظرة التحليلية لصورة المثال عن خاصية جديدة نابعة من خصائص تلك الاشكالية بين الواقع والمثال وهي اشكالية الثبات والتغير او السكون والحركة التي تكمن في سياق كل منهما على حدة وفي طبيعة العلاقة الجدلية بينهما ان «المثال» ، في إطار هذا المفهوم ، يغدو إذن ، انه مخزن «سكوني» لمجمل حركة الواقع ، وداكرة احترالية لما كان فيه وما سيكون ، مكتنزة بالخبرات والتجارب والاحلام التي هي اساسا اصداء لردود فعل واقعية ، حيث «تمهد الأحلام الطريق

امام الفعل فعلى الانسان ان يحلم اولا بالممكن قبل ان يستطيع فعله[٢٢] ان المثال وفقا لذلك هو بمثابة نقطة الارتكاز الثابتة في وسط دائرة المحيط الواقعي النقطة السكونية المستقرة في مكانها ولكن المركزية ايضا والتي بدونها لا تكون الدائرة ولا حركة المحيط وكانما هذه الحركة تنبثق منها وتتمحور حولها وتصب فيها وذلك لانها موجودة في كل نقطة او حركة او اتجاه للمحيط على الرغم من ثباتها كنقطة مركز، في مكانها لا تحيد

ورغم هذه القوة المركزية الثابتة التي يتمتع بها وجود المثال في التجربة الانسانية الحية، فاننا لن نسمح لانفسنا بان نسقط في وهدة اعتبارها «تلك القوة الصرفة في الفكر او الروح» وما لها من قيمة لا تدفع تلك القوى المتحللة و «العقلانية» والتي هي من تلقاء ذلك معتبرة بمثابة الينبوع الذي تتسرب منه كل تسلسلات الكشف



الشاعر الديلموني القديم يتنبأ
فتصبح ديلمون ميناء للعالم كله

وانطلاقا منها كل الطرائق الداهمة الحائية بين المثال والواقع وكذلك النتائج المترتبة على كل أولئك[21] وذلك لأن مثل هذه الرؤية «المثالية» من شأنها أن تجعل من «المثال» شيئا معبودا على المستوى الايماني الديني متعزله من تم عن سياق حركة الواقع التي تنتجه وتعدي وجوده باستمرار وهي حقيقة لا مناص من الاعتراف بها حتى في ذلك الحيز الضيق من الاعتبار الايماني المحض. حيث يفرض الواقع نفسه حتى وان كان مصعدا في صورة مثال او إله. اذ تعترف هذه الرؤية المثالية بذلك حين تصرح «وعلى الرغم من اننا لا نعتقد كما يفعل الماديون. ان وجود كل ما يرتد الى أعمال تتوالى وتتتابع في سياقها الزماني والمكاني فمما لا مراء فيه ان طبيعة نشاط المرء والبيئة التي يمارس فيها ذلك النشاط هي شؤون او مسائل قناعة ويقين مستولية على حياته ومن مقومات هويته الى حد بعيد[25]

وليس غريبا بعد ذلك. ورغم اعترافها بوطأة حركة الواقع ان تتردى تلك النزعة المثالية في هوة العمى الاشكالي التام والخلط الكامل بين المتناقضات التي الزمنا انفسنا منذ البداية بتجسيها. حين يقودها التحليل ـ تحليلها ـ الى امر جوهري كما يسميه المؤلف وهو «انه لا تعارض بين المعرفة العلمية والايمان بالدين»

وليس ذلك فحسب بل نجد صورة المثال الموطرة بالنزعة الروحية تتحول الى قوة طاغية مسيطرة. حيث تغدو امامها «المادية ليست بالنزعة العلمية فالعلم لا يوصف بكونه ماديا» كما ان النزعة الروحية «ليست بالتي هي على حال الازمة. ولكن النزعة المادية إياها هي التي الى تهافت» وهكذا اذن لا مفر من انه أمام انهيار هذه النزعة ينبغي للنزعة الروحية ان تستعد لاسعاع متزايد وان تضطلع بمهام جديدة[26]

ان هذه النزعة الروحية المثالية تضفي على صورة المثال المتحركة النامية مع قوانين الواقع رغم ثباتها الظاهري وسكونها البادي. حالة من الالوهية والثبات المطلق المسيطر على كل حركة سواه. ومن ثم يغدو هو الحركة الوحيدة المطلقة التي تعني ثباتا مطلقا وهنا العمى الميتافيزيقي

التام والحيرة المثالية الصماء التي بمقتضاها تتحول الثنائيات الاسكالية الرئيسية كهدد الاشكالية - الأم (الواقع والمثال) الى اشكالية مبهمة اول الامر ومن ثم تتحول الى لا اشكالية، عندما يحسم الصراع العائم والمبهم لصالح طرف الثبات المطلق المتعالي ابدا

وهنا فقط يسيطر ما يدعوه برجسون «بالاخلاق المغلقة» على المجتمع الانساني المفتوح [٣١] وعلى حين ان «الاخلاق المغلقة» تستند الى اوامر مطلقة وقوانين صارمة، وضرورات اجتماعية والتزامات لا شخصية نجد ان «الاخلاق المفتوحة» في صميمها عبارة عن مجموعة من «النداءات» التي يوجهها الى ضمير كل منا «اشخاص» ممتازون [٣٢]

ورغم كل ذلك يبقى للنزعة الروحية دورها المؤثر والحاسم في تغذية صورة المثال بحرارة الوجدان والصدق العاطفي وخصوصية الانتماء كما يبقى لخصائص المجتمع المغلق واخلاقه مثل ذلك الدور الذي يرسم ملامح خاصة لصورة المثال تتميز بفرادتها وانتمائها البيئي مما يساعد على اعطاء سمات حية واسعة وانسانية صادقة لها تنتمي بواسطتها للمجتمع الانساني واخلاقه المفتوحة ما دام المثل الأعلى للمجتمع المغلق على نفسه، هو تهذيب افراده تهذيبا اجتماعيا صالحا يضمن للجماعة اسباب التعاون والتآزر [٢٩] غير ان ذلك الدور الحاسم لكل من النزعة الروحية والأخلاق المغلقة يجب ألا يجعل من المثال صورة متسربة مسقطة على حركة المجتمع تفرض عليه من فوق او من اية جهة لتكبله وتوجه حركته حسب مقاييسها ومعطياتها الجاهزة اذ ينبغي دائما النظر الى المثال على انه صورة حية نامية مكونة من نسغين حيين تتحدر بواسطتهما في تربة الواقع وعلاقاته وحركته التاريخية، هما عالم الادراك المشترك وعالم الشعور المشترك كما يسميهما كريستوفر كودويل [٣٠]

ان درجة الوعي هذه بمستوييها الادراكي والشعوري هي التي تحكم، في الحقيقة العلاقة الجدلية النامية بين الواقع والمثال وهي التي تجعل صورة الواقع تتسم بذات الخصائص من الحيوية والقدرة المستمرة على التطور ان تطور الوعي نفسه يحكم تطور العلاقة واشكالياتها المتنامية بما يجعل المثال في خدمة الواقع، ويجعل الواقع قادرا على خلق مثاله وتنميته، دون ان يتحول احدهما الى قيد للآخر او سيف مسلط على رقبته ان أي فصل من أي نوع بين الواقع والمثال هو فصل تعسفي لا محالة وهو نفسه ما وضع منهجنا، هنا، أمام أول وابرز اشكالياته النظرية، كما الحنا من قبل ففي الوقت الذي كنا نؤكد فيه دائما على ان المثال نتاج ذهني للواقع الانساني، نجد انفسنا مضطرين،

هنا ، لنبحث صورة المثال قبل منتجها الواقع وذلك لأننا نعتقد في ان «المثال» يشكل مركز الدائرة (الغامضة) في شتاتها رغم وجودها القوي والضروري لأن تكون هناك دائرة ومحيط وواقع ورغم ان «القانون (الأنا العليا) يصنعه الانسان الذي يبحث عن ذاته» غير ان دور ذلك القانون (المثال) «هو دور رأس باحث طيلة هذه المغامرة المترامية الاطراف ، التي هي تاريخ الانسانية[٣١] أي انه موجود ، مهما كان وجوده نذرة صغيرة ، في رأس الانسان وأعماقه يوجه حركته فوق أرض الواقع منذ ان بدأ الانسان تاريخه مع بداية اصول الحياة ، الانسان الذي لم يكن سوى ممكن في العصر الجوراسي ، والانسان الذي أصبح محتملا بظهور القردة ، والانسان الذي ما ان «ابدع» حتى كان عليه ان يخترع بدوره حياته الخاصة اللغة والنار والأدوات والكتابة ، والانسان الذي يسعى له في أيامنا هذه ان يخلق المتحد العالمي الكبير ، وربما الكوني

لقد كانت بذرة المثال الصيلة ، كنقطة المركز ، تنمو مع نمو تجربة الانسان بل وتساعد على نموها وتدفعها دائما نحو التطور عبر جميع مراحل التجربة الانسانية «وكان القانون (الانا العليا)، دائما هو الذي يسجل القفزة التي كان الانسان يقفزها الى الأمام» غير ان علاقة الجدل بين المثال، رغم هذه القوة التي يختزنها داخل تجربة الانسان ، والواقع يجب ان تظل قائمة ومتصلة بما يكشف عن قوة التجربة الانسانية التي حركت بذرة «القانون» وما له من دور حاسم في قفزات تجربة الانسان قائلا «ولكن ، إذا كان السير الى الأمام يظل ممكنا ، فذلك على وجه الدقة لان الانسان ، بالقياس الى هذا القانون ، أعني بكثير دائما ويصبح ولاؤنا للقانون خيانة عندما نرغب ، وبفعل السأم والخوف من المغامرة ، في تحنيط هذا القانون (وهذه الانا العليا) والادعاء بأننا حددنا المطلق» ويقول في مكان آخر

«ولكن المهم ليس القانون ، وانما الانسان[٣٢]» وفي ضوء هذه الحقيقة يشكل المجال الأرضي مختبرا للعمليات التي تخطط الالهة لتنفيذها [٣٣]»

وبعد ، فانه اذا كان لا بد من ضرورة لكل تلك المقدمة النظرية حول طبيعة المثال وعلاقته بالواقع في اطار تلك الاشكالية الثنائية ، فإن الضرورة تنبع من رغبتنا في التأكيد منذ البداية على اهمية هذه الاشكالية الام التي سوف تتولد عنها ثنائيات اشكالية غير محدودة على طول مسار هذه الدراسة ومن جهة ثانية تقود تلك الضرورة الى الانتقال المبرر الى الحديث عن طرف الواقع كطرف في اشكالية ثنائية جدلية مع صورة المثال ، حيث يمكن بصورة عملية تطبيقية معرفة حقيقة العناصر المكونة لصورة المثال ومستوياتها الثابتة

والمتحولة . وذلك من خلال معرفة الواقع نفسه الذي ينتجها باستمرار ويتكيف بموجبها . كما ذكرنا سابقا

غير انه توجد هناك نقطة اشكالية في اعتقادنا ينبغي الانتباه منها قبل الشروع في الحديث عن مكونات الواقع ومستوياته التطبيقية على مجتمع البحرين منذ اقدم الأزمان . ان هذه النقطة الاشكالية تتصل بما سوف نطلق عليه منذ الان «الذاكرة الاسطورية» ونعني به كل ما يتصل بالمكونات الاسطورية والخرافية التي ظلت حتى اليوم ترفد الحياة الاجتماعية في البحرين على صعيد كل من بنيتيها التحتية (الشعبية) والفوقية (الثقافية والفنية) دون اي توقف . ذلك ان الاسطورة تواكب مسيرة الانسان في ماضيه وفي حاضره وفي مستقبله[١].

وتبرز اشكالية الذاكرة الاسطورية هذه اساسا في صعوبة تحديد موقعها في دائرة المحيط او تحديد نقطة انبثاقها من الاشكالية الام بين طرفي الواقع والمثال فالاسطورة والخرافة كذاكرة شعبية عريقة غائبة ومنقطعة تاريخيا عن حركة الواقع المباشرة (خاصة اساطير تلمون القديمة التي تخللت حضارتها فجوات لم يمكن سدها حتى الان لربط تاريخها بسياق تاريخ البحرين العام) بحيث يصعب البحث عن نقاط اتصال وتفاعل بين مكونات الذاكرة الاسطورية ومكونات الواقع بشقيه الجغرافي والتاريخي . غير ان هذه الذاكرة رغم ذلك الغياب والانقطاع ، تمثل حضورا دافعا في جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية البحرينية حتى الوقت الراهن . متجللة في بعض جوانب السلوك الانساني لمجتمع البحرين المعاصر كالايماء والتحية والرقص والغناء واستخدام الأدوات المختلفة والملبس والمأكل . كما تتجلى بعض جوانب الرؤية والتفكير والنظر الى العالم والكون والمجتمع الخ

واذا كانت الاساطير حقيقة لا يمكن ان تختفي تماما من كل المجتمعات في كل الازمنة[٣] . إذ لكل مرحلة اساطيرها الخاصة حتى في عصرنا الحديث حيث غدت «التقنية» ابرز اساطيره اضافة الى اسطورة «الايديولوجيا» في اعتبار الكثيرين من الدارسين والفلاسفة المعاصرين[٣٦] ، وغير ذلك من الاساطير البارزة والمبطنة . فان معنى تلك السيرورة الاسطورية ، ان صح التعبير ، لا بد ان يعود الى قدرة الذاكرة الاسطورية نفسها على التشكل والتحول والتماهي بما يضمن لمكوناتها حضورا مستمرا ، وان كان حضورا غائبا او خفيا او متنكرا فمن منا يمتلك القدرة التامة ، في اطار البحرين نفسها . على الفصل بين كل هذا الاهتمام الملحوظ عبر التاريخ بالنخلة . اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا وثقافيا وفنيا وبصورة شعبية واسعة . وبين الهة النخلة (انزل) في الأساطير الدلمونية القديمة وكذلك الأمر بين الاهتمام بالبحر وبين اله الماء (انكي)

وغير ذلك من الآلهة[٣٧] والعبادات التي عاشت على ارض تلك الجزر (البحرين) منذ اكثر من خمسة الاف سنة، وشاركت في صياغة اساطير بلاد سومر (خاصة ملحمة جلجامش)[٣٨] وحضارتها وعباداتها وكل ذلك يمثل مخزن اللاوعي الجمعي للانسان في البحرين على مدى العصور «واللاوعي الجمعي هو ذلك الاصل المجهول السحيق في قدمه والذي يشكل البداية المنسية لكل ذاكرة والطور السابق على الوعي والذي عنه يصدر الوعي»[٣٩]

إن اشكالية الذاكرة الاسطورية تكمن إذن، في ذلك الحضور الغائب او الغياب الحاضر، على صعيد المكونات الاسطورية واثرها، كما تكمن في الانقطاع التاريخي على صعيد تاريخ البحرين المتصل خاصة وان المؤرخين يشيرون الى فترة طويلة من انطفاء صيت الحضارة الدلمونية بعد ازدهارها في المنطقة وتكمن اخيرا، على صعيد منهجنا في البحث، في تحديد موقعها على مخطط البحث خاصة في سياق جملة الاشكاليات التي تمثل اشكالية الواقع/المثال جذرها المولد

ان اشكالية الحضور الغائب التي تتسم بها طبيعة الذاكرة الاسطورية، كما المخبا، هو ما يمنح عناصرها ومكوناتها والعلاقات بينها تلك الحيوية الملحوظة والقدرة المستمرة على البقاء والتشكل المستمر والتاثير، بما يجعل الاسطورة باقية بقاء الانسان في الحياة اضافة الى ان لهذه الاشكالية الملتبسة، الطبيعية المؤثرة، الحاضرة الغائبة، دورا وظيفيا يغذي باستمرار حيوية الذاكرة الاسطورية ويجعل منها تربة خصبة وجذرا حيا لتوالد مختلف الاشكاليات

ويتمثل هذا الدور الوظيفي في قيام الذاكرة الاسطورية، بمكوناتها وعلاقاتها بنقل خبرات الواقع وتجاربه كخلاصة جوهرية الى حيز «المثال» لتصوغ منها صورته أو تعدل منها، كما تقوم في نفس الوقت بنقل تلك الخبرات والتجارب في صيغتها الاختزالية المخزونة في الذاكرة الى حيز الواقع السيال ابدا، ليتمثل بها ويتكيف وفق خصائصها الموروثة كما تقوم الذاكرة الاسطورية اخيرا بذلك الدور التوفيقي والتكييفي المتصل بين حركة الواقع وصورة المثال، وبذلك تؤدي هذه الذاكرة دور ابرة الميزان التي تتارجح على راسها، بصورة متوازية دائما، كفتاه الواقع والمثال ولا عجب اذن بعد ذلك، ازاء هذا الدور الوظيفي الذي تلعبه الاسطورة في توازن حياة الانسان ان يعتقد (رولان بارت) بان «الغاية الوحيدة للاسطورة هي تجميد حركة العالم»[٤٠]

وإذا كان يبدو من «تجميد حركة العالم» ذلك الدور الرجعي الذي تقوم به الاسطورة في المحافظة على «الوضع الراهن كما ينبغي له» كنمط فكري متخلف يجعل النقد الاسطوري

«يتصف عاريا كجهاز من اجهزة الرجعية البرجوازية، كما يعتقد (بول وست)[11] فاننا نرى ان ذلك «التجميد» ينبغي له ان يكون من قبيل المحافظة على التوازن في اطار ما اسميناه باشكالية الحضور الغائب (اي الحركة الساكنة) بالنسبة الى الذاكرة الاسطورية. ان انشغال العالم المستمر بالاسطورة خاصة في عصرنا المضطرب الراهن لدليل على اهمية ذلك الدور الوظيفي (التوازني) الذي ينبغي للاسطورة دائما ان تقوم به. ذلك لان «الانشغال بالاسطورة يكشف عن تشوق الى النظام وسط الاندفاعات والتهمسات»[12] وهذا هو بالضبط دور الاسطورة «التكييفي» الذي تؤديه في حركة متصلة ذهابا وايابا بين الواقع والمثال على مر الازمنة وتلون اشكال التعبير عن الذاكرة الاسطورية الحية ابدا. «فاذا تكلم الناس اليوم عن حاجة الشاعر الى اسطورة فمعنى ذلك حاجته الى مشاركة المجتمع»[13]. وسوف تبقى هذه الحاجة قائمة، كما يبدو، ما دامت الاسطورة «تعني العنصر المتمم للحقيقة التاريخية او العلمية» حسب راي كولردج[14] ما دامت ذات طابع اختزالي مرن متصل بجذور التجربة الانسانية، ولا يعدم في اي مرحلة من المراحل ان يجد لنفسه من الوسائل التعبيرية ما يبرز خلاله معبرا عن خصائص تلك المرحلة ومضيفا الى طابعه الاختزالي مزيدا من المرونة والطواعية التي تتناسب مع اي اتساع في حركة الواقع. «فاذا كانت الاسطورة القديمة لا تعني اليوم شيئا في نظر الرجل العادي ولا يحس باستحالة لها، فان الاسطورة عادت اليوم تحيا من جديد حتى اصبح الانسان الحديث يرى ان معرفته متبلورة من هذه الاساطير القديمة»[15] وهذا ما عناه مرسيا الياد من ان «الاسطورة تجعل العالم منفتحا»[16] على الرغم من ان «خصيصة التصور الاسطوري ان يكون محكما وموحدا الى درجة الانغلاق»[17].

ويبقى للذاكرة الاسطورية بعد كل ذلك دور وظيفي اخر «متساكل» مع ما سبق ومتفرع عنه ويصب في نفس الوقت. هو ما تقوم به من وظيفة «اشكالية» بين طرفي ثنائية الواقع المتمثلين في الجغرافيا (كتاريخ ساكن متجمد من جهة) و التاريخ كجغرافيا سائلة متحركة) من جهة مقابلة. ونرجىء الحديث عن هذه الوظيفة الاشكالية الى مكانها من البحث عند الحديث عن «الواقع». كما اننا سنلتقي بوظائف اخرى متعددة للاسطورة في ابعاد ومستويات مختلفة من هذه الدراسة، نرجىء الحديث عن كل منها الى مكانه من سياق البحث.

ويجدر الآن ان نتعرض تطبيقيا لاسطورة دلمون (او البحرين حديثا) وما تقوم به من وظيفة اشكالية بين طرفي ثنائية الواقع والمثال، ممهدين الطريق للحديث عن «الواقع» بعد ذلك.

وحين نستخلص ما ذكرناه من تفاصيل حول طبيعة هذه الوظيفة الاشكالية نجد ان الذاكرة الاسطورية تقوم بثلاث عمليات متلابسة ومتشابكة ضمن تلك الوظيفة نفسها العملية الأولى انها تقوم بدور الطاقة الايجابية (الادراكية والشعورية) الواعية والمنظمة في تزويد الواقع بالحلم او بصورة المثال المختزلة والمخزونة من تجارب الواقع نفسها مما يدفع حركة الواقع خطوة او خطوات الى الامام (ايجابيا) وفق خصائص صورة المثال ذاتها اما العملية الثانية فتتمثل فيما تقوم به هذه الطاقة (سلبيا) من دور مقابل يعتمد على عنصر التلقي والأخذ والقبول من حركة الواقع وقفزاته الأمامية بما يجبر تلك الطاقة السالبة على التكيف والتوافق مع تلك الحركة ويعبر عنها في ابرز دوراتها ومراحلها المكتملة وذلك في صيغة اقرب الى الثبات النسبي والسكون الظاهر هي «صورة المثال» واخيرا فإن العملية الثالثة هي حوصلة العمليتين السابقتين وناتج جمعهما في نسق تأليفي محسوس يضيف الى حاصل الجمع نفسه شيئا جديدا هو «الاسطورة» ذاتها كنص مادي «يتشاكل» فيه كل من الواقع والمثال، بدفع من طاقة «الخيال» الخلاقة

ومن الضروري هنا، ان نذكر قبل كل شيء، باننا حين نتحدث عن هذه الوظيفة الاشكالية ذات الابعاد الثلاثة التي تؤديها الذاكرة الاسطورية، فاننا نضع في اعتبارنا كون الاسطورة، اساسا، تمثلا ذهنيا يعبر عن واقع اجتماعي او جماعي مشترك بالضرورة يؤدي فيه الفرد دور الجزء بالنسبة الى الكل ولكنه الجزء الفعال القادر على تجاوز فرديته دائما كما يقول لوسيان غولدمان[48] وهذه اشكالية اخرى بين الفرد والجماعة تكمن في تركيب الوظيفة الاسطورية نرجىء الحديث عنها، كما قلنا، الى مكانها من سياق البحث. واننا حين نستخدم مصطلح «الواقع» ازاء المثال او غيره من المعطيات والتمثلات، فاننا نعني به دائما هذه الروح الجماعية النابعة من فعالية «الفرد المتجاوز لفرديته» لتحقيق اهداف الجماعة ضمن شروط الزمان والمكان التي تحياها، كما سوف نفصل القول فيه عند تعرضنا لموضوعه «الواقع»

اما الآن فيكفي ان نشير الى الحقيقة الاجتماعية التي تقف من وراء وظيفة الذاكرة الاسطورية بمختلف ادوارها التي ذكرناها، تلك الحقيقة المعتمدة على «تعاون» الفرد مع الجماعة، كشرط ضروري لمواجهة «الواقع» في صورته الطبيعية الأولى (صراع الانسان مع الطبيعة) من اجل تجسيد صورة المثال وتفتيق نواتها المستكنة في الطبيعة البشرية «الاجتماعية التعاونية» حيث «الناس يتشاركون في صنع واحدهم الآخر»[49]، وانتزاع تلك الصورة المتنامية من حركة الواقع عينها، حيث «يتشاكل» (الواقع والمثال) في

علاقة جدلية قادرة على جعل كل منهما يخلق الآخر وينميه ما دامت التجربة الاجتماعية مستمرة وقائمة وما دامت التجربة العملية للناس تتناقض مع وعي الناس المفترض مسبقا وتتطلب تعديله' 'وهو ما يجعل الواقع والمثال في جدل مستمر واشكالية قائمة حية مولدة بلا انقطاع وأكثر من ذلك فإن التاريخ الثقافي وخاصة تاريخ الموضوعات الأدبية والفنية ، وتاريخ

الاساليب والاشكال يبرز جدلية حركية اذا امكن القول ، خاضعة للوظيفة الحيوية نفسها في مجتمع ما ، وخاضعة لاعادة التوازن »

أسطورة ديلمون بين الواقع والمثال "فكرة الخلود"

يذكر فراس السواح في ترجمته وتقديمه للحمة جلجامش ان «ارض دلمون[1] هي جنة الخالدين في الملحمة البابلية يسكن فيها اوتنابشتيم وروجته وملحمة جلجامش لا تعطينا كثيرا من التفاصيل حول هذا المكان . ولكننا نستطيع اخذ فكرة كاملة عنه ، من اسطورة سومرية قديمة تقول الاسطورة «ارض دلمون، مكان طاهر ارض دلمون مكان نظيف ارض دلمون مكان مضيء في ارض دلمون لا تنعق الغربان، ولا تصرخ الشوحة صراخها المعهود حيث الاسد لا يفترس احدا ، ولا الذئب ينقض على الحمل ، ولا الكلب المتوحش على الجدي ، ولا الخنزير البري يلتهم الزرع حيث لا يعرف احد رمد العين ، ولا يعرف احد الام الراس حيث لا يشتكي الرجل من الشيخوخة ، ولا الرجل من العجز» ومن الملحمة نعرف ايضا ان مكان ارض دلمون يقع عند فم الانهار فبعد ان ينتهي الطوفان تأخذ الآلهة اوتنابشتيم فتسكنه حيث فم الأنهار «ما كنت قبل اليوم الا بشرا فانيا

ولكنك وزوجك ، منذ الآن، ستغدوان مثلنا خالدين

وفي القاصي البعيد عند فم الانهار ستعيشان[2]»

وقد اثبت السير هنري رولنسن عام ١٨٦١ ان جزيرة البحرين هي نفسها بلاد دلمون الوارد ذكرها في الكتابات السومرية والبابلية[3] وان اثبتت الكشوفات الاثرية فيما بعد امتداد حضارة دلمون الى ما هو ابعد من جزيرة البحرين ، بحيث يرجح ان تكون قد غطت الساحل العربي من الخليج العربي كله ، إلا انه رغم ذلك ظل لتلك الجزيرة المعزولة في البحر تميزها الملحوظ في اطار الحضارة الدلمونية على جميع المستويات مما سوف نتطرق له في مكانه من البحث ، وخاصة مستوى التعبير عن فكرة

الخلود ، وهذا ما يعنينا الآن ، التي كانت مسيطرة بصورة ملحوظة على تلك الحضارة العريقة واساطيرها ونمط تفكيرها ومختلف طرائق السلوك والعبادة والحياة فيها

ان فكرة الخلود وتحدي سطوة الموت والصراع معه والتحايل عليه هي المحرك الرئيسي كما يبدو لمجريات ملحمة جلجامش السومرية وأحداثها وشخوصها وبعض عناصر تكوينها[٥٤] اضافة الى انها مدار الصراع في الملحمة بين الآلهة من جهة وانصاف الآلهة وعناصر الطبيعة من جهة ثانية [١١] وقصة الفيضان السومرية تصور بلاد دلمون كأرض الفردوس وموطن أهل النعيم ، وتحدد تلك النصوص وتشكل واضح سمات دلمون الفردوسية»[٥٥]

وإذا كانت فكرة الخلود هي حقا محور ملحمة جلجامش وقصة الطوفان السومرية ، وان (دلمون) هي حقا موطن الخلود ذو السمات الفردوسية «حيث تطلع الشمس»[٥٦] ، فان تحقيق ذلك الشروع ، كما يبدو من سياق كل من الملحمة والقصة ، لم يكن بالأمر الهين ، بالنسبة الى غير الآلهة من البشر العاديين ، وحتى انصاف البشر وأنصاف الآلهة مثل جلجامش نفسه «فخلود اوتنابشتيم ، حدث مستثنى لن يتكرر»[٥٧] ووصول جلجامش ، وهو البطل المشهود له في الملحمة بالمعرفة والحكمة (ص ١١) ويتصف بتكوين جسدي خارق ، الى ارض

دلمون لم يكن إلا بعد ان مرّ هو ودليله (ملاح اوتنابشتيم) بمختلف صروب الاختبار والاهوال والعقبات بعد ان «أبحرا معا وقطعا بعد كفاح تترس مياه الموت المانعة لأرض دلمون ، مياه لم يجترها قبل ، سوى الآلهة»[٥٨] ورغم ذلك يعود البطل خائبا من حيث اتى رغم انه أمسك الخلود بيديه وكاد يقبض عليه الى الأبد لولا أن الحية أحد عناصر الطبيعة الحية سرقت منه زهرة الخلود الى نفسها ، اخيراً

وكذلك الأمر بالنسبة للملك (زيوسودرا) في قصة الطوفان ، فإنه لم يتمكن من الوصول الى «جبل العبور ، جبل دلمون ، حيث تطلع الشمس»[٥٩] الا بعد ان «سجد» ذليلا ، خاضعا امام الالهين (ان وإنليل) «فمنحاه حياة كحياة الآلهة ، وجاءا له بانفاس خالدة كانفاس الآلهة»[٦٠] حتى اوتنابشتيم نفسه لم يصل الى ارض الخلود إلا بعد أن سلم من الطوفان الذي اعد له عدته عملا باوامر الآلهة ، إذ «صدع الرجل بما امر ، بنى سفينة عظيمة ، زودها بالمؤن وكل ما يلزم ، حتى إذا جم القضاء ، حمل فيها كما اوحى له من كل زوجين اثنين ، فجرت بهم في موج كالجبال ستة ايام وسبع ليال في اليوم السابع ، فتح النافذة ونظر الى المياه كان الهدوء شاملا ، وقد عاد البشر الى الطين الذي منه قد خلقوا ، سرّ الآلهة باستمرار الحياة ، ندموا على ما قدمت ايديهم ، انعموا على اوتنابشتيم بالحياة الخالدة مع زوجه ، في أرض دلمون ، جنة الخلود[٦١]

ان ما يعنينا من كل ذلك هو تارجح فكرة الخلود كحاجة نفسية وفكرية في الذاكرة الاسطورية إبان معاصرة الانسان الاولى تلك بين حركة الواقع ومعطياته (وان كانت عناصر الطبيعة تلعب الدور الأكبر في تلك المعطيات حينها) وبين تشكل صورة المثال متفتقة من نواتها الاولى المخزونة في طبيعة الانسان البيولوجية والفسيولوجية ونعني بها تجربة «الموت» اذ ان اشكالية الموت والحياة هي المكون الحقي الاول كما بدء الذي نفتح عليه وعبره وعي الانسان ووجدانه منذ فجر الخليقة كما سبق وان تفتحت عليه بنيته الجسدية (من هدم وبناء مستمر في الخلايا) والعصبية المتصلة بالمخ ، حيث غدا معروفا بخصوص علم الحياة كما يرى جاكوب مثلا «ان العضوية ليست قط الا تحولا ، اي مرحلة بين ما كان وبين ما سوف يكون[12] واعادة الانتاج بيولوجيا هي ، بمعنى ما عملية «اكتمال» Complimentation مثلها مثل التجدد إذ انها انتاج ما لا يوجد او ما قد هدم[13]

ان فكرة الخلود اذن هي انصع تمثل ذهني حضاري لمضمون الاشكالية الثنائية ـ الجذر التي عاشها الانسان وخبرها وعاناها وادركها وانفعل بها وحاول ان لا يقف ازاءها منفعلا بل يتحول الى فاعل وقد كان هذا هو موقف الانسان منذ مرحلة الصيد عند انسان الكهوف البدائي في صراعه مع الطبيعة من اجل البقاء وذلك برسم طرائده من الحيوانات على جدران الكهوف المظلمة وهي في حالة استسلام وخضوع لقوته متمثلا بذلك اصطيادها فنيا وذهنيا ونفسيا اي رسم صورة اولية للمثال الذي يجب ان يكون عليها الواقع وهو بذلك يمهد له بالفعل قبل اصطيادها على ارض الواقع

ان فكرة الخلود وان كانت اكثر نضجا واكتمالا وتحضرا في تمثلها الذهني المستمد من واقع ، والمودية الى واقع اكثر تطورا وتعقيدا الا انها تشكل امتدادا لطبيعة تجربة الانسان الاجتماعية في صراعه مع الواقع الطبيعي وما وراء الطبيعي

إن ما جعل بطل اوروك (جلجامش) يفكر في الخلود ويحلم به ويسعى بكل قوته للبحث عنه ، هو موت صديقه ونده (انكيدو) الذي كان عدوه قبل ان يتحضر (كان وحشياً)

إن «جلجامس وحيدا ومتفردا يبحث عن الخلود ـ راى جثث الموتى طافية في النهر ، فشعر انه لا يستطيع تقبل هذا المصير التافه»[6] إذن ، فلقد حفزت واقعة الموت الانسان على ان يتحداها ، وان كان يعرف بان الموت شرط طبيعي ، ويفكر في نقيضها الحياة وهنا تتولد اشكالية ثنائية طرفاها الموت والحياة يحاول الانسان تخطيها ايضا حين يحلم بالخلود وما جعلنا نهتم بفكرة الخلود بالذات ليس كونها محور

الملحمة الاسطورية الخاصة بتلك المنطقة التي تكون البحرين (او دلمون) جزءا منها فحسب ، بل لأن (دلمون) هي موطن ذلك الخلود ، اي المكان الذي تتجسد فيه الفكرة والمثال ويتحقق الحلم . وكانما هو الهدف والرؤيا اللذان تسعى الملحمة في اندفاعها الدرامي المتوتر الى تحقيقهما بحيث تكون (دلمون) تعبيرا ماديا محسوسا للمكان الذي ينهض فيه المثال واقعا وينتصب الحلم حقيقة وهناك فقط تنتصر الحياة على الموت وتنتفي الثنائية واشكالية طرفيها ، حيث يسود المطلق ، الثابت أبدا ، ويتطابق النقيضان الموت والحياة . فلا تشاكل بينهما ولا إشكال ، بل اتحاد مطلق في دائرة واحدة مفرغة اسمها الخلود وهذه الدائرة وان بدت تمثلا ذهنيا محضا ، اي تصورا ومثالا ، غير انها تحولت الى «واقع» مادي ملموس تشهدته أرض دلمون «النقية الطهور ، الأرض العذراء ، ارض الصفاء والحبور ، الأرض المتشعشعة نورا» كما تصفها الاسطورة[٦٥] ، وذلك بسبب ايمان الناس العميق وقتها ايمانا عملياً راسخا بصورة ذلك المثال المتمثلة في فكرة الخلود

ويمكن ان نستخلص عددا من الوقائع والمؤشرات الملموسة كدليل واضح على حقيقة ذلك الايمان وصورته التطبيقية على ارض دلمون - البحرين المعاصرة . كمكان لتجسيد المثال ويمكن ان نقسم تلك الأدلة الى وقائع مادية ، والى مؤشرات نصية ، ويكفي ان نقدم مثالاً واحداً على كل قسم

إن أوضح دليل مادي يبرر تجسيد فكرة الخلود على أرض دلمون هو مئات الألوف من القبور التي اكتشفت في السنوات الأخيرة في جزيرة البحرين والتي تمثل اكبر مقبرة عرفها التاريخ ، تنتشر على معظم ارض الجزيرة ويدفن فيها من الموتى ما «قد يبلغ عددهم اربعمائة وخمسين الفا»[٦٦] وتشير ضخامة العدد قياسا الى المساحة المحدودة التي دفن الاموات فيها الى حقيقة يؤكدها علماء الآثار انفسهم الذين عملوا في التنقيب عن تلك القبور ، وهي «ان هذه القبور تمثل الموتى من اهل المنطقة المقيمين وأيضا مجموعات من المهاجرين»[٦٧] وهذا يعني ان تجسيد فكرة الخلود تجسيدا واقعيا قد جعل من (دلمون) منذ ذلك التاريخ المبكر موقعا استقطابيا . كما ذكرنا ، على الصعيد الميثولوجي الاسطوري وعلى الصعيد الديني العبادي الذي يدل عليه اكتشاف ثلاثة معابد فوق بعضها البعض تمثل ثلاث مراحل تاريخية من العبادة[٦٨] وبالفعل لا يمكن ان يكتمل تجسيد فكرة الخلود عملياً الا حين ترتبط تلك المدافن والموتى بعقيدة وعبادات وطقوس يمارسها الناس قبل موتهم ويشيدون لها المعابد ويتصل بها الأحياء ويحافظون عليها وهذا ما يستدل بالفعل من طريقة تشييد المعابد من

ناحية وطرق دفن الموتى وبناء القبور هندسيا. إذ يشير كل ذلك الى تطور مفهوم تجسيد فكرة الخلود بعد ان تجاوزت عملية الدفن مرحلتها البدائية التي يتم فيها دفن الميت كاملا الى مرحلة رمزية يتم فيها دفن جزء من جسد الميت او بعض اعضائه اضافة الى شكل القبر الهندسي وما يصاحب الميت من حاجاته.

لذلك يتساءل كارلوفسكي «ان كانت القبور التي تعلوها العلامات الحجرية وحالات الدفن الجزئية التي تميز المنطقة العربية، تمثل المرحلة الأولى من عملية الدفن (وهي غالبا من تقاليد البادية) التي تسبق المرحلة النهائية حين يعاد وضع الموتى في القبور الهضبية بالحجرين.

كما انه يلاحظ بصورة متكررة منذ الحفريات الاولى وحتى احدثها، ان كثيرا من حالات الدفن كانت جزئية وهذا يوحي بوضوح ان عمليات الدفن هذه كانت ذات طبيعة ثانوية. اي انه بعد مرحلة الدفن الاولى في اماكن اخرى كانت تدفن بقايا جزئية من الميت، في فترة لاحقة، في هذه المقابر الهضبية.

اما الشكل المعماري لتلك المعابد والقبور فهو مما يلفت الانتباه حقا، لما فيه من تكوينات ذات علاقات رمزية (تشكيليا) تتصل بتجسيد فكرة الخلود، كما نعتقد من الناحية الفنية، فاكثر انواع تلك القبور شيوعا، يتكون من غرفة مستطيلة مبنية من حجارة خام ومحاطة بجدار حجري دائري». ان هذه العلاقة التشكيليــة بين الخط المستقيم (الداخلي) ويمثله القبر المستطيل المرسوم على شكل هيئة الانسان وقامة جسده. وبين الدائرة المحيطة بذلك الخط المستقيم والتي ترمز غالبا، الى المطلق والكوني، او الشكل المكتمل التام الذي يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء. وهو عينه فكرة الخلود. كما نفهمها على ضوء بعض ابسط المعطيات التشكيلية في فن المعمار العربي القديم[64]، وحسب شهادات بعض الفنانين التشكيليين العرب المعاصرين[1] حول علاقة الخط المستقيم بالخط المنحني من ناحية الدلالة التشكيلية.

ان فكرة الخلود. اذن. كهاجس ارتكـاسي لغريـزة الموت ومحـاولة الانسان الهروب من الاحساس به مما ينغص عليه متعة الحياة. قد وجدت لنفسها تجسيدا قويا على الصعيد العملي المادي فوق أرض دلمون التي كانت عبر الاف السنين عبارة عن «مقر المنعم عليهم، كما يصفها كرامر، يعيشون فيها احياء ثم يدفنون فيها خالدين مخلدين. بعد ان أرضوا الآلهة واقاموا لها الطقوس وشيدوا المعابد. وبذلك عاشت فكرة الخلود على أرض الواقع الذي كرس بدوره وجودها في النفوس وصنع من صورتها الذهنية الواقعية «مثالا» لا يموت، بل يعيش مخلدا. شأنه شأن مضمونه، قادرا في إشكاليته المنطة بين الموت والحياة على توليد ما لا نهاية له من

الثنائيات والاشكاليات ، موسعا بذلك من افقه الاسطوري الخالد ومعمقاً من وظيفة «المثال» وتاثيرها على «الواقع» والعكس بالعكس

اما الدليل الأدبي الذي يشير الى تجسيد فكرة الخلود عملياً على ارض دلمون ، فهو احداث ملحمة جلجامش نفسها التي يرى اكثر الدارسين لها بانها تسجيل ، وان لعب الخيال فيه شوطاً بعيدا ، لعدد من الأحداث التاريخية والأعمال التي قام بها بعض الملوك والأبطال ممن اسبغ الخيال عليهم فيما بعد صفة الألوهية او غيرها من الاوصاف الدينية او الخيالية إذ «جاء في الاسطورة ان زيوسودرا ، المذكور في الاسطورة السومرية والذي يمثل «نوح» في الانجيل ، قد انقذته الآلهة من الفيضان الذي ارسلته عقابا لبني الانسان وامام الالهين «ان» و«انليل» منح «زيوسودرا» حياة الخلود والاقامة في دلمون»[71] اذن فإن زيوسودرا هذا او اوتنابشتيم وروحته هما شخصيتان حقيقيتان امنتا بفكرة الخلود وعاشتا تجسيدها العملي في ارض الخلود (دلمون) بعد ان انقذتهما الالهة من الطوفان

وشخصية جلجامش بطل الملحمة نفسه شخصية حقيقية ، «كما ورد اسمه في ثبت ملوك سومر كاحد ملوك الاسرة الاولى لمدينة اوروك مما يدل على انه ، في الاصل شخصية تاريخية وجدت وحكمت ردحا من الزمن ، ثم علقت عليها فيما بعد ، حكايات واخبار مختلفة.»[72] وهذا يرجح ان وصول ملك اوروك الى ارض الخلود (دلمون) طلباً للخلود امر اقرب الى الواقع ، وان عاد البطل خائباً لم ينل بغيته رغم ما عاناه من اجل ذلك

وربما لم يفشل ، كما يعتقد مترجم ومقدم الملحمة ، لأنه استطاع «ان يسرق لنا سر الحياة ولغز الموت» واكبر دليل على عدم فشله كما يرى المترجم هو انه «لا يزال بين ظهر انينا ، يلبس بكل اللغات الحية التي ترجمت لها ملحمته»[73]

وهذا يعني ان الخلود الواقعي الذي كان متجسداً في قصة اوتنابشتيم الخالد حد جلجامش «الأكبر» قد تحول بدوره الى «مثال» سيطر على حياة الحفيد البطل فعاش له ويدفع منه بعد ان تمثله تمثلاً ذهنيا تحول البطل نفسه بواسطة ذلك التمثل وما رافق حياة البطل من احداث من اجل تحويل صورته الذهنية الى واقع ، الى واقع حقيقي صيغ صياغة فنية ليعيش عمليا ، «بين ظهرانينا» فكرة الخلود التي سيطرت على صاحبها وربما كان جلجامش نفسه ببطولاته تلك لم يكن يسعى لأكثر مما حصل له بالفعل ، اذ حقق لنفسه الخلود . ولكن هذه المرة بيديه هو وجهده وحريته ، لا خضوعا لأوامر الآلهة ورضا بنعمتها عليه لقد تمكن جلجامش الذي كان ثلثاه إلهاً وثلثه بشرا ان يغتصب «الخلود» من الالهة بفعل انساني محض هو صراع الآلهة انفسهم والحد من سطوة الغيب عليه وبذلك ينحاز الى ثلثه البشري

ويبتصر له لتمتد به الحياة الخالدة على حساب التلثين الالهيين المحسريين

وإن «انتقال قصة جلجامش من مرحلة الاسطورة الى مرحلة الملحمة عن طريق الوعي الشعبي قد نجم عن رغبة الشعب في التعبير عن تمثله وطريقة ادراكه للواقع الذي يتجاوز حدود معرفته»(٧٠)

وهكذا نرى كيف ان فكرة الخلود ظلت تتذبذب في حركتها الانتقالية جيئة وذهابا بين طرفي ثنائية المثال والواقع، راسمة بهذه الحركة التوترية المتأرجحة صياغة فنية (نصية) - «هي اطول واجمل نص شعري، وجد في بلاد الرافدين وتعد من روائع الادب الانساني عبر العصور»(٧٤)

غير ان فكرة الخلود في اشكاليتها الثنائية تلك لم تكتف بصياغة نص فني هو الملحمة الجلجاميشية التي برزت فيها (دلمون) كواسطة العقد كما يقال، والتي لولا هذه الملحمة لكان ذكر (ارض الخلود) قد ضاع الى الأبد كما ان هذه الملحمة الانسانية العظيمة ما كان يمكن ان تكون لولا تلك الأرض التي كانت الملحمة تتوجه نحوها، كمكان وربما اكثر من مكان، لتجد فوقها «الخلود» مجسدا

إن الارتباط الجدلي القائم بين ملحمة الخلود وارض الخلود تعكس في تشابكها الجدلي الصميم الذي لا يمكن فصمه، تلك العلاقة، التي تحدثنا عنها والتي نحن ما زلنا بصددها، بين الواقع والمثال خاصة وان «المكان» في مفهوم ذلك الوقت كان الشرط الأساسي في تحقيق صورة المثال وتحويلها الى واقع. وإن كان جلجامش قد استطاع ان يحرر المثال من قيد «المكان» ويدخله في دائرة «الزمان» التي شملت «المكان» بدورها وخلدته، كما كشف هو عنه (المكان كشف الزمان) وملأه بعناصر الخلود ومضمونه (عندما هيأ له شخصية مثل جلجامش تحلم بالخلود متحققا في ارض الخلود وعندما لم يتحقق له مكانيا حققه زمانيا)

لقد قلنا بان فكرة الخلود لم تكتف بتجسيد مثالها الذهني - واقعي في صياغة فنية تحمل خصائصها الاشكالية الاسطورية هي الملحمة، بل تعدت تلك الصياغة الفنية الى صياغة واقع التحرير نفسه على الصعيد المادي المتصل بشتى مناحي الحياة من دينية واقتصادية وسياسية وجغرافية وديمغرافية الخ لذلك اعتقد كارلوفسكي «ان الامر لم يقتصر على نقل البشر المخلدين الى دلمون ليحصلوا على انفاس الخلود، بل تعداه الى مجيء قطاعات مميزة من مجموع السكان في بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية الى دلمون ارض الفردوس ليدفنوا هناك بقصد الدخول الى الحياة الخالدة في الجنة تحت الأرض والتفسير الوحيد لوجود المائة وخمسين الفا من القبور الهضبية في دلمون هو وجود عقيدة خاصة بدفن الموتى في منطقة مقدسة»(٧٦)

الم تكن تلك العقيدة هي التي حركت حلحامش ليبحث عن الحلود «مكانيا» ولما لم يستطع الحصول عليه ، حققه بصورة أحرى حديدة (رمانيا) هي اكثر اصالة وديمومة ولكنها ابنة الصورة الأولى المكانية ؛ لقد كانت علاقة اشكالية متديدبة ، كما قلنا ، بين طرفي ثنائية الواقع والمثال ، لم تتوقف او تتجمد متحولة الى واقع فني محسوس ، اي الى حركة من نوع حديد مسيطر عليها في حير من السكون والثبات التشكلي - الفني ، إلا حيمما تحولت تلك الحركة المتديدبة الى صياغة فنية متجسدة هي الملحمة وهدا ما يحعل هده الملحمة كعمل فني تتفتق عن افق حديد معاير من الاشكاليات وثنائياتها المتشاكلة ، وان كانت تعكس في حدورها اصول تلك الحركة الاشكالية المتدبدبة نفسها ، ولكن بصورة متطورة ، بحيث يمثل العمل الفني «حلودا» اي يحقق فكرة الحلود ويجسدها ، ولكن على مستوى مختلف تماما كما فعل حلحامش في الانتقال من المكانية الى الرمانية وعلى هدا الاساس فمحاولة حلحامش الحصول على الحلود لم تكن تمردا على وضع اساسي قائم كما هو الحال في كثير من الملاحم الاغريقية ، ولكنها محاولة لاثبات هدا الوضع الاساسي القائم من خلال التجربة العملية المتمثلة في السعي تجاه الحصول على الحلود رغم العلم المسبق باستحالة دلك»[٧٧]

وهدا من شانه ان يعطي لمفهوم الحلود المثالي مدلولاً واقعاً متحققاً وهو «البحث عن وسيلة أخرى يحصل بها الانسان على الحلود والدي يعني حلود الدكر لا حلود الجسد»[٧٨]

إن واقع البحرين ، او دلمون ، مدين ، كما هو واضح ، الى فكرة الحلود في مختلف مراحل تطوره القديمة ، والتي دون شك شكلت قاعدة ثابتة تقف عليها مراحل تطور البحرين الحديثة ، بصورة أو بأخرى

إن الفكرة حلقت من حولها واقعاً يتسم بالشفافية أول الامر ، ثم يزداد صلابة وكثافة وواقعية ، إنه ينمو من حير المثال او التمثل الدهني الدي يعبر عن حركة الروح وهواجسها وتدبدبها بين طرفي ثنائية الحياة / الموت ، الى حير الطقس الديني وعبادة الآلهة وتشييد المعابد وبناء المقابر واعطاء الروح جسدا والمثال تجسدا وكلما تجسد المثال ازدادت صورته في الدهن توهجا مما يدفعه الى المزيد من التجسيد الواقعي ، ورسخت قوته في الروح مما يزيد من رسوخه على أرض الواقع

لدلك تزدحم ارض الحلود ومقره (دلمون) «بالمنعم عليهم» ، فتضيق المساحة الصغيرة المحدودة بالانفجار السكاني الهائل «مجيء قطاعات مميزة من مجموع السكان في بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية الى دلمون أرض الفردوس»

كما تصبح ارض الحلود كعبة الحالمين بالحلود تهفو اليها قلوبهم

وارواحهم قبل ان تحتسد حولها وتطوف وتدفن في تربتها احسادهم ، فكان ان عدت بذلك قبلة الحجاج ومحط رحالهم . فانتعشت فيها الحياة ونمت التجارة واعتنى الاهلون بها وفرضت الدولة نظاما لادارة حركة الحجيج وتصريف شؤونهم وضبط معاملاتهم وقامت صناعات مزدهرة لبناء المقابر والمعابد وازدادت العناية بفلاحة الارض وبمحاصيلها والتجارة فيها إضافة الى ان دلمون كما يستفاد من المراجع المسمارية كالكتابات والرسائل التجارية القديمة «كانت موقعا جغرافيا مميزا مشاركا في التجارة العالمية»(٩) وهكذا تتحول صورة المثال السماوية الى واقع مادي غليظ تحكمه قوانين التجارة والاقتصاد والتنظيم الاداري والسياسي ، بعد ان تحولت قبل ذلك الى واقع ديني له مؤسساته وكهنته وقوانينه يقول كارلوفسكي «ومن العجب ان لا تكون رحلات الحج طلبا للخلود هي التي جعلت السهرة العظيمة لدلمون لتصبح مركزا تجاريا فاعيان دلمون الذين كانوا يتولون مسؤولية تنظيم وتسييد القبور الهضبية وتقديم الخدمات للحجاج القادمين لدفن موتاهم ، كانوا يحصلون على فوائد كبيرة في المعاملات الخارجية والتجارة» ويضيف «هذا الراي يزودنا بمعرفة اولية عن الاعراف الاجتماعية والمفاهيم التي وضعت الاساس للدور المميز الذي كانت تلعبه دلمون في مجال التجارة ان وضع دلمون كمركز ديني لتجمع الحجاج ولدفن الموتى كان الاساس في نشأتها كمركز للتجارة.»(١٠)

ومن هذا الواقع المادي الغليظ انبثق شعور بالانتماء للانسانية الواسعة ورغبة جامحة في التواصل الحميم معها وهو ما غدى صورة المثال بملامح جديدة راهنية عن كونية فكرة الخلود وتعميم الدعوة فيها تمثلت في تلك الدعوة الانسانية المنفتحة على العالم باسره التي اطلقها الشاعر الدلموني القديم فلتصبح دلمون ميناء للعالم كله»

وهكذا ظلت «فكرة الخلود» منذ ما قبل التاريخ وربما حتى اليوم طاقة روحية وذهنية تتذبذب في حركة من الوعي المتنامي جيئة وذهابا بين طرفي الواقع والمثال ترفد الواحد بخصائص الاخر وتنتزع لنفسها من حاصل جمع الطرفين صياغة جمالية فنية (خيالية محسوسة) تتجاوز حاصل الجمع نفسه ، وذلك باختزان امكانية تطويره وطاقة تفتيقه في توالدات ثانية اشكالية لا تتوقف تغنيها وتغتني بها وكانما هي بذلك تحقق فكرة الخلود من خلال تلك الحركة الجدلية المتماسكة بين الواقع والمثال وصياغتهما الفنية

وقبل ان نغادر هذه الوقفة حول اسطورة ارض الخلود (دلمون) ، وتاثيرها في صياغة كل من الواقع والمثال والفن ، نجد انفسنا مضطرين الى طرح سؤال جوهري ذي شقين ، الاول ذو بعد زماني يتصل بمدى

استمرارية فكرة الخلود كطاقة روحية وذهنية في رفد واقع الانسان في البحرين . ومدى مساهمة هذا الواقع في صياغتها فنيا وفكريا

اما الشق الثاني من السؤال فذو بعد مكاني يتصل بسبب الارتباط بين فكرة الخلود ودلمون ـ البحرين كارض لتحقيق تلك الفكرة ولماذا كان على (دلمون) بالذات ان تضطلع بذلك الدور الحضاري في المنطقة (الخليج والجزيرة العربية وبلاد الرافدين) لمدة تزيد على الألف عام ؟

واضح ان الشقين مرتبطان ، لأن الاجابة على أي منهما تعني سهولة طريق الاجابة على الشق الآخر وهو ما سيؤدي بالدراسة ضرورة الى البحث في تركيبة «الواقع» الذي يشكل الطرف الآخر المقابل في الثنائية الاشكالية ـ الام (الواقع / المثال) فامام تركيبة الواقع بوجهيه الجغرافي والتاريخي يمكن فقط معرفة نشاط الذاكرة الاسطورية الحفي والمتحول الى وجوه كثيرة من الانشطة الرمزية والسلوكية واللغوية المعاصرة (عبر تطور الواقع تاريخيا) ، كما يمكن في الوقت نفسه معرفة ثوابت الواقع النسبية التي تتميز بها البيئة الجغرافية لجزيرة البحرين (دلمون قديما) في المنطقة ، مما ادى بدوره الى تمايز في منتجات هذه البيئة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، كما سنبين ومما ينبغي التذكير به ، ونحن نشرع في دراسة تركيبة الواقع ، ان الذاكرة الاسطورية لن تبارح درسنا للواقع ، بقدر ما سوف تبدو في عدد كبير من مظاهره وبناه وعناصره ، متخفية كما قلنا ، في اشكال الواقع نفسه الذي هو وجه من وجوه تحقق الطاقة الاسطورية ، كما بينا ، المشتقة من صورة المثال والذي كان محوره (فكرة الخلود)

الدكتور علي الهاشمي
جامعة البحرين

الهوامش :

١) التحدد الاجتماعي (المنظومات الحيه ـ ثبات ـ وتغير) انظر (المدخل) ص ٢٠ القسم الاول ترجمه ناجي الدراوشة وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٢ ـ مترجم عن الفرنسية

٢) انظر ص٤٥٠ من الفصل العاشر (المستقبليه وعلم الاجتماع الاستباقي) بقلم بيير بيغابيول المنشور في كتاب (المجتمع الحديث في ابعاده الاساسية) ج ٢ لمجموعة من المؤلفين ترجمه وجيه اسعد وزارة الثقافة ـ مترجم عن الفرنسيه ـ دمشق ١٩٨٣ ط

٣) انظر (في البنيوية التركيبية) دراسه في منهج لوسيان غولدمان للدكتور جمال شحيد دار ابن رشد بيروت ١٩٨٢ الطبعه الاولى

٤) انظر (الالسنيه) للدكتور ميشال زكريا (ص ٢٢٥) بيروت ١٩٨٠

٥) انظر فصل (الفكر واللغه) في كتاب (لعبه المعنى) لعلي حرب ط ١ المركز الثقافي العربي ٢ بيروت ١٩٩١ ص ١١٦

٦) يعتبر مفهوم الانعكاس الذي ظهر الى الوجود كمصطلح مارسه النقاد على النصوص الادبيه منذ اكثر من مائتي سنة من اهم المصطلحات التي حاولت بعث دم جديد في مفهوم الانعكاس كما يرى الاستاذ حسين حرين
انظر مقالته الموسومه (الاقاويل الشعرية والمرآة من المحاكاة الى التخييل) المنشوره في مجله (الحياة الثقافيه) التونسيه عدد ٤٤ اكتوبر ١٩٨٧م

٧) لعبه المعنى (علي حرب) ص ١٠٨
ويذكر المؤلف في فصل (المادة والتفكير)ما يدعم المنطلقات المثالية لجميع الفلسفات كمقوله من هذا الطابع المثالي لكل الفلسفات ايا كانت تسمياتها المثالي بالمعنى الاصلي للكلمه اي بالمعنى الذي استعمله افلاطون وذلك حيث المثل هي عالم الماهيات الثابتة والحقائق المجردة والذوات المتعالية والكليات المطلقه والنماذج الكاملة ص ١٠٩

٨) فن الشعر هيغل ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت ط ١ ١٩٨١ ج ١ ص ٣

٩) تجديد الفكر العربي د زكي نجيب محمود ص ٢٧٢ دار الشروق بيروت ط ٧ ١٩٨٢

١٠) المصدر السابق نفسه ص ٢٧٣

١١) نفسه ص ٢٧٤ وفي هذا الاطار يرسم غيورغي غاتشف صورا فاصلة بين العقليتين الشرقية والعربية ويلاحظ في الادب العربي والفارسي الذي يعتبر بمثابة ادب انتقالي من الحقبة الشرقية الى الحقبة العربية ان هذا التناقض يتجلى في التضاد المطلق بين الشعر حيث يسيطر مبدأ المجاز البالغ حد الارهاف وبين النثر الذي ليس له اهمية فنية انظر (الوعي والفن) ترجمة د نوفل نيوف عالم المعرفة الكويت ط ١ ص ٢٤٦ (١٩٩٠) ص ١٠١

١٢) نفسه ص (٢٧٥)

١٣) نفسه ص (٢٨٠)

١٤) نفسه انظر ص ٢٨٣

١٥) نفسه ص ٢٨٧

١٦) مشكلة الانسان د زكريا ابراهيم ص ١٦٨ مكتبة مصر ط ١ تاريخ ١

١٧) نفس المصدر ص ١٦٩

١٨) نفسه

١٩)جماليات الفنون الاسلامية غازي مكداشي مجلة (الفكر العربي) معهد الانماء العربي بيروت عدد ٦٧ يناير/ مارس ١٩٩٢

٢٠) الوهم والواقع ص ١٩٥ وانظر كذلك فصل (المادة والفكر) وفصل (المادي والمثالي) في كتاب (لعبة المعنى) لعلي حرب

٢١) انتصارات التحليل النفسي بيير داكو ترجمة وجيه أسعد ص ١٦ ـ المقدمة بقلم جامون وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٣ ط ١

٢٢) المصدر نفسه ـ المقدمة ص ١٦

٢٣) الوهم والواقع ص ١٨٨

٢٤) مقالة (ارمة الروح) لادكارفور ترجمة د حكمت هاشم مجلة (الثقافة العالمية) مجلس الثقافة بالكويت عدد ٧ نوفمبر ١٩٨٢

٢٥) المصدر نفسه

٢٦) كل الاشارات السابقة من المصدر السابق نفسه

٢٧) المشكلة الخلقية د زكريا ابراهيم انظر الفصل الرابع ص ٩٩ مكتبة مصر ط ٢ ١٩٧٥

٢٨) نفس المصدر ص ١٠٩

٢٩) المصدر نفسه ص ١٠٣

٣٠) انظر (الوهم والواقع)

٣١) انتصارات التحليل النفسي المقدمة ص ١٨

٣٢) المصدر نفسه ـ المقدمة

٣٣) هندسة المعنى في السرد الاسطوري الملحمي (جلجامش) للدكتور قاسم المقداد دار السؤال دمشق ط ١ ١٩٨٤ ص ٤

٣٤) نفسه ص ٥٢

٣٥) يرى ل ل راتفين انه قد يمكن اضعاف الاسطورة ولكن يصعب خنق

انفاسها بالكفر بها وذلك لان الاسطورة الناجحة هي تلك التي تحث الناس على ابتداع اسباب اخرى واشياء للايمان بها بعد ان لا تعود الأسباب السابقة صالحة للدفاع عنها ص ١٠١ انظر كتاب (الاسطورة) ترجمة جعفر صادق الخليلي منشورات عويدات بيروت ١٩٨١ ط ١

٣٦) انظر مثلا كتاب (المجتمع الحديث) تاليف مجموعة من المؤلفين ترجمه وهبه اسعد حرء ان وزارة الثقافه دمشق ١٩٨٣ بالتحديد انظر الفصلين عدد ١٢ وعدد ١٣ في ج ٢

٣٧) انظر مقاله (الهه دلمون) مجله (الوثيقه) البحرين

٣٨) في هذه الملحمه نظرا الى دلمون على انها ارض الخلود انظر (ملحمه جلجامش) فراس السواح

٣٩) لعبه المعنى (فصول في نقد الانسان) على حرب ص ١٣٣

٤٠) انظر كتاب (الاسطوره) لراثفين ص ١٣٥

٤١) نفس المصدر ص ١٣٦

٤٢) نفسه ص ١٣٦

٤٣) فن الشعر د احسان عباس ص ١٥٧ دار الثقافة بيروت ط٢ ١٩٥٩

٤٤) نفس المصدر

٤٥) نفسه ص ١٥٨

٤٦) انظر الفصل الثامن من كتاب مرسيا الياد (مظاهر الاسطوره) ترجمه نهاد خياطه دار كنعان ط ١ دمشق ١٩٩١

٤٧) لعبه المعنى على حرب ص ١٢١

٤٨) انظر (في البنيويه التركيبيه) د جمال شحيد منشور فيه فصل مترجم عن كتاب غولدمان) العلوم الانسانيه والفلسفه) دار ابن رشد ط ١ ١٩٨٢ بيروت ص ١٣٠

٤٩) الوهم والواقع ص ١٩٦

٥) نفس المصدر

٥١) الخيال الرمزي جيلبير دوران ترجمه علي المصري ط ١ الموسسه الجامعيه بيروت ١٩٩١ ص١١٩

٥٢) ملحمه جلجامش ص ٢٣ - المقدمه دار الكلمه للنشر بيروت ط ٢ ١٩٨٣

٥٣) دلمون مدخل الخلود كارلوفسكي ترجمة كامل اللحام مجلة (الثقافة العالميه) الكويت مارس ١٩٩٢ عدد ٩

٥٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الفكرة يمكن مراجعة الفصلين الخاصين بـ فكرة الصراع في الأدب السومري ضمن كتاب بديعه امين الموسوم (في المعنى والرويا) سلسله دراسات دار الرشيد للنشر وزارة الثقافة والاعلام الجمهوريه العراقيه ١٩٧٩ م كما يمكن مراجعة كتاب الدكتور قاسم المقداد (هندسه المعنى في السرد الاسطوري الملحمي جلجامش) المشار اليه سابقا خاصه الفصل الثاني (علاقات الشخوص)

٥٥) دلمون مدخل الخلود كارلوفسكي
٥٦) مقطع من الاسطورة الدلمونية نفس المصدر السابق
٥٧) ملحمة جلجامش فراس السواح ، المقدمة ص ١٤
٥٨) نفس المصدر ص ١٣
٥٩) نص الاسطورة عن مقالة (دلمون مدخل الى الخلود)
٦٠) نفس المصدر
٦١) ملحمة جلجامش ص ٧
٦٢) التجدد الاجتماعي ايف باريل ترجمة ناجي الدراوشة ج ١ ص ٦٢ وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٢
٦٣) نفسه ص ٤٢
٦٤) في المعنى والرؤيا بديعة امين ص ١٧٣
٦٥) انظر (البحرين عبر التاريخ) الشيخ عبدالله بن خالد ال خليفة وعبدالملك الحمر وزارة الاعلام البحرين ١٩٨٣
٦٦) دلمون مدخل الى الخلود
٦٧) نفسه ـ الهامش يلخص فيه اراء عدد من المنقبين عن اثار تلك القبور
٦٨) تسمى معابد باربار انظر (الوثيقة)
٦٩) انظر من ذلك مثلا قول النظام عن الحرف العربي (وهو دائما مكون من خطين مستقيم ومنحني) نابه ، اصل الروح
٧٠) يلخص فنان عربي تجربته التشكيلية منذ بدايتها حين عثر عينيه في الطبيعة في الأرض البكر وما يدب عليها فوجد ان سفر التكوين يتالف اساسا من خطين المستقيم والمنحني (القوس والسهم) وان جمالية التكوين تقوم في التوازن والتناسق ـ بل ايضا والتنافر المتوازن ـ بين المنحني والمستقيم في الحركة عالم بسيط اجل لكنه عميق انظر مجلة الاقلام العراقيه العدد الخاص بالأدب في البحرين (رسالة بيروت حوار مع الحرف العربي) ـ رسائل وتقارير
٧١) دلمون مدخل الى الخلود
٧٢) ملحمه جلجامش فراس السواح ص ١٦ ـ المقدمة
٧٣) نفسه ـ المقدمه ص ٨
٧٤) هندسة المعنى قاسم المقداد ص ٤٨
٧٥) نفسه ـ لماذا هذه الترجمة
٧٦) دلمون مدخل الى الخلود
٧٧) الاسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم (دراسه في ملحمة جلجامش) للدكتور محمد خليفة حسن احمد دار الشئون الثقافية العامة ط ١ العراق ١٩٨٨ ص ١٥٥
٧٨) نفسه ص ١٥٦
٧٩) دلمون مدخل الى الخلود
٨٠) نفسه

مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي

اعداد الدكتور علي اباحسين

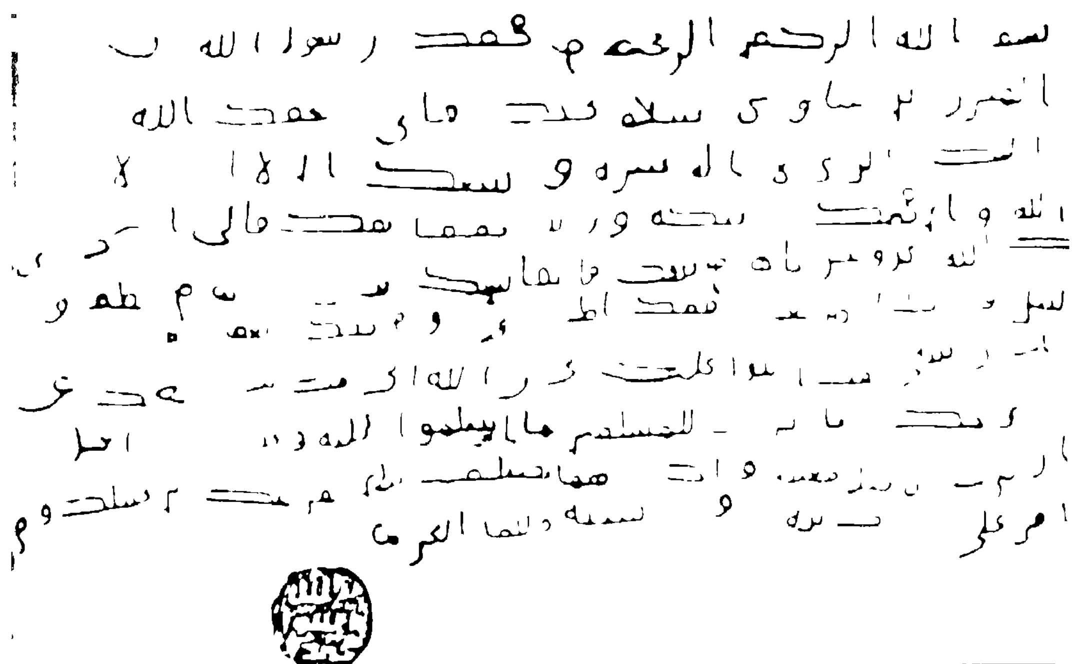
لا بد من تحديد (مدلول البحرين عبر التاريخ الاسلامي) و (المصادر التي يستقي الباحث منها تاريخ هذه الفترة) وعلى ضوء ذلك يستنتج (مكانة البحرين في التاريخ الاسلامي)

فاما تحديد مدلول (البحرين) عبر التاريخ من حيث الزمان والمكان فامر غير ثابت اطلاقا بل ان ثبوته إنما هو ثبوت نسبي سواء من حيث الرقعة الجغرافية الدالة عليه او تحديد الزمان الذي بدات او انتهت فيه التسميات خاصة وان الدول القديمة كانت لها مناطق نفوذ حضارية وكثيرا ما يطغى اسم



رسالة الرسول (ص) إلى والي البحرين

أرسلها مع العلاء بن الحضرمي سنة ٨هـ ٦٣٠م



رسالة الرسول ﷺ إلى والي البحرين المنذر بن ساوى سنة ٨هـ/٦٣٠م

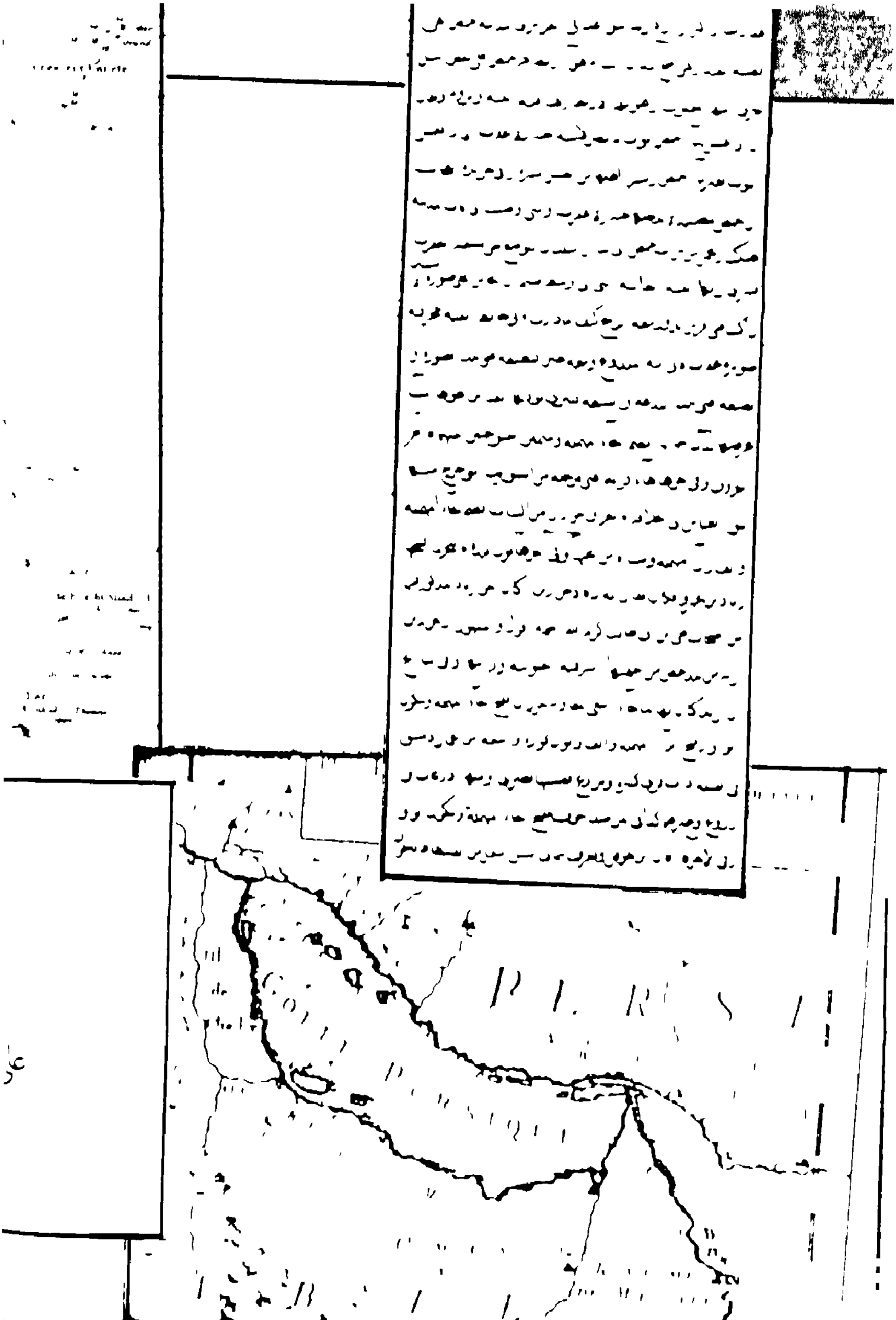
الحضارة على بقعة واسعة كحضارة دلمون التي شملت منطقة من سواحل الخليج العربي او ما يسمى وقنتد بالبحر (المر) من اقصى الشمال حتى عمان والتي كان تسمى (مجان) وقد ازدهرت تلك الحضارة في حوالى منتصف الالف الثالث ق م وعاصرت حضارة وادي الرافدين ووادي النيل وحضارة السند القديمة واستمرت حضارة دلمون حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد[1] ثم ظهر في الكتابات الاغريقية في حوالى القرن الرابع قبل الميلاد اسم (تايلوس) ويطلق على جزيرة البحرين و (ارادوس) اطلق على جزيرة المحرق وهما من اكبر جزر ارخبيل البحرين

اما البحرين في العصر الاسلامى المبكر فكانت تضم اقليما واسعا ضمن (العــروض) اذ قسم قـدامى الجغرافيين بلاد العرب الى خمسة اقســام وهـى (اليمن وتهـامــه والحجاز ونجد والعروض) فاما العروض فكان يشمل (اليمامه والبحــرين ومــا والاهــا) فــامــا (البحرين) في صدر الاسلام فقد ظلت تشمل الاسم الجامع لبلاد تقع على الساحل العربى للخليج العربي ويمتد من كاظمة في الكويت)[٣] شمالا الى جلفار[٢] (راس الخيمة) جنوبا وان اطلق العوتبى وهو مورخ عمانى عاش في القرن الثانى عشر ان البينونه الواقعة غرب ابى ظبى هى الفاصله بين البحرين وعمان في تلك الفترة من التاريخ بينما جعل ياقوت حد البحرين من الشمال (العذيب) ومن الجنوب عمان وتتصل البحرين باليمامه من شرقها وبعمان من جنوبها ومن الغرب اليمامه ومن الشرق الخليج العربي واقليم كرمان واعتبر البعض (جلفار) من اقليم العروض التى منها البحرين ووصف الجغرافيون العرب القدامى الطريق الساحلى الذى يصل بين البصره وعمان وقدروا طوله شهرا للمسافر عليه لذا فضل العرب ركوب البحر وسلوك الطريق البحرى لسهولة طرقه وسلامة امنه بالنسبة للطريق البرى[٤] وكانت (هجر) قاعدة البحرين او عاصمتها ويقال انها كانت اسم قصبتها وقال بعضهم ان مدينة (الاحساء) تسمى ايضا هجر وهى قاعدة لتلك البلاد التى

تسمى ايضا (بالبحرين)[٥] كما ان (شبه جزيرة قطر) كانت تقع في اقليم البحرين وقد وصفها الازهرى بانها قرية في اعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير[٦] وتشمل البحرين في صدر الاسلام (الكويت والاحساء والقطيف وقطر وجزر البحرين) بما فيها جزيرة البحرين الام والتى كان يطلق عليها اسم (اوال)[٧] منذ القرن الثالث الميــلادى وقــد استمــر اســم (البحرين) يطلق على هذا الاقليم مع الاحتفاظ بتسميه (اوال) على اكبر جزيرة في البحرين وكثيرا ما كان والي البحرين يضم اليه ولاية الاهواز وعمان كما حدث في عهد الخليفة عمر الخطاب رضى الله عنه ولما ولى بنو العباس صيروا عمان والبحرين عملا واحدا وفي عهد الرشيد الخليفة العباسى الخامس المتوفى ١٩٣هـ/ ٨٠٨م ولى احد كبار قادته وهو (المعلى) على اقليم واسع في الخليج العــربي ومنــه (البحــرين) و (العوص) ثم جمعت هذه الاعمال الى (محمــد بن سليمان بن عـلي بــن عبــدالله بــن العبــاس بن عبـدالمطلب) ثم الى (عمـاره بن حمزه) ثم الى غيره[٨] وتعنى ولاية العوص ان والى البحرين اصبحت له الولاية على جميع المياه والجزر والمشوت والهيرات الواقعة من كاظمة الى جلفار فالبحرين بهذا المفهوم الجغرافي تقع على خط طول اربع وسبعين درجة وعشرين دقيقة من الغرب وخط عرض اربع وعشرين

درجة وخمس وأربعين دقيقة على ما ذكره صاحب الزيج[٩] واعتبر البعض مبدأ خطوط الطول من مكة المكرمة فتصبح (البحرين) واقعة على خط طول عشر درجات وسبعة وثلاثين دقيقة وعلى خط عرض ست وعشرين درجة وثلاثين دقيقه وحدد النبهاني موقع البحرين بين خطي العرض ست وعشرين درجة الى تسع وعشرين درجة شمال خط الاستواء [١٠] وقال ابن الفقيه والبحرين هي (الخط) والخط اسم جامع لسيف البحرين الى عمان ومن قرى الخط القطيف والاحساء والعقير وقطر واستطرد ابن الفقيه فقال ان البحرين هي (الخط والقطيف والاره وهجر وبينونه والزاره وجواثا والسابور ودارين والغابه وقال وقصبة هجر الصفا والمشقر ومن قرى البحرين الاخرى غير مادكر) وقال البكري وياقوت وابن منظور ان قطر موضع بالبحرين[١١] وكان العرب يضمون الى هذا (الخط) بقيه مدن هجر الداخلية وجزائر الخليج العربي ومنها (اوال) ويطلقون على الجميع اسم (البحرين) ويعتبرونها منطقة مستقله من مناطق الجزيرة العربية الخمس وهي (الحجاز ونجد واليمن وعمان ثم البحرين)[١٢]

وان شهرة (البحرين) بالتجارة والغوص وصناعة السفن جعلتها تحتل مركزا تجاريا هاما جذب التجار والطامحين في الثراء الذي عرفت به البحرين فاصبح يطلق على المنطقة كلها (البحرين) من قبيل اطلاق الجزء على الكل[١٣] وظل ذلك الاقليم الواسع يطلق على (البحرين) في فجر الاسلام حتى عهد دولة (الجبور) في البحرين فلما قتل (مقرن بن اجود بن زامل الجبرى) ٩٢٨هـ / ١٥٢١م سيطر البرتغاليون على جزيرة البحرين الا ان دولة الجبور استمرت في الاحساء والقطيف وان حدودها امتدت من القرين[١٤] الى شمالي عمان واصبحت دولة الجبور تسمى بدولة ال حميد او ال عريعر ويسكنها بنوخالد[١٥] ولم تذكر المصادر والخرائط البرتغالية (اوال) منذ القرن السادس عشر الميلادى بل ذكرت البحرين الذي اطلقته على جزر البحرين وكتبت بالبرتغاليه اسم (بحاريم) أ ـ (باريم) واطلقتها على جزر البحرين وهنا نلاحظ في هذه الفترة زالت كلمة اوال تقريبا والتى كانت تطلق على اكبر جزر البحرين كما انه اصبحت البحرين تعني الجزيرة الام وما حولها وترسم الخرائط القديمة خطا متقطعا احيانا بقرب الساحل العربي للخليج العربي يمتد من شمال جزر البحرين الى جنوبيها ويكتب في داخله (مصائد اللؤلؤ في البحرين) كما ورد ذلك في خريطة عالم الخرائط الهولندى (جون بلاو) بخريطة نشرها في ١٦٦٨م ومثله (يوهان) و (جيوم ليل) الفرنسي الذي نشر خريطته في ١٧٣٣م حيث حدد اماكن صيد اللؤلؤ وكتب عليها عبارة صيد اللؤلؤ في ساحل البحرين والذي تشمل جميع جزر وفشوت شرق وشمال وجنوب البحرين الحالية كما




الإكمال
في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب
الأنساب
تأليف
أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني
المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م
أمكنة والبقاع

كتب (حيوم ليل) على الساحل الشرقي للخليج عارة (ساحل مسكون بالعرب) في ١٧٣٣م[١٦]

اما (اوال) بالصم ويروى بالفتح فهي جريرة ناحية البحرين وهي ماهولة بالسكان عند ظهور الاسلام اطلق عليها (اوال نسبة الى وائل) لان ابيه بكر وتغلب سكناها مع قبيلة عبدالقيس قبل الاسلام برمن طويل ولعل ظهور (اوال) في القرن الثالث الميلادي في عام ٢٦٥م كان مع انتقال بعض من قبائل الارد وبكر وتميم وربيعه واسد وبنو عبدالقيس ووائل الى البحرين[١٧] وبقي اسم (اوال) يطلق على اكبر جزر البحرين منذ القرن الثالث الميلادي الى حوالي ١٥٨م حتى انحسار النفوذ البرتغالي اد اصبح يطلق على الجزيرة الام والجزر التي حولها اسم (البحرين) واندثر اسم اوال فلم يعد يطلق على جزيره البحرين منذ ذلك التاريخ ولعل من اقدم من اورد ذكر (اوال) ابن قميئه (المتوفى حوالي ٥٤٠م ٨٢ ق هـ)

وتوبة بن الحمير العقيلي العامري (ت ٧٠٤م ٨٥هـ) بقوله

من الناعبات المشي نعبا كانما

يناط بجذع من (اوال) جريرها

وقال تميم بن ابي بن مقبل

عمد الحداة بها لعارض قرية

فكانها سفن بسيف (اوال)

وقال السمهري العكلي

طروح مروح فوق روح كانما

يناط بجذع من (اوال) زمامها[١٨]

وذكرها (الادريسي) في نزهة المشتاق بقوله (سميت البحرين بجزيرة اوال وفيها امير قائم بنفسه قد ارتضاه اهل الساحلين لعدله ومتانة دينه وفيها رؤساء الغواصين ويقصدها الناس من جميع الاقطار بالاموال الوفيره ومثله الشاعر جرير المتوفى في حدود ٧٢٨م / ١١٠هـ قال

وشبهت الحدوج غداة قو

سفين الهند روح من اوال

واستمر ذكر (اوال) في كتب الجغرافيين والرحالة العرب اذ يطلقون على اكبر جزر البحرين ومنهم ابن حوقل المتوفى ٩٧٧م والمقدسي (ت ٩٩٠م) والادريسي (ت ١١٦٦م) وسليمان التاجر وابن بطوطه (ت ١٣٧٧م) وابن ماجد (المتوفى بعد ١٤٩٠م) وباستثناء (ناصر خسرو) الذي كان يذكر جزر البحرين دون ان يسميها (اوال) وذلك خلال رحلاته التي انتهت في عام ١٠٤٢م وقد اورد (بوتس) ماكتبه القديس ابو البركات المتوفى ١٣٢٥م فذكر كلمة (كرين) بفتح الراء او كسرها احيانا وهي في الكتابة الرومانية تهجئة لكلمة (البحرين) واطلق (ريتر) في عام ١٨٤٦م على البحرين اسم (اوال)[١٩] وهذه حالة مستثناه لان المصادر العربية والاجنبيه تكاد تجمع على ان (البحرين) تعني مجموعة ارخبيل



اثار مسجد (جواثا) وروي ان (اول جمعة جمعت بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله (ص) في عبدالقيس بجواثا من البحرين) وجواثا تقع في وسط وشرقي الكلابة الحالية

يتكون من عدة جزر وهي اليوم تشمل مجموعة من الجزر تسمى منها ٣٤ جزيرة مع بعض الفشوت الاخرى والصخور والشعاب التي يغمرها ماء البحر احيانا وقلما يطلق اسم (اوال) على جزيرة البحرين بعد القرن الخامس عشر

مصادر تاريخ البحرين في صدر الاسلام :

يمكن تقسيم مصادر تاريخ البحرين الى قسمين

١ ـ مصادر اصليه

٢ ـ مصادر تكميليه

فاما المصادر الاصلية فهي القرآن الكريم والسنة النبوية ثم كتب السيرة والتفسير فمصادر التاريخ الاصلية

والمصادر التكميلية وهي التي تبحث في مواضيع اخرى الا انها تتضمن احداثا لاعلام او وصف لمواضع في البحرين في صدر الدولة الاسلامية ومثل ذلك كتب الفقه والمعاجم واللغة والشعر والادب والتراجم والانساب والجغرافية ثم الكتب الحديثة وماكتبه المستشرقون ولا بد من تمييز المصادر التكميلية من حيث قيمتها التاريخية بالنسبة لاصالتها ومصادرها وزمن تدوينها ومؤلفيها

ولكن الباحث في تاريخ البحرين يجد صعوبة في تحديد (المواضع الجغرافية) القديمة والتي اندثر بعضها ولم يبق الاسميات في بطون المعاجم الجغرافية وان كان في بعض كتب



مسجد الخميس من اقدم الاثار الاسلامية في البحرين

الرحالة والجغرافيين معلومات قيمة عن موقع البحرين وحدودها وطبيعة ارضها وسلفها ومواردها الاقتصادية وعن ... ها ومدنها وسكانها ومواصلاتها ... مسامها الادارية

ومن اقدم تلك الكتب كتاب (بلاد العرب) ... الاصفهاني وهو من رحال ... الهجرى حيث حدد منازل ... عن رواة الشعر من بلاد ...

... وقد اعتمد على احمد بن ... بن ... بن صباح اليشكرى الذي ... البحرين وعرف مواضعها ... (...) الهمداني فقد امدنا ... مستمدة من ... الشخصية في القرن الرابع الهجرى كما اخذ عمن سبقه كالجاحظ والاصطخرى[٢]

المهم ان الجغرافية التاريخية وصفت المسرح الذي حدثت عليه الاحداث فاذا كان التاريخ يدرس الزمان فالجغرافية تعنى بالمكان فلا يمكن الاستغناء عن الجغرافية في دراسة التاريخ، أما الروايات التاريخية فهى في غالبيتها تحتاج الى الدقة في التوقيت خاصة اذا علمنا انه لا يوجد كتاب يحوى تاريخ البحرين ابان الدعوة الاسلامية في عهد الرسول (ص) والراشدين بل لابد من الرجوع الى مصادر كثيرة ذات مواضيع متنوعة حتى نجد فقرات ان لم تكن اسطرا او كلمات تجعل منها المادة التاريخية فمن كتاب للمغازى كالواقدى

(ت ٢٠٧هـ) الى التاريخ كفتوح البلدان للبلاذري (ت ٢٧٩هـ) فالانساب لابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ) والتراجم فالمعاجم اللغوية وكتب الرجاله وكتب الطبقات والحديث والفقة والسيرة والفرق والعقائد والادب والشعر هذا بالاضافة الى الكتب الحديثة والمقالات العربية والاجنبيه وغيرها

أما كتب (التاريخ) فتحوى مادة موجزة عن انتشار الاسلام في البحرين وطرفا من الاحوال الاجتماعية والادارية والاقتصادية وان كانت تكاد تخلو من الاسناد والملاحظ ان بعض المورخين الذين عاشوا في القرنين الثالث والرابع الهجريين كالدينوري (ت ٢٨١هـ) واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) والمسعودى (ت ٣٤٦هـ) استقوا معلوماتوم عن البحرين من مصادر تختلف عن سابقيهم فهم لم يذكروا مصادرهم او مصادر رواياتهم التاريخية

اما الطبرى (ت ٣١٠هـ) فهو من الثقاة وان اعتمد على ابن اسحق ولايهتم بنقد الروايات التاريخيه ومثله ابن الاثير (ت ٦٣٢هـ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) المهم ان هذه الكتب سواء كتب السيرة او التاريخ قد دونت بعد قرن او يزيد من الزمن الذي حدثت فيه الحوادث في البحرين ولذا من الصعوبة الاعتماد عليها كل الاعتماد يضاف الى ذلك ما فيها من اساطير ادخلها الموالى واهل الكتاب والاخباريون لجهلهم بالعربية لذا فهي تحتاج الى مزيد من التحقيق العلمى من حيث الاسانيد

وفي كتب الانساب ذكر عن القبائل التى سكنت البحرين ويعتبر كتاب جمهرة النسب لابن الكلبى (ت ٢٠٤هـ) من اهم واقدم تلك المصادر وقد اخذ عنه من جاء بعده[٢١] ويبدو ان نجد من اوفى بذكر دور القبائل في الحياة الاجتماعية وان ذكر بعض النسابين علاقة القبائل مع بعضها البعض من حيث النسب دون ان يذكروا عدد رجالها او اسماءهم اللهم الا من تولى منهم مناصب ادارية او كان لهم دور في الحياة السياسية والاقتصادية ولعل كتب التراجم والطبقات قد اكملت ما لم تذكره كتب الانساب

وحفظت المعاجم اللغوية بعض الاحداث التاريخية والمواقع الاثرية مماله علاقه بتاريخ البحرين وذكرت المسافات وطرفا من المنتجات الاقتصادية واحوال المناخ وسكنى القبائل[٢٢]

ولعل اقدم كتاب في الطبقات هو لابن سعد (ت ٢٣٠هـ) والذي اورد طرفا من النواحى الادارية في البحرين وجانبا من الحوادث التاريخية وتراجم الرجال خاصة الذين وفدوا على رسول الله (ص) كما ذكر بعض رسائل الرسول (ص) لاهل البحرين وقد اخذ ابن سعد عمن سبقه كالواقدى وابى معشر وقتاده ويمتاز ابن سعد في طبقاته بانه يتقيد بالتسلسل التاريخي حين يترجم لاشخاص او يروى الحوادث وان لم تجد تفصيلا وافيا عما يتعلق بالبحرين ومثله (خليفة بن خياط) المتوفى بعده بعشر سنوات

والدي ذكر في تاريخه اسطرا عن بعض الاداريين في البحرين ومنهم (المرزبان فيروز) والذي كان مركزه (الزاره) من بلاد البحرين و (المرزبان سيبخت) الذي مركزه في (هجر) وقد كتب له الرسول (ص) يدعوه الى الاسلام او الجزيه وذلك بعد ان كتب للمنذر بن ساوى ويذكر البلاذري[22] ان (فيروز) اسلم والارجح انه لم يسلم بدليل عدم ذكره في المصادر الاسلامية وعدم مقاومته للمرتدين وان لم يقاوم المسلمين اما (سيبخت) فان مراسلته لرسول الله (ص) ادت الى عزله من قبل الفرس[1] وفي كتب الحديث ما يلقى الضوء على تاريخ البحرين ونحن نطمئن الى الصحيح منها كمادة تاريخية نظرا لاهتمام الاوائل بالحديث من حيث السند او الرواة وفيها عن النظم المالية والادارية والسياسية والعلمية ويمكن ان تقدم على كتب المغازي وكتب التاريخ الاخرى لان الاحاديث مرت بنقد علمي او ما يسمى بالجرح والتعديل فمن جرحوه رفضت روايته ومن عدلوه قبلت روايته وهذا النقد لم تتعرض له الكتب التاريخية او كتب المغازي وان كانت الاحاديث الصحيحة مختصرة لذا يمكن الرجوع الى كتب السيرة والمغازي وكتب التاريخ لانها مفصله مع اخذها بشيء من النقد والتمحيص ثم ان كتب الحديث لم يتبع فيها التسلسل التاريخي لانها مرتبه حسب المواضيع او حسب المسانيد وفي كلتا الحالتين لابد من الرجوع الى الكتب الاخرى المرتبة ترتيبا زمنيا ومن كتب الحديث الموثوقه التاريخ الكبير للبخاري (ت ٢٥٦هـ) والذي ترجم عن رجال الحديث ومنهم من اهل البحرين وان لتعليقاته وهو يترجم لهم اهمية في القاء الضوء على جوانب من تاريخ البحرين ثم فصلت كتب التراجم الاخرى التي تلت البخاري في الحوادث والتراجم اوسع مما ذكره البخاري وان لم يكن بعضها بثقة البخاري[2] وعموما فان كتب التراجم تضم اخبارا موجزه عن الحياة الاقتصادية والادارية وعن مراسلات الرسول (ص) والوفود الذين وفدوا عليه وعن انتشار الاسلام في البحرين والردة فيها المهم انه لا يمكن الاستغناء عن كتب التراجم في دراسة التاريخ الاسلامي للبحرين

ولا يستغني الباحث في التاريخ الاسلامي للبحرين عن كتب الصحاح في الحديث وامهات كتب الفقه لانها اوردت بعض المعلومات عن الادارة والاقتصاد ودور الوفادتين في انتشار الاسلام ورسائل الرسول (ص) علاوة على ذكر المعتقدات الدينية السائدة في البحرين قبيل الاسلام اما كتب السيرة والمغازي وشروحها ففيها تفاصيل عن اعتناق سكان البحرين للاسلام وذكر عن الوفود الذين وفدوا على رسول (ص) وخاصة وفادة الاشج والجارود[26] وتمتاز كتب السيرة بانها

كتبت في زمن متأخر فلابد انهم شهدوا الاحداث التاريخية او سمعوها عمن شاهدها وان لم تخل كتاباتهم من مبالغات وقصص واساطير وعدم الدقة العلمية وقد نقل ابن سعد من معارى الواقدى، وابن سعد ثقه الى حد كبير ولكن الواقدى من الضعفاء عند الامام مالك وهناك معلومات موجزه في كتب الملل والنحل عن المعتقدات الدينية والفرق الاسلامية[٢٦] دون التفصيل في الاحوال السياسية

وتجد في كتب الادب مادة غنية بذكر مواضع في البحرين وعن الاحوال الادارية والاقتصادية والاجتماعية ووصف البيئة[٢٧] وهناك تعليقات وشروحات لدواوين الشعر وفيها مادة عن تاريخ البحرين وان كانت بعض المواضع التى وردت في الشعر وشروحاته غير محدده وقد اندثرت اثارها كما ان الشعر كان يبالغ في وصف المعارك او الابطال مع ما فيه من خيال واسع يخرجه عن الحقيقة التاريخية ، واخيرا فان في الدراسات التاريخية الحديثة ما يلقى الضوء على تاريخ البحرين في صدر الاسلام[٢٩]

ولا بد ان ناخذ بحذر ماكتبه طائفة من المستشرقين وهم يحللون ويستنتجون وفق اهوائهم وقد تعصب بعضهم بقصد او بدون قصد ربما لجهل بعضهم في فهم النصوص القديمه او لم تكن المصادر الاصلية في متناول ايديهم او انهم يفسرون الحوادث تفسيرا ماديا نابعا من نظرتهم او فلسفة حياتهم الغربية فاهملوا الجانب الروحى للعقيدة ولذا لابد ان ناخذ ماكتبه اولئك المستشرقون بحذر ونقد موضوعي ومنهم (كايتاني) الذي كتب عن نشر الاسلام في البحرين فلم يوفق في تفسيره

ولا شك ان رسول الله (ص) ارسل الرسائل الى امراء وملوك عصره كما استقبل الوفود وارسلهم الى القبائل والامم وقد ثبت بالحديث الموثق الصحيح ان النبى (ص) ارسل كتابا الى كسرى الفرس واخر الى قيصر الروم والى نجاشي الحبشه والى كل جبار يدعوهم الى عبادة الله تعالى[٣] واكدت ذلك كتب السير والتاريخ والادب[٣١] ولقد ذهب بعض المستشرقين الى التشكك في صحة ارسال الرسائل والوفود ومنهم ميور وكايتاني ومرجوليوث[٣٢] بينما اكد اخرون صحة الوفادات التي وفدت على الرسول والتي اوفدها هو ومن هولاء المستشرقين ارنولد وبولدكه[٣٣] وان ارسال الرسول (ص) الرسائل وايفاد الوفود للدعوة الاسلامية انما يعني ان الدين انتشر منذ فجر الاسلام بالدعوة السلمية وبالحكمة والموعظه الحسنة وهذا مظهر حضارى لان العقيدة الاسلامية التي تستند على التوحيد هى اقوى حضاريا من العقائد المعاصره والتى يسودها الشرك . ولم يلجا عليه الصلاة والسلام الى التحدى السياسي والحل العسكرى الا بعد ان قدم الحل

السلمى والطرق الدبلوماسية المتحضرة وقد كتب الى (المنذر بن ساوى التميمي) حاكم البحرين او الى شيخ اليمامه رسالة جاء فيها (واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر) وهذا النص يدل على ايمان رسول الله (ص) بالعقيدة التى بعثه الله والرسالة التى يبلغها لخلقه وقد اورد ابن هشام في السيرة النبوية ذكر رسائل الرسول (ص) و موضعها[٢٠] واختار عليه الصلاة والسلام الرسل لحمل رسائله ممن يعرفون لغات الامم نتيجة اختلاطهم بهم فكان يختم رسائله بخاتم مستدير من الفضه كتب عليه ثلاثة اسطر جملة (محمد رسول الله)

ويلاحظ ان ارسال الرسول (ص) عدة رسائل الى البحرين يدل على اثر العصبية القبلية والاقليمية في البحرين كما يدل على ضعف السلطة المركزية فيها وان رسول الله (ص) كان يرغب اهل البحرين ويساعدهم للدخول في الاسلام كلا على حده

اما زمن ارسال تلك الرسائل (فابن سعد) (ت ٢٣٠هـ) يشير الى ان العلاء بن الحضرمى بعث بصدقات البحرين بعد موقعة بدر وانه وصل البحرين في السنة الثانية للهجرة بينما ذكر (ابن سيده) (ت ٤٥٨هـ) انه بعث بالرسائل بعد صلح الحديبيه اى في السنة السادسة للهجرة واخرون جعلوا اول رسالة ارسلت في المحرم من السنة السابعة للهجرة وان العلاء وصل الى البحرين في صفر من السنة السابعة للهجرة الا ان (ابن هشام) و (البلاذرى) و (الطبرى) يتفقون على ان رسائل البحرين ارسلت في السنة الثامنة للهجرة الموافقة لعام ٦٣٠م ومثل ذلك فان الاختلاف في التوقيت لارسال الرسائل ينطبق على عمان وقد اجتهد كثير من الباحثين فجعلوا العام الثامن للهجرة هو ارجح عام لارسال الرسائل من رسول الله معتمدين على المناسبات التى ادت الى ارسالها وما ورد في نصوصها ومضمونها وفقا لذلك اى بعد فتح مكة حين تخلص الرسول (ص) من اعدائه المشركين وزادت قوته وانتشر صيته بين القبائل والامم فبعث برسله وهم يحملون رسائل الدعوة للاسلام[٢١]

فاوفد الرسول (ص) العلاء بن الحضرمى الى البحرين وهو يحمل الرسالة الاولى والعلاء مكى المولد اسلم في بداية الدعوة وقبل فتح مكة وعدّهُ بعض المورخين من كتاب الوحى وكان فصيح اللسان اصبح اميرا على البحرين ثم عاملا لجمع الصدقات فيها بعد ان ولى عليها في السنة الثامنة للهجرة ولما تولى الخلافة ابوبكر وعمر رضى الله عنهما امراه على ولايته وشارك في القضاء على المرتدين في البحرين ولما عبر بالجيش الاسلامي الى (دارين) دون مشورة الخليفة الثاني عزله وقيل ولاه على البصرة وفي طريقه اليها توفي في ارض تميم عام ٢١هـ / ٦٤٢م

اما حاكم البحرين الذي ارسلت

اليه الرسالة الاولى فهو (المدر بن ساوى التميمى) وفي قول انه من بنى عبدالقيس الذين سكنوا تهامه ثم نزلوا البحرين فزاحموا قبيلة بكر بن وائل وتميم والارجح ان المدر من بنى دارم من تميم ، وان اسلام المدر واتباعه في البحرين كان لاسباب منها ان بعض اهالي البحرين كانوا على صلة بالنبى (ص) فاسلموا كما ان المدر احتفظ بسلطته السياسية في البحرين فابقاه رسول الله في السلطة بعد اسلامه حتى وفاته بينما اصبح عمل عمال الرسول (ص) في البحرين محدودا في نطاق الامور المالية ولم يكن لهم سلطان سياسى كالمدر الذي اخد ينشر الاسلام ويساعد على جمع الجبايه ويرسلها الى المدينة المنورة وهدا مما ساعد على ازدياد قوته ولا شك ان في مقدمة الاسباب التى ادت إلى اعتناق اهل البحرين الاسلام هو قوة العقيدة الاسلامية وهدا رد على (كايتانى) الذي يذكر ان انتشار الاسلام كان ضعيفا في البحرين لان المصادر تجمع على ان عرب البحرين جلهم دخلوا في الاسلام هذا اذا اضفنا قدم العلاقة بين اهل الحجاز واهل البحرين عن طريق التجارة التي هي من وسائل نقل الحضارة خاصة وان الدين مظهر من مظاهر الحضارة ، ولقد اوصى رسول الله (ص) موفده العلاء حين بعثه الى المدر بن ساوى حاكم[٣٦] البحرين بقوله (ان اجابك فاقم حتى يأتيك امرى وخد الصدقه من اغنيائهم وردها الى فقرائهم) فطلب العلاء من رسول الله (ص) ان يكتب له كتابا وهى الرسالة الاولى من بين الرسائل التى ارسلت للبحرين على ماورد في معظم المصادر وهدا نصها[٣٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المدر بن ساوى

سلام عليك ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو واشهد ان لا اله الا هو اما بعد فاني ادعوك الى الاسلام فاسلم تسلم واسلم يجعل لك الله ما تحت يديك واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر محمد رسول الله

وفي مصادر اخرى ورد هذا النص لرسالة الرسول (ص)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المدر بن ساوى

سلام على من اتبع الهدى اما بعد فاني ادعوك الى الاسلام فاسلم تسلم يجعل الله لك ما تحت يديك واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر

هده الرسالة القصيرة فيها الدعوة للاسلام فان اسلم المدر فانه سيبقى على حكمه للبحرين ثم يدكره عليه الصلاة والسلام بان الدين الاسلامي سوف ينتشر الى اقصى البلاد

فلما قرأ المدر بن ساوى رسالة الرسول (ص) دار حديث بينه وبين

العلاء مبني على العقل والمنطق والحكمة والبصيرة[31] ومدح العلاء المندر بقوله

يا مندر انك عظيم العقل في الدنيا . فلا تقصرن عن الاخرة ان هذه المجوسية شر دين ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه . ويأكلون ما يتكره من اكله وتعبدون في الدنيا نارا تاكلكم يوم القيامة ولست بعديم العقل ولا الراي فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ان لا نصدقه ولمن لا يخون ان لا نأتمنه ولمن لا يخلف ان لا نثق به فان كان هذا هكذا فهذا هو النبي الامي الذي والله لا يستطيع ذو عقل ان يقول ليت ما امر به نهى عنه او مانهى عنه امر به

فلما انتهى من كلامه اجابه المندر قائلا

قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الاخرة ونظرت في دينكم فرأيته للاخرة والدنيا فما يمنعني من قبول دين فيه امنية الحياة وراحة الموت ولقد عجبت امس ممن يقبله ـ وعجبت اليوم ممن يرده وان من اعظم من جاء به ان يعظم رسوله

ثم اسلم المندر بعدها وهذا الكتاب يدل على ان المندر اسلم بعد تمعن برسالة رسول الله (ص) ثم يؤكد العلاء بان الدين الذي عليه المندر وقومه هو دين الشرك الذي لا يرضاه الله تعالى ولا عباده وان الدين الذي بشر به النبي الامي وهو الصادق الصدوق والامين المؤتمن هو الدين الحق عندئذ اعتنق المندر الاسلام عن قناعة ذاتية اكيدة وبقى محافظا على اسلامه حتى توفي عام ١١هـ واسلم معه من اهل البحرين وبعض العرب والعجم[39] اما من اورد ان الرسالة الاولى لحاكم البحرين المندر بن ساوى والتى فيها ورد قوله عليه الصلاة والسلام

(بان رسلي قد اتوا عليك)[40]

فانها لم تكن هي الرسالة الاولى لأنه ورد فيها ان الرسل اتوا عليه وسوف نضع هذه الرسالة في مكانها المناسب وعلى اثر ذلك اصدر عليه الصلاة والسلام امرا الى (الاكبر بن عبدالقيس) ولعله المندر بن ساوى بتعيين العلاء بن الحضرمي واليا من قبل رسول الله (ص) على البحرين كما امره بالالتزام بالعهد ودفع الزكاة وان يكون اهل البحرين اعوانا على الظالم وانصارا في الملاحم ولهم ما للمسلمين من الفيء والعدل في الحكم والسيرة وكانت هذه الرسالة الثانية من الرسول (ص) الى المندر بن ساوى وهذا نصها

من محمد رسول الله الى الاكبر بن عبدقيس

انهم امنون بامان الله ورسوله على ما احدثوا في الجاهلية من القحم وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم ان لايحبسوا عن طريق الميرة ولا يمنعوا صوب القطر ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه والعلاء الحضرمي امين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها

وسراياها وما خرج منها واهل البحرين خفراؤه من الضيم واعوانه على الظالم وانصاره في الملاحم . عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوه قولا ولا يريدون فرقة ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء والعدل في الحكم والقصد في السيرة حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما والله ورسوله يشهد عليهم[٤١]

ثم اجاب المنذر رسول الله بكتاب قال فيه

اما بعد يا رسول الله فاني قرات كتابكم على اهل البحرين فمنهم من احب الاسلام واعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه وبارضي يوجد يهود ومجوس فاحدث الي امرك بذلك[٤٢]

وفي هذه الرسالة ان المنذر صدق واسلم وان من اهل البحرين من استجاب للدعوة ومنهم من لم يستجب ويطلب من رسول الله ان يخبره عن موقفه تجاه المجوس واليهود في البحرين فكتب الرسول (ص) الى العلاء كتابا هذا نصه

بسم الله الرحمن الرحيم

(اما بعد فاني قد بعثت الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجّله بها وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقه والعشور والسلام كتبه ابي)

وكاتب هذه الرسالة من كتاب الرسول (ص) وهو (ابي بن ابي كعب الخزرجي الانصاري) وفيها ان المنذر جمع الجزيه ممن بقوا على دينهم كالمجوس واليهود النصارى اما (الصدقات والعشور) فقد قام العلاء بجمعها بامر رسول الله (ص) وارسل العلاء ثمانين الف درهم من البحرين والثابت ان رسول الله (ص) ارسل للمنذر جوابا بشان المجوس واليهود في البحرين كما ارسل الى مجوس هجر رسالة وقيل انه ارسلها الى المنذر بخصوص معالجة امر مجوس هجر[٤٣]

وفي الرسالة الرابعة التي ارسلها عليه الصلاة والسلام الى المنذر والتي اعتبرها البعض هي الرسالة الثالثة وهذا نصها

من محمد النبي الى منذر بن ساوى

سلام انت فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فإن كتابك جاءني وسمعت ما فيه فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم ومن ابى فعليه الجزية

واورد ابو يوسف القاضي نص الرسالة هذه وهي

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى

سلام الله عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد فإن كتابك جاءني وسمعت ما فيه فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له مالنا

وعليه ما علينا
ومن لم يفعل ذلك فعليه دينار من قيمة المعافري
والسلام عليك ورحمه الله يغفر الله لك[44]

وفي هذه الرسالة الواجبات التي يجب ان يتصف بها المسلم كالصلاة واستقبال القبلة واكل الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها حين ذبحها من قبل المسلم ومن لم يفعل ذلك فعليه ان يدفع الجزيه اما (ابو يوسف) فلم يذكر تحديد الجزية بدينار من قيمة المعافري وفي رسالة اخرى انه فرض اربعة دراهم وعباءة ما نصه (وفرض على كل رجل ليس له ارض اربعة دراهم وعباءة)[45]

والى مجوس هجر ارسل الرسول (ص) رسالة يدعوهم الى الاسلام وقد ذكرها البلاذري نقلا عن الرواة وهذا نصها

(فان اسلموا فلهم مالنا وعليهم ما علينا فان ابى فعليه الجزيه من غير اكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم)
وذكرها ابن سعد بهذا النص
(اعرض عليهم الاسلام فان اسلموا فلهم مالنا وعليهم ماعلينا ومن ابى فعليه الجزيه في غير اكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم

اما الاتفاقية التي عقدت بين العلاء بن الحضرمي واهل البحرين وفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي اهل البحرين صالحهم على ان يكفونا العمل ويقاسمونا التمر فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين واما جزيه الرؤوس فانه اخذ لها عن كل حالم دينارا)[46]

هذه الاتفاقية قد تكون لا حقه لرسائل اخرى من رسول الله (ص) الى المنذر والى بقيه حكام اهل البحرين

وقد ارسل عليه الصلاة والسلام رسالة الى اهل هجر بعد ان اسلموا وفيها ان اختلافا وقع بينهم فاتجه وفد منهم الى الرسول (ص) وانه ارضاهم وقد وردت هذه الرسالة بصيغتين الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي الى اهل هجر
سلام انتم فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني اوصيكم بالله وبانفسكم الا تضلوا بعد اذ هديتم ولا تغووا بعد اذ رشدتم اما بعد فانه قد اتاني الذي صنعتم وانه من يحسن منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء فاذا جاءكم امرائي فاطيعوهم وانصروهم واعينوهم على امر الله وفي سبيلة فانه من يعمل منكم عملا صالحا فلن يضل له عند الله وعندي واما بعد فقد جاءني وفدكم فلم ات اليهم الا ما سرهم واني لو جهدت حقي فيكم كله لاخرجتكم من هجر فشفعت غائبكم وافضلت على شاهدكم فاذكروا نعمة الله عليكم[47]

ووردت صيغة هده الرسالة عند ابن سعد هكذا

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله الى اهل هجر

سلام انتم فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني اوصيكم بالله وبانفسكم ان لاتضلوا بعد اد هديتم وان لا تغووا بعد اد رشدتم اما بعد فقد جاءني وفدكم فلم ات اليهم الا ما سرهم واني لو جهدت حقي فيكم كله اخرجتكم من هجر فشفعت غائبكم وافضلت على شاهدكم فادكروا نعمة الله عليكم اما بعد فقد اتاني الذي صنعتم وانه من يحسن منكم لا يحمل عليه دنب المسيء فادا جاءكم امرائي فاطيعوهم وانصروهم على امر الله وفي سبيله فانه من يعمل منكم عملا صالحا فلن يضل له عند الله ولا عندي[48]

وفي رسالة بعثها رسول الله (ص) الى اهل هجر بصيغتين ايضا احداهما قوله عليه الصلاة والسلام

(اما بعد فان رسلي قد حمدوك وانك مهما تصلح اصلح اليك واثبتك على عملك وتنصح لله ولرسوله والسلام عليك)

والصيغة الثانية هي

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى اهل هجر سلام انتم فاني احمد الله اليكم الذي لا اله الا هو اما بعد فاني اوصيكم بالله وبانفسكم ان لا تضلوا بعد اد هديتم ولا تغووا بعد اد رشدتم اما بعد دلكم فانه قد جاءني وفدكم فلم ات فيهم الا ما سرهم واني لو جهدت حقي كله فيكم اخرجتكم من هجر فشفعت شاهدكم ومننت على غائبكم ادكروا نعمة الله عليكم اما بعد فقد اتاني ما صنعتم وان من يحمل منكم لا يحمل عليه دنب المسيء فادا جاءكم امراؤكم فاطيعوهم وانصروهم على امر الله وفي سبيله فانه من يعمل عملا صالحا فلن يضل له عند الله ولا عندي اما بعد يا منذر بن ساوى فقد حمدك لي رسولي وانا ان شاء الله مثيبك على عملك

وجميع هده الصيغ تدل على ان ردة حدثت في المنطقة كما يتضح دلك من قوله (ص) (ان لاتضلوا بعد اد هديتم ولا تغووا بعد اد رشدتم) وان فتنة الردة هده ادت الى اقصاء بعض الحكام بعد ان توجه وفد من البحرين الى المدينة المنورة وقابلوا رسول الله (ص) وانهم سمعوا منه ما يسرهم ودكر الواقدي ان الرسول (ص) كتب الى العلاء بن الحضرمي ان ياتيه بعشرين رجلا من عبدالقيس فجاءه وبعه عشرون رجلا وعلى راسهم عبدالله بن عوف بن الاشج فشكا الوفد العلاء فعزله الرسول (ص) وولى (ابان بن سعيد بن العاص) وقال له (استوص بعبدالقيس خيرا واكرم سراتهم)[49] وقيل ان العلاء عاد الى المدينة المنورة بعد ان انهيت خدماته وفي قول انه بقي واليا على

منطقة في البحرين بينما اصبح (ابان) حاكما على منطقة الخط ويذكر البلاذري ان اهل البحرين طلبوا العلاء لحرب المرتدين فعاد للبحرين وقضى على الردة هناك اما المنذر فقد نفى وقاوم الفتنه فارسل له الرسول (ص) رسالة فجعلها البعض الاولى في ترتيب الرسائل المرسلة الى المنذر ومنهم من اعتبرها الثانية بينما اجتهد اخرون فجعلوها السابعة او ما قبل الاخيرة وهذا نصها [٢٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى سلام عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله اما بعد فاني اذكرك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلي ويتبع امرهم فقد اطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي وان رسلي قد اثنوا عليك خيرا واني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه وعفوت عن اهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن اقام على يهوديته او مجوسيته فعليه الجزية

في هذه الرسالة يحث الرسول (ص) اهل البحرين على طاعة رسله الذين ارسلهم الى هناك ويذكر عليه الصلاة والسلام انهم اثنوا على المنذر خيراً عندئذ شفعه في قومه كما انه طلب من المنذر ان يقبل من المتمردين العفو لأنه (ص) قد عفا عن اهل الذنوب وان لا يتعرض لليهود والمجوس الذين اقاموا على دينهم بل يأخذ منهم الجزية وفي الرسالة التي تتكون من مائة كلمة بما فيها خاتم النبي (ص) كتبت في عشرة اسطر وجاء فيها كلمة (اذكرك) كتبت هكذا (اذكر) في السطر الرابع وحرف (ك) في السطر الخامس كما كتبت كلمة (رسلي) على النحو التالي

كتب حرف (ر) في السطر الخامس وكلمة (سلي) في السطر السادس[٢١] وان هذه الرسالة تم العثور عليها مكتوبه على مخطوط جلدي يحتمل ان تكون اصل الرسالة النبوية الى المنذر بن ساوى نشر عنها الدكتور (بوش) الالماني مقالا في مجلة المستشرقين الالمان في عام ١٨٦٣م[٢٢] ولما كان نص هذه الرسالة قد ورد في مصادر التاريخ المعتمدة لذا فقد اعتمدها المحققون والواضح ان هذه الرسالة ارسلها الرسول (ص) الى المنذر بعد فتنة الردة وعزل العلاء بن الحضرمي وفيها يحث اهل البحرين على اطاعة رسله الذين ارسلهم اليهم كما يذكر ان رسله اثنوا على المنذر خيرا وبذا شفعه في قومه وطلب منه ان يعفو عن المتمردين وان يترك للمسلمين ممتلكاتهم واكد على ان على المجوس واليهود الذين لم يدخلوا في الاسلام الجزية فاما في فرض الجزية على مجوس هجر فقد نزلت الاية الكريمة (يا ايها الذين امنوا عليكم انفسكم

لا يضركم من ضل اذا اهتديتم)[٥٣]
وحول فرض الجزية على مجوس فارس فقد اشار عبدالرحمن بن عوف على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه سمع رسول الله (ص) يقول (سنوا بهم سنة اهل الكتاب) ففرضت الجزية على اهل السواد[٥٤]
وكانت اخر رسالة الى المنذر هي

(الى المنذر بن ساوى اما بعد فاني قد بعثت اليك قدامه وابا هريره فادفع اليهما ما اجتمع عندك من جزية ارضك والسلام)
كتب ابي)

وقد ارسلها (ص) بيد قدامه بن مظعون ومعه ابو هريره[٥٥]
ويلاحظ ان الجزية على الارض والمعلوم انها على الرؤوس من اهل الكتاب ومن المحتمل انها تعني الجزية على اهل الارض وكان اول خراج دخل المدينة المنوره هو خراج اهل البحرين ومقداره سبعون الف درهم وقيل ثمانون الف درهم[٥٦] وفي الرسائل التي ارسلها الرسول (ص) الى اهل البحرين رسالة الى (الهلال) صاحب البحرين وفيها

سلام انت فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو لا شريك له وادعوك لله وحده تؤمن بالله وتطيع وتدخل في الجماعة فانه خير لك والسلام على من اتبع الهدى[٥٧]

وارسل رسول الله (ص) رسالة الى (سيبخت) مرزبان هجر اي الحاكم في هجر ردا على رسالته فجعله الرسول يتشفع في قومه اي جعل له السلطة الادارية في قومة الذين سماهم رسول الله (ص) (بني عبدالله) وليس لدينا معلومات عنه وانما ارسل الرسالة اليه بيد الاقرع التميمي والذي جعله عاملا على الصدقه وقد اقنع الاقرع قومه من بني تميم للدخول في الاسلام بعد ان اتجه وفد منهم للرسول (ص) واسلموا واليك هذه الرسالة

الى سيبخت صاحب هجر والتي اوردها ابن سعد بقوله (الى سيبخت بن عبدالله صاحب هجر) وهذا نصها

الى سيبخت بن عبدالله صاحب هجر

انه قد جاءني الاقرع بكتابك وشفاعتك لقومك واني قد شفعتك وصدقت رسولك الاقرع في قومك فابشر فيما سالتني بالذي تحب ولكني نظرت ان اعلمه فتلقاني فان جئتنا اكرمك وان تقعد اكرمك

اما بعد فاني لا استهدي احدا فان تهد الى اقبل هديتك وقد حمد عمالي مكانك واوصيك باحسن الذي انت عليه من الصلاة والزكاة وقرابه المؤمنين واني قد سميت قومك بني عبدالله فمرهم بالصلاة وباحسن العمل وابشر والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين

وفي رسالة اخرى الى اهل البحرين بان لهم ما اسلموا عليه ان اقاموا الصلاة واتوا الزكاة ولم يمجسوا اولادهم وعليهم هدم وتخريب بيوت النار وان وجد فيها مال او ذهب فيجب ان يجعل ذلك لله ورسوله واليك نص هذه الرسالة

اما بعد فانكم اذا اقمتم الصلاة واتيتم الزكاة ونصحتم لله ورسوله واتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب

ولم تمحسوا اولادكم فلكم ما اسلمتم عليه عير ان بيت النار لله ورسوله وان ابيتم فعليكم الحرية(٥١)

اما الرسالة التالية والاخيرة ربما انها ارسلت مع وفد الحارود ويتضح منها ان اتفاقا بين الرسول (ص) وقبيلة عبدالقيس في البحرين وما حولها ادا اسلموا واطاعوا الله ورسوله واقاموا اركان الدين والعدل بينهم وعليهم احد الصدقات من اعنيائهم الى فقرائهم وهدا نصها

بسم الله الرحمن الرحيم

هدا كتاب من محمد رسول الله لعبدالقيس وحاشيتها من البحرين وما حولها انكم اتيتموني مسلمين مومنين بالله ورسوله وعاهدتم على دينه فقبلت على ان تطيعوا الله ورسوله فيما احببتم وكرهتم وتقيموا الصلاة وتوتوا الزكاة وتحجوا البيت وتصوموا رمضان وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على انفسكم وعلى ان توخد من حواشي اموال اعنيائكم فترد على فقرائكم على فريضة الله ورسوله في اموال المسلمين(٥٩)

ودخلت البحرين في الاسلام في عهد رسول الله (ص) دون قتال(٦) حين بعث عليه الصلاة والسلام موفده وسفيره (العلاء بن الحضرمي) الى (المندر بن ساوى العبدى) ومعه رسالة يدعوه فيها الى الاسلام فاسلم المندر ومعه اسلم العرب وبعض العجم(١)

وان قبول اهل البحرين الدعوة الاسلامية دون اية معارضة يدل على النضوج الفكرى ثم النزعة للتخلص من الوثنية التى شاخت وهرمت ، والمجوسية المقيتة والتخلف العقائدي ولا شك ان اعتناق اهل البحرين للاسلام نتيجة لما تتمتع به البحرين من حضارة ورثتها مند القدم واستقلال يدل على سرعة اعتناق حاكمها وعربها للعقيدة الاسلامية والمتتبع للرسائل التى بعثها عليه الصلاة والسلام الى البحرين يجد ان المندر اسلم وبعض اهل قومه وخاصة عربهم دون استشارة او تاخر ثم طلب من رسول الله ان يعلمه موقفه من المجوس واليهود في بلاده فلو انه كان تحت نفود الفرس - كما دكر البلادرى مثلا - لما حدث ان اسلم دون الحصول على ادن منهم ثم ان بين الرسائل التى بعثها الرسول (ص) رسالة ارسلها الى (سيبخت) الفارسى الدي كان يحكم منطقة صغيرة في البحرين ولم يكن مجوسيا وقد اسلم هو وقومه معه ومن هنا نستطيع القول بان سيبخت لم يكن واليا او متوليا من قبل الفرس ولا مرتبطا بحكومتهم بدليل انه اسلم هو الاخر ومعه قومه فور استلام رسالة الرسول (ص) فلو انه كان تحت نفود فارس او ان له صلة بهم لاستشارهم(٦٢)

خاصة وان الوهن والهرم قد دب في (الدولة الساسانية) التي كانت دولة عسكرية اهتمت بالتوسع على حساب الشعوب الضعيفة واتخدت

الزرادشتيه دينا رسميا للدولة الا ما كان في عهد كسرى (قباد) الذي فرض المزدكية الاباحية حتى في بعض البلاد المجاوره وكان الانقسام الديني قد ادى الى انقسام سياسي

وساد الاقطاع في الدولة اذ تسيطر الطبقة الارستقراطية على البلاد ومنهم ذوو البيوتات الستة الذين كثيرا ما يرأسون اقاليمهم ويدافعون عن اقطاعياتهم واما الحكام وهم الشاهات وعددهم نحو خمسة عشر شاها فإن لهم الحكم في الدولة وهناك الامراء ويسمون (البرزكان) فلهم امتيازات ويتمتعون بالنفوذ المالي وكثيرا ما كان كسرى الفرس يعفيهم من الضرائب ، ويليهم الفرسان وهم من الاشراف ـ اما بقية الشعب فهم المزارعون والعمال ويشكلون معظم السكان ولكن لا شيء لهم من الامتيازات والحقوق وجلهم من الفرس او العرب والانباط والاكراد والاتراك واغلبهم كرقيق الارض وهم في مستوى معيشي ضعيف يباعون مع الارض وليس لهم الحق في ترك اراضيهم علاوة على ما عليهم من ضرائب باهظة . واهم الضرائب الخراج وتساوي نصف المحصول ثم ضريبة النوروز (ومعنى النوروز اليوم الجديد من الربيع) والمهرجان وهي ضريبة تدفع في يوم ذكرى تتويج كسرى الفرس وضريبة الموائد واجور القراطيس والضرائب والنقل والجسور والطرق والسدود وغيرها مع التعسف الشديد من قبل الجباة . كل هذا وذاك زاد من عوامل التذمر فاذا ما جاء المسلمون وهم يحملون عقيدة انسانية في جوهرها العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية فكان ذلك من عوامل قبول العقيدة الاسلامية ثم تباين القوميات المكونه لامبراطورية الفرس وكذلك تعدد اللغات والديانات والاختلاف الجنسي في العناصر ادى الى اختلاف في الاهداف وانقسام سياسي وهذا سبب ضعفا في الدولة وبالتالي ساعد على انتشار الاسلام

ومن العوامل التي اضعفت الفرس والروم على السواء حروبهم المستمره مما ادى الى فرضهم ضرائب باهظة لسد تكاليف الحروب علاوة على الخلافات في البيت الكسروي على العرش فقد قتل شيرويه والده ابرويز وجميع اخوته وبعده جاءت بوران اخته فادى تدخل النساء في الحكم وانتشار الدسائس وغيرها الى اضعاف الدولة الفارسية وكانت من العوامل التي ساعدت على قبول الاسلام دين السلام والحرية والعدالة الاجتماعية ومن هذا العرض للاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الفرس وقتئذ يتبت انه لم يكن يوجد لدولة الفرس نفوذ على البحرين لانها كانت في حالة ضعف وتدهور

وتجمع المصادر التاريخية على ان انتشار الاسلام في البحرين حدث سلما وبدون قتال منذ عهد الرسول (ص) الذي كان يدعو الناس في موسم

الحج ثم تطورت دعوته الى مكاتبة الملوك والامراء ورؤساء القبائل حتى ان اهل الكتاب ومجوس هجر لم يجبروا على ترك دينهم بل عليهم اعتناق الاسلام او دفع الجزية فهم يمارسون طقوسهم وعقائدهم الدينية بحرية تامة وسار الخلفاء الراشدون على نهج الخطة الحكيمة التي رسمها عليه الصلاة والسلام فقد ارسل مبعوثه (العلاء بن الحضرمي) ومعه رسالة الى (المنذر بن ساوى) يدعوه وقومه للدخول في الاسلام وبمعيته ابو هريرة وفي قول ومعه جماعة اخرون ايضا غير ابي هريرة وقد اوصاه الرسول (ص) بابي هريرة خيرا وكان ذلك بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة الموافقة ٦٣٠م فاعتنق المنذر بن ساوى الاسلام كما اسلم جميع العرب وبعض العجم وقد صالح العلاء الذين لم يسلموا من العجم صالحهم على الجزية وكان ذلك بعد فتح مكه واخضاع المشركين فيها واعتناق اهلها الاسلام اذ اصبحت للمسلمين قوة وهيبة لدى القبائل فتفرغ عليه الصلاة والسلام لنشر الدعوة في ارجاء الجزيرة العربية اما ما ذكره ابن سعد وابن الاثير بان الرسول (ص) ارسل (عمرو بن العاص) الى البحرين فلم يتفق على ذكره المورخون وكتب الحديث والمعاجم اللغوية وكتب البلدان وغيرها[٦٣]

ومن الوفادات التي وفدت من البحرين على رسول الله (ص) وفادة قبيلة عبدالقيس ويراسها (الاشج) واسمه المنذر الذي كان صديقا لراهب بدارين فلقيه في (الزاره) فاخبره الراهب ان نبيا يخرج بمكة فما كان من الأشج الا ان ارسل ابن اخته وهو (عمرو بن عبدالقيس) على راس قافله تحمل تمور هجر الى مكة المكرمة وطلب منه ان ياتيه بالاخبار عن النبي (ص) ووصل مبعوث الاشج الى مكة في العام الاول الهجري وقابل النبي (ص) فعرض عليه الاسلام فاسلم وطلب منه الرسول ان يدعو خاله (الاشج) للاسلام فلما وصل اخبر الاشج بما راى وسمع فاسلم وكتم اسلامه وفي الاشهر الحرم من العام الثامن للهجرة وفد الاشج مع بعض سكان هجر على رسول الله فاسلموا[٦٤] وتعلموا بعض سور القران الكريم وعلمهم الرسول (ص) اركان الاسلام وكتب لهم كتابا فيه امر ونهي ووعظ[٦٥] وعاد الوفد من مكة مع العلاء الحضرمي ومعه كتاب رسول الله (ص) الى المنذر بن ساوى فما ان وصلوا الى البحرين حتى حولوا الكنيسة الى مسجد وكان عدد افراد الوفد الذي ذهب مع (الاشج) سبعة عشر رجلا وفي قول اثنى عشر شخصا ومعهم (الجارود) وذكر (ابن سعد) اسماء اربعة وعشرين رجلا وهكذا اختلفت الروايات في عدد الوفد فكان اقله اثنى عشر واكثره اربعين رجلا فما كان من رسول الله (ص) الا ان اسكنهم في دار رملة بنت الحارث عشرة ايام وهنا يمكن القول

بأن عدد الوفد قد لا يرتفع اكثر من اثنى عشر رجلا ولم يكن لاعضاء الوفد دور قيادى هام وواضح في الاسلام فإن رئيس الوفد هو (الاشج)حين عاد بعد ان بايع الرسول عن نفسه فقط ولم يبايعه عن قومه فلم يكن رئيسا لقومه بل تعهد بقتال من لم يتبع تعاليم مبعوثه

وفي الوفادة الثانية التى حدثت في السنة التاسعة للهجرة وكان رئيس هذا الوفد هو (الجارود العبدى) وهو من رؤساء بنى عبدالقيس وكان على النصرانيه ثم اعتنق الاسلام وبقى في المدينة المنورة حتى تفقه في الدين وتمسك بدينه رغم الردة التى حدثت في البحرين في السنة الحادية عشرة لكنه استطاع ان يعيد قبيلته من بنى عبدالقيس الى الاسلام بل انه وقومه حاربوا المرتدين وكان مع صفوف العلاء الحضرمى

والاشج من عبدالقيس واسمه المنذر بن عائذ كان صديقا لراهب ينزل (بدارين) من بلاد البحرين فكان الاشج يلقاه في كل عام فلقيه عاما (بالزارة) وهى مدينة من مدن البحرين فاخبر الاشج (ان نبيا يخرج بمكه ياكل الهدية ولا ياكل الصدقه) بين كتفيه علامة يظهر على الاديان) وبعد ذلك ارسل الاشج ابن اخته وبعث معه تمرا يبيعه وملاحف وان منقذ بن حيان وهو من اهل البحرين كان جالسا في المدينة المنورة فمر به النبى (ص) فنهض فساله النبى عن حاله وقومه فاسلم وتعلم سورة الفاتحه (واقرا) وكتب النبى معه الى جماعة عبدالقيس كتابا ورجع منقذ الى هجر وكتم الكتاب ثم اخبر الاشج والد زوجته بكتاب رسول الله فاسلم واخذ الكتاب وقراه على قومه فاسلموا واجمعوا السير الى الرسول (ص) فسار الوفد وفي رواية لابن سعد عن الواقدى ان الرسول (ص) كتب الى اهل البحرين ان يقدم عليه عشرون رجلا فقدم عليه عشرون رجلا راسهم عبدالله بن عوف الاشج وفي رواية اخرى لابن سعد عن الواقدى ايضا ان الرسول كتب الى العلاء بن الحضرمى ان يقدم عليه بعشرين رجلا من عبدالقيس فقدم عليه بعشرين رجلا راسهم عبدالله بن عوف الاشج فقدم الوفد في السنة الثامنة ومعه الجارود وفي رواية ان الوفد قدم في السنة التاسعة وفي رواية اخرى في السنة العاشرة[٦٠]

مكانة البحرين الجغرافية

لقد كانت البحرين حسب مدلولها الجغرافي في صدر الاسلام والتى تمتد من كاظمة الى جلفار ذات اهمية استراتيجية فهى المنفذ نحو الجزيرة العربية بموانيها كالعقير والاحساء والقطيف ودارين وجزرها كاوال والمحرق وتنفار[٦١] وتاروت وجوار وغيرها واهم هذه الجزر جزيرة البحرين بسبب الظروف الاقتصادية والملاحية وهى مركز مهم للمواصلات بين الخليج العربى والعالم الخارجي ولموقعها الوسط في الخليج وصلاحية

مياهها للملاحة ورسو السفن كما اصبحت البحرين منطلقا لا نتشار العرب في الموانىء والاقاليم الشرقية لساحل الخليج العربى سواء ما حدث من هجرات بدافع اقتصادي او بسبب ما تعرضت له البلاد في سواحل الخليج من ظروف سياسية او اجتماعية دفعت بعض القبائل العربية للهجرة صوب الساحل الشرقي من الخليج فقد اورد الطبرى ان من قبائل البحرين كعبدالقيس وبكر بن وائل وتغلب قد سكنوا سواحل فارس وعلوا اهلها ايام كان سابور الملقب ذى الاكتاف ابن هرمز طفلا صغيرا وذلك في القرن الرابع الميلادى ولما اشتد عوده اخضع اللخميين المبادره وكانت البحرين تحت نفوذهم ثم اسكن سابور بعض قبائل تغلب وعبدالقيس وبكر بن وائل اسكنهم كرمان وتوج والاحواز بعد ان قام بتهجيرهم من مواطنهم واسكنهم في فارس(١٩)

اما في صدر الدولة الاسلامية فقد انتقلت بعض القبائل العربية الى ساحل فارس بدافع ديني وهو نشر الاسلام وقد استقر بعضهم في الحاميات العسكرية ورابطوا فيها بينما وجد بعضهم المجال مناسبا للعمل في التجارة والملاحة والزراعة او نشر العلوم الاسلامية وغيرها والباحث في اسماء العلماء المسلمين المشهورين في كافة فروع المعرفة يجد منهم من ينسب الى المدن التى استقروا فيها في اقليم الساحل الشرقي من الخليج العربي او في الداخل

وتعتبر البحرين من القواعد العسكرية التى انطلقت منها الفتوحات الاسلامية عبر الخليج نحو اقليم فارس وكرمان اللذين يقابلان اقليم البحرين وكانت البصره القاعدة الاخرى التى امدت الجيوش المنطلقة من البحرين في حروبهم في ارض فارس ففى السنة الرابعة عشرة الموافقه ٦٣٥م حاول (العلاء بن الحضرمى) القيام باعمال عسكرية على ارض الساحل الشرقي للخليج العربى ايام كان واليا على البحرين وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولكن دون طلب الموافقة من الخليفة مسبقا ومع ذلك فقد فتح جزيرتي لار وخارج ولعل سبب تلك المحاولة للفتح الاسلامي في فارس من قبل العلاء بالاضافة الى الرغبة الملحة في نشر الاسلام خاصة بعد ان تكللت حروبه للمرتدين في البحرين بالانتصارات ما وجده من مهارة في سكان البحرين بالملاحة وركوب البحار واستخدامهم السلاح هذا بالاضافة الى علمه بوفرة الخيرات في الاقاليم الشرقية لساحل الخليج في وقت ضعف فيه اسطول الدولة الفارسية لانشغالها بالدفاع عن حدودها الشرقية خاصة في الحيرة والمدائن وما حولها وكان العلاء بن الحضرمي قد اعتمد على المستوطنين العرب الذين نزلوا واستقروا على السواحل الشرقية للخليج والمقابلة للبحرين من قبائل عبدالقيس وتغلب وبكر بن وائل

وتميم ممن هاجروا جماعات وافرادا قبيل ظهور الاسلام الا ان اعتماده هذا لم يحقق الهدف ففشلت حملة العلاء فعزله الخليفة عن ولاية البحرين وعين مكانه (عثمان بن ابي العاص) وذلك في السنة السابعة عشرة فقاد المقاتلين من بني عبدالقيس وانزلهم في فارس وفتح جزيرة (ابن كاوان) الواقعة قرب مضيق هرمز وشيد مسجدا فيها وارسل الخليفة مددا الى عثمان بن ابي العاصي من جهة البصرة على ما ذكره الطبري والبلاذري وذلك عام ٢١هـ ثم امر عثمان بن ابي العاصي (الجارود العبدي) بفتح بعض القلاع في الساحل الشرقي للخليج ورغم ان الجارود لقي حتفه الا ان المقاتلين من اهل البحرين مع من ساعدهم من المسلمين في موانيء الساحل الفارسي استطاعوا التوغل في الداخل ففتحوا (اصطخر) التي كانت محصنة وتم فتحها في عهد الخليفة عثمان بن عفان ٢٨هـ / ٦٤٨م بقيادة عبدالله بن عامر الذي اكمل الفتح وشارك معه كثير من قبائل البحرين ومنهم بنوعبدالقيس وبكر بن وائل وبنو سامه

وفي العصر الاموي عبر بنو حنظلة وهم بطن من تميم عبروا الى فارس وسكنوا (اصطخر) وما حولها فوجدوا هناك عربا اعانوهم على معاشهم(٦٩)

اما مكانة البحرين الدينية

فقد اعتنق اكثر سكان البحرين الاسلام في عهد رسول الله (ص) وبني فيها اول مسجد جمعت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله (ص) وروى البخاري بسند عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال (اول جمعة جمعت بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله (ص) في عبدالقيس بجواثا من البحرين)(٧٠) وكان حصن يسمى حصن جواثا وقد وصفه البلاذري فقال بانه حصن البحرين ولا زالت اثار عين ماء ومنارة واساطين لمسجد قديم قائمة الى اليوم(٧١) وقد اتخذ المسلمون جواثا قاعدة رئيسية لهم كما كانت مركزا تجاريا هاما(٧٢) وتعرضت لحصار من قبل المرتدين وكاد المسلمون الذين تمسكوا باسلامهم ان يموتوا جوعا الا ان العلاء بن الحضرمي في عام ١٢هـ قاتل المرتدين وفك الحصار عن جواثا واهلها بعد ان قتل منهم خلقا كثيرا واستولى المسلمون على عتادهم ومتاعهم وفقد المسلمون في جواثا المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغرور(٧٣)

ومن الاسباب التي ادت الى اعتناق اهل البحرين الاسلام قوة العقيدة الاسلامية في بلد تعددت فيه الديانات حيث تسود (الوثنيه) في البحرين والتي شاعت وهرمت ثم الديانه (الاسبديه) وهي عبادة الخيل واسمها مشتق من (الاسب) اي الفرس او الحصان وهي ديانه فارسيه

كالديانه (المجوسية) وهى عبادة النار (ثم النصرانيه) وكانت في خلافات مذهبيه بين فرقها و (اليهودية) وكانت قوميه عنصريه تخص بنى اسرائيل لذا فقد سادت الفوضى الدينية في البحرين قبيل الاسلام فلما ارسل رسول الله (ص) رسائله الى البحرين اعتنق اهلها الاسلام مبكرا لانهم وجدوا في العقيدة الاسلامية وهى تحمل عقيدة اساسية في جوهرها العدالة الاجتماعية والمساواة وحرية الراى والاخوة والسلام وتوافدت الوفود من البحرين الى رسول الله فاصبحت للبحرين مكانة دينية خاصة بعد القضاء على المرتدين ثم منطلقا للفتوح في شرق الخليج العربى فاحتلت المكانة السياسية والعسكرية بعد ان ضعفت الدولة الساسانية التى اهتمت بفرض الديانة الزرادشية والمزدكية الاباحية وانشغلت بالحروب المتواصلة مع الامبراطورية الرومانية مما ادى الى فرض الضرائب الباهظة لسد نفقات الحروب مع ما تعرض له البيت الكسروى من خلافات ودسائس فقد قتل (شيرويه) والده (ابرويز) في السنة السادسة للهجرة وجميع اخوته فاعتلت العرش اخته (بوران) وهكذا فان ضعف الدولة الفارسية جعلها لاتهتم بسواحل الخليج العربى ومنها بلاد البحرين ولذا فقد اسلم المرزبان (سيبخت) الذي عاصر النبى (ص) وقال البلاذرى انه اسلم بدعوة من رسول الله

وللبحرين مكانة اجتماعية تتمثل بالعلاقات القبلية بين سكانها وقبائل الحجاز قبل الاسلام ومنهم بنو (عبدالقيس) الذين وفدوا من تهامة الحجاز واستقروا في البحرين و (تميم) الذين نزحوا من نجد والحجاز ونزلوا البحرين و (الازد) الذين خرجوا من اليمن واقاموا بتهامة الحجاز ثم تفرقوا فقصدت بعض بطونهم البحرين واليمامه وعمان وهناك جماعات في البحرين عرفوا عن الاسلام ودافعوا عنه في حياة الرسول (ص) ولما ارسل الرسول رسالة الى المنذر اسلم ومن معه من اهل البحرين عن رغبة ذاتيه اكيدة لما عرف عن الاسلام من تسامح وعدالة اجتماعية وسلام وباسلام المنذر فقد ثبتت سلطته السياسية في البحرين ووسعها حتى وفاته في السنة الحادية عشرة للهجرة بينما اصبحت الشؤون المالية من اختصاص عمال الرسول الآخرين دون ان يكون لهم شان يذكر في الامور السياسية

واما المكانه الاقتصادية للبحرين فهى عريقة بحكم موقع البحرين على سواحل الخليج العربى فترد اليها السلع الهندية كالمسك والقنا وتصدرها الى الحجاز وذلك عن الطريق التجاري عبر الربع الخالي الى البحر الاحمر ثم ان البحرين تشتهر بالانسجة كبز هجر وبالمحاصيل الزراعية كالتمور خاصة في هجر والتى تصدر الى مكة المكرمة(٧٤)

وكانت قبيلة عبدالقيس تمتهن

التجارة من البحرين الى الحجاز وتبادلها بالنقود الذهبية والفضية من الحجاز

واذا استعرضنا الاحداث التى مرت بها الدولة الاسلامية عبر تاريخها واثر تلك الحوادث على النشاط الاقتصادى في البحرين فإن حركة (الخوارج) التى لم تساهم البحرين في ادوارها الاولى عندما بدأت في اليمامة الا ان البحرين اصبحت مركزا هاما لحركة الخوارج حينما انضم اليها بنو عبدالقيس فانشغلت الدولة بالحروب والفتن فتدهورت التجارة واهملت الزراعة في البحرين حيث اصبحت المنطقة ساحة للنزاعات القبلية بين مناصر للخوارج ومعارض لهم هذا من جهة ومن جهة اخرى بين الخوارج انفسهم وبين سلطة الخلافة الاموية التي لم تشجع التجارة في البحرين مع انصراف دولة الخلافة الى التوسع بالفتوحات في اقصى الشرق والغرب وحروب متواصله في بلاد الروم والمعروف ان الذي ادخل حركة الخوارج في البحرين هو (نجدة بن عامر الحنفي) عام ٦٧و ٦٩هـ ٦٨٦ ٦٨٨م فانضم اليه بنوعبدالقيس فقاتل بني تميم واجبرهم على اداء الصدقة وكانت اهم دوافع انضمام بنوعبدالقيس في البحرين الى حركة الخوارج هي العصبية الاقليمية اذ ان البحرين احدت تفقد اهميتها التجارية فلم تعد سلع الشرق تفرغ في موانيها بل احدت البصره المكانه التى كانت للبحرين كما ان العصبية القبلية جعلت قبيلة عبدالقيس تنضم للخوارج لان بعضهم لم يعتنق الاسلام عن رغبه ذاتيه اكيده او انهم اسلموا ولما يدخل الايمان في قلوبهم خاصة وان الشعارات التى اطلقها الخوارج شعارات دينيه في الظاهر فانضمت بعض من القبائل لهذه الحركة

ولما كانت قبيلة (بنوعبدالقيس) قد وجدت حركة الخوارج خروجا على السلطة الاموية وبالتالى فان بعضهم وجد المجال مناسبا للحصول على الغنائم اما (ازد) البحرين فقد كانوا ضد بنى عبدالقيس لذا فقد قاوم الازد الخوارج بدافع من العصبيه القبلية هذا وان بعض (الموالى) في البحرين انضموا هم ايضا الى حركة الخوارج واخيرا فقد استطاعت الدولة الاموية القضاء على حركة الخوارج في البحرين وذلك لقوة الدولة خاصة في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان واعوانه وقواده ثم ان قادة حركة الخوارج لم يخططوا لحركتهم ولم يتفق قادتهم فيما بينهم ففشلت حركتهم' ' وبالقضاء على حركة الخوارج انتعشت التجارة والزراعة والصناعة وصيد اللولو ولكن صراعا جديدا بدا يظهر في البحرين اثر انتفاضة (الزنج) التى تزعمها على بن محمد بن عبدالرحيم في البحرين ٢٤٩هـ ٨٦٣م واعلن نفسه انه المهدى المنتظر فاحرز نجاحا في اول امره في هجر من بلاد البحرين ولكن

مالبث ان قاتله اهل البحرين فخرج
مع اتباعه صوب البادية وعاد للبحرين
بجيش من اهل البادية ولكنه فشل فكر
راجعا نحو البصرة عام ٢٥٤هـ
٨٦٨م ولم يفلح هناك وكان لهذه
الحركة تاثير على احوال البحرين
الاقتصادية خاصة وان فتنة اخرى
ظهرت في البحرين وهي حركة
(القرامطة) التي اسسها في
البحرين في عام ٢٧٨هـ ٨٩١م
ابوسعيد بن بهرام الجنابي واستمرت
في صراع مع دار الخلافة العباسية
فاضطرب الامر في البحرين وبالتالي
تدهورت الحالة الاقتصادية حتى
استطاعت بعض قبائل البحرين
ومنهم بنو عقيل وبنو تغلب القضاء
على القرامطة في القطيف وما جاورها
كما ان (ابا البهلول) قد وضع بداية
النهاية لدولة القرامطة على يد
العيونيين الذين اسسوا دولتهم على

انقاض القرامطة في البحرين وذلك
عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م واستمرت
دولتهم حتى عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م

والعيونيون هم فخذ من قبيلة
عبدالقيس يسكنون في واحة تسمى
العيون في الاحساء ورغم ما تعرضت
له الدولة العيونية في البحرين من
حروب مع القرامطة والخلافات بين
السلاجقة والعيونيين ثم بين امراء
العيونيين انفسهم والتي ادت الى
نهاية هذه الدولة التي دامت نحو
قرنين وفيها انتعشت الاحوال
الاقتصادية في فترات من تاريخها
المليء بالحروب والفتن الداخلية ثم
بدأ الغزو المغولي في القرن السابع
الهجري او الثالث عشر الميلادي
فتتدهور الاحوال الاقتصادية
والاجتماعية في البحرين شان مناطق
الخليج الاخرى

الهوامش

(١) د محمد رياض دراسات الخليج والجزيرة العربية ٣٦/٣ ٢٢١
(٢) كاظمة مدينة قديمة تقع اليوم في الشمال الغربي من مدينة الكويت وقد سكنتها قبيلة اياد ثم قبيلة بكر بن وائل ومر بها خالد بن الوليد ٦٣٣م في حربه مع الفرس وانتصاره عليهم انظر حسين خلف ,تاريخ الكويت السياسي ٢١/١ ٢٢/ وقد بقيت كاظمة الى اواخر العصر العباسي ثم تركت بعد ذلك /د عبدالرحمن النجم البحرين في صدر الاسلام ص٦٧
(٣) جلفار او جرفار وهي اليوم (راس الخيمة) انظر ياقوت الحموي معجم البلدان ١ /٣٤٧ د فالح حنظل رسائل الرسول ص٣٥
(٤) الوثيقه ١٨ ٥٤ الاعلاق النفيسه ص١٨٢ ابن الوردي زين الدين بن مظفر خريدة العجائب ص٧٦ معجم البلدان ٤/ ٩١ ابن رسته الاعلاق النفيسة ص١٨٢ ابن خلدون تاريخه ج٤ ص١٩٧ (العذيب ماء على ليلتين من البصرة) ومعجم البلدان ١ ٥٣٦
(٥) علي بهجت قاموس الامكنة والبقاع ص٢١٠ ,وابراهيم بن محمد بن مبارك المنهل ص٢٨
(٦) معجم البلدان ٤ ١٣٥ وفي النقائض ١ ١٧٥ (ان قطر من ارض البحرين) انظر لسان العرب ٥ ١٠٦ والهمداني صفه جزيرة العرب تحقيق محمد علي الاكوع هامش ٤ ص٣٢٥
(٧) محمود بهجت سنان البحرين درة الخليج العربي ص٥٩ ـ ٦١
(٨) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ١ ص٩٦
(٩) معجم البلدان ١ ٣٤٧ (والزبيح الذي اشار اليه ياقوت) هو (الربيح الصابي) لابي سنان الثاني المتوفى ٣١٧هـ ٩٢٩م
(١٠) النبهاني التحفه النبهانية ص١١ وجيمس هورسبرغ مرشد السفن للاسفار ص٣١٥ ذكر ان (تاسير) قد ابحر الى البحرين في عام ١٨١٧م ووصل الى مغاصات البحرين الواقعه على خط عرض ٢٦ درجة و٥٠ دقيقه شمالا
(١١) الوثيقة ١٨/ ٥٤
(١٢) معجم البلدان ١ ٣٤٧ وفالح حنظل رسائل الرسول ص٢٩ وقدري القلعجي الخليج العربي ص١٠

(١٣) الوثيقه ١٨ : ٥٤
(١٤) القرين هي الكويت حاليا
(١٥) د علي ابا حسين دولة الجبور في البحرين الوثيقة ٣/ ٩٧
(١٦) الوثيقه ١١ ١٣١ و١٤١
(١٧) معجم البلدان ١ ٢٧٤ و٣٩٥ تحقيق بروكلمان ١٨٦٦م والحسن الاصفهاني بلاد العرب ص٢١٩ و٢١٠ وقال ياقوت واوال ايضا صنم كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل انظر معجم البلدان ١ / ٢٧٤
(١٨) ياقوت ١ : ٢٧٤ (وعمر بن قميئه البكرى الوائلي) شاعر جاهلي له ديوان شعر مخطوط خرج مع امرىء القيس في توجهه الى قيصر فمات في الطريق فكان يقال له (الضائع) وفيه يقول امرؤ القيس

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا

انظر الزركلي الاعلام ٥ ص٨٣

(١٩) ب بوتس اوال والمحرق مجله الوثيقه العدد التاسع ص١٥٥ ـ ١٥٦
(٢٠) انظر الحربي (ت ٢٨٥هـ) وابن رسته الذي كان حيا فيه (٢٩٠هـ) وابن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ) واعتمد عليه قدامه (ت ٣٢٠هـ) والهمداني (ت ٣٢٠هـ) وياقوت (ت ٦٢٦هـ) وابن الفقيه الهمداني (ت ٣٣٤هـ)
(٢١) ابن دريد (ت ٣٢١هـ) في كتابه الاستقاق وابن حزم(ت ٤٥٦هـ) في جمهرة انساب العرب وابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) في الانباه
(٢٢) ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ) الاكمال ج١ ص٩٩ والسمعاني (ت ٧٣٩هـ) الانساب (مخطوط) ورقه ١٦ وياقوت (ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان والبغدادي (ت ٧٣٩هـ) مراصد الاطلاع ١ ٤٢٧ ٤٣٤ طبع بريل ١٨٥٢م وابن السباهي (ت ٩٩٧هـ) اوضح المسالك في معرفه البلدان والممالك مخطوط ورقة ٧٩
(٢٣) البلاذري فتوح البلدان ص١٠٧ والمرزبان منصب اداري يعني حاكم منطقه او ولايه
(٢٤) عبدالرحمن عبدالكريم النجم البحرين في صدر الاسلام ص ١١٨ ١٩٧٣م كاشاني
١١٢ ٦ ١٦٦ ١١١ ١١ ١١١ ١١١

(٢٥) ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) الاصابه في معرفة الصحابة وابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) في الاستيعاب وابن الاثير (ت ٦٣٠هـ) في اسد الغابة النجم ص١٠
(٢٦) ابو يوسف في كتاب (الخراج) وابن سلام (الاموال) الشافعي (الام) ابن اسحاق (السيرة) وسيرة ابن هشام والنجم ص١١
(٢٧) الاشعري مقالات الاسلاميين البغدادي الفرق بين الفرق
(٢٨) ابن دريد جمهرة انساب العرب والازهري تهذيب اللغة والجوهري الصحاح بد معاجم اللغة وقواميسها ودواوين الشعراء للشعراء الاوائل في صدر الاسلام وابن الانباري شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ذكر ذلك النجم ص١١و١٢

(٢٩) د. صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري والاسحة في القرنين الاول والثاني وابن بليهد صحيح الاخبار ولويس شيخو: شعراء النصرانية وحفافاى انتشار المسيحية في البحرين الماركوري في تقافه الهند عن البحم ص١٢

(٣٠) مسلم: صحيح مسلم جـ٣ ص ٣٩١ وشرح النووي (باب الجهاد) ود عزالدين ابراهيم: الدراسات المتعلقة برسائل النبي: المورح العربي ٢٣، ٢٤٠/١٩٨٣م

(٣١) ابن حنبل: المسند ١/٢٦٢ و٤/٧٤ و٧٥/ وابوداود: حديث ٤٢١٤/ والنسائي جـ٨ ص ١٧٤ وابن ماجه: حديث ٣٦٣٩ و٣٦٤٠/ وابن سعد: الطبقات جـ١ ص٢٥٨ وابن كثير: جـ٣/ ص ٤٩٤ والطبرى: تاريخه ٣/١٥٥٩ ومحمد حميد الله: الوثائق السياسيه ص ١١ و٧٤ والقلقشندى: صبح الاعشى ٦/٣٧٧ وابن سيد الناس: عيون الاثر ٢/٢٥٩ و٢٧٠ والحلبي: السيرة الحلبيه ٣/٥٥ ـ ٩٠ وابوالحسن الندوى: السيرة النبويه ص ٢٥٤ ـ ٣٣٣ والمورح العربى ٢٣: ٢٤٢ ـ ٢٤٣

(٣٢) وليم ميور: حياة محمد ص ٢٥٤ ـ ٣٥٧ وليون كايتاني: حوليات الاسلام ١/٧٢٥ ومرجوليوت محمد (ص) صفحه ٣٦٤

(٣٣) توماس ارنولد: الدعوة الى الاسلام ص٤٨ وبولدكه: د.بلوماسيه محمد ص ٨٣

(٣٤) ابن هشام: سيرة ابن هشام: ٤: ٢٥٤ و ٢٥٥

(٣٥) فالح حنظل: رسائل الرسول ص ٤٩ و ٥ و٥٧ و٨١ والدكتور عون الشريف: نشأة الدوله الاسلاميه ص ٧٧ والوثيقه ٦/١٤ و٥/١٢ والبحرين في صدر الاسلام ص ١٠١ ـ ١٠٧

(٣٦) البلاذرى ص ٧٨: ياقوت ص ٨: ٥: البحرين في صدر الاسلام ص ١٠٢ و١٠٣ الوثيقه ١: ٤٣ و٤٩ و٤: ٥٣ و ٦/١٤

(٣٧) مجموعه الوثائق السياسيه والخلافه ص ٧٩ و ٨٠ ورسائل الرسول (ص) ٥٧ و٥٨ والوثيقه ٥/١٢ و٦/١٣ حيث وردت كلمه (بديل) كما وردت في مصادر اخرى (بدل)

(٣٨) الوثيقه ٦/١٤ ورسائل الرسول وموفدود ص ٥٧ ابن طولون: اعلام السائلين ص ١٤١

(٣٩) ن م س/ ص ٥٨ ـ ٦٠

(٤٠) الوثيقه ١: ٤٦

(٤١) طبقات ابن سعد ٢٨٣ ورسائل الرسول وموفدوه ص ٥٩ والوثيقه ٦/١٤

(٤٢) ن م س ص ٦٠

(٤٣) فتوح البلدان ٩٢ والوثيقه ٥: ١٤ ورسائل الرسول ص ٦٠ ـ ٦١ وفي الوثيقة ٦/١٩ اورد نص الرساله كالتالى: (اما بعد فانى بعثت الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزيه فعجله وابعث ما اجتمع عندك من الصدقه والعشور

والسلام (وكتب ابي بن كعب)

(٤٤) فتوح البلدان ص ٩١ رسائل الرسول ص ٦٢ والوثيقة ٥/١٣ و١٤ وفي الوثيقة ١٨/٦ اعتبرت الرسالة الثالثة وابو يوسف القاضي الخراج ص ١٣١

(٤٥) الوثيقه ١٨/٦

(٤٦) فتوح البلدان ص ٩١ خالم بلغ الحلم والرشد رسائل الرسول وموفدوه ص ٦٤ والوثيقه ٦ ١٦

(٤٧) رسائل الرسول ص ٦٥ والوثيقه ٥ ١٣ وفيها وردت كلمة (عندى) بدلا من (اتاني) كما ان (لو) لم ترد في الوثيقه ١٣/٥ اما العدد ٦ ، صفحة ١٦ فلم ترد فيه الرسالة اصلا

(٤٨) ن م س ص ٦٦ وفي الوثيقه بعددها الخامس ص ١٣ و١٤ لم يذكر (لا) في حمله (وان لا تغعوا) كما وردت (احمل) بدلا من (يحمل) وحذف (لن) يصل وحذف (له) عند الله

(٤٩) الطبقات الكبرى ـ ٢ ٧٧ ورسائل الرسول ص ٦٨

(٥٠) الوثيقه ١ ٤٣ و ٥ ١٣ و ٦ ١٧

(٥١) الوثيقه ٤٣/١ ورسائل الرسول وموفديه ص ٥٠

(٥٢) نوس المستشرقون الالمان ح ١٧ والمؤرخ العربي ٢٣ ، ص ٢٥٦ ورسائل الرسول وموفدوه ص ٦٩ و٧٠

(٥٣) فتوح البلدان ص ٩٠ وسورة المائدة ايه ١٠٥

(٥٤) رسائل الرسول ص ٧١

(٥٥) رسائل الرسول ص ٦١ و ٧٢ والوثيقه ١ ٤٩ و ١٤/٥ و ١٩/٦

(٥٦) رسائل الرسول وموفدوه ص ٧٣

(٥٧) رسائل الرسول وموفدوه ص ٧٣

(٥٨) فتوح البلدان ص ٧٩ ورسائل الرسول ص ٨٠

(٥٩) رسائل الرسول ، ص ٨١

(٦٠) ابن سعد الطبقات الكبرى ٧٦/٢ والبكري معجم ما استعجم ص ١٣٠ و ٢٢٨ و ٥٦٥ ود البحم البحرين في صدر الاسلام ص ١٠١

(٦١) البلاذري فتوح البلدان/ ٧٨ و ٨٠ وياقوت معجم البلدان ٥٠٩/١ والبحرين في صدر الاسلام ص ١٠١

(٦٢) فتوح البلدان ص ٨٩ وفالح حنظل رسائل الرسول وموفدوه ص ٥٥ و ٥٦ والوثيقه ١٢/٦

(٦٣) ابن سعد الطبقات الكبرى ٧ و ٤ ق/١٩٢/٢
وابن الاثير اسد الغابة ٤ ٢٠٣ و ٢٠٤
البلاذري فتوح البلدان ص ٨٧
وياقوت معجم البلدان ٥٠٨/١
وابن كثير البداية والنهاية ١١٣/٨

(٦٤) عبدالرحمن النجم البحرين في صدر الاسلام ص ١٠٣ وابن كثير البداية والنهاية ٥/ ٤٠

(٦٥) الاصابة ٣/ ٤٣٨

(٦٦) ر م س ٢/ ١٧١ والبحرين في صدر الاسلام ص ١٠٤ و ١٠٩ ـ ١١٢

(٦٧) شفار جزيرة بين اوال وقطر وكانت من اعمال هجر

(٦٨) الطبري تاريخه ص ٨٤٥ والشيخ عبدالله بن خالد ال خليفة وعبدالملك الحمر البحرين عبر التاريخ جـ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٦

(٦٩) ابن حجر تهذيب التهذيب ٥/ ٢٧٤ وانتشار العرب في اقاليم الخليج الشرقية ص ٥٩ ـ ٧٤ البلاذري ص ٤٩ الاصطخري ص ١٤

(٧٠) البخاري الجامع الصحيح ٣/ ١٦٥ وابوداود السنن ١/ ٢٦٤ البيهقي السنن ٣/ ١٧٦

(٧١) البلاذري فتوح البلدان ص ٨٣

(٧٢) البكري معجم ما استعجم ص ٤٠١

(٧٣) ابن سعد الاصابة ٢/ ٧٧ و ٣/ ٨٨ والبحرين في صدر الاسلام ص ٦١ و ٦٢/ وجواثا اليوم تقع في وسط وشرقي قرية الكلابيه الحالية

(٧٤) ابن سعد ٢/ ١٧١ و ٥/ ٤١١ والسنن للترمذي ٣/ ٥٩٨

(٧٥) البحرين في صدر الاسلام ص ١٢٧ ـ ١٣٧

عربُ الصّحراء

تاليف هارولد ديكسون
ترجمة حمد السعيدان

حكايات مشهورة من أمسيات البادية

يرجع البدو أسباب المرض الى أحد شيئين امر الله او الحسد والسحر ومن المعتقد بين البدو أن بعض النساء يستطعن عمل رقية تسحر الرجال و النساء او تعويذة لدفع السحر ، وتشتهر نساء



٥

ننشر فيما يلي من صفحات ،الجزء الخامس من كتاب هارولد ديكسون الذي ينشر هنا لاول مرة بالعربية والمؤلف في هذا الجزء يتوغل بنا أكثر في حياة البادية العربية التي عاش فيها سنين طويلة وأحبها بعمق ويقدم لنا صورة شاهد عيان لبعض الافكار والمعتقدات والعادات بل والكوارث التي كانت تعتري البادية في أوائل القرن

الوثيقة

الأمراض .. ومعتقدات السّحر .. والحسد ..

(الصلب) بأعمال السحر ويسمى (سحر صلبه) ويشاع أن نساء الصلب يتمتعن ببراعة اتيان السحر وتسليط الارواح الشريرة . هذا الى جانب مهارتهن بتحضير السموم ووصفات الغرام لمن يريد وكذلك مسائل التفريق بين المرء وزوجته عن طريق استخدام المواد اللازمة كالنفث في العقد وغيرها من العزائم كما تشتهر بذلك (الكاوليات) من بعض قبائل العراق حيث يلبس اكثر الناس انواعا مختلفة من الاحجبة وتسمى (جامعة) وهي حقيبة جلدية صغيرة تحتوي على مجموعة من التعاويذ والآيات القرآنية لحمايتهم من الاخطار والشرور اما بعض القبائل البدوية فتعتبر الاحجبة خطا كبيراً فهم يعتمدون على الله وحده

اخبرني احد الكويتيين عن بعض النساء اللاتي يصنعن الرقيات للاحتفاظ بحب أرواحهن ، خاصة في حالة وجود زوجتين ، ومثل تلك



الرقيات تنجح عالىا لدرجة انها قد تقتل الرجل بقوة فاعليتها ومن الضروري لنجاح تلك الرقية ان تحضر الزوجة بضع شعرات من راس زوجها او لحيته عندما يكون نائما وتعطيها لناسخة الرقية وعلى الزوجة ان تسعى لتدبير امرها لكي يتناولها الزوج في طعامه اوشرابه

وعندما يصاب الرجل او المراة بضرر الرقية يعالج المصاب بالصورة التالية

تحضر سلطانية بها ماء بارد ويوضع في الماء مقص ومسط نسائي ، وراس فاس الحطاب ، وابرة صغيرة، واخرى كبيرة تستخدم في صنع الاشرعة ، وحصاة صفراء مستديرة ثم توضع السلطانية فوق راس المريض ثم يصب رصاص مصهور في الماء البارد وتمسك السلطانية فوق راس المريض لعدة ثوان ثم تزاح ويقال ان العين الشريرة تخرج مباشرة من المريض الى السلطانية (الوعاء)والمواد التى تحتويها

وتنتشر الكهانة والعرافة بين نساء البدو وخاصة الصلبة والطريقة المطيرية لقراءة البخت - وهي وسيلة للتسلية اكثر منها شيئا بالغيب - هي استعمال الودع ونوى التمر وقطع من الفخار تخلط بعضها بالبعض ثم تلقى بطريقة تلقائية على الارض ، وتلقيها العرافة ثلاث مرات أو خمس مرات لتقرا طالع شخص ما ، وتنثر الودع في مساحة صغيرة كما يلقى

البرد ، ثم تفحص تلك القطع وتلاحظ طريقة توزيعها ، ثم تحكي قصة قصيرة ، فمثلا قالت لي « ان ابنك الصغير بعيد عبر البحار ، وهو يكتب لك الان خطابا وسيصلك الخطاب في خلال ستة ايام وهو يفتقدك كثيراً . وهناك رجل طيب يعتني به »

ولتحديد القيام برحلة او البدء في مشروع عمل ، يتبع البدو الطريقة التالية يغلق الرجل عينيه ويمد يديه امامه وراحتاه مفتوحتان أمام صدره واصابع يديه تشير الى بعضها البعض عندئذ يحاول بطء وعيناه مغلقتان ان يضم اصابعه معا ، لكي يتلامس طرفا الاصبع الوسطى من كل يد تماما واذا حدث ذلك فان الحظ الحسن سيلازم تنفيذ الرحلة او المشروع واذا لم يحدث التلامس التام فلا يتم اتخاذ اي خطوات في تنفيذ الرحلة او المشروع وعادة يتكرر ذلك الاختبار ثلاث مرات

ولجلب الحظ الحسن ، عندما ياكل البدوي التمر ، يلقي النوى من فوق كتفه معتقدا ان كل نواة تلقي ترمز الى جمل يحصل عليه في غارة قادمة !

ويعتقد البدوي أيضا في الاشباح والجن والأرواح ، وكانوا يخبرونني انه من الحكمة تجنب مدافن البدو ، وخاصة في الليل ، وتفسير ذلك انه في الظلام ، وخاصة حوالي منتصف الليل ، تخرج ارواح الموتى من قبورها وتجلس عليها وتتبادل الحديث ، واذا حدث واقترب شخص من عالمنا ، فإن

الارواح غالبا ما تصيح به وتسبه وتلعنه واحيانا تتجاور ذلك ، وتمنع اى شخص من المرور وذلك بالقاء الحصى فى أعقابه والمقبرة العربية الكبيرة فى الكويت مشهورة بالجن ، ويروى الناس قصصا غريبة عن اشخاص تجرأوا على الذهاب قرب ذلك المكان ولا حقتهم بل وهاجمتهم تلك الارواح الشريرة

ويعتبر بدو الحسا والكويت شجرة العوسج ذات منزلة خاصة وتحت حماية الجن . فلا تقطع ابدا أو يكسر اى فرع من اغصانها ومن المعتقد ان من يسبب ضررا لتلك الشجرة تلاحقه اللعنات ويتعذب ، وخاصة فى الليل من قبل الجن الاشرار وتوجد ايضا منطقتان فى الشرق الشمالى للجزيرة العربية من المعتقد انهما مسكونتان الاولى حفرة كبيرة تسمى ابرق الخليفة ، وتشتهر بسقوط حجر نيزكى (شهاب) فيها فى القرن الماضى

وكل البدو الكويتيين يعرفون ذلك المكان ، ولكنهم يتظاهرون بالخوف من الاقتراب منه اذ يقال انه مسكن للجن والمنطقة الثانية هى « عين العبد » ، عند الحافة الجنوبية لمنطقة الكويت المحايدة والعين هى بركة من الماء اتساع سطحها اربعون قدما ، وتنبع فى وسطها العين التى تتدفق من الارض والمياه محملة بشدة بمعدن (الكبريت) ورائحتها مثل البيض الفاسد وتنتشر فى الجو مسافة ميل حولها ويحكى العرب قصة وجود « المخلوق الاسود » الذي يسكن وسط البركة وله راس زنجى

وهذا الحيوان احد الجن ، يطفو بين حين واخر الى السطح ، ويظهر لبعض الوقت ثم يختفى مرة اخرى وفى احيان اخرى يقال ان هذا المخلوق يخرج من وسط بركة الماء (العين) ثم يجلس على حافتها وقد زرت تلك المنطقة المسكونة مرتين ، ولكنى لم ار شيئا يدعو للدهشة وقد رفض كل مرافقى الاقتراب اكثر من ٣ ياردة ما عدا واحدا ، هو الرجل الشجاع مرشد الشعرى

للبدو ايضا معرفة طبية واسعة ، ولكن الامراض الشائعة تعالج مع الاسف بطريقة بدائية جدا والادوية المعتادة تعتمد غالبا على استعمال الاعشاب الطبية او الادوية الطبية الاخرى

أعشاب.. وعقاقير طبيّة

● الحناء والكحل لكل منهما استخدامات طبية وجمالية وتستخدم الحنه السوداء لباطن الاقدام والايدى ، والحنه الحمراء لاطراف اصابع الايدى والاقدام وهو تقليد سائد بين نساء المدن ، ولكن الفتيات البدويات يستعملن الحنه الحمراء فقط ، ولتزيين ايديهن واظافر

ايديهن واقدامهن فقط ولا يزين بقية اقدامهن رغم ان استعمال الحنة في الأصل لون من النضارة والجمال فمن المعروف انها تجعل ملمس البشرة خشنا وخاصة بشرة الاقدام وتعطي للجلد مناعة ضد التشققات والجروح والرجال المشتغلين بصناعة صيد اللولو يضعون الحنه دائما في اكفهم لكى تصبح خشنة ولا تتعرض للتقرحات عند التجديف وسحب الغواصين

والكحل عباره عن مسحوق الانتيمون يستعمل عادة لتجميل العيون وزيادة سوادها ولكن يدهن به ايضا داخل الجفون كعلاج لالتهاب باطن الجفون والعيون المحتقنة

● يستعمل بول الناقه بكثرة كمطهر وايضا كمحلول لغسل العين وتطهير الجروح وهو محلول مفضل لغسل الشعر عند البدو اذ انه يصبغ الشعر قليلا ويقضى على الحشرات الطفيلية بالراس في الحال ويستعملونه ايضا كمسهل عام

● الجعدة عشبة طبية صحراوية تغلى في الماء ثم توخذ كمطهر مفيد جدا ويعتبرها البدو ايضا علاجا لما يسمونه ، حمى البصرة ، والمحتمل انها الملاريا

● وتشرب المراة التى تسكن قرب البحر حساء السمك ليزيد لبنها وتقدم اسماك الاسبرط (العوم) المجففة للبقر لنفس السبب ويعتقد سكان المدن ان لحم سمك القرش يفيد في علاج العجز الجنسي عند الرجال

● اذا عض ثعبان شخصا ما ، يشق اولا مكان العضة بعمق بواسطة سكين لكى يتدفق الدم . ثم يوضع ضاغطان لوقف النزف على المكان الذي يعلو العضة ويجب ذبح خروف او ما عز في الحال . ويلف الطرف المجروح في جلد الحيوان وهو ما يزال ساخنا ومن المستحسن لف جسم الشخص كله بجلد الحيوان ، وذلك لكى يعرق بشدة واذا كان الجو باردا ويظهر العرق ببطء يرقد المريض على ظهره وتشعل نار على جانبيه قريبا منه ثم يعطى المريض شايا مصنوعا من نبات الرمرام ، ان وجد ويغطى مكان العضة تماما بمسحوق الرمرام

يجب التنبه الى منع المريض المصاب من النوم . ويجب ان يظل مستيقظا لمدة اربع وعشرين ساعة باى وسيلة كانت ثم يزال جلد الحيوان ولكن الضمادات تظل في مكانها ليلا ونهارا لمدة عشرين يوما ، رغم الام وورم العضو المصاب

وقد اخبرتنى امراة من قبيلة الرشايدة ، من قطر وكانت حية الكوبرا قد عضتها في كاحلها ، انها عولجت بالطريقة السابقة وفي النهاية تورمت قدمها لدرجة انها « انفجرت » عند منتصف القدم وسال منها سائل صديدى بكميات كبيرة واعتقد ان ذلك سم الثعبان ، ولكن الاحتمال الأكبر انه كان صديدا غنغرينيا تكون نتيجة توقف الدورة الدموية

ونبات الرمرام ، الى جانب استخدامه كعلاج ضد لدغات الثعبان ، فهو يستعمل ايضا كعلاج

للفم المحتقن ، واللثة الضعيفة ، وتقرحات الفم لدى الاطفال . والافواه الملتهبة بسبب مرض الاسقربوط وبالنسبة للكبار يغلى النبات في الماء والحساء الرقيق الناتج عنه يستعمل كمحلول لغسيل الفم بعد تبريده وبالنسبة للاطفال يسحق نبات الرمرام بواسطة الهاون ، ويخلط بالقرمز (وهو صبغة حمراء تستعمل كعلاج للعيون المحتقنة عند سكان المدن) وتدهن به الاماكن الملتهبة باستعمال الاصابع

ولدى القبائل العراقية ، يعتقد ان حجر السليمانية (عين الهرة) يزيل كل الآلام والسموم اذا دهن به مكان لدغة العقرب

● الام الراس ، والمعدة والظهر تعالج عن طريق الكي فيكوى الصدر المصاب بالبرد وتكوى معدة الاطفال بابرة ساخنة فوق منطقة البطن كلها ويستعمل الكي كذلك كعلاج لمرض السل ، وهو مرض خطير بين بدو الجزيرة العربية وهو يصيب النساء والاطفال اكثر من الرجال وعندما يصاب شخص ما بالسعال مع درجة حرارة منخفضة ، ويقوم اقاربه بوسمه بالنار مباشرة مرتين في الرسغ الايسر امام اصبع الابهام واذا لم تتحسن صحته خلال خمسة عشر يوما او نحوها ، يوسم بالنار مرة اخرى كما حدث في المرة السابقة ولكن في الرسغ الايمن واخيرا اذا لم يبد اى تحسن يوسم اسفل اللسان بالنار كما سبق وهذه العملية مؤلمة بدرجة كبيرة ، وتسبب تورم الفم لدرجة ان المريض لا يستطيع التحدث اطلاقا لعدة ايام وبعد ذلك لا يتخذ اى اجراء بالنسبة للشخص المصاب واذا مات او ماتت ، اذن « ما باليد حيله فقد حان اجله »

● هناك عدة اصابات بمرض الزهرى بين البدو ، وعلى حين ان سكان المدن يعرفون بطريقة او باخرى كيفية علاج هذا المرض ، فان البدو كثيرا ما يهملونه وينقلون العدوى لزوجاتهم واطفالهم لدرجة ان عائلات باكملها مصابة بذلك الداء وقد اخبرني مطيرى ان الاوراق الجافة الماخوذة من ثلاثة نباتات صحراوية معروفة ، القيصوم ، الشيحة ، والحرمل كان يستعملها البدو ولها تاثير بالغ ضد مرض الزهرى عند تذخينها في العليون

● ومن اهم السمات المثيرة موقف البدو من المرض وخاصة الجروح والالتهابات وهو اعتقادهم الجازم ان روائح معينة لها تاثير ضار على مسار الشفاء وبالتالى فمن الشائع ان ترى البدو يد خلون مدينة الكويت وفتحات انوفهم مسدودة بقطع قماش قذرة والتي يحتفظ بها المصاب في انفه حتى يحين وقت مغادرته المدينة مرة اخرى وطبقا لما يقول دكتور سي ميلري طبيب مستشفى الارسالية الامريكية في الكويت فان تلك السدادات غالبا ما تكون مشبعة برائحة كريهة لمادة صمغية ماخوذة من نبات من فصيلة الجزر يسميه

العرب (حلتيت) . والمعتقد ان هده الرائحة النتنة لتلك المادة الصمغية سوف تقضي على تاثير اي رائحة طيبة تمر بها

وبسبب التاثير الذي تسببه الروائح على الجروح فان الشخص المصاب بجرح او بكسر في العظام عادة ما يوضع في مسار الرياح داخل الخيمة ويجب ان تظل فتحات انفه مسدودة ويجب تجنب الاطعمة واطباق الحلوى والا تقيح الجرح

والأكثر ضررا هو الاقتراب من رجل على جنابة . ولم يجد وقتا للاغتسال . او امراة حائض اذ يعتبر كلاهما نجسا والروائح التي لا تعتبر ضارة تشمل دخان حرق روث الجمال

ودخان التبغ . ورائحة القطران المعد لدهان الجمال والذي يعالج الجرب ورائحة القهوة المحمصة

● في حالة الجدري . من المعتقد ان روائح ادمية معينة ورائحة اطعمة محددة لها تاثير فعال على المريض وبما انه ليس معروفا اى الروائح مفيدة . واى الاطعمة تساعده على التحسن . فيعرض على المريض مجموعة روائح بفادة . حيوانات . اصدقاء من الجنسين . الخ ويعطى اطعمة غدائية مختلفة على امل العثور على المناسب منها لشفاء المريض

● الكسور البسيطة يعالجها البدو بطريقة مرضية ويفهمون استعمال الجبائر . وعادة قبل وضع الجبائر يربط العضو المكسور بخليط من طحين الشعير . والملح والبيض . وفي نهاية مدة خمسة وعشرين يوما تفك الضمادة والجبيرة وفي فترة التئام العظام يشرب المريض اللبن او حليب الناقة فقط

● في وقت السلم يستخدم بول الاطفال احيانا كدهان للجروح كنوع من المحلول المطهر وفي الغارات يغسل رفاق الجرحى جروح المصابين ببولهم لنفس الغرض . ولكن للحصول على احسن النتائج يجب ان يأتي البول من شباب شجعان . وليس من الرجال الأكبر سنا وعلاج اخر للجروح يؤخذ غشاء الجمار الوليد ويجفف ويقطع جزء منه ويبقع في الماء المملح ويدهن به الجرح وتربط فوقه ضمادة ويستعمل ذلك أيضا كعلاج للبثور

● اغرب ما هناك هو علاج عضة الكلب فاذا عض كلب مسعور شخصا ما فيجب عليه في الحال ان يجد رجلا من احد البزران من قبيلة المطير ويشرب ملء فنجان قهوة من دمه (ويدفع ثمنه) ودم البزران الماخود بتلك الطريقة يعتبر بين كل قبائل الشرق الشمالى من الجزيرة العربية علاجا نافعا مؤكد النجاح

قصص.. وطرائف عربيّة

العربي بارع جدا في سرد النوادر والحكايات، وإن صدق حدسي يجب أن أقر بأن هناك مئات القصص المهمة ما زالت موجودة ولم يسبق نشرها في أي كتب عربية ورجال البدو والحضر يجيدون سرد القصص، وفي ترحالهم، وفي مخيمهم، أو في أمسياتهم عند انتهائهم من أعمالهم اليومية يبدأ سرد الروايات وغالبا ما تكون تلك القصص من النوع المكشوف، ولكن العربي لا يأبه لذلك وسأسرد بعضاً منها في هذا المجال

القصة الأولى قصها علي صويحي بن جريمط من قبيلة العوارم عام ١٩٣٥ قائلا في ذات مرة كان احد رجال قبيلة العوارم مسافرا قرب حائل بصحبة زوجته الشابة الحامل وعند مرورهما عبر ممر ضيق بين بعض التلال الصخرية العالية جاءها المخاض ثم فجأة ولدت طفلا، ولكنها ماتت أثناء عملية الوضع رغم كل محاولات زوجها لإنقاذها وقام الزوج بدفنها وذلك بوضع جثتها في كهف صغير قريب ولعلمه ان الطفل سيموت بعد قليل لقلة الحليب، فقد أراحه فوق صدر الأم ولف ذراعها الايسر حوله ثم ألقم الطفل ثديها الأيسر ثم سد مدخل الكهف بالحجارة وابتعد في طريقه

وبعد تسعة أشهر حدث أن جماعة من البدو من نفس القبيلة مرت بتلك البقعة وخيمت قرب المكان الذي دفنت فيه المرأة والطفل ولمعرفتهم بالقصة، فقد ذهب بعضهم الى مدخل الكهف ليتأكدوا من أن الجدار ما زال مسدودا ولدهشتهم لاحظوا اختفاء عدة أحجار ووجود فتحة في الجدار وخارج الكهف وجدوا في الرمال آثار أقدام طفل يجري حول المكان

وانتابهم الخوف وساورتهم الوساوس فرحلوا سريعا من ذلك المكان المسكون وبعد مدة من الزمن أخبر البدو والد الطفل الذي أسرع الى ذلك المكان ووجد الفتحة في الجدار وآثار الاقدام الصغيرة وعندما نظر داخل الكهف، وجد صبيا حيا جالسا يترنح الى جانب الهيكل الذاوي لزوجته الميتة وقد جف جسد الأم كله ما عدا عينها اليسرى والجانب الأيسر من وجهها، وثديها الأيسر - الذي كان ما زال مملوءاً باللبن - وذراعها الأيسر كانت تلك الأجزاء حية، وتشبه أعضاء أي امرأة حية وتقدم الرجل، مفعما بالخوف والشكر لله وأخذ الطفل بعيدا، ووضعه فوق الجمل ثم رحل بعد دفن بقايا زوجته في مقبرة رملية هذه المرة

وأكد الراوي أن تلك القصة حدثت

في حياة أبيه ، وانه عرف طفل شب محبوبا من الله والناس اصبح محاربا مشهورا في قبيلة واطلق عليه اسم حلاوى . ومعناه مولود في الصحراء .

وهناك قصة اخرى من المعتقد انها حقيقية اخبرني بها رجل من قبيلة شمر الذي انطلق على ظهر راحلته (الذلول) لاصطياد البقر الوحشي في رحلة تستغرق عدة ايام وكما هي عادته اخبر زوجته انه سيعود بعد اربعة ايام قبل حلول الظهر . واذا لم يعد في ذلك الوقت فهو اما مريض أو حدث له حادث وعندما لم يرجع في الوقت المحدد خرج اخوه راكبا جمله للبحث عنه وكان يعرف المكان الذي تكثر فيه قطعان البقر الوحشي باعداد ضخمة واتجه الى ذلك المكان

سافر طوال الليل وفي الصباح التالي مر بفخ منصوب باحكام في الارض ومحاطا باغصان الشجر واندهش عندما رأى في ذلك الفخ بندقية وكيس بارود وخنجرا كان يمتلكها اخوه وكانت هناك اثار اقدام البقر الوحشي باعداد كبيرة حول الفخ ومن الفخ ظهرت اثار دقيقة لبقع من الدم واخذ يقص الاثر فوجد ناقة اخيه الذلول ترعى في سلام في منخفض من الارض وعلى بعد مسيرة عدة اميال رأى قطيعا من البقر الوحشي يرعى العشب واقترب منه ببطء وحذر ، واخذ يتتبع اثار الدماء على الارض فرأى ، إحدى الابقار الوحشية تحمل شيئا فوق ظهرها ، وعندما اقترب اكثر تعرف على اخيه حيا وفي كامل وعيه بالرغم من فقدانه لتلك الكمية من الدم ، على ظهر الحيوان . وكان فخذاه مثبتين فوق قرون الثور الطويلة التي تشبه الحراب ، ورأسه يتدلى الى الخلف ناحية الذيل وذراعاه متشبثتين ببطن الحيوان

ماذا يفعل الآن ؟ اذا أطلق النار على البقرة الوحشية فبالتأكيد سيقتل اخاه معها ، وكيف يستطيع الاقتراب بدرجة كافية لقتل الحيوان بخنجره ؟ وفكر في خطة قام بحركة التفاف وصل فيها الى منخفض في الأرض مختف عن الانظار وهناك اختار احسن بقعة للرعي ، من المؤكد ان تاتيها البقرة الوحشية لترعى وبين الاعشاب والزهور غرس خنجره في الارض وكذلك خنجر اخيه متباعدين قليلا واخذ ينتظر الفرصة التي تجعل الحيوانات تاتي الى تلك البقعة ليتمكن اخوه من التقاط احد الخنجرين ثم ابتعد قليلا وانتظر خلف صخرة

وبالطبع جاءت الأبقار لترعى في نفس البقعة التي غرس فيها الخنجرين وبحث الرجل الموجود فوق ظهر البقرة بدقة ووجد خنجره منتصبا بين الحشائش واستطاع التقاطه بيده وبجهد شديد أعمده في قلب الحيوان وتدحرجت البقرة على الارض واسرع الاخ ليطلق على الحيوان رصاصة اخيرة

ولعدة شهور رقد الأخ من شدة المرض ، فقد اخترقت قرون الحيوان



فجدية ، ولكنه بدأ يتحسن وبعد أن شفي أخذ يروي قصته وهذه بدايتها « لقد وصل الى قطيع البقر الوحشي ونصب فخه بعناية ، وانتظر ساعات طويلة ان يقترب البقر منه ليطلق عليه الرصاص وعندما ظن ان اللحظة المناسبة قد حانت ، أطلق بندقيته على أكبر بقرة في القطيع وكان واثقا من قتلها لدرجة انه تأهب ليجهز عليها وفي تلك اللحظة اندفع الحيوان نحوه وبطحه بقرنيه ولكن الصياد تشبث بالقرون الطويلة فنسفته البقرة فوق ظهرها ، وكاد أن يغمى عليه من الألم ولكنه أخذ يبذل جهودا اضافية تمكنه من التشبث بذراعيه حول بطن البقرة الوحشية فكان يعلم أن سقوطه سيدفع الحيوان الى نطحه بقرونه الحادة أو الهرب بعيدا كما لم يكن بالامكان قتل البقرة لأنه فقد خنجره الذي سقط من حزامه وكذا البندقية ملقاة على الأرض منذ تلك اللحظة التي داهمه فيها الحيوان ، ولم يكن يحمل أي سلاح آخر حتى استطاع أخوه تمكينه من الخنجر

وهذه القصة معروفة بين رجال قبيلة شمر ويقال انها حدثت قرب حائل منذ حوالى مئة سنة

ويقص رجال قبيلة العجمان قصة مسلية عن قبيلة العوازم وهي ترتبط بمثل تتداوله قبيلة العوازم عند نصب خيامهم فعندما يريدون اقامة مؤخرة وجدران الخيمة الخاصة ، (الرواق) فانهم لا يقولون المصطلح العام « روق البيت » ومعناها « انصب الرواق » ، بل يبدلون ذلك بقولهم « استرالبيت » ويتحشون استخدام كلمة « روق » (أو القول لامرأة ، روقي) اذ ان ذلك يذكرهم بقصة بذيئة نوعا ما عن قبيلتهم ويشعرون بالحرج منها والقصة من جانب العجمان حدثت كما يلي

ذات مرة نصب أحد محاربي قبيلة العجمان خيمته بالقرب من فرد من قبيلة العوازم كانت تقوم بينهما علاقة ودية وكان لكل من الرجلين اخت حسناء ، وكثيرا ما كانت البنتان تلعبان معا عندما يقوم الأخوان برعي الجمال أو القيام بغارة ولم يكن الشابان متزوجين أو حتى يملكان المال الكافي ليعولا زوجة وذات يوم بينما كان الشابان في طريق عودتهما من رحلة يوم شاق للصيد ، قال الشاب

العجمانی للشاب العارمی « ما قولك في أن نتبادل الأختين هذا المساء ـ أحد اختك وتأخذ اختي ' لا أحد حولنا أو بقربنا . دعنا نقضي وقتا طيبا » وافق الشاب العارمي ، وعند وصولهما الى المخيم اخبرا اختيهما وكذلك وافقت الأختان . ولكن قبل ان يرسل الشاب العجمانی اخته الى خيمة صديقه . حذرها بقوله . « كوني حذرة ولا تدعی العارمی ينال منك أي منال فانك لو فعلت ساقتلك لا محالة وإذا حاول ان يصل اليه تدحرجی على الأرض وتحسی صماته وامنعيه بأی طريقة من الوصول الى عرضه »

ثم أخذ كل من الشابين أخت الآخر الى فراشه . ولكن الفتاة العجمانية الماكرة لم تسمح للشاب العارمي أن ينال منها وتدحرجت في جميع الاتجاهات متفادية قبضته . واستطاعت أن تفعل ما امرها به أخوها ومن شدة الغضب لخيبة أمله صاح الشاب العارمي باخته في الخيمة الاخرى قائلا . لا تدعی صديقي يلمسك . بل افعلي ما تفعل اخته . روقي روقی (تد حرجي تدحرجی ') واتاه صوت اخته قائلا « لا استطيع يا أخي لقد فات الاوان »

ومنذ ذلك الوقت لا تستعمل قبيلة العوارم ابدا هذا الاصطلاح روق (أو روقی) البيت

وبعض القصص الشعبية المحبوبة تحتوى على متناقضات مسلية وتشبه في ذلك (ألف ليلة وليلة) أو (حكايات إيسوب) الأغريقی ، ومن ذلك النوع قصة حقيقية كان يرددها ناصر باشا السعدون

فبينما كان شيخ قبائل المنتفق (حاكم البصرة) مخيما ذات مرة قرب الناصرية على نهر الفرات ، أتاه احد اتباعه القدامى وأكثرهم أهلا للثقة ليقدم له القهوة ، وقال ناصر باشا ـ الذي غمرته موجة عطف مفاجئة ـ لتابعه وكان اسمه متشعاب ، انه يريد مكافأته على السنوات العديدة التي قضاها في خدمته باخلاص « اطلب ما تريد يا متشعاب وسيكون لك » ، وأجاب متشعاب ، «أنا لا أريد اي مكافأة أو هدية ان مطلبي الوحيد هو أن أخدمك بأمانة حتى أموت » قال ناصر « هذا شيء جميل ولكنك قمت بخدمتي على أكمل وجه فعلا حتى الآن وأريد أن أعبر لك عن تقديری »

قال متشعاب « حسنا يا سيدی ، ما دمت مصرا ، سأطلب منك معروفا واحدا فقط » قال الباشا العظيم « تكلم واطلب ما تريد » أجاب متشعاب « رغبتی ، عندما ترانی كل يوم في مجلسك ان تناديني ، ثم تهمس في أذني على مسمع مني فقط ، ثم تونخني أمام الناس

ورد الباشا ، « حسنا يا بنی ، سأنفذ لك رغبتك » ولكنه كان مع ذلك متعجبا متسائلا ماذا وراء ذلك المطلب الغريب

وفي اليوم التالی في المجلس رأي



الباشا مشعاب وتذكر مطلبه ، ثم
ناداه ، وامال رأسه ناحيته حيث كان
يجلس فوق مسنده . ثم سبه على
مسمع من الحاضرين . وكان مشعاب
يومىء برأسه طول الوقت كأنما يتلقى
تعليمات خاصة . وحدث نفس الشيء
في اليوم الثاني والأيام التالية . وأخذ
الجميع يتساءلون عن هذه المكانة
والثقة التي يتمتع بها مشعاب وذات
يوم نهض شيخ صغير السن وقت
انعقاد المجلس وقال « يا مشعاب ،
أريدك أن تتوسط لي بكلمة توصية لدى
الباشا - انها مسألة بسيطة خاصة
بالريع الذي تريد مصلحة الضرائب
مقاصاتي عنه - وهاك عشرين جنيها
مقابل ذلك »

أجاب مشعاب الماكر « بالتأكيد
يا صديقي سأفعل ذلك » . ثم استمر
الهمس بينه وبين الباشا ، وزادت
مطالبة الناس له بأن يتوسط لهم لدى
الباشا . وكان يوافق على ذلك دائما
ويقبل ما يقدمونه له . وبهذه الطريقة
أصبح مشعاب غنيا واشترى العديد
من الجمال والغنم والماعز والخيول
وكذلك استثمر امواله في الاراضي
واشترى حديقة غناء ، بالاضافة إلى
قاربين يبحران من والى البصرة

وقال الجميع ، انه الشخص
المفضل لدى الباشا العظيم

وبعد ستة أشهر تقدم مشعاب من
سيده ، وبينما هو يقدم القهوة للباشا
الجالس طلب منه أن يتوقف عن
سبه . ووافق الباشا على ذلك ، ولكن
لشدة دهشته طلب أن يعرف سبب
ما حدث . عندئذ اعترف مشعاب بكل
شيء ، وسر ناصر باشا جدا لدرجة أنه
انعم عليه بهدايا أخرى وعباءات
تشريفية ورفعه الى منصب رئيس
الخدم والاتباع ، طالبا منه فقط الا
يأخذ مال الناس مرة أخرى حيث أنه
في منصب حسن الآن ، ووعده
مشعاب بذلك ونفذ وعده

وتبين قصة قديمة جدا مزايا معرفة
صديق في البلاط أو حماية شخصية
هامة

في قديم الزمان عاش في بغداد
صاحب حانوت فقير كان يبيع الأقمشة
ومنتجات الزينة الأخرى . وكان رجلا
طيبا واميا ولم يؤذ أحدا بالقول او

بالفعل وكان اسمه عبدالله المنصور

وفي يوم من الأيام قام أحد جيرانه ، وهو رجل دو سمعة طيبة وممتازة بزيارته بعد العشاء وطلب اقتراض مبلغ ثلاثين دينارا كقرض يدفعه لتسديد دين عليه فات موعده ووعده أن يرد له النقود خلال ثلاثة ايام وقام عبدالله بسلامة نية بفتح صندوق نقوده المخبأ بعناية وأخرج النقود واعطى ثلاثين دينارا لجاره ، الذي شكره بحرارة

ومرت ثلاثة ايام ولم ترد النقود اربعة ايام ، خمسة ايام ، ولم يحدث اى شيء وهكذا ، ذهب عبدالله الى منزل جاره وسال عن نقوده ولد هشته ان جاره انكر تماما اقتراض اى شيء منه وبكلمات بذيئة طرد ابن منصور من باب المنزل داعيا اياه بالرجل الشرير الذي يحاول سرقة نقود الناس الطيبين بالادعاءات الكاذبة ولمدة يومين كاملين ظل عبدالله يكتم غيظه وحزنه ، حتى تذكر ان الخليفة سيعقد جلسة عامة لاقامة العدل بين الفقراء والاغنياء

واتخذ طريقه الى القصر وبمرور الوقت جاء دوره ، وقص المشكلة للرجل العظيم ، وعندما سمع الخليفة نهاية القصة قال ، حسنا يا رجل ، لا بد ان لديك شهودا على اعطائك النقود له ، " اجاب الرجل مع الاسف ليس لدى شهود يا سيدى ، اذن لا بد ان لديك ايصالا باستلامه للنقود ، يا بنى ، ومرة ثانية كانت الاجابة بالنفي واستمر الخليفة يقول " يبدو ان قضيتك معقدة ، حيث انه لا يوجد شهود او أدلة من أى نوع وعلى اية حال ، يبدو انك امين هل تقسم بالقران الكريم ان ما قلته هو الحق " ، قال عبدالله " نعم أطال الله ، في عمرك يا مولاى، اقسم على ذلك ،

عندئذ صرفه الخليفة ، قائلا بانه سيبحث المسالة ، وطلب من عبدالله ان يقف عند البوابة الشرقية في الصباح التالى وقت خروجه للصيد بالصقور اذ سيتذكر التماسه عندما يراه وفعل تاجر الأقمشة المتعجب كما امر واتخذ موقفه في الصباح التالى عند البوابة الشرقية ليرى الخليفة عند مروره وكالعادة تجمع الناس هناك ليروا مرور موكب الخليفة ، وبدون علم التاجر ، كان يقف بينهم الجار المخادع عندئذ ظهر الأمير العظيم ، تحيط به حاشيته ومدربو صقوره ، وهى حقا صحبة ممتازة ، وكلهم يمتطون صهوة جياد أصيلة مكسوة باغطية مزركشة زاهية

وعندما اقترب الخليفة وكان يمر تحت البوابة ، لمح فجاة التاجر المسكين ، فشد عنان فرسه ، وبصيحة ترحيب عالية توقف بجانبه وهتف " اهلا بك ، يا مصطفى ، يا صديقى العزيز ، انها حقا ساعة ميمونة لم أرك منذ زمن بعيد من اين ومتى عدت " وزاد على ذلك بقوله احضر لرؤيتى الليلة بعد صلاة العشاء ، وأخبرنى عن جميع أحوال

رحلاتك »

وانتاب الدعر نطلنا الحرين المتندوه ، فقد طن أن الخليفة حلط نينه ونين شخص احر ، وأصابه الغم حاصة عندما أمر الخليفة أحد الأتباع بالبحث عن محل اقامته وارسال محفة لا حصاره فيما نعد ومر الوقت ، وبعد العشاء ، طهر الموكب والمحفة أمام منزل عبدالله المتواضع ، وحمل في المحفة ليمثل أمام الخليفة ، يغمره الخوف والحزن

وفي القصر متل بين يدى الخليفة عن طريق باب حانبي ، وخر على وجهه وبدأ يعترف بانه ليس بمصطفى ، صديق الخليفة

وقاطعه الخليفة ، ووجه اليه الكلام برفق قائلا « حسنا ، يا صديقي ، هل تسلمت نقودك نعد » ، وتدفقت الكلمات من فم عبدالله المسكين عرفانا بالحميل وأجاب « نعم ، يا أمير المؤمنين ، أطال الله في عمرك ، وجعل النصر حليفك دائما ، وعمرك سركاته ليس فقط ثلاثين دينارا بل تسلمت مائتي دينار » لقد سلم الحار الحاحد النقود مضاعفة قبل دهاب تاجر الأقمشة الى القصر مخافة ما لا تحمد عقباه

في عام ١٩٣٥ قص على الحاج عبدالله ويليامسون قصة طويلة عن قاطع أحتشاب وابنته فقد حدثت ابنة الحطاب ابتناه الملك بمهارتها ودكائها اللماح ، وقرر الملك مكافاتها بالرواج منها وتم الرواج ، ولكن الملك ، رغبة منه في احتبار دكاء روحته ، احبرها أنه لن يقضي الليلة الأولى معها بل سيتركها عدراء حتى يعود من رحلة صيد طويلة في الصحراء قرر فجأة القيام بها ودهبت توسلاتها ادراج الرياح ولكن الملك كان عنيدا وقبل رحيله أعطاها فرسه الرمادية الشهيرة الحمداني ، لتبقى في رعايتها ، وقال لها « يا روحتي العريرة ، انني أترك فرسي العريرة معك ولم يدن منها أي حصان من قبل وسوف احد حوادى (كروشان) معي ، ولدى مهمة اكلفك بتنفيذها في غيابي وعند عودتي أتوقع أن فرسي ، الحمداني ، قد ولدت مهرا ، حملته من حوادي ، (كروسان) وفوق دلك أتوقع ان أجد طفلا مثل أنا أبوه » ثم رحل الملك ، تاركا روحته في قصره محاطة بالحراس تحت امرة حادمه المخلص العبد الحصي

وكان الملك يعرف ان روحته لن تنجح في تنفيذ رغباته ، ومع دلك أراد ان يرى كيفية تصرفها في المهمة التي كلفها بها

وعند رحيل الملك بدأت الروحة في التقرب من الحارس الرنجي وقد نجحت في دلك لدرجة انها بعد عدة أيام اقنعته ان يشتري لها ملابس شيخ صغير السن وخيمة صغيرة وبعد دلك طلبت منه مساعدتها في التسلل خفية من القصر ، لرغبتها في ملاحقة سيدها ومولاها لتحتال عليه بخدعة واعدة اياه بالعودة خلال ثلاثة أسابيع ، وسمح لها الحارس

الربحي بالتسلل من القصر بعد أن دبر أمر طلاء الفرس رمادية باللون الأسود

وانطلقت الزوجة في الصحراء ، وبعد مضاعفة سيرها ... بقافلة زوجها وقد خيم الملك قرب بعض الآبار وكان في المنطقة بضعة أشجار من نخيل التمر مكونة واحة وبصبت الزوجة خيمتها بين الأشجار وسوت زيها الرجالي بعناية وسودت لون بشرتها وتنكرت بمهارة على شكل شيخ شاب من قبيلة بدوية عريقة وبعد أن لوثت نفسها بغبار الصحراء ، قدمت الى مخيم زوجها وارسلت له رسالة فحواها أن شيخا بدويا شابا سمع أن الملك يصطاد في تلك المنطقة ويرغب في تقديم تحياته وقوبل الطلب بمقابلة الملك بالايجاب وراح ... الشيخ الشاب ، يحاول تسلية وارضاء الملك برواية قصص الصحراء والحديث عن الرياضة والخيل وصيد وتدريب الصقور ونحو ذلك

وقد لعبت الفتاة الشابة دورها بمهارة شديدة لدرجة أن الملك انطلت عليه الحيلة ولما كان حضور الفتى مسليا ولطيفا فقد طلب منه الملك الحضور يوما بعد يوم ولبى الشيخ الشاب طلب الملك بترحاب وفي نهاية الاسبوع تساءل الملك اذا كان للفتى اخت ، واذا كانت مثل اخيها فانه يطلب الزواج منها ، على طريقة زواج الملوك من بنات رؤساء قبائل البدو

واجاب الشاب بان لديه اختا وهي توأمه ، وانه راغب في الموافقة على زواج الملك منها سرا لعدة ليال ، ولكن لا بد أن يطلقها بعد اسبوع ويخلي حال سبيلها ، اذ انها مخطوبة لابن عمها ولما كان الملك مسرورا جدا من المهارة والحسن وما اشتهرت به أخت الشاب ، فقد وافق على تلك الصفقة ، وتم الزواج في تلك الليلة ، ولكن الشيخ الشاب اشترط على الملك أن ينصب خيمة صغيرة للزواج بعيدا عن المخيم وقريبا من أشجار النخيل ، لكي تستطيع الفتاة القدوم اليه في سرية تامة ولما تم تدبير كل شيء ، رحل الشاب سريعا ، وبعد حلول الظلام استبدل ملابس الشاب بملابس فتاة بدوية من عائلة طيبة ، وقدمت بمفردها الى خيمة الملك وتم الزفاف وقامت الفتاة على اسعاده

وبعد اربع ليال من المتعة ، والفتاة تزور خيمة الملك بملابس الفتى نهارا سأل الملك الفتى الشاب ، ماذا يرغب كمكافأة مقابل تدبير تلك المسرات للملك ولدهشته طلب الشاب أن يجامع جواد الملك الأسود الجميل ، كروشان فرسه السوداء ووافق الملك بترحاب ، ورجاه أن يقبل فوق ذلك هدية مالية ولكن الشيخ الشاب رفض وفي تلك الليلة عندما وصلت عروس الملك ارضته وسرته ، لدرجة انه غفل عن ملاحظة انها انتزعت خاتمه المنقوش من اصبعه وهو نائم

وبعد أن حصل الشيخ الشاب على الخاتم الملكي ومجامعة جواد الملك لفرسه ، غاب عن الأنظار واختفى

هو وأخته بطريقة غامضة كما ظهرا

وبعد اثنى عشر شهرا عاد الملك إلى بلاده ، وأرسل الرسل الأمناء قبله ليخبروا زوجته العذراء بنبأ وصوله ، وعبروا عن أمله في أن الشروط التي أملاها عليها قد نفذت وانتابه الفزع والهم عندما عاد الرسل قائلين « نهنيك يا مولانا ان الملكة ، زوجتك ، قد ولدت لك طفلا صبيا ، وولدت لك الفرس الرمادية مهرا رائعا »

وانتابت الملك ثورة عارمة وشعور بالخزي والعار ، وانطلق عائدا الى المدينة ، ولم يتلطف بمقابلة الوفد المفوض لاستقباله ، وذهب رأسا الى قصره والى جناح النساء ، مقسما أغلظ الايمان أنه اذا كان ما يشك في حدوثه صحيحا ، فإن الملكة ستموت في الحال

وفي الغرف الداخلية قابل زوجته وسألها بصرامة عن الحماقة التي اخبرته بها الرسل وكانت اجابتها ان قدمت له ابنه قائلة « سيدي ، ان القصة صحيحة لقد طلبت مني ان الد لك ابنا ، وقد أطعت أمرك لقد أمرتني ان أرتب ولادة مهر من الفرس الرمادية ، وكذلك نفذت أوامرك »

واثار ذلك التحدي الصارخ غضب الملك ، وسحب سيفه استعدادا لقتلها « انتظر » صرخت الفتاة « انني مستعدة أن أموت بيدك ، يا سيدي ، ولكن أخبرني اولا هل فعلت اي شيء تخجل منه عندما خرجت الى الصحراء لقد وصلتني حكاية عن ابنة شيخ بدوي تزوجتها سرا » وبهت الملك وقال « ماذا تقصدين ، يا امرأة » ، ردت زوجته لا شيء يا مولاي ، سوى انها أعطتني خاتم مولاي الذي أضعه الآن في

اصبعي ، انظر » وانتابت الحيرة الملك تماما ولم يدر ماذا يقول وطلب معرفة كل شيء وأخبرته زوجته القصة من البداية الى النهاية وسر الملك سرورا لا حد له ، وشعر بارتياح لم يشعر به من قبل ، وضمها الى صدره ، وغفر لها هذا الخداع الماهر » حقا ، انك اشهر وأمهر النساء ، انك اشرف وانبل من الجميع واحق بأن تكوني ملكتي ومستشاري وسوف نحكم معا من الآن فصاعدا »

كوارث الصّحراء

العواصف الرملية من اسوأ مظاهر الحياة في الصحراء ، وقد عايشت عددا من هذه العواصف المريعة خلال الأربع والعشرين سنة من إقامتي في الفرات والصحراء الجنوبية للعراق والبحرين والحسا والمنطقة الخلفية من الكويت وتعتبر الكويت أكثر تعرضا للعواصف الرملية التي تهب



عليها في فصل الصيف من وادى الفرات وتستمر العاصفة في بعض الاحيان لعدة ايام وليال وهناك مقولة تقال في الكويت ان العاصفة تستمر لثلاثة ايام او سبعة او اربعة عشر ولا شيء اكثر مقتا وقهرا من عاصفة رملية تهب على الكويت في منتصف فصل الصيف حيث تبلغ درجة الحرارة في الظل ١٢ فرنهيت اذ تلدغ الرياح الحارقة العيون كالسنة النيران ويجب اقفال كل شيء الأبواب والنوافذ والجرار وأواني الطعام والشراب باحكام شديد ويستحيل في تلك الاثناء تبريد البيت بفتح الأبواب والنوافذ اثناء الليل . والعزاء الوحيد هو أن الحرارة في الخارج أسوأ عشرة اضعاف منها في الداخل وفي هذه الحالة يصبح النوم مستحيلا في الداخل حتى بوجود

المراوح الكهربائية التى توفرت موخرا وهنا المأساة التى تستعصى على الوصف عندما يهب الرمل والغبار في الأعين والآذان والأنوف والأفواه بحيث يستحيل النوم او الراحة

قال لي شيخ الكويت عدة مرات أنه يفضل شدة الحرارة على العواصف الرملية ففي الجو الحار تستطيع ان تتنفس على الاقل أما أثناء العواصف الرملية فيصبح لون الجو كلون حساء البازلاء ولا تستطيع أن ترى الا لبعد بضع ياردات وفي الداخل تضاء جميع الأنوار أثناء النهار مثل أسوأ أيام الضباب في لندن وتتاثر الوجوه والعيون بحبات الرمال التى تعصف بسرعة على سطح الأرض في البرارى ولعل ابن المدينة يملك بعض الامكانيات لمواجهة هذه الكوارث ولكن سأترك للقارىء أن

يتصور ما يعانيه البدوى البائس وعائلته ى حيامهم السوداء النافدة المنسوحة من وبر الماعز حيث لا وسيله تمنع تسرب الغبار الى الوجوه وأوانى الطبخ والملابس علما بأن درجة الحرارة ى الصحراء أعلى منها بكثير ى مدينة الكويت ومع هدا فإن البدوى الذي يعايش هذه العواصف والرياح الحارقة يظل مرحا وهادئا اذ يقول (أليست اتية من عند الله مثل باقى الأشياء الأخرى ؟، إذن لم التذمر ؟)

وبالرغم من الشعور بالمرارة يسود شعور من الجلال والمهابة لا يوصف قدره عند هبوب عاصفة رملية ى الكويت فأولاتظهر ى السماء غيمة سوداء صغيرة سرعان ما تنمو أكبر فأكبر الى أن تمتد ي الأفق ثم تبدأ بالالتفاف كالدوامات متشكل كتلا كبيرة ى السماء وترى أحيانا ومضات نور وسط هذه الكتل الضخمة ولكن قلما يقصف رعد وتكون العاصفة الرملية أحيانا طرفا لعاصفة أكبر بكثير تكون قد ضربت اقاصى الصحراء الى الشمال العربى وزحفت اليك غبرتها بدون أن يصحبها نسمة من ريح ، فتتغلف وجميع من حولك ي ظلام أصفر دامس قبل أن تشعر بأن العاصفة قد تملكتك

وي أعالي الصحراء مثل النفود والدهناء يضل الرحال طريقهم واذا صاحب العاصفة رياح قوية ورمال دافعة فالبدوى يموت حتما ، وخاصة اذا كان يسير بين مناطق ابار متباعدة الا اذا كانت العاصفة قصيرة الأجل والبدوى على أية حال خبير بمثل هذه المخاطر فإذا كانت العاصفة قاسية يتوقف عن السير وينحي حمله ويلوى ذيله بنصف دورة باتجاه الريح ثم يتكوم ى ظل خاصرة الجمل ويسحب عباءته فوق رأسه وقد يستمر على ذلك الوضع لعدة ساعات غير قادر على عمل شيء سوى الصلاة وقد ضعت انا شخصيا مرتين اثناء هبوب عواصف رديئة وضللت طريقي تماما لم تكن العاصفة بمثل ذلك السوء الذي يضطر الى التوقف ، فجاهدت طريقي الى ان وصلت الى المخيم وفي كلتا الحالتين كنت أدرك بعد مرور ساعات بأنى قد تهت وتوقفت وعندما تتضح الأمور أكثر يتضح لي انى تخبطت ى الاتجاه المعاكس تماما مع انى كنت أعرف البلاد معرفة جيدة

ولعل أضخم عاصفة عايشتها كانت تلك التى حدثت ى نهاية شهر ابريل ١٩٣٢ عندما كنت واصدقاءنا العرب نخيم ى منطقة على الطرف الجنوبى من مرتفعات الظهر على بعد ثلاثين ميلا جنوبى مدينة الكويت كانت خيامى السوداء منصوبة ى منخفض واسع في الجانب الشرقي من رأس المرتفعات ، تتوارى عن أنظار البدو المسافرين الذين قد يطلبون قضاء ليلتهم وكانت البرارى من حولنا مغطاة باشجار العرفج المألوفة بكامل نموها مما يعطي المكان لمسات ذهبية جميلة هطل قليل من المطر ،

وهي ظاهرة غير عادية في مثل هذا الوقت من السنة . فبدا كل شيء في غاية الحيوية والجمال ومع هذا كان الجو حارا وفي كل مكان دلالات على أن الربيع قد أشرف على النهاية

حوالي منتصف النهار امرت بتقديم طعام الغداء ثم خرجت وروحتي تمشي عندما التفت صوب خيمتي فرأيت سالم المرين ومجموعة من البدو يحدقون باستغراب ناحية الشمال الغربي ويشيرون بايديهم الى ستة من الخيام المجاورة على بعد ربع ميل وفي اللحظة التالية رأيت النساء والأطفال يركضون مرتبكين ورأيت الخيام تهبط لمستوى سطح الارض وبدات غمشا ومنيرة ونساء اخريات يصلين صعدت الى قمة التلة على بعد عدة مئات من الياردات فرأيت الافق الشمالي الغربي يشتعل تذكرت حرائق المروج التي قرأت عنها وانا صغير ثم أسرعت الى سالم وسألته هل رأى العرفج يحترق بمثل تلك الصورة من قبل فاجاب بانه لم يشهد ذلك من قبل كما لم يسمع عنه في كل ارجاء الجزيرة العربية وبينما كنت حائرا ماذا افعل وانظر من حولي ابحث عن رقعة مفتوحة اجمع فيها اهل اصدقائي - شعرت بان نارا مؤججة تندفع نحونا - هبت نسمات باردة على المخيم وبدات الغيوم السوداء الملتفة تمتد فوق الافق باكمله ثم تتكثف في اعالي السماء . وتذكرني بحريق القصب في مستنقعات العراق تحت الدخان الاسود حزام قرمزي ساطع كالنار كنت منتبها لذلك الشيء الغريب الذي يندفع نحونا بأقصى سرعة

اشتدت النسمات الباردة فتحولت الى عصف حاد كالرياح الثلجية لفت سالم انتباهي الى ذلك وقال قد لا تكون هناك نيران ومن الواضح انه كان على صواب ولكن ما ذاك إذن ؟ وبينما كنت ارافق سالما مرتاح النفس الى حد ما ومستطلعا الحال في ذات الوقت هاجت الرياح بعنف شديد وتحولت الى عاصفة باردة ، وعندما بدأت ادرك أن عاصفة حمراء تندفع نحونا وأن تلك الكتل من الدخان الاسود على علو الاف من الأقدام في السماء والتي تشمل سماء الشمال العربي ما هي الا عاصفة كثيفة وان السنة النيران التي كانت تنطلق وتخبو باستطام وسرعة ما هي الا شحنات كهربائية تنعكس على شكل سلسلة من الومضات تحت الغيوم السوداء وعلى أعمدة الغبار المتدوم الذى صعد من الأرض مثل ينابيع الماء كان كل شيء بلون النار . هرعنا الى المخيم ودخلنا الى خيمتنا التي ما زالت منتصبة واقفلنا القواطع الأمامية والخلفية وحركنا الاعمدة الى شكل زاوية منحدرة باتجاه الريح وأمسك رجالنا بحبال ودعائم الخيمة

بقيت وروحتي في الخارج ، وهبت العاصفة ، كان جليا ان العاصفة قوية لونها احمر في خلال نصف ساعة مرت بنا وانتهت ولكن يا لذلك المطر وتلك الأصوات ! كان كل شيء معطى

بطبقة من الرمل القرمزى الناعم و حلال توان فقط ، والتسحبات الكهربائية المتتالية مصحوبة بأصوات مرقعة يعقبها قصف رعد ، وكل هده المظاهر كانت كنذير بنهاية كل شيء على الأرض وفي الحال خيم الظلام بحيث اضطررنا الى إضاءة مصابيح ،

وكانت العاصفة قد بدات تجر ذيولها وبدأ صوت المرقعة يدوى واختفى صوت الرعد بعد نصف ساعة فقط إنتهت العاصفة ولم يبق من اثارها المرعبة سوى تلك النسمات الباردة الرقيقة

الآن جميع النساء والأطفال الدين تجمعوا في خيمتنا بدأوا يرددون (الحمد لله) ، لم يسبق لنا أن رأينا او سمعنا بمثل هدا العقاب ' اعتقدنا بأن نار جهنم تحيط بنا وان نهاية العالم قد أزفت ' استرد سالم قوته الآن وبدأ يهدىء من روع النساء بعبارات مرحة (لقد انتهى ، حلاص لا تخفن . انهضن الى أعمالكن الطعام ، غداء الضيوف ، أهو في مأمن ' هل غطيتن قدور الطعام ' الحمد لله ومع هدا ظل سالم هادئا لا يتكلم طوال اليوم ، لقد كانت صدمة كتمت أنفاسه تناولنا طعام الغداء من اللحم والارز الذي كان لحسن حظنا في قدور الطهى المغطاة ، ومع هدا كان كل شيء متربا بغبار أحمر وحتى الارز اكتسب لونا زهريا سرعان ما صفت السماء

وكانت الدرارى وأشجار العرفج كلها مكتسيه بغطاء أحمر بينما كان سطح الارض مغطى بطبقة من الغبار الناعم الذي يبدو كالثلج الأحمر يبلغ سمكه حوالى أربع بوصات بحيث أن عجلات عربتنا قد تركت علامات واضحة في الأرض أثناء رحلة عودتنا الى الكويت في نفس الليلة

عندما وصلنا الى الكويت علمنا ان أطراف العاصفة قد مرت فوق المدينة وأثارت شعورا بالخوف وأعطينا وصفا جغرافيا لتلك الغيوم القرمزية والسوداء التى تداومت فوق خليج الكويت باتجاه المدينة ولكن يبدو من اثار الغبار الأحمر أن المدينة قد أصابتها لفحة خفيفة من تلك العاصفة أما نحن في الجنوب فقد كان أثرها عظيما وبالتاكيد لم يتأثر غيرنا بتلك السحابات الكهربائية المريعة وقصف الرعد المرعب

ويحتمل أن تكون العاصفة قد هبت من منطقة حمراء التربة حول حلب على بعد تسعمائة ميل او تكون قد أتت من حول الثراء وتعرف السنة التى حدثت فيها هده العاصفة عند البدو بالسنة الحمراء حتى ان مولد الأطفال وغيره من الأحداث التى جرت وقتذاك يؤرخ بتلك السنة . والسنة الحمراء مدرجة في حوليات الجهة الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية

الجـــــراد

زحف الجراد على الجزيرة العربية امر عادى نسبيا . وعام الجراد يعقبه عام اخر فثالث وربما رابع موطن هذه الحشرات افريقيا ومن هناك تاتى الى الجزيرة العربية عن طريق الحبشة فاليمن ثم تهاجر متبعة احد طريقين الاول الى بلوتستان والهند عن طريق الساحل الجنوبي للجزيرة العربية والاخر يمر عبر الحجاز ونجد وشمال شرقي الجزيرة ثم الى العراق وإيران . وهي نظرية يعتقد بها العرب في الصحراء.

وعندما يهاجم الجراد البلاد لا يلتهم فقط الاعشاب والشجر وانما يسبب ضائقة كبيرة لاهالي المدن والقرى وتموت المئات من المواشي بعد مرور الجراد اذ لا يبقى فرع اخضر او يابس تقتات به وقد سجلت السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣١ هجمات شديدة لأسراب متعاقبة من الجراد قمت بتدوينها في مفكرتي الرسمية

تميز ربيع وخريف عام ١٩٢٩ بضخامة أسراب الجراد وسرعتها حيث اتلفت ودمرت القسم الشمالي من الجزيرة العربية وفي فصل الخريف قتلت الامطار الملايين من هذه الحشرات ولكنها عادت الى الظهور مرة ثانية من جهة الحسا وبأسراب ضخمة وتضع انثى الجراد بيضها في الرمل الدافىء في ذلك العام تكهن الجميع أن يكون ربيع عام ١٩٣٠ موسم وصول (الدبا) وهو جراد صغير في مراحل الحبو والقفز ولا اجنحة له

وفعلا في أوائل عام ١٩٣ قاست مدينة الكويت الأمرين مما لحق بها من خراب ودمار وكان على أهالى الكويت ان يصارعوا لعدة أيام هذه الحشرات للحفاظ على اى شيء يمتلكونه كانت نخيل التمر في قرى القصور والجهراء جرداء عارية وكانها تعرضت لحريق هائل وحتى انني سمعت قصة طفل تركته أمة فالتهمت هذه الحشرات معظمه وإن كنت لا اجزم بصحة هذه القصة لم يخلص المدينة من ذلك البلاء سوى عاصفة شديدة هبت فجرفت معها تلك الجحافل الى خليج الكويت

وفي اوائل شهر فبراير من نفس السنة بدأت القصص تردعن إقتراب جحافل الجراد من جهة الجنوب ، وسرعان ما وصلت تقارير من منطقة الكويت المحايدة تفيد بأن أعدادا كبيرة من المواشي قد ماتت نتيجة إلتهام الحشرات لكل أخضر ويابس في البراري وفي الخامس والعشرين أصبح من المؤكد ان على الكويت أن تقاوم هجوم الدبا المريع وقام الشيخ بعدة حملات مضادة للحشرات اذا قدمت الى المدينة وفي العاشر من

شهر مارس حصر مراسلون من الحبوب بأنباء عن فقس الدبا في كل مكان ، وفي الثامن والعشرين وصلت تقارير تفيد بأن جيوشا كبيرة منها على بعد عشرة أميال جنوب المدينة بينما اشرفت جحافل أخرى على الجهراء والواحات على بعد عشرين ميلا من غرب مدينة الكويت

في السابع من إبريل زرت وروحتي المنطقة الجنوبية للمدينة ووجدت الدبا يتقدم والأرض تغلي مثل بساط متموج يتحرك وكل دباة تسير كتفا بكتف مع جارتها وقد بلغت كثافتها حدا كبيرا بحيث حفرت عجلات السيارة من بينها طريقا منتظمة وكأنها تسير خلال تلوح صفراء وسوداء والملايين التي سحقتها السيارة إلتهمتها رفيقاتها في الحال ، وفي خلال ثوان فقط ، كانت الطريق المحفورة قد إمتلأت من جديد بعد أن زحفت اليها أسراب الدبا من جميع الجهات وطمست معالمها اما المناطق التي مرت عليها تلك الجيوش فقد تركت جرداء قاحلة لم يبق منها سوى الرمال ، لدرجة انها إلتهمت السيقان الغليظة لاشجار كبيرة يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثة أقدام

وفي الحادي عشر من إبريل ذهبنا الى الجهراء لمعاونة المسؤولين لدى الشيخ في مواجهة الوضع الخطير فوجدنا القرى والواحات قد اكتسحتها جنود أكثر واضخم مما رأينا جنوب الكويت وكان القرويون يخوضون حربا شجاعة فيشعلون النيران ويحفرون الخنادق ويغطون أسوار حدائقهم بأوراق الصحف والصفائح التنكية والأوراق المطلية التي أحضروها من الكويت لتمنع تسلق الحشرات ولكن جهودهم ضاعت هباء ، فأمام أعيننا سحقت ودمرت تلك الحدائق الخضراء التي تتشكل منها واحات الجهراء وقد قدرت طليعة هذه الجيوش بخمسة أميال ، أما الأعماق فلم تكن واضحة المعالم وكانت الحشرات من جيلين ، جيل عمره أسبوعان لونه أسود والآخر عمره شهر ولونه أسود تتخلله شرائط صفراء وكلاهما بدون أجنحة

في الثاني والعشرين من إبريل وصلت جحافل من الدبا على شكل موجة صفراء سوداء مرعبة وتسلقت أسوار المدينة ودمرت في طريقها كل الحدائق الواقعة بين الاسوار والبيوت بالرغم من كل المجهودات التي بذلت لكبحها إن الدمار والخراب الذي خلفته هذه المخلوقات وزحفها فوق المباني وغزوها حتى للشقق الداخلية شيء لا يصدقه عقل وقد تعرض مبنى الوكالة وبيتي الخاص لخمس هجمات يوميا بالرغم من إغلاق الأبواب والنوافذ بإحكام شديد حتى انها وصلت الى القاعة العمومية واتلفت السجاد والاثاث

وفي الثامن والعشرين من إبريل ظهرت بوادر الخلاص من هذا البلاء فقد بدأت تظهر لها اجنحة ثم بدأت تطير وبذلك سقطت الملايين منها في البحر وفي أول مايو لم يبق أي منها في جنوب خليج الكويت مع أنها

استمرت في الخراب والتدمير عبر رحلتها الى الشمال

ومرة أخرى في مارس عام ١٩٣١ هاجمت الكويت اسراب كبيرة من الجراد ظهرت في الاسبوع الاخير من الشهر وحلقت فوق المدينة لمدة ثلاثة ايام كالغيوم الكثيفة ثم توجهت الى الشمال بعد ان وضعت بيضها واعتقد الناس ان شدة الحر في ذلك الصيف المبكر ستفتك بالبيض وبالتالي ستنجو المدينة من بلاء الدبا الا ان تلك النبوات لم تثبت صحتها اذ ظهرت جحافله في التاسع عشر من ابريل في مناطق متعددة من الدولة وخاصة في الجنوب وفي الحال بدات تتقدم شمالا في اتجاه خليج الكويت

وفي الثلاثين من ابريل وصلت مجموعات كبيرة من الدبا الى مشارف المدينة وبدات تلتهم بساتين الخضراوات جنوب المدينة وبعد اسبوع كانت الملايين من هذه الحشرات قد زحفت ولحقت بسابقاتها ومرة أخرى زحفت تلك الكتل الصفراء السوداء الضخمة فوق اسوار المدينة وعبرت المدينة باكملها وهكذا تكرر المشهد المريع من العام الماضي ولكن في هذه المرة كانت المحلات في السوق قد حدثت اليها تلك الحشرات فالتهمت المئات من ياردات الحرير والقطن واتلفتها ومرة اخرى هاجمت البيوت الخاصة والمطابخ والطعام وكانت جثث الدبا تسبح في مرق الطعام او مدفونة في اطباق الارز وقد عشنا في هذا البلاء التشبيع لمدة عشرة ايام كاملة وفي السابع عشر من مايو كانت الحالة لا تطاق ، فالليل والنهار كوابيس متصلة فإلى جانب الإضرار بالطعام والثياب واغطية الفراش والأثاث كانت غصتها مؤلمة وأخيرا جاء الفرج وهبت من الشمال الشرقي عاصفة شديدة استمرت خمسة عشر ساعة جرفت معها جيوش الدبا الى الغرب وعبرت الشاطىء الجنوبي للخليج ولم تعد الى الظهور مرة أخرى ، ولكنها خلفت وراءها الخراب والدمار في البراري حتى إنها التهمت بالكامل المراعي الواقعة جنوب المدينة الى عمق ثلاثين ميلا مما أدى إلى موت الآلاف من قطعان الغنم جوعا قبل أن يتم نقلها الى مناطق أخرى

وفي شهر فبراير من العام التالي مرت في سماء الكويت أسراب من الجراد ووردت تقارير تفيد بأن اسرابا كبيرة تحلق في جنوب الحسا والقطيف وأن الهفوف قد تكون قاست الأمرين بسبب هذه الحشرات في شهر يناير وكان الناس في الكويت يتوقعون هجوما كبيرا في شهر مارس ولكن لحسن الحظ لم يصل أي منها الى العراق ولا الكويت ولم يتكرر هجوم الأعوام السابقة

وبخلاف أهل المدن فإن البدو القح لا يكترثون كثيراً لقدوم الجراد ، بل إنهم يعتبرون رؤيته مؤشرا على أن العام سيكون عام خير لأن الجراد كما يقولون لا يأتي الا في سنين الخصب ولا يحزنون إذا جردت الأراضي من

العلف والمراعي لأنهم ينتقلون الى مناطق أخرى لم يزحف اليها الجراد بعد ويعتقدون بأن ما يحدثه الجراد من خراب يبقى جزئيا لأن هذه الحشرات لن تعيش عندهم طويلا وإنما سترحل الى مناطق أخصب في الشمال

كذلك بقدوم الجراد يستمتعون بفرصة سد جوعهم المستديم لأنهم يتغذون به والجراد الذي يأتي الى الكويت وشمال شرق الجزيرة العربية نوعان نوع قرمزي أو أحمر اللون ويعرف محليا بـ (الدباج) . والنوع الصحراوي العادي ولونه أصفر وعليه علامات بنية ويعرف بـ (الجراد) وتؤكل الإناث من النوع الأحمر في الجزيرة العربية مقلية في الزبد والملح أو مسلوقة أو مشوية ويشبه طعمها طعم الكستناء المحمصة ، وقد كانت زوجتي وابنتي تستلذان بأكلها الا أنني شخصيا لم أكن أشتهيها

أذكر مرة أنني زرت مخيما للبدو بعد أن زارته جيوش من الجراد الأحمر ، وكان جميع أهالي المخيم يلتقطون الجراد ويجمعونه للأكل وكان الجراد المنثور يملؤ السطوح من الطرف الى الطرف ولم يبق بساط أو سجاد أو بطانية الا فرشت ونثر فوقها الجراد لتجفيفه وكان الناس والجمال والأمهار والكلاب، جميعهم، مشغولين بأكل الحشرات بينما كانت قدور الطبخ والأكياس وقرب الماء والسلال الكبيرة محشوة بالجراد المجفف ولا شك ان اسباب إقبال العرب على التهام الجراد هو الانتقام لأنفسهم مما لحقهم من أذى وخراب وهو ما قاله لي أحد الأصدقاء البدو ' ولكن البدو يبتهجون بذلك لايام قليلة فقط ثم يتشمئزون منه ويلقون بما تبقى لديهم من الجراد المجفف الى البهائم والحيوانات

العلاقات التجارية بين الخليج العربي

في القرن الـ ١٥ كما تعكسها مؤلفات

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

لا اريد بهده المقدمه ان اؤرح لتاريخ العلاقات التجارية الحليجية ـ الهنديه في العصر الوسيط . وانما الهدف هو تقديم موحز عن العلاقات من حيت دوافعها واسبابها وطبيعتها وسوف يكون محور هدا الموحز هو الاجابه على التساؤلين الاتيين لمادا الحليج العربي ؟ ولمادا الهند ؟

فبالنسبه للتساؤل الاول . يحتل الحليج العربي مكانة بارزة في العالم . فهو ليس ممرا بحريا فحسب . او معبرا تجاريا فقط . وإنما هو مركز هام من مراكز التحارة والتسويق في العالم ويرجع السبب في دلك إلى موقعه الجغرافي الفريد . حيث يمتاز بمياهه الهادئة وشواطئه الصالحه للملاحة . وتوسطه قلب العالم في العصر الوسيط . فهو يشكل حلقة وصل رئيسية بين اقدم عالمين عرفتهما البشرية عالم الثروات الطبيعية الهائلة في الشرق . وعالم البحر المتوسط في الغرب وبفضل هدا الموقع الجغرافي عدت سواحل الخليج العربي مراكز عظمى تصب فيها . وتتفرع منها في الوقت داته شبكات واسعة من الطرق البحرية والبريه [1]

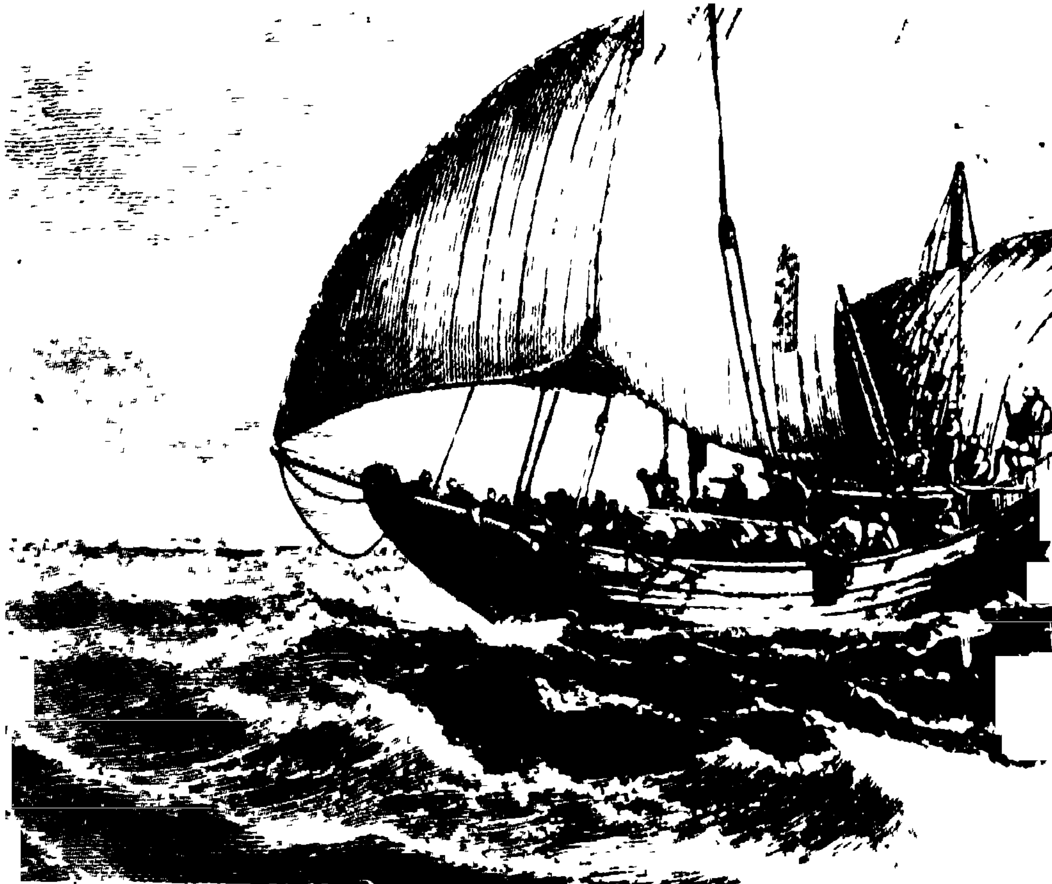
وشبه القارة الهندية

أحمد بن ماجد

وصفوة القول ، ان الخليج العربي بفضل موقعه الجغرافي يعدّ الطريق المباشر للتجارة الشرقية (وبالذات الهندية والصينية) سواء من حيث مصادرها أو أسواقها الطبيعية ، ولذا كان للخليج العربي دائما السيطرة على مداخل هذه التجارة ومخارجها

ان الموقع الجغرافي للخليج العربي ، فضلاً عن طبيعة البيئة ، قد شجع أبناءه على ركوب البحر منذ وقت مبكر واكتساب الخبرة الملاحية وأساليبها ، فمياه الخليج العربي غير العميقة وصلاحيته للملاحة وكثرة الجزر فيه ، أمور ساعدت سكانه على ان يكونوا رجال بحر كما ساعدهم على ممارسة الملاحة البحرية ظاهره المد والجزر التي يتمتع بها الخليج العربي بصفة خاصة والمحيط الهندي بصفة عامة [٢] وكانت ممارسة الملاحة البحرية بصورة مستمرة من قبل سكان الخليج العربي ، قد جعلت منهم بحارة مهرة في النقل البحري في المحيط الهندي ، ولهذا امتلكوا زمام السيادة في ميدان التجارة البحرية مع اقاليم هذا المحيط [٣]

كان لظهور الاسلام عقيدة وقوة



سياسية ادت على ازدهار التجارة الخليجية حيث سارت سفن العرب المسلمين بحر عباب المحيط الهندي واستقبلت موانىء الخليج العربي بضائع الهند وحاصلات تجارة الشرق الرفيعة المستوى بشكل واسع لم يسبق له مثيل ( ) فقد ارتبط مع قيام الدولة العربية الاسلامية وانتشار نفوذها السياسية على رقعة واسعة من العالم قيام تجارة بحرية واسعة بين موانىء الخليج العربي وموانىء الهند والشرق منذ بداية القرن ٢ هـ ٨م وكان لجهود العباسيين في تشجيع حركة التجارة البحرية ووسائل متعددة الفضل في اعطاء دفعة قوية للتجارة الخليجية مع الهند والشرق ويمكن تلخيص جهود العباسيين في هذا المجال كالآتي

١ ـ سياسة التنسيق بين الخليج العربي وطرق التجارة العالمية التي اتبعها العباسيون ، من اجل ضمان التوازن الاقتصادي لدولتهم ( )

٢ ـ كان انشاء مدينة بغداد يشكل حدثا مهما في تاريخ العلاقات التجارية بين الخليج العربي والشرق إذ ارتبطت عاصمة الدولة العربية الاسلامية مباشرة بطرق مائية مع الخليج العربي اولا ومن ثم مع المحيط

التبادل التجاري بين الخليج العربي
[illegible]

الهندي [٦]

٣ ـ حاجة المجتمع العباسي المتمدن إلى البضائع والسلع الكمالية والضرورية المتوفرة في الهند ومناطق الشرق الاخرى مما نشط التجارة العربية

٤ ـ اهتمام العباسيين بالطرق التجارية ، لا سيما البحرية منها ، وذلك بتوفير الامن ضد المخاطر البشرية (القرصنة) ، والمخاطر الطبيعية مثل الشعاب المرجانية وضحالة المياه خصوصا قرب الموانىء ومن اجل ذلك قام العباسيون بتشييد المنارات (الخشبات) في الخليج العربي لتنبيه السفن الى هذه المخاطر [٧]

تشجعت هذه الامور التجار العرب عامة ، وسكان الخليج العربي خاصة ، على الاتجار والرحلة عبر المحيط الهندي الى شبه القارة الهندية وغيرها من مناطق الشرق ولعل الثراء الواسع الذي حققه هؤلاء التجار ، والسلطان الذي احرزوه في مجتمعاتهم ، قد كان دافعا قويا وراء تجشمهم الصعاب والمخاطر في ركوب المحيط الهندي

اما التساؤل الثاني ، لماذا الهند ؟ فقد لا آتي بشيء جديد اذا ما قلت ان للهند علاقات قديمة مع العرب سبقت الاسلام وان طبيعة هذه العلاقات كانت تجارية دائما وابدا [٨]

ان توجه نشاط التجار العرب عامة والخليجيين خاصة الى مناطق الهند ، يعود الى العلاقة المكانية بينهما فالمسافة المائية بين سواحل الخليج العربي والسواحل الهندية (لا سيما الساحل العربي للهند) قصيرة نسبيا ويمكن عبورها بوسائل النقل البحرية البسيطة [٩] والواقع ان نهاية الخليج العربي تقع جغرافيا امام الساحل العربي للهند وامتداده العظيم من الشمال الى الجنوب ، لذا كان انطلاق السفن من الخليج العربي الى الهند وبالعكس ذات الحركة وبهذا يكون للموقع الجغرافي للهند اثر في تنظيم الرحلات التجارية بينه وبين الخليج العربي وبالتالي خلق تبادل تجاري قوي بينهما وحرّي بالقول ان الهند تعد اقرب مناطق الشرق الى

الخليج العربي وبلاد العرب ولذا كان اهتمام العرب بها كثيرا وجزءا من اهتمامهم بتجارة الشرق

ومما شجع على استمرارية الحركة بين مناطق الخليج العربي والهند ملاءمة الظروف الملاحية (المناخية). ويأتي في مقدمة ذلك الرياح الموسمية التي تميز بها المحيط الهندي حيث اندفعت بواسطتها السفن من الخليج العربي الى الهند وبالعكس

ومن الجدير بالذكر ان مناطق الهند واقاليمه المختلفة قد وفرت للتجار القادمين اليها السلع الضرورية والكمالية معا، فكان ذلك عامل جذب للتجار الخليجيين الى الهند اذ توفر في الهند الاخشاب كخشب الساج والنارجيل اللازم لبناء السفن في الخليج العربي، فضلا عن المواد الغذائية الضروريه وعلى راسها الارز والليمون الذي كان من الصادرات المهمة لاهل الخليج العربي ووفرت الهند ايضا التوابل والبهار والمواد العطريه والطبية والمعادن والاحجار الكريمة والمواد المصنعة وغيرها فكانت هذه المواد والسلع المهمة سببا في تهافت التجار العرب على الهند بوصفها مصدرا لارباح طائلة في تجارة العصر الوسيط

ابن ماجد بين الخليج العربي والهند

لقد اشارت المصادر العربية التاريخيه والجغرافية وكتب الرحلات إلى الحركة التجارية الدائمة والمزدهرة بين الخليج العربي والهند في العصر الوسيط وتحدثت عن الطرق التي سلكتها السفن التجارية واعتمدتها في رحلتها بين الاقليمين. كما اشارت إلى الموانىء والمراكز التجارية القائمة على طول هذه الطرق. ولم تنس أن تُذكِّر المسافر عبرها بالمخاطر والصعوبات التي تجابهه، كما وضعت قائمة باسماء السلع والبضائع التجارية المختلفة التي كانت محور التبادل التجارى بين الخليج العربي والهند

واستنادا لهذه المعلومات ألفت العديد من الكتب والابحاث الحديثة عن الحركة التجارية بين الخليج العربي والهند في العصر الوسيط ولذا نجد ان البحث عن هذا الموضوع اعتمادا على المصادر العربية التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات يصبح عديم الجدوى والفائدة، لان الباحث سوف لا يضيف شيئا جديدا بالمعنى الصحيح إلى ما اصبح متعارفا عليه سواء بين الكتاب القدامى او المحدثين

ولهذا كله رايت ان اطرق بابا جديدا عسى ان اجد فيه، ويجد الباحثون الآخرون اضافة مفيدة لما هو معروف عن تاريخ العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية في العصر الوسيط ومن هنا جاء اختياري لمصنفات احمد بن ماجد لتكون المورد الذي استقى منه مادة هذا البحث لارسم صفحة اخرى لحركة التجارة الخليجية الهندية في

نهايات العصر الوسيط او بكلمة ادق في النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد اما اختياري لاحمد بن ماجد فله مبرراته وأسبابه ، اختصرها بما يلي

١ - ان أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن ابي معلق السعدي بن ابي الركايب النجدي [١١] هو من مدينة جلفار (راس الخيمة حاليا) [١٢] فهو اذن مواطن ذو نسب جزري وانتماء خليجي . إذ كانت نشاته وترعرعه على سواطىء الخليج العربي ، وقد اعطته هذه النشاة خبرة فيه ودفعته إلى الاهتمام بكل ما يتصل به

٢ - عاش ابن ماجد في الثلث الاول من القرن ٩هـ/ ١٥م وفيه بلغت الحركة التجارية والملاحية العربية في المحيط الهندي ذروتها ، على حين تميزت الفترة التالية (اي القرن ١٠هـ/ ١٦م) ببداية السيادة الاوروبية ونهاية الزعامة العربية في مياه هذا المحيط

وعلى ذلك عاش ابن ماجد في فترة الازدهار التجاري والملاحي العربي . فدون ما دونه عن الملاحة العربية في المحيط الهندي . فكان ما ذكره عن الطرق وظروفها ومخاطرها من أدق ما كتب عن هذه القضايا ، وكانت مؤلفاته مصادر لا يستغني عنها الباحث

٣ - ومما يزيد في أهمية ما كتبه ابن ماجد عن الخليج العربي والهند هو ان ابن ماجد نفسه كان ملاحا ينحدر من صلب اسرة انصرف افرادها لقيادة السفن في المحيط الهندي فكان والده بحارا ماهرا ، وكذا هو الشان بالنسبة لجده الذي كان متمكنا في علم البحر ، فورث ابن ماجد العمل في البحر من اسرته ، وركب المحيط الهندي منذ ان شب وحتى نهاية حياته [١٣]

٤ - كانت الهند واحدة من الجهات التي قصدها ابن ماجد في رحلاته في المحيط الهندي فقد قاد مركبه ما بين الخليج العربي والهند مرات لا تعد ولا تحصى ولفترة تزيد على الخمسين عاما وقد اكسبته هذه الرحلات تجربة عميقة في الطرق البحرية بين هذين الاقليمين ، ومعرفة كل ما يتعلق بساحليهما من أمور جغرافية وملاحية واقتصادية وتاريخية تلك المعرفة التي سوف تساعدنا على معرفة معالم الحركة التجارية النشيطة بين الخليج العربي والهند . والتي عاشها ابن ماجد وعرفها عن كثب

ان تجربة ابن ماجد الشخصية

والعتبية فيما بين الخليج العربي والهند وما احده من معلومات من ابيه وجده وما قراه عمن سبقوه في ميادين الرحلة والملاحة بين هاتين المنطقتين مكنه من تحديد ما اراده عنهما شعرا ونثرا وقد اثبت ابن ماجد في ذلك نحو انه يمتلك معرفة نادرة عن سواحل المحيط الهندي ما بين الخليج العربي وسواحل القارة الهندية ومما يدل على اهمية ما سجله ابن ماجد عن الرحلة بين هاتين المنطقتين هو قول سيدي علي الريس في القرن ١٠هـ ١٦م في كتابه (المحيط) ان من الصعب على المرء ان يبحر من الخليج العربي الى الهند دون الاستعانة بكتب الملاحة العربية ومن بينها ما كتبه ابن ماجد

ومن الطريف ان نشير هنا الى ان فضل ابن ماجد على الملاحة في الطرق التي تربط الخليج العربي بالهند قد جعل الملاحين العرب الذين ارتادوا البحر من بلادهم الى الهند يقراون الفاتحة تحميدا للشيخ احمد بن ماجد واعترافا بفضله حتى القرن التاسع عشر وقام الملاحون الهنود بالشيء ذاته احياء لذكرى ابن ماجد وفضله

الخليج العربي والهند في مولفات ابن ماجد

اصبح من المعروف الان ان ابن ماجد لم يكن ملاحا ورائدا للسفر في المحيط الهندي فحسب وانما كان كاتبا للشعر والنثر الملاحي ايضا فقد بدا ينظم الشعر في وقت مبكر من حياته ثم كتب نثرا ايضا وان كان على نطاق محدود وكانت حصيلة ما كتبه ابن ماجد وعلى مدى واحد واربعين عاما ، ستة واربعين عملا [١١] وقد ضمت هذه الاعمال بصورة خاصة ما سماه ابن ماجد نفسه بـ (علوم البحر)[١٢] ، التي قصد بها الملاحة الفلكية من حيث مبادئها واصول العمل فيها

ويبدو ان سعة اطلاع ابن ماجد على اعمال القدامى في مجال البحر ، وخبرته الدقيقة والطويلة في مجال اختصاصه ، جعلت من الملاحة الفلكية موضوعا شاملا في تصانيفه ، ليس للمعلومات الفلكية الملاحية وانما لمعلومات جغرافية مهمة ايضا ، ربما فاقت ما جاء عند الجغرافيين العرب فيما يخص مياه المحيط الهندي وسواحله واقاليمه والجغرافية عند ابن ماجد شملت الجغرافية الطبيعية ومعلومات اقتصادية وتاريخية وبشرية وحتى دينية وادبية

ومن خلال تصفحنا لمصنفات ابن ماجد المعروفة يمكن التعرف على مكانة معلوماته عن الخليج العربي والهند ، وهي المعلومات التي تثير الدهشة لكون الاقليمين يرد ذكرهما بشكل كثير جدا بحيث يندر الا نجد قصيدة او ارجوزة او موضوعا نثريا يخلو من ذكرهما فيه

اما طبيعة المعلومات التي دونها

ابن ماجد عن الخليج العربي وشبه القارة الهندية وتحظى باهتماما . فيمكن ان نصنفها إلى معلومات جغرافية واخرى فلكية ، تتعلق تباعا بالخليج العربي والهند [١٩]

فالمعلومات الفلكية الخاصة بالخليج العربي ، تشمل كل ما يتعلق بالملاحة البحرية ما بين الخليج العربي والهند من النجوم والكواكب ومنازلها والاخنان وما إلى ذلك ، وقد اسير لها من اجل معرفة الطرق الصحيحة بين المنطقتين فالسفن الشراعية التي كانت تنقل المسافرين والسلع التجارية عبر مياه المحيط الهندي انما تسير بهدي النجوم والكواكب ، فتصبح معرفتها ضرورية لوصول السفن إلى الجهات التي تقصدها

اما الجانب الجغرافي ، فيشمل الجغرافية الطبيعية ، بما فيها من وصف لطبيعة القشرة الارضية ، وطبيعة المياه وهنا يصف ابن ماجد ساحلي الخليج العربي الشرقي والعربي ، ففيما يخص الساحل الشرقي نجد ان ما كتبه ابن ماجد ليس مفصلا ، وانما كتب نزرا قليلا واشار إلى بعض الجزر القريبة منه مثل قسم ، وهنجام ، وقيس وهداري ولار وغيرها وذكر بعض الطرق الملاحية التي تربطها بجزر الخليج العربي الاخرى الواقعة في الوسط او بالساحل العربي للخليج العربي

اما الساحل العربي للخليج العربي ، فيحوي شعر ابن ماجد كثيرا من المعلومات التفصيلية عنه غاية في الاهمية ففي (الحاوية) وبقية الاراجيز والقصائد ، نجد وصفا عاما للساحل العربي للخليج العربي دون محاولة لتجزئة اقسامه بصورة دقيقة وتفصيلية فهو يذكر البصرة ، ثم القطيف ، ثم مناطق الاحساء (الحسا) بما فيها البحرين وقطر ثم يسكت لينتقل الى عمان وموانيها اما عمان فان حظها احسن من كل اقاليم الساحل العربي للخليج العربي ، حيث يفصل في الفائدة التاسعة من كتابه (الفوائد) عن منطقة مسقط وصحار ، مشيرا الى النشاط الاقتصادي فيها والى الطرق التجارية التي تربطها بالطرق الملاحية في المحيط الهندي ولا ينسى الاشارة الى السلع التجارية والمنتجات الزراعية المتوفرة فيها

وفي الفائدة العاشرة من كتاب ابن ماجد (الفوائد) ، نجد وصفا تفصيليا عن البحرين ، بما تحتويه من وحدات ادارية ، ومنتجات زراعية وتجارية ، وعن طبيعة الحكم السياسي فيها كما يرد في شعر ابن ماجد واراجيزه معلومات مهمة عن البحرين وارتباطها بطرق الملاحة في الخليج العربي لا سيما في جزره ويفهم من تلك المعلومات ان البحرين كانت بمثابة المحطة المهمة الثانية بعد البصرة ، حيث ان السفن كانت تمر بها قبل

توجهها الى موانىء عمان

ولا ينسى ابن ماجد وهو يصف الساحل العربي للخليج العربي ذكر كثرة التعرجات الموجودة فيه كما يحدد عمق المياه وضحالتها فيه ويذكر حركة المد والجزر التي تميز هذا الساحل وتتحكم في الدخول والخروج من خلجانه وسعانه وتوصل الى موانيه

وتنال الجغرافية الملاحية اهتماما كبيرا في مؤلفات ابن ماجد لا سيما الرياح التي تتحكم في الخليج العربي ومنها الرياح الموسمية التي تهب عليه اذ يشير الى اوقات هبوب هذه الرياح وعلاقتها بمواسم السفر سواء الخاصة بالرحلة الى الهند او العائدة منه

وتحوي مصنفات ابن ماجد اشارات الى المنتجات والسلع الزراعية والتجارية التي تتوفر في الساحل العربي للخليج العربي والثروات التي تضمها مياهه . والتي ساهمت في ايجاد حركة تجارية نشطة في ايامه

ويتوج ابن ماجد معلوماته عن الساحل العربي للخليج العربي بذكر ما يتعلق منها برئاسة السفر والمسافرين اذ يحدد الصعاب الطبيعيه التي تواجههم ، سواء ضحالة المياه وكثرة السعاب وعملية المد والجزر ويؤكد بصورة خاصة على المصاعب التي يواجهها المسافر في راس الخليج العربي الجنوبي - مكان انطلاق السفن الى مياه المحيط الهندي - بقصد الوصول إلى الهند

اما معلومات ابن ماجد عن شبه القارة الهندية ، فهي الأخرى معلومات ملاحية - فلكية وجغرافية فالمعلومات الملاحية - الفلكية تتعلق بالطرق الملاحية التي تربط المحطات والمراكز التجارية الساحلية في شبه القارة الهندية بالخليج العربي وهنا يفصل ابن ماجد في ذكر هذه الطرق والقضايا الفلكية من الكواكب والنجوم والبروج والمنازل التي تتحكم في هذه الطرق ويقدم في الوقت ذاته ارشادات الى الملاحين بشأن ذلك ، وهذا ما نجده في (الحاوية) وبقية (الاراجيز والقصائد) و(الفوائد) وعلى اية حال ، فان معلومات كهذه تعد ذات قيمة كبيرة في خدمة الحركة التجارية مع الهند

اما معلوماته الجغرافية عن الهند فيصف ابن ماجد فيها سواحل شبه القارة الهندية بالتفصيل ، ويقسم ذلك على النحو الاتي

١ - ساحل السند

٢ - الساحل العربي للهند ويقسمه الى اربعة اقسام من الشمال إلى الجنوب ابتداء من رأس مدور وانتهاء براس كمهري وهذه الاقسام الاربعة هي

ا - اقليم جوزرات

ب - اقليم كنكن

جـ - اقليم تلوان

د - اقليم مليبار وساحله ، الذي هو

أطول سواحل برّ الهند

ويصف ابن ماجد برّ الهند هذا من حيث طبيعة القشرة الارضية، وما تحتويه سواحله من تعرجات وخلجان، والجبال التي تكثر في هذه السواحل حيث عدها ابن ماجد خير معين لارشاد المسافر إلى تلك السواحل. لذا ميز جبال كل اقليم عن غيرها

كما يشير الى الشريط الساحلي لسواطىء الهند العربية، والمتكون من عدد من الجزر، ولا ينسى ابن ماجد وصف طبيعة المجرى بين اقاليم برّ الهند وبين هذه الاقاليم والجزر، لا سيما بين اقليم مليبار ومجموعة جزر الفال المقابلة لهذا الاقليم كما ذكر جزيرة سرنديب (سيلان) التي تقع في جنوب الساحل العربي للهند وقال انها مدورة ووصف ساحل الهند الشرقي وان كان وصفه مقتضبا اذا ما قيس بالساحل العربي. ولعل ذلك يعود إلى سيطرة التجار الهنود على نشاط هذا الساحل

ويتصدى ابن ماجد للرياح الموسمية التي تهب على هذا الساحل، وتتحكم بمواسم السفر إليه ويبدو انه آثبت بالتجربة الفعلية ان سفن الخليج العربي تستطيع السفر إلى ساحل السند لمرات متعددة في العام ذهابا وايابا، اكثر مما إلى ساحل الهند العربي واكد ان المسافر في الساحل العربي، لا سيما اقليم مليبار، لا يستطيع السفر الدائم الى بلاد السند، بفعل الرياح العالية والطوفانات التي تميز بها ساحل مليبار ولا يغفل ابن ماجد الاشارة إلى بعض المنتجات الزراعية والحيوانية للساحل وجزره، وما يوجد من ثروات في مياه هذا الاقليم

وهكذا نجد ان اهتمام ابن ماجد بالخليج العربي وشبه القارة الهندية كان كبيرا. وسوف نحاول من خلال المعلومات التي تركها لنا ان نرسم صورة واضحة لحركة التجارة بين الخليج العربي والهند في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي

التجارة بين الخليج العربي والهند في القرن ٩هـ/١٥م

اولا الطرق التجارية ومحطاتها

لقد سلكت حركة التبادل التجاري بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية طرقا بحرية متعددة، لم تتغير معالمها منذ اقدم العصور فقد بقيت الاتجاهات الرئيسية ثابتة ولكن قد ينهض طريق دون اخر في فترة زمنية معينة تبعا للضمانات الامنية التي تتحكم في الطرق البحرية سواء اكانت طبيعية ام بشرية. وتبعا لما يتوفر في محطات وموانىء هذه الطرق من سلع وبضائع تجارية مرغوبة ومطلوبة في الاسواق

لقد جرت العادة ان تتبع الرحلة

التجارية ما بين الخليج العربي والهند احد الطريقين التاليين اللذين وصفهما الرحالة والجغرافيون العرب

١ ـ الطريق الساحلي وهو اقدمها اذ يبدا من البصرة او الابلة ويسير بمحاذاة الساحل الشرقي للخليج العربي مخترقا عددا من جزره الى ان يصل الى هرمز ومنها يستدير الى ساحل مكران قاطعا اياه ليصل الى ساحل بلاد السند وهو المصدر الاول من مصادر التجارة مع شبه القارة الهندية وبعدها تسير السفن الى سواحل الهند الغربية الى نهايتها وقد تعرج على سيلان او تستدير الى الساحل الشرقي للهند

٢ ـ الطريق البحري المباشر ، وهو طريق مختصر يبدا من البصرة قاطعا الساحل العربي للخليج العربي حتى نهايته حيث مسقط في عمان وهناك يتزود التجار المسافرون بالماء العذب والمون ثم تنطلق سفنهم تمخر عباب المحيط الهندي لتصل الى اي ميناء شئته في السند او ساحل الهند الغربي وكان استخدام هذا الطريق اكثر لقصره بالرغم من المخاطر التي تتعرض لها سفنهم عبره

اما في ايام ابن ماجد فقد استمرت الرحلات التجارية في استخدام هذين الطريقين ويسمى ابن ماجد الطريق الاول بديرة المل (والملّ اصطلاح يطلقه البحارة على البرّ القاري) ، وهو الذي يجري في العادة بمحاذاة الساحل اما الطريق الثاني فيسميه بـ (ديرة المطلق) وفيه تقطع السفن عرض البحر ، ويربط عادة بين بندر على احد السواحل واخر على ساحل يقابله وهي مشتقة من الاولى [٢] واضاف ابن ماجد طريقا ثالثا ، وهو الذي سماه بـ (ديرة الاقتداء) وفيه تقلد السفينة ـ مركبا اخر في البحر إلى ان تصل الى خط عرض بندرها او حتى تقطع مسافة معينة [٣]

وهكذا حدد ابن ماجد بصورة عامة ، الطرق الملاحية عبر المحيط الهندي ، وسوف نحاول ان نتتبع الطرق الملاحية التجارية بين الخليج العربي والهند خطوة خطوة ومحطة محطة ايام ابن ماجد وعلى لسانه كما سندرس هذه الطرق على مرحلتين ، الاولى الطرق التي تستخدمها السفن التجارية في الخليج العربي ، والثانية ما تقطعه مراكب التجار من طرق في سواحل السند واقاليم الساحل العربي للهند ذاكرة في كلا الاقليمين اهم المحطات والمراكز التجارية التي تحط فيها السفن او تمر عليها مع الاشارة إلى الجزر التي تعترض السفن في كلا المرحلتين كما سنشير بين الحين والآخر إلى ما إذا كانت المراكب تقطع ديرة المل او ديرة المطلق في خط سيرها

١ ـ المرحلة الأولى (الطرق الملاحية التجارية في الخليج العربي

١ ـ الطريق الساحلي العربي

يبدا هدا الطريق من النصرة إلى القطيف وفي هدا يقول اس ماحد «ادا حاورت النصرة الفيحاء ، اىحدت النر إلى السلمية والقطيف والحسا وعمان وقطر ، الكل في المسارق والحبوب» [٢٢] ولا يفصل اس ماحد في المنطقة الساحلية ما بين النصرة والقطيف ، بل هناك انتقال مفاجىء الى منطقة القطيف التي يصفها في ارجوزة (برّ العرب) بأنها منطقة عامرة [٢٣] وبهدا فهو يدكرها جزءا من الحسا ، ومن ثم يشير الى عمان وقطر هده هي المحطات الرئيسية على الساحل العربي للخليج العربي التي يجب على السفن التجارية المرور عليها أيام اس ماحد ، غير ان الاشارات اليها جاءت مقتضبة على ان عدم وصف اس ماحد للطريق الساحلي بين النصرة والقطيف ، يعطي انطباعا بان السفن كانت تتجنب السير بمحاداة هدا القسم من الساحل العربي للخليج العربي وتسير مباشرة الى القطيف [٢٠]

ووفقا لما دكره اس ماحد فان التربيط الساحلي العربي للخليج العربي يتكون من «جزر خراب وعمار . وعرب لهم بنادر فيها . وفيها جزيرة النحرين» [٢٥] وإدا كانت اشارة اس ماحد إلى هده الجزر عامة ، فان البحرين احتلت مساحة ومكانة مهمة في كتاباته ، إد عدّها من الجزر الكبار في العالم والسبب ، على ما يبدو ، يعود إلى كونها مركزا تجاريا مهما ليس لمرور السفن ، وإنما لتواردها إليه لحمل البضائع المتوفرة وبالدات اللؤلؤ الدي يوجد بكثرة في المياه المحيطة بهده الجزيرة يقول اس ماحد عن البحرين في الفائدة التاسعة

«وتسمى اوال ، وفيها ثلاث مائة وستون قرية وفيها الماء الحالي من جملة نواحيها واعجب ما فيها يقال له القصاصير يغوص الانسان في البحر المالح (بالقربة) ، ويملؤها من الماء الحالي ، وهو عرقان في الماء المالح وحولها معادن اللؤلو ، وعدة جزر كلها فيها لولو تاوى إليها مراكب كثيرة نحو الف مركب

وفيها جملة قبائل من العرب ، وجملة تجار وفيها كثير من النخيل المثمرات اللواتي تضرب بها الاوصاف والامثال . وفيها الخيل والابل والبقر والاغنام . وفيها عيون جارية ، وفيها رمان وتين وريتون وترنج وليم ، وهي غاية في العمارة» [٢٦]

يتضح من هدا التفصيل الحيوي للبحرين . ان اس ماحد اورد معلومات مهمة ومتنوعة عن البحرين فمن الناحية الجغرافية وصف سعة البحرين بقوله انها تتكون من ٣٦ قرية [٢٧] كما وصف وفرة الماء

العدد فيها الذي يستخرج من اماكن معينة من البحر ووصف ثرواتها الزراعية والحيوانية بشكل يدلل على ازدهار البحرين ولعل من اهم ما ذكره ابن ماجد ، والذي يهمنا في هذا البحث ، ما اورده عن النشاط التجاري للبحرين اذ توضح معلوماته انها احتلت مكانة تجارية هامة في الخليج العربي لتوفر اللؤلؤ فيها وتوفره في الجزر والجزر القريبة منها، والذي كان سببا في كثافة النشاط التجاري للبحرين [٢٨] ومما يرتبط بذلك ان ابن ماجد يعدد الطرق الرئيسية والفرعية التي تربط البحرين بموانيء الخليج العربي وجزره او يربطها بالخط البحارى العام الذى يقطع الساحل العربي للخليج العربي الذي تصل نهاياته الشمالية الى البصرة (شط العرب) وفي هذا يقول ابن ماجد

ولم يعرم البحرين من هو جازم
سوى اهلها والغوص من شل في الرمل
كذلك من شط الفراب وارضه
ويمكن بعض للضرورات ان سحر[٢٩]

اما جنوبا فترتبط بالخط البحرى الذى يوصلها الى راس مسندم وموانيء عمان ويقدر ابن ماجد المسافة بين البحرين وراس مسندم بسبعة ايام عن طريق البحر [٣٠]

اما الطرق الفرعية التي تربط البحرين باقاليم الخليج العربي وجزره فهي متعددة فهناك طرق تربطها بالساحل الشرقي للخليج العربي مع راس الكهن وسيراف ،[٣١] وطرق تربطها بالجزر القريبة الى الساحل الشرقي مثل جزيرة هندرابي ،[٣٢] واخرى تربطها بالجزر التي تتوسط الخليج العربي مثل جزر ورعباء وطنب[٣٣] ، وهذا ما يؤكد بالدليل القاطع على ان البحرين تعد مركز جذب تجاري مهم لسكان الخليج العربي

ومما تجدر الاشارة إليه ان جزر الخليج العربي المتعددة لا ترتبط بطرق بحرية مع البحرين على الساحل العربي للخليج العربي ، وانما باقاليم اخرى فابن ماجد يصف لنا الخطوط الملاحية التي تربط جزيرة رعباء بقطر والشارقة ،[٣٤] وتلك التي تربط ميناء راس الكهن الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي براس لفان في قطر [٣٥] كما ان هناك طريقا بحريا يربط جزيرة طنب بالشارقة وطريقا يربط ام القوين وراس الخيمة [٣٦] ويبدو ان جزيرة طنب (التي تتوسط مياه الخليج العربي مقابل راس الخيمة) ، لها مكانة مهمة في طرق التجارة الملاحية في هذا المنفذ حيث لا ترتبط بطرق تجارية مع الساحل العربي فقط ، بل مع جزر الخليج العربي الاخرى مثل جزيرة هنجام ، الواقعة بينها وبين هرمز ، وجزيرة ام الغنم قرب راس مسندم ، وغيرها من الجزر ، وبالساحل الشرقي للخليج العربي ايضا ، وربما هناك خط

تجاري (بديرة المطلق) يربطها بالخطوط الملاحية في المحيط الهندي [٣٧]

وهكذا نجد ان ابن ماجد لا يهتم باقاليم الساحل العربي للخليج العربي والواقعة بين البحرين وراس مسندم ، مثل قطر والشارقة ورأس الخيمة وانما يكتفي بالطرق الفرعية التي تربطها بجزر الخليج العربي وهذا يدفعنا إلى القول ان السفن التجارية التي تقصد عمان ومن ثم مياه المحيط الهندي ، كانت لا تتوقف على ما يبدو بموانيء قطر والشارقة وراس الخيمة ايام ابن ماجد

تسير السفن إلى راس مسندم الواقع في راس الخليج العربي في الساحل العربي ويصف ابن ماجد هذا الراس بانه جزيرة على راس جور ، فهي لسان بحري ادن ، وهي عنده اخر الجزر في ساحل الخليج العربي في قسمه الجنوبي كما لا ينسى أن يذكر المسافر بوجود عدد من الجزر الاخرى في هذه المنطقة مثل جزر سلامة وبناتها وتسمى «عوير وكوير والثالث ليس فيه خير» ، وهذه التسمية اخذها ابن ماجد من كتب احد الملاحين القدامى المشهورين وهو «اسماعيل بن حسن بن سهل بن ابان» وهناك جملة جزر اخرى يسكنها العرب في هذه المنطقة ايضا [٣٨]

وبالاستدارة من راس مسندم باتجاه الجنوب تصل المراكب إلى مرفا صحار (صحار) وفي هذا يقول ابن ماجد «ثم يدور البر في مسندم في سهيل مقدار عشرة أيام في البر إلى صحار وبينهما مدن كثيرة لم تنقطع من النخيل والخشب والحلق والبنادر والعمارات» [٣٩] وهذا يعني ان المنطقة الواقعة ما بين رأس مسندم وصحار كانت منطقة عامرة بالسكان ، كثيرة المدن ، ومنطقة خصب وزرع ، وهي تمتد لمسافة عشرة ايام سيرا في البرّ

ومن صحار إلى مسكت ، ويرسمها ابن ماجد في احيان اخرى مسقط ،[٤٠] ويقول عنها في كتابة الفوائد

«مسكت بندر لم يكن في الدنيا مثله انه له اشاير ، وفيه خصائل ، لم تكن في غيره الاول انه له حجرا على راس بندره ، يراه العادي والجائي في اي مكان قصده ، في الهند او السند ، او في هرامير او مكران او جاش والعرب وعلى مغارب السر الكبير ، عنده جزيرة حمراء عالية ، يقال لها الفحل وتابك اشارتان تكفيان الجاهل فيه ان ورد بالليل او النهار وهو بندر عمان من العام الى العام تشحن المراكب منه السر والتمر والخيل وتبيع فيه البرّ والسليط والعلات ، وتقصده المراكب ، وهو راس بين ديرتين متفارقتين ، محرق بكل ريح ، وفيه الماء الحالي والنزال وطيبو الجانب محبون للغريب ، هو اول الاطواح ، ومنه في اول العقرب إلى

راس الحد الذي ابتدانا منه» [١]

ان هذا الوصف الحيوي لمسقط يدل على ان ابن ماجد عنده الشيء الكثير ليقوله عنها فهو يصف مسقط بانه ميناء مشهور في العالم ويعزو هذه الشهرة الى حركة التجارة النشطة فيه وتوفر فرص العمل اما اسباب نشاط مسقط التجاري فيعود الى ان هذا الميناء جمع خصالا كثيرة منها موقعه الجغرافي في راس التقاء ساحلين (الساحل العربي للخليج العربي والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية) . وطبيعته الملاحية حيث انه في مامن من كل انواع الرياح ثم توفر المياه العذبة فيه ثم لا ينسى ان يذكرنا ابن ماجد بالمزايا البشرية فيه وهي ان اهله مضيافون وسكانه اجتماعيون يحنون الغرباء.

وفوق هذه الخصال ارتبطت مسقط بطرق تجارية بحرية متعددة ربطتها بساحل مكران وساحل السند وساحل الهند ثم ربطتها شمالا براس مسندم واقاليم الخليج العربي المختلفة [٢]

ووهبت الطبيعة هذا الميناء اشارتين واضحتين للمسافر في الليل او النهار الاولى وجود حجر في بندر هذا الميناء يراه كل مار وقادم الى مسقط من كل الاتجاهات اما الاشارة الثانية فهي وجود جزيرة فيها مياه حمراء عالية واضحة وبفعل هذه العوامل مجتمعة شهدت مسقط ايام ابن ماجد ، وعلى حد قوله ، نشاطا تجاريا كثيفا فتواردت عليها السفن من كل الاتجاهات وطوال العام لحمل بضائعها المختلفة سواء كانت حاصلات زراعية ام اقمشة أم خيلا وغيرها

دفعت هذه المزايا ابن ماجد الى ان يسهب في وصفه لمسقط . وتبيان اهميتها في جذب التجار اليها وهذا الامر ذاته هو الذي دفع تيبتس إلى القول بان ابن ماجد قد اندفع في الكتابة بشكل واسع عن مسقط والسواحل العمانية بوصفه مواطنا عمانيا [٣]

ومع ان الامر ليس فيه ضير ، ولكن نرى ان ابن ماجد رجل بحر ، ومن المؤكد ان يعد كل البحار هي موطنه وحياته . ولم يدفعه للكتابة عن سواحل عمان ، ومن بينها مسقط ، إلا حركة التجارة النشطة التي تمتع بها هذا الاقليم وارتباطه بطرق التجارة العالمية المعروفة انذاك . فاعطى هذه التفصيلات التي هي بحق أقل ما يمكن ان يكون بالنسبة لميناء خليجي وصل إلى ذروة نشاطه التجاري في القرن ٩ هـ/ ١٥م

يعدد ابن ماجد الطرق التجارية التي ترتبط بها مسقط ، فيشير إلى طريق من مسقط إلى السند ، ورجد وفي هذا يقول

ومن حدود مسقط للسند

إلى رجد ترى المكان عندي [٤٤]

كما يذكرنا بطريق اخر من مسقط

إلى موانيء مدور في حوررات وكنكن ، حيت يقول

وان تكن ممن يـريـد مـدور
او كنكنا في مسقط والسعترى[٤٥]

ومن موانيء عمان الأخرى التي يدكرها ابن ماحد بعد مسقط قلهات ولكن القاريء ، ومن خلال قراءته لقصائد ابن ماحد وأراجيزه ، يسعر بان هدا التغر ، الذي يقع جنوب مسقط ، لا يحتل إلا مركزا ثانويا في ايامه ، ودلك لكونه لا يرتبط بخطوط التجارة الرئيسية في المحيط الهندي اد يكتفي بدكر المجرى في مرتل (في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية الى قلهات) .[٤٦] ، ووصف المجرى من قلهات الى هرمز .[٤٧] والاشارة إلى انه ميناء تمر عليه السفن المسافرة ما بين مسقط وراس الحد ، فهو يقول

ومن سحـار ان تـرد مسكتـا
احـر عـلى الحـور ولا تمكتـا
ومن هنـاك ان تـرد قلهـاتـا
محـراك في السهيل كن تباتـا
ومن هناك ان تشئ راس الحد
محراك في الحوار فلا تعد[٤٨]

وعلى أية حال ، فان قلهات تاخد صورة أخرى في كتاب ابن ماحد (الفوائد) اد يسير اليها بوصفها ميناء تقصده السفن التجارية متلما تقصد هرمز وغيرها من مراسى راس الخليج العربي كما تنطلق منه السفن إلى الهند ، لا سيما اقليم حوررات ، متلما تنطلق من مسقط .

فالمراكب ، على قول ابن ماحد ، تسافر من مرة واحدة إلى خمس مرات خلال العـام من قلـهـات ومسقط إلى حوررات[٤٩] وبدلك احتفظت قلهات بمكانتها التي احتلتها طوال القرون الماضية[٥٠] وظلت عليها كدلك في أيام ابن ماحد

ومن موانيء راس الخليج العربي العربي ، والتي تعد نقطة انطلاق للسفن الداهبة إلى السند والهند راس الحد ، الدي يقع بعد قلهات ويسميه ابن ماحد راس الحمحمة أيضا [٥١]

ووفقا لما دكره ابن ماحد ، فان «راس الحد منحدب الى البحـر ، اقرب ما يكون من برّ العرب للهند ، وهو بين ديرتين بعيدتي الانحراف» [٥٢] وهدا القرب لراس الحد الى سواحل الهند العربية جعله اهم نقطة في السواحل العربية لكل الملاحين العرب لانه يعد المكان المناسب الدي تنطلق منه السفن في رحلتها من الخليج العربي الى الهند ومما يزيد في اهمية راس الحد انه يقع في نفس خط العرض الدى يقع فيه اقليم حوررات في ساحل الهند العربي ، وهدا يعني ان خط الارتباط البحري بينهما قصير ومباشر ، هدا فضلا عن ان راس الحد يرتبط بالمجرى البحري للساحل العربي للخليج العربي [٥٣]

دكر ابن ماحد عددا من الطرق التي تربط راس الحد باقليم السند ، ومن بينها خط في راس الحد إلى ديول

في اقليم السند كما يرتبط راس الحد بخط بحري مباشر باقليم حوررات اذ يبدا من راس الحد ويصل الى رخد، في اقليم حوررات وهو طريق مباشر ويقدر ابن ماجد المسافة بينهما باربعين (راما) - الرام هو وحدة قياس سير السفينة - وهناك خط اخر مباشر من راس الحد الى الديو (ميناء في حوررات جنوب رخد)

وهكذا يعطينا ابن ماجد تفصيلات واضحة عن الخط التجاري البحري الذي يسير بمحاذاة الساحل العربي للخليج العربي ابتداء من المراكز والمحطات الواقعة في راس الخليج العربي الشمالي، وانتهاء بتلك الواقعة في راسه الجنوبي، لكي تنطلق السفن من هناك الى مياه المحيط الهندي ومن ثم الى الهند

٢ - الطريق الساحلي الشرقي للخليج العربي

يصف ابن ماجد طريقا ساحليا اخر في الخليج كانت تقطعه السفن في القرن ٩هـ ١٥م وهو الطريق الذي تسير به السفن بمياه الساحل الشرقي وتتوقف في موانيء هذا الساحل حتى تصل الى نهايته وتدور باتجاه جنوبي شرقي الى ساحل مكران ولندع ابن ماجد يصف لنا خطوات هذا الطريق

يبدا هذا الطريق الساحلي (ديرة الملّ) في البصرة وتسير السفن باتجاه الجنوب الشرقي الى جزيرة خارج لمدة يوم او اقل وفي هذا يقول ابن ماجد

يا طالقا من اخر الفرات
والبصرة الفيحاء خذ وهاتي
واخرج على اسم الله بالترتيب
عن حمله الخيرات للجنوب
واخر من هناك يوما بل اقل
نحو خارج في الثريا لم تزل[٥٥]

ومن خارج يسير المركب جنوبا الى ميناء راس الكهن في طريق خال من المعوقات والمخاطر، ويقدر ابن ماجد المسافة بين خارج وراس الكهن بعشرة اروام

واخر من خارج باقي عشرة
اروام خمةً وافيه محررَة
وفي مطلع العقرب لراس الكهن
مجرى صحيح ما له من وهن[٥٦]

ويسير الى ميناءين تختارهما مراكب البحر بين خارج وراس الكهن وهما ري شهر وابو سهر، ويحذر ابن ماجد المسافر من وجود جبانة بين هذين الميناءين الاخيرين، وعلامة هذه الجبانة ان ياتي بعدها شط بني تميم

واخر من خارج إلى رى شهر
رامين في الاكليل. عزم واحر
هناك جبانه كن عليم
وبعدها شط بني تميم
ثم ابو سهر ترى الاحوار
ان تبت تدخل اسمع الاشوار[٥٧]

ومن راس الكهن تسير المراكب في المجرى العام الى راس مبح ثم جزيرة لار، ويُذكر ابن ماجد المسافر بانه يستطيع وهو في طريقه من الكهن إلى

مبح ان يعرج على بعض الموانىء في هذا الساحل كسيراف وبندر عباس ، ويصف طبيعة المنطقة في هذين الميناءين مشيرا إلى وجود جبال صغر ذات قمم مسننة عالية ويعد ابن ماجد الوصول إلى راس الكهن بمثابة قطع السفينة لنصف الطريق الساحلي الشرقي [٥٨]

ويهتم ابن ماجد بذكر الجزر التي تعترض طريق المسافر على طول الساحل الشرقي للخليج العربي ، فيذكر جزيرة لار التي تبعد مسيرة خمسة أزوام عن مبح ، حيث يقول

وان اردت لار في شروقه
من بح تاتيه فخذ تحقيقه
خمسة ازوام يكن بالصورب
بشمله صادقه لا تكذب
كذا من الكهن لراس المبح
لانه نصف الطريق يا صحى
تلقى على الطريق في اليسار
من بحّ تاتيه لنحو لار[٥٩]

ويذكر ابن ماجد المسافر بوجود ميناء يجاور جزيرة لار على الساحل الشرقي للخليج هو بندر نخيلوه ، ومن جزيرة لار يستطيع المسافر ان يسير بمحاذاة الساحل ليصل جنوبا الى ميناء شناص وسيدوه [٦٠] ويذكر ابن ماجد أيضا الجزر القريبة من جزيرة لار ويحدد الطرق البحرية إليها ، وهذه الجزر هي سنوار وهندرابي وجزيرة قيس ، ويحدد المسافة بين هذه الجزر والساحل الشرقي للخليج العربي وكونها لا تزيد عن فرسخين

هم جزر بقرب برّ العجم
مقدار فرسخين يا معلم
وكل هذي الجزر فيها الناس
والماء والبندر والايناس[٦١]

وهنا يصف ابن ماجد الطريق الساحلي الشرقي (ديرة الملّ) ، ثم ينتقل الى وصف طريق يمر عبر الجزر التي تتوسط الخليج العربي في قسمه الجنوبي ، وهي زعباء وطنب وهنجام ،[٦٢] وعن طريقها يصل المسافر الى راس الخليج العربي ثم مياه المحيط الهندي

ومن موانىء راس الخليج العربي الجنوبية جزيرة هرمز التي يذكرها ابن ماجد مرارا ، ويسميها هرامير ايضا [٦٣] وهي عدده في الجزر ذات العمارة الكثيفة لكونها فرصة العراقيين [٦٤] وفي الوقت ذاته يذكر ارتباط هرمز بالطرق البحرية ودورها التجاري كمركز حط واقلاع للسفن الخليجية الى الهند . ولكنه لا يشير إلى ارتباطها بالمجرى العام الذي يقدم من البصرة وعلى طول الساحل الشرقي ولعل السبب في ذلك ان الطريق الشرقي البحري للخليج العربي لم يعد يستخدم من قبل السفن في القرن ٩هـ/ ١٥م للوصول الى الهند وانما كانت السفن تصل إلى هرمز او مسقط او اي ميناء في رأس الخليج العربي ، ومن هناك يتم نقل البضائع المرغوبة والمطلوبة في الساحل الشرقي . وعبر

الطريق الذي وصفه ابن ماجد من جزيرة قيس جنوبا الى خارج والبصرة شمالا ولعل هذا ما يؤكد عدم استخدام الطريق البحري الخليجي الشرقي كطريق تجاري عام الى الهند فضلا عن اشارة ابن ماجد الى وجود طريق بري يربط السواحل الشرقية للخليج العربي بهرمز ومن ثم فان هرمز ترتبط بساحل مكران وسواحل الهند وجوزرات ومليبار بطريق بري وبهذا يكون الطريق الساحلي العربي هو الطريق المباشر الوحيد الذي يربط راس الخليج العربي الشمالي (البصرة) بسواحل الهند والسند في القرن ٩هـ ١٥م كما اكد ذلك ابن ماجد

ثانيا المرحلة الثانية من الطريق التجاري بين الخليج العربي والهند

تبدا المرحلة الثانية في تقسيمنا للطريق بين الخليج العربي والهند عندما تترك المراكب المراكز والمحطات التجارية الواقعة في راس الخليج العربي والتي تعد نقاط انطلاق للسفن الى مياه المحيط الهندي وهذه المراكز والمحطات كما اشرنا سابقا، هي راس مسندم وصحار ومسقط وقلهات وراس الحد وهي فضلا عن مراكز الانطلاق في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية مثل راس فرتك وظفار

بعد ان تترك السفن راس الخليج العربي في طريقها الى الهند، كانت تتخذ أحد مسارين اولهما الطريق الساحلي الذي يسير بموازاة ساحل مكران الى ساحل السند، ومن بعدها الى الساحل العربي لشبه القارة الهندية، وهو الذي يسميه ابن ماجد باسم (ديرة المل) اما ثاني المسارين، فهو طريق في عرض المحيط الهندي، تنطلق فيه السفن إلى احد الموانىء والمحطات في سواحل السند والهند مباشرة من دون حاجة للمرور على السواحل وهذا الطريق يسميه ابن ماجد (ديرة المطلق)

ويبدو ان المسار الاول لم ينل من ابن ماجد اهتماما كبيرا، كالذي اعطاه للطريق الثاني والسبب في ذلك يعود الى قلة استعماله من قبل التجارة والتجار في ايام ابن ماجد، وقد يعود هذا الى ان برّ مكران لم تكن له اية اهمية بالنسبة للتجارة البحرية في المحيط الهندي في العصور المتاخرة (٨) وسوف نصف الطرق التجارية التي كانت تتبعها السفن التجارية العربية في القرن ٩هـ/ ١٥م في سواحل السند والهند، كما ذكرها ابن ماجد

١ - الطريق من الموانىء العمانيه الى ساحل السند

تنطلق السفن من مسقط الى برّ السند في عرض البحر دون المرور بساحل مكران، وتحط السفن في أول واهم ميناء في السند وهو «راس رحد» وبعد ان يحدد ابن ماجد

الخط الذي يسير عليه المسافر عبر هذا الطريق ، يطلب منه الالتزام به ، استنادا الى بعض الصفات والاشارات الدالة على هذا الساحل ، التي جاءت نتيجة لتجربة ابن ماجد الفعلية ، حيث يقول

ومن حدود مسقط للسند
إلى رحد ترى المكان عندي
خمسة وأربعين راما وافية
وبعد ترمى البلد تلق العافية
وربما انك ترى الخيات
من قبل اربعين خذ صفاتي
وهذه الاروام بالتجارب
ما للمسافات بها مقارب
وشرط ان يكون في حر الصور
تليق في هذا الطريق المختصر[٦٩]

وقد تنطلق المراكب من «راس الحد» في ساحل عمان الى راس رحد في السند ايضا ، وفي هذا يقول ابن ماجد

حذة ثم الحد قالوا ورحد
ايضا وفي البحالتين بالعدد
احدى عشر الخاه بلا تكذيب
فدربوه يا ذوي التجريب[٧٠]

٢ ـ الطريق من راس الخليج العربي إلى موانىء اقليم جوررات

اما السفر الى اول اقليم من اقاليم الساحل العربي للهند وهو جوررات فيكون الانطلاق اليه من موانيء ومحطات راس الخليج العربي الجنوبي الى ميناء الديو (او راس مدور) ، الذي يعد اول واهم موانيء ساحل جوررات الذي يسافر إليه التجار الخليجيون ويتردد ذكر هذا الميناء عند ابن ماجد ، ويذكر ابن هنالك خطا مباشرا من مسقط إلى الديو[٧١] ، وآخر من قلهات إلى الديو[٧٢] ، وثالث من رأس الحد إلى المكان ذاته .[٧٣] ، فضلا عن وجود طريق بحري من ساحل الجزيرة العربية الجنوبي إلى الديو ايضا[٧٤]

ويصف ابن ماجد بعد ذلك الساحل المحيط باقليم جوررات وصفا دقيقا جدا ، مما يدل على خبرة فيه ، كما يدل ايضا على النشاط التجاري الواسع للعرب هناك إذ يقول في ذلك

فان رمال الله بحور القارى
فراسه من شاطىء الجاري
ما بين مدور ودون كن عارفا
والما بلاتون فلا تخالفا
ان زاد ابن نارر خذ سورى
وان نقص فقد دخلت الجورا[٧٥]

ثم يقول ابن ماجد واصفا جور القاري من حيث طبيعته الجغرافية وعلاماته

ان شئت ان تعرف اي ارض
انت بها بالطول ثم العرض
فحط الجرل وميز فيها
اذا استقر مركبك عليها
ان كان فلك يا اخي فاعلم
حاذ سهيل انت في بر دون
وان تقابل بالسفى والسير
شرقا وغربا انت في ذا البرّ

اعني بـر الديـو افهم حـري
وكـل دا تعـريب لـك فـاعتـر
واحدر بوساري وقتت قدس
هم اطرف الاوساح حد واقتبس
من قتت بـوساري يـا خليلي
تنطـر جبـال دون و الاكليـل
وربمـا بالصحـو تنطـر جبـلا
كبـه مـرتفعـه مكلـلا
عـلى معيب الـواسـع المحـرب
فدال من بـر المعيب يحسب
لابـد من سـافـر ارض تسـرد
يـرى بـوصفي بعـه وصرد
وسـدس عـالـق بـر المغـرب
منـه الجبـال كلهـا بـالقـرب
وبستبـه و عـدم القيـاس
دا الحور و عن رحد للناس
لكن هـدا الحور مـاوه عريـر
بصرب الى الحمـرد والتكـديـر
ومـاء دال ابيض تـعـابيـه
رفيق مامنه الجبال بابيـه[٧٦]

يبدو من هدا الوصف الطويل لابن ماجد ان المسافر بعد الديو يسير الى حور القارى واصفا ساطبه بانه جاري وان مياهه تمور بين ابيض واسود (صافية وكادرة) موضحا وجود سعاب وروس و هدا الحور ويسمى اطرافها بوساري وقست وقندس مسيرا الى ان المسافر بامكانه ان يجد إلى الغرب من قندس جبلا عاليا مرتفعا يرى في الصحو (ويقصد جبل جلبار في اقليم حوررات ، والدي يعد من اشارات سواحل حوررات الدالة المهمة) [٧٧] تستمر السفينة الى منطقة ساحلية يسميها ابن ماجد سرد ، ثم يدخل المسافر إلى حور القاري الدي يصفه بانه عرير وصارب إلى الحمرة موكدا هده الناحية لانها الميرة التي ترشد المراكب الى هدا الحور

في الراس الشمالي لحور القاري تحط السفن في ميناء كناية في اقليم حوررات[٧٨] ، ويبنه ابن ماجد الى ان اشارات هدا الميناء تتحول في كل عام [٧٩] ولم نجد في مجاري ابن ماجد وصفا لطريق مباشر من موانيء الخليج العربي الى كناية وانما يدكر ان السفن تقدم من راس الحد او غيرها من موانيء الخليج العربي إلى رحد ومن رحد تسير على ساحل حوررات الى كناية [٨٠] بعد ان تقطع ساحل الخليج القاري

٣ ـ الطريق من موانيء الخليج العربي إلى موانيء اقليم كنكن في الساحل الغربي للهند

ترتبط موانيء الخليج العربي باقليم كنكن ، الدي يقع بين برّ مليبار وكناية وفوقه تقع الدكن وترتبط كنكن فصلا عن المجرى التجاري القادم من حوررات ، بخط بحري مباشر ياتي من مسقط إليها

ادا طلعت مسقطا في التلي
الى حدود التيرما فافعل
ان كان قصدك كنكن العليـاء
فالكل مجراها على الحوراء[٨١]

وهناك طريق آخر من هرمز الى كنكن العليا ، حيث يقول ابن ماجد

ويخرج من هرمور كل مسافر
إلى كنكن والهند جمعا واليمن

وعندما يتكلم ابن ماجد عن اقليم كنكن فانه يساعد التجار في ذلك ، لانه يصف المجرى في هذا الاقليم والقياسات الخاصة به وعمق المياه ، فصلا عن وصفه لموانيء ساحل كنكن ومحطاته بدقة فهو يقول

إذا طلعت مسقطا في السل
الى حدود التيرما فافعل
لكنما الحكمه في القياس
وفي صفات البر والاحساس
وفي موارزها واحد البلد
فحده متى قط لا تعد
موارز الديو رمان المطلعى
يذكر حسبي الليل فاسمع
اما جبال كنكن رفاعا
تنظرها عن اربعين باعا
والماء يبيض من العشريا
فكن على بتحاتها فطينا
فسوف اذكرها مع القياس
لتقتدى بها جميع الناس[٨٢]

وهكذا يميز ابن ماجد ساحل كنكن بجباله العالية ، ويذكر موانئه مثل دهنوه ، التي تعد محطة للسفن القادمة إلى هذا الساحل ، حيث يقول

اعلم اذا احتبت من سدان
وصار في الشمال يا ربان
ترى منارة عاليه دقيقه
فهي على دهنوه بالحقيقة[٨٣]

على ان ما يميز دهنوه ويرشد الملاح إليها ـ كما يوضح ابن ماجد ـ هو المنارة العالية الدقيقة التي فيها وفوق ذلك فانه يصف الجور الذي تقع عليه هذه المحطة المهمة في ساحل كنكن ، بقوله

وفشت دهنوه طويل ظاهر
احجاره سود كن له محاذر
وبينه والبر هي طريق
للخشب الخفاف يا رفيق
ومنه تنظر للشجر والتل
فلا تميلن نحوها بالكل

فدهنوه اذن تقع على خليج طويل وواضح ، وفيه احجار سوداء يحذر ابن ماجد منها كما يحذر المسافر من الميل نحو الاشجار والتلال التي يراها في المنطقة ، وينوه المسافر بانه حال اختفاء الجبال العالية يصل الى ميناء دهراوي في الكنكن ايضا ، ويصف ابن ماجد الطريق الى هذا الميناء بانه غريب الموج يسير الربان في صراع معه

اذا خفيتها ترى دهراوي
في المركب العالى كلفّ تاوي
وليس في تلك الطريق مثله
يضربه الموج غريب شكله
ومن حدود دون اليه
لا تطرح الابحر قط فيه
من حد اربعه عشر باعا
لحد سبعه ابحرن وصارعا[٨٤]

ومن المناطق التي ترحل إليها السفن في كنكن والتي يذكرها ابن ماجد تانه والمهايم ، ومن المهايم إلى

اهم ميناء في ككن وهو الديبل (حاوث كراتشي الحالية). ويسميه ابن ماجد (داول او الديبول) والديبل ميناء مهم علت سهرته قبل القرن ٩هـ ١٥م بين التجار العرب بسبب سيطرته على مصب نهر السند وما يحمل اليه من منتجات بلاد السحاب وكشمير وغيرها ومما زاد من اهمية هذا الميناء هو خضوعه لسيادة الدولة العربية الاسلامية فضلا عن موقعه الذي اتخذت منه السفن التجارية مركزا ومحطة للانطلاق الى المراكز التجارية الاخرى في ساحل الهند

ويصف ابن ماجد ساحل الديبل وكيفية الدخول الى خور مينائه ومحراثه بقوله

ان سبت داول الاسارد بوديا
على سهيلها برام تابيا
صفاته راس اذا تبدى
كانه جمع ذراع مدا
وفوق كل ذا جبال الملـ
عاليه لم توتصف يا جلي
وحارون وراس هروالي
بينهم داول حد مقالي[١٧]

على ان الراغب في الوصول الى داول كما يقول ابن ماجد يعرفها من راس بوريا الذي يبدو كانه ذراع ممتد في البحر وفي هذا اللسان نجد ان جبال الملـ تطل فوقه عالية لا توصف من ارتفاعها كما توجد رووس اخرى في الطريق الى داول مثل حارون وراس هروالي وتقع

داول بين هذه الرووس ويحدثنا ابن ماجد عن خور داول في كتابه (الفوائد) مبينا الطرق المؤدية إلى موانئه حيث يقول

اذا حاورت الديو وتوقه ومهايم ودانداو رفور واسرلنا تاتي خور داول واشارتها جبل حاررون شماليها وجبل هيروا الى جنوبها . والخور بينهما بقرب راس هيروا بالقرب من الجبل على اليمين . واشارتهم يضرب راس جرر بوديا ساقيليك بعيدة عنك مقدار مسيرة زام كمل من لارك الى جرون . وهو يسميه الدبوسة فاذا خلفته . تاتيك جبال كثيرة . لا يكون فيها شيء غريب نصفه . مثل طبقة فوق طبقة الى حدود سنجيسر وجرر دنداسي . وبعد عنه ساحوان كلها جبال واشارة ساحوان . انها عنة راسها عند دخولها تتركه يسارا والطوطة يمينا في ذلك الرمان فاذا سرت تاتيك سندا بور وتدخل خورها في الفلق»[٨٨]

وهذه العناية بخور الداول من قبل ابن ماجد انما تدل على اهمية مينائه للمسافرين الى ساحل ككن . ويشير في الوقت نفسه الى استمرار النشاط التجاري الخليجي في هذا الميناء على ما كان عليه قبل القرن ٩هـ/١٥م

ومن اهتمام ابن ماجد بالداول التعليمات والارشادات التي يعطيها للداخل الى خور داول ووصفه لقياس محراها [٢٠] والى جانب وصفه لخط المجرى العام الذي يربط الداول

بالخليج العربي ، فان ابن ماجد يصف طرقا أخرى تبدأ من راس فرتك (السواحل الجنوبية للجزيرة العربية) إلى دابول وهو خط مباشر [٩٠]

٤ ـ الطريق الى برّ تلوان

لا يعطي ابن ماجد كثيرا من التفاصيل عن هذا الساحل ، وهو الاقليم الثالث في التقسيم الجغرافي عند ابن ماجد للساحل العربي للهند وأهم ما يقوله انه الساحل الذي يقابل المسافر بعد الخروج من الديبل ، ويذكر اسماء محطات مثل دبدباسي واردبوه ومنحلور . ويعدها ابن ماجد من الرؤوس المشهورة على ساحل الهند . ويبدو ان اردبوه ومنحلور من جزر هذا الساحل ،[٩١] حيث يقول

اما بجزاتي مع جداوري
ودبدباتي سبعه وساجر
والجزر والجزده سبعه فيسوا
والبعض قالوا انه نفيس
اما اراديو فسته قادر
ومرطبان وفلي والنجر
ايضا وراس الجلب المعروف
به كذاك الجاه سته يوفي
وان يكن عند اعتدال الصرف
الجاه خمس افهمن وصفي
فهؤلاء الرؤوس يا صرغامي
دباب ودار ربيه ومامي
ومنجلور ثم راس العال
اوله من شاطيء الشمال[٩٢]

ويبدو ان هناك مجار من الخليج العربي ، لا سيما من راس الحد ، إلى دبدباسي ومنحلور ، وذلك بدليل ان ابن ماجد يعطي لربابنة السفن قياس المسافات بين الخليج العربي وهذه الرووس [٩٣]

٥ ـ الطريق من الخليج العربي إلى ساحل مليبار

اما ساحل مليبار ، وهو الاقليم الرابع والاخير من ساحل الهند العربي ، فقد نال هو والجزر الموجودة في مياهه اهتماما كبيرا من ابن ماجد والسبب يعود إلى اهمية هذا الاقليم الهندي بالنسبة للتجارة الخليجية ، فهو مصدر خشب الساج ـ المادة المهمة في صناعة سفن الخليج العربي . وإذا كان الكتاب العرب قبل ابن ماجد قد اعطوا اهتماما قليلا بهذا الساحل[٩] فان ابن ماجد يزودنا بمعلومات تفصيلية عنه اكثر من اي اقليم اخر في ساحل الهند العربي ، وذلك في كتابه (الفوائد)

اذ يصف ابن ماجد ساحل مليبار من حيث طبيعة القشرة الأرضية ، فيتكلم عن الجبال الصغار والكبار ، كما يعدد الجزر القريبة من هذا الساحل ففي الجبال العوالي في ساحل مليبار يقول ابن ماجد

«واما الجبال العوالي ، فهي متصلات ، واشهرهن في هذه الاماكن قبة بدحتن ، فاذا كنت ناتجا من البحر ، وهي عنك في مطلع العيوق ، فاعلم ان كاكاديوه تحتها وجنوبها جبال عوالى على قات قات وكذلك جبال على كاليكوت عوال فاذا جاريت البرّ من كنبور ، ياتيك جور درمافتن ،

تم ميلي علوى . تم بدفتن . تم فندرينة . تم قات قات تم مير عيب تم كاليكوت» (٩٥)

اما الجبال الصغار في ساحل مليبار . فيصفها ابن ماجد بقوله

«واما قريب الساحل . فاكام وجبيلات حمر بين فرطل واقفاف الساحل وهي على قرب فاكنور تراها من بعيد فاذا قربتها عرفتها وهي تضرب بالحمرة وتنحدر اقفاف الساحل من هناك الى حدود هيلي لا يصير فيها علو ولا انخفاض فاول ما يلقاك جور منجلور ترى انقطاعه . اذا كنت قريب البر وترى اقفافه مثل انقطاعة السفينة الكبيرة وبعدها جبلة قبلة وهي مسلوبة الاطراف تسمه جبل سيبان . وهي التى يجعلونها هيلي دروع يقرب هيلي راس بينهما مسيرة زام واحد واما هذه الجبلة فاذا حلفتها رايت هيلي وربما ترى الاثنين وانت بينهما اذا صارت هذه الجبلة في العطية وحريب بريح طيبة ثلاثة اروام او اربعة فتابيك هيلي راس في العطية ومن مطرابيل التي على جور بادقلة الى هذه الجبلة قريب اثني عشر زاما بريح المغيب صافية او عشرة اروام فاذا حلفت هيلي راس ترى عنة كبار وبينها وبين هيلي خمسة روس اكام عليها خضرة وطوط ولهن من المشهورات مهرادى ثم جور بالاشتر وهذه راسان وبعده زامار . ثم راس كنبور وهي تصر القمة» (٩٦)

وهكذا يذكر ابن ماجد بان الجبال الصغيرة (الجبيلات) في ساحل مليبار تميل في لونها إلى الحمرة . وبعضها يمتاز بحدة انحدار اطرافه . والبعض الآخر بكونه ذا رؤوس

اما الشريط الساحلي لاقليم مليبار فهو يضم مجموعة من الجزر ، التي يذكر ابن ماجد منها ارادبو ومطرابيل وجيرران وبادقلة وبهندور وفاكنور وفي ذلك يقول

«واما الجزر الصغار مثل ارادبو ومطرابيل وتسمى مطرابيل الساحلية . وهي غير مطرابيل البحرية . فانها على بادقلة وجيرران على جور هنور من جانب الجاه . ترى راسها من الدقل من جور هنور وبعدها باقلة ومن هناك الى حدود قبلة . ارتفع عن الاوساخ . وجد ماء خمسة عشر باعا فتنزل على بهندور وباسرور في ذيل جبل قرطل من الشمال وهناك جبال اقرب من فرطل للساحل اشهرها واعلاها القبة التي نور بهندور . عليها الجاه ست الا ربعا وبعدها فاكنور واشارتها ان عليها جبل قرطل متحدب كثير تراه بالصحو ولا تراه بالغبار» (٩٧)

ومن الموانىء التي نال اهتمام ابن ماجد الكبير في ساحل مليبار كاليكوت اذ تعرف بكونها محطة تجارية مهمة ومعروفة للتجار والمسافرين الى ساحل الهند وهناك خط ملاحي يربط الخليج العربي بكاليكوت . حيث يبدا من هرمز في راس الخليج العربي وينتهي بكاليكوت في ساحل مليبار (٩٨) كما يوجد خط ملاحي اخر يربط كاليكوت براس فرتك في الساحل الجنوبي لراس الخليج العربي (٩٩)

يصف ابن ماجد قياسات المجرى إلى كاليكوت .(١) ويكرس جزءا من أوصافه لهذا الميناء ، فيقول انه يتميز بكثرة الاكام والشعاب والوسخ ولذا يحذر راكبي السفن الكبيرة بضرورة الانتظار إلى الصباح عند الدخول إلى كاليكوت ويؤكد كثيرا على الاكام الموجودة في المنطقة بقوله «فترى عنة كاليكوت فانه ليس مثلها علامة ، وهي اكمة عليها مسلوبة الاطراف بين الطوط وبين الجبال العالية» (١ ١)

ويصف ابن ماجد ميناء كولم ، وهو مركز مهم للسفن المنطلقة من الخليج العربي ، بل ومركز رئيسي للتجارة الهندية مع العالم وكانت تلتقي في كولم السفن التجارية التي تقطع الطريق الساحلي من الخليج العربي إلى ساحل مكران ومن ثم الى السند وجزررات لتصل الى كولم (٢ ١) وذلك مع الرحلات المباشرة التي تقوم بها السفن من عمان (مسقط) عابرة المياه الممتدة بين الخليج العربي وساحل مليبار

وكانت السفن الخليجية تقصد هذا الميناء للحصول على السلع التجارية المهمة فيه

ويقدم ابن ماجد ارشادات مهمة لاصحاب الرحلات الذين يرومون الدخول او الخروج بامان الى ميناء كولم اذ ينصحهم فيها بالسير بجوار الساحل ، ولا سيما في الليل ، وان لا يترك المسافر هذا الساحل بعيدا عن نظره ابدا ، حيث يقول

«فتاتي كولم ، وتسامر البرّ في سهيل والعقرب تارة ، والاكليل تارة كل راس خرج عليك انحرف عنه على نظر العين في موسم المطلعي ، وان كان بالليل ، فالزم الديرة إلى حدود كمهري وكلها رؤوس واشجار واكام ، وفوقها جبال عوال » (٣ ١)

وهكذا يصف ابن ماجد الساحل بعد الخروج من كولم للوصول بأمان إلى اخر ميناء في ساحل الهند العربي وهو كمهري ، الذي يمتاز بكثرة الرؤوس والآكام والجبال العوالي والاشجار الموجودة فيه ، كما يحدد المجرى الى كمهري بقوله

الى بلد كولم مجرى البرّ
وبعضهم قال إلى كمهري
وقال الشولي إلى كمهري
في كولم العقرب فاجزم واجر
ومن كمهري في طلوع النار
لقائل حقق ولا تمار
في مطلع الواقع بالسويّة
ومطلع الطليم في العطية
ومن كمهرى مطلق تسلم
في مطلع السماك جر واعلم(١٠٤)

ومن جزر المياه الهندية التي يعطيها ابن ماجد اهتماما خاصا هي مجموعة جزر الغال ـ مقابل ساحل كاليكوت ، الا ان معلوماته عن هذا الارخبيل ماخوذة من بواخذة البلد (١) ويظهر اهتمام ابن ماجد بجزر الغال من خلال وصفه للطرق الفرعية التي تربط جزر هذا الارخبيل وذكره للطرق الرئيسية التي تربط جزر الغال بساحل الجزيرة العربية الجنوبي (٦ ١)

اما الطرق التي تربط ساحل الهند بجزر الغال فهي متعددة عند ابن ماجد ، ويؤكد ان معلوماته عنها جاءت عن طريق التجريب والخبرة

التي اكتسبها بتكرار السفر اليها (١٠٧) وتدلل هذه المعلومات مرة اخرى على اهمية هذه الجزر في حركة النشاط البحري بينها وبين بلاد العرب في القرن ٩هـ ١٥م

وإلى جانب ذلك يذكر ابن ماجد عددا من جزر العالم واصفا سواحلها وخلجانها ومياهها والمناطق الامينة من سواحلها مثل جزيرة كفيني حيث يعدها من بين جزر العالم الكبيرة التي تمتاز اقسامها الجنوبية بكثرة اشجار النارجيل فيها (١٠٨) ولم ينس الاشارة الى جزر العالم الاخرى مثل تودي والبارى وملكي (١٠٩)

وبعد هذا كله اعطى ابن ماجد وصفا كاملا لكل الطرق الساحلية (ديرة الملّ) والطرق المباشرة (ديرة المطلق) الى ساحل الهند العربي ولم يفته فرصة الاشارة الى تذكير المسافرين القاصدين ذلك الساحل بطريق العودة الى اوطانهم في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية حيث يقول

من ارض كاليكوت مع دابول
وجوررات ومن الديبول
ثم هراميز مع الاطواح
فافعل بصنع خالقي يا صاح (١١٠)

واخيرا يذكرنا ابن ماجد بالطرق التي تدور حول الساحل الجنوبي لشبه القارة الهندية متجهة الى السواحل الشرقية لهذا الاقليم والى جزيرة سرنديب (سيلان) حيث مصدر كثير من السلع والبضائع وقد خصص جزءا من ارجوزته المسماة المعلقية لوصف الطريق بين برّ الهند وبرّ سيلان حيث يقول

فلا عجب فهذه الاروام
من ارض كاليكوت يا همام
ان تطلع المائية او تريدا
جود لها التقميس يا رشيدا
تشهودها عندك في القياس
جعلت لك اروامها اساسي
جونا من السحايب الدامابي
مع عدم القياس يا ربابي
ترمد عن سيلان لم تحويكا
هذا قياس صادق يحيكا(١١١)

ويعدد ابن ماجد المسالك والدروب التي تتفرع من جزيرة سرنديب (سيلان) الى المناطق الاخرى في شمالها وجنوبها وشرقها ، وهي اوصاف متأتية من خبرته الشخصية (١١٢) وجزيرة سرنديب ، كما يقول ابن ماجد «جزيرة قريبة الاستدارة يدورها الماشي برحلة مسيرة عشرة ايام او اقل او اكثر (١١٣) والظاهر ان السفن العربية كانت ترد إلى جزيرة سرنديب للحصول على منتجاتها المهمة (١١٤)

الاشارات الملاحيه والفلكيه للطرق البحاريه بين الخليج العربي والهند

قدم ابن ماجد لحركة التجارة البحرية بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية خدمة عظيمة ليس في وصفه للطرق البحرية التي تربط المنطقتين بل لما قدمه من معلومات ملاحية وفلكية مهمة والتي لولاها لما كانت الرحلات التجارية بالكثافة التي

كانت عليها في القرن ٩هـ/١٥م وكانت هذه الارشادات الملاحية والفلكية نتيجة لما عرفه ابن ماجد عن سابقيه من معارف تخص هذا الجانب ، فضلا عما كسبه بخبرته الطويلة خلال رحلاته الكثيرة إلى المراكز والمحطات عبر الطرق التي تربط الخليج العربي والهند

لقد تنوعت ارشادات ابن ماجد الملاحية والفلكية ، وسوف نحاول أن نلخص أهمها في الصفحات الآتية

١ ـ مصاعب الرحلة التجارية بين الخليج العربي والهند وأخطارها

كانت الرحلات التجارية التي قام بها أبناء الخليج العربي إلى القارة الهندية في العصر الوسيط مليئة بالمشاق ، حافلة بالمفاجآت التي تثير الرهبة في النفوس فعلى إمتداد الطرق البحرية بين الخليج العربي والهند واجه بحارة الخليج العربي هذه المصاعب والأخطار بالجرأة والخبرة وروح المغامرة العالية ، واستطاعوا بذلك السيطرة على مقاليد الملاحة والتجارة مع الهند عن جدارة واستحقاق (١١٥)

تنوعت الأخطار والمصاعب التي سجلها ابن ماجد ، وحذر التجار والمسافرين منها ، منذ بداية الطريق من الخليج العربي إلى نهايته في الموانئ الهندية التي كانت تقصدها السفن التجارية ، كما أرشد ابن ماجد في كثير من الأحيان إلى السبل الكفيلة بتجنبها

تكلم ابن ماجد عن المصاعب الملاحية في الخليج العربي ، فذكر منها كثرة تعاريج سواحل هذا الخليج ، والتي تشكل رؤوسا بارزة في البحر وخلجانا داخلة فيه كما تكلم عن حركة المد والجزر التي تتحكم في الدخول إلى هذه الخلجان ، وعدّها من المخاطر التي تجابه الحركة الملاحية فيه ففي أثناء عملية المدّ تتوقف المياه ، ويعقب ذلك انخفاض المستوى في هذه الخلجان في عملية الجزر مما يهدد السفن بالارتطام بالأرض واتلافها لذا دعت الحاجة إلى معرفة خلجان السواحل الخليجية ومعرفة الأماكن الخطرة والآمنة فيها وقد سبق ابن اشرنا إلى وصف ابن ماجد للسواحل العربية والشرقية للخليج العربي ، وبينا الطريق الذي رسمه عبرها والخلجان الآمنة التي تستطيع السفن ان ترسو فيها

ويعد ابن ماجد أن اخطر الرؤوس في الساحل العربي للخليج العربي هو راس الحد ، الواقع في النهاية الجنوبية لهذا الساحل (في عُمان) ،(١١٦) وهناك رأس مسندم (في عمان ايضا) ، حيث يعد من المناطق الخطرة ، وذلك لوجود عدد من الجزر «شديدات الخطر قويات المدّ» ،(١١٧) قربه

وحذر ابن ماجد من الجزر التي تتوسط الخليج العربي في قسمه

الحيوي بسبب ضحالة المياه في سواحل بعضها.[118] واشار ايضا إلى منطقة ري شهر في الساحل الشرقي للخليج العربي وعدها من المناطق الخطرة لضحالة مياهها.[119]

ومن النصائح التي وجهها ابن ماجد الى الربابنة بشأن ذلك، انه نصحهم بالابتعاد في السير عن الساحل بعض الشيء حتى لا ترتطم سفنهم بالرؤوس. واوصى بان يكون الدخول الى الخلجان في اوقات المدّ وليس الجزر

واهتم ابن ماجد كثيرا بالمصاعب والاخطار التي تتعرض لها السفن في مياه الهند وسواحلها وذكر منها الطبيعية والبشرية فقد ذكر الطوفانات الخطرة في المحيط الهندي وقال عنها انها لا تحدث كل سنة، ولها علامات خاصة منها «تقطع الغيم كجلود البقر، والبرق، والسرطان بالماء وشده حرارة الماء».[120]

ومن المصاعب التي تجابهها الرحلة التجارية في المحيط الهندي وهي في طريقها الى سواحل الهند والتي حذر منها ابن ماجد تقلب الرياح وما يتبع ذلك من تغير المجرى[121] وحذر في الوقت نفسه من شدة سرعة المياه لا سيما في الطريق الذي يربط سواحل الهند بجزيرة سرنديب (سيلان).[122]

اما الامور التي حذر منها ابن ماجد ربابنة السفن في سواحل الهند العربية، فهي كثرة الجزر، وضيق المسالك بين كثير من هذه الجزر[123] واشار في الوقت نفسه إلى كثرة الشعاب المرجانية، والتي يسميها بالاوساخ، حيث تكثر في ساحل جوزرات اول اقليم في ساحل الهند العربي[124]

أما الاخطار البشرية التي تتعرض لها الرحلات التجارية ما بين الخليج العربي والهند ايام ابن ماجد فهي عمليات القرصنة الخطرة التي تاتي على الكثير من السفن المحملة بالبضائع الذاهبة والقادمة من الهند وسوف نترك ابن ماجد يتحدث عن عمليات القرصنة التي عرفها بنفسه في القرن ٩هـ/١٥م، فهو يقول

«فاذا جلفت كاليكوت، فعدل الطوط الى قريب فباني، ونقطع، ولا يبقى عدل إلا الأشجار بغير الطوط واحذر من الكات كوري في تلك الاماكن فانهم يأتون هنا في بعض الاحيان واما مساكنه الاصلية ووطنه، فبين كتي وكولم وهناك عنّة كبيرة وهم قوم يحكم عليهم سلاطينهم وهم مقدار ألف رجل رماة، وهم اهل بحر وبرّ وسنابق»[125]

وهكذا نجد ان ابن ماجد يسمى القراصنة في مياه الهند بـ (الكات كوري)، ويحدد شاطئهم ومساكنهم بساحل مليبار، حيث كانوا تحت آمرة حاكم منهم، وان عددهم نحو ألف

رحل من الرماة وبذلك يخالف ابن ماجد ما كتبه الجغرافيون العرب الذين ذكروا بأن نشاط القراصنة كان في سواحل السند وسموهم بـ (الميد والكرج)، وذكروا أن السفن التجارية القادمة إلى هذا الساحل كانت تتعرض لغاراتهم المفاجئة [١٢٦] أما ماركو بولو في القرن ١٣م (٧هـ)، فقد ذكر أن نشاط القراصنة يتركز في ساحل جوزرات [١٢٧]

ومن مقارنة بسيطة بين ما كتبه ابن ماجد عن القراصنة وبين ما كتبه الجغرافيون العرب وماركو بولو، نجد أن عملية القرصنة قد انتقلت ايام ابن ماجد إلى ساحل مليبار، على حين كانت في ساحل السند في القرون الاسلامية الأولى ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن كثافة النشاط التجاري هو الذي يحدد نشاط عمليات القرصنة ففي اي اقليم من اقاليم شبه القارة الهندية تنشط فيه حركة التجارة تزداد فيه غارات القراصنة، وهذا يعني أن النشاط الكبير للتجارة قد انتقل ايام ابن ماجد الى ساحل مليبار

٢ - العلامات والاشارات البحرية

ان معرفة العلامات والاشارات البحرية شرط أساسي من شروط فن الملاحة، فمنها يستدل على معرفة المجاري المؤدية إلى الموانيء والمحطات المطلوبة وقرب البرور والجزر والعلامات والاشارات على رأي ابن ماجد متنوعة، حيث يقول عنها

«ينبغي لصاحب الدرك أن يعرف جميع البرور وتحتاتها واشاراتها، كالطير والحشيش والحيات والحيتان والموارر والأرياح وتغير الأمواج، ومد البحر وجرره، والتفقد في كل طريقة» [١٢٨]

١ - طبيعة القشرة الارضية

ان معرفة طبيعة القشرة الأرضية للسواحل التي يسافر إليها المرء ضرورة من أجل الوصول إلى الميناء او المحطة المطلوبة ولذا نجد ابن ماجد يعطي هذا الجانب اهتماما كبيرا، خصوصا في ساحل الهند العربي، حيث يصف ميزة القشرة الارضية في هذا الساحل، من حيث كثرة الجبال والتلال فيه وقد عدّ هذه الجبال الكبيرة والصغيرة من العلامات المميزة لذلك الساحل وخير مرشد لمن عرفها للوصول إلى الموانيء والمحطات الواقعة على طول الساحل العربي للهند

ولعل من اشهر الجبال واهمها في ساحل الهند العربي التي اشار إليها ابن ماجد وعدّها من الاشارات الدالة جبل (جلبار) حيث قال عنه

«ليس في جوزرات جبل يشبهه، فإذا رأيت قمته قطعة واحدة إلى ناحية مطلع العيوق، فانت في شوروار بلد التنبول وان انقسم رأسه إلى قطعتين، وكانت الشرقية اكبر فانت

إلى العرب من سوروار، وهذه العلامة كما يقول، لم يسبق إلى الاستدلال بها احد من المعالمة»[١٢٩]

وعدّ ابن ماجد جبل دون من اشارات حور كنباية في حوررات[١١] اما في اقليم كنكن، وهو الاقليم الثاني في ساحل الهند العربي فيذكر ابن ماجد جبال حور دابول، كعلامات دالة، حيث يقول

«ان حاورت الديو وقومه ومهايم ودابدا ررفور وابرلنا تاتي حور دابول واشارتها جبل جارروں شماليها وجبل هيروا الى جنوبيها والحور بينهما بقرب راس هيروا فاقرب من الجبل الذى على اليمين واشارتهم يضرب راس جرر بوريا سافليك بعيدا عنك مقدار مسيرة زام كمثل من لارك الى جرون، وهو يسميه الدبوسة»[١٣١]

اما في الاقليم الثالث من ساحل الهند العربي وهو تلوان، فيصف ابن ماجد ساحله بانه سلسلة من الجبال المتتالية تبدو كانها «طبقة فوق طبقة الى حدود سنجيسر وجرر ديدباتي، وبعد عنّه ساحوان كلها جبال»[١٣٢]

ويفصل ابن ماجد كثيرا عن الجبال العوالي والجبيلات في ساحل مليبار وبما اننا فصلنا القول عنها، لذا سوف اعدد اهم الجبيلات والجبال العوالي في هذا الساحل

ولعل اهم الجبيلات التي يجدها المسافر هي جبيلات جمر واكام قرب فاكنور وتستمر الجبال إلى جور مجلور وبعدها ياتي جبلة قبلة الحادة الاطراف، ثم إذا اخلفت هذه الجبلة رايت هيلي، ومن ثم إلى كنبور وبينها وبين هيلي خمسة رؤوس كلها اكام عليها خضرة وطوط واشهرها رووس مهرادي، وراس جور بالافتن وراس كنبور[١٣٣]

وتتتابع الجبال التوامح من هناك، وابرزها قنة بدفتن، وإلى الجنوب منها جبال عوالي تطل على قاب قات وكذلك جبال شوامخ فوق كاليكوت[١٣٤] وعلامات كاليكوت، كما يقول ابن ماجد، اكمة تقع بين الساحل والجبال، فاذا جئت بالليل فارصد الاكمة فليس لها هناك مثيل ولا ادل منها خصوصا في الظلام، وهي محددة الاطراف[١٣٥]

ويستمر ابن ماجد في وصف جبال ساحل مليبار، مذكرا المسافر بان المنطقة الساحلية الواقعة بين ميناء كولم وميناء كمهري، اخر موانىء ساحل مليبار، «كلها رؤوس واشجار واكام، وفوقها جبال عوال»[١٣٦]

وبهذا عدّ ابن ماجد الجبال على اختلاف ارتفاعها واشكالها من الاشارات والعلامات المميزة لساحل مليبار، بل ولساحل الهند العربي كله وعدّ صخور وأحجار السواحل اشارات دالة أيضا فساحل مسقط في عُمان يستدل عليه، على حد قول ابن ماجد من «حجر على رأس بندرة يراه العادي والجاني من أي مكان قصده من الهند والسند ومن

هرامير أو مكران أو حاتش والعرب وعلى معارب السر الكبير ، عنده حريرة حمراء عالية ، يقال لها المحل وتابل اشارتان تكفيان الجاهل فيه ان ورده بالليل أو بالنهار» (١٣٧)

ب - المارزة (تعابين البحر)

تعد المارزة من الاشارات التي تعرف المسافر من الخليج العربي وهو في طريقه إلى الهند ، إلى قرب وصوله إلى سواحل الهند إد يذكر ابن ماجد المسافر من مسقط إلى ساحل السند نوع من الحيات التي تميز هذا الطريق ، إذ يقول

ومن حدود مسقط للسند
إلى رحد ترى المكان عندي
خمسة واربعين راما وافية
وبعد ترمى البلد تلق العافيه
وربما ان ترى الحيات
من قبل اربعين حد صفاتي(١٣٨)

والمارزة (تعابين البحر) من علامات ساحل اقليم كنكن في الهند ، اذ يعد ابن ماجد رؤيتها اشارة على قرب ساحل كاليكوت ، فيقول

وان تنظروا اللزاق ثم الموارر
وبلدك تسعون بهور صاير
فسيروا على الاكليل يوما وانتحوا
لهيلي وحاروا بركم للتشاير
ولروه حوف المدّ تم تاملوا
إلى المدّ متسهورا وساق وتاير
وسيروا على المقدار بالليل واطرحوا
لسبعة انواع بقرب البنادر
بنادر كاليكوت فيها اشاير
تروها بحر النار او حر كاسر(١٣٩)

وليس ذلك فحسب ، بل يعد ابن ماجد الموارر من الاشارات التي لا تنقطع عن المسافر في طريقه إلى ساحل مليبار (١٤٠) ويبدو ان الموارر نوعان ، برية وبحرية ، فالبرية نجدها في ساحل حوررات وتشاهد قريبة من البر لذا تسمى بالبرية وأخرى بحرية يجدها المسافر على بعد أكبر وعمق اكثر من الساحل او الميناء الذي يريده ، وهذه نشاهدها في سواحل كنكن وتلوان (١٤١)

جـ - لـون المـاء

ومن العلامات والاشارات التي يستطيع راكب البحر ان يستدل بها على ميناء او طريق بحري يريده من الخليج العربي والهند لون الماء ومن الامثلة التي يوردها ابن ماجد قوله «ان علامة عبتي الحسيس بحوار ساحل عمان الجنوبي اصفرار الماء» (١٤٢) اما لون الماء في ساحل حوررات خصوصا في حور القادي فيميل الى الحمرة وفي هذا يقول

لكن هذا الحور ماؤه عرير
يضرب الى الحمره والتكدير(١٤٣)

وتعد قوة المياه براي ابن ماجد اشارات مهمة . وهذا ما يميز الامواج العالية في ساحل كنكن (١٤٤)

د - الاشجـار والعـشـب

ومن العلامات التي يجدها المسافر

في ساحل الهند العربي وجزره ، الاحجار العالية لا سيما احجار النارجيل ويذكر ابن ماجد انها من احجار ساحل كنكن ( ) وساحل مليبار ( ) كما انها من علامات جزر الغال المقابلة لساحل مليبار ( ) ومن اشارات الطريق الى جزر الغال كما يقول ابن ماجد وجود معدن العنبر ( )

ولا تقتصر اشارات وعلامات ابن ماجد على ما يوجد في الطبيعة بل عدّ البنايات الكبيرة من الاشارات الدالة اذ عد منارة ميناء دهنوة العالية في كنكن من اول العلامات المميزة لهذا الميناء وفي هذا يقول

اعلم اذا احتسب من سندار
وصار في الشمال يا ربانى
ترى منارة عاليه دقيقه
فهى على دهنود بالحقيقه(١٠٩)

٣ - الاشارات الفلكيه

قدم ابن ماجد للبحار المسافرين ما بين الخليج العربي وسواحل الهند ارشادات فلكية مهمة وبعضها جديدة لا تستطيع الرحلة التجارية الاستغناء عنها ولا تستطيع بدون معرفتها الوصول الى الميناء او المحطة التجارية التي تريدها وسوف يكون اهتمامنا مركزا على جوانب محددة من هذه الاشارات

يلخص ابن ماجد ما يقدمه من ارشادات فلكية الى المسافر في المحيط الهندي بالكلمات الاتية

اعلم ايها الطالب ان لركوب البحر اسبابا كثيرة فافهمها ، وتعلمها ، واجتهد عليها واعرفها فاولها معرفة المنازل وبعدها معرفة الاخنان وبعدها معرفة المسافات والباشيات والقياسات والاشارات ، وحلول الشمس والقمر وينبغي لصاحب الدرك معرفة المطالع والمغارب والاستواءات وجلسة القياس وترتيبه ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ومجرها ( )

وبذلك يعطي ابن ماجد الخطوط العريضة لكل ما يحتاجه الملاح من معرفة فلكية لقيادة السفينة بامان الى الجهة المقصودة

والمعروف ان النجوم كانت هي الوسيلة الوحيدة التي يهتدى بها راكب البحر في ايام السفن الشراعية ، ومن خلال النجوم يستطيع تمييز الجهة المقصودة عن بقية الجهات وقد بات ابن ماجد يرعى النجوم خمسين عاما فوضع قياساتها عن تجربة دقيقة والقياس هو ارتفاع النجم عن الافق ، الى مقدار ما بين الافق والنجم من الاصابع القياسية ويستخدم قياس النجوم لمعرفة ما قطعه المركب من المسافة طولا وعرضا والقياس عادة - كما يحدده ابن ماجد - يكون بالنظر إلى النجم الذي امام الربان والنجم الذي خلفه (١٠١)

ويمكن للباحث ان يضع قائمة لقياسات النجوم وأبراجها الخاصة بالطرق البحرية التي تربط الخليج العربي بالهند من خلال سفر ابن ماجد وبتره فقد حدد لكل جهة وساحل وميناء قياسات خاصة فهناك مثلا قياسات للنجوم التي تتحكم في الطريق البحري بين راس الحد في عمان وراس رحد في ساحل السند [١٥٢] وقياسات خاصة للنجوم التي توصل الى ساحل حوررات [١٠٣] اذ ذكر ابن ماجد النجوم وأبراجها وامكانية اهتداء المسافر بها الى ميناء الديبول في حوررات، وقياسات تلك النجوم [١٠٠]

ويضع ابن ماجد في قائمة قياسات النجوم قياسات لموانيء تلوان وساحل مليبار من اقاليم ساحل الهند العربي [١٠٥] ولا ينسى ان يوضح التي يهتدى بها المسافر من ميناء الى اخر من موانيء ساحل الهند العربي مع ذكر قياساتها [١٠٦]

يستخدم ابن ماجد كغيره من الملاحين (الاروام) كوحدة لقياس المسافة التي تقطعها السفينة حسب النجوم والاروام هي الوحدة التي يقيس بها المسافر في البحر كالميل الذي يقيس به المسافر على البر [١٠٧] وقد سجل ابن ماجد بصورة دقيقة عدد الاروام التي يجب قطعها في اى طريق ساحلي او مباشر يربط الخليج العربي بالهند فمثلا قدر المسافة بين راس الحد في عمان وراس رحد في السند بـ (٤) راما [١٥٨] وما بين مسقط ورحد بـ (٤٥) راما [١٥٩] وما بين راس الحد وميناء الديو في ساحل حوررات بـ (٦) راما [١٦٠] وما بين الخليج العربي وموانيء ساحل مليبار مائة رام [١٦١]

الرياح ومواسم السفر

لقد اصبح معروفا الآن ان ابناء الخليج العربي كانوا قد اصبحوا سادة النشاط التجاري مع الهند، بسبب معرفتهم لنظام الرياح الذى يتحكم في مناخ كل من الخليج العربي والمحيط الهندي ويتلخص ذلك في نظام هبوب الرياح الموسمية صيفا وشتاء، وارتباطهما مع نظام الرياح المحلية في دفع السفن الخارجة من الخليج العربي والداخلة اليه [١٦٢]

لقد مكنت الرياح الموسمية تجار الخليج العربي من القيام برحلتين بحريتين في المحيط الهندى خلال العام. وقد اتاح لهم هذا السيادة على التجارة البحرية مع الهند والصين. وصار لرحلات ابناء الخليج العربي الى تلك المناطق مواعيد ثابتة ومعروفة في الذهاب والاياب تحدث عنها الكتاب العرب في عصور الازدهار الاسلامية

اما ابن ماجد فقد عبر تعبيرا صادقا في مصنفاته عن فهم لطبيعة الرياح الموسمية والتيارات المعاكسة في المحيط الهندي واصبح بامكاننا ان نضع جدولا تقويميا يحدد لكل

ساحل ومبناء الرياح التي تتحكم به وموسم السفر اليه في القرن ٩هـ ١٥م

ويرى ابن ماجد ان خضوع الملاحة الشراعية لطبيعة الاحوال الجوية وتقلبات الطقس قد حتم على الملاح ان يكون ذا خبرة وتجربة واسعة في مثل هذه الامور ليكون عارفا بمواسم السفر الملائم وغير الملائم فهو يقول

المعلم الماهر لا تخفى عليه جميع الارياح ومواسم جميع الدنيا لانها مرتبة على الارياح فاعرف مواقع جميع المواسم والارياح

ويحدد ابن ماجد مهب كل ريح من الارياح وقال ان لكل ريح حالات ضعف وحالات شدة يسميها الخانات (جمع خانة) وقوة الخانة او ضعفها بسبب الى ظهور الكواكب او المنزلة التي يتفق طلوعها مع بداية هبوبها وتختلف الخانات من حيث الزمن فقد تستمر احداها قوية اسبوعين او اكثر ثم تعقبها اخرى ضعيفة تبقى مدة اطول او اقصر

ويمكن تلخيص ما قاله ابن ماجد عن مواسم السفر بموجب الرياح الموسمية بما يلي تخرج السفن من الخليج العربي قاصدة الهند مع الرياح الموسمية الجنوبية العربية والتي سماها ابن ماجد بريح الدبور او الكلوس وتعود مع الرياح الشمالية الشرقية التي سماها بريح الصبا او القبول وتتباين تواريخ هذه الرياح على حسابات النيروز او السنة الرومية وحسب موقع الموانئ والمحطات وحسب الظروف المناخية والمحلية» (١٦٥)

وكانت مواسم السفر في المحيط الهندي تحسب ابتداء من اول النيروز وهو وقت دخول الشمس برج الحمل وتوافق يوم ٢١ مارس (اذار) وهي نقطة الاعتدال الربيعي . ومن هذا التاريخ تحسب مواسم السفر فعندما يقول ابن ماجد في (مائة النيروز) فانما يعني بعد مائة يوم من نقطة الاعتدال الربيعي وهكذا (١٦٦)

وبموجب هذا الحساب فان الرحلة التجارية الى سواحل الهند العربية تبدا من الخليج العربي في شهر تشرين الثاني وكانون الاول . وتصل خلال اسبوعين الى سواحل جوزرات وكنكن وكان يجب على السفن الخليجية ان تغادر سواحل جوزرات وكنكن قبل اواخر حزيران وهو الوقت الذي تبلغ فيه الرياح الموسمية الجنوبية العربية أقصى حدتها (١٦٧)

اما ساحل مليبار . وهو الاقليم الرابع من سواحل الهند العربية ، فان الرياح الموسمية الجنوبية تبدا مبكرة فيه وتستمر لفترة أقصر . ولهذا يعدّ هذا الساحل من المناطق الخطرة منذ شهر ايار وحتى نهاية ايلول وهذا يعني ان موسم الرحلات التجارية إلى المليبار يكون اقصر مما هو عليه في ساحلي كنكن وجوزرات ومن هنا نجد ان السفن التجارية

الخليجية تستطيع الذهاب الى حوررات لمرات اكثر مما هو الحال بالنسبة لساحل مليبار ، وفي هذا يقول ابن ماجد

«ان السفر من قلهات ومسقط الى حوررات يكون مرتين وثلاثا واربعا وخمس مرات في السنة اذا لم تمكث في الموانىء . ويضيف ايضا بان السفر من عمان الى حوررات لا ينقطع طوال العام اذا كان الربان ماهرا وقادرا على اتخاذ كافة التدابير لمواجهة صلابة ريح الدبور» (١٦٨)

ويؤكد ابن ماجد بعد ذلك ان السفن تستطيع القيام خلال الموسم الواحد برحلتين او اكثر ذهابا وايابا ما بين الخليج العربي والهند بامان (١٦٩)

اما الموسم الذي تتوقف فيه الرحلات التجارية ما بين الخليج العربي والهند ، فقد حدده ابن ماجد من منتصف ايار الى نهاية العشرين من اب تقريبا (من ١٩٥ النيروز الى ٢٨٧ منه) ، وسماه بـ (موسم الغلق) . إذ قال في الحاوية وهو يحدد هبوب رياح الدبور

ويبغى معرفة الارياح
ومغلق البحر مع المفتاح
معلقة تمكث ربع عام
مدة تسعين من الايام
اذ بدا الدبران وقت الفجر
ما ينبغي للفلك فيه يجري
حتى ترى الفجر استوى بالزبرة
فجر بواحيه معا وعزرة
من اول الماتين يا فطينا
لاول الماتين والتسعينا
فهذه التسعون فيها الغلقا
حقيق من جار بها ان يشقى (١٧٠)

وهذا يعني ان حركة السفن التجارية بين الخليج العربي والهند تتوقف ثلاثة اشهر في السنة بسبب صعوبة الرياح في المحيط الهندي وخلال هذه المدة لا يتوقف نشاط التجار ، بل انهم يقضون هذه المدة في الموانىء والمحطات التجارية للقيام بعمليات البيع والشراء

السلع التجارية المتبادلة

على الرغم من ان قائمة التبادل التجاري بين الخليج العربي والهند كانت ضخمة بما احتوته من سلع سواء الكمالية او الاساسية في عصور الازدهار الاسلامية وانها كانت السبب الرئيسي والاساسي في الرحلات التجارية الكثيفة بين الخليج العربي والهند فان ابن ماجد لم يزودنا بقائمة دقيقة وشاملة لهذه السلع واماكن وجودها . ولعل عذره في ذلك ان هذه السلع معروفة للتجار المسافرين الى الهند منذ قرون عديدة وحتى ايامه . ولهذا لم يكن همه تقديم شيء معروف للناس . وانما اراد ان يعرفهم على معلومات اخرى يحتاجونها في رحلتهم في الخليج العربي إلى الهند ، وهي باختصار ارشادات ملاحية وفلكية

ومع ذلك ، فاننا نجد بين الحين

والاحر في سعر ابن ماجد وسرد اسارات الى سلع ومنتجات بعض موانيء سبه القارة الهندية وحررها وبيوت في الوقت نفسه نقلة هذه المنتوجات عبر الازمنة المختلفة او كثرتها

ياتي الخشب في قائمة السلع الرئيسية التي استوردتها بلدان الخليج العربي من الهند لانه كان يستخدم في بناء السفن وفي عمل سقوف البيوت والمعروف ان خشب الساج كان من اهم انواع الاخشاب التي جلبها تجار الخليج العربي من الهند [١١١] وكانت اهم منابت الساج المفرط الطول هي سواحل مليبار في الساحل العربي من الهند وعلى الرغم من ان ابن ماجد لم يشر صراحة الى خشب الساج لكنه اكد على وجود الاشجار في ساحل مليبار [١٦٢]

اما النوع الثاني من الاخشاب الذي جلب من الهند الى الخليج العربي فهو خشب النارجيل (وهو خشب اشجار جوز الهند) ، الذي استخدم هو الاخر في صناعة السفن وبناء البيوت وقد ذكر ابن ماجد اماكن تواجد النارجيل في ساحل الهند العربي وجزره فهو يتوفر في اقليم كنكن خصوصا في ثغر المهايم ، وفي هذا يقول ابن ماجد

فان تخلفه ترى مهايما
معتزله بالنارجيل دايما[١٦٣]

كما يشير ابن ماجد الى وجود النارجيل في جزر القال ، وذلك عند حديثه عن احدى الجزر الأخيرة المسماة جزيرة «كفيني»

فمن صفاتها انها جزيرة
منقسمه في البحر كبيرة
ونخلها والناس والنادر
على جنوبها فكن بالحاذر
وعنهم في الجاه يا خليلي
نحو سهيل عوان بارجيل
كان كبيرا اول الزمان
وقل في ذا العصر يا رباني[١٧٤]

اما التوابل فقد كانت السلعة الرئيسية التي حفزت التجار العرب في التدفق على الساحل العربي للهند منذ بداية نشاطهم التجاري مع هذا الاقليم الا ان ابن ماجد ، وعلى الرغم من تفصيلاته الدقيقة لموانيء وثغور وجزر هذا الساحل ، فانه لم يشر إلى منتوجاته من التوابل المتعددة الانواع فالفلفل الذي اشتهر به ساحل مليبار حتى سمي «بلاد الفلفل» لم ينل من ابن ماجد اي ذكر والنوع الوحيد من التوابل الذي اشار اليه ابن ماجد هو القرفة . حيث قال عنها انها من منتجات جزيرة سرنديب (سيلان) [١٧٠] التي اشتهرت بجود انواع القرفة

ومن السلع التجارية التي ذكرها ابن ماجد العاج ، الذي عد جزيرة سرنديب (سيلان) من اماكن توفره [١٧٦] علما بان هذه المادة تعد من صادرات الهند التقليدية

وتوفر جزيرة سرنديب للتجار ايضا

الياقوت النفيس ، وكذلك اللؤلؤ ، إلا أن مصايد اللؤلؤ هناك ، كما يقول ابن ماجد ، غير دائمة حيث تعمر في بعض السنين وتخرب في سنين اخرى [177]

اما الذهب ، فان إشارة ابن ماجد اليه غير مقنعة ، إذ قال عنه «وعلى جنوبي تلك الجزيرة ، الواقعة إلى الجنوب من سرنديب ، على مسيرة اربعة ايام في البحر أو اقل او اكثر ، (جزر الذهب) وقيل كان فيها اكسير في قديم الزمان ، ولم يكن فيها شيء منه في عصرنا هذا» [178] وهذا يعني بالنسبة للمسافرين ان الذهب غير موجود في الساحل الجنوبي للهند على ايام ابن ماجد

اما العنبر ، وهو من المواد العطرية التي يجلبها تجار الخليج العربي من جهات متعددة ومنها الهند ، فقد اشار ابن ماجد الى مكان وجوده وقال بانه يتوفر في المياه الواقعة بين برّ العرب وجزر الفال (المقابلة لساحل مليبار في الهند) وتكلم عن طريقة تكوينه قائلا «ويمكن ان يكون حول تلك السعف (ما بين الفال وسقطرة) معدن العنبر ، لان العنبر لا يتصور ولا يكون على البرور الا في مكان حول ذلك المكان واختلف الناس فيه ، ولم يدروا من اى شيء هو فقيل من السمع ، وقيل هو روث وحشي في جزر تلك الاماكن يرمي به السيل ، فيصير في الماء ويرمى او تبتلعه الحيتان ، فيصور الله تعالى فيه دلك السرّ» [179]

ومن المنتجات التي لم يتطرق لها ابن ماجد ، والتي كانت تشكل جزءا مهما في قائمة التبادل التجاري العربي الهندي ، المنتجات الزراعية والمواد المصنعة فالمنتجات الزراعية من فواكه وحبوب ، والتي تكثر زراعتها في الهند ، كانت من مستوردات اقطار الخليج العربي ، وقد ذكر الجغرافيون والرحالة العرب ان الليمون والاترج والارز تقع على راس قائمة المنتجات الزراعية الهندية المستوردة [180]

ومن السلع المصنعة التي استوردها سكان الخليج العربي من الهند ، الاقمشة الفاخرة والاحذية الجميلة لا سيما (نعال كنباية) ، الا انها جميعا لم ترد في قائمة ابن ماجد للسلع المستوردة

اما فيما يخص صادرات الخليج العربي الى الهند فقد كانت من المؤكد اقل حجما إذا ما قيست بما استورد من الهند [181] اذ ذكرت المصادر العربية قبل ابن ماجد السلع التي حملها التجار من الخليج العربي الى الهند ومنها الخيول التي كانت تحمل من عمان والبحرين وهرمز وكانت تصدر باعداد كبيرة واسعار عالية ، فضلا عن التمور والمنسوجات واللولو وغيرها [182]

جاءت قائمة الصادرات الخليجية عند ابن ماجد لتؤكد ما جاء عند الكتاب العرب الذين سبقوه ، وهي تحوى معلومات تخص السلع

الخليجية المنقولة الى الهند فقد ذكر وهو يصف مسقط الى ان السفر من والى الهند والسند مستمر طوال العام من مسقط حيث تسحب المراكب من هذا الميناء بالبر والتمر والخيل وتباع فيه البرّ والسليط والرقيق والعلات وتقصده المراكب (١٦٢) وبهذا حمل تجار الخليج العربي في ايام ابن ماجد الى الهند منتجات هذه المنطقة من الخيل والتمر والمنسوجات، والمنتوجات الزراعية الاخرى ولا ينسى ابن ماجد ان يشير الى الازدهار الذي كان عليه الساحل العربي للخليج العربي ايامه في مجال الزراعة والثروة الحيوانية وذلك في معرض حديثه عن البحرين. (١٨) وعن عمان (١١)

ومن السلع الثمينة التي كانت تحمل بكثرة من الخليج العربي الى الهند ايام ابن ماجد اللولو فقد اشار الى اماكن وجوده في مياه الخليج العربي، واماكن صيده، محددا منطقة القطيف وقطر وعمان (١٦٦) الا انه اعطى مصايد اللؤلو في البحرين اهمية خاصة، حيث قال

«حولها (البحرين) معادن اللولو وعدة جزر كلها فيها اللولو، تاوي اليها مراكب نحو الف مركب» (١٠٠)

ولعل فيما ذكره ابن ماجد اشارة واضحة الى حجم انتاج اللولو وتجارته الواسعة في الخليج العربي ابان القرن ٩هـ ١٥م

وهكذا يتبين لنا من قائمة السلع المتبادلة بين الخليج العربي والهند أيام ابن ماجد أنها تمثل استمرارية لما كانت عليه قوائم السلع المتبادلة من قبل فقد استمر تجار الخليج العربي منذ القرون الاسلامية الاولى وحتى ايام ابن ماجد يحملون نفس السلع والبضائع من الهند وإليها، على الرغم من حدوث نقص في تجارة مادة وزيادة في تجارة أخرى، لكن هذا الامر لم يؤد الى توقفها ويلاحظ ايضا استمرارية في رجحان كفة السلع والمنتجات الهندية، على مبيلاتها القادمة من الخليج العربي حتى في ايام ابن ماجد، إلا أن هذا النقص في الميزان التجاري ـ كما نقوله اليوم ـ بالنسبة لابناء الخليج العربي قد عوضه امتلاكهم لمعظم السفن الحاملة للبضائع عبر الطرق البحرية التي تربط الخليج العربي بالهند (١٨٨) اذ ان تجارة نقل السلع الهندية الى الاسواق التي تطلبها قد در ارباحا طائلة لتجار الخليج العربي، فقد كانوا يجوبون بسفنهم الطرق بين الخليج العربي والهند مسيطرين على النشاط التجاري في كلا المنطقتين حتى مجيء البرتغاليين إلى مياه المحيط الهندي

واخيرا لا بد لنا من القول ان اهمية ما صنفه ابن ماجد عن الخليج العربي والهند، تتلخص في كونه قد عرف عن كتب كلا الاقليمين، ووصفهما بدقة، وأدخل تعديلات مهمة على فن الملاحة البحرية بين

الحليج العربي والهند كما اں وصفه للطرق البحرية التي تربط المنطقتين ومصاعب وأحطار هده الطرق ، قد عدلت كتيرا من رؤية الكتاب العرب القدامى إلى هده الطرق وبدلك يكون اں ماحد قد قدّم حدمة حليلة لحركة التحارة بين الحليج العربي والهند في القرن ٩هـ/١٥م ولم ينس معالمة المحيط الهندي هده الحدمة ، فقد بقيت دكراه حية بينهم حتى القرن التاسع عسر

د صباح إبراهيم الشيحلي

حامعه بغداد ـ كليه الاداب

مصـــادر البحـــث

(١) سليمان ابراهيم العسكرى التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي (مطبعة المدنى القاهرة ١٩٧٢) ص ١٤

(٢) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محيي الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٦٤) ج ١ ص ١١٣

(٣) عبدالله الماجد الربان احمد بن ماجد مجله العرب (السعوديه) الجزء الثالث السنه الخامسه (تشرين الثاني ١٩٧٠) ص ٢٨٣

(٤) عطيه القوصي تجاره الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث للهجرة المجله الجغرافيه الكويتيه (الكويت) العدد ١٨ (حزيران ١٩٨٠) ص ٦

(٥) العسكرى المصدر السابق من ص ٦٦ ـ ٧٠

(٦) مقبول احمد العلاقات التجاريه بين الهند والعرب من القرن العاشر قبل الميلاد حتى العصر الحديث مجله ثقافه الهند المجلد ١٦ العدد ١ (يناير ١٩٦٦) ص ٣٢

(٧) المقدسي البشاري احسن التقاسيم في معرفه الاقاليم (ليدن بريل ١٩٠٦) ص ١٢)

(٨) احمد المصدر السابق ص ٢٣

(٩) حسن صالح شهاب فن الملاحه عند العرب (دار العوده بيروت ١٩٨٢) ص ٢٧

(١٠) سلطنه عمان وزاره الثقافه والتراث عمان وتاريخها البحري (١٩٧٩) ص ٣٣

(١١) ان احدث واشمل وادق ما كتب عن نسب ابن ماجد وحياته هو كتاب الاستاذ ابراهيم الخوري الموسوم احمد بن ماجد حياته مولفاته استحاله لقائه بفاسكو داجاما» منشورات مركز الدراسات والوثائق في الديوان الاميري براس الخيمه سلسله كتاب الابحاث (مطبعه الاندلس دمشق ١٩٨٩)

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩

(١٣) اغناطيوس كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي ترجمه صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ١٩٦٥) ج ٢ ص ٥٧٣) انور عبدالعليم ، ابن ماجد الملاح (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٣

(١٤) جبرائيل فران ، دائرة المعارف الاسلاميه مادة احمد بن ماجد ج ٣ ص ٣٩٨

(١٥) G.R. Tibbetts, Arab Navigation in the Indian Ocean before the coming of the Portuguese (London, 1971), p 17

(١٦) فران ، دائرة المعارفه الاسلامية ماده احمد بن ماجد ج ٣ ص ٤١١ ، الخوري ، احمد بن ماجد ص ١٥٩

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ، ٧٥

(١٨) احمد بن ماجد ، حاويه الاختصار في اصول علم البحار تحقيق وتحليل وترجمه إبراهيم خوري مركز الدراسات والوثائق في الديوان الاميري براس الخيمه ، كتاب الابحاث الجزء الثاني (مطبعه الاندلس ، دمشق ، ١٩٨٩) ، ص ٨٦

(١٩) ان مصنفات ابن ماجد المنشورة والمعروفه اليوم هي

١ - «كتاب حاويه الاختصار في اصول علم البحار» وهو شعر ابن ماجد الملاحي الذي وصف فيه الملاحه الفلكيه العربيه في المحيط الهندي ويعد من اعظم مؤلفات ابن ماجد بل ان كل ما كتبه بعد الحاويه يعد توضيحا لمعلوماتها

٢ - «الاراجيز والقصائد» وعددها ٢٣ ارجوزة وقصيده جمعها ابن ماجد في اوقات مختلفه ، وقد قام الاستاذ ابراهيم خوري مشكورا بوضع قائمه بيّن فيها التاريخ الذي كتب فيه هذه الاراجيز والقصائد وعلى ايه حال فان هذه الاراجيز والقصائد تعطينا صوره واضحه عن حوض المحيط الهندي والجوانب الاساسيه المختلفه للملاحه فيه

٣ - «كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد والفصول» ويعد هذا الكتاب خاتمه اعمال ابن ماجد وثمرته الناضجه وهو الذي كتبه نثرا عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩ - ١٤٩٠م وهو على راي احد الباحثين المحدثين «المفتاح الحقيقي لدراسه الملاحه العربيه» خوري ، احمد بن ماجد ص ٨٣ ١٤٨

(٢٠) ابن ماجد الفوائد من ص ١٣٩ ـ ١٤٠

(٢١) المصدر نفسه ص ١٤١

(٢٢) المصدر نفسه ص ١٩٦

(٢٣) احمد بن ماجد الاراجيز والقصائد تحقيق وتحليل ابراهيم خوري (مطبعة الاندلس دمشق ١٩٨٩) ص ١٨٢

(٢٤) G. R. Tibbetts, Arabia in the fifteenth century navigational texts, Arabian studies, ed by R B Serjeaut and R L Bidwell (London, 1,74), p 97

(٢٥) الفوائد ص ١٩٦

(٢٦) المصدر نفسه من ص ٢٠٨ ـ ٩

(٢٧) لقد درس البروفسور بول كوبيتس نص ابن ماجد عن البحرين موضحا ما يحتويه من معلومات جغرافية وتاريخيه وقد راى ان ذكر ابن ماجد لما تحتويه البحرين من ٣٦٠ قريه انما هو نقل عمن سبقه من الكتاب كما يرى ان هذا العدد من القرى يدل على سعة سلطة البحرين التى لم تشمل الجزيرة فقط على ايام ابن ماجد او قبله وانما تضم مناطق واسعة من شرق الجزيرة العربيه انظر .وصف البحرين لاحمد بن ماجد ١٤٩٠م مجله الوثيقه العدد الرابع السنه الثانيه يناير ١٩٨٤ ص ص ١٩٢ ـ ١٩٧

(٢٨) يؤكد ابن ماجد ما جاء في كتب التاريخ والجغرافيه والرحلات العربيه من كون البحرين كانت مركزا تجاريا قديما اشتهرت بوجود اللولو فتوارد التجار على شراء هذه السلعه انظر محمد بن عبدالله اللواتى ابن بطوطه رحله ابن بطوطة حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور على المنتصر الكتانى موسسه الرساله . بيروت ط ٢ ١٩٧٩) ج ١ ص ٣٠٤ حسين السليمان الناصر النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربيه اواخر العصور الوسطى ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ (مكتبه الانجلو المصريه القاهرة ١٩٧٧) ص ٣٧ ٧٥

(٢٩) الاراجيز والقصائد ص ٣٠٥

(٣٠) الفوائد ص ١٩٦ ويشير ابن ماجد الى وجود طريق بري يربط البحرين براس مسندم ويقدر المسافه بمسيرة شهر في البرّ (الفوائد ص ١٩٦) وذكر ابن بطوطه هذا الطريق في رحلته وقال عنه انه مقطوع في ايامه

لكثره الرمال فيه ، واستعيض عنه بالطريق البحرى (رحله ابن بطوطه ، ح ١ ص ٣٠٥)

(٣١) الاراجير والقصائد ، ص ص ١٨٢ ـ ٣

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٤

(٣٣) المصدر نفسه ص ١٨٥

(٣٤) المصدر نفسه

(٣٥) المصدر نفسه ص ١٨٢

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٥

(٣٧) المصدر نفسه ص ص ١٨٦ ـ ٧

(٣٨) الفوائد ص ١٩٦

(٣٩) المصدر نفسه ص ص ١٩٦ ـ ٧

(٤٠) الاراجير والقصائد ص ١٧٤

(٤١) الفوائد ص ١٩٧

(٤٢) المصدر نفسه ص ١٩٦

(٤٣) Tibbetts, Arabia P 89,93

(٤٤) الاراجير والقصائد ص ١٧٢

(٤٥) المصدر نفسه

(٤٦) المصدر نفسه ص ٢٦١

(٤٧) المصدر نفسه ص ٢٦٥

(٤٨) الحاويه ص ٣٤

(٤٩) الفوائد ص ٢١٦

(٥٠) احتلت قلهات مكانه تجاريه مهمه في العصر الوسيط وهذا ما اكده الرحاله العرب والاوروبيون يقول ماركو بولو عنها كانت قلهات مركزا كبيرا لاستقبال السفن التجاريه من الهند وتوزيع بضائعها الى المناطق الداخليه في عمان رحلات ماركو بولو ترجمه توفيق حاويد (القاهره ١٩٧٧) ص ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ واكد ابن بطوطه هذه المكانه ايضا في

رحلته انظر ج ١٠ ص ٢٩٦

(٥١) الفوائد ص ١٨٥

(٥٢) المصدر نفسه

(٥٣) الحاوية ص ٣٤

(٥٤) الفوائد ص ١٢٤

(٥٥) الاراجير والقصائد ص ١٨٠

(٥٦) المصدر نفسه ص ١٨١

(٥٧) المصدر نفسه

(٥٨) المصدر نفسه ص ١٨٢

(٥٩) المصدر نفسه ص ١٨٣

(٦٠) المصدر نفسه ص ١٨٤

(٦١) المصدر نفسه

(٦٢) الاراجير والقصائد ص ص ١٨٥ ـ ٧

(٦٣) الفوائد ص ١٩٥ و٢١٤ و٢١٧

(٦٤) المصدر نفسه ص ٢١٢

(٦٥) الفوائد ص ١٩٥

(٦٦) المصدر نفسه ص ٢١٧ الاراجير والقصائد ص ١٤

(٦٧) المصدر نفسه ص ٢٥٩ ١٥

(٦٨) سهاب في الملاحه ص ٢٩٣

(٦٩) الاراجير والقصائد ص ١٧٢

(٧٠) حاويه الاختصار ص ٦٩

(٧١) المصدر نفسه ص ٦٣

(٧٢) المصدر نفسه ص ٦٩

(٧٣) المصدر نفسه ص ٦٢

(٧٤) الاراجير والقصائد ٢٦١ الحاويه ص ٦٩

(٧٥) الاراجير ص ١٧٣

(٧٦) المصدر نفسه ص ص ١٧٣ ـ ٤

(٧٧) الفوائد ، ص ١٧٦

(٧٨) المصدر نفسه ص ١٩٤

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٧

(٨٠) الحاويه ص ٦٥

(٨١) الاراجير ، ص ١٧٤

(٨٢) المصدر نفسه ص ص ١٧٤ ـ ٥

(٨٣) المصدر نفسه ص ١٧٥

(٨٤) المصدر نفسه

(٨٥) الحاويه ، ص ٤٣ الاراجير ، ص ١٧٨

(٨٦) العسكري المصدر السابق ص ١٢٩ ، ١٥٣

(٨٧) الاراجير والقصائد ص ١٧٨

(٨٨) الفوائد ص ١٧٩

(٨٩) الاراجير ، ص ١٧٨

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠

(٩١) حاويه الاختصار ص ٧٠

(٩٢) المصدر نفسه

(٩٣) المصدر نفسه ص ٦٤ الاراجير ص ٢٥٩

(٩٤) جورج فصلو حوراني ، العرب والملاحه في المحيط الهندي في العصور القديمه واوائل العصور الوسطى ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر (مكتبه الانجلو المصريه القاهرة ١٩٥٨) ص ٢١١

(٩٥) الفوائد ، ص ١٨١

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ص ١٨٠ ـ ١٨١

(٩٧) المصدر نفسه ص ١٨٠

(٩٨) المصدر نفسه ص ١٨٢

(٩٩) الاراجير ص ٢٥٨

(١٠٠) المصدر نفسه ص ص ٢٥٩ ـ ٦٠

(١٠١) الفوائد ص ١٨٢

(١٠٢) الحاويه ، ص٤٣ ـ ٤٤

(١٠٣) الفوائد ص ١٨٣

(١٠٤) الحاويه ص ٤٤

(١٠٥) الفوائد ص ٢٠٦

(١٠٦) الاراجير ص ٦٨ ١٥

(١٠٧) المصدر نفسه ص ص ٧٦ ـ ٧٧

(١٠٨) المصدر نفسه ص ٦٨

(١٠٩) المصدر نفسه ص ص ٦٨ ـ ٦٩

(١١٠) المصدر نفسه ص ١٤

(١١١) المصدر نفسه ص ١١٢

(١١٢) الحاويه ص ٤٤ ص ص ٤٦ ـ ٧

(١١٣) الفوائد ص ٢٠٦

(١١٤) المصدر نفسه

(١١٥) العسكرى المصدر السابق ص ٢٠٥ حورانى المصدر السابق ، ص ٢٠٦

(١١٦) الفوائد ص ١٩٦

(١١٧) المصدر نفسه

(١١٨) الاراجير ص ١٨٤

(١١٩) المصدر نفسه ص ١٨١ يبدو ان ابن ماجد قد نسى ان يذكر ضحالة المياه في منطقه البصرة والتي كانت السفن تتجنبها قبل ايام ابن ماجد ، عن طريق الخشبات التى عملتها الدوله العربيه الاسلامية في تلك المنطقه لتحذر السفن منها حورانى ص ٥٦

(١٢٠) الفوائد ص ١٧٥

(١٢١) الاراجير ص ٧٦

(١٢٢) الحاويه ص ٤٧

(١٢٣) الاراجير ص ٧٦

(١٢٤) المصدر نفسه ص ١٧٣

(١٢٥) الفوائد ص ص ١٨٢ ـ ٣

(١٢٦) حورانى المصدر السابق ص ٢١٠

(١٢٧) رحلات ماركو بولو ص ٣١٩

(١٢٨) الفوائد ص ص ٣١ ـ ٣٢

(١٢٩) المصدر نفسه ص ١٧٦

(١٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٧

(١٣١) المصدر نفسه ص ١٧٩

(١٣٢) المصدر نفسه

(١٣٣) المصدر نفسه ص ص ١٨٠ ـ ١٨١

(١٣٤) المصدر نفسه ص ١٨١

(١٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٢

(١٣٦) المصدر نفسه الاراجيز ص ٢٦٠

(١٣٧) الفوائد ص ١٩٧

(١٣٨) الاراجيز ص ١٧٢

(١٣٩) المصدر نفسه ص ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠

(١٤٠) الفوائد ص ١٧٥

(١٤١) شهاب في الملاحة ص ص ١٦٣ ـ ٤

(١٤٢) الفوائد ، ص ١٩٧

(١٤٣) الاراجيز ، ص ١٧٤

(١٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٥

(١٤٥) الاراجيز ص ص ١٧٥ ـ ٦

(١٤٦) الفوائد ص ١٨٣

(١٤٧) الاراجيز ص ٦٨

(١٤٨) الفوائد ص ١٧٥

(١٤٩) الاراجيز ص ١٧٥

(١٥٠) الفوائد ص ص ٣١ ـ ٢

(١٥١) حسن صالح شهاب علوم العرب البحرية من ابن ماجد الى القطامي (دراسة مقارنة) (الكويت ١٩٨٤) ص ص ٧٧ ـ ٩

(١٥٢) الاراجيز ، ص ٢٦٨

(١٥٣) المصدر نفسه ص ١٧٠

(١٥٤) الحاويه ص ص ٤٣ ـ ٤ الفوائد ص ١٠١ ، ٢٤٥ ، الاراجير ، ص ١٧ ١٣١ ١٧٨

(١٥٥) المصدر نفسه ص ص ٢٦٨ ـ ٩ ص ١٣٤

(١٥٦) الحاويه ٦٣ ـ ٤

(١٥٧) سهاب العلوم البحريه ص ٧٧ ويمكن تحويل الاروام الى درجات والى اميال ايضا ويقدر الدرجه بخمسه اروام الا ثلثا

(١٥٨) الحاويه ص ٦٣ الفوائد ص ١٢٥

(١٥٩) المصدر نفسه ص ١٧٢

(١٦٠) المصدر نفسه ص ١٣٢ الحاويه ص ٦٥

(١٦١) المصدر نفسه ص ٦٤

(١٦٢) حوراني المصدر السابق ص ص ٢٢٠ ـ ١

(١٦٣) الفوائد ص ٣٢٩ (الطبعه القديمه)

(١٦٤) سهاب فن الملاحه ص ١٨٨

(١٦٥) الفوائد ص ٢١٤ وما بعدها

(١٦٦) انور عبدالعليم المعارف البحريه وتطور الملاحه المصريه في القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى نشر في كتاب تاريخ البحريه المصريه (جامعه الاسكندريه ١٩٧٣) ص ١٩٨

(١٦٧) الفوائد ص ص ٢١٤ ـ ٥ انظر ايضا عمان وتاريخها البحري ص ٩٢

(١٦٨) الفوائد ص ٢١٦

(١٦٩) المصدر نفسه ص ٢١٦ ٢١٩

(١٧) الحاويه ص ص ١٣ ـ ١٤

(١٧١) حوراني المصدر السابق ص ٢١١

(١٧٢) الفوائد ص ص ١٨١ ـ ٣

(١٧٣) الاراجير ص ١٧٧

(١٧٤) المصدر نفسه ص ٦٨

(١٧٥) الفوائد ص ٢٠٦

(١٧٦) المصدر نفسه

(١٧٧) المصدر نفسه

(١٧٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧

(١٧٩) الفوائد ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦

(١٨٠) ابن بطوطه الرحله ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ج ٢ ص ٤٦٤

(١٨١) احمد ، العلاقات ص ٤١

(١٨٢) العمري ، المسالك والممالك نشر الاستاذ خورشيد احمد فاروق جزء (١) منه باسم «ضوء جديد على تاريخ الهند من مخطوط عربي» ثقافه الهند ، العدد ١ ، المجلد ١١ (يناير ١٩٦٠) ص ١٥ الناصر . المصدر السابق ص ٢٥١

(١٨٣) الفوائد ص ١٩٦

(١٨٤) المصدر نفسه ، ص ص ٢٠٨ ـ ٩

(١٨٥) المصدر نفسه ص ١٩٦

(١٨٦) المصدر نفسه ص ٢٨ الاراجير ص ١٨٥

(١٨٧) الفوائد ، ص ٢٠٨

(١٨٨) المصدر نفسه ص ص ٢٢١ ـ ٢

البحرين
رؤية روسية لتاريخ الخليج "١"

تاليف ف ل. بوديانسكي ترجمها من الروسية رضوان ابراهيم

حرصا من الوثيقة على ان تحتشد حول تاريخ البحرين والمنطقة كل الأبحاث والدراسات المتاحة فإنها الى جانب ذلك تحرص على ان تقدم مختلف وجهات النظر حول الموضوع المطروح وقد سبق أن قدمنا حول فترة واحدة مختلف وجهات النظر من المؤرخين العرب والعثمانيين والأوروبيين والهنود والمغاربة وغيرهم وفي هذه الدراسة نقدم ولأول مرة وجهة نظر جديدة للروس فقليلة هي الدراسات الروسية التي كتبت حول المنطقة وقليلون هم الباحثون الروس الذين كتبوا حول منطقة الخليج والكاتب الذي يقدم هذا البحث هو احد العلماء الروس وأحد العناصر البارزة في اكاديمية العلوم السوفيتية قبل تفكك الاتحاد السوفيتي وهو يقدم في

في مقابر البحرين رؤوس سهام

هده الحلقة والحلقات التاليه دراسة حول تاريخ البحرين من مبطور روسي

ونحب هنا ان نؤكد ان وجهات النظر المطروحة إنما تمثل رؤية صاحبها للاحداث وليست بالضرورة هي الحقيقة التابتة كما انها ليست بالضرورة هي وجهة نظر المحله وإنما يجيء حرصا على هدا الحشد بهدف توفير اكبر قدر ممكن من الدراسات لتكون بيد الدارسين من ابناء المنطقة والعالم العربي وقراء «الوتيقة» ليبداوا بعد دلك جهدهم المامول في فرز هده الدراسات واخضاعها للمعايير العلمية الموضوعية عند تصديهم لكتابة تاريخ المنطقه

(الوثيمـه)

من لسيليكون عمرها ١٠٠ ألف عام

جزيرة المائة الف مقبرة

بدات المناقشات تدور حول جزر البحرين ذات المقابر العالية في السنوات المائة العابرة ، ومع انه من الصعب ان نحدد الوقت الذي اصبحت فيه البحرين ولاول مرة موضوعا للدراسة الا ان ذلك ربما حدث قبل ظهور الاوروبيين في الخليج . اذ لم يكن لهولاء الاوروبيين فضل في كشف هذه المقابر اكثر أو اقل من مجرد الوصف التفصيلي الذي به اصبحت البحرين تشتهر لسنوات طويلة باسم «جزيرة الموتى» . وقد كان لهذه التسمية الكئيبة المقبضة ما يبررها على ما يبدو في الجزء الشمالي من الجزيرة الكبرى في مجموعة جزر البحرين ويتضح ذلك من الحشد الهائل من الاكام الصناعية التي وجدت تحتها هذه المقابر

وكان الانجليز هم الذين احتفظوا - بدافع الكثير من الغيرة - بهذه المسارف الصعبة المنال للوصول الى الهند وهم الذين منعوا تغلغل الاجانب - ومن بينهم العلماء - في الخليج وحجبوا هذا الاكتشاف امدا طويلا

وفي الحفريات الاولى عام ١٨٧٩ توصلوا الى افتراض ان هذه الآكام الصناعية انما هي سواهد للمقابر والدراسات السطحية التالية للمقابر قام بها علماء الآثار الانجليز مثل كورنفول ، وديوراند ، وست وغيرهم - هذه الدراسات أثارت مجموعة من الأسئلة التي بقيت بلا اجابة

وفي مجموعة مقابر البحرين المطمورة تحت أكداس التراب والرمال تم العثور على أضرحة حجرية ، بعضها يرتفع حوالي عشرة أمتار ، ويتكون من طابقين

وتخطيط هذه الأضرحة يتسم بسمة واحدة ، هي الممر الثابت الذي يسير بارتفاع نحو الغرب ، وينتهي بمدفن ذي تجويفين في كل جانب ، وكانت جميع الأضرحة مشيدة من الحجارة المبطنة بالجص ، ولها أجزاء جشبية مستقلة ، وذلك على الرغم من ان مجموعة الجزر كانت خالية من الغابات

ومع ان كثيرا من الأضرحة التي وجدت كانت قد نهبت ، إلا انه قد تسنى لهم أن يجدوا الى جانب رفات الموتى تمائم ذهبية ، وعظاما لحيوانات الأضاحي ، وتمائم مصنوعة من البرونز ، والفضة والحديد وهي ذات زخارف دقيقة، كما وجدوا صناديق مصنوعة من سن الفيل ، وقطعا من الفخار الشفاف المصنوع من الطين الأحمر ، وجرارا عليها زخارف ، وهكذا

وهذه الأدوات - كما يتضح من مادتها ، ومن تشكيلها الفني - كانت مجلوبة الى البحرين من أماكن نائية ، والأهمية الكبرى لهذه المكتشفات تنحصر في انه لم تظهر أضرحة مثل

هده في اية منطقة من مناطق العالم سوى في مجموعة جزر البحرين

وهنا يبرز سؤالان من الذي بنى هده الشواهد ؟ ومتى بنيت ؟

قبل عام ١٩٥٤ كانت بعض البعثات الاثرية تعمل في مجموعة جزر البحرين ، ولكن جميع محاولاتها للعثور على بقايا القرى والمقابر المعاصرة لها - باءت بالفشل ، وكان كل ما أمكن اثباته هو انه قد تجمع في البحرين عشرات الالوف من الاضرحة ، ومن هذا نشأ الاسم الجديد لها . وهو جزيرة المائة الف مقبرة

ويفترض معظم العلماء انه منذ حوالي الف سنة قبل العصر الذي نحن بصدده ، قام سكان الساحل العربي من الخليج بتحويل البحرين الى مكان لدفن الموتى من المواطنين ، والقليلون فقط من المتخصصين هم الذين وضعوا هذا الافتراض موضع الشك ، ومن بين هؤلاء المؤرخان الأثريان ، الاستاذ ت بيبي ، والاستاذ ب ف جلوب

ففي ديسمبر ١٩٥٣ كان رئيس هده البعثة السابق الاشارة اليها الى رمال شرقي الجزيرة قد زار البحرين بهدف ان يثبت ان الجزيرة كانت في وقت ما مركزا للثقافة القديمة ، وان حملها لاسم «جزيرة الموتى» انما هو بسبب اخفاق علماء الآثار فحسب ، ففي بداية عمل العالم الدانماركي تيسر له أن يجد وسط البحرين رؤوس سهام من السليكون ، يرجع عمرها الى مائة الف عام . وكانت هده أول ضربة توجه الى الافتراض الذي سماها باسم «جزيرة الموتى»

ومن عام ١٩٥٤ بدأ بيبي وجلوب ينقبان تنقيبا ضخما في مناطق قرية باربار ورأس الكوالا ، كما تم في نفس الوقت كشف بعض المدافن وفحص المناطق المحيطة بها . وكانت المهمة الثانية للعالم الدانماركي هي العثور على اثار السكان العرب قبل الاسلام ، لكن انتصاره الحقيقي جاء متأخرا ، فعند الحفر في التل المسطح الواقع تحت قلعة البحرين القديمة في منطقة المنامة ، وجد علماء الآثار هناك اثار مدن قديمة ، وقد اسست كل منها على اطلال الأخرى ، وحينما اكتشف الجزء الاكبر من التل اصبح من الواضح ان افتراض تسميتها «جزيرة الموتى» قد سقط الى الأبد ، ففي أقدم الطبقات كانت تكمن اثار مدينتين تنتميان الى الالف الثالث قبل الميلاد ، اي انهما ترجعان الى عصر نشأة المدافن . ومن العسير ان نقدر أهمية اكتشاف بيبي وجلوب ، فقد عثرا على حضارة اصيلة غير معروفة ، وهي قديمة في منزلة قدم حضارة اشور في ارض ما بين النهرين ، او موهينجو دارو في الهند ، وهده الحضارة تكشف عن تاريخ مجموعة جزر البحرين وتشهد بان البحرين كانت دائما «جزيرة الأحياء»

وبهده الصورة وجدت على أرض

البحرين قبل العصر المشار اليه بثلاثة الاف سنة مدن مكونة من بيوت حجرية واسعة ، تقع على امتداد شوارع مستقيمة في مربعات قائمة الزوايا ، لها اسوار حجرية عريضة ومرتفعة ، يبلغ ارتفاعها اربعة امتار من الأساس وتحيط بالمدينة وهي على درجة من المتانة بحيث تحصن المدينة ضد الهجمات البرية والبحرية ، وكان لسكان الجزيرة ميل خاص الى البناء المتين ويهدا تشهد بقايا المدن والاعمدة ـ كما في منطقة باربار ـ وهي معابد ذات ابنية واسعة مرصوفة وذات مذابح كبيرة ، واحواض للاستخدام الخاص بالطقوس

وهذا الميل يؤكد مرة اخرى استرال هؤلاء الناس في عمل حجار لانساء المدافن تحت الاضرحة

وفي بناء المدن القديمة مهارة تجمع بين الحرفة والمهارة الصناعية ، وهي تسيطر بمستهى الاتقان على اعمال الفخار المصنوع من الطين الاحمر ، وهو يبطم اشكال الآنية المرسومة ، التي لا تتميز عن الصناعة السومرية والهندية فحسب ، بل حتى عن الفخار البحريني المتاخر والمصنوعات المطبوعة منه في شكل اررار بقيت فريدة في نوعها

ومن الواضح ان الأدوات المصنوعة من المعادن والعاج وحجر اللازورد والمواد الأخرى إنما هي أجنبية الاصل ، تشبه ما هو موجود في أرض ما بين النهرين ، والهند ، واثار البحر المتوسط ، كما تشبه المصنوعات الفخارية البحرينية ، وقد استطاعت ان تثبت أن سكان الجزيرة كانوا يتميزون بأنهم ملاحون وتجار متمرسون

وما يزال من الصعب أن نقول الى اى شعب تنتمي هذه الثقافة الأثرية الاولى المعبرة عن البحرين ، وهناك اسس كثيرة لافتراض انه من الممكن ان تنتمى الى العرب ، غير أن الذي يبرز بلا منازع أنه توجد بين جزر البحرين الحالية تلك الجزيرة التي تشبه الاسطورة ، وهي جزيرة ديلمون التي جاء ذكرها في نصوص السومريين المدونة بالخط المسماري ، كما جاء ذكرها كمركز لدولة كبيرة نسبيا ، يدخل ضمنها شبه جزيرة قطر ، وساحل الاحساء في شبه الجزيرة العربية ، ولم تتح الفرصة بعد لتحديد طبيعة العلاقة بين سومر و «المملكة الخالدة» ، وهي ديلمون [1] ، وقد أكسب السومريون الخليج أهمية ضخمة ، وذلك باخضاع سواحله وجزره ففي الفترة من عام ٢٧٩٥ الى عام ٢٧٣٩ قبل الميلاد كان السومريون يقومون بتجهيز بعض الحملات لاخضاع السكان المحليين ، وقد انشاوا طريقا للتجارة من الخليج الى البحر المتوسط يمر بدجلة والفرات

وحوالي عام ٢٣٦٠ قبل الميلاد غزا حاكم أوروك لوجالزاجيس جميع

البلاد ، من البحر الأدنى الى البحر الأعلى [٢] ، وأنشأ طريق التجارة المنظم

والنقوش السومرية تنقل الينا أنه منذ حكم حاكم أكاد سرجون للسومريين قامت علاقات وثيقة بينهم وبين جميع جزر الخليج ، ومن بينها جزيرة ديلمون ، وتوطدت هذه العلاقات عام ٢١٣٢ ، حينما تسلم حاكم أور مقاليد القيادة فيما بين النهرين ، وظلت هذه العلاقات قائمة منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد حتى تولى حامورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠) حكم مملكة بابل القديمة

ويبدو أن موقع ديلمون الجغرافي الملائم ، ووقوعها على طريق التجارة ذي الأهمية الكبيرة - قد افاد سومر ، كما أفاد مدينة الدولة في مرحلة مبكرة من التطور هناك ، وكذلك في مرحلة اكثر تأخرا ، حينما قامت فيما بين النهرين اتحادات حكومية ، واصبحت ضآلة الموارد الطبيعية - وخاصة عدم توفر المعادن - أصبحت محسوسة بدرجة كبيرة

ولقد احتاج حكام سومر الى ثروة جزيرة ديلمون ، وواحتها المزدهرة ، وأماكنها الغنية باللؤلؤ ، وحاولوا أن يخضعوها أكثر من مرة

والحفريات الأثرية التاريخية في جزيرة البحرين تؤيد المعلومات القائلة بأن العاصمة الملائمة لديلمون كدولة ، لم يخربها الغزاة ذات يوم ، وأنها ظلت مهجورة لأمد طويل ، لكنه بكل تأكيد أعيد بناؤها مرة أخرى ، وقد منعت الحروب المستمرة سومر أن تظفر بالسيادة على منطقة الخليج ، وخاصة على جزيرة ديلمون

وفي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، وبعد سقوط مملكة بابل القديمة - وخاصة في فترة استيلاء الحثيين على بابل (١٥١٨ - ١٢٠٤) - قامت على أراضي مجموعة جزر البحرين الحالية دولة مستقلة ، لكنها اضمحلت عند بداية الألف الأول قبل الميلاد ، وظهر على هذه الجزر تجار التمر

ولقد لعب الفلاحون الشجعان والوسطاء المبتكرون للتجارة بالمقايضة وتجار التمر على تخوم الألف الأول والثاني - لعبوا دورا ممتازا في الحياة الاقتصادية لمنطقة البحر المتوسط ، وفرضوا سيطرتهم على طرق التجارة المحلية الاساسية ، ثم خرجوا الى المحيط الأطلسي والبحر الأحمر ، كما خرجوا في نفس الوقت - على ما يبدو - الى الخليج

وقد اضطر بائعو التمر للاستيلاء على اثار دولة ديلمون ، وسرعان ما عقدوا معاهدات للصلح مع السكان المحليين ، وأسسوا المحطات التجارية ، واستقروا في مجموعة الجزر هذه بصورة دائمة ، ولأمد طويل ، وهذه العلاقات بينها وبين أرض ما بين النهرين تركزت بادىء الامر في التجارة ، ولكن حينما هزمت بابل على يد الحاكم الأشوري

سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١) اشير إليها في المراجع الآشورية ــ سحابة من الغبار تصيب ديلمون ـ ابدوا اهتماما كبيرا بالحياة السياسية واصبحوا يتحدثون بلغتين كذلك في نضال اسور ضد عيلام ساعد تجار التمر سنحاريب في تنظيم حملة بحرية عبر الخليج وفي النهاية كف الاشوريون عن العدوان على المحطات التجارية لتجار التمر، التي اقاموها في الجزر، مكتفين بالاتاوة التي تدفع لهم عن انتاج الصناعات البحرية ـ وخاصة عين السمك، اي اللؤلؤ ـ وسلع ما وراء البحار وقد ساعد كل هذا بدوره على تطور الملاحة البحرية لتجار التمر في الخليج

ويشهد هيرودوت وجوستين بان جزيرة تيل (تيلوس) وجزيرة عرادا (البحرين والمحرق الحاليتين) قد اكتسبتا من تجار التمر اهمية جديدة كمركزين للتبادل التجاري، وقد حققت عمليات التجارة العابرة اهدافها بالنسبة لتجار التمر

وكانت بلدان البحر المتوسط تصدر الى منطقة الخليج الحبوب والزيوت النباتية، والنبيذ، والمنسوجات الكتانية، والمعادن، والاسلحة والعطور، والعملة النقدية، ومن اواسط الجزيرة العربية كانت تستورد المر، والبخور، والبلسم، والمستحضرات الطبية، ومجموعة السلع الافريقية

وكانت السفن تحمل اليها من الهند العبيد، وسن الفيل، والطلاء، والأصباغ النباتية، والأرز، والتوابل، وسكر القصب، والعزل، والمنسوجات القطنية، ومن الصين كانت تستورد الحرير، والفراء، والجلود، والحديد

ولقد حاول تجار التمر أن يستخدموا الجزيرة لا كمركز تجاري فحسب، لأن المعلومات اليونانية والرومانية تنبىء ان تجار التمر قد أطلقوا المياه الجوفية الموفورة في مزارع القطن بجزيرتي تيل (تيلوس)، وعراد

وهذه المعلومات قريبة جدا من الواقع فمن المعروف ان فلاحة تجار التمر للمزارع لعبت دورا محدودا في التطوير الاقتصادي لبلاد البحر المتوسط لكن كم من الوقت استمر نشاط تجار التمر؟

يبدو انه استمر لمدة غير معلومة، فقد كان خروجهم من منطقة الخليج مرتبطا ـ على ما يبدو ـ بالأحداث التي سادت ما بين النهرين في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، في بداية القرن السادس هزم نابوخذ نصر الثاني (٦٠٤ ـ ٥٦٢) ق م ـ حاكم مملكة بابل الجديدة ـ هزم آشور، وأخضع نفسه ما بين النهرين، وبلدان الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانت قد حلت قرونا طويلة من طرق التجارة المأمونة، التي تعمل ما بين الشرق والغرب

وبعد اربعين عاما سقطت بابل ضحية للعدوان من جانب فارس

واتحاد الميديين والفرس (٥٥٨ ـ ٥٢٩) ، وكان احتلال الأكميين لما بين النهرين ثم سميريا ولوتيفيا مصحوبا بتحويل طرق التجارة الى جهة البحر الأحمر ، ومند ذلك الحين بدأت الأنباء تتوالى عن استئناف النشاط الايجابي لتجار التمر على سواحل افريقيا الشرقية ، لكن الغزوات التالية لقمبير ملك الفرس (٥٢٨ ـ ٥٢٢) أبعدت التراحم على الخليج لأمد طويل ، فسارت التجارة في الخليج الى التدهور ، وظهر بعد هذا ميناء (العجير)[٣] على الساحل الجنوبي للخليج في نهاية القرن السادس ، وكان الهاربون بعد هزيمة بابل قد أنشأوه ليكون ـ كما زعموا ـ مركزا للتجارة العابرة هناك ولكنه لم يصل الى أبعد من المستوى السابق

وقد دبر الاسكندر المقدوني (٣٣٦ ـ ٣٢٣ق م) محاولة لانعاش التجارة في الخليج فقام ـ باعتباره نصيرا للتجارة الاغريقية ـ باتخاذ مجموعة من التدابير لتطوير الملاحة في الخليج ، وكانت الحملة البحرية الشهيرة لنيكارغوس قائد اسطول الاسكندر احد هذه التدابير، ونيكارغوس واحد من أوائل الاغريق الذين قطعوا الطريق البحري من الهند الى بلاد ما بين النهرين ، متبعا ساحل المحيط الهندي والخليج ، وقد انحدر الاستعمار والغزو الاغريقي الى ساحل الخليج وحول الجزيرة العربية ، ولكنهما لم يحققا الغاية بعد موت الموحي بهما

كل هذه الأحداث وجدت أصداءها في تاريخ مجموعة جزر البحرين

وبانسحاب تجار التمر من الخليج ، وخاصة بعد ظهور السفن الاغريقية والرومانية هناك ـ فقدت مجموعة جزر البحرين أهميتها كمركز تجاري ، وإذا لم تكن قد غرقت في الخمول فان الفضل في ذلك يرجع الى مغاصات اللؤلؤ الساحلية وبراعة السكان المحليين في استغلالها وقد ورد تنويه حول هذه الفترة في مذكرات نيكارغوس التي سبقنا في النقل عنه كل من ايراتوسفين وبليني، كما ورد في رسائل لمؤلف مجهول ، أو معروف مثل «بيريل» ، والنقوش المدونة على الجدران ، وهناك مراجع كثيرة العدد ، وبعض مراجع أخرى تقدم أساسا لافتراض ان عصر التدهور الاقتصادي والسياسي في هذه الجزر قد استمر حوالي ثلاثمائة عام على وجه التقريب ، وفي القرن الثالث قبل الميلاد فقط ، وحينما قامت فيما بين النهرين دولة هلينية للسلوقيين على أنقاض امبراطورية الاسكندر المقدوني ـ أخذت مجموعة الجزر تستعيد أهميتها السالفة بالتدريج

ولقد كان انتعاش طرق التجارة في الخليج نتيجة النهضة الاقتصادية الجديدة لبلدان البحر المتوسط ، وتوطيد العلاقات بين مجموعة دول جنوبي الجزيرة العربية وجنوبيها الشرقي وبين العالم الخارجي

في هذه الحالة لعب السلوقيون دورا بارزا فهم الذين أبدوا الاهتمام الكبير

بانعاش طريق التد... الخليج والبحر المتوسط

أما أسكوبوس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧) فقد قام بحملة على امتداد ساحل الجزيرة العربية حتى ميناء الجرهاء واستولى على سوريا، ثم قدم خطة لنسف العلاقات التجارية بين مصر البطلموسية وبين جنوب شرقي آسيا عبر البحر الاحمر

والحقيقة أن السلوقيين كانوا يميلون الى دعم طريق التجارة البري بسرعة وذلك باستخدام طرق القوافل القديمة ومن بينها طريق الحرير العظيم غير أن هذا الطريق لم تكن له اهمية حاسمة، فقد أخذت طرق التجارة البحرية التي اعيد تعميرها في الخليج تنمو بسرعة، وقد وقعت تحت سيطرة العرب

وكان تثبيت العرب في منطقة الخليج مرتبطا بهجرة القبائل السامية من شبه الجزيرة العربية في نهاية الألف الاول قبل الميلاد

وكانت القبائل العربية تمارس غاراتها على اطراف الامبراطورية السلوقية، وقد افادت دولة الباراكس في مصب نهري دجلة والفرات من مركز سباسن الهاراك[10]

وكان قيصرها هيسباريس قد غزا ـ عام ١٢٨ ـ ١٢٧ قبل الميلاد ـ بابل، وأرض الكوفة، وجنوب خوزستان الحاليتين ومع أن الهاراك سقطت عام ١٣٦ تحت ضربات البارتيين، فقد تمسك العرب بحدود غزواتهم، ومن بينها جزر البحرين،

والنتائج التي أسفرت عنها حفريات بيبي وجلوب وكذلك بقايا الآثار التي خلفتها القوى العربية السابقة على الاسلام في جزر البحرين ـ ألقت كثيرا من الضوء على هذه الفترة من تاريخها

ولم تمد قيادة البارتيين في طريق الغزو عزمها على احتلال منطقة الخليج، أما السلوقيون فقد مارسوا نضالهم التنافسي ضد مصر بطريقتهم الخاصة، فصمموا لأنفسهم تاييد العرب، وبطموا التجارة البحرية مع الهند ومنطقة البحر المتوسط

وباصرار نظم العرب الملاحة في سواحل الخليج، ثم آمنوا العلاقة بين الموانىء المحلية والعالم الخارجي ومن بين هذه الموانىء المدينة التجارية الضخمة التي كانت تشغل مكانة مرموقة بشهادة المؤرخ الطبري (٨٣٨ ـ ٩٢٣ م) تلك المدينة القائمة على جزيرة أوال، وهي مدينة البحرين الحالية

ولقد تقدمت جزر البحرين في بداية العصر الذي نتحدث عنه الى المكانة الأولى في الخليج، وساعد على ذلك وجود سوق مزدهرة للؤلؤ، وتطورت زراعة الواحات، والحرف، والصناعات البحرية وساعد تصدير حاصلات الانتاج المحلي على ازدهارها، وبعد ذلك الوقت ظهرت الدولة العربية الجديدة، وكانت الحياة الاقتصادية تتوقف منذ البداية على نجاح النضال بين بارتيا ومصر بسبب الطريق الى الهند

وقد أحرز استمرار سياسة السلوقيين مع استنداد البارتيين نجاحا أكثر مما أحرزه اسلافهم ، فحوالي عام ٧٠ قبل الميلاد بطموا الرقابة على أهم سريانين تجاريين ، الأول من الفرات ، فاسيا الصغرى ، مارا ببلاد ما بين النهرين ، حتى يصل الى الخليج ، والثاني طريق الشمال ، من الفرات الى الشرق واصلا بين «طريق الحرير العظيم» وبين فرع الطريق الى الهند ولكلا الطريقين أهمية كبرى بالنسبة لبارتيا ، وقد عززا بجميع الوسائل ، وظلا مزدهرين حتى ذلك الوقت الذي وقفت فيه بارتيا أمام عدوها اللدود ، ممثلا في شخص الرومان

وفي الستينات قبل الميلاد استولت روما على شرق البحر المتوسط ، وبذلك أنزلت ضربة قاصمة بتجارة بارتيا

وفي الأربعينات ـ بعد فترة انقطاع قصيرة ـ اشتد نضال البارتيين ضد روما ، فقد اعتدى الرومان بطريقة مكشوفة على بلاد ما بين النهرين ، وهي الاقليم الأوسط لبارتيا ، وقد تميز انتقال مصر الى روما بتطور عاصف في التجارة اليونانية الرومانية مع الهند والجزيرة العربية

وابتداء من الثلاثينات قبل الميلاد ، وعلى امتداد مائة عام على وجه التقريب ، أصبحت حلقة الاتصال الأولى والأساسية لطرق التجارة اليونانية الرومانية هي موانىء جنوب الجزيرة العربية وهرمز

وأخيرا دخلت منطقة الخليج مرحلة الأزمة الاقتصادية في جانب منها ، مما أثار نزاعا خطيرا بين القبائل العربية المحلية والبارتيين

ولقد ازداد الموقف سوءا في حدود العصر الذي نتحدث عنه حين تفاقمت عملية انحلال بارتيا ، وفي عام ١١٦ نجح الامبراطور تراجان في الاستيلاء على ما بين النهرين ، حتى وصل الى الخليج ، ولو أن انتصاره هذا على ادريان (١١٧ ـ ١٣٨) كان انتصارا عابرا ، فقد اضطر الرومان أن يتقهقروا إلا أنه أصبح من الواضح أن البارتيين اضعف من أن يسترجعوا المواقع الضائعة التي فقدوها وكان ظهور الرومان من جديد في شواطىء الخليج عام ١٩٥ برهانا كاملا على هذا ، وكان من نتيجة ذلك ان انقطعت العلاقات بين عرب الخليج والبارتيين

وفي القرن الثالث ـ كما جاء في أخبار الطبري عن العرب ـ أنهم شقوا عصا الطاعة على الساسانيين الاوائل ، وأصبحوا يقومون بغارات على سواحل ما بين النهرين وفارس ، وقد أبدى عرب البحرين بسالة خاصة ونادرة ، فهم الذين استطاعوا في دولتهم أن يستغلوا موقع الجزر ، فأقاموا حصونا على الجزر ، واستخدموا الأساطيل ، وكيفما كان التنظيم الحربي لعرب البحرين فمن الممكن أن نحكم بأن مملكة الساسانيين الأولى تحت حكم أردشير (٢٢٦ ـ ٢٤١) ، الذي انتصر على

حاول علماء الآثار البحث عن سر جزيرة الموتى..

فاكتشفوا أن البحرين كانت جزيرة الأحياء

بارتيا وميديا احتاج الى عام من الحصار لكي يكسر مقاومة السكان ، ويبرل الى الجريرة . ولكن هده الحملة التي صاحبتها الاعمال التاديبية ، ومحاولة الاستيلاء على رمام الرقابة والاسراف في الحليج - لم تنجح ، بل اضطر الفرس الى ان يتحلوا عن حرر البحرين ، واخد العرب يوالون عرواتهم للمناطق الساحلية في بلاد فارس

ومع سابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩) بدات الحرب الحقيقية صد عرب الحليج الدين استطاعوا ان يبشئوا دولة قوية كانت تصم حرر البحرين ، وتتاخم حرءا من شبه الجريرة العربية ، وهنا قرر الفرس - مصطرين - ان يوقفوا ملاحتهم في الحليج

وقد استطاع سابور الثاني - حينما احرر النصر على الرومان - أن ينزل الهريمة بعرب البحرين ابان احدى عرواتهم الدورية لبلاد فارس ، ثم استغل هذا النجاح فواصل الهجوم وقدف بجيشه عبر الخليج ، واحتل ميناء القطيف ، وحاصر الجزر من البر والبحر ، وسرعان ما اقتحم الفرس حصون البحرين ، وأصبح السكان المحليون مهزمين أو أسرى ، وقطع الفرس غابات النخيل ، وقطعوا أشجار الحدائق ، وطمروا الآبار ، وأحرقوا السفن

وفي وقت متأخر ظهر على الجزر أوائل المهاجرين من الفرس الذين كان عليهم أن يثبتوا استعمارهم ، ويبنوا هناك مركزا للتجارة البحرية العابرة

أما محاولة الفرس احتكار طرق التجارة التي تربط الشرق بالغرب ، فقد كان يعوقها النضال المتواصل ضد روما ثم بيزنطة الذي حقق بعض النجاح المتبادل

وفي نهاية القرن الخامس ، تم في خلال القرن السادس أصبح جنوب الجزيرة العربية واحدا من ميادين النضال ، حين رفضت بيزنطة عام ٥٤٢ مساعدة اشراف اليمن في المحاولات التي قاموا بها لكي يتخلصوا من نير الحبشة ، فقررت



فارس على المسرح ، وبهذا احتشدت القوى حول «الحريرة العربية السعيدة»

ولقد حلب هذا الاصطدام على السكان المحليين كوارث لا يحصيها العد ، وبدأت بالحركة التجارية الحرة الحبارة للقبائل العربية التي وصفها احلر بانها «اول عمل للسعور القومي الذى استيقظ»(٥)

ومن حديد اتجهت القبائل العربية نحو السرق ، وفي اواسط القرن السادس وصلت الى الحليج ، ومن حديد عادت منطقة الحليج مسرحا للصدام بين العرب والفرس ، وعند هذا لعبت جزر البحرين دورا في الدرجة الأولى كنقطة ارتكاز للاسطول العربي

ولقد نجح الشاه الفارسي كسرى الاول انوسروان (٥٣١ - ٥٧٩) بصعوبة في ان يصد هجمات العرب ، وأن يبدد اسطولهم ، وأن يستعيد مجموعة الجزر ،

وكانت مدينة قلعة البحرين والمحرق قد تحولت الى مكان لحشد فصائل الجيش الضخمة

وبمعاونة كسرى الاول تم اخماد المقاومة في منطقة الخليج ، تم في جنوب الجزيرة العربية وفي عام ٥٧٢ تم احتلال اليمن ، أما خلفاؤه - وخاصة كسرى الثاني ابرويز (٥٩٠ - ٦٢٨) فقد واصلوا سياسة الفتوحات ، ونجحوا في فرض الرقابة على طرق التجارة القديمة الى الهند والصين

دخول الاسلام للبحرين

ان مبلغ علمنا بالمعطيات الخاصة بالبناء الاجتماعي والسياسي لمجتمع البحرين في بداية العصر الذي نحن بصدده ضئيل جدا ، إذ يكاد يكون من غير المعروف كيف ومتى نشأت الوحدة السياسية في جزر البحرين

والإشارات الخاصة التي تضمنتها كتب الطبري وغيره من علماء الشرق في القرون الوسطى ، تقدم اساسا لافتراض ان عرب البحرين بدأوا فيما بين القرنين الثاني والثالث يحسون بالنفوذ الخطير لفارس الساسانية ، حيث انتشرت علاقات الرق انتشارا واسعا

ولقد تزايد هذا النفوذ في القرن الرابع حينما كان الفرس يحتلون هذه الجزر ، ولكن بعد سلسلة من الفشل في تنظيم التجارة البحرية المستقلة في الخليج ، لجأ حكام الفرس الى تجارب هولاء العرب وصناعاتهم ،

وبفضل مساعدة العرب انتعشت العلاقات التجارية في اواسط القرن السادس بين موانيء البحرين والهند ، وقد كان للهند اهمية كبيرة بالنسبة للعرب

وكانت تقوية هذه الجزر واصلاحها مرتبطين بتقسيم العمل في المستقبل ، أو بتعبير اخر بسير التطور المقبل في الزراعة ، والحرف ، والصناعات البحرية وغيرها

وفي نهاية القرن السادس اختير نظام جديد للملكية الأرض واستثمارها ، وهو نظام يتميز به الاقطاع القديم

ولقد ساعدت العلاقات المستمرة بين قبائل الجزيرة العربية التي ظهرت لديها المقايضة المالية ، وبين نفوذ فارس ، حيث بدآ فساد مجتمع الرق والتشكيل الاقطاعي ساعدت هذه العلاقات على تطور علاقات الربا والقروض والسلع النقدية ، وأخيرا إنتاج السلع في البحرين ، كل هذا لعب دوراً كبيراً في تاريخ البحرين المقبل ، والمندفع على الأثر إلى دوامة الأحداث السياسية

فلقد كان النضال شديداً من أجل «الجزيرة العربية السعيدة» بين الحبشة وبيزنطة وفارس في القرن السادس ، بسبب الأزمة الاقتصادية العميقة في شبه الجزيرة العربية ، وخاصة الانحراف الذي استدعته طرق التجارة البحرية في ناحية من شبه الجزيرة ، وتدهور التجارة العربية ، وقد انعكس ذلك بقوة على رفاهية جميع مراكز التجارة العابرة المحلية ، وخاصة مكة

وفي نفس الوقت ـ على وجه التقريب ـ وصلت أزمة الاقتصاد البدوي ذروتها التي سيطرت على القبائل العربية في أواسط الجزيرة العربية التي تتميز على الدوام بظروف جغرافية قاسية جدا ، وقد ساعد كل هذا على احتدام التناقضات

الاجتماعية الداخلية في شبه الجزيرة العربية

وقد أدت التناقضات الداخلية والسيطرة الأجنبية إلى نفس التأثير الحقيقي على أيديولوجية السكان المحليين ، وفي النهاية أحدث الانتشار الواسع الذي نالته الحنيفية في الجزيرة العربية في القرنين السادس والسابع ـ تمهيدا للدخول في الديانة التوحيدية الجديدة وهي الاسلام

وفي عام ٦٣٠م ـ كما يشهد الطبري ـ قدم إلى جزر البحرين مبعوث النبي محمد (ﷺ) ، وهو العلاء الحضرمي الذي طور نشاط الدعوة لصالح الاسلام بين سكان الجزيرة وهم أعضاء قبيلة عبدالقيس من بني بكر ، وقد أتت جهود العلاء أكلها ، وكان الجزء الأساسي لمجتمع البحرين مستعدا لقبول الاسلام ولكن زعماء القبائل ثاروا ضده ، ولم تكن ثورتهم حرصا على مصير الدين القديم بقدر ما كانت من اجل الوضع الاقتصادي والسياسي الخاص بهم [٦]

وكان دخول المسلمين الى جزر البحرين احدى الضربات الأولى لفارس الساسانية الهرمة ، ثم هجم العرب على ما بين النهرين ، في بداية عام ٦٣٧ في عهد الخليفة عمر وأوقعوا الهزيمة بجيش يزدجرد الثالث واستولوا على عاصمة فارس

وكان الذي استفاد في النهاية هو العلاء حاكم البحرين الذي عبر الخليج عام ٦٣٩ بعزم راسخ على احتلال كل الساحل الفارسي ، الا انه عندما اصطدمت الوحدات شبه العسكرية لعرب البحرين بالجيش النظامي ليزدجرد هزمت بسرعة ، وتراجع العلاء بجزء من جيشه إلى مصب شط العرب ، لكن الفرس لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذا النصر ، ففي عام ٦٤١ وقع جيش يزدجرد من جديد في هزيمة كبرى ، وفي السنة التالية هرب يزدجرد إلى مرو في الشرق ، وهنا كان يجرى الاستعداد الايجابي في جزر البحرين لحملة جديدة وفي عام ٦٤٤ تلقى عرب البحرين الامدادات ، ونزلوا على الساحل الفارسي ، وفي معركة أمام ريشهر شتتوا بقية جيش شهريك نائب فارس وفي عام ٦٤٨ أصبحت فارس خاضعة للعرب لكن بعد ثلاث سنوات عادت الامبراطورية الساسانية

وتحول البحرين من موقع النضال ضد المسلمين الى حصن للنضال في سبيل انتصار «الدين الجديد» في الشرق كله يشير إلى تأثيره الحقيقي على حياتها الاقتصادية والسياسية

فالانتصارات العربية ، وما تلاها بعد ذلك من انتشار التجارة العربية في كل مكان ساعدت على تطوير الحياة المدنية ، وانحلال النظام الطبقي ، وفوضى تصفية الملكيات العقارية الكبيرة في المرحلة الابتدائية

والحرية الليبرالية للعصر الذهبي للاسلام ـ التي عبرت استبداد فارس الساسانية وخاصة الغاء الضرائب

والأتاوات القديمة وادخال التجارة الحرة وغيرها ـ كانت لها اهمية خاصة بالنسبة لسكان البحرين الذين أعادوا لمجموعة الجزر ازدهارها القديم في الحرف والصناعة والزراعة والتجارة لكن مرحلة التطور المستقل نسبيا لم تستمر طويلا

ولقد تغير الوضع بالنسبة للخلفاء الامويين فتحولت البحرين الى اقليم من اقاليم الخلافة

وخلال الحكم الاموي في عصره الاول اتسع نطاق الفتوحات إلى حد كبير ، وسرعان ما اصبحت الخلافة دولة ضخمة مترامية الاطراف ، تضم كثيرا من البلدان والاقاليم ، وبدات العلاقات الاقطاعية تنمو وتتطور في اجزاء كبيرة من ارضها ، وبدأت القلاقل

وفي نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن كانت الخلافة محوطة بالانتفاضات الحدية المضادة ، والتي تتميز بالاضرار العنيد لكنها لم تخرج عن حدود الاقاليم

ومع خلفاء السلالة العباسية تحسن وضع البحرين بعض الشيء خاصة بعد ان تحولت بغداد الى عاصمة للخلافة وقد اسست عام ٧٦٢ وبذلك اصبح الخليج ميدانا للعمليات التجارية العابرة الضخمة

وحسب معلومات احد الجغرافيين الفرس اصبح ازدهار الواحات في مجموعة الجزر التي دخلت ضمن الخلافة معروفا على نطاق واسع ، كما اتسع المجال بدرجة كبيرة لنظام منشات الري ، وكانت زراعة الواحات بالمحصول الأساسي وهو نخيل البلح أحد الأعمال الأساسية للسكان المحليين ، ومع ذلك فان التطور المحدود توصل إلى صور اخرى للزراعة ، كما توصل إلى تربية الماشية ، وقد اخبر قدامة موظف الادارة المالية للخلافة ان اثمان المنتجات الزراعية التي كانت تصل من البحرين إلى بغداد تجاوزت خمسمائة ألف دينار في العام

وفي هذه الجزر ازدهرت الصناعات التي كانت تقوم على المواد الأولية ، ومن بينها الغزل والنسيج ، واعمال الفخار ، وتصنيع المعادن ، وبناء السفن الصغيرة وكان صيد الاسماك وصيد اللؤلؤ يحتل مكانة ممتازة بين هذه الصناعات وعن هذا المجال الواسع يسجل الرحالة والتاجر العربي سليمان الكثير في مذكراته ، وهو الذي زار الخليج والبحرين في النصف الأول من القرن التاسع

ومما تجدر الاشارة إليه انه قد ارتسمت في ذلك الوقت بوضوح ملامح التطور للعلاقات الاقطاعية في مجموعة الجزر وهي ملامح طبيعية في كل انحاء الخلافة

وقد ظهرت البوادر الأولى للملكية الفردية في الأرض والماء ووسائل الانتاج ، كما نشأت حالات في نطاق الصناعة والمصانع الصغيرة المنظمة ، كذلك ساعد التطور على انتشار الربا

اما التجارة العابرة التي كانت تعود بالأرباح الكبيرة على التجار

والأعيان فقد ساعدت على الاستقطاب المستمر للمجتمع وزيادة التناقضات في داخله

وعلى تخوم القرنين الثامن والتاسع كانت الخلافة العباسية محوطة بالثورات الشعبية الجبارة، مما جعلها تتفتت إلى أجزاء ودويلات

وفي هذه السنوات تكونت هناك جماعة سرية للاسماعيليين، ويعتبر أبو عبدالله الملقب بالقرمطي مؤسسا لها

وفي عام ٨٩ وصلت الرحلة الاولى للقرامطة إلى منطقة مدينة واسط فيما بين النهرين وكانت الثورة برئاسة حمدان القرمطي، وتحت قيادته حاول القرامطة أن يحققوا على الطبيعة بعض شعاراتهم التي أقروها من قبل، ومن بينها الاشتراكية في جزء من الممتلكات، ومصادر الدخل لكل عضو من أعضاء المجتمع، والمساواة في توزيع الأموال اللازمة للاستهلاك، وهكذا

ولقد أظهروا أنفسهم في صورة التابعين للاسلام «الحقيقي»، واعترفوا بالدور القيادي للرؤساء الاسماعيليين وحدهم، وهم - كما يزعم الظاهريون - من أحفاد علي وفاطمة

وفي عام ٨٩٤ ثار القرامطة الذين تغلغلوا سرا في جزر البحرين وطردوا الوالي، وأعلنوا استقلالهم عن الخلافة ولو نجح جند الخليفة فيما بين النهرين في أن يظفروا بالثوار لأخضعوا قرامطة البحرين، لكن ذلك بدا مستحيلا

وفي عام (٨٩٨) استرد قرامطة البحرين قواهم، وتحولوا إلى الهجوم، وقد ظهر دعاتهم في كثير من المراكز المأهولة بالسكان على ساحل الأحساء، وشبه جزيرة قطر وعمان

ثم نزلت فصائل من قرامطة البحرين على القارة، وأصبحت مدينة الاحساء عاصمة للدولة، ومركزا للحركة القرمطية، ثم تزايدت بعد ذلك أهمية هذه المدينة بصورة ملحوظة، كما نجح الخليفة المكتفي في أن يحطم بنفسه انطلاقة كبيرة لقرامطة ما بين النهرين (٩٠٣ - ٩٠٦)

وفي بداية القرن العاشر تكونت في البحرين دولة للقرامطة، ففي عام ٩ اعترف سكانها بالقيادة الروحية والرمزية لأبي سعيد الجنابي (٩٠ - ٩١٣) الذي كان معروفا باعتباره أحد أنصار الراحل ابي عبدالله الذي كان على رأس الدولة، وقد كان أبو سعيد منظما موهوبا، إذ سرعان ما تشكل القوى القرمطية، وخاصة الفصائل التي ترافق الابل، وقد علمها تكتيك الهجمات العنيفة والجامحة، والتحول السريع من الهجوم إلى الدفاع، مما جعلها تشكل تهديدا خطيرا للخلافة

وبهدف تصفية القرامطة وجه إليهم حاكم بغداد حملة تأديبية ضخمة، ولكن أبا سعيد أبادها، وفي النهاية اضطر الخليفة أن يذهب بنفسه لملاقاتهم، وقد اتخذ طرقا جديدة لمحو دولة القرامطة

وفي عام ٩١٣ نجا ابو سعيد من يد قاتل ماجور واحد يمارس ارهابا شخصيا للخليفة المقتدر ، وكان يرجو بذلك أن يضعف القوة الهجومية المضادة للبحرين لكنه اساء التقدير

ولقد عبا القائد الجديد أبو طاهر سليمان (٩١٣ ـ ٩٤٣) اتباعه واستانف سياسة الغزو وطورها ، وسرعان ما انتشر سلطانه على مساحات كبيرة من الاقاليم [٧]

ففي عام ٩١٩ جرد حملة من ٦٠ من الفرسان و ٩ من المشاة ، وبهم اغتصب مكة وقتل الحجاج الذين كانوا هناك ، ونهب المقدسات ومن بينها الكعبة ، ومن الغنائم التي نقلها ابو طاهر الى البحرين «الحجر الاسود المعروف»

وفي عام ٩٤٩ افلح رجال الدين الاسلامي المكنون في ان يفتدوا الحجر الاسود بمبلغ كبير من المال ، وان يعيدوه الى مكانه

وفي النصف الثاني من القرن العاشر دخلت دولة القرامطة في البحرين مرحلة الازدهار الاعظم ، وفي اساس البناء الاجتماعي والسياسي لهذه الدولة وضعت تجربة لاصلاح المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى ، وهي جعله اكثر قبولاً لدى الجمهور الاساسي من السكان ولقد رفض القرامطة العقيدة الاساسية الرسمية للاسلام ، واعطوا انفسهم الحرية في تاويل «النصوص المقدسة» ، واعلنوا مجموعة من المبادىء الخاصة بهم عن التسامح الديني ، وقد اثرت هذه الملامح المميزة لفلسفتهم تاثيرا كبيرا على المسلمين

ولقد أثارت «زندقة» القرامطة عليهم جماعات كثيرة من المدافعين عن الاسلام ، وكان القرامطة ينسبون المعزى الفكري لحركتهم إلى أنبياء مختلفين مما شوه هذا المعزى

وقد اعترفت الحكومة الأساسية وطائفة القرامطة بالداعية الرئيسي منذ البداية ، وكان من أوائل الدعاة أبو سعيد وأبو طاهر ، ثم الدعاة الستة المختارون ، وهؤلاء الحكام الستة والستة المساعدون لهم كانوا يديرون الدولة ، ويتصرفون في الشئون الداخلية والخارجية ويحسمون المسائل الدينية المختلف عليها ، ويعينون رئيس الجند والموظفين ، ويشرفون على الحياة الاقتصادية والسياسية والروحية في البلاد

وكان الأساس الاقتصادي للدولة يقوم على نظام الرق في ممارسة شئون الزراعة ، والملكية الخاصة للأدوات ووسائل الانتاج ـ بما فيها العبيد ـ اما الملكية العامة للأرض فيتساوى في توزيعها اعضاء الطائفة واعضاء النشاط الزراعي في حالات المساعدة المتبادلة

ولقد نجح القرامطة في بذل الجهود الجبارة للتوصل إلى حلول خاصة لمجموعة من المسائل الهامة ، الأمر الذي ضمن لدولتهم ازدهارا نسبيا

ان ناصر خسرو يكتب «حينما كنت في الحسا كان هؤلاء الأمراء ـ أي الدعاة ـ يملكون ثلاثين ألفا من

العبيد الدين اشتروهم بالأموال ، وكانوا يستخدمونهم في كل أنواع الأعمال الزراعية والبستانية

ولم يكن الشعب يدفع اعشارا ولا ضرائب ، وإذا وقع شخص ما في ضيق ، أو كانت عليه ديون يعجز عن الوفاء بها أعطى سلفة لاصلاح أموره ، وإذا أخذ شخص ما نقودا من احــر عن طــريق الــدين ، فلا يتقاضاه الدائن شيئا

وبجانب الديـون فلكل غـريب صاحب حرفـة أن يتسلم بمجرد وصوله إلى الحسا مبلغا صغيرا من النقود اذا لم يكن له راتب مضمون ، وذلك لكي يستطيع أن يشتري المواد والأدوات اللازمة للعمل ، وإذا باع انتاجه في هذه الحالة أعاد النقود التي اقترضها بنفس القدر الذي تسلمها به

وإذا كان الشخص يملك بيتا مهدما او طاحونة ، ولا يملك نقودا لاصلاحهما فان الحاكم يوفر له عددا من الأرقاء يقومون بترميم بيته او طاحونته ، ولا يجبى منه شيء بسبب هذا . وتوجد في الحسا طواحين مملـوكـة للـدولـة ، تطحن دقيق الفلاحين ، ولا يجبى منهم شيء في مقابل ذلك ، ومحتويات الطاحونة واجور العمال تتكفل بها الدولة

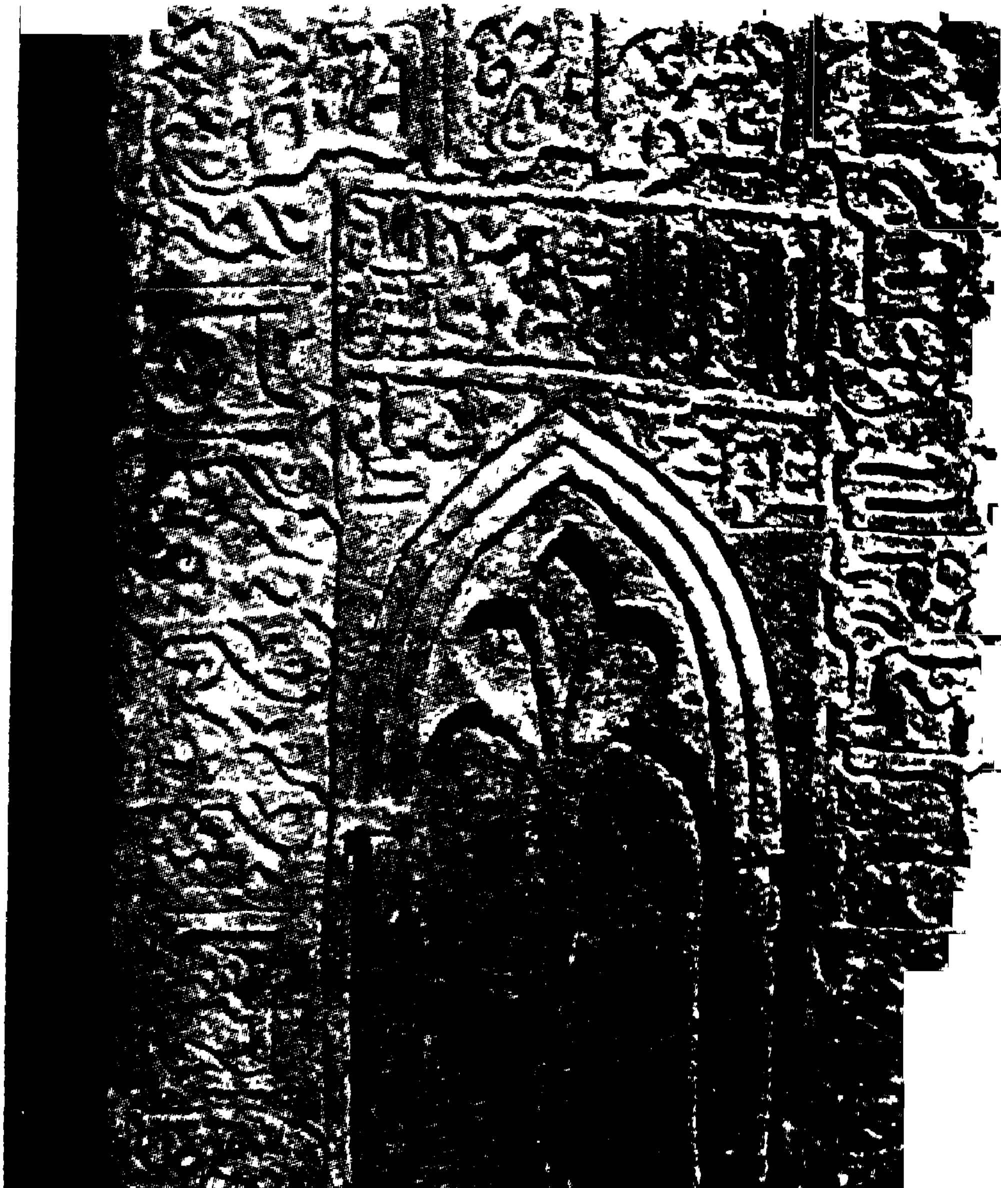
وهذه اللوحة التي رسمها ناصر خسرو للحياة الاجتماعية في البحرين على عهد القرامطة يظهر فيها عنصر التكامل ، ولكن ينبغي الا ننسى أن ناصر خسرو كان ـ اولا ـ أجنبيا بالنسبة للكثيرين فبدا له ما كان في مجموعة الحرر أحسن مما هو في حقيقة الأمر ، وكـان اسماعيليـا ـ ثانيا ـ بمعنى انه شخص تقترب عقيدته من أفكار القرامطة

لكن من مجرد تسجيل قصته هذه عن القرامطة يبدو من الطريف جدا ان الشعبية والتجسيد الـواضح لدولتهم ظهرت في عاصمة الحسا ، فهو يقول «انها مدينة جميلة جدا ، ومحصنة جيدا ، ومتمتعة باحترام جميع المدن الكبيرة ، يسكنها عشرون ألف شخص ، وهم قـادرون على الخدمة العسكرية»

ولقد كان الفرع الأكثر تطورا في اقتصاد دولة القرامطة في البحرين هو الزراعة ، وقد ازدهرت زراعة الواحات الواسعة المستندة إلى منشـات الري ـ حسب معلومات ناصر خسرو ـ كما في جزر البحرين والمحرق وسترة وغيرها ، كذلك كانت غابات النخيل تحيط بالمدن والقرى في الاراضي اليابسة ، وكان محصول البلح كبيرا جدا إلى حد انهم كانوا يطعمونه للماشية

وفي ظل غابات النخيل كانت تتكاثر الحدائق والبساتين ومزارع البطيخ ، وكانت تزرع المحـاصيل الـلازمة للصناعة والطعام ، كما كانت تزرع الحبوب والفول وغيرها ، وفي الحدائق كـانت تنمو أشجـار الحمضيـات والرمان والموز

وقد وصل التطور الكبير كذلك إلى تعهد الماشية ، كتربية الإبل ، والحمر



البيضاء ، والاغنام ، والماعز وكان ناتج تربية الماشية ، والمحاصيل الزراعية يكفي لاستهلاك السكان ويفيض منه ما يكفي للتصدير وقد ازدهرت الحرف في كثير من المدن والقرى ، وكان من منتجات الحسا النسيج - نسيج «الفوط» ، وهو النسيج المبطن باهداب القطن ، الذي كانت تصنع منه الزرابي والمناشف والشيلان - وكانت صناعة الفخار والاسلحة تحظى برواج كبير في الشرق ، وكانت تلعب الدور الخطير في الاقتصاد المحلي - على حد معلومات ناصر خسرو ، والرحالة العربي أبو

إشارات كثيرة ترجح أن الثقافة

الأثرية الأولى في البحرين تنتمي للعرب

سعيد حسان ، مما كان يحدث في منطقة الخليج في اواسط القرن العاشر - كانت تلعب هدا الدور الصناعات البحرية ، فكان السمك المجفف ، ودروع السلحفاة ، واللؤلؤ تشكل جزءا لا بد منه للتصدير ، وكانت سفن القرامطة تمخر مياه الخليج ، وتبحر في المحيط الهندي ، وكان مرفأ البحرين يستقبل الأساطيل القادمة من الهند ، ومن سيلان ، ومن جنوبي الجزيرة العربية ، ومن شرقي أفريقيا

ولم تدم فترة ازدهار دولة القرامطة إلا لامد قصير ، وكان السبب عدم جدوى المحاولة الهجومية للقرامطة على الرغم من المسيرة الطبيعية لتطور التاريخ ، واعادة احياء نظام الرق الجماعي ، وبهذه المسيرة تخلصت من مجموعة المشاكل المعقدة الناشئة في الشرق العربي من عملية تشكيل العلاقات الاقطاعية هناك

ولم ينجح القرامطة في أن يحموا أنفسهم نفوذ المحيطين بهم ، فقد ظهرت بوادر «الانحلال» داخل مجتمع القرامطة ، وبقدر ما كان هؤلاء المختارون الأوائل يعتبرون خلفاء أبي سعيد ، فقد كانت سلطتهم من بداية التطبيق لا تمثل شيئا ، لانهم كانوا مشغولين بمناصبهم ، ومع مرور الزمن أصبحوا وراثيين ، فقد غيرت الهيئة الحاكمة قوانين الطائفة وحولتها بالتدريج الى استغلال مكشوف للأعضاء البسطاء من الطائفة ، وهم صغار التجار ، والحرفيون ، والفلاحون ، والبدو الرحل الخاضعون لهم

وتشكيل الارستقراطية القرمطية كان يصحبه بالطبع ظهور التناقضات الطبقية وتفاقمها ، وسرعان ما فقدت طائفة القرامطة - المنتقلة من الباطن ، والباقية في الدائرة المعادية - قواها ونفوذها

وتحرج الموقف أكثر من مرة ، لان قبائل البدو المعادية كثيرا ما وصلت في ذلك الوقت من أعماق الجزيرة العربية ووسطها إلى حدود دولة القرامطة ، وبدأت تقوم بالاغارة على أراضي هذه الدولة ، فجرتها إلى نضال طويل

ومدمر . وفي نفس الوقت كان القرامطة يهددون الفرس من ناحية الخليج . مما وجد صدهم محتلوهم الأوائل من سلالة البويهيين الذين لم يخضعوا فارس وحدها وفي نهاية القرن العاشر - الى جانب خراسان وسجستان وطبرستان - ولكنهم اخضعوا كذلك ما بين النهرين وعمان . وكل جنوب الجزيرة العربية بما فيها اليمن

ففي عام ٩٨٥ ابيد اتباع القرامطة في بلاد ما بين النهرين . وتبع ذلك أن قل نفوذهم في عمان وبعد ثلاث سنوات اقتحمت فصائل ضخمة من البدو حدود دولة القرامطة في البحرين . واحتلت الى حين واحدة من اهم مدنها وهي مدينة القطيف . ولو انهم طردوا بسرعة وقد اوقعت هذه الاحداث اضرارا بالغة بنفوذ القرامطة في الجزيرة العربية . وعند نهاية القرن العاشر وجدوا رقابهم في طوق محكم نسبيا . وقد حاولوا ان يحطموا هذا الطوق فعبأوا جميع قوى الدولة وقاموا بحملة ضد ممثل البويهيين في خلافة بغداد . وهو الطائي . لكن جيشهم سحق عام ٩٨٧ - ٩٨٨ واصبح الموقف خطيرا . وادرك حكام القرامطة هذا فلجأوا الى معونة الفاطميين (٩٠٩ - ١١٧١) الذين اخضعوا بلاد المغرب . ومصر . وسوريا . وفلسطين وغربي الجزيرة العربية . وكانت العلاقات الاتحادية بين الدولتين متفاوتة في القوة والحجم .

ومن الطبيعي أن تتحول سريعا إلى تبعية من هؤلاء القرامطة للفاطميين . لكن حتى هذا لم يعد على القرامطة بالنتائج المرجوة . فقد كان سلاطين الفاطميين . يجبون الضرائب بانتظام من حلفائهم القرامطة . مع انهم لم يبدوا أيا من المحاولات لمساعدتهم . لانهم لم يتشاءوا أن يريدوا العلاقات بينهم وبين فارس توترا

وقد كان هذا التوتر ينفرج عندما تتعرض فارس لغارة جانحة من الاتراك السلاجقة الذين قهروها فيما بين عام ١٠٤٠ وعام ١٠٥٠ . وفي عام ١٠٥٥ استولوا على بغداد . وطالما صمم السلجوقيون على أن يعبروا الخليج لهزيمة دولة القرامطة في البحرين . ولكن ذلك كان مستبعدا من هذه الناحية

في ذلك الحين توجه خاص زار ناصر خسرو جزر البحرين . وشهد اكتمال دولة القرامطة وقوة حيويتها . لكنه لم يلاحظ التهديد الكامن في العدوان من الخارج . ذلك العدوان الذي كان يقوم به البدو الرحل . وهم من أنصار «العقيدة الحقيقية» من جهة . وهم من جهة أخرى ممثلو الاسلام الرسمي . وصنائع السلجوقيين

كذلك في عام ١٠٥٧ - ١٠٥٨ . أي بعد سبع سنوات من رحلة ناصر خسرو . ثار واحد من القادة المحليين لقبيلة عبدالقيس . وهو أبو البهلول . ضد عقائد القرامطة مطالبا باعادة النظام السابق للاسلام الرسمي في البحرين . ولقد اصبح ميناء القطيف

هو مركز المعارضة ، وبدأ النضال في سبيل السلطة ، وسرعان ما فقد هؤلاء ومتابعوهم مساندة المواطنين البسطاء المحرومين ، لانهم اغتصبوا السلطة عمليا ، ففقدوا كل حقوقهم

وكان هذا الانقلاب عملا نهائيا في تاريخ دولة القرامطة في البحرين ، فقد انهك قواها ، واستغل هذا كل من الخليفة القائم ، والادارة الخاضعة للحكام السلجوقيين الذين اتحدوا كل الوسائل ضد تقوية نفوذ الفاطميين في منطقة الخليج ، فوجهوا ضد القرامطة قوات ضخمة ، وفي موقعة على ساحل الحسا انهزمت القوات الرئيسية العسكرية للقرامطة

وقد صاحب عودة جزر البحرين إلى الخليفة إبادة عامة لسكان الجزيرة «المرتدين» ، وبعدها اختفى القرامطة إلى الابد من منطقة الخليج

ف ل بودیانسکي
آكاديمية العلوم السوفيتية ـ موسكو



الهوامش

(١) في اساطير السومريين وتقاليدهم ان جزيرة ديلمون تشبه «جنة الفردوس» و عالم الخلود حيث يوجد مأوى بطل السومريين شبه الخرافي جلجامش، وزيو اودرا وهما شخص واحد وهو احد الناجين من الطوفان العالمي

(٢) في نقوش السومريين المنقوشة بالكتابة المسمارية يسمون البحر الابيض بالبحر الاعلى اما الخليج فيسمونه البحر الادنى

(٣) ميناء جرا ـ الذي لم يعد موجودا الان ـ اقيم على الساحل العربي للخليج بالقرب من مجموعة جزر البحرين مباشرة، وهو ميناء العقير أو العجير الحالي

(٤) من اخبار نيارك (القرن الرابع قبل الميلاد)وبليني اخيرا (٢٢ ـ ٧٩ ميلاديه) ان نهري دجله والفرات كانا جيبين يصبان في الخليج كل على حده وان مدينه سباسين الهاراك كانت تقع على مصب دجلة اي في مكان غير بعيد من ملتقى دجله والفرات الحالي

(٥) ك ماركس وف انجلز مجموعه الرسائل موسكو ١٩٥٣ ص٧٤ ـ ٧٦

(٦) واضح من هذه الفقرة ان الكاتب لم يتعمق كثيرا في التاريخ الاسلامي ، فكل المصادر والمراجع العربيه والاجنبيه مجمعه على ان سكان البحرين اقبلوا جميعا على الاسلام عند عرضه عليهم اما الموقف المعارض ضده فجاء في البحرين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم و في اطار حركه الردة وربما كان ذلك هو ما يعنيه الكاتب هنا

(المحرر)

(٧) كان ضمن ذلك جزء من ارض ما بين النهرين حتى الكوفه والبصرة وشاطىء الحسا وشبه جزيرة قطر وجزء كبير من عمان

رواد الإصلاح في العصر الحديث ٤

محمد رشيد رضا

١٢٨٧ - ١٣٥٤هـ

ولد محمد رشيد رضا ، سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٦٥م ، في قرية صغيرة من قرى طرابلس الشام ، تسمى (القلمون) ، وترعرع في بيت اسلامي نبيل ، ارضعه منذ نعومة اظفاره الاسس والمبادىء الاسلامية الصحيحة على خطى السلف الابرار ونهجهم لذا لا عجب ان يحتل مكانة عالية مرموقة بين اقرانه ، لتفوقه ـ وعلى امتداد مسيرته العلمية ـ بكافة مقرراته الدراسية العلمية منها والأدبية ، حيث ظهرت آيات نبوغه في العلوم الاسلامية والعربية مبكرا ، مع براعة مشهودة في علوم المنطق والرياضيات والفلسفة ، مع اجادة للغتين التركية والفرنسية

وقد أهلته هذه المكانة العلمية والتربية الاسلامية الشريفة ، لأن يصبح من عداد علماء الدين الاسلامي المرموقين ، الذين سبقوا زمانهم ، وكان معينه الذي لا ينضب وزاده الفكري الثر ، مستمدا ـ طوال حياته ـ من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة وكثيرا ما ساءه ما كان الناس عليه من بدع وخرافات واضاليل ، لا يقرها الشرع ، ولا تتفق مع الاسلام في شيء فكان جهاده الأول تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم ، ومحاربة الافكار الجامدة ، التي تكبل حرية العقل ، وتنال من عالمية الاسلام وشموليته ، وكان يؤمن (رحمه الله) بأن الخطوة لاصلاح الوضع في العالم الاسلامي ، تتمثل في رفض المسلمين للصورة التي الفوها منذ ان وقعوا اسرى الانحطاط ، الذي عرفوه في العصور المتأخرة وعليه يجب أن يكون التعبير لهذا الواقع الاسلامي المريض جذريا وذلك بالقيام



يد رضا

١٨٦٥ - ١٩٣٥م

بقلم : الدكتور
فهمي توفيق مقبل

بمراجعة شاملة لفهم كنه وظيفه الدين الاسلامي ، على اساس العودة الى الاصول ، وفي ضوء قراءة جديدة للواقع

وقد واجه رضا في طريقه نحو الاصلاح نفس العثرات والخصوم ، الذين وقفوا في وجه الكواكبي واضطروه للسفر الى مصر ، حيث لم يجد مفرا في النهاية للتخلص من مضايقات السلطة الشديدة من الرحيل الى القاهرة سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) ليحتل مكان الصدارة بين اخوانه العلماء والحكماء من اهل مصر ، ومن لاذ بديارهم فرارا من قبضة المستبدين الطغاة ، وليقترب بالتالى اكثر من مواقع المفكرين المصلحين الاسلاميين ، الذين ارتبط بهم على نحو سابق ارتباط التلميذ باساتذته الأوفياء الامناء ، امثال جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، وقد وجد (رحمه الله) في الشيخ محمد عبده خير عزاء ، بعد ان فقدا كلاهما استاذهما الداعية الاسلامي الكبير جمال الدين الافغاني ، وقد اتاح له هذا الالتحام ، باستاذه الجليل (وريث الافغاني) الشيخ محمد عبده ، القيام بدور محمود في ميدان الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي الخ ليتفوق احيانا على استاذيه خصوصا في علم الحديث وقد شرع محمد رشيد رضا منذ اللحظة الأولى التى



الافغاني



محمد عبده

وطأ فيها ارض مصر جهادا متواصلا لا يهدأ ليلا او نهارا ، موقفا وقته كله في خدمة دينه ووفاء لمبادئه ، التي كانت هي نفس المبادىء التي جاهد في سبيلها استاذاه الافغاني وعبده ، والرامية للتجديد والاصلاح الاسلاميين ومن اجل مواصلة المسيرة بقوة واندفاع الى الامام ، انشأ مجلة المنار ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) بتوجيه من استاذه الشيخ محمد عبده صاحب التجربة الصحفية العريقة ، وقد حدد رضا اهداف مجلته بالشعار الذي صدر به الصفحة الاولى ووضعه تحت اسم المجلة مباشرة ، حيث يقول ان « المنار » « مجلة اسلامية تبحث في جميع شئون الاصلاح الديني والمدني والسياسي ، وتقوم بفريضتي الدعوة الى الاسلام ، والدفاع عنه ، وجمع

كلمة المسلمين » وبالجملة فقد اختط رضا لنفسه منهجا توفيقيا يجمع بين تجربته وتجربة استاذيه عبده والافغاني ، وبخاصة بعد ان فقد الآن كليهما وبقي في الميدان مثل السيف فردا

وبعد وفاة الشيخ عبده استقل رضا تماما في المنار ، وقادها على نفس الطريق الذي خطه استاذه الراحل ، فتطورت في عهده حتى ذاع صيتها في الخافقين ، وذاع معها صيته هو نفسه ، وصار يشار اليه بالبنان ، وتوج مفكرا دينيا ومصلحا اسلاميا موثوقا ، يحظى بمكانة عربية واسلامية عالية ، وقد عمل رضا من هذا الموقع المسئول كمفكر اسلامي سلفي حديث على صياغة نظرية اصلاحية تستند اساسا على الافكار التي استلهمها من استاذيه ، وتقصى

لايجاد حلول اصلاحية مستنبطه من العقيدة الاسلامية ، ليتمكن العالم الاسلامي من الصمود ف وجه التحديات التي تستهدف وجوده من الاساس ، خصوصا بعد انهيار صرح الدولة العثمانية ، واكتواء الامة بنار الاستعمار الغربي ومن تم تحصينه ليقوى على احتواء اعصار الغزو الثقافي والعسكري ، عاملا ف نفس الوقت على ايجاد نظرية اسلامية اصلاحية ، قادرة على ان تفرض نفسها على اجيال الشباب الاسلامي المعاصر ، خصوصا مزدوجي الثقافة ، ومن تم حمايتهم من النظريات والمؤثرات الاجنبية ، التي كانت تدق ابواب عالمنا العربي والاسلامي بقوة ، مثل الماركسية والرأسمالية والقومية والعلمانية الخ

لقد استطاع رضا بحق ان يفرض نفسه في اواخر سني حياته زعيما من زعماء الاصلاح الحديث ، يلتف حوله صفوة من علماء الامة واساتذتها ومفكريها ومع انه استطاع ان يميز نفسه عن استاذيه الافغاني وعبده ، وتجاوزهما ف أكثر الاحيان فكرا واسلوبا وتصميما على بلوغ الاهداف ، الا أنه لم يستطع ان يفرض نفسه كصاحب مدرسة مستقلة بالفعل ، وظلت مدرسته الفكرية ف نظر اصدقائه وخصومه ، هي نفس المدرسة التي تخرج فيها الشيخ محمد عبده

وبعد كفاح طويل ومرير انهكت فيه الروح والجسد ، اسلم الشيخ رضا روحه الى بارئها سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥) ، بعد ان اضاف صفحات باقية خالدة الى صفحات تاريخ امته الاسلامية المجيدة ، وقد اجمع اساتذته وتلامذته وعارفو فضله على سعة علمه ، وعظيم خلقه ، وكريم خلاله ، ونبيل سجاياه هذا وقد خلف رضا تراثا علميا قيما ، يتجلى ف اثاره الحية « مجلة المنار » « وتفسير القرآن الحكيم » الذي كان قد بدأه الشيخ محمد عبده ، واثار جليلة اخرى ، ظهر فيها بكل وضوح نفسه الاسلامي الغيور ، ودقة الباحث الأمين مع اسلوب راق متميز وجهد مخلص موقوف لنفع الناس من ابناء الامة دون تمييز ، رحم الله الشيخ محمد رشيد رضا وجزاه عن امته خير الجزاء

اعمالـــه

الكتب (والكراسات) :

- خلاصة لمسألة ريد ورينب ورد شبهه (القاهرة ١٣١٩هـ = ١٩٠١م)
- شبهات النصارى وحجج الاسلام ، (القاهرة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م) طبعة ثانية دار المنار (القاهرة ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م)
- محاورات المصلح من المقلد ،

(القاهرة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م)
- المسلمون والقبط والمؤتمر المصرى ، (القاهرة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م)
- عقيدة الصلب والفداء ، (القاهرة ١٣٣١هـ = ١٩١٢م)
- فتويان من فتاوى المنار الاصلاحية (القاهرة ، ١٣٤٠هـ = ١٩٢١م)
- الخلافة والامامة العظمى ، (القاهرة ١٣٤١هـ = ١٩٢٢م) نشرت اولا على حلقات فى المنار ، تحدها فى المجلدين ٢٣ ، ٢٤
- انجيل برنابا ، (القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م)
- الوهابيون والحجاز ، (القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م)
- تفسير سورة يوسف ، (القاهرة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م)
- بالاشتراك مع محمد عبده ، تفسير القران الحكيم (تفسير المنار) فى ١٢ جزءا ، (القاهرة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م) (ط ٤) عن دار المنار بمصر (القاهرة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م)
- مجموعات التوحيد النجدية ، (القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م)
- الوحدة السياسية والاخوة الدينية ، (القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) (طبعة ثالثة ، دار المنار ، القاهرة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م)
- ترجمة القران وما فيها من مفاسد ومنافاة الاسلام ، (القاهرة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م)
- السنة والشيعة والرافضة ، فى مجلدين (القاهرة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م)
- تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، ٣ مجلدات ، (القاهرة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م)
- حقوق النساء فى الاسلام ، (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) ، طبعة جديدة صادره عن دار التراث الاسلامى ، (القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)
- ايضاح مسألة معينة (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م)
- نداء الى الجنس اللطيف يوم المولد النبوى الشريف ، (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) (طبعة ثانية ، دار المنار ، القاهرة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٧م)
- الوحى المحمدى ، (القاهرة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م) طبعة ثالثة ، دار المنار ، (القاهرة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م)
- تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، (القاهرة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م)
- ذكرى المولد النبوى ، (القاهرة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م)
- الفاروق عمر بن الخطاب ، (القاهرة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م)
- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (القاهرة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م)
- الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين (القاهرة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م)

- خلاصة السيرة المحمدية وحقيقة الدعوة الاسلامية (القاهرة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م)
- يسر الاسلام في اصول التشريع العام ، (القاهرة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م)
- الاسلام والمدنية ، (بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م)

المقالات :

توطئه :

كل المقالات المهمة التى كتبها محمد رشيد رضا ى حياته (وبخاصة في مصر) والتى تحتل عصارة جهده واجتهاده الاسلامى كانت في الاصل اسهاماته الفكرية الرائدة التي عبر عنها من خلال مجلته (المنار) التى جمعت ى ٣٥ مجلدا ى العام (١٣١٥ - ١٣٥٤هـ = ١٨٩٨ - ١٩٣٥م) (×)

وقد ذكرنا فيما تقدم أهم أعماله التى نشرها في كتب أو كراسات مستقلة وللفائدة العلمية المنشودة نصطفى هنا عددا محدودا من المقالات المهمة على سبيل المثال والتعريف بالكنز الاسلامى العظيم والتراث الباقي المتجدد الذي خلفه المغفور له الشيخ محمد رشيد رضا (رحمه الله)

- « القول الفصل محاورة ى سعادة الامة » في المنار المجلد ١ ، العدد ٢ ، (القاهرة ١٢١٦هـ = ١٨٩٨م) ، قارن كذلك المنار ، المجلد ٧ (١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م) ، ص ٥٧٤
- « مدنية العرب » ، في المنار ، المجلد ٣ ، (القاهرة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) ص ٢٨٩ - ٢٩٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٩٠٩ ، ٩١٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥
- « الترك والعرب » ، في المنار ، المجلد ٣ ، (القاهرة ١٣١٨هـ ١٩م) ص ١٦٩ - ١٧٢ ، ١٩٣ - ١٩٨
- « بحث ى المؤتمر الاسلامى » ، ى المنار ، المجلد ١٠ (القاهرة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م) ، ص ٦٧٣ - ٦٨٢
- « فاتحة السنة الثانية عشرة » ، في المنار ، المجلد ١٢ ، (القاهرة

(×)بعد وفاة الشيخ محمد رشيد رضا (رحمه الله) استانف الاستاذان محمد شفيع رضا ومحيى الدين رضا اصدار المجلة . وترجح بعض المصادر ان جماعة الاخوان المسلمين اشتروا امتياز حق النشر بنفس الاسم . وتؤكد فهارس دوريات دار الكتب في القاهرة ، ان « المنار » استمرت في الصدور بعد هذا التاريخ المشار اليه . وتحتفظ الدار بمجموعة مجلدات « المنار » من سنة ١٨٩٨م وحتى سنة ١٩٤٠ للمزيد انظر الدراسة التى اجرتها جريدة الشرق الاوسط حول الدوريات الاسلامية منذ بدء صدورها وحتى اليوم . العدد ٣٨٦١ . ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٨٩ = ١٤٠٩هـ . ص ٢٣ - ٢٤

١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) ، ص ١ - ١٥

- « الاصلاح والدعوة الى الوحدة » ، في المنار ، المجلد ١٢ ، (القاهرة ١٣٢٧هـ = ٩ ١٩م) ص ٧٤٢

- « المسألة العربية » في المنار ، المجلد ٢٠ (القاهرة ١٣٩١هـ = ١٩٧١م) ص ٣٣ - ٤٧

- « الحالة السياسية العامة في مصر » ، في المنار ، المجلد ٣ (القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) ، ص ١٤٥ - ١٤٧

اعماله المترجمة :

Translations

Al-Khılafa wa al-Imama al-Uzma¯, Fr trans, Le Calıfat dans la doctrıne de Rashıd Rıda¯ by H Laoust, (Beırut, 1938)

'Islam and the Natıonal Idea', ın S Haım, Arab Natıonalısm An Anthology, (Los Angeles and London, 1962), pp 75-77

دراسات عن محمد رشيد رضا بالعربية

الكتب :

- احمد ابراهيم العدوى رشيد رضا الامام المجتهد ، (القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م)

- احمد الشرباصي رشيد رضا صاحب المنار ، عصره وحياته ومصادر ثقافته ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، الكتاب ٥٨ (القاهرة ١٣٨٩هـ = ١٩٧ م)

- حسيب السامرائي رشيد رضا المفسر ، مطبعة جامعة بغداد ، (بغداد ١٣٩٧هـ = ١٩٧٦م)

- السيد احمد رجب مكانة المرأة في تفسير المنار ، رسالة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، (القاهرة ١٤٠٢هـ = ١٩٨١م)

- شكيب ارسلان السيد رشيد رضا وإخاء اربعين سنة ، (دمشق ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م)

- عاهدة فخر الدين الامام محمد رشيد رضا والصهيونية ، رسالة ماجستير ، الجامعة اللبنانية ، (بيروت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م) (××)

- فهد الرومي منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، مؤسسة

(××)انتحل انيس الابيض جزءا من هذه الرسالة ونشرها تحت نفس عنوان الرسالة ، الامام محمد رشيد رضا والصهيونية » ، في مجلة الامة القطرية ، العدد ١٩ ايار (مايو) (١٩٨٢م = ١٤٠٣هـ) ص ٣٢ - ٣٨ وقد تداركت المجلة الامر ونبهت عليه في افتتاحية العدد ٢٧ ، ك ٢ (يناير) (١٩٨٣م = ١٤٠٤هـ) ص ١

راجع ايضا F T Mukbıl,op,cıt ,p 220,n 4

الرسالة ، (بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م) انظر هنا ص ١٧٠ - ٢٠٨

- محمد الصالح المراكشي محمد رشيد رضا - من خلال مجلة المنار (١٨٩٨ - ١٩٣٥) اطروحة دكتوراه دولة في الاداب ، مقدمة لكلية الاداب والعلوم الانسانية بجامعة تونس ، (تونس ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م)

- وجيه كوثراني (تقديم ودراسة) مختارات سياسية من مجلة « المنار » لرشيد رضا ، دار الطليعة ، (بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨ م)

- يوسف ايبش (جمع وتحقيق) رحلات رشيد رضا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت ١٣٩١هـ = ١٩٧١م)

المقالات :

- في الشرق الاوسط (جريدة) « العروة الوثقى على رأس قائمة من الدوريات بصفها توقف عن الصدور - ٣٠٠ جريدة ومجلة اسلامية صدرت في العالم منذ عام ١٨٨٤م » - في العدد ٣٨٦١ ، ٢٤ حزيران (يونيو) (١٩٨٩م = ١٤٠٩هـ) دراسة صحفية تتضمن قائمة بالدوريات الاسلامية منذ بدء صدورها وحتى اليوم

- عبدالهادي بو طالب « المغرب كان مهيئا بطبعه لتقبل فكرة السلفية وكثير من علمائه تميزوا بالجهر بالعودة إلى الاصول الاسلامية » ، من كتابه ذكريات وشهادات ووجوه ، تنشره على حلقات جريدة الشرق الاوسط ، العدد ٣٤٧٣ (١ حزيران) (يونيو) (١٩٨٨م = ١٤٠٨هـ) ص ١٦

- محسن عبدالحميد « موقف صاحب المنار من المفسرين » في مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٣ (بغداد ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م)

- ياسر فرحات « مطلوب انقاذ التراث الاسلامي الخطر يهدد تراث محمد عبده ورشيد رضا » ، في الشرق الاوسط العدد ٣٤٨٩ ، ١٧ حزيران (يونيو) (١٩٨٨م = ١٤٠٩هـ)

دراسات عن محمد رشيد رضا بلغات اجنبية

رابعا :

(أ) الكتب :

a. Books

Badawı, Zakı
The Reformers of Egypt - A Critique Al-Afghanı, ᶜAbduh and Rıdha, (The Muslım Institute Papers, 2, Slough, U K 1976), esp pp 47-71

Houranı, Albert
Arabıc Thought ın the Lıberal Age, 1798 - 1939, (London, 1962), esp pp 222-244

Kerr, N G
Muhammad ᶜAbduh and Rashıd Rıda, Ph D thesis, J Hopkıns Unıversıty, (Washıngton, 1958)

Rida''s Relations with Jama'al al-Di'n al-Afgha'ni' and Muhammad Abduh', in The Muslim World, lxvi, (1976), pp 272-286

Kerr, M H
'Rashi'd Ri'da and Islamic Legal Reform An Ideological Analysis', in The Muslim World, 1, (1960), pp 109-118 and 170-181

Kerr, N G
Islamic Reform The Political and Legal Theories of Muhammad Abduh and Rashid Rid'a, (California, 1966)

b Articles

Busool, A Nimr
'Shaykh Muhammad Rashi d

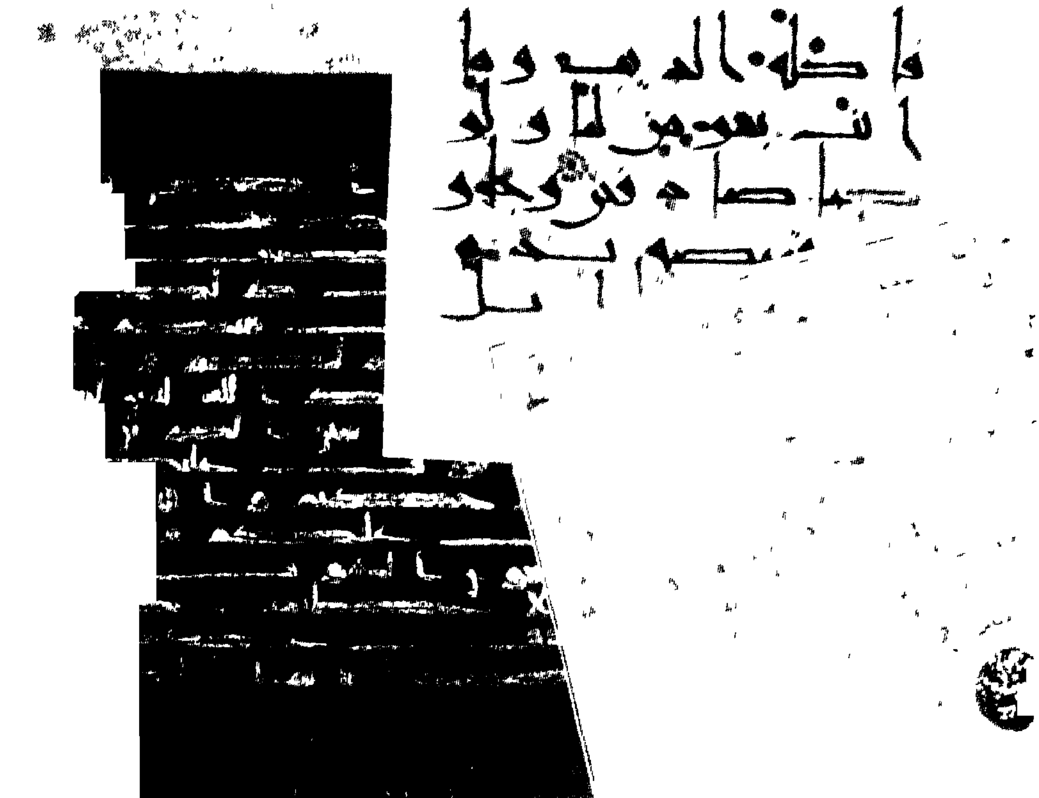


د. خبرى على ابراهيم

دراسة تجريبية

من الأمور الهامة لجعل التاريخ مجديا وقريبا من تفكير انسان اليوم الذي لم يعش ذلك الماضي الذي يتحدث عنه التاريخ ان نسبغ على الماضي في المجتمع أو المجتمعات الانسانية جسرا من الحقيقة التي يشعر بها القارىء او الدارس للحقائق التاريخيه حتى يستطيع فهم المجتمع وطبيعة التغير ويقف على القوى المؤثرة فيه والمشكلات التي يواجهها لأن هذا الماضي هو الاساس والاستمرار الذي يقوم عليه الحاضر. فكلما ادرك الانسان واقع مجتمعه والمجتمعات المعاصرة وتاريخها الماضي أدى ذلك لا الى تفسير الماضي فحسب وانما لفهم الماضي الذي لا يزال ممتدا في الحاضر من حياتنا، وليس هذا شأن المجتمعات فقط وانما هو شأن الافراد فالفرد يستفيد من خبرته الماضية لكي يواجه موقفا جديدا من حاضره وسلاحه في ذلك ذاكرته التي تدرك المواقف الماضية المتشابهة مع الحاضر

والمجتمعات مثل الافراد فكما ان الفرد عدته ذاكرته في ادراك الماضي ليتوافق مع الحاضر فالتاريخ هو سلاح المجتمع وعدته لفهم الحاضر وتفسيره فالنظم الحكومية والقوانين والأفكار والعادات والتقاليد المختلفة وأساليب حياة الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية وجميع مظاهر حياتهم في الوقت الحاضر لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا في ضوء تاريخ تلك النظم



والعلاقات في المحتمع في العصور الماصية **(عىدالحميد السيد)**

ويتصح من دلك القول أن اى متسكلة سياسية او احتماعية او اقتصادية يواحهها المحتمع في العصر الحاصر لابد من القاء الصوء عليها من نافدة تاريحها الماصي لمعرفة أصولها والطرق التى يمكن بها معالحة هده المتسكلة

كدلك فان تفسير الحاصر على صوء الماصي يساعد كتيرا بل هو الأساس في التحطيط للمستقبل سواء كان للفرد أو المحتمع

ودراسة التاريح من الوتائق تعد حسرا لفهم الماصي ويساعد على تهيئة الفرد لفهم التاريح وتفسيره للحاصر الدي يعيش فيه على صوء الماصي وبدلك تعين الوتائق التاريحية دارس التاريح على تدوق المدنية والحصارة التى يتمتع بمراياها ويقاسى من عيوبها. كما أنه يحرح بالتاريح من ظاهرة الحمود واللاوطيفية في حياتنا كما يدعي البعض **(ابو الفتوح رضوان)** فالوتائق تحعل دراسة التاريح حيوية لأنها تنقل القارىء أو الدارس الى مواقع الأحداث فيتعرف على الحقائق ويستقر في دهنه وقائع التاريح في عصور ما قبل التاريح متلا فالوتائق تصفي على التاريح حقيقة يلمسها الفرد لأن التاريح لا يُرى ولا يُلمس كالظاهرة الحعرافية أو الظاهرة الاقتصادية **(رضوان ٢)**

ومن ناحية اخرى فان الوثائق في دراسة التاريخ بها من المادة العلمية والأثرية ما يساعد على اثارة التفكير مما يجعل دارس التاريخ او القارىء في مكان المؤرخ فيقف على طرقه في التحقيق ومهاراته في الاستنباط ووسائله في النقد والحكم على الاحداث والشخصيات

وثائق دراسة التاريخ :

قد يعتقد البعض ان وثائق التاريخ هي تلك القطع من الاثار المكتشفة في مناطق ظهور الحضارات القديمة، او نصوص المعاهدات والمراسلات بين الدول في العصور المختلفة، وذلك يتناول

١ ـ نصوص المكاتبات الرسمية او التقارير التى تنشرها الدولة في فترة معينة وتشمل النصوص ايضا تلك المكتوبة على قطع الأثار والمخطوطات ونصوص المعاهدات بين الدول والافراد واصحاب المسئولية من نظم الحكم اما عن الشق الاول وهو نصوص المكاتبات الرسمية للدولة فانها تعنى العلاقات بين الدولة وغيرها من الدول في الخارج وتتمثل في المراسلات التى توضح اتجاهات وسياسة الدولة وما يمر بها من ازمات او فترات رواج او احداث تاريخية بعينها، وقد تكون تلك المراسلات او المعاهدات سرية فتحتفظ بها الدولة ولا تعلنها وقد تكون غير ذلك فتنشرها وتذيعها فتصبح وثيقة من وثائق دراسة التاريخ، ومن الجدير بالذكر ان بعض الدول العظمى التى كونت امبراطوريات في التاريخ ولها علاقات وثيقة وتاريخية مع الدول التى استعمرتها قد اثرت الاحتفاظ بنصوص اتفاقياتها ومعاهداتها ومراسلاتها بصورة سرية مدة طويلة من الزمان الا انها بعد زوال سيادتها ونهاية عصور الامبراطوريات اذاعت ما لديها من وثائق في هذا الشان مما اثرى المكتبة التاريخية نذكر من ذلك ان انجلترا قد أعلنت توفير وثائق الامبراطورية البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كما اتاحت تركيا فرصة الاطلاع على وثائق الامبراطورية العثمانية وقد افاد المورخون من ذلك الأمر فخرجت علينا دراسات تاريخية جديدة من واقع الوثائق والنصوص التى كانت سرية في وقت من الاوقات من ذلك ما كتبه المؤرخون عن «الصهيونية» من وجهة النظر البريطانية، والعلاقات العربية مع الدولة العثمانية من واقع وثائق الامبراطورية العثمانية

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بعض الجهود المخلصة في مجال حفظ الوثائق والنصوص عن طريق دور الحفظ الخاصة والعامة والارشيفات والاجهزة الحديثة مثل الكمبيوتر والميكروفيلم، وفي معظم الدول اصبحت تلك الوسائل من مظاهر التقدم والحضارة وجميعها اصبحت تحت تصرف الباحثين والدارسين

للتاريخ هذا الى أننا - في كثير من الاحيان - نجد كتبا ارشادية أعدت بعناية وفهارس شاملة ودقيقة وأجهزة تصوير الوثائق مما ساعد على اتساع نطاق توزيع وتبادل وحفظ الوثائق حتى لا تتعرض للتلف، ولعل في ذلك كبير الاثر في دراسة التاريخ باستخدام الوثائق والنصوص

اما عن الشق الثاني وهو النصوص المكتوبة على قطع الآثار والمخطوطات واهميتها في دراسة التاريخ فنستطيع ان نتناوله من ناحيتين

أولا : النصوص المكتوبة على قطع الآثار

كشفت لنا النصوص المكتوبة على قطع الآثار تاريخ الفترة الطويلة التى سبقت عهد الانسان بالكتابة والتى يسميها المؤرخون بفترة ما قبل التاريخ، وهي فترة اطول بكثير من عصر التاريخ المدون، ولها نفس الأهمية من حيث حضارة الانسان وما حققه من تطور في جميع نواحي حياته حتى يستطيع تحقيق التكيف مع البيئة التى يعيش فيها وقد زودتنا نصوص ووثائق الاثار بعرض للأدوات الثقافية للانسان والتى استخدمها في نفس الوقت الذي تجمع عليه اراء المؤرخين بانه تاريخ ظهور الانسان على سطح الارض وتذهب النصوص المدونة على بعض الوثائق الدينية الى ان ظهور الانسان تم يوم الجمعة سنة ٤٠٠٤ ق م **(تاريخ الكتابة التاريخية - ترجمة محمد عبدالرحمن برج - مراجعة سعيد عبدالفتاح عاشور)**

ويستنبط يوم الجمعة مما ورد في القران الكريم من تكريم وتعظيم ليوم خلق الانسان ﴿ياايها الذين امنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ صدق الله العظيم سورة الجمعة - (**ايه ٨**)

والكتابة على الآثار قد تكون كتابة بآلة حادة مثل المسمار على الواح من الطين التى يتم معالجتها في افران حتى تجف وتثبت الكتابة عليها، وهذا ما اشتهرت به حضارة الرافدين القديمة وانتقلت بعد ذلك الى المناطق المجاورة في حضارة دلمون والحضارة الفينيقية ببلاد الشام

ومن الآثار المكتشفة في حضارة دلمون القديمة حجر ديوراند الذي اكتشفه الكابتن البريطاني ديوراند عام ١٨٧٩م في البحرين، والذي اراح الستار عن طريق ما كتب عليه من نصوص تاريخية عن موقع حضارة دلمون، فالوثائق التى يذكرها هذا الحجر والمدونة بالنقش المسماري تقول «قصر ريموم خادم انزاك اله اجاروم» ويحمل النقش سعفه نخيل ولعلها هي رمز الآلة أنزاك الذي ربما كان هو اله النخيل في دلمون

القيمة العلمية للوثائق المدونة على الآثار

اذا فحصنا عن معنى كلمة «اثار» في اللغة العربية لوجدنا انها تشير الى كل ما خلفه الانسان القديم من آلات وادوات واشارات ورموز تدل على اعماله وحضارته وتصرفاته وحياته في المجتمع

ومن هنا تأتي اهمية النصوص والوثائق المدونة على قطع الآثار، فكل رمز منها او حرف او اشارة يدل على معنى نستطيع بواسطته التعرف على حياة الاسلاف وتكمن اهمية الوثائق الاثرية في انها حفظت لنا حضارة الاقدمين عبر السنين حتى عصرنا الحاضر

ومن هنا تتضح الاسباب التي جعلت الدول تسلك السبل للكشف عن اثارها ومعناها والحفاظ عليها من التلف فاقامت لها المتاحف ودور العرض وتوصلت الى الطرق التي تحافظ بها على تلك الاثار التي تعتبر واجهة الدولة الحضارية في اعماق التاريخ

واذا تطلعنا الى حضارة البحرين القديمة كمثال لاهمية الوثائق المدونة على الاثار نجد ان هناك بعض النقوش المسمارية ترجع الى عام ٢٥ ق م في بلاد ما بين النهرين تؤكد ان سفن دلمون (البحرين) كانت تنقل الاخشاب من اراض اجنبية الى ارض دلمون كما كانت هذه السفن تحمل التمور والنحاس كتجارة لها في البلاد التي تطل على البحار البعيدة

من هذا النص المسماري نستطيع ان نتعرف على حضارة دلمون كأهم مركز للتجارة القديمة في منطقة الشرق حيث كانت من الموانيء الهامة التي ترسو فيها السفن للتزود بالماء والطعام ونقل التجارة منها واليها

كما تذهب النقوش المسمارية ايضا الى ذكر ارض دلمون وتصفها بارض الخلود او الشباب الأبدي وبانها ارض المياة العذبة كما انها تنتج الحبوب وتعود وتصفها بانها ميناء العالم ان هذه الوثائق الاثرية تلقي الضوء على حضارة دلمون في تاريخ الشرق الادنى القديم، ومن وجهة النظر التربوية نستطيع ان نضمن كتبنا المدرسية بعض النصوص والوثائق التي تحكي تاريخ حضارة دلمون بدلا من السرد التاريخي للاحداث والوقائع التاريخية واهمية ذلك بالنسبة لدارس التاريخ هي انه يستنتج من الوثائق الاحداث التاريخية مما يجعل من التاريخ مادة علمية تقوم على الفحص والتفسير والاستنتاج مما يضفي على التاريخ الحيوية المطلوبة لدراسته

فكم من الفائدة تتحقق لو تضمن الكتاب المدرسي اسطورة جلجامش الآتية

«فقد جلجامش صديقة انكيدو، ثم بدا يفكر في الخلود فاستشار بعض

الحكماء في مملكته فأشار عليه أوتنابشتيم بالسفر الى دلمون وبعد سفر شاق طويل وصل الى دلمون وهناك غاص في مياهها العميقة كما يغوص الغواصون للحصول على المحار، وانتزع زهرة الخلود من اعماق البحر في دلمون، وبينما هو مستلق من عناء التعب جاءت الحية وسرقت منه سر الخلود» من النص الوثائقي السابق لاسطورة جلجامش يمكن ان نلقي الضوء على حضارة دلمون ونستنتج الحقائق التاريخية الآتية

١ ـ كانت دلمون تشتهر بانها ارض الخلود

٢ ـ كانت تتوفر في دلمون المياه العذبة

٣ ـ كان يعمل اهل دلمون بالغوص لصيد الاسماك والمحار

٤ ـ اشتهرت دلمون بانها ارض الزراعة

ويمكن لدارس التاريخ ان يستنتج بعض القيم الاخلاقية التي يشملها النص الوثائقي. فالتاريخ ليس الهدف منه تسجيل الوقائع التاريخية ولكن الى جانب ذلك فان فيه عظة وعبرة نستنتجها ايضا من تلك الوقائع وحيث ان تربية النشء تحتاج الى تكامل البناء التعليمي للمساهمة في اعداده وتربيته جسمانيا وعقليا واجتماعيا ونفسيا فان القيم التي نستنتجها من التاريخ يجب ان تساهم ايجابيا في هذا المجال ومن اسطورة جلجامش السابقة نستطيع ان نستنتج القيم الاخلاقية الآتية

١ ـ الوفاء للاصدقاء فقد كان جلجامش وفيا لصديقه انكيدو وعندما فقده حزن عليه حزنا عميقا تم استشار بعض الحكماء في مملكته لكي يكتب له الخلود

٢ ـ الخلود والحياة الخالدة تكون باعمال الخير والابتعاد عن الشر والاذى للآخرين

٣ ـ العمل ضروري للانسان لكي يعيش الغواصون عملهم شاق ولكن العمل حياة البشر

فدراسة التاريخ باستخدام مدخل الوثائق يحيي الماضي ويسبغ عليه صفة الحقيقة، كما انها تجعل دارس التاريخ يفكر ويضع نفسه مكان المؤرخ فيقف على طرقه في تحقيق الوقائع ومهاراته في الاستنباط ووسائله في النقد والحكم على الاحداث والشخصيات فيستخلص العظات والعبر التي ننشدها من دراسة التاريخ وتستقر في ذهنه وشخصيته وتصرفاته بعض صفات الذين اعجب بهم من الشخصيات الوطنية او الدينية او الاجتماعية ويسلك سبلهم وقيمهم في الحياة والمجتمع وفي نفس الوقت ينأى عن صفات البعض الآخر وتصرفاتهم واعمالهم اذا كانت بعيدة عن السلوك القويم والصفات الحميدة التي تتطلبها الحياة والمجتمع فتتكون لديه القيم الرشيدة من دراسة التاريخ

ثانيا: النصوص المكتوبة في المخطوطات

هي كل ما تناوله السلف من مواد علمية او اجتماعية او انسانية بالمناقشة والتحليل او التسجيل عن طريق الكتابة بخط اليد بالمداد او الوسائل الاخرى التي كانت تستخدم في ذلك الامر ويكون ذلك على الورق سواء كان الورق بالمعنى المعروف في الوقت الحاضر او الورق الذي كان يعرف في الزمن القديم مثل ورق البردي عند قدماء المصريين وقطع الاديم او الرق او الجلد عند العرب في العصور الاولى للاسلام او الكتابة على قطع الحجر او الاشكال والتماثيل كما في قطع الاثار المكتشفة

وكانت ظروف المجتمع في السابق تستدعي ان يقوم المؤلف باملاء ما يريده من مادة علمية على شخص اخر يقوم بالتدوين والكتابة ليحفظه من الضياع ويكون ايضا وسيلة لنشر افكار المؤلف على الناس

فالمخطوطات هي موروثنا الحضاري الذي يكشف ما كانت عليه الامة من تقدم وازدهار في مختلف حقول المعرفة فهي الوعاء الذي حفظ لنا القيم والمفاهيم والعلوم والمعارف والفنون والاداب وهي نتاجات العقل العربي الاسلامي في العصور المختلفة

واول مخطوط عُرف في التاريخ العربي هو القران الكريم

ومع ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ازدهر المخطوط العربي وانتشرت حركة التاليف والترجمة لاتساع النشاط الفكري والثقافي مما ادى الى نسخ الاف الكتب (المخطوطات) في مختلف ميادين العلم والفن والمعرفة

القيمة العلمية للمخطوطات

تمثل المخطوطات قيمة هامة في مجال العلوم والفنون والاداب لانها امتداد للحضارة والتقدم التكنولوجي في الوقت الحاضر او هي اساس ذلك التقدم الذي اخذ منها واستطاع تطويرها الى الدرجة التي وصلت بها الينا في العصر الحديث

وقد وصل الينا الكثير من المخطوطات لاساطين المفكرين والعلماء العرب، واستطاع العالم المتمدين الافادة منها وتطوير افكارها

ومن الامثلة على ذلك مخطوط كتاب «القانون» في الطب لأبن سينا، ومخطوط «الحاوي في علم التداوي» لابي بكر الرازي، ومخطوط ابن النفيس والحسن بن الهيثم وغيرهم من علماء العرب

ومن الجدير بالذكر ان تسجيل الوقائع التاريخية في مخطوطات قد بدأ منذ بداية القرن الثاني الهجري وتتمثل قيمتها في انها سجلت لنا الوقائع والأحداث التاريخية من

مصادرها الأصلية، وفي زمن حدوثها وقد أفاد المجتمع الانساني من هذه المخطوطات لأنها لم تكن دراسة تاريخية فقط وانما ألقت الضوء على النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومن أمثلة ذلك ما دونه تقى الدين المقريزى المؤرخ الاسلامي في مخطوط عنوانه «اغاثة الأمة بكشف الغمة» (**حققه وشرحه جمال الدين الشيال - عام ١٩٦٢**) وفيه تصوير وتسجيل لأحوال المجتمع المصري في نهاية العصر الفاطمي وما تعرض له من مجاعة وأحوال اقتصادية سيئة وتفكك سياسي مما أدى الى زوال الدولة الفاطمية

وفي مجال التاريخ الحديث رأينا من عاصر الأحداث والوقائع التاريخية وسجلها في وقت حدوثها فكانت صورة صادقة للكتابة التاريخية، ومن ذلك ما كتبه عبدالرحمن الجبرتي في مخطوط بعنوان «مظاهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» ودون فيه أحوال المجتمع المصري في زمن الحملة الفرنسية وسجل الوقائع والأحداث التى شاهدها من نضال أو كفاح وثورات وبطش وترجع الأهمية العلمية للمخطوطات أيضا الى أنها تحفظ لنا التراث العقائدى والديني، فالبعض من أساطين الفقه والعقيدة دونوا معتقداتهم وتفسيراتهم ومجمل آرائهم في مخطوطات حفظها الأبناء عن الآباء وتوارثها هؤلاء عن السلف

دور الدولة في الحفاظ على المخطوطات :

تهتم الحكومات بتراثها الحضاري والثقافي، وتعتبر من ركائز هذا التراث، ولهذا فانها تعمل على الحفاظ عليها من التلف أو الضياع ونقلها وطباعتها أو تحقيقها وشرحها والتعليق عليها بواسطة المتخصصين والعلماء

وقد ظهرت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى دور الحفظ للمخطوطات والارشيفات، وتقوم هذه الدور بتنظيم المخطوطات وجدولتها وفهرستها ومعالجتها كيماويا حتى لا تتعرض للتلف أو زوال مادة الكتابة، وقد أصدرت معظم دور الحفظ نشرات ارشادية مطبوعة للتعريف بالمخطوطات وتلخيص المادة العلمية المدونة عليها حتى يمكن للباحثين الاطلاع عليها بسهولة والافادة منها في مجالات البحوث المختلفة

ومن الجدير بالذكر انه في ميدان الاهتمام بالمخطوطات العربية انشأت جامعة الدول العربية «معهد المخطوطات العربية» وهو يضم معظم التراث العربي والوثائق الرسمية للدول العربية

كما أفادت الدول في العصر الحاضر من التطور التكنولوجي في مجال حفظ المخطوطات والوثائق، فاستخدمت أجهزة الكمبيوتر لحفظ مادة المخطوطات وما تحتويه من معلومات كما تقوم أجهزة الميكروفيلم بتصغير

حفظ المعلومات التى تشملها المخطوطات بطريقة منظمة، وبذلك تضمن الدولة عدم تلفها او زوال المادة المكتوبة عليها بفعل الزمن

وقد انشأت معظم الدول أجهزة رسمية للحفاظ على التراث الثقافي والحضاري متمثلا في ادارات الثقافة والتراث بوزارات الاعلام لرعاية كل ما يتعلق بالتراث الثقافي والحضاري

والى جانب المخطوطات فهناك مصادر أصلية اخرى للتاريخ منها

١ **سير الزعماء والقادة العسكريين**. وهؤلاء لهم دورهم في التاريخ، وقد استطاع بعض الباحثين تعقب دورهم في التاريخ ودونوا سيرهم وأعمالهم في مؤلفات خاصة تناولت كل ما يتعلق بهؤلاء الزعماء ومن امثلة ذلك سلسلة العبقريات التى الفها الاديب عباس محمود العقاد وتناولت حياة قادة المسلمين من الرسول محمد ﷺ الى ابى بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم جميعا

كذلك كتابات المؤرخين التي تناولت الشخصيات الوطنية وسيرهم من امثال المؤرخ عبدالرحمن الرافعي ومؤلفاته عن اعمال وسير الزعماء محمد فريد، ومصطفى كامل وسعد زغلول في التاريخ الوطني المصري

٢ - **المذكرات الشخصية لبعض المسئولين**، فقد يكتب احد الزعماء مذكراته فتصبح وثيقة للتاريخ بما تحويه من وقائع واحداث هامة، ومن امثلة ذلك ما كتبه زعيم النازية «ادولف هتلر» في كتابه «كفاحى» الذي تناول فيه مذكرات شخصية شملت نواحى تاريخية عن فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

٣ - **كتابات الرحالة** الذين سجلوا عادات الشعوب وتقاليدهم وما شاهدوه في رحلاتهم، مثل رحلة ابن بطوطة والادريسى والمسعودى وكتابات مكتشفى منابع النيل في القرن التاسع عشر وكلها وثائق للدراسة والمناقشة

فعالية استخدام مدخل الوثائق في تحصيل التاريخ :

قام الباحث بتجربة تدريس التاريخ باستخدام مدخل الوثائق التاريخية لقياس تحصيل الطلاب للمادة التاريخية من العام الدراسي ١٩٩١/٩ فعقد لقاءً تربويا مع معلمى المواد الاجتماعية، ووزع عليهم ورقة عمل تحتوى على نصين من الوثائق التاريخية، وشرح لهم الهدف والأسلوب الذي يمكن ان يتبع في تدريس التاريخ باستخدام مدخل الوثائق التاريخية

الوثيقة الاولى لكاتب لاتينى مجهول الاسم كان مصاحبا للحملة الصليبية الثالثة على الشرق العربي بقيادة ريتشارد (قلب الأسد) ملك انجلترا

والوثيقة الثانية للكاتب العربي عماد الدين الأصفهاني - كاتب صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية وهذا الموضوع «الحروب الصليبية على الشرق العربي» أحد الموضوعات المقررة على طلاب الصف الثاني الاعدادي ويتناوله الكتاب المقرر ص ١٠٧

تم اختيار فصول تجريبية (٨٠ طالبا) وفصول ضابطة (٨٠ طالبا)

والفصول التجريبية قام فيها المعلمون بتدريس الموضوع باستخدام مدخل الوثائق التاريخية طبقا لورقة العمل واللقاء التربوي، أما الفصول الضابطة فاستخدم المعلمون الطريقة العادية في التدريس

وبعد نهاية تدريس الوحدة (ثلاث حصص) تم تطبيق اختبار تحريري على الطلاب لمعرفة تحصيلهم التاريخي للموضوع

جدول رقم (١)

مجموعة تجريبية		مجموعة ضابطة		الفرق بين المتوسطين	قيمة ت	مستوي الدلالة
متوسط	انحراف معياري	متوسط	انحراف معياري			
٦١,٠٣	٩,٠٧٥	٣٨,٦	١١,٠١٦	٢١,٢٥١	٩,١٨	دال عند مستوي ٠٥ /

المتوسط الحسابي والانحراف المعياري وقيمة (ت) عند طلاب المجموعتين التجريبية والضابطة في الاختبار

ويتضح من الجدول رقم (١) أن قيمة (ت) دالة احصائيا عند مستوى ٠,٠٥ وهذا يعنى وجود فروق حقيقية بين المجموعتين في الاختبار لصالح المجموعة التجريبية ومن ذلك يمكن الاستنتاج ان الطلاب الذين درسوا باستخدام مدخل الوثائق التاريخية تفوقوا على الطلاب الذين درسوا بالطريقة العادية في اكتساب وتحصيل المعلومات التاريخية والمفاهيم الواردة في موضوع الدرس

ويمكن تفسير ذلك بأن استخدام

مدحل الوتائق التاريحية أصفى على موصوع الدرس حيوية وحدب ادتناه التلاميد كما كان من العوامل المتسحعة التى حعلت التلاميد يقبلون على دراسة التاريح، ومن ناحية أحرى فان مدحل الحقائق التاريحية يعتبر أيصا من العوامل المسحعة للتلاميد في قراءة موصوع الدرس من الكتاب المدرسى المقرر

ومن نتائح دلك يمكن القول ان تنطيم محتوى الكتب الدراسية ينبغي ان يحتوى على نصـوص ووتائق تاريحية في الموصوعات التى يتناولها ليكون أكتر فعالية في تحصيل الطلاب للمادة التاريحية، ومن ناحية احرى فان المعلم ينبغى ان يكون لديه الدراية والحبرة في استحدام مدحل الوتائق التاريحية في تدريس التاريح

مصادر البحث

١ ـ أحمد محمود صبحي فلسفة التاريخ الاسكندرية دار نشر الثقافة الجامعية ، ١٩٨٠
٢ ـ أحمد بهاء الدين إسرائيليات القاهرة المكتبة الحديثة ، ١٩٦٧
٣ ـ تقي الدين المقريزي إغاثة الأمه بكشف الغمة تحقيق مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٣٥٩ هـ
٤ ـ جمال الدين الشيال التاريخ والمؤرخون المسلمون ، القاهرة ، ١٩٦٦
٥ ـ حسن عثمان منهج البحث التاريخي ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٦
٦ ـ حسين مؤنس التاريخ والمؤرخون ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٨٥
٧ ـ عبدالرحمن الجبرتي مظاهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٦٨
٨ ـ عبدالرحمن بن خلدون المقدمة ، حـ ١ ، القاهرة المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ هـ
٩ ـ عبدالعزيز الدوري نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت دار النشر الحديثة ، ١٩٧٦
١٠ـ محمد أبو المحاسن عصفور تاريخ الشرق الأدنى القديم الاسكندرية ، دار نشر الثقافة ، ١٩٦٢
١١ـ نجيب ميخائيل ابراهيم مصر والشرق الأدنى القديم حـ ١ مصر ، جـ ٢ سوريا ، الاسكندرية ، ١٩٦٣
١٢ـ لا نجلوا وسينيوبوس النقد التاريخي ، ترجمة عبدالرحمن بدوي ، القاهرة الانجلو المصرية ، ١٩٦٣
١٣ـ و هـ ولسن المدخل الى فلسفة التاريخ ، ترجمة احمد حمدي محمود ـ القاهرة ، ١٩٦٢

الفم الانجليزى

29 Pissurlencar, P.S.S. (ed.), Assentos do Conselho do Estado, I, Bastora (Goa), Tipografia Rangel, 1953, pp. 32-3, 53

30. Monções do Reino mss volume at the DAAM, No. 13 (12), fls. 38-40; Bocarro, Antonio. Decada 13 da Historia da India, I, Lisboa, Typographia da Academia Real das Sciencias, 1876, pp. 81-2.

31. Bocarro, Decada 13, I, 33-6

11. Whiteway, R.S., The Rise of Portuguese Power in India, 1497-1550, Patna, Janaki Prakashana, 1979, pp 161-5.

12. Pearson, M.N. Coastal Western India, XCHR Studies Series No 2, New Delhi, Concept Publishing Co., 1981, p. 80, Chauhan, R R S, "The Horse Trade in Portuguese India", Purabhilekh-Puratava, Vol. II, No. 1, January-June 1984, Panaji, DAAM, (Directorate of Archives, Archaeology and Museum), Government of Goa, p 19.

13 Chauhan, art, cit., 19.

14 Barbosa, 58

15 Biker, Collecção, I, 40-5.

16. Ibid., 51

17 Correa, Gaspar, Lendas da India, Vol IV, Tomo I, Lisboa, Academia Real das Sciencias, 1864, pp. 271-5

18. Whiteway, The Rise of Portuguese Power, 281-2

19 Biker, Collecção, I, 101.

20. Pissurlencar, P.S S. (ed.), Regimentos das Fortalezas da India, Bastora (Goa), Tipografia Rangel, 1951, p 180

21. Ibid., 164 ff.

22. Ibid., 528, 530.

23. Provisões, Alvaras e Regimentos, mss volume at the DAAM, No 3028, fls. 141-2.

24. Pearson, Coastal Western India, 23.

25 Whiteway, The Rise of Portuguese Power, 174

26. MSS volume at the DAAM, No. 8788, fls. 97-8 Alvara of 18 3 1579

27. Ibid., No. 8792, fl. 146.

28. Reis Vizinhos, mss volume at the DAAM, No. 969, fl 89

NOTES AND REFERENCES:-

1. Barros, João de, Decacas da Asia, I, Lisboa, Academia das Sciencias, 1845, pp. 347-8

2. Pearson, M.N., Merchants and Rulers of Gujarat, New Delhi, Munshiram Manoharlal, 1976, p. 13

3 Biker, Julio Fermino Judice (ed.), Collecção de Tratados e Concertos de Pazes que o Estado da India Portugueza fez com os Reis e Senhores com que teve Relações nas partes da Asia e Africa Oriental desde o principio da Conquista ate ao fim do Secule XVIII, Lisboa, Imprensa Nacional, 1881, pp. 1-2; Castanheda, Fernão Lopes da, Historia do Descobrimento e Conquista da India Pelos Portugueses, Coimbra, Imprensa da Universidade (9 Livros, 1924-1933), Livro II, pp 347-66

4 Castanheda, Historia, II, 378-9.

5. Biker, Collecção, I p 1, note 1

6. Barbosa, Durate, Livro de Durate Barbosa, No. 3477 in the Pissurlencar Collection of Goa University, India, p. 30

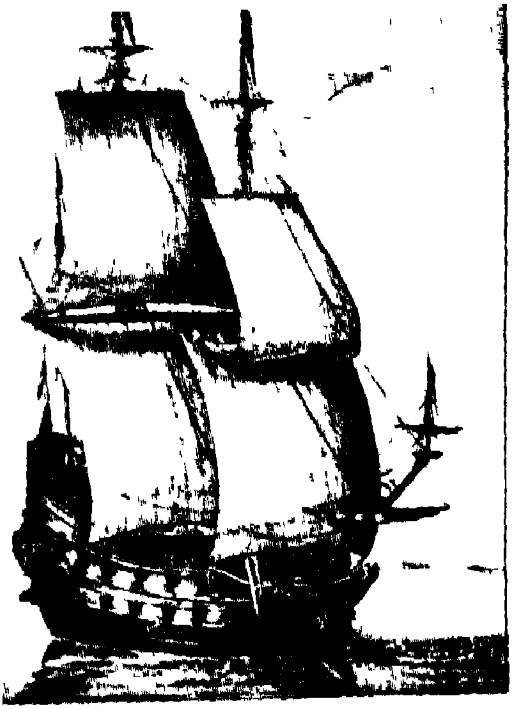
7. Ibid., 29-32; Castanheda, Historia, II, 337-9

8. Castanheda, Historia, II, 338.

9. Biker, Collecção, I, 27

10. Ibid., pp. 3-4.

a little over 100 years It was a story of brutality, high handedness, corruption and exploitation of the people of Goa and Hormuz It was also a story of the total disregard of the interests of their own king and state on the part of the Portuguese officials in Goa and Hormuz They placed their own private interests above the interests of the state No wonder that the Portuguese system was weakened and became an easy victim of the European rivals in the orient



as 46 war vessels to protect their cargo fleets Private trade in royal monopolies like horses and pepper also caused losses to the royal treasury and subsequent weakening of the defence forces and equipments What is more, in 1565 the well known Battle of Rakkasa-Tangadi took place in which the united forces of the Deccan rulers totally routed the mighty forces of Vijayanagara As a result the Portuguese lost much of their trade, particularly in horses, pearls, and silk And at the opening of the 17th century the Dutch and the British began to intrude into the trade of the Persian Gulf where the Portuguese used to enjoy a virtual monopoly In 1603 the Shah of Persia opened negotiations with the British offering them silk trade in return for help against the Portuguese Pending the outcome of the negotiations, the Shah also decided to invest 15,000 ashrafis in Goa in purchasing cinnamon, clove, nutmeg, pepper, etc. These were to be exchanged for silk without paying any customs or freight charges [31]

The negotiations opened with the British ended in cooperation between the two poweres The British helped the Shah of Persia in recovering not only Hormuz but also the neighbouring islands of Camerao and Kishm The Shah took over Camerao in 1615 This was followed by the occupation of Kishm And Hormuz itself was taken in 1622

Thus the Portuguese enjoyed a monopoly of trade between Goa and Hormuz for

the instruction that no alternative jobs be allowed to them until the king decided upon an exemplary punishment for them in the form of damages to the royal treasury [27]

A lot of cinnamon used to be brought to Hormuz from Ceylon via Goa under the cover of some quantity on the royal account and the whole lot of the contraband was sold in Hormuz at a great illegal profit to the private seller There were royal orders[28] to confiscate all cinnamon without royal or viceregal commission on arrival at Hormuz Yet the malpractice persisted There were opportunities for it whenever the Portuguese authorities decided to send Ceylonese cinnamon to Hormuz via Goa as it fetched a very good price at Hormuz For instance, the Viceroy-in-Council in Goa decided in 1619 to send 200 to 300 bharas of cinnamon to Hormuz.[29]

It is interesting to note that the Portuguese were some times forced to give up certain taxes or moderate them at H iz on being complained ag or protested by the loc erchants or their king For ample, during the secon decade of the 17th centur the Portuguese imposed a tax known as curujo or curagem on the Armenians, vassals of the Shah of Persia This angered the Armenians who were otherwise co-operative with the Portuguese They did not help the latter when the British or the Dutch opened hostilities against the Portuguese at Hormuz What is more, they caused a great loss to the Portuguese Custom House by taking their goods by the land route via Khandahar to the Mughals in India The king of Persia too protested strongly As a result the Viceroy-in-Council decided to suspend the imposition [30]

Corruption and prohibitive rates of duties proved to be a major cause of the decline of the Portuguese trade between Goa and Hormuz Piracy on the high seas was another cause The Portuguese had to employ in the 1520's as many

at low prices, selling to the horse traders the articles they needed at high prices This was in violation of the law that the horse merchants were free to purchase what they wanted in the open market at bargain rates [23]

At Hormuz too corruption was rampant on the part of the Portuguese A captain used to make Rs 60,000 during his tenure in the 1550's, and his successors could make in the subsequent decades much more, some even more than Rs 4,000,000 [24] The captains and other high officials always collected some illegal gratifications over and above the legal rate of customs and other dues Even when such additional charges were legalised, they would still collect some more. The only result was that the rate of duties went on increasing until they became prohibitive [25]

The ruler of Hormuz used to be harassed by influential Portuguese nationals and officials by taking from him horses and other commodities against his will by paying him very low prices or not paying the taxes due He used to complain to the king of Portugal who used to issue orders against such practices Yet the malpractice continued This was in spite of the heavy penalty provided for, namely, payment of four times the dues as fine, half of which went to the informer and the other half to the royal hospital in the city of Hormuz.[26] Of course, no share of the fine was given to the real sufferer, the king of Hormuz.

By 1603 corruption had reached such a stage that even the guardians of the royal interests converted themselves into thieves of royal properties The xabandar who was to keep the night watch on royal goods would take them away for sale without paying customs The alcaide of the sea who had been appointed to prevent such robberies merely joined hands with the xabandar to share the illegal gains On 2 February of that year the king of Portugal ordered the dismissal of these officers with

transfer that had taken place and asking them to obey the Portuguese

The year of the transfer of the Custom House yielded to the Portuguese a little over 108,930 ashrafis as customs receipts [20] And yet they had been demanding one lakh ashrafis a year from the ruler of Hormuz, ignoring his expenses

A viceregal ordinance of 1568[21] informs us that year the total income of Hormuz was 25 contos (25,000,000 reis) or about 83,333 ashrafis However, the expenses were much more By 1607 the total revenue had gone up to 57,600,000 reis (1,92,000 ashrafis) The major items of expenditure were the navy (4,079,100 reis or 13,598 ashrafis), to the ex-rulers as maintainance (4,263,840 reis or 14,213 ashrafis), and payment of salaries (11,447,000 reis or 38,157 ashrafis) [22] In fact, by now there was an improvement in the economic situation in Hormuz as far as the Portuguese were concerned. There were surpluses in their Hormuz budget

We shall now turn to consider one of the banes of the Portuguese economic system, namely, corruption and corrupt practices One of the serious problems in Goa was misbranding of horses coming from Cambay or Gujrat which were mixed with the Arab and Persian horses on the way to the interior beyond the Ghats and sold there as Arab and Persian horses This was done not only by the merchants who came beyond the Ghats, but also by Portuguese nationals themselves when they took horses to Vijayanagara, etc Confiscation of such horses and heavy fines whenever discovered did not amend matters as detection was occasional or bribery was taken recourse to successfully Another malpractice was on the part of the chief tanadar of Tiswadi He used to compel horse merchants to hire the stables and cupulas of his friends and charge half pardao as brokerage Influential men were found purchasing Arab and Persian horses

this treaty which provided for a high rate of tribute They therefore decided in 1529 to collect 40,000 ashrafis more from Hormuz without, however, violating any of the revenue receipts of the ruler of Hormuz [16] The total income now was thus to be one lakh ashrafis from Hormuz Simão Botelho, however, comments that nothing of the additional 40,000 was actually collected He points out that there was an arrear of more than 377,000 ashrafis by April 1539 To this was added a sum of more than 141,000 ashrafis which represented the arrear from 1539 to 1543 The total arrears by 1543 amounted thus to a little over 518,500 ashrafis

Again, the arrears were due to the corrupt practices of the Portuguese captains and their men They prevented large chnuks of revenues from reaching either the royal treasury of Portugal or of Hormuz. Nevertheless, they began to ill treat the ruler of Hormuz and when he protested he was declared mad and sent a prisoner to Goa [17] In Goa he complained to the Governor of the abuses meted out to him by the Portuguese in Hormuz But the Governor turned a deaf ear to the complaints for two years At last he was given a hearing by the chief judge The Governor then sent his secretary to Hormuz to find out facts But the secretary produced a report satisfactory to the Captain of Hormuz who bribed well not only the author of the report but also the Governor and others [18] The pitiable ruler of Hormuz was deprived of everything A fresh treaty was imposed on him in 1543 [19] The Custom House of Hormuz was ceded by him to the Portuguese He was acquited of all arrears of tribute A sum of 1,800 ashrafis a year was granted to him for his personal maintainance along with about 10,000 ashrafis for the payment of his officials, including the judge at the Custom House, and of his servants He confirmed the treaty by a farman, informing his subjects of the

silver and pearls worth 60,000 ashrafis of Hormuz This was 35,000 ashrafis more than the previously demanded tribute of 5,000 by Albuquerque, plus 10,000 by Governor Antonio de Saldanha The new increase was justified on the ground that the customs receipts had improved and the place was secure The sum of 60,000 ashrafis was to be paid at the rate of 5,000 a month in normal times However, if there was any war at Cambay, India, with which Hormuz had maximum trade transactions, and consequently the customs receipts of Hormuz were reduced, the additional 35,000 ashrafis were to be paid at the rate of 33 3% of whatever customs reciepts were there on the goods coming into the ports of Hormuz whether from Cambay or from elsewhere, and also on the articles coming by land from the mainlands of Persia, etc If the receipts were not adequate so as to pay the whole amount of 35,000 ashrafis, the ruler of Hormuz was not obliged to pay whatever balance was left Of course, the old tribute of 25,000 ashrafis had to be paid at any rate as before whatever the situation in Hormuz or Cambay (3) All other conditions agreed to with Albuquerque in 1515 were to continue to be operative (4) An additional provision was that the Muslims of Hormuz who brought goods on board Portuguese vessels were not exempt from custom dues as the exemption applied only to the commodities brought by Portuguese Christian nationals The word Christian' was included because there were Portuguese nationals who had become Muslims and these were debarred from any exemption of customs dues If any Portuguese Christian national tried to cheat by taking goods belonging to Muslims into Hormuz, he was subject to the payment of double the amount of duty, apart from being punished as a criminal by the captain of the fort

The Portuguese did not remain content for long with

his order to this effect arrived at Hormuz in 1521 The local ruler and his men resisted, but they were suppressed and the ruler of Hormuz was forced to hand over the Custom House A treaty was signed in this respect on 15 July 1523 [15] It contained certain conditions which had been allegedly agreed upon between Albuquerque and the then king of Hormuz, Sharafuddin, in 1515 One of the conditions was that Sharafuddin or his successors would not collect any customs on goods brought by Portuguese vessels to Hormuz from Portugal. Another condition was that the Portuguese would defend the kingdom of Hormuz against all its enemies with men, material and money Thirdly, the Hormuz ships were to be allowed freedom of navigation, but no ship was to sail into the Straits of Aden or to the Coast of Sofala Fourth, all foreign ships bringing merchandise to Hormuz and those foreign ships chartered by Hormuz merchants to transport goods would also be free, provided the relevant documents were shown Fifth, the caravans on land too were guaranteed safety Lastly, the Portuguese would treat well and in fact help whenever necessary with provisions, etc the Hormuz vessels found in high seas, the same treatment was expected by the Portuguese from the ruler of Hormuz also, and whenever Portuguese vessels arrived at Hormuz ports, nothing was to be taken away from them except on payment and the Portuguese too were to purchase at Hormuz ports whatever they required

However, this agreement of 1515 was violated, so the Portuguese accused, by the successor of Sharafuddin, who rebelled against them Hence the new treaty of 1523 with the new king, Mahammad Shah· (1) As agreed between Albuquerque and the then king of Hormuz, the latter would hand over Hormuz to the king of Portugal whenever demanded (2) Every year the ruler of Hormuz would pay a tribute in gold,

in the 1540's as many as 5040 were exported [12]

The price of a horse in Goa increased from Rs 600 in the 1520's to 300 to 1000 ducats in the 1560's. One historian mentions 3 horses for 1,000 pardaos in the 1520's Compared to this, the price of a horse in Hormuz was only 8 to 10 ducats One can imagine the vast profits involved in purchasing the animals so cheap in Hormuz, transporting them to Goa, and selling them at such a high price [13]

Though the horse was the main commodity that was exported from Hormuz to Goa, there were a number of other articles also sent to Goa The Hormuz ships brought considerable quantities of pearls, dates, dry grapes, sulphur and silk In return they took from Goa a lot of rice, sugar, iron, pepper, ginger and other spices and drugs The profits from horse and pearl trade were invested in these purchases in Goa [14] Of course many of the articles the Arabs purchased in Goa were not produced in Goa itself, but were brought to that place from coastal and interior Karnataka and other places

The Portuguese got a substantial income at Hormuz since 1515, but they were never satisfied Albuquerque had obtained £40,000 (1,20,000 ashrafis) from the ruler of Hormuz in 1515 by way of arrears of tributes since 507 As already mentioned, the amount of the annual tribute of 15,000 ashrafis imposed in 1507 had been raised to 25,000 ashrafis by 1512 Owing to the corrupt practices of the Portuguese the ruler of Hormuz never received the normal amount of customs and consequently he was unable to pay regularly or fully the annual tribute The Portuguese captain of Hormuz merely complained to his own sovereign that the ruler of Hormuz did not pay the tribute due, never mentioning about the corruption among his men (including himself of course) The king of Portugal decided to take over the Custom House and

South India so that in the ensuing competition to procure horses from Goa the trade would look up and greater profits would befall into Portugese hands In a letter of 27 November 1514 to the king of Portugal he pointed out that about 1,200 horses were being sold in Goa every year and that this number could be increased to 2,000, that the king of Vijayanagara liked to have Arab and Persian horses for his army which could be secured for him from Hormuz and Bahrein He also mentions that the tax on each horse that was purchased by non-Goan merchants was 50 parados, but the residents of Goa had to pay only 25 parados per horse, though this used to be 35 before he had taken over Goa [9]

After capturing Goa in 1510 and Malacca in 1511, Albuquerque planned to reconquer Hormuz and Aden in order to establish Portuguese control over the trade all along the Indian Ocean Littoral. In 1512, while recommending an ambassador of Hormuz to Lisbon, Albuquerque wrote that it would not be a burden at all on Hormuz to pay an annual tribute of 30,000 ashrafis [10] Early in 1515 he personally proceeded to Hormuz to invade it He demanded the arrears of tribute and restoration of the site which had been granted in 1507 for the construction of a fortress but had been given up subsequently [11] He got all that he wanted partly by intrigues and partly by force He did not live to conquer Aden

After the capture of Hormuz on this permanent basis its trade with Portuguese India increased considerably The number of horses exported from Hormuz to Goa alone rose from 600 in 1515 to 1,800 in 1520, threefold within five years. In Goa the custom receipts from horse trade were only Rs 9,900 a year between 1500 and 1510, it rose to 36,000 by 1523, and to Rs 1,26,000 by 1540's Each horse was charged Rs 75 while leaving Goa At this rate, in 1500 just 132 horses

where Every ship that came to Hormuz carried salt on its return voyage

Among the imports of Hormuz from Goa and other Indian ports must be mentioned pepper, clove, cinnamon, ginger, cardamum, precious stones, cloth, coconut and honey The port of Hormuz admitted ships of 400-ton capacity

In Hormuz all provisions were costly because nothing was produced there, except salt, and everything was brought from outside including potable water which came mostly from the mainland and the neighbouring islands However, all articles were sold according to a royal order and subject to taxes Cheating with the scale or any violation of the royal order led to severe punishments Gold and silver coins were minted and were available in abundance Large quantities of them were taken to Goa and other parts of India as they were in use there Ashrafis were gold coins, each one of 300 reis, more or less Larim was a silver coin with 60 reis, more or less [8]

Once Goa came under his control, Albuerque adopted the policy of monopolising the trade along the West Coast of India He sent out his fleets to compel all vessels from Hormuz and other ports of Arabian and Persian Gulfs to sail into Goa The ships which refused to do the bidding were attacked and captured with their crew and goods Goa thus received a variety of commodities in large quantities, including thousands of horses Vijayanagara, deprived of horse supplies through its own ports of Honavar, Bhatkal etc sought to procure all the horses coming to Portuguese Goa from Hormuz, paying annually a sum of 30,000 cruzados Albuquerque, however, rejected the offer as he did not wish to preclude enchancement of customs on horses in case the horse trade improved substantially in later years In fact he wished that the horse trade in Goa be kept open to other rulers of

the king of Portugal and paid an annual tribute of 20,000 ashrafis which were equal to 20,000 cruzados, (b) to pay 5,000 ashrafis to the Portuguese as war expenses, (c) to cede to the Portuguese a site they liked to build a fortress in which a factory too was to be established, and (d) to give the Portuguese a house near the site of the fortress until the latter was completed Albuquerque commenced the construction of the fortress, but could not complete it as differences arose between himself and the ruling chiefs War broke out and finally he sailed away to India

One contemporary chronicler[4] states that many vessels which used to come to Hormuz to trade, stopped coming there out of fear of the Portuguese as long as Albuquerque was there However, it meant that the ruler of Hormuz lost much of the revenues on which he depended to pay the Portuguese their tribute

Simão Bothelho tells us that Albuquerque returned Hormuz to its king on the condition that the latter would hand it over to the king of Portugal on demand and that the amount of tribute imposed was 15,000 ashrafis, not 20,000 He adds however, that the tribute was increased to 125,000 ashrafis 4 or 5 years later[5] Durate Barbosa agrees with Castanheda when he says that the tribute was 15,000 ashrafis a year [6]

Several contemporary Portuguese writers[7] inform us of the commercial activities of Hormuz It exported Arab and Persian horses in large numbers Some estimate it at 1,000 to 2,000 to Goa and other ports of India In Hormuz the price of a horse was as low as 8 to 10 ducats, but in Goa it fetched 300 to 400 pardaos The profit involved was thus enormous Hormuz exported also much of rock salt, pearls, silk, dates and sulphur Rock salt was produced in large quantities In fact this was the only commodity which Hormuz produced locally, other articles being imported from else-

they were called, had been driven away from coastal Karnataka by the king of Vijayanagara because they had ignored his order that they should not supply Arab and Persian horses to his enemies like the Bahmanis of the Deccan. The Navayats used to import a large number of horses from Hormuz, Mascat, etc to Bhatkal, Honavar and other ports of Vijayanagara However, instead of supplying these well bred animals to Vijayanagara they supplied them to her enemies in spite of warnings Angered, the king of Vijayanagara ordered that they be massacred The order was carried out, thousands were killed, but thousands escaped to Old Goa.[1] It is estimated that 3,000 to 4,000 horses were being imported into the ports of Honavar and Bhatkal every year from the Arab and Persian ports.[2] But the expulsion of the Navayats did not help Vijayanagara. The actual beneficiaries were the Bahmanis and later the Adil Shahis of Bijapur to whom the Navayats supplied horses from Goa to the total exclusion of Vijayanagara The cavalry being the backbone of any army in those days, Vijayanagara was thus deprived of the much needed horses Trade, religion and politics were thus mingled in these developments

It is an interesting coincidence that the conqueror of Goa, Afonso de Albuquerque, conquered Hormuz also In both cases his first conquest had been undone by the local rulers and he had succeeded in occupying them on a more permanent basis only with the second conquest Besides, both were occupied because they were commercially and strategically important Through Goa the Portuguese could control the trade along the west coast of India, and through Hormuz they could have a hold on commerce through the Gulf

Albuquerque captured Hormuz in 1507 and agreed to restore it to its ruler on the conditions[3] that the latter agreed (a) to be a vassal of

A CENTURY OF SEA TRADE BETWEEN PORTUGUESE GOA AND HORMUZ: 1510-1622 A.D.

BY:
DR. B.S. SHASTRY
PROFESSOR & HEAD,
DEPARTMENT OF HISTORY,
GOA UNIVERSITY, GOA, INDIA.

Both Goa and Hormuz were great centres of trade long before the arrival of the Portuguese and both had brisk commercial contacts with each other It was in 1472 or thereabout, that is, nearly 40 years before Goa fell into Portuguese hands, that the Navayats of the Honavar-Bhatkal region on coastal Karnataka had migrated to Hele The river port of Old Goa was located in this village on the southern bank of the Mandovi. The immigrant Navayats made Old Goa a much greater centre of trade than ever before The Navayats, the new comers as

19. Irfan and Roychoudhri, op. cit., p 146.
20. Tirmizi, op.cit , SAMG p 10
21 Sikandar, Mirati Sikandari ed S.C. Misra and M.L. Rahman, Baroada, 1961, pp. 309–10
22 Ali Muhammad Khan, Khatimai Mirati Ahmadi, Calcutta, 1930, p. 194.
23 Sternback, op. cit., XV, No 2, 1955, P. 115.
24 Irfan and Roychaudhuri, op.cit., p 413
25 Sternback, op.cit., XV, 1, p. 80.
26 Ibid , p. – 81
27. Irfan and Roychodhuri, op. cit. p. 412.
28 Ibid , P 417.

29. Margaret Mekay, Gulf Saga, Delhi, 1988, p 322.
30. S.A.I. Tirmizi, Indian Historical Vistas, New Delhi, 1980, p. 11
31 Shamsud Din, Maasiri Mahmud Shahi Ms, Common Wealth Relations Library No. 3841 ff. 7 b, 13b; Hajjiud Dabir–Zafarul Walih bi, Muzaffar Walih I, London, 1901, pp 137–39, R B Sergeant, The Portuguese of the South Arabian Sea, Oxford, 1963, pp. 41 –42.
32. Sharfud Din, Tarikh i Gujarat, Ms, Maulana Azad Library, Aligarh, No. 162, p 189, Shamsud Din, op cit., ff 35a – 36b
33. Tirmizi, op. cit., SAMG, p. 62.
34. Aziz Ahmad, Islamic Culture in the Indian Environment, OUP, 1964, p 49
35. Hajjiud Dabir, op. cit , I P 289
36. Tirmizi, op cit , SAMG p 71
37 Aziz Ahmad, op cit., p 50

REFERENCES

1. S.A.I Tirmizi, Some Aspects of Medieval Gujarat, (SAMG) Delhi, 1968, P-2.
2. A.T. Wilson, The Persian Gulf, London, 1950 p. 3; Ravindra Kumar, India and the Persian Gulf Region, Delhi, 1965 p.7.
3. Ludwick Sternback, Gujarat as Known to Medieval Europe in Bhartiya Vidya, XV, 2. 1955, P. 107.
4. R.A Jairajbhoy, Foreign Influence in Ancient India, Bombay, 1963 p. 3.
5. The Periplus of the Erythraean Sea, tr Wildfred H. Scoff, New York, 1910, p. 71.
6. Ravinder Kumar, op. cit, p 8
7. The Periplus, op-cit, p. 24.
8. ibid., p. 36; Hadi Hasani, A History of Persian Navigation, London 1928, p. 50.
9. Ibid., p. 36; E.F. Hourani, Arab Sea Faring in Indian Ocean Princeton, 1951, pp. 32-33.
10. ibid., p. 36, Hadi Hasan, op cit , p. 50.
11 K.A. Nilakanta Sastri, A Comprehensive History of India, II, New Delhi 1987, p. 445.
12. Sayyid Sulaiman Nadvi, Islamic Culture VII, 1933, p. 284.
13. Shaukat Ali Khan, Art, Indo-Arab Relations before Muhammad bin Qasim in P.M. Joshi and M.A. Nayeem (eds) Foreign Relations of India, Hyderabad, 1975, p. 138.
14 Muhammad Ibrahim Dar, Literary and Cultural Activities in Gujarat, Bombay, n.d. pp. 15-17.
15 Ibid., p. 18.
16. Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa, 1325-1354, London 1983 p. 229.
17. Irfan Habib and Tapan Roy Choudhuri, (eds.), The Cambridge Economic History of India I (c. 1200-C 175 A.D /Delhi, 1982, p. 146.
18 Ibn Battuta, op. cit., p. 229.

emporium of commerce in the Indian subcontinent through the efforts of the Gujarati merchants settling on the Gulf-littoral and the Gulf merchants settling on Gujarat's coast. This coveted emporium of commerce naturally became the first targt of the rising maritime commercial power of the Portuguese who by circumventing Africa had succeeded in diverting bulk of the spice trade from the traditional Gujarat-Red Sea and Gujarat-Gulf channels to the newly discovered Cape route thereby affecting the coffers of the Mamluks of Egypt, Ottomans of Turkey, rulers of Hormuz and the Muzaffarids of Gujarat whose common commercial interest brought them together in a naval confederacy against the Portuguese for supremacy in the Indian Ocean. The allies scored a victory against their Firangi Foe in the naval battle of Chaul but were defeated in the naval battle of Diu which was subsequently seized by the Portuguese from Bahadur shah of Gujarat. All subsequent Ottoman attempts to forge an alliance with the Muzaffarids ended in smoke because of the civil strife in Gujarat which resulted in the annexation of this much coveted emporium of commerce to the Mughal empire by Akbar and establishment of the Portuguese supremacy in the Indian waters which snapped the age-old Gujarat-Gulf commercial relations.

could have hardly cared about the fight between Bahadur Shah and Humayun but he was worried about the rising Portuguese power in the Indian Ocean The Portuguese occupied Diu in 1535 A D. and two years later invited Bahadur Shah to their ship and murdered him [36]

Suleiman the Magnificent sent a naval expedition to Gujarat in 1538 A.D under the Ottoman admiral Khadim Suleiman Pasha but failed to uproot the Portuguese because of the failure of Mahmud III (1537–54 A D) Suleiman the Magnificent sent second expedition but it was trapped and defeated by the Portuguese in the Gulf Two years later Sidi Ali Reis, the famous Turkish admiral, was sent to rescue the Turkish fleet from the Portuguese blockade in the Gulf and then to sail to Gujarat but his fleet too was battered by the Portuguese and driven by monsoon storms he reached Gujarat where he presented his credentials to Ahmad Shah II (1554–61 A.D.), successor of Mahmud III, but Gujarat continued to be deep in civil strife Finding that he would receive no effective reinforcement to continue his struggle against the Portuguese, he returned to Turkey by land [37] Taking advantage of the civil strife Akbar (1556–1605 A D) invaded Gujarat in 98 A H /1573 A D and annexed this much coveted emporium of commerce to the ever expanding Mughal empire

In sum, then Gujarat's overseas trade with the western world conducted through the maritime channels of the Red Sea and the Gulf date back to remote antiquity These commercial contacts were further augmented with the advent of Islam and got fresh fillip with the shifting of the capital of the Arab empire from Damascus to Baghdad establishing thereby closer links between the Gulf and Gujarat This commercial intercourse received fresh impetus with the establishment of Muzaffarid Sultanate in Gujarat which had by that time become a veritable

Gujarat [32]

In order to avenge the Portuguese defeat and also the death of his son Francisco de Almeida personally led a fleet up the coast of Gujarat on 12th December 1508 A D and after plundering and burning Dabul he turned to Diu where he found the remnants of the allies fleet and the *fustas* of Gujarat assembled near the port On 3rd February, 1509 A D there ensued a desparate naval battle in which the Portuguese scored a victory over the allies Amir Husain's fleet was completely broken up and Malik Ayaz patched up peace with the Portuguese [33]

In the meanwhile Selim I (1512–20 A D), the Ottoman Sultan, occupied Mamluk Egypt and Hijaz This introduced the prospect of a new powerful alliance against the Portuguese as well as greater control over the Indian Ocean for trade through the Red sea and the Gulf water-ways with Egypt and beyond Malik Ayaz, therefore, lost no time in congratulating the Ottoman Sultan on his conquest of 'Arabistan' About the same time the defeat of Ismail I Safawi at the hands of Selim I brought home to Muzaffar II (1511–22 A D) of Gujarat the importance of friendly relations with the Ottomans He threfore, took the first opportunity to congratulate Selim I on his victories in Iraq and Persia While the naval expedition sent by Suleiman the Magnificent, (1520–66 A D), successor of Selim I, was busy taking punitive action against elements hostile to the Ottomans in the Red Sea, Bahadur Shah (1525–37 A D) of Gujarat appealed to Suleiman for help against the Portuguese and Humayun [34] To avoid being captured by the Mughals, Bahadur Shah sent his treasury along with the ladies of his harem to Mecca, then under Ottoman control, under his minister, Asaf Khan [35]

Humayun had to withdraw under the pressure of Sher Khan (later Sher Shah) Suleiman the magnificent

bear the brunt of the rising naval-commercial power of the Portuguese who had circumvented the Cape route in 1497 A D The Portuguese wanted to control the lucrative Gulf trade route. In 1507 A D they sailed into Ras-Al-Hadd, at the mouth of the Gulf and took Hormuz reducing its suzerain Saifud Din to vassalage [29] Thus in less than a decade the Portuguese succeeded in diverting bulk of the spice trade from Gujarat-Red Sea and Gujarat-Gulf commercial channels to the newly discovered Cape route affecting thereby seriously the custom-houses of the Mamluks of Egypt, Ottomans of Turkey, rulers of Hormuz and Muzaffarids of Gujarat whose common commercial interests brought them together in their naval confrontations with the Portuguese [30]

The struggle for supremacy in the Indian Ocean commenced in 912 A H /1507 A.D when Qansuhul-Ghawri, the last Mamluk Sultan of Egypt, sent a combined fleet under Amir Husain Kurdi, Governor of Jeddah, and Salman Rais, Ottoman admiral, for extirpation of the Portuguese in the Indian waters The combined Mamluk-Ottoman fleet anchored at Chaul [31]

When Mahmud Begarah (1458–1511 A D) of Gujarat came to know of the arrival of this fleet, he rushed to Mahim It was about this time that he received a letter from the Wali or Governor of Hormuz describing the atrocities perpetuated by the Portuguese in the Gulf Mahmud Begarah, therefore, sent a flotilla of Gujarat under Malik Ayaz, Governor of Junagadh and Diu, to help the allies succeeded in inflicting a crushing defeat on the Portuguese fleet under the command of Lorenco de Almeida who was killed in the naval battle fought at Chaul in Ramadan 913 A.H/ January–February, 1508 A D This great naval victory against the Firangi Foe greatly enhanced the ever-increasing maritime importance of the Muzaffarid

age At Gogha port ships of pretty tonnage could drop anchorage and the cargo was transported to Cambay in small boats [22] Probably in 15th and 16th century A D this port became more important as Duarte Barbosa called it "the chief place of Gujarate, a large town with a good harbour [23] Diu under the able administration of Malik Ayaz had built itself up as an imporant port for Gujarat's oversea's trade while Surat under astute Brahmin Malik Gopi was awaiting destruction of Diu, in order to safeguard its growing prosperity based on the same maritime commercial intercourse through the Red Sea and the Gulf [24]

It was about this time that the island-emporium of Hormuz on the maritime Gulf route had become a centre of a miniature empire commanding the allegiance of the important entrepot of Muscat on the other side of the Gulf and stretching as far as Basra at the head of it Gujarati vessels, therefore, called at Hormuz and Muscat Gujarati merchants settled in the Gulf littoral much as they did in the Red Sea Abdur-Razzaq in the middle of the fifteenth century observed that the merchants of Gujarat went to Hormuz to trade with that port [25] Just as Gujarati merchants traded and settled freely on the Gulf littoral, Gulf merchants were welcomed all along the coast of Gujarat by the Muzaffarids [26] What is more significant is the fact that Gujarat imported bullion from the Gulf which yielded a rich bounty of precious metals It was one of the Gulf markets that Muzaffarids depended for the much needed currency [27] It is thus clear that Muzaffarid Gujarat stood in commercial relations with Kish, Basra, Baghdad etc and Hormuz [28]

IV

Muzaffarid Gujarat which had become powerful maritime kingdom and emporium of commerce in the Indian subcontinent was the first to

during this period, hailed from the shores of the Gulf [18] The cargoes desptached from Gujarat to the Gulf destined for Syria were generally transhipped at Hormuz, Kais or Bahrain into smaller vessels bound for Basra [19]

III

The tottering Tughluq empire was shaken to its very foundation by the invasion, of Timur in 1398 A D When the tide of the Timurid invasion rolled back, Zafar Khan, Tughluq Governor of Gujarat, assumed independence under the title of Muzaffar Shah and laid the foundation of the Muzaffarid dynasty in 808 A H/1405 A D The rulers of this dynasty encouraged commercial intercourse with the outer world Overseas trade and commerce, therefore, became a very important element in the total economy of the Sultanate of Gujarat [20] Sikandar Lodi (1489–1517 A D) is reported to have remarked that the significance of the Sultanate of Delhi rested on wheat and barley whilst that of Gujarat on coral and pearls as it had eighty four ports under its control It was the overseas trade that brought affluence to the kingdom of Gujarat Finding the tent of Bahadur Shah (1526–37 A D) made of *makhmal* and *zarbaft* of high order, Humayun (153–40 and 1555–56 A D) is reported to have remarked that the stuff was the result of Gujarat's supremacy on the sea [21]

Under the Muzaffarids there was general prosperity in overseas trade and this prosperity showed itself in the principal Gujarat ports, like Cambay, Gogha, Din and Surat The prosperity of Cambay had been legendary for centuries before it became the principal outlet to the Arabian Sea for the Muzaffarids of Gujarat but by the close of the 15th century A D the port had became moribund due to silting and sea going ships started using the roadstead of Gogha facing the Cambay harbour for anchor-

(634–44 A D) appointed Utman bin Abil as the Governor of Bahrain who sent a naval expedition in [14] A H/636 A D , under his brother Hakam against Tana (Thana) In the folowing year Hakam chose to attack Barwas (Broach) The local Hindu rulers resisted these naval expeditions with all their strength but welcomed the Arab merchants to settle on the coast of Gujarat as they contributed a great share to their coffers These Arab settlers intermarried and the children of such marriages came to be known as *bavasira* whose number rose to ten thousand when Masudi visited Simur (Chaul near Bombay) in 303 A H /915 A D These settlers included merchants from Oman, Siraf, Basra, Baghdad and other places [14] Istakhri who visited Gujarat in 950 A.D tells us that in Simhil, Sindan, Simur and Cambay there were cathedral mosques wherein Arabs performed their rites publicly [15]

The Arabs made several naval inroads into Gujarat but did not succeed It was Alaudin Khalji, who soon after occupying the throne of Delhi annexed Gujarat to his empire in 696 A H 1296–97 A D Khaljis and their successors Tughluqs ruled over Gujarat through Governors under whom Gujarat's commercial relations with the Gulf received a fresh fillip Ibn Battuta Arab World trotter visited Cambay in 1342 A D He describes the city as one of the finest in regard to the excellence of its construction and the architecture of its mosques This was due to the fact that the majority of its inhabitants were foreign merchants who always built fine mansions and magnificent mosques vied with each other in doing so [16]

It has been asserted that Gujarat trade through the Gulf during this period was at the low ebb compared to that through the Red Sea [17] There is, however, evidence to indicate that a high proportion of foreign merchants who settled down on the coast of Gujarat

nearer our times we find that ancient Mesopotamian states like Babylonia exploited the Gulf for trading with India During the centuries following the Christ, the Romans preferred the Red Sea route to India due to rivalry with Persia [6] In the middle of the first century A D ivory was shipped from Baryagaz (Broach) to the Gulf [7] Indian sandal wood, teak wood, timber, logs of black wood (sesame and ebony) and copper were exported from Baryagaza to the ports of the Gulf [8]

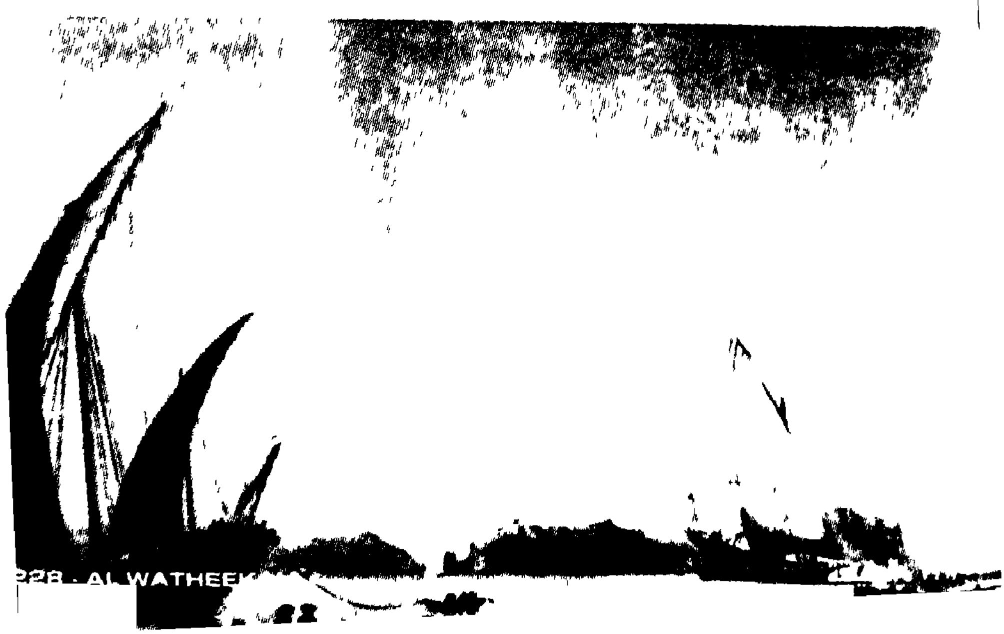
The Arab traders frequented the coastal towns of Gujarat as navigators and traders. The Arab merchant ships conducted regular commerce between Baryagaz and the market-town of Muza, at or near modern Mokha in the Red Sea In the Gulf Apologus on Eupharates and Muhammarah or Charaz Spasini on the Shattul Arab were the chief centres of trade [9] Oman, on the southern coast of the Gulf commanded a large ship-building industry and all the three towns of the Gulf exported pearls, dates, wine, gold and slaves to Baryagaza and Arabia [10] Minerals like realgar and orpiment (red and yellow sulphides or arsenic) were shipped from the Gulf to Baryagaza Realgar and orpiments were principally used as a mineral paints [11] Merchandise from Gujarat was carried to the Gulf port of Al-Ubulla (Basra) Copperwares were shipped from Baryagaza to Al-Ubulla as commodities for export [12] Indian merchants regularly frequented the Ports of the Gulf It is, therefore, not surprising to find that long before Islam, there developed Indian merchant settlements in the Gulf This is borne out by the fact that the Arabs called Al-Ubulla Ardul Hind or Indian land and *Farjul Hind* or Indian Passage[13]

The rise of Islam in the first half of the 7th century A D and the subsequent conquest of Syria and Persia were significant events for the Gulf The second Caliph, Umar

The Gulf is a land-locked sea extending in a south-easternly direction from Iraq to the straits of Hormuz To its east lies the Gulf of Oman and the two Gulfs constitute geophysical unit. The Gulf of Oman opens into the Arabian Sea The voyage from Hormuz to Cambay took over a month [2] Sailing from the mouth of the Gulf to Gujarat made a direct crossing of the Arabian Sea skirting Gujarat. Gujarat's trade with the western world flowed through the two established maritime conveyor channels. One through the Red Sea, Cairo and Alexandria and the other through the Gulf up to Basra, Baghdad and Alexandria [3]

Gujarat and the Gulf have had commercial contacts dating back to remote antiquity as is borne out by archaeological and documentary evidence. Gujarat came into contact with the Tigris-Euphrates region in very early times. The nature of relationship between Lothal (site of Gujarat of the Indus Valley Civilization) and Mosopotamia seems to have been mainly commercial as is evident from the back of the seal (used on bales of goods) which preserves its imprint.[4]

In the 4th millinium B C. cotton was exported from Gujarat region by sea to the head of the Gulf and then it found its way to Egypt [5] Coming



GUJARAT – GULF RELATIONS (1405 – 1573 A.D)

BY
PROF: S.A.I. TIRMIZI

Unesco Consultant
Former Director –
National Archives of India
NEW DELHI

Situated almost in the middle of the Western coast of the Indian subcontinent, the state of Gujarat is washed by the waters of the Arabian Sea which penetrates into the peninsula at a number of places endowing it with excellent ports which went a long way in developing its oversea's trade. The hilly tracts bordering throughout the eastern side of the state reared very thick forests, rich in wood of many varieties. These building materials were easily transported to the coast by the rivers and the surplus materials exported to distant parts of the world. Thick forests, rich cotton and indigo growing hinterland and easy access to the sea helped the people of Gujarat in converting their homeland into an emporium of commerce.[1]

come about overnight because, in a sector like this, it takes a great deal of effort to bring about a change even though the possibilities are great If ,however, we dream of the archives in the Arab world being given a degree of priority then a beginning would have been made on the road to progress to achieve better standards Perhaps, the position of the Arab Regional Branch of the International Union augurs well for an attempt at benefitting from modern contributions in advanced archives for mobilising Arab experience in this field which will act as a fresh launching pad for the Arab archives to take off once again pulsating with new life From another angle there is an acute need for the various Arab archives to interact with one-another in the interests of continuity No doubt there are some newly-established archives in the Gulf region even as it is beyond question that the dimensions of cooperation between them have not only been successful but exemplary. It would be more fruitful and productive if such cooperation could extend to all archives situated in the Arab region As I have said earlier the Archives develop and progress by give and take Further, there are two other matters of great importance which need to be debated at various levels,

Firstly, the ways by which the enormous quantities of documents present in foreign archives can be tapped or at least microfilmed. Secondly, to keep up the process, already started of benefitting from the Ottoman documents whose numbers are considerable Finally, it cannot be too strongly emphasised that what is most important is that verbalism and talk should yield place to implementation and action

Abdullah Bin Khalid Al Khalifa

has been a theatre of important events and developments throughout the course of history.From another angle the Ottoman Empire was a considerable international power in the reckoning of the history of the area and what is more, it preserved its archives in its castles boasting of a great hoard of documents

What is more strange is that a great quantity of archival material relating to the region was transferred, stolen or found its way into foreign archives.Curiously though the Arabs pioneered the archival art in the course of their illustrious history, today, their archives or most of them need to be in great need of organisation if they are to compare with foreign archives Moreover millions of important archival documents in the Archives of the Middle-Eastern Region remain consigned to their vaults instead of their being put to good use which is the intended goal

This, as I stated earlier, was the subject of discussion in the Tunis meet and it was inevitable that its results and findings should take certain undesirable trends or patterns posing a standing challenge to those concerned with this profession A large number of students and scholars in the Arab region throng the foreign archives to seek information and documents about their own lands whereas work in the archives has come to be associated with a pall of gloom No sooner one hears of a person working as an official in the archives that a picture emerges in front of him of a weary and disconsolate individual, a picture of a great many of our youth who have studied this art or adopted it as a profession

We do not naturally envisage that a miraculous change would

day.Though some branches of human activity have a limited scope, effect or utility the archival endeavour has necessarily to be universal in its scope, effect or utility.This is because there is much give and take in its development It offers its services, by the very nature of its functioning, without inhibition, direction or dictate If the current age has witnessed phenomenal strides in scientific achievements the archives have received their due share too The adoption of modern methodology in the thought-process alongwith recourse to modern gadgets as a means have indeed led to a colossal progress in storing an unbelievable amount of material in a remarkably small space enabling the pioneers in this field to serve information required with ease and speed over vast distances and on a wide scale on this globe of ours

The question which naturally arises here is as to how do the Arab a chives fare in this scheme of things?

This was the pivotal subject of study at a conference held recently by the Arab Regional Branch of the International C ouncil of Archives in the Tunisian republic This was and continues to be the main fulcrum of discussion whenever the archivists in the Arab world happen to have a dialogue with scholars and researchers from different disciplines.

Strangely it is Arab history which affirms that the Arabs were in the forefront of those who conceived of this art, assigned importance to it, organised it, developed it and introduced many innovations in it to update it.It is also strange that the archival material related to the region is considered the most prolific in the world both because the Arab world has a long history and it

IN THE NAME OF GOD THE BENEFICENT, THE MERCIFUL

Arab Archives Between Innovative Forbears and Neglectful Descendants

by

H .E. Shaikh Abdullah Bin Khalid Al Khalifa

If history is a memoir of nations the archives are a reservoir of history. The archives were and continue to be an important source of knowledge and information They are an abundant source-material for scholars and researchers to draw upon for basic information to build on,as they keep the wheel of life moving to usher in a better future for man wherever he may be.The archives have preserved for us enormous quantities of information on the innovative products of human intellect even as they have bequeathed to us greater amounts of documents, narratives of campaigns and raw material for a great many events marking the human march on this planet ever since he conceived this art, developed it and disseminated it to this

ENGLISH SECTION

ENGLISH SECTION

CONTENTS

Arabic Section

Magazine Committee

AL WATHEEKAH

Devoted to The Heritage, Thought and History of
Bahrain And The Gulf

Bahrain P B 28882

Telephone — Historical Documents Centre — 664854

All Correspondence to be Addressed to The Editor-in-Chief

AL WATHEEKAH

A Half-Yearly Journal Published by

The Historical Documents Centre

The State of Bahrain

ISSUE No. 22 - 11th YEAR
RAJAB, 1413 A.H - JANUARY 1993 A.D

IN THE NAME OF GOD THE BENEFICENT, THE MERCIFUL

بسم الله الرحمن الرحيم

الوثيقة

دورية نصف سنوية
تصدر عن
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد الثالث والعشرون - السنة الحادية عشرة
المحرم ١٤١٤هـ - يوليو ١٩٩٣م

الوثيقة

لجنة المجلة

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة

الدكتور علي أبا حسين

العنوان : مركز الوثائق التاريخية ص ب ٢٨٨٨٢
تليفون ٦٦٤٨٥٤
جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير

الفـــــــــهرس

القسم الانجليزي

صورة الغلاف :

من وحي القرية

للفنان البحريني عباس الموسوي

جميع الابحاث المنشورة في هذا العدد تمثل وجهة نظر كاتبها

(الوثيقة)

كلمة العدد

بقلم سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

نحو موسوعة كبيرة لتاريخ الخليج

بدات ومنذ اكثر من عشر سنوات حركة نشطة في كل دول الخليج للاهتمام بالتاريخ والتأريخ على السواء وقد أسست في هذا الاتجاه وبدعم من الحكومات الكثير من المراكز التي جعلت همها الأول جمع اكبر عدد من الوثائق من كل مكان ومن خلال مراكز الوثائق التي انتشرت على الساحة وفي اطار الجهود التي بذلتها صدر عدد من المجلات المتخصصة التي اسهمت بدور كبير في عرض هذه الوثائق وفي تنشيط حركة الكتابة التاريخية ، وفي خوض الكثير من المناطق المجهولة في تاريخ المنطقة القديم والحديث على السواء وقد اختطت هذه المجلات لنفسها دربا واضحا بدات رحلتها فيه متعاونة ومتازرة وقطعت فيه شوطا لا بأس به إذ استطاعت أن تكتسب عددا كبيرا من المؤرخين العرب والأجانب أعادوا عرض الأوراق وتحليلها ومعالجتها وطرح آراء جديدة ووجهات نظر جديدة وتحليلات جديدة لمعظم ما دار على الساحة من أحداث وكان هذا العمل الكبير تحركا طيبا في اتجاهين إتجاه يقدم المادة الخام للباحثين المحترفين والجدد ليقوموا بدورهم بمعالجتها واعداد ابحاث عنها وتزويد هذه المجلات بها في الاتجاه الثاني ولكن بعد هذه السنين الطويلة في العمل والاجتهاد والبحث والطرح نعتقد انه آن الأوان للانتقال الى المرحلة الرئيسية والهدف

الكبير الذي بدأ هذا الجهد اصلا من أجله وهو في اعتقادنا إعداد أو الاعداد لموسوعة تاريخ الخليج لتكون مرجعا اساسيا ورئيسيا لتاريخ المنطقة يحتل مكان الصدارة والاولوية أمام الباحثين في تاريخ المنطقة وربما كان الدافع الرئيسي وراء ذلك هو ان المراجع «العمدة» في هذا الصدد كانت وما زالت موسوعة لوريمر ومجمل الوثائق البريطانية .
وعلى الرغم من الفائدة التي قدمها هذان المصدران إلا انهما سيظلان دون جدال مصدرين تحوطهما بعض التحفظات فقد أعدا باقلام من خارج المنطقة وانطلقا في كثير من الأحيان من رؤية مختلفة ووجهات نظر حاصرتها في وقت او آخر بعض الظروف التي لا يستطيع إنسان مهما حسنت نيته أن يقول انها اتاحت أو تتيح لهما الحيدة الكاملة والمتوقعة من مصدر رئيسي لمثل هذا الموضوع الهام

والمشروع المطروح في اعتقادنا يجب أن يكون جهدا خليجيا مشتركا يبدأ وينمو تحت عباءة مجلس التعاون الخليجي عن طريق تشكيل لجنة تنبثق عن الأمانة العامة يضم اليها عدد من المؤرخين والمهتمين وذوي المقدرة على العطاء في هذا السبيل تتولى هذه اللجنة وضع الاطار العام للموسوعة ثم تتولى تشكيل لجان اخرى فرعية لجنة في كل دولة من دول الخليج وفي تصوري أن الاطار المطروح يمكن أن يبدأ من بداية الحضارة السومرية وهي البداية التي يتخذها معظم علماء الحضارة نقطة الانطلاق لكتاباتهم حول تاريخ العالم القديم . وان يخصص القسم الأول من الموسوعة لتاريخ الخليج بدءا من حضارة سومر وحتى ظهور الاسلام ويخصص القسم الثاني لتاريخ الخليج خلال الدولة الاسلامية بدءا من عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحتى تصفية الخلافة العثمانية ويخصص القسم الثالث لتاريخ الخليج في العصور الحديثة ويبدأ من بداية تشكل الوحدات السياسية ونشأة الدول في الخليج مستعرضا للهجمات الخارجية بدءا بالهجوم البرتغالي وصراعات الدول الأجنبية ويبدأ القسم الرابع في عرض تاريخ دول الخليج بعد الاستقلال حاشدا لمعالم النهضة الحديثة ولمجمل المعطيات في كل المجالات وهو القسم الذي سيظل مفتوحا لتضيف اليه الأجيال القادمة ما يتحقق على الساحة من انجازات وما يطرأ عليها من تطورات على أن يقسم كل قسم من هذه الأقسام الى مراحل وفترات يخصص لكل منها جزء أو أكثر حسب اهمية وحجم الأحداث فيه وتوزع

هذه الموضوعات على الأجهزة العلمية والجامعات في كل دولة من دول الخليج من خلال اللجنة الفرعية في كل منها على أن تتجمع الأبحاث لدى اللجنة الرئيسية التي تباشر في طباعتها بعد مراجعتها على أيدي متخصصين

ذلك هو في تصوري الاطار العام للاقتراح المطروح وهو أمر ليس مستحيلا وليس صعبا فالجهود التي بذلت في هذا الصدد كثيرة ولكنها مشتتة والاقتراح يؤدي الى تنظيمها وترتيبها ووضعها بين دفتي كتاب كبير يكون مرجعا رئيسيا ومعتمدا أمام أجيال الباحثين ويكون سجلا محايدا ومعتمدا لتاريخ المنطقة يطمئن اليه الباحث ويثق فيه الدارس ويرجع اليه كل كاتب في تاريخ المنطقة

عبدالله بن خالد آل خليفة

التفكير الحضاري

في ضوء إشكالية العلاقة بين

قدمت في الجزء الأول من هذه الدراسة الى الموضوع بمقدمة مسهبة اوضحت من خلالها حقيقة العلاقة الاشكالية التي تحكم طرفي الثنائية المثال والواقع ، باعتبارها اشكالية اساسية في تجربة الانسان العربي والشرقي بوجه عام ، ومنها استمد الانسان في هذه المنطقة الخليجية نظرته الاشكالية للوجود ولانها اشكالية ثنائية أساسية وشمولية فقد كانت الجذر المولد لعدد غير متناه من الاشكاليات الثنائية التي تعكس بدورها طبيعة الاشكال بين الواقع والمثال

وقد تركز الجزء الأول ، بعد هذه المقدمة ، على تبيان صورة المثال باعتبارها مجموع القيم العليا والخصائص النفسية والفكرية والجمالية والسلوكية المستقرة والثابته نوعاً ما نظراً لترسبها في قاع تجربة الانسان وذاكرته الاولى في منطقة بلاد الرافدين القديمة التي امتد اثرها الى حضارة دلمون . وكانت ملحمة جلجامش الشهيرة تمثل واحدة من ابرز التجليات الحضارية التي التقى في حضنها الفلسفي والجمالي طرفا تينك

في البحرين

المثال والواقع ٢

بقلم الدكتور علوي الهاشمي

الحضارتين العريقتين منذ فجر تاريخهما المشترك وبرزت من خلالها صورة المثال وعلاقته الاشكالية بصورة الواقع على احسن وجه وفي اجمل صورة . وقد اختزنت الذاكرة الاسطورية لدلمون القديمة هذه الصورة في فكرة الخلود التي كانت البحرين او دلمون في واقعها وصفاتها صورة مختزلة لها باعتبارها «ارض الخلود» .

وفي هذا الجزء الثاني والأخير من الدراسة اتناول صورة الواقع باعتباره الوجه الآخر للمثال والمتجادل معه عبر علاقة اشكالية متفاعلة تجعل من الطرفين حالة وجودية مشتركة اقتضت منهجية البحث وحدها وضرورات النشر هذا الفصل التعسفي بينهما كما كانت الرغبة في الاختصار ، وراء تلك العملية الانتقائية لبعض عناصر الواقع بهدف فحصها وتوظيفها لخدمة اهداف البحث ، بالقدر الذي يكشف عن بقية العناصر الأخرى في سياقها العام ، راجياً ان تتاح فرصة أخرى لتناول هذه العناصر او بعضها في بحوث ودراسات قادمة .

«المؤلف» .

ثانياً: إشكاليّة الواقع

حين نقول « الواقع » نعني بذلك وجهي العملة معاً الجغرافيا والتاريخ ، أو المكان والزمان والاشتقاق اللغوي الذي تتقلب فيه لفظة « الواقع » أوضح دليل على اتصال ذينك الوجهين واشتقاق الواحد من صلب الآخر في عملية تحويلية لا تكاد تنتهي فالواقع اسم فاعل مشتق من الفعل (وقع) بمعنى حدث فهو حادث (أي تاريخ أو زمان) لكل واقع أو واقعة تقع فيه (أي موقع) وطريقة تقع بها فيكون لها بذلك (ايقاع) ، وانتظار وقوع حدث ما في مكان ما هو عملية (توقع)

ويمكن متابعة هذه السلسلة التحويلية الاشتقاقية اللغوية المتصلة بمفردة (الواقع)[٨١] لنجد انها أشبه برمي قطعة نقود في الفضاء أو تقليبها في اليد على وجهيها دون توقف ، بحيث نلتقي دائماً بالجغرافيا أو السكون أو المكان أو الاسم على وجه ، وبالتاريخ أو الزمان أو الفعل أو الحركة على الوجه الآخر ، وإن كان الوجه الواحد منهما يتخذ له في كل مرة طوراً جديداً مرتبطاً بعملية التقليب والاشتقاق والتحويل نفسها ، وهي في حقيقتها عملية تنظيمية (ايقاعية) لعلاقة كل من الوجهين بالآخر ، لذلك فهي (العملية التنظيمية الايقاعية) متفرعة منهما متزاوجين فكل الاشتقاقات اللغوية لمفردة (الواقع) هي نتاج لتزاوج الاسم بالفعل اللذين اختلف اللغويون في أولوية أحدهما على الآخر في اطار اللغة العربية

وهو تزاوج يعكس ترابط سلسلة طرفي الثنائية (الواقعية) ذات الطابع الاشكالي حتماً الزمان ، التاريخ ، الفعل ، الحركة ، الانسان (مقابل) المكان ، الجغرافيا ، الاسم ، السكون ، الطبيعة

واذا ما تذكرنا مقولة ان التاريخ في حقيقته عبارة عن جغرافيا سائلة متحركة ، وان الجغرافيا بالمقابل عبارة عن تاريخ متجمد ، ساكن ، فإنه يمكن حينئذ أن ندرك حقيقة العلاقة بين طرفي تلك الثنائية في سلسلتها الطويلة انها علاقة اشكالية ومن الطراز الأول ، بحيث ينتفي (المطلق) تماماً كصفة ملازمة لأي من أطراف سلسلة الثنائية ، إذ

يبدو كل شيء سبباً ومنعكساً عن الطرف الآخر المتشاكل معه في نفس الثنائية فلا تاريخ بلا جغرافيا ، ولا زمان بغير مكان ، ولا فعل بغير اسم (فاعل) ، ولا حركة لا يتخللها السكون ، ولا طبيعة إلا وتخلق من رحمها الانسان

والعكس صحيح أيضاً في استعراض مقلوب لهذه السلسلة الطويلة الداخلة كطرفين في ثنائية الواقع الاشكالية الجغرافيا والتاريخ [٨٢] وهي اشكالية شاركت في صياغتها والتقاطع معها ، كما بينا وكما ينبغي هنا التذكير به ، اشكالية ثنائية سابقة يدخل فيها « المثال » طرفاً مع « الواقع » وهذا ما يجعل الثنائية أكثر اكتنافاً وتبلوراً ، كلما أمعنا في كشف ثنائية الواقع بطرفيها (المتشاكلين) والتي تتقاطع معها في عقدة اشكالية مشتركة

انما يمكننا ، هنا ، أن نصوغ تصورنا النظري لدائرة المحيط بأكملها

[بما فيها تركيبة الواقع وعلاقتها المتنامية دائرياً ، والتي يحتل فيها « المثال » نقطة الارتكاز ، بما يقود (في نقطة انغلاق المحيط أو اكتمال الدائرة) الى ابراز البنية الثقافية التي تخرج من شجرتها ثمرة الفن كتمثيل أخير وشاهد حي على اكتمال دائرة المحيط]

يقسم الواقع بوجهيه التاريخي والجغرافي محيط الدائرة ـ الى مسارين ـ يلتقيان في النهاية عند اكتمال شكل الدائرة في (ثمرة الفن) الموازية (لجذر الواقع) في نقطتين على المحيط ، الأولى تمثل البنية الفوقية الناتجة عن الثانية وهي البنية التحتية ، مشكلين بذلك ثنائية في غاية العمومية طرفاها (الواقع والفن) لها اشكالياتها الكبيرة التي تولد بدورها اشكاليات أكثر خصوصية كما سنرى ، يختزلها جميعاً في نقطة الارتكاز أو النواة الابداعية (صورة المثال) في شكل خصائص نفسية وذهنية وفنية ، خاصة وعامة ، داخلية وخارجية ، متحركة وساكنة الخ ولا عجب في ذلك فالمثال كما ذكرنا وأوضحنا من قبل ، تلك النواة الابداعية الحية ، يمثل نقطة (التقاء وتوزيع) جميع الثنائيات واشكالياتها انه التربة الحية التي تختزل تركيبة الواقع وترهص بها في نفس الوقت ، مفصحة عن امكانية صياغتها (تركيبة الواقع) ، عبر ملكة التخييل الخلاقة ، صياغة فنية مبدعة

وهكذا ، كما يرى كريستوفر كودويل

« تتطور الفانتازيا كنوع المتمم الملازم للفعل الذي يخلقها ويتسبب في

وجودها بدوره ثم يحلقها في شكل اغنى كما أن الممارسة ادا ما اغنيت ، تصحح توقعات الفانتاريا وتجعل الوصول الى مستوى حديد من الانحار ممكناً » (٨٣)

وكما ينقسم كل من طرفي تركيبة الواقع الى مفاصل joints كبيرة متنامية في تطورها ، حسب طبيعة الحركة في كل طرف (فهي مسرعة تاريخياً ، بطيئة نسبية ، جعرافيا) ، فإن هده المفاصل بدورها تتورع على عدد من العناصر Elements ، المتعددة والمكونة بين متنامية فيما بينها ، مما يساعد المفاصل نفسها على تأدية حركة عضوية واحدة تمثل في النهاية شكل الدائرة الهندسي الموضح لتركيبة الواقع (المحيط) ومكوناته وعناصره ونقاط ارتكازه واطراف ثنائياته الاشكالية ، الى غير دلك مما تعكسه بنية التجربة الاساسية بشمولها في أي مجتمع من المجتمعات

ويمكن ابرار العناصر المكونة لكل مفصل من مفاصل طرفي ثنائية الواقع التركيبية على النحو التالي ، قبل الشروع في عرض بعض تفاصيلها وتحليله

أولاً تركيبة الواقع

١ ـ التركيبة الجعرافية

أ) البيئة الطبيعية
- عنصر الصحراء
- عنصر الرراعة
- عنصر البحر

ب) المناخ
- الحرارة
- الهواء
- الرطوبة
- حالات الطقس والفصول

ج) الموقع الجعرافي
- استراتيجية الموقع (التجارة ، ملتقى الحضارات ، الانفتاح)
- التكوين الجيولوجي (الانخفاض ، الخلاصة)
- خصائص الموقع (التوسط ، البعد ، العزلة)

د) البيئة الاقتصادية
- الرعي
- الرراعة
- صيد اللؤلؤ
- صيد الأسماك
- التجارة
- النفط والصناعة

٢ ـ التطور التاريخي

أ) القبلية
- الاستقرار الحضري
- التنقل البدوي
- اشكالية الحضارة

ب) الدين
- الأديان والمعتقدات ما قبل الاسلام
- الدخول في الدين الاسلامي
- المذاهب الدينية
- اشكالية العصبية بين الدين والقومية

ج) النظام السياسي
- الاستعمار
- التبشير
- الحركات الوطنية

د) تركيبة المجتمع
- الوضع الطبقي
- برجوازية الأعيان
- البرجوازية الصغيرة
- الطبقات الكادحة

- اشكالية التعدد الطبقي

هـ) البنية الثقافية

- التعليم
- المؤسسات الثقافية
- الصحافة
- الحركات الأدبية

● اشكالية منهجية

وقبل أن نعرض بالتفصيل لبعض عناصر تركيب الواقع المذكورة ضمن مفاصلها الكبرى جغرافياً وتاريخياً، ينبغي الاشارة الى اشكالية منهجية أخرى تعترض طريق بحثنا في هذه النقطة بالذات، الآن.

ان دائرة المحيط (تركيبة الواقع) من السعة والتنوع والشمول والتداخل بمكان، بحيث يصعب على مثل بحثنا المحدود بموضوعه وامكاناته وأدواته المنهجية، أن يحيط بها ويكتشف عن قوانينها البنيوية الجزئية والكلية، خاصة وانها (دائرة المحيط) تتسع زمانياً لتصل الى فجر التاريخ أو ما قبله، كما تنداح مكانياً لتصل أحياناً الى تاريخ المنطقة جميعها.

وهذه مهمة لا يمكن أن يضطلع بها إلا فريق أو فرق من الباحثين والمؤلفين والدارسين وفي مختلف الاختصاصات والاهتمامات وبأدوات منهجية متباينة ورؤى متعددة وهي بذلك مهمة أوسع من حدود بحثنا، كما ذكرنا، الذي لا تطالبه طبيعته القيام بها قطعاً.

هذا يعني اننا لن نقف وقوفاً متساوياً على كل الحلقات المذكورة المكونة لسلسلة تركيب الواقع، كما اننا سنغض الطرف بصورة خاصة عن العناصر «غير الاحتكاكية»، إن جاز التعبير، التي لا تدخل في ثنائيات اشكالية متبلورة، وان هي احتفظت بقوتها الاشكالية الكامنة، أو عدت من قبيل ما يبدو انه المادة التي «قد منيت بخسارة معينة في حركتها» كما يصفها انجلز[٨٤]، والتي تدخل طاقتها الممكنة أو المفقودة، حسب الرؤية الديالكتيكية للطبيعة، في خلق طاقات اشكالية (حركة) أخرى جديدة في الواقع القائم، «هذا هو الدوران السرمدي الذي تتحرك فيه المادة»[٨٥] خاصة اذا اعتقدنا بأن «الطاقة شيء معنوي وليست حسية»[٨٦] والطاقة روح المادة أو قانونها المحرك كما هو معروف.

ويبقى أخيراً ان نشير، قبل البدء في عرض بعض تفاصيل تركيبة الواقع، بوجهيه الجغرافي والتاريخي، الى اشكالية منهجية أخرى تتصل بهذا الموضع من التناول، سبق وان واجهتنا في موضع آخر، مما يسهل علينا عملية طرحها وتصور حلها وهي ان الفصل بين وجهي تركيبة الواقع (الجغرافيا والتاريخ) يتسم بالتعسف، ضرورة، ولكنه في الوقت نفسه ضرورة في التخطيط المنهجي الشكلي لذلك لا مفر من ان نجد انفسنا، ونحن نبحث في وجه من وجهيي التركيبة، ننظر ونفكر في الوجه الآخر انهما، كما ذكرنا، وجهان في عملة واحدة، خاصة في حالة حركتها ودورانها وتقليبها بين يدي البحث والتمحيص

«النقدي»

كذلك لا مفر من ان نجد انفسنا مضطرين لملاحقة عنصر الحركة والتطور ومتابعته في مراحل نموه وقفزه السريع (الجانب التاريخي)، أكثر من العنصر السكوني الثابت (نسبياً) او بطيء الحركة (الجانب الجغرافي)، خاصة حين نضع في اعتبارنا، وهذه حقيقة اقتنعنا بها، ان الحركة هي تعبير عن السكون في وضع اشكالي معها، تماماً كما هو التاريخ تعبير عن الجغرافيا من خلال صراع الانسان المستمر مع البيئة او الطبيعة، ودخولهما طرفين في ثنائية اشكالية، في محاولة متصلة من لدن الانسان لكي ينفصل بنفسه او يستقل بها تماماً عن البيئة بعد ان يكتسب وعياً متزايداً بالتناقض ما بين الأنا والطبيعة وذلك لأنه بغير ذلك الوعي يظل عند ذلك التناقض، مطوحاً به على نحو أعمى هنا وهناك بواسطة مشاعره وبواسطة الحوادث(٨٧)

انما حين نركز اهتمامنا ووقوفنا امام الحالات الاشكالية في تركيبة الواقع بوجهيه، انما نعبر بذلك عن اساس القانون الانطولوجي لتطور الكائن البشرى عبر صراعه المستميت ضد واقعه الطبيعي في كل مكان وزمان كما اننا حين نعنى بعناصر الواقع الاشكالية في ثنائياتها المتعددة، فإننا نعبر بذلك عن الواقع الاشكالي المتميز الذي اتسمت به (البحرين) عبر تاريخ وجودها الطويل، مما أفرز بدوره ملامح من الخصوصية الواضحة ميزت تجربة الانسان فيها ووسائل تعبيره المختلفة، ومنها الفن والشعر، كما ساهمت في تمييز تجربة الانسان في منطقة الخليج كلها، مما سيأتي على تفصيله ضمن سياق البحث

ولكي نعكس اشكالية الواقع المذكورة، وتوخياً للاختصار، فسوف نقوم باختيار ثلاثة عناصر من تركيبة الواقع الجغرافي حسبما يوضحها المخطط السابق، هي الصحراء والزراعة والبحر، محاولين النفاذ منها الى سواها من العناصر المتصلة بها؟ متخذين من ديمومتها وخصائصها السكونية الثابتة بالاضافة الى تلازمها مرآة صالحة لانعكاسات الجانب التاريخي بمعظم مكوناته المذكورة على صفحتها الصقيلة الأمر الذي يوفر على بحثنا هنا الخوض في جانب التاريخ

التركيبة الجغرافيّة

التركيبة الجغرافية هي الرحم الذي يتخلق في تفاعلاته حبين الواقع، وهي الجسد الذي تنمو في خلاياه الحية بذرة الحياة البشرية والوعي التاريخي، وهي أخيراً، بالمقابل، الروح الخفية الكامنة المنطوى عليها

جسد الطبيعة والتي ينتـزعها الانسان ، كما ينتزع نفسه ووجوده ، عبر الصراع الذي لاينتهي معها ، خالقاً بذلك الابن ـ النقيض او الولد العاق ، مخرجاً التاريخ من رحم الجغرافيا في عملية مخاض طويلة وشاقة يمر بها الوعي الانساني عبر مراحل نموه وتطوره ولاغرابة في اعتبار الطبيعة والجغرافيا رحماً بيولوجياً تخرج منه وعليه ، في نفس الوقت ، حركة التاريخ ، مادام قانون المادة الديالكتيكي هو الحركة التي لا نهاية لها كما ذكرنا استناداً الى انجلز

وان تطور اشكال هذه الحركة ووجوهها المادية المتعددة ، خاصة عبر دخولها في سياق الوعي التاريخي المميز للفعل الانساني عن أفعال الطبيعة ، والذي يبرز في النهاية (نهاية كل مرحلة او دورة من التجربة مهما صغرت) كصياغة فنية هي ثمرة يتلخص فيها تاريخ الشجرة ومراحل نموها ، إن ذلك التطور المادي قد يبرر لنا نحن هذه الرغبة المنهجية للغوص وراء جذور التجربـة الحضاريـة والفكرية في البحرين ، رغم صعوبتها المنهجية الواضحة ، ومحاولة الكشف عن خميرة التفاعلات الأولى ومانتج عنها من اشكاليات وسمت الابداع بوضوح لاينكر ، خاصة إذا كانت التفاعلات وناتجها الاشكالي متصلين بالبيئة البكر التي تحركت فيها مغامرة العقل الانساني الأول لتبدأ في صياغة اشكالياتها الحياتية المبكرة في اطار الذاكرة الاسطورية ، كما أوضحنا .

ان التركيبة الجغرافية ، اذن ، بمختلف عناصرها الطبيعية البيئية والمناخية والاستراتيجية (الموقع) والمعيشية (الاقتصاد) ، تشكل المهاد الذي سوف يترعرع فيه «تطور الوعي التاريخي» إضافة الى ان قوانينها هي المكونات الحية التي تتركب منها كيمياء ذلك «الروح المفكر» كمايدعوه انجلز ، وهو التاريخ

وحين نبحث عن خصائص التركيبة الجغرافية التي تميز جزر البحرين فإننا في الواقع لانبصرها ، رغم وضوحها وتمايزها ، في جوهرها إلا ضمن موقعها في سياق تركيبة لخليج العربي الجغرافيه ، باعتبارها وحدة جغرافية واحدة ، ورغم ذلك لن تمنعنا هذه الوحدة الكلية من رؤية الاجزاء على حدة رؤية خاصة متمايزة وان كانت مستمدة من قانون الرؤية الشمولية ، خاصة إذا كان ذلك الجزء الذي نحدق فيه يؤلف بؤرة مزدوجة الـوظيفـة ، تجميعـاً وتـوزيعـاً ، كالبحرين ، بالنسبة الى منطقة الخليج العربي منذ فجر تاريخها

يقول الدكتـور عبداللطيف نـاصر الحميدان «والواقع فإن منطقـة الخليـج العربي ليس اصطـلاحاً جغرافيا يدل على رقعة محدودة من سطح الارض فحسب ، وانما يشير كذلك الى لون معين من الحياة ، فهي تغري الباحث في التاريخ الحضاري بدراستها كمنطقة متحدة داخلياً ، إذ انه بالرغم من المؤثرات الخارجية

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعرضت لها عبر العصور ، فإنها كانت بوتقة انصهرت فيها هذه المؤثرات المتنوعة وبقيت تمتلك وحدتها الداخلية في البناء والتنظيم ، فموجات الهجرات البشرية المتبادلة بين سواحلها من جهة ، وكذلك فيما بينها وبين السواحل المحيطة بالبحار العربية والتي كانت تجرى تحت ضغط الظروف الطبيعية والحاجات البشرية المتبادلة هي من عوامل وحدتها وبالرغم من وجود المغريات لدراسة الخليج العربي كوحدة فإن هنالك اعتبارات اجتماعية وتاريخية وسياسية تدعو الباحث لابراز خصوصيات الدور الذي لعبه كل جزء من اجزائها عبر مختلف العصور وبشكل متميز[٨٨]

وهذا الاعتبار المتصل بخصوصية العام وعمومية الخاص في منطقة الخليج العربي ، سوف يجعلنا ننظر الى تركيبة البحرين الجغرافية في اتجاهين «متشاكلين» مما يطرح أمامنا بدوره حلقة أخرى في سلسلة الاشكاليات المنهجية التي ستظل تلازمنا على مسار البحث لكونها تمثل أساس الرؤية فيه كما ذكرنا ، متطابقة مع خصائص موضوعها عبر ان هذه الرؤية الاشكالية ، سواء على صعيد التركيبة الجغرافية او صعيد المنهج ، هي التي تكشف لنا عن حلقة الوصل والفصل معاً التي تعطي البحرين تمايزها ضمن الاطار العام الذي تنتمي إليه وتكتسب خصوصيتها من وضعيتها الخاصة فيه ، كما تقودنا بدورها (الرؤية الاشكالية الموضعية) الى مستويات أخرى جديدة من الاشكالية ناتجة عنها ، منهجاً وموضوعاً ، هي وحدها القادرة على حل الاشكاليات السابقة عليها ، وذلك بطرح اشكاليات جديدة ، وهكذا ، ضمن فلسفة المداواة بالمثل

في اطار هذه الرؤية الاشكالية يمكن فهم خصوصية واقع البحرين الجغرافي بالنسبة الى منطقة الخليج العربي ، لاعلى أساس إقليمي تبدده طبيعةتاريخ المنطقة وواقعها وصغر حجمها وغير ذلك من العوامل التي تحول دون النظر الى أجزائها على الأساس الاقليمي ، ولكن على أساس «إشكالي» يتميز به واقع البحرين ، وهو يستمد عناصره الأولى الخام ، كما ذكرنا ، من عموم المنطقة ليعيد تصديره اليها من جديد ، بعد «تكريره» وهو أساس يعطي هذا الأرخبيل من الجزر المعزولة والمحاصرة بالبحر من جميع الجهات رغم انتمائها الصميم الى رحم الجزيرة العربية الأم ، يعطيها اهمية خاصة ، دون أدنى رغبة في المفاصلة ، تعوض بها تاريخ الحرمان ، وتقلب قانون العزلة الطبيعي ومحاصرة الجغرافيا ، رغبة منها في تأكيد انتمائها التاريخي العضوي الى الرحم الأم جاعلة من واقعها الاشكالي المتميز طريقة فريدة في اثبات وجودها وتأكيد انتمائها ، ضمن حركة تاريخية لا تتوقف من الاشكاليات المتصلة

والمتنامية وهذا ماجعل لهذه الجزر المتناثرة ، رغم صغرها وعزلتها وقلة مواردها وبسبب ذلك كله في نفس الوقت ، أهمية خاصة وشأناً كبيراً في منطقة الخليج العربي ، كما سنوضح

البيئة الطبيعيّة (إشكالية المثلث البيئي)

تتألف بيئة الخليج العربي الطبيعية من ثلاثة مظاهر عامة «أثرت أعمق الأثر في حياتها وطبعت تاريخها السياسي والاجتماعي والاقتصادي بطابعها» ، وهي البيئة الصحراوية والبيئة الزراعية والبيئة البحرية وتشترك البحرين معها ، باعتبارها مجموعة من الجزر الصغيرة ، في مظهرين فقط هما الزراعة والبحر ، يشكلان أساس بيئتها الطبيعية وعدم اشتراكها في المظهر الصحراوي يمنحها وجهاً من وجوه امتيازها في المنطقة بدرجة متميزة ، كما سنوضح

ان المظاهر البيئية الثلاثة تؤسس في منطقة الخليج على مر العصور واقعاً توازنياً بصورة فريدة ، أشبه بالمثلث «المتساوي» الاضلاع ، تمثل الصلة بين أضلاعه رغبة مستمره في التماسك الحي والتوازن الفعال وصولاً الى «الشكل الأكمل» المتمثل في «تساوي» الأضلاع ، وان ظل ذلك حلماً تطارده حركة المثلث الدائبة عبر العلاقة المتغيرة بين أضلاعه ، ولاتحده الا في تصور شكل الدائرة ، الثابت ، والمطلق ، كصورة المثال الغائب الحاضر، ذلك الشكل الدائري الأكمل الذي يلامس وسط اضلاع المثلث من الداخل ويحيط برؤوس زواياه من الخارج ، في حالة وضعه المفترض الأكمل القائم على تساوي الاضلاع وذلك وضع لا يصل إليه شكل المثلث الا في حالة اكتماله ، أي ثباته في وضعه الأمثل والأخير ، انها نهاية ذلك الشكل ، أي موته ، وهي شيء مستحيل على صعيد الحياة المادية والاجتماعية ، كما نوهنا ، لأن حركة المادة لا تنتهي ولاتموت ، أي ان ليس لها شكل مادي ثابت ومكتمل كالمثلث المتساوي الاضلاع المفترض لذلك يغدو مثل ذلك الاكتمال حلماً يسكن الانسان ويحيط به ، كما تسكن الدائرة المتوهمة شكل المثلث (المكتمل) وتحيط به وهذا الوضع الاشكالي من شأنه ان يعزز خصائص ماأسميناه بالذاكرة الاسطورية (الدائرة الوهمية) التي يبدو انها وجدت لها في ذلك الوضع الاشكالي (المثلث) بيئة خصبة لانفصال الانسان الأول عن الطبيعة العضوية ، لتبدأ منها مغامرة العقل الأولى في تصور أساطير الخلق والنشأة الأولى والموت والخلود وكل ماطرحته في ثناياها أقدم أساطير

العالم المعروفة المتمثلة في «ملحمة جلجامش» أول وأبرز صياغة فنية متخيلة وحقيقية في أن (الدائرة الموهومة) لوضع المثلث الأمثل الذي كانه وسوف يكونه ، ولكنه لا يستقر عليه ، وهذه هي اشكالية الاشكاليات [٨٩] ، الجذر الذي تفرعت عنه كل شجرة الحياة متوجة بثمار المعرفة وألوان الخيال

وإذا ما دققنا النظر الفينا أن هذه الاشكالية ـ الجذر مكونة من ثنائية أساسية ذات طابع اشكالي طرفاها شكل المادة الأول وقانون حركتها أو تشكيلها على صعيد ديالكتيك الطبيعية كما تطرقنا له في اطار مفهوم انحلر أما على صعيد المظاهر الثلاثة التي تميز بيئة الخليج الطبيعية ، فتمثل حبة الرمل (الصحراوية) وقطرة الماء (البحرية) طرفي ثنائية الحياة في اشكاليتها

في هذا الاطار الاشكالي لثنائية الحياة يمثل المظهر الصحراوي والمظهر البحري في بيئة الخليج الطبيعية طرفي ثنائية تلك البيئة الاشكالية الاساسيين اللذين يبحثان أبداً ، من وراء صراعهما المتفاعل ، عن ناتج ثالث يعطي لذلك الصراع شكله الناجز وصورته الثابته ، ولو مؤقتاً أو نسبياً ومن هنا يظل ضلعا المثلث الأساسيان (الصحراء والبحر) يبحثان في حركة لا تستقر عن ضلعهما الثالث الناتج عن تلك الحركة والبحث (الزراعة) لتتم لهما لحظة سلام وسكون نسبية يجد المثلث فيها شكله المستقر الثابت الى حين

والآن على ضوء هذا التصور الانطولوجي الذي تسندنا فيه تفاصيل ملحمة جلجامش كأثر فني ناجز (الأثر الجمالي للدائرة الموهومة) ، من ناحية ، وواقع البحرين ـ دلمون القديمة كأرض للخلود تقوم فيها شواهد القبور (الآثار المادية للدائرة الموهومة) دليلاً على ذلك التصور ، يمكننا ان نستعرض تفاصيل كل مظهر من المظاهر الثلاثة المكونة لبيئة الخليج الطبيعية ، استعراضاً تاريخياً مادياً ملموساً يستند الى النظرية العلمية دون غيرها ، لنرى الى أي مدى يمكن الربط بين تصورنا الانطولوجي الناتج عن (الدائرة الموهومة) أو الحركة العائمة وبين التصور العلمي القائم على شكل المثلث الناجز ، أي على شكل المادة القائم

١ ـ البيئة الصّحراويَة

تشكل البيئة الصحراوية البيئة السائدة والاوسع بين البيئات الثلاث الطبيعية في منطقة الخليج العربي ، كما انها تحتل في موقعها منطقة تقع خلف البيئتين الأخريين حيث تتوغل وراءهما عميقاً في شبه الجزيرة

العربية تنتهي عند سلسلة جبال تحيط بها من كل جانب عند أطراف الجزيرة ولاشك ان هذه البيئة الصحراوية الرملية الجرداء الشاسعة مسئولة بدرجة أولى عن خلق عنصر الحياة في المنطقة ، وربما في العالم كله ، أو هي على الأقل مسئولة عن توفير عنصر الحياة ومادتها الخام التي كانت ولازالت تمد به مقومات الخصوبة والحياة على جميع أطراف شبه الجزيرة العربية ، كلماتوفرت لها شروط الحياة عبر توفر عنصر الماء الذي تلعب البيئة البحرية بالمقابل دور الطرف الآخر في توفيره لحلق ثنائية الحياة(٩) وشبه الجزيرة العربية تقع في وسط محزن كبير من البحار المحيطة تلعب حرارة الشمس الشديدة دوراً أساسياً في عملية تبخيرها وتحويلها في النهاية الى مياه عذبة تسيل بها الانهار المجاورة (خاصة دجلة والفرات) وتختزنها الأرض في ينابيعها الجوفية في مستوى قريب من السطح غالباً ماتتفجر عند أطراف الجزيرة وفي بعض الواحات والجزر القريبة المتاخمة (مثل جزر البحرين) خالقة بذلك البيئة الزراعية التي تميز ذلك الشريط الساحلي الذي سمي قديما (بلاد البحرين) وهي تشمل في وقت ما دول شرق الجزيرة العربية كافة ، ابتداء من الكويت وانتهاء بعمان الشمالي

انا حين نتحدث ، في هذا التقديم ، عن الأساس الانطولوجي الذي لعبته بيئة الصحراء في هذه المنطقة في تفاعلها مع المظاهر البيئية الأخرى ، فلا نعني تتبع قصة نشأة الانسان في المنطقة أوفي العالم ، لأن ذلك ليس هدفنا الأول والأبرز من هذا البحث ، وان هو يدخل ضمن مشاغلنا لارتباطه ببعض جوانب البحث وموضوعه ولكن ما نعنيه من ذلك هو إبراز صورة البيئة الأساس التي لعبت دور القاعدة التي قامت عليها مختلف نشاطات الحياة الاجتماعية في المنطقة ، بعد ان نشأت من طينتها بذور الحياة الأولى ، كما انها لعبت دور المحرك المستمر لتلك الحيوية حتى عصرنا الراهن

ان ما يعنينا حقاً أكثر من غيره في مسألة البيئة الصحراوية ، هو صورتها المعاصرة ، لتبدو وكأنها مختلفة كل الاختلاف عن وجوه وظائفها الأولى المتصلة بنشأة الحياة ، غير ان الحقيقة غير ذلك لأن القانون المحرك والمتحرك بالمادة هو الذي يجعل اشكال تطور المادة مختلفاً بحيث

«ينطوي انتقالها الميكانيكي على امكانية التحول في ظروف ملائمة الى حرارة وكهرباء وفعل كيماوي وحياة ، والتي لا تستطيع مع ذلك ان تخلق من نفسها هذه الظروف(٩١)

وهذا يعني ان الحياة المعاصرة التي لم تزل تقف على تلك القاعدة الصحراوية مازالت عرضة لنفس التأثيرات الأولى في كثير من جوانبها ، وان هي اتخذت لها اشكالاً متغيرة (معاصرة) في الباقي من جوانبها

وإذا كان اهتمامنا الرئيسي ينصب على دراسة الاشكال الأخيرة وتأثيراتها مع غيرها من اشكال البيئات الأخرى في المنطقة ، فانه لا يعني أن يصل الى درجة الصفر في اعتبار الاشكال الأولى لبيئة الصحراء ، مادامت الى يومنا تمارس نفس الدور البدائي مهما ضاقت مساحته وتقنعت أشكاله الأولى وهذا ما يجعل أي التفاتة الى الوراء نوعاً من المعامرة التي يصعب وضع حدود نظرية لها مسبقاً ، خاصة مع امتداد الصحراء وانبساطها الشاسع دون حواجز وعدم وجود ما يشغل حواس الانسان من حوله ويمنعها من استبطان النفس والغوص في أعماقها وحيواتها الأولى أو المقبلة

ورغم ذلك سيكون وجود الانسان في الصحراء ضمن مجتمع بشري يسمى (القبيلة) هو ما سوف نتخذه حدوداً ننطلق منها في معظم الأحيان وصولاً الى الاشكاليات الاجتماعية التي تسود المنطقة وتمتصها البحرين بصورة خاصة ، وان كان ذلك الالتزام لن يمنعنا من أن نرفع عيوننا ، كلما اقتضت الحاجة والرغبة ، وراء تلك الحدود المصطنعة ، لنحدس كيف يتسلل النسغ الذي مازال حياً الى جذور تلك الاشكاليات الاجتماعية وشجرتها المتفرعة دون توقف

يرى الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان ، في معرض ربطه بين مظاهر البيئات الثلاث في بلاد البحرين بالمعنى القديم «ان الظاهرة الرئيسية للبيئة الصحراوية هي فقرها وعجزها عن سد احتياجات سكانها خصوصاً عندما تتزايد أعدادهم ويحدق نقص خطير في مراعي القبائل ، لذا فهي بيئة طاردة نحو المناطق الأكثر غنى من بلاد البحرين وهي البيئة البحرية والبيئة الزراعية ، الأمر الذي يعرض هاتين البيئتين دائماً لضغط سكان البادية وتوغلهم فيها ويزداد توغلهم كلما أحسوا بضعف السلطة السياسية في هاتين المنطقتين ، ويميل قسم منهم الى الاستقرار[٩٢]

إن تأثير بيئة الصحراء كبيئة طاردة على المناطق الزراعية المتاخمة لها والتي تقع على أطراف شبه الجزيرة العربية الشرقية ، تختلف نتائجه ووسائله وأهدافه عن تلك التي يقع تأثيرها على جزر البحرين وهو اختلاف له أهميته رغم ما يبدو عليه من بساطة[٩٣] فالشريط الزراعي الشرقي من شبه الجزيرة ملاصق تماماً لبيئة الصحراء ، لذلك فهو دائم التعرض لهجمات بدو الصحراء حين يكون هناك سبب قد يقوى أو يضعف ، وقد يكمن في تلك المناطق المستقرة نفسها مثل «ضعف السلطة السياسية» أو في منطقة الصحراء نفسها نتيجة قحط أو فقر أو جوع وما يشجع قبائل البدو على القيام بتلك الغارات هو سهولة الاعداد لها والاتفاق عليها في شكل جماعات كبيرة تسندها الصحراء باحتياطي لا ينفد من الأصول والأفخاذ والبطون ، إضافة الى سهولة انجازها ، وسهولة الهرب عند الفشل أو الانسحاب إثر

اتمام المهمة وهي «سد الاحتياجات» وان كـان «يميل قسم منهم الى الاستقرار» غير ان هدا القسم الدي يميـل الى الاستقرار يلعب دوراً أساسياً في كل الحالات ، حاصة في حرر البحرين كما سنوصح ، لأنه مكون من ىدرة اشكالية طرفا ثنائيتها الكامنان الفقر والعنى

«ولقد أوصحت دراسة نارث عن الـداوة ان الـدين يميلـون الى الاستقرار من بين البدو هم الأكثر غنى وكدلك الأكثر فقراً»[٩٤] وهذا مايجعل اشكالية الحراك الطبقي كامنة ومبيتة في صلب التاريخ الدى يحرك تلك القبائل البدوية من بيئتها الصحراوية الطاردة

غير ان تلك الأسباب ، وحدها ، والوسائل والإعداد والأهداف التي تمكن القبائل الصحراوية من غزو المناطق الزراعية المتاخمة ، ليست كافية في تفسير «هجوماتها» على حزر البحرين بصفة خاصة وذلك لأن المانع المائي بين شبه الجزيرة العربية وأرخبيل الجزر ، يغير من طبيعة تلك «المعادلة» ان لم يساهم في قلبها رأساً على عقب ، بتغير الدوافع والوسائل والنتائج فاختيار ذلك المانع المائي أو ركوب البحر مغامرة ليست بالهينة وهي تحتاج الى دوافع اكثر من العجز والفقر وسد الحاجة ، ووسائل هجومية أبعد أثراً من السيف والرمح والخنجر ، وتجربة واعداد وتخطيط وبنية مبيتة (استراتيجية) أطول مدى من ضعف النظام السياسي في مرحلة طارئة وهذا يعني ان القبائل البدوية لكي تحسب لغزو جزر البحرين حساباً تقيمه على امكانية النجاح فيه أو التصميم عليه ، عليها قبل ذلك أن تتخلى عن «بداوتها» البدائية بالقوة أو بالفعل[٩٥] ، وتخطط لما هو أبعد من محـركـاتهـا البيئيـة ودوافعهـا البيـولوجيـة ، أي تكتسب صفـة التحضر من خلال التفكير المنظم والتنسيـق والتخطيط ورسـم الاستراتيجيات الواضحة وطـويلة الأمد لذلك لا يصبح هجومها على جزر البحرين عزواً ، كما هو الشأن مع المناطق الزراعية المتاخمة ، بل يغدو «فتحا» ، كما ان الهرب أو التـراجـع ، أي نهـايـة الغـزو ، لا تتصمنهما خطة «الفتـح» ، بل تفرضهما طبيعة الظروف نفسها التي لم تمكن من «السيـادة» وهذا مايجعل البنية مبيتة والاستراتيجية قائمة حتى يتمكن هؤلاء «المتحضرون» من الغلبة ، وعندها يؤسسون «دولة» وان كانوا لا يخرجون من اطـار «القبيلة»[٩٦] وهذه هي إحـدى اشكاليات الواقع الذي تتميز به البحرين[٩٧]

وبذلك تكون البيئة الصحراوية ، رغم غيابها عن بيئة البحرين الطبيعية غياباً تاماً منذ فجر التاريخ قد لعبت دوراً أساسياً في واقـع البحرين وساهمت باستمرار في تحريكه وعدم تركه مستقراً ساكناً ، وذلك بدفع اشكالياته الأولى البسيطة نحو مزيد من التركيب والتعقيد والحركة .

كما ساهم ذلك الواقع الاشكالي المميز الذي تتسم به جزر البحرين في دفع بداوة الصحراء وبساطة قوانينها وعلاقاتها الاجتماعية نحو الفعل الحضاري الذي يغري به موقع البحرين الاستراتيجي وثرواتها الاقتصادية وغنى ارضها وخصوبتها واستقرار الحياة فيها ، إضافة الى عزلتها وموقعها القصي المنيع المسيج بالبحر من كل الجهات ، مما أضفى على ذلك الأرخبيل من الجزر المتناثرة المائية والمحاطة بكنوز من مغاصات اللؤلؤ الثمين والمياه العذبةوالحكايات والاساطير والخرافة ، أضفى عليه جواً اسطورياً ساحراً ملفعاً بالغموض ووهج الذاكرة الغارب وطيف الأمس الهارب ، مما يدفع نفس البدوي الموحشة والمتعطشة للمعرفة والحياة والخيال الجامح والفضول الفطري الى المزيد من حب الاطلاع والكشف والارتواء[٩٨]

لذلك لا عجب ان تبقى البحرين منذ فجر تاريخها الدلموني ، بالنسبة الى الانسان البدائي والانسان البدوي[٩٩] ذلك الفردوس المفقود في ، موطن الخلود ، الذي ظل يداعب خياله ويتوهج في ذاكرته ، ليكون بمثابة الحلم ـ المحرك الحضاري الذي ينتشله من واقعه ليرمي به في بحر واقع جديد ، فكان ينتكب المشاق ويركب المصاعب ويقوم بالمغامرات الكبرى ، تماماً كما فعل أجداده الأوائل الاسطوريون (أوتنابشتيم وجلجامش) ، من أجل بلوغه ، متخذاً من شتى ظروف الواقع ومعطياته كالعجز والفقر والجوع والرغبة في سد الحاجة وحب السيطرة والعصبية القبلية والسياسية وغير ذلك من أسباب الواقع ، التي لا تدحض في حد ذاتها ، سلماً للوصول اليه

ان شحنة تلك «الروح المفكرة» سوف تبقى ترافقه كظله في كل عتبة من عتبات السلم ، تغريه بحلم الحضارة وتحاصره بالذاكرة الأولى ، حتى يجد نفسه مستقراً فيها ، معلوباً على أمره ، بعد أن قادته الصحراء الطاردة الى جنة حلمه (الحضارة) ولم يستطع عنها رجوعاً ، هكذا «خسر انكيدو القوة الحيوانية ، وكسب الفهم العميق والمعرفة ، دخل عالم الانسان «علمته المرأة أكل الخبز وشرب الخمر ولبس الثياب ، جعلت منه بشراً سوياً»[١] هذا ما تحكيه ملحمة جلجامش ، ملحمة المنطقة الكبرى ، بلسان أسطوري فصيح

٢ ـ البيـــئة البحـــريّة

للبحر وحده ، قبل أي شيء آخر تدين جزر البحرين بوجودها ونشأتها وغناها وصيتها ، حتى غدا البحر اسماً لها ، مضاعفاً ، يشير اليها دون

عيرها من بلاد العالم البحرية ، وكأنما كان البحر قدرها ، وهو كدلك حقاً ، لفظا ومعنى فالنصوص الآشورية القديمة تشير الى «انها كانت حريرة تحيط بها المياه ، وان ملكها كان يعيش كالسمكة وسط البحر»[١ ١]

ويشير السير روبنسون في معرض تعليقه على دلك الحجر (الأسود) العجيب الذي اكتشف في أحد مساجد البحرين مؤخراً ، وهو يعود الى عصور الانسان الأولى ، بعد أن استخلص ما عليه من الكتابات المنقوشة ، الى «إله السمك» الذي «جاء من وراء البحر الاريتري ـ المحاور لحدود بابل ـ وهو الذي علّم أهالي ما بين النهرين دجلة والفرات الحروف (اللغات) والعلوم والفنون من كل نوع وقد كان دلك في فجر الحضارة» ويقول ان هذا الإله «غالباً ما كان يعرف باسم رب مملكة الماء» وكان هو «خالق البشر» و «رب المعرفة» و «سيد الشعوب القديمة الأولى» كما يشير الى ذلك الجنس الأسود من القوم البدائيين أي أجداد «أصحاب الرؤوس السود» الذين «ربما كانوا هم بنو آدم الأول (المذكورين) في سفر التكوين»[٢ ١] وهو يلمح الى ان مكان كل اولئك الآلهة والأقوام تلك الجزر الواقعة وسط الخليج ويرجح من اوصافها انها جزر البحرين

هذا ، بالاضافة الى ان ملحمة جلجامش والكتب السماوية (بما فيها القرآن الكريم)[٣ ١] والشعر الجاهلي ومصادر التاريخ الاغريقي القديمة وغير ذلك من الكتابات ، تشير جميعها الى تلك البيئة البحرية الفريدة التي تمتاز بها جزر البحرين وموقعها اللافت للانتباه

وقد ارتبط وجود البحرين في مجمله ، الجغرافي والتاريخي ببيئة البحر رباطاً محكماً ، بحيث كانت هذه البيئة الطبيعية مسئولة مسئولية كاملة عن انبثاق تاريخ هذه الجزر ، كما هو الأمر مع سائر المنطقة ، منذ فجره الأول ، اذ اعتمد السكان الأوائل في معاشهم على صيد الأسماك[٤ ١] ثم اللؤلؤ «عين السمك»[٥ ١] حين تطورت سبل المعاش ، حتى صنعوا المراكب البسيطة المصنوعة من جريد سعف النخيل[٦ ١] ومنها ابتدأت أول مغامرة للانسان في تلك المنطقة أو ربما العالم كله[٧ ١] للتعرف على العالم المحيط ، حيث كانت تلك المغامرة البحرية الأولى مشدودة بين تلك الجزر والبر المحيط بها سواء كانت البداية منها أو اليها ، إذ «ان أول ما يسترعي نظر الباحث في منطقة الخليج ، ذلك الموقع الجغرافي المطل باليابسة على البحر ، مما يرتبط ارتباطاً عضوياً وعفوياً بمحاولة الانسان الأولى لركوب عوارب الماء ، وهي محاولة تعود ولا شك الى أزمنة بعيدة معرقة في القدم ، سعياً وراء كسب العيش باصطياد الأسماك ، او بغية التنقل ما بين الجزر القريبة من المناطق الساحلية ولا ريب في ان تلك المحاولة الساذجة البسيطة ، قد تطورت وارتقت الى ان أصبحت حركة

ملاحية كبرى ، تبعاً لرقي وتطور سائر النواحي الحياتية ومرافقها الحضارية»(١٨)

وقد تسببت تلك البيئة البحرية الفريدة ، حتى ضمن منطقة الخليج ، التي تميز بها موقع البحرين المحاصر بالبحر من كل الجهات ، في توليد وانتاج عدد من الخصائص الاجتماعية والنفسية والثقافية ، على إثر الخصائص الاقتصادية المترتبة على حساسية الموقع والمحيط المائي ، ميزت تجربة الانسان في هذه الجزر مما يعني تجربة انسان المنطقة عامة والتجربة الانسانية بصورة أعم حيث ان هذه البيئة مسئولة عن توليد عدد من الاشكاليات التي تحدثنا عن بعض جوانبها من قبل

ومن ابرز تلك الاشكاليات التي ترعرعت في مناخ البيئة البحرية ثنائية اشكالية نفسية واجتماعية اكتسبت صفاتها الازدواجية المركبة من مظهر هذه البيئة في حركتها البحرية بين المد والجزر ، وذلك بعد ان تركبت حياة المجتمع الاقتصادية اليومية (صيد السمك) والفصلية (الغوص على اللؤلؤ والتجارة)(١٩) على قاعدة تلك الدورة الطبيعية المتحركة في اتجاهين متشاكلين (متعاكسين) وقوانينها الزمنية المتناوبة ولا بد ان تكون هذه الحركة المتناوبة لم تقتصر على بنية المجتمع التحتية ، كما انها لم تقتصر من قبل على حركة البيئة الطبيعية ، إذ نتوقع ، دون شك ، تسللها وفعاليتها في تركيب البنية الفوقية ، الثقافية والفنية والأدبية وان كان تجليها هنا مختلفاً في درجته ونوعه وشكله عنه في بنية المجتمع التحتية

ان زميلنا الدكتور ابراهيم غلوم في معرض حديثه عن واقع حركة التغير الثقافي في مجتمع الخليج العربي وما يواجهها من دوافع ومعوقات في آن واحد ، يلتفت الى هذه الظاهرة «الطبيعية» حين يقول

ويبدو ان حركة المد والجزر التي ظل الانسان في هذا المجتمع يربط بها الكثير مما يتصل بحياته الزمنية والمكانية مع البحر ، قد صنعت قدرته في المشاركة ووعيه بـ «الفعل» وهو يتفاعل مع حركة التغير ، فانتزعت منه حركة دائبة من النهوض والكبو ، الاستمرار والتوقف ، الفعل والتأمل ، النفاد والاختزان ، خاصة وان هذه الفترة التي نتحدث عنها ، قد اعتمدت على البحر اعتماداً أساسياً ، كان فيها مورداً اقتصادياً ، وشكلاً للاتصال ، ورمزاً للموت ، وكان مفتاحاً للبدء وايذاناً بالنهاية مع حركة الفصول والنجوم والمواسم(١١)

وإذا كانت هذه الظاهرة الطبيعية المد ـ جزرية تسم مجتمعات الخليج قاطبة بما فيها مجتمع البحرين وتمثل بذلك ميزته العامة حقاً ، في الحركة والايقاع على صعيد البنيتين التحتية والفوقية ، فإن هذه الخاصية الخليجية العامة من شأنها ، كإشكالية ثنائية كلية واسعة واساسية ، ان تعزز في اطار جغرافية

جزر البحرين وموقعها ومناخها ، مما يميزها عما حولها ، عدداً من الاشكاليات الثنائية الخصوصية تطبع سيكولوجية مجتمع البحرين وثقافته بطابع مميز له لونه الخاص الواضح ضمن الخصوصية العامة رغم تدرجه في سياق قوسها القزحي وعلى رأس ذلك اشكالية العزلة ـ الانفتاح ، واشكالية الضعف والقوة ، وإشكالية المحلية والعالمية ، واشكالية الباطن والظاهر ، واشكالية اليأس والأمل وغير ذلك مما عرضناه في غير هذا البحث بالشرح والتفصيل (راجع كتابنا ما قالته النخلة للبحر)

ان جميع هذه الاشكاليات يتضمنها اطار الاشكالية الثنائية العامة المتصلة بحركة المد والجزر في البيئة البحرية ، غير انها في البحرين بصفة خاصة تكتسب طابع «الاشكالية» الحادة والقابلة بسبب تلك الحدة والتوتر للتوالد والتكاثر والنمو في حين انها تقف في بقية انحاء المنطقة والى حد كبير ، بحركتها عند حدود الثنائية (المتعارضة والمتقابلة ، اي المتجاورة) ونادراً ما ترقى الى مستوى درامي «إشكالي» متوتر ، والسبب هو ان هذه الثنائية وكذلك غيرها من الثنائيات تقف بطرفيها على رأس حاد من التوتر المستمر ، بحيث يتحول ذلك الطوفان الى وحدة كيانية مركبة تتخللها حركة متوترة لا تهدأ من الفعل ورد الفعل تتصارع وتتفاعل وتتراوح في لحظة زمنية واحدة ، أشبه بتفاعل المواد الكيميائية أو لمس وتر مشدود الى حده الأقصى دون درجة الانقطاع ، مما ينتج عن ذلك واقع إشكالي قائم وممكن معاً فاشكالية اليأس والأمل الثنائية ، مثلاً ، لا تمثل بالنسبة الى الانسان البحريني زمنين متعاقبين يطوي نفسه اليأس في احدهما (مع حركة الجزر) ويتراقص الأمل أمامها في الزمن الآخر (مع حركة المد) ، بل هو يعيش لحظة زمنية واحدة مركبة يتحول فيها كل من اليأس والأمل الى حالة من التوقع والخوف والاحساس الغامض والعميق «بوحدة صراع الأضداد» ، مما تجعله (الحالة المتوترة) منسحباً بصورة واضحة الى داخله ، منكفئاً على نفسه ، يعيش حالتها ويستبطن أعماقه ، محاولاً ان يلعب دور «القابلة» ، التي تخرج من قوانين ذلك المخاض ثمرة ما ، غالباً ما تكون «ثمرة فنية» ، أي حالة ابداعية

أما جذور هذه الحالة النفسية الاشكالية الخاصة ، فيكمن امتدادها الحقيقي في علاقة جزر البحرين بمظهر البيئة البحرية ، خاصة حركة الجزر والمد منها من جهة وعلاقتها بغياب عنصر الصحراء من جهة ثانية

ان ذلك المجتمع المحاصر الصغير المعزول في جزر نائية متناثرة في عرض البحر لديه احساس مستمر بأنه مهدد من قبل تقلبات ظروف الطبيعة وخاصة البحر و «غدره» ، ومن قبل

القوى الكثيرة المتصارعة في المنطقة والمحدقة به في اطار تواجدها او في خط سيرها التجاري دهاباً وإياباً بين الشرق والغرب ، بحيث تمثل تلك الجزر المتوسطة الموقع نقطة ارتكاز وتقاطع لكل من ذلك التواجد والحركة التجارية

ومن أجل أن يصمد مجتمع تلك الجزر توفير موارده الاقتصـادية اضطر الى ان يحارب ذلك البحر ويسالمه ، وان يهادن تلك القوى ويهددها في آن واحد فمن خلالهما مصدر كل من حياته وموته ، بقائه وفنائه ، يأسه وأمله ، قوته وضعفه ، فحين يطغى عليه البحر بموجه او القوى بعدوانها ، لا يجد وراء ظهره تلك المساحة الواسعة (البيئة الصحراوية) التي يتراجع نحوها ويطلب العون من قبائلها بحيث تصبح الحرب كراً وفراً ، بل يجد نفسه محاصراً بما هو عليه من مساحة أرض محدودة ، مقطوعاً عن الجزيرة الأم واي يابسة أخرى يلود بها ، فليس أمامه الا ان يعتمد على نفسه في حل تلك الأزمة الداهمة او الاشكالية القائمة وان هو استنجد بأصوله القبلية الضاربة وبالنخوة العربية في شبه الجزيرة العربية ، فمعنى ذلك ان تلك الثنائية المكونة من اليأس والأمل او النصر والهزيمة تتجه به نحو درجتها الاشكالية العليا من الخوف والتوقع والانتظار والتحفز ، إنه هنا على رأس الابرة بالضبط مشدوداً كالوتر بين قطبي تلك الثنائية في وضع اشكالي نموذجي

أن بعد ارخبيل البحرين عن شبه الجزيرة العربية واحتماءه بالماء من كل جانب قد جعل منه حصناً منيعاً يحتمي به أهلوه من كل عدوان خارجي عليهم ، كما جعلا منه هدفاً سهلاً للمحاصرة والعزل وهي اشكالية أخرى طرفاها الاحساس بالقوة والضعف ، الأمن والخوف ، المنعة والمحاصرة وتصعـد هده الثنائية المتناقضة الى أعلى درجاتها الاشكالية في أوقات الحروب والأزمات والمخاطر الخارجية .

أما على الصعيد الخارجي المتصل بالبيئة البحـرية المحيطـة بجزر البحرين ، فقد ظلت اشكالية الحرب والسـلام ، الخوف والطمـأنينـة ، تتجاذب واقع المجتمع ووضع السلطة الحاكمة بصفة خاصة في محاولة منهما للتوازن بين اطراف الصراع من القوى المحيطة وقد التفت الرحالة المفكر أمين الريحاني عندما زار البحرين في الربع الأول من القرن الحالي ، الى هدا الوضع الاشكالي الخارجي الذي تمتاز به البحرين ، معبر عنه في هذا الوصف الشاعري الرقيق «ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هده الجزيرة وليس أصلح منه للتجارة او للحرب فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه ، كأنها بارجة راسية في حوان متسع بين قطر والقطيف أو كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع

علم السلم والتجارة بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الأمم ذوات الصولة والعرمان وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس ،

ومحط رحال الطامعين بالسيادة على الخليج[111] وفي كلام الريحاني تصريح وتلميح كثير الى واقع البحرين الاشكالي فيما يتصل بموقعها في وسط البيئة البحرية محاصرة بالماء ومتحصنة به في وقت واحد ، وفعلاً ،

فلقد استطاعت هذه البيئة ان تطبع بطرفي حركتها المائية المتراوحة بين الجزر والمد واقع البحرين بخصوصيتها (الطبيعية) وان تعدي في اطارها عدداً كبيراً من الثنائيات الاشكالية الناتجة عنها والتي أمكن للواقع المحلي ان يطبعها بطابعه الخاص والمميز لمجتمع البحرين (المغلق/المفتوح) لذلك لم تكن خصوصية «التكرير» و «إعادة التصدير» كإشكالية بحرينية ، غائبة بطرفيها عن ذلك الاطار الواسع الذي تحدده حركة الطبيعة البحرية بل كانت موجودة في كل جزء من اجزاء الواقع الاشكالي المتوالد ، إذ كانت هي الاشكالية العملية المكثفة التي تجتمع عند بؤرتها (ذات الخاصية المزدوجة) كل اشكاليات المنطقة المحيطة بالبحرين ، والتي تتوزع منها في ذات الوقت تلك الأشكاليات في

صورة جديدة «مكررة» بعد ان تترسب من جراء تلك العملية المزدوجة إشكاليات الواقع الداخلي لتميزه بذلك عن أي واقع آخر في المنطقة ، مهما تكن نقط الالتقاء وخطوط التشابه

ان هذه المساحة المائية الزرقاء التي اطلقنا عليها اسم (البيئة البحرية) تشكل عاملاً حيوياً مشتركاً بين جميع أقطار الخليج العربي ، على صعيد الاقتصاد والاجتماع والنفس والسياسة والثقافة والتاريخ والحضارة غير ان كل قطر او بقعة منه ، نتيجة الى اشكالياتها الخاصة بها ، تتجاذب ذلك العامل المشترك بطريقة تتناسب وتلك الخصوصية الاشكالية

فالبحرين باعتبارها أكبر تجمع جزيري يطفو على مياه الخليج[112] في منطقة من اكثر المناطق ضحالة ودفئاً فيه بحيث جعل من هذا المحيط المائي أغنى من أي مكان في الخليج بمصائد اللؤلؤ[113] مما نتج عن ذلك تجذر خاص لدى أهلها منذ قديم الزمان أغراهم بالغوص على ذلك الكنز الثمين و «الصندوق الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب» ليجعلوه بعد ذلك مصدر رزقهم الأول ومنبع صيتهم ومحور تعاملهم التجاري والاجتماعي مع العالم ، كما أغرى ذلك الكنز معظم القوى الطامعة العالمية والمحلية بالبحرين ، مما كان سبباً في سعادتها وشقائها في وقت واحد ، إذ جلب ذلك الاهتمام التجاري والاستعماري

العالمي والمحلي ، لها النهضة والدمار ، الغنى والفقر ، الشهرة وانطفاءها ، فكان البحر في اطار حركة

مده وجزره ضمن خصوصية معطيات واقع البحرين ومحيطها الجغرافي بمثابة بندول الساعة (الزمن) الذي وضع منذ البدء ، وظل يصنع وجود ذلك الارخبيل من الجزر داخلياً وخارجياً في سياق حيوي من الحركة المتناوبة بين عدد لا يحصى من الثنائيات الاشكالية التي ظلت تتوالد وتتفرع مع دوران عقارب ساعة (التاريخ) ، لتأخذ على قرصها الجغرافي خصوصية نص المجتمع البحريني وربين تجاربه الحضارية واصداء ذاكرته الاسطورية ، مكثفة بذلك تجارب انسان الخليج ومجتمعه مستخلصة منها الجوهر الصافي ،

تماماً كما استخلصت من بلاد البحرين القديمة التي كانت هذه الجزر ولا زالت جزءاً لا يتجزأ منها ،

اسمها الذي انحسر عن دائرته الواسعة ليتجمع بكثافة في مركز الدائرة جامعاً خصائصها المشتركة ،

مكثفاً شتات ذاكرتها المتناثرة وخيوط شمسها المنتشرة العارية ، مشيراً دائماً الى امكانية انبثاق ذاكرة التاريخ المضغوطة من تلك النقطة الجغرافية الصغيرة ، لتعود لمحيط الدائرة انزياحاته الجديدة/القديمة ذلك لأنها نقطة المركز . وتلك حقيقة حتى على صعيد جغرافيا المنطقة كما أشار

الى ذلك الريحاني ـ الذي تحيط به البيئة البحرية ، مدداحه عنه في دوائر مائية زرقاء حتى تصل بحلقاتها المتسعة لتلامس ذلك الساحل الذهبي (حسب وصف الريحاني الشاعري)

على الطرف العربي الأقرب أولاً ، ثم يسوقها قانون الاتساع الطبيعي الى ملامسة الطرف الآخر الأبعد ، الواقع الى الشرق من ضفة الخليج وما تلبث هذه الحلقات المتسعة ان تعود منكمشة على نفسها في اتجاه نقطة انبثاقها ومركز انطلاقها ، حاملة معها تجارب الساحل الذهبي الاجتماعي بطرفيه الشرقي والعربي ، مستقطبة اياها في خلاصة مكثفة ، جاعلة منها حصيلة تمركزها الثابت وسط تلك الدائرة المائية الزرقاء التي تلعب حركة المد والجزر كقانون عام بالمنطقة وحركة التجميع والتوزيع «التكرير» كقانون خاص بالبحرين ، تلعب كل منهما ، في نفس الوقت ، دور المحرك لها في كلا الاتجاهين من المركز الى المحيط ومن المحيط الى المركز ، دون توقف ، فكما ان الخليج كما يقرر الباحثة الفرنسي جان جاك بيربي Jean Jeacque Berby «هو قلب الشرق الأوسط جغرافياً وبابه السحري وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب(١١٤) فإن جزر البحرين هي قلب القلب جغرافياً على الأقل

والجغرافيا قطعاً أم التاريخ ، كما حاولنا ان نوضح وما زلنا في هذا الصدد

٣ - البيئة الزراعية

ادا كانت الحصائص العامة لبيئة البحر تعني اتساعاً وانتقالاً بحلقات المركز الى محيطه الأوسع ، أي اتجاها مستمراً بحو الحارج في المقام الأول ، تم رحوعاً وبكوصاً بحو المركز ، وهكدا ، بفعل قانون حركة المد والجزر الدي ينعكس بدوره على كل حركة الحياة ويتحلل جزئياتها وتفاصيلها مهما صغرت فان الحصائص المميزة للبيئة الزراعية، قياساً، هي الاستقرار والثبات والنكوص المستمر والانكماش والانكفاء والانطواء ، انها حركة ولكن بطيئة جدا تبدو وكأنها ثبات مستمر واستقرار وسكون واتجاهها الغالب هو الداخل نحو الأعماق ، كاتجاه النبات نحو اعماق التربة المظلمة ، أول الأمر ، ضاربا بجذوره الحية في خلاياها ممتصا من تفاعلها (الكيميائي) الحي نسغ الحياة ، قبل ان يتجه برأسه المخصوصر نحو الأعلى في حركة معاكسة (تتصف ايضا بالبطء الى درجة الايهام بالثبات) خالقا بذلك ، دون أدنى صحيح ، مزيجا مركبا بين عالم الظلمة في الأعماق وعالم النور فوق الأرض ، عبر ما يسمى في علم النبات بعملية التمثيل الحصيري أو الكلوروفيلي التي تؤلف قانون حركته الساكنة ، ان صح التعبير ، أو سكونه المتحرك ، لا فرق

هذا هو القانون الجوهري الاساسي الذي تتخلق في اطار أبسط مراحله (مرحلة التقاء الماء بالتراب وتفاعلهما الداخلي) خلية الحياة الأولى تخلقا عضويا سرعان ماينشأ من تعصيه ذلك أطوار أعلى أكثر تركيبا وتعقيداً ، ولكنها خاضعة ، مهما تعقد تركيبها ، الى ذلك القانون الجوهري البسيط الذي يفاعل بين التربة والماء ، في اطار من تفاعل المادة بحركتها بفعل عنصر لا يزال مجهولاً على الصعيد العلمي التجريبي ، أطلق عليه انجلز مصطلح «الآخر» وتسميه الأديان «الروح» ومصدره الخالق جل وعلا ، كما ان مصدر الآخر هو الطبيعة وقوانين حركة المادة (١١٥)

وحسب قوانين المادة فان هذا القانون نفسه الذي يؤلف حياة النبات عبر حركة سكونية لصعوبة ملاحظتها الآنية ، هو نفسه الذي يؤلف سائر أنواع الحياة وأجناس الكائنات وحركات الطبيعة وقوانين الكون ، لذلك تصبح حركة المد والجزر الصاخبة والملحوظة بوضوح والمتسمة بالتحولات السريعة والمتداخلة في اتجاه خارجي واسع يغلب عليها ، ضمن

البيئة البحرية ، هي تعبير مكبرٌ (على طريقة مكبر الصوت) عن قانون البيئة الزراعية الذي هو نواته الأولى وخلاصته المكثفة وحركته الساكنة

عبر هذا القانون الجوهري الواحد في الأساس والمتشكل في الصور والوجوه المتفرعة عنه ، تدخل البيئات البحرية والزراعية في ثنائية اشكالية عامة ، طرفاها الوحدة والاختلاف ، مبدئيا ، ثم وحدة الاختلاف واختلاف الوحدة كلما ارتفعت الثنائية في سلم أعلى من الاشكالية ، كما سنرى .

ولكن ، اضافة الى تلك الاشكالية التي يمثل طرفيها كل من البيئتين البحرية والزراعية ، الاشكالية العامة والاساسية في نفس الوقت ، هناك اشكاليات خاصة بكل بيئة تنتج أساسا عن ذلك المركز الاشكالي المولد لعدد من الوجوه والاشكال والتجسدات من شأنها ان تنتج اشكاليات بدورها وقد ألمحنا بصورة عامة الى اشكاليات البيئة البحرية المتجهة ، في اتساع ، بقوانينها المادية المتجسدة ، نحو الخارج أساسا على عكس اشكاليات البيئة الزراعية المتجهة ، في انكماش ، نحو الداخل أساسا ، لذلك يمكن ، على أساس علمي لا تخيلي فحسب ، اعتبار قطرة الموج أو الماء حبة رمل متسعة ومتحولة في شكلها المادي ، عبر قانون المادة ، من التجمد والتصلب الى السيولة والليونة ، كما يمكن ، على العكس ، اعتبار حبة الرمل أو التربة قطرة ماء منكمشة ومنكفئة على نفسها الى حد التصلب والجمود وتتضح حقيقة هذا التصوير العلمي تجريبيا حين تلتقي قطرة الماء بحبة الرمل ، حيث يصبح التفاعل الحلقي (كيميائيا) حين تكون الكمية متناسبة بين الطرفين وقوة عناصرهما متكافئة ، بحيث تتمدد حبة الرمل في الوقت الذي تنكمش فيه قطرة الماء ، ليصلاً بذلك ، في حالة التكافؤ ، الى وضع اشكالي يصعب فيه على قانون الحبة الرملية ان تتسع أكثر ، كما يصعب على قطرة الماء ان تنكمش أكثر ، تماما كتلك العلاقة الغامضة هندسياً بين محيط الدائرة المتسع والمركز المضغوط حين يتبادلان العلاقة في حركة تبادلية عكسية ، بحيث ينزع المحيط نحو المركز والمركز نحو المحيط ، فيصلان بذلك الى نقطة تمثل بالنسبة الى الهندسة وضعاً اشكاليا عندها فقط تنطلق قوة خفية (حتى الآن) تحيل تلك الاشكالية البيولوجية المتوترة والمتماهية الى حياة متعضدة (عضوية) ، كما يحيل الاشكالية الهندسية المتوترة والمتماهية كذلك الى انحرافات هندسية جديدة على صعيد التشكل المستوي ، وذلك عبر ولادة الخط المستقيم القادر على التعبير عن الدائرة (الأم) في صراعها مع مركزها (الأب) في اشكال مختلفة ومغايرة كالمربع والمستطيل والمثلث وشبه

المنحرف الخ وكلها تتضمن بصورة أو بأخرى شكل الدائرة وتنزع نحو شكلها الأكمل لذلك كان قلق أرسطو من هذه الناحية منصبا على البحث عن قانون تربيع الدائرة

أما اذا لم تكن العلاقة ، كميا وكيفيا ، متكافئة بين المادة وشكلها الأول (الرمل والماء ، والمحيط والمركز) فان قانون الحركة المادية يختل بدوره في صالح العنصر الأقوى في الثنائية مما لا يؤدي بها الى وضع اشكالي منتج ، بل يقودها الى التفسخ أو الاحتواء ، أي تصبح في مسار حركة العنصر الأقوى ، سلبا ام ايجابا ، فينتفي اولاً الوضع الثنائي ، ثم تنعدم بعد ذلك أية فرصة لعقد زواج إشكالي قابل للولادة واعادة الانتاج ، عبر وضعه على مدارج التصعيد الاشكالي

ان هذه المقدمة التصورية (المعلمنة بصورة تعسفية واضحة) قد تصلح مدخلاً أوليا لفهم حدود العلاقة النوعية الناشئة بين كل من بيئة البحر وبيئة الزراعة ، وهما صنوا الحياة والوجود الوحيدان في البحرين هذا من جهة ومن جهة ثانية قد تصلح ، بصورة أكثر جلاء ، لتفسير خصائص ومميزات كل من البيئتين ، خاصة البيئة الزراعية التي تمثل خصائصها ومميزاتها كثافة تراكمية ونوعية لكونها الدائرة المضغوطة في المركز ، يصعب فهمها من النظر الأول دون الرجوع الى أبعد ما يمكن الرجوع اليه من جذور تكونها ونشأة مجتمعها كنوع بشري حافظ على بيئته منذ آلاف السنين ذلك اننا «لا يمكن ان نفصل البنية عن النشوء» (١١٦)

هذا ما توصلت اليه معظم العلوم الحديثة خاصة علم الحياة منذ داروين ونظريته في التطور ، (١١٧) دون ان ننسى سبق ابن خلدون في هذا المضمار (١١٨)

اننا اذا ما تمسكنا بالقانون البيولوجي القائل بالاصطفاء الطبيعي ، فإننا سنجد انفسنا نكرر تلك المقولة المستهلكة ان الانسان ابن بيئته وما دامت البيئتان الطبيعيتان (البحرية والزراعية) متميزتين الواحدة عن الأخرى ، كما بينا ، منذ الأصول الأولى لنشأتهما المادية (حبة الرمل وقطرة الماء) ، فان تطور كل من هاتين البيئتين ، كل حسب طبيعة ذلك الأصل ، محكوم ضرورة ، في نظر علماء الحياة والاجتماع وغيرهما من العلوم ، بمايسميه إيف باريل «بقانون اعادة الانتاج» (١١٩)

الذي يبني عليه نظريته كاملة حول المنظومات الحية في الثبات والتغير ، منذ الأساس البيولوجي المرتبط بمظاهر البيئة الطبيعية حتى سماء الفنون وآفاق الخيال أو صورة المثال كما سميناها أي من أدنى أطوار الواقع (البنية التحتية) الى أعلى

مراتب تمثل ذلك الواقع (البنية الفوقية)

وما دام الانسان حقاً ابن بيئته فإن المجتمع الزراعي كمجموعة بشرية لها خصائصها ومميزاتها ، هو ابن تلك البيئة الزراعية متطور عنها عبر قوانينها منذ الأساس البيولوجي الأول حتى أعلى مراتب التطور الاجتماعي والأمر كذلك بالنسبة الى المجتمع البحري وبيئته لذلك فإن التمايز بين البيئتين ، كما ذكرنا ، يقضي بأن نلاحظ التمايز بين المجتمعين وتحديد خصائص كل منهما ، خاصة بيئة الزراعة ، المركزية ، المتسمة بالثبات والاستقرار والسكون والانطواء والكثافة وحين ندرك تلك الفوارق والتمايزات، نستطيع بعد ذلك ان ندرك حقيقة العلاقة التكاملية الواحدة بين المجتمعين والبيئتين ، تماماً كما هو الشأن مع وجهي العملة ، او العلاقة بين محيط الدائرة ومركزها ، او بين قطرة الماء وحبة الرمل ان توحيد الخصائص والمميزات قبل فرزها او دون فرزها هو مسخ واضح لمفهوم الوحدة بأكملها ، أي انه نفي الوجهين معاً ، وليس تأكيداً (١٢)

لشيء سوى عجز الباحث عن أن يرى شيئاً محدداً يمكن ان يتمايز من جهة ويتكامل من جهة اخرى

ان أبرز ما يميز واقع البيئة الزراعية هو طابع العزلة والانغلاق ، نتيجة لمكونات الثبات والاستقرار والسكون التي تشكل قوانين حركة تلك البيئة ، قياساً الى بيئة البحر وقوانينها المتحركة بصورة ملحوظة وهذا ما يجعل اشكالية العزلة والانفتاح على رأس اشكاليات العلاقة بين البيئتين ، وبالتالي في مقدمة اشكاليات الواقع المميز في البحرين وقد ترتب على كل طرف من طرفي ثنائية هذه الاشكالية عدد غير محدود من الاشكاليات المتوالدة ساعدت بدورها على تعميق طابع التمايز والخصوصية من جهة ، وعلى تعزيز روح التكامل والوحدة بين البيئتين من جهة أخرى

وعلى ضوء ما يسلطه بعض الدارسين على أسباب العزلة وأنواعها من أضواء ، يمكن رؤية الأسباب المختلفة التي ساعدت على خلق مكونات العزلة في البيئة الزراعية «ان تحليلات دوتي وسريفوست تسلط الأضواء على أهمية العزلة في سيرورة التنوع ، أي في الظهور التدريجي لبعض حالات القصور عن اعادة الانتاج (١٣)

ويمكن ان تكون العزلة جغرافية ، وبيئية ، وزمانية ، وجنسية ، ووراثية ويوضح هذان المؤلفان بعض جوانب العزلة وأسبابها بقولهما «ويجزيء عامل خارجي ما منطقة توزيع مجموعة الأفراد» الى «مجموعتي أفراد فرعيتين» ، ويمكن ان يكون هذا العامل خليجا من بحر أو

قناة أو استصلاحا لشريط من غابة أو نقلاً عرضيا لبعض أفراد بفعل الريح أو الخشب العائم . فاذا كانت المجموعتان الفرعيتان كثيرتي العدد ، فيمكن ان تواصلا التطور على التوازي ، ذلك لأن منظومتيهما «المتوازيتين» تكونان متلائمتين جيدا مع المناخ . أما اذا كانت احدى هاتين المجموعتين الفرعيتين محدودة ، فيمكن ان يكون تناسب النماذج الوراثية المختلفة المولحة بالتلاؤم مع الوسط تناسبا سيئا ، وذلك بفعل الصدفة فقط (الظاهرة المسماة بالانعطافة الوراثية) . وان نزعة تعددية الاشكال «المتوازية» «لمجموعة الأفراد الفرعية» يجب والحالة هذه أن تعيد تكوين ذاتها بدءا من هذا المخزون السيء التوازن الذي يكون غائبا عنه بعض مورثات «مجموعة الأفراد» الأم . زد على ذلك ، بما ان الشروط الاصطفائية لها جميع الفرص لأن تختلف قليلاً ، فان مورثات أخرى سوف تصطفى وسوف يتمايز ، أكثر فأكثر ، التركيب الوراثي للمجموعة الفرعية المنعزلة عن تركيب المجموعة الأم . عندئذ ، يكون محتملاً ان تظهر آليات انعزال كنتاج لعدم التوافق الوراثي [١٢٢]

ان المجموعة الأم الأولى التي سكنت البحرين حسبما تخبرنا المصادر التاريخية في ضوء ما اكتشف من ادوات صيد بسيطة ترجع الى العصور الأولى ، [١٢٣] هي مجموعة من الصيادين ، خاصة صيد الأسماك من البحر وصيد بعض الحيوانات القليلة في البر . وهذا يعني في ذاته ان اشكالية الانغلاق والانفتاح موجودة ببذرتها منذ التكوين الأول للمجموعة الأم على أساس تعاملها مع مظهر طبيعي مختلف عن الآخر (البحر والبر) في كسب لقمة عيشها .

يبدو ان جماعة الصيد البري تحولت من مرحلة الصيد الى مرحلة الزراعة حسب شروط تاريخ تطور المجتمعات ، خاصة وان المظهر الطبيعي الذي كانت تتحرك في اطاره (وهو البر ، الأرض ، التربة) يؤدي بالضرورة الى مثل ذلك التطور والانتقال من أداة اقتصادية الى أداة أخرى . وقد اكتشف بالفعل في البحرين أدوات زراعية بسيطة مصنوعة من الحجر الصوان وغيره يرجع تاريخها الى فترة لاحقة لفترة أدوات الصيد المذكورة [١٢٤]

وهنا بدأ التمايز الواضح في حياة البيئة الزراعية ومجتمعها الذي بدت تغلب عليه شيئا فشيئا صفة الاستقرار والثبات والسكون ، ظاهريا على الأقل . لقد تحول مجتمع الزراعة ، اذن ، الى مجموعة فرعية كما تحول مجتمع البحر بدوره الى مجموعة فرعية أخرى ، مقابلة ، صفاتها الحركة والوثب والقفز السريع وركوب المجهول والمغامرة التي هي من

أبرز صفات أهل البحرين في كل مكان وزمان حسب تحليل اريست فيشر (١٢٥)

لقد تحولت جماعة البحر من صيد الأسماك من البحر الى الغوص على اللؤلؤ بعد ان تم اكتشافه، صدفة، على يد أهم صيادي الأسماك عن طريق الصدفة (ربما في بطن سمكة حسب ما تروي الحكايات الشعبية وهو أمر معقول جدا) أول مرة ومن هذه الصدفة المحتملة والمعقولة بدأت ملحمة الغوص التي لم تنته اقتصاديا إلا قبل سنوات قليلة (وان كانت سوق اللؤلؤ مازالت مستمرة حتى اليوم بصورة ضيقة) حين وجه اللؤلؤ الصناعي ثم النفط ضرباتهما الأخيرة الى تلك القاعدة الاقتصادية التي دامت آلاف السنين، وذلك في اخر الربع الأول من هذا القرن وتفرعت من الغوص تجارة اللؤلؤ وغيره من أنواع التجارة كالتمور، كما ازدوجت تجارة التصدير بتجارة التوريد، لتصبح البحرين، من ثم، أهم موانىء الخليج للتصدير والتوريد، حيث تتلقى البضائع من خارج الخليج لتعيد تصديرها الى المنطقة، حتى اليوم ومع التجارة جاءت الثقافات والديانات والاطماع الأجنبية والاستعمار

وفي المرحلة المعاصرة فقط، خاصة في اطار النفط والحركة الوطنية والحراك الطبقي، تلتقي البيئتان الزراعية والبحرية لقاء حقيقيا بعد أن دفعت عوامل الحياة ونشاطاتها بكل منهما مدهنا (١٢٦) اتجهت فيه حركة البحر نحو الخارج غالبا ونحو الداخل قليلاً شأنها شأن حركة الجزر والمد في سنة الواحد للآخر، ولكن بصورة معاكسة (الجزر اكثر من المد في البحرين نتيجة لضحالة، المياه حولها بصورة عامة والجزر يعني خروجا من البحرين بالتجارة وغيرها الى البحر والعكس صحيح) في حين اتجهت حركة الزراعة نحو الداخل والالتفاف حول نفسها مما اعطاها صفة الثبات والسكون واعطى بيئتها صفة العزلة والانطواء ومن هنا تأتي صعوبة تتبع تفاصيل الحركة عبر خيوطها التاريخية الملتفة على نفسها دائما والمتحركة ضمن اطارها السكوني الثابت في نقطة مركزية مضغوطة تمثل نقطة ارتكاز أساسية لحركة البيئة البحرية المداحة الى ما لانهاية لذلك تغدو العلاقة بين البيئتين (المركز والمحيط) ضرورية لفهم كامل الدائرة وفهم أية حركة، أيا كان اتجاه مسارها، نحو الداخل أو الخارج، لا يكون الا بفهم جذورها والكشف عن بذورها الأولى

ولأن الجو الاسطوري الذي يميز جزر البحرين كما ذكرنا، يؤلف التربة الأولى التي تنمو في اعماقها تلك البذور وتتفرع عنها جذورا وغصونا، نجد من الضروري امساك خيط البيئة الزراعية في التفافه الداخلي من طرفه الاسطوري الأول، تماماً كما فعلنا مع

البيئة البحرية من قبل ذلك لأن قسما كبيراً من خيط التطور التاريخي لكلا البيئتين غائر بعمقه في ضباب الاسطورة وغموض عوالمها الزئبقية الرجراجة بين الواقع والخيال وهذا ما يؤكده مؤلفا كتاب (البحرين عبر التاريخ) في خلاصة مطافهما حين يقرران «ان تاريخ (البحرين) يتأرجح خلال مختلف العصور في حلقات غير متصلة بين أسطورة «أرض حياة الفردوس» وبين بعض الموجودات الأثرية التي عثر عليها ضمن حفريات البعثة الدانمركية بجزيرة البحرين ، وبين تلك الاساطير وهذه النتف المتبقية من قطع العصر الحجري وأدوات العصر البرونزي يمكن القول بأن ساكني منطقة (البحرين) كانوا من الصيادين ثم أصبحوا كذلك مزارعين ومن الزراعة اشتهرت هذه المنطقة وخاصة في عهد الجرها بالتجارة ومقايضة مختلف البضائع مثل الأخشاب والذهب والنحاس ، كما كانت تصدر اللؤلؤ الى ما جاورها من أمصار وان (البحرين) كانت كذلك أرضاً مقدسة ذات حضارة مستقلة في مقوماتها وخصائصها وآثارها (١٢٧)

نحن نعرف ان اسطورة دلمون هي اسطورة نشوء الكون في تزاوج الأرض بالماء (١٢٨)

أي ان أساسها هو تلك الثنائية الاشكالية التي تطور عن طرفيها كل من البيئة البحرية والبيئة الزراعية لذلك تعبر الاسطورة نحوها الصبابي المتداخل ورمزها الدائري والتفافها حول نفسها في حركة مزدوجة بين الداخل والخارج ، حاملة في طياتها اختلاف الذات بالعالم وتداخل الجزء بالكل وتزاوج الشيء بنقيضه ، تعبر عن أول صيغة حبيبية جمعت المركز في المحيط ، والحركة في السكون ، والماء في التراب لذلك فهي تشكل ذاكرة حية متناسلة في خلايا كل من طرفي الثنائية الاشكالية حتى وهو في أشد صوره اختلافا وتمايزاً ، ما دام الواحد منهما يدل على الآخر ، في حالة التناقض ، ويشير اليه ويتكامل به ، تماما كما تشير الحركة الى السكون ، وتدل الدائرة على مركزها ، ويمتزج الماء بالتراب في حركة تكاملية سبق وان وقفنا عندها طويلاً (حبة الرمل وقطرة الماء) ضمن قانون حركة المادة وهذا يعني ان مضمون الاسطورة يوازن بين طرفي ثنائية الحياة ضمن اطارها الاشكالي المتبادل الحركة والوضع والصورة «وما أسطورة تلمون الا حكاية تدور حول التفاعل بين الأرض (التربة) والماء في تمازجهما وحدة أصل الكون» (١٢٩)

غير ان تدقيق النظر في مضمون الاسطورة وصياغتها يكشف لنا عن فروق أساسية بين طرفي تلك الثنائية التي تعبر عنها وهذه الفروق هي التي تجعل منهما طرفين صالحين لخلق اشكالية ثنائية قابلة للنمو والتوالد والامتداد ان الفرق بين الماء والأرض أوضح من ان يشار اليه ،

فالأول دو قوة ايحابية قادرة على الحركة والمبادرة والاحصاب ، اد «يعتبر انكي سيد الأرض ومصدر الدكاء والفهم وانكي سيد الاحصاب ومن الاحصاب تنبع الولادة وهده الأحيرة هي سر الحياة» [١٣٠] في الوقت الدي تحد الطرف الآخر (الأرض) دا قوة سلبية (ويبعي الالتفات الى كون السلبية صفة للقوة) فهو ساكن ، مستقبل للخصب ، متلق ، منطو على نفسه ، لكنه في نفس الوقت منتج ، بسبب تلك الصفات السالبة ، للعطاء ، دونه يصعب التكهن بمصير الطرف الآخر (الماء) وحتى بوجوده «وهكذا نرى الأرض (كأنثى) ساكنة ومستقبلة للاخصاب ومنتجة للعطاء بينما الماء (الذكر) فيه خلق وهو متحرك يجري بارادة ولتحقيق غرض ما» [١٣١]

وأوضح دليل على ضرورة التمييز بين الطرفين بقدر ضرورة التوحيد بينهما (وهذا هو الطابع الاشكالي في الثنائية) هو مخاطبة نص الاسطورة كلاً من الطرفين (الالهين اله الأرض واله الماء) بصيغة الجمع (انتم) ، وليس بصيغة التثنية (المتوقعة في مثل هذه الأحوال) والتي تؤكد على ثنائيتهما التقابلية اللااشكالية ، وليس أيضا بصيغة المفرد التي يمحي فيها أثر طرف على حساب الآخر ، دون ان يتيح فرصة لقيام مبدأ الثنائية اما صيغة الجمع المستعملة فهي الوحيدة القادرة على طرح معادل لغوي قادر على تصوير حالة تفاعلية (اشكالية) نامية ومتطورة ومنتجة عبر قانونها الاشكالي الذي يداخل ضمنا بين صيغة المفرد وصيغة المثنى في اطار صيغة الجمع الشمولية ذلك ان «كل هو فردي انما هو وجه للهو الجمعي» (لعبة المعنى ١٣٣)

ان ما يلفت النظر ، حقا ، في نص هذه الاسطورة الاشكالية هو ارتكازه بصورة واضحة وعنية على مفردة «الأرض» مسرحا ومكانا تدور على تربته حركة كل من الالهين المخاطبين اله الماء (إنكي) والهة الأرض (نينهر ساجا) ، «وهذه الجزيرة كانت قد منحت للالهين إنكي ونينهر ساجا معا وذلك عندما قررت الآلهة (في فجر الخليقة) تقسيم هذا الكون فيما بينها» [١٣٢]

وهذا التأكيد على عنصر الأرض بتكراره في صياغة النص بصورة لافتة متنوعا بصفات الطهر والنقاء والحبور والنور والنداوة والعذرية والدوران والخلود (في الوقت الذي ينحصر وجود (انكي) في صيغة المخاطبة الجمعية) ، وبتكراره المزدوج بين الصياغة (التي كادت تقتصر عليه) ومضمونها الثنائي الذي كانت الأرض طرفاً فيه ، دليل قوي في نظرنا على اعتبار عنصر الأرض مركز العلاقة بين طرفي الثنائية (الأرض والماء) انها مركز الدائرة الذي مهما اتسع محيطها في حركة لا قرار له كالبحر فهو عائد اليها لا محالة لأنه موجود فيها وهي موجودة فيه كل طرف يحمل الآخر بطريقة الخاصة وينطوي عليه ضمن نسيج

وتركيبه ، تماما كعلاقة حبة الرمل بقطرة الماء حسبما فصلناها وإذا كانت الأرض واقعا ماديا صلبا فهي لا تعدم الاحتفاظ بامكانية السيولة والذوبان في قانون الماء متحولة الى طين لازب (هو حميرة الحياة) وإذا كان الماء سيولة دافقة فهو لا يعدم الانطواء على قانون صلابة المادة الرملية التي يتحول بموجبها أيضا الى نفس تلك الحميرة الحية ، حيث يلتقي الالهان انكي وبينهر ساجا في لحظة اشكالية وسطى (١٣٣)

لقاء متكافئا تسوده وحدة الضدين السالب والموجب على سرير الزواج (الأرض) وهناك على سرير الأرض نفسه يتوالدان ويتكاثران وعلى سرير الأرض فقط ، لا الماء ، يتحدران ويؤسسان لهما وجودا وحلولا (١٣٤)

في أرض الحلود «وهكذا تتكرر الحكاية نفسها بين جريان وتزاوج وتوالد لذلك تتكرر في نص الاسطورة مفردة الأرض ، وتقف واقعا ماديا صلبا يصل بين الشكل والمضمون ، وسريرا متينا يتزاوج فوقه وتحته الالهان المتشاكلان وبذلك لا يجد الماء نفسه الا في الأرض ، في حين لا تجد الأرض اشواقها الا بالماء «فمن فاعلية تلك الالهة تأتي نباتات «المأكل» ونباتات الثياب (الملبس) ومن هذه وتلك تتوالد عدة قوى التي مهما صغرت فهي لم تزل زاخرة بنفعها للحياة» (١٣٥)

ان عنصر الأرض في الاسطورة ، تؤدي ثلاثة ادوار وظيفية ، فهي تهيىء مهادا للتزاوج بالماء ، وتتحول بفعل ذلك التزاوج الى حميرة حية ، واخيرا تتحول تلك الحميرة الى رحم خصب وولود يرهص بكل امكانيات الخصب والولادة الى ما لا نهاية ولكن يتم كل ذلك عبر قوانين ثابتة ودورات منظمة في فصول متعاقبة ومتكررة عبرانها متجددة دائما رغم تكرارها وتعاقبها وانتظامها ، تماما كحركة النول في يد الحلاج (اذا شئنا تضييق مساحة القانون) ، وكحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس في وقت واحد (اذا ما شئنا توسيع تلك المساحة) لذلك فان الأرض أكثر ثباتا وصلابة وقابلية للتحول والتفاعل من الماء وان كان ذلك لا يتم لها الا بالماء ذاته فهي الماضي ، اذن ، والحاضر والمستقبل أما الماء فهو تلك القوة التي يمكنها الربط بين تلك الأزمنة ، انه الزمن نفسه ، حيا ، متحركا ، ومتحولاً الى مختلف اشكال المادة صعودا الى البخار والحرارة ونزولاً الى الطين والصخر (١٣٦)

ولكن الأرض هي الشكل الأوضح والأصلب من اشكال الماء ، انها المكان المنتج الخصب الذي يحقق فيه الزمان وجوده الحقيقي بحيث يتحول الى واقع وهذه الاشكالية الزمكانية المجردة كما نلاحظ ، ترتبط اشد الارتباط بعلاقة الماء بالأرض ، تلك الاشكالية المادية ـ الاسطورية . وبهذا الارتباط تتغذى اشكالية الواقع بالمثال التي وقفنا عندها من قبل ، فما

حديدا

لقد كان للتفاعل بين الاله انكي والالهة بينهر ساجا ، بعد الذي اوضحناه ، نتاج كثير متعدد الاشكال والصور ومتطور المراحل ، كله يميل الى تأكيد حقيقة الماء في الأرض بصورة ملحوظة واكثر صلابة من تأكيد حقيقة الأرض في الماء التي هي موجودة ولكن تحتاج ، بسبب تورعها الحركي المتواصل واتساع محيطها اللا محدود ، الى رصد مختلف لتلمسها وحصر اشكالها ومن تلك الصور والاشكال التي تعنينا هنا في اطار البيئة الزراعية في البحرين ، مختلف النباتات (منتوجات الزواج الالهي الأول بين اله الماء والهة الأرض ، والتي هي بدورها آلهة النبات باختلاف انواعها كما تقترح الاسطورة التي تضع لكل منها اسما مثل أوتو Uttu آلهة «الثياب والنسيج (١٣٧)

أما أكمل اشكال هذه النباتات (الإلهية) وأكثرها صلابة وبقاء وتجسيدا لمركز حركة الماء في شكلها المادي المحسوس ، فيتمثل في شجرة النخيل ، تلك الإلهة الاسطورية المسماة انزك INZUK في العصر الدلموني والتي تمثل مركز الحركة بالنسبة الى الماء من حولها ومن خلالها (١٣٨)

انها المسئولة عن حفظ الحياة والحضارة والوجود والحكمة والذكاء [وكلها من صفات الماء (الاله انكي)] في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وفي مختلف صورها واشكالها من طورها الأدنى المتمثل في الاعشاب والطحالب الى طورها الأعلى المتمثل في الانسان بمختلف ابعاده (١٣٩)

ولم تترعرع مكانة هذه الإلهة الأم (النخلة) التي كانت تمثل محور البيئة الزراعية في البحرين وكل المنطقة الا مع بدايات القرن في وقت واحد تقريبا مع صنوها البحر (زوجها الماء) بعد ان تحول كل منهما الى اشكال جديدة من ، الواقع المعاصر ، وان كانت هذه الاشكال مناقضة لطبيعتهما الأساسية أو اشكالهما الأولى التي تمثلت في البنية العامة لكل من البيئتين البحرية والزراعية في وقتها ، مما دفعهما في الوقت الراهن أمام تطور وزحف اشكال الواقع المعاصر الى الانحسار والتراجع عن حياة الانسان الحقيقية ولكن لكي يسكنا ذاكرته بصورة حية فعالة تضغط عليه أكثر مما سبق في تحديد أشكال الواقع الجديد وهذا ما جعل هذين العنصرين بالذات ينفجران انفجارا في تجربة الفن والأدب والشعر والثقافة المعاصرة في البحرين والخليج أكثر من أي وقت مضى حين كانت البيئتان واقعا حياتيا معيشا كما هو النفط وغيره من الصناعات في وقتنا الراهن التي لم تستطع ان تخلق أدبا يعبر عنها بصورة مباشرة ذلك ان الابداع أساسا ، وليد الذاكرة والحلم

وأخيرا ، يمكن القول ان غياب عنصر الصحراء ضمن بيئات البحرين ، مما يشكل خلخلة في بنية

الحياة ونقطة ضعف واضحة في مجمل تاريخ هذه الجزر ، قد جعل البيئتين الأخريين الوحيدتين (الزراعة والبحر) يتعاونان ويتكاملان في حركة تفاعلية متميزة جعلت لكل منهما شأناً خاصاً من جهة ، كما جعلت للعلاقة بينهما شأناً أكثر خصوصية تميزت به جزر البحرين على سائر منطقة الخليج وهي خصوصية افرزتها تلك التوالدات الاشكالية المستمرة التي ظلت تسم واقع البحرين على الصعيدين الجغرافي والتاريخي نظراً لعدم تكامل أضلاع المثلث البيئي ، مما دفع بالضلعين الوحيدين أن يقوما ، ولو بطريقة التصور والوهم أحياناً ، بدور ذلك الضلع الغائب وذلك بخلق علاقات اشكالية متواترة ومتوالدة تملأ الفراغ الواقع لتشكل البيئة مما يخلق توازنا ، ولو وهميا كما ذكرنا ومؤقتا ، لذلك الشكل البيئي الناقص يقول الدكتور محمد غانم الرميحي «أما في البحرين والتي تبلغ المساحة المزروعة فيها اقل من عشر مساحتها الكلية فقد كانت الزراعة من المصادر الاقتصادية المهمة في حياة السكان قبل البترول» (١٤)

وهذا يعني ان البيئة الزراعية بيئة ضيقة محدودة على أهلها ، لذلك كان دائماً يكملها البحر ويوسع من أفقها الضيق وهو ما جعل أهل البيئة الزراعية كثيراً ما يشتغلون بالغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك ، مما جعل العلاقة دائماً بين البيئتين علاقة مباشرة ، ذهاباً واياباً ، يقول أمين الريحاني «أما سكانها الذين لا يغوصون ولا يركبون لرزقهم البحار ، فهم يزرعون الأرض والذين لا يزرعون يتاجرون» (١٤١)

ان غياب الصحراء ، في حقيقة الأمر ، عن بيئة البحرين كان عظيم الحضور ، وذلك بتحويل واقعها المفقود الى تمثلات فنية وواقعية ذات طابع اشكالي دائما ، تمثلة «الصورة البديل» ، سواء على صعيد الواقع أو الفن ان الذاكرة هنا تلعب دور الواقع ، والواقع يقوم بدور الذاكرة لذلك كان البحر والنخلة دائما رمزين على الرغم من انهما يمثلان دعامتي الواقع المعيش تقول الدكتورة سهير القلماوي في دراسة لها عن أدب البحرين «اما الطبيعة فتقف النخلة فيها وقفة الناقة عند الشاعر الجاهلي» (١٤٢)

واذا كانت الناقة تمثل حركة الزمن في حياة البدوي ، فان النخلة تمثل لديه المكان المفقود أو الزمن الواقف عن الحركة وذلك ما وجده الانسان في البحرين متمثلاً في البيئة الزراعية ، فتحولت لديه صفات الناقة (الزمانية) الى تعلق بصفات المكان الثابته أو المتحركة في سكون مكثف مضغوط اشبه بالزمن الدائري (فكرة الخلود) تماما كما فعل جلجامش من قبل يقول الدكتور فؤاد اسحق الخوري «يعرف أهل البحرين بعضهم بعضاً ، كما يعرفون الاماكن والقرى والينابيع العذبة ، بألفة واضحة يضعف معها

فصل الحياة الخاصة عن الحياة العامة يعرفون بساتين النخيل ومصائد الأسماك (الحضور) والمقامات الدينية والمزارات بأسمائها ومواضعها وتاريخ بنائها وملكيتها

هذا هو الوضع قبل سنوات فقط حين استقرأ المؤلف واقع البحرين الحديث وعاينه معاينة ميدانية شخصية ، وهو وضع منحدر منذ آلاف السنين كشفت عن حقيقته الكشوفات الأثرية الحديثة في البحرين وكان يمكن أن يكون مثل هذا الواقع الخصوصي متحجراً ومنعزلاً تماماً بعد مرور هذا الزمن الطويل عليه ، لو لا أن بيئة البحر تمثل وجهه الآخر المتحرك أبدا والذي يغذي نمده وجزره خصائص ومكونات الواقع الثابته في البحرين بنسغ من التجدد والتحول والاستمرارية فالبيئة الزراعية التي تتسم حياتها بالثبات وقوانينها بالاستقرار وجوها بالسكون كثيراً ما تتعامل مع البحر ، بل نادراً مالا تتعامل معه ، سفرا أو تجارة أو غوصاً على اللؤلؤ أو صيداً للأسماك الى غير ذلك والعكس صحيح أيضاً بالنسبة الى بيئة البحر ، وان كان ذلك بصورة أضيق ولعل البيئتين الزراعية والبحرية تضيفان الى تسمية البحرين بهذا الاسم المثنى تفسيراً جديداً الى ما هو موجود من التفسيرات الموضوعية الكثيرة

- الدكتور علوي الهاشمي
- جامعة البحرين
- كلية الآداب
- قسم اللغة العربية
- يوليه ١٩٩٢م

الهوامش :

٨١) انظر مادة (وقع) في القاموس المحيط . للفيروزابادي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، ط ؟ ، تاريخ ؟
ولمزيد من التفاصيل في مادة (إيقاع) راجع مقالة (مفهوم الايقاع) لمحمد الهادي الطرابلسي المنشور في (حوليات الجامعة التونسية) كلية الآداب العدد ٣٢ عام ١٩٩١

٨٢) للتحقق النظري والعملي (العلمي) من تلك التحولات الثنائية ، يمكن الرجوع الى دراسة انجلز مقدمة «ديالكتيك الطبيعة» ، المنشورة في (مختارات ماركس انجلس ، الجزء الثاني ، موسكو ، دار التقدم تاريخ ؟ ، ط ٢

٨٣) الوهم والواقع ص ١٩٩

٨٤) إن ما يعنينا من مقولات انجلز واطروحاته ومنظوماته الفكرية ، بعدها الفلسفي المتصل بتفسير المادة وقوانينها ، وليس البعد الايديولوجي (الماركسي)

٨٥) حسب انجلز فالمادة وحركتها لا تفنى ، بل تتحول الى وجوه جديدة من المادة والحركة الى ما لا نهاية ، فهو يقول «ان علم الطبيعة الحديث مضطر الى أن يقتبس من الفلسفة الموضوعة القائلة باستحالة زوال الحركة ، وبدون هذه الفلسفة الموضوعة ، لم يعد في وسع علم الطبيعة أن تقوم له الآن قائمة»
هذا هو الدوران السرمدي الذي تتحرك فيه المادة انظر مقالة انجلز (مقدمة ديالكتيك الطبيعة) مختارات ماركس انجلس دار التقدم ، موسكو ترجمة الياس شاهين

٨٦) فلسفة الحياة الروحية د مقداد يا لجن ، ط ١ دار الشروق ، بيروت ١٩٨٥ ، ص١٣

٨٧) الوهم والواقع ص ١٩٧

٨٨) مجلة «الوثيقة» ، البحرين ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، يوليو ١٩٨٣

٨٩) يرى بعض الباحثين ان تاريخ دلمون القديمة يمتد الى ما قبل أسطورة جلجامش نفسها بحيث يفترض أحدهم «ان (اينكي) كان في البداية إله ديلمون وان الملحمة الأسطورية انتقلت من ديلمون الى بلاد ما بين النهرين ، ومن المحتمل ان السومريين اعتقدوا بأن آلهتهم كانت تقضي جل وقتها في فجر البشرية على أرض ديلمون» انظر مقالة (بلاد دلمون العاصمة) بقلم ستيفان بيكيتوف مجلة الوثيقة ، العدد التاسع ١٩٨٦ وانظر ايضاً أثر دلمون بالنسبة الى الحضارة المصرية القديمة في مقالة (تلك الجزيرة على حافة العالم) بقلم مايكل رايس مجلة الوثيقة العدد العاشر ١٩٨٧

٩٠) يذكر ابن خلدون في مقدمته عن دور ذلك المحيط المائي وأثره في حياة شبه

الجزيرة العربية مما يجعلها موطناً «صالحاً» للحياة رغم وقوعها فيما حدده بالاقليم الأول والثاني الذي تعسر فيه الحياة «فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث فكان لرطوبتها اثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر» ص ٦٦ - المقدمة الثالثة دار العودة ، بيروت ١٩٨١

٩١) ديالكتيك الطبيعة

٩٢) مجلة «الوثيقة» ، البحرين ، العدد ٣ ، السنة ٣ ، يوليه ١٩٨٣

٩٣) يرى الدكتور سيد القمني انه «في مناطق الخصب ، التي بدأ الأقدمون يستقرون فيها ، بدأ صراع انساني رفيع القدرات بين الانسان والطبيعة ، من أجل أن يثبت اقدامه في مقرها ، رافضاً التراجع الى طور البداية والبداوة ، تطلعاً الى حياة اقدر على تحدي مزاج الطبيعة المتقلب ، وتحديها المستمر لهذا الكائن الذي نشأ من رحمها ، ويحاول السيطرة عليها وكبح جماحها لصالح وجوده واستمراره»
انظر (الأسطورة والتراث) د سيد القمني ، ط ١ ، دار سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٢ ص ١٥٧

٩٤) المصدر السابق

٩٥) استخداما لمصطلحي القوة والفعل هنا ، بالمعنى الفلسفي المعروف حول الوجود المتحقق والوجود الممكن

٩٦) هذا التحليل ينطبق على كل القوى التي حاولت الاستيلاء على البحرين ، خاصة القبائل العربية

٩٧) لمزيد من التفاصيل حول اشكالية «الدولة والقبيلة» في البحرين يمكن الرجوع الى كتاب (القبيلة والدولة في البحرين) للدكتور فؤاد اسحق الخوري ، معهد الانماء العربي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٣

٩٨) لمزيد من التفاصيل عن حياة البداوة راجع مقالة هارولد ديكسون (عرب الصحراء) في مجلة الوثيقة العدد ١٨ يناير١٩٩١

٩٩) يتجاوز سحر دلمون الانسان البدوي ليبلغ انسان الحضارتين القائمتين انذاك في ارض الرافدين ومصر راجع مقالتي (بلاد ديلمون العامصة) و(تلك الجزر على حافة العالم) في مجلة الوثيقة المشار اليهما سابقاً

١٠٠) ملحمة جلجامش فراس السواح - المقدمة ص ٩

١٠١) البحرين عبر التاريخ عبدالله بن خالد ال خليفة ، وعبدالملك الحمر ، ص ٢٥ ، ط ٢ ، ١٩٧٢

١٠٢) المصدر نفسه ص ١٥٤

١٠٣) انظر سورة الرحمن الايات (مرج البحرين يلتقيان الخ) والتي تشير الى ينابيع المياه العذبة وسط مياه البحر المالحة وهو ذاته ما اشارت اليه ملحمة جلجامش وطرفة بن العبد في معلقته يشير الى سفن البحرين

١٠٤) اكتشفت في البحرين أدوات صيد بدائية ترجع الى عصور الانسان الأولى

انظر (البحرين عبر التاريخ) ص ١٥

١٠٥) هذا الاسم كان يطلقه تجار حضارة ديلمون القديمة في سجلاتهم التجارية على اللؤلؤ انظر (الوثيقة)

١٠٦) انظر نموذج المركب البدائي ويسمى (بويرية) وتوجد نماذج منه حتى اليوم على سيف البحرين انظر (البحرين عبرا لتاريخ) ص ٢٢.

١٠٧) يقول السير ارنولدت ويلسون عن منطقة الخليج «فقد اعطاه موقعه المركزي على احد الطرق بين الشرق والغرب منذ فجر المدنية ، أهمية خاصة ، حيث كان مسرحاً لأحداث عظيمة حددت اتجاه تطور الحس البشري ، في الوقت الذي يرجح أن البحر المتوسط انذاك لم تمخر عبابه سفينة» ص ٣١ (الخليج العربي) ترجمه عبدالقادر يوسف ، مكتبة الأمل الكويت

ويرى مايكل رايس في حديثه عن الفراعنة «ان تواجد الملاحة كعنصر هام يبطل فكرة وصولهم الى مصر عبر الصحراء العربية وانه من المحتمل انهم انحدروا الى مستوطنة ما في الخليج «كجزر البحرين» انظر الوثيقة العدد العاشر ١٩٨٧ كما تروي بعض المصادر التاريخية أن الفينيقيين أيضا كان منطلقهم الأول من جزر البحرين

١٠٨) الخليج العربي قدري قلعجي ، فصل الملاحة والحركات البحرية في الخليج العربي ص ٣٧ ، دار الكاتب العربي ولمزيد من التفاصيل عن التاريخ البحري واهميته في منطقة الخليج انظر (الفصل الأول) من كتاب (الخليج العربي) للسير ارنولدت ويلسون ترجمة د عبدالقادر يوسف ، مكتبة الأمل ، الكويت ط؟ ت؟

١٠٩) لمعرفة المزيد عن تفاصيل الغوص على اللؤلؤ وتجارته انظر (وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين) بقلم الدكتور علي أبا حسين وب ك بارين في مجلة (الوثيقة) العدد العاشر ١٩٨٧

١١٠) المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، اطروحة دكتوراة دولة ، الجامعة التونسية ١٩٨٣ ، مطبوعة على الآلة الكاتبة ص ٥٨ وقد طبع جزء هام منها تحت العنوان نفسه ضمن سلسلة كتاب (عالم المعرفة) الكويتية عدد ١٠٥ (سبتمبر ١٩٨٦)

١١١) ملوك العرب امين الريحاني ، ج ٢ ، ص ٢٣٧

١١٢) «يتشكل هذا الارخبيل اكبر مجموعة جزرية في الخليج العربي وأقدمها عمراناً ، فقد أوردت النصوص التاريخية ان أول تقدم تجاري بحري ، في هذه الجزر على يد الفينيقيين والكنعانيين» ص ١٣٨

انظر للمزيد من التفاصيل «فصل ارخبيل البحرين» في كتاب (جزر الخليج العربي ـ دراسة في الجغرافية الاقليمية) لمؤلفه سالم سعدون المبادر ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨١ ، ط؟

١١٣) لا تختلف أي من المصادر التاريخية على هذه الحقيقة المسلمة والتي أعطت

البحرين صيتها الواسع.منذ عصر الحضارة الدلمونية ، إذ اقترن اسمها باللؤلؤ حتى العصر الحديث قبل أن يكتشف اللؤلؤ الصناعي وبعده النفط الأسود يقول الريحاني في ملوك العرب (ص ٢٢٦ ، ج ٢) «ان اللؤلؤ مصدر الثروة في البحرين وأشهر ما اشتهرت به الجزيرة وقد أجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو اكبر مغاص في العالم ، مثلما أجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاء وحسناً سائر اللآلىء» ويتغير الأمر من حال الى حال حالقاً اشكالياته الخاصة المتصلة والمتولدة عما سبقه من واقع انظر لذلك (وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين) المشار اليه سابقاً (الوثيقة)

١١٤) جزر الخليج العربي ص ٣٠

١١٥) مقدمة دبا لكتيك الطبيعة

١١٦) التجدد الاجتماعي إيف باريل ، ص ٥٨ انظر فصل (تعريفات اعادة الانتاج البيولوجي)

١١٧) انظر كتابه الشهير (أصل الأنواع) ، خاصة فصل (الانتخاب الطبيعي)

١١٨) انظر المقدمة الثالثة والرابعة والخامسة (ص ٦٥ - ٦٩) في مقدمة ابن خلدون وليس من قبيل الصدفة أن يبدأ ابن خلدون مقدمته في أحوال المجتمع والعمران (اي التاريخ الاجتماعي) بتلك البسطة الواسعة التي تتناول أثر البيئة بمائها وهوائها وخصوبتها وجبالها وبحرها وانهارها وغير ذلك على احوال البشر والوانهم وأخلاقهم ذلك ان صاحب المقدمة ، في اعتقادنا هو اول من ادرك بوعي ان الجغرافية هي عبارة عن تاريخ متجمد وان التاريخ بالمقابل هو جغرافيا متحركة

١١٩) المصدر السابق المؤلف بقسميه الأول والثاني

١٢٠) المح ، هنا ، الى ذلك المفهوم الأيديولوجي الهش الذي ظل كثير من المثقفين يتشبثون به ، فوقيا ، مؤكدين على ضرورة دراسة الوطن العربي أو منطقة الخليج كوحدة متكاملة ، متهمين غير ذلك بالاقليمية والعنصرية والشوفينية في الوقت الذي لا يمكن أن تكون هناك وحدة حقيقية (غير وهمية ولا فوقية) إلا بدراسة عناصرها المادية القائمة على خصوصية كل جزء وما يستطيع أن يقدمه من غنى وقوة لذلك الكل الموحد وكما لا تكون هناك اية عالمية او انسانية او أممية دون خصائص قومية ووطنية ، فكذلك لا وحدة عربية أو خليجية دون ركائز من الخصوصية والتمايز الاقليمي حتى في اطار الاقليم الواحد والوطن الواحد لابد من فحص التمايزات التي من خلالها تبنى وحدة الاقليم ووحدة الوطن على أساس من التنوع والتعدد والغنى في الخصائص والألوان كشأن قوس قزح

١٢١) التجدد الاجتماعي إيف باريل ص ٥٨

١٢٢) نفسه ص ٥٩

١٢٣) انظر (البحرين عبر التاريخ) ص ١٥ ويرجع تاريخ هذه الأدوات الى

عشرين او خمسين الف سنة خلت ، كما يذكر المصدر

١٢٤) المصدر نفسه انظر فصل (البحرين قديماً)

١٢٥) انظر مقالة (ادب البحر) لأحمد محمد عطية ، مجلة الأقلام ، عدد نوفمبر ١٩٧٧

١٢٦) هذا لا يعني ان البيئتين لم تلتقيا أبداً قبل ذلك فالجعرافيا والتاريخ كلاهما يحدران على التقاطع في نقاط كثيرة يلتقيان فيها ويتداخلان من خلالها ، وقد أشرنا الى تجارة التمور البحرية والى القوارب المصنوعة من جريد سعف النخيل التي خاض عليها الانسان البحري اول مغامراته كما أن أكثر صيادي الأسماك حتى عصرنا الراهن هم من البيئة الزراعية ومنهم صناع شباك الصيد والسفن الخ

ولمزيد من التفاصيل عن هذا اللقاء ومواضعه وتقاطعاته بين البيئة الزراعية والبحرية يمكن مراجعة كتابنا (ما قالته النخلة للبحر) دار الحرية ، بغداد ١٩٨١

١٢٧) ص ٣٢

١٢٨) نفس المصدر ص ١٦٩ انظر القسم الخاص باسطورة تلمون

١٢٩) نفس المصدر ١٦٨ (البحرين عبر التاريخ)

١٣٠) نفس المصدر

١٣١) يرى اريك فروم في تفسيره لأسطورة الخلق ان الآلهة الذكور استعاضوا عن الولادة البيولوجية (الطبيعية) ، حتى لا تتفوّق الالهات عليهم ، بالخلق الفني والابداع الفكري «فحتى يتسنى للرجل أن يهزم الأم لابد له من البرهان على انه ليس أدنى منها قيمة ، وعلى انه يتمتع هو الآخر بموهبة التوليد ولكن بما انه لا يملك رحماً يلد (أو يولد) فقد كان عليه أن يلد بطريقة أخرى كان عليه أن «يخلق» بفمه ، بكلماته ، بافكاره»

انظر (اللغة المنسية) مدخل الى فهم الأحلام والحكايات والأساطير اريك فروم ترجمة حسن قبيسي ، ط ١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٩٢ ، ص ٢١٠

١٣٢) نفس المصدر ص ١٦٩

١٣٣) يوصف انكى بأنه إله الماء (الآس) اما نينهر ساجا فهي تتحرق وتذوب شوقاً اليه وفي لحظة مركبة من ذوبان الصلب وتصلب الذائب ، يلتقي الطرفان ويتزاوجان وينتجان

١٣٤) نفسه ص ١٧٠

١٣٥) نفسه ص ١٧٤

١٣٦) مثلما قال داروين وغيره من علماء الحياة في العصر الحديث ، كان ابن خلدون يقول في تحولات المادة ويسميها (عالم العناصر المشاهدة) وكيف «تدرج صاعداً من الأرض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى ان يستحيل الى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل

بعض الأوقات والصاعد منها الف مما قبله الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهو الطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها». المقدمة ص ٧٦ (المقدمة السادسة)

١٣٧) البحرين عبر التاريخ ص ١٧٠

١٣٨) للمزيد من التفاصيل الدقيقة في مسالة هذه العلاقة خاصة بين الانسان والنخلة والانسان والبحر انظر دراستنا الموسومة (ما قالته النخلة للبحر)

١٣٩) يرى ابن خلدون في رصده الدقيق (رغم عموميته) لأشكال المادة ان (النخل) هو أخر افق النبات الذي تمثله الحشائش وما لا بذر له والذي هو متصل مباشرة بافق المعادن قبله وان افق النبات في شكله الأعلى المتمثل في (النخل) متصل باول افق الحيوان مثل الحلزون والصدف ويفسر ابن خلدون معنى التحول المادي عبر قانون ما يسميه هو (الاتصال) بقوله «ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان آخر افق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير اول افق الذي بعده». ص ٧٦ ـ المقدمة السادسة

١٤٠) البترول والتغير الاجتماعي ص ٥٦ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥

١٤١) ملوك العرب ، ج ٢ ، ص ٢٣٨

١٤٢) دراسات في ادب البحرين معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة

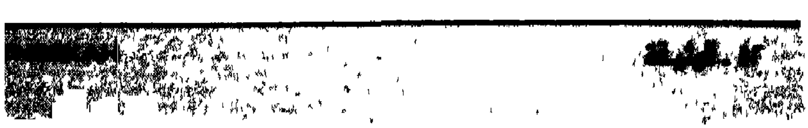
إعــادة ترتيب أوراق المؤرّخ

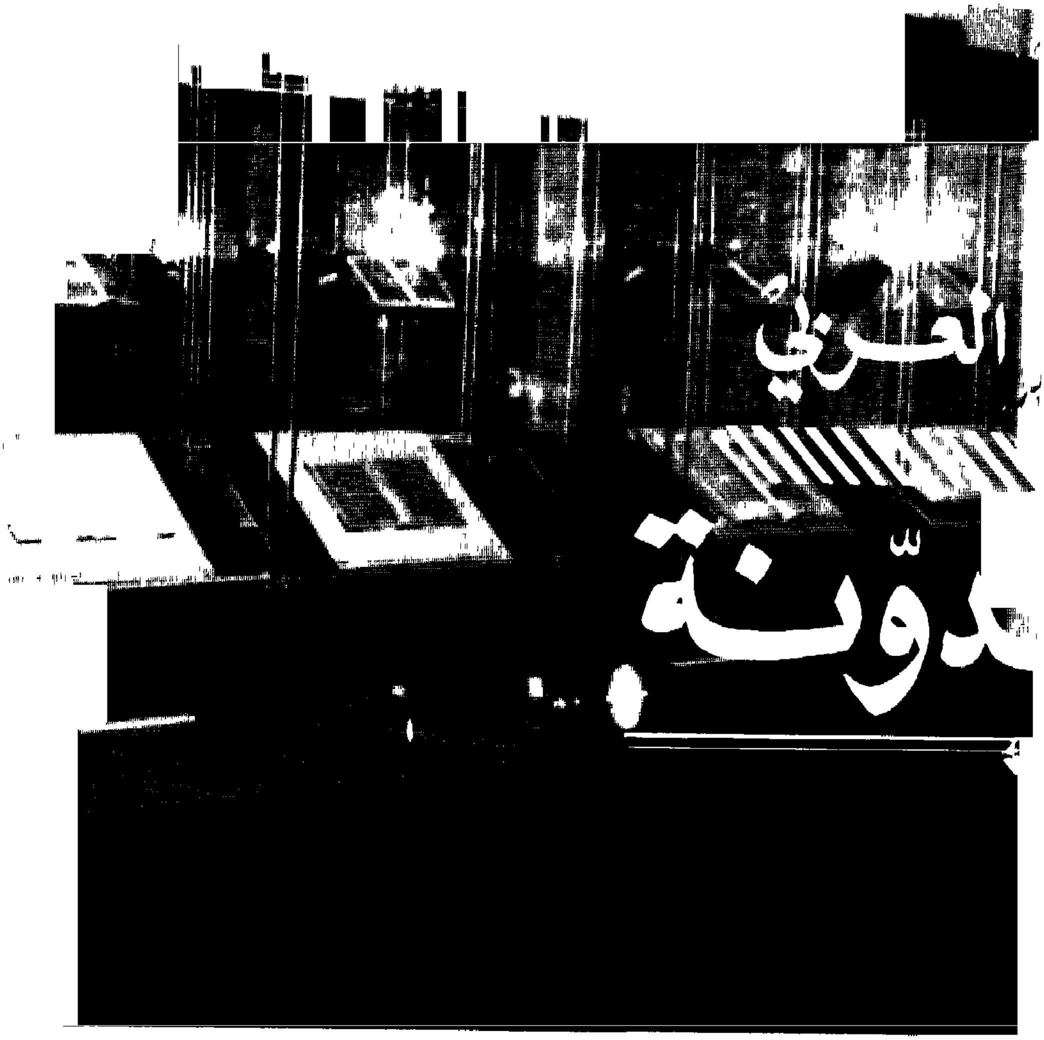
الرّواية الشفوية والـ

اسماعيل نوري الربيعي



ما هو الهام وما هو الأقل اهمية بالنسبة لمصادر المؤرخ ؟ وأي المظان والمراجع التي عليه ، أن يوليها جهده وانتباهه ورعايته فالمؤرخ يجد نفسه وقد أعياه البحث في الفرز والانتقاء بين كم المصادر التي تتناول موضوع بحثه واذا ما تماثلت بين يديه عناصر البحث التاريخي ، حتى نراه يشق مدخلا جديدا في ترتيب الحوادث التاريخية ، وفق ما تقدمه النصوص التي قام بجمعها وغالبا مايتجه نحو تبني وجهات النظر المدونه ، ليخلص نفسه من مأزق الدخول في اشكالية مدى الصدق وقوتها ورصانتها بالنسبة للرواية الشفوية حتى عمد البعض من المؤرخين الى





التغاضي عن الروايات ، حتى واهمالها تخلصاً من فتح ثغرة يمكن من خلالها أن تكون سبة عليه حتى كانت الغلبة في النهاية للنص المكتوب ، ازاء مكانة ثانوية للرواية الشفوية ، يجعلها المؤرخون عادة في ذيل قائمة المصادر التي اعتمدوها

وغالبا ما يرجع المؤرخ الى الرواية الشفوية ، في حالة فقدان النص المكتوب ، واتجاه كهذا يقود بكل تأكيد الى اهمال وقائع رئيسية تمتلك مفاتيح هامة لمعالجة الواقعة التاريخية وبهذا يكون الانتاج التاريخي قد خسر حقائق هامة ومعطيات شديدة الالتصاق بالحدث نتيجة للهامشية التي يقدم عليها المؤرخ في

تناولة للرواية الشفوية خلال المقابلات الشخصية التي يعمد اليها وليس أبلغ دلالة من الأشارة التي يعمد اليها د مسعود ضاهر حيث يقول «ان من يعتقد أن الوثائق الشفوية لاتصلح كمستندات علمية لدراسة التطور الاجتماعي يعزب عن باله ان الوثائق المكتوبة كانت روايات متناقلة قبل أن تدون لذا فالوثائق المكتوبة ليست أكثر أهمية من الوثائق الشفوية ، ولا تمتاز عليها الا بالتدوين واذا كانت هناك ضوابط منهجية كثيرة لاثبات أصالة النص المكتوب وخلوه من الزيف والتزوير فان من السهل وضع ضوابط مماثلة لاثبات أصالة المصدر الشفوي[1] وليس المقصود بسهولة وضع الضوابط تبسيط المسألة أو تسطيحها ، بقدر ما هو اشارة الى حصر معطيات الرواية الشفوية من خلال ارجاع الاشياء الى أصولها واستلهام جدلية التضاد في الكاذب والصادق ـ المبالغ والدقيق ـ الثابت والمتحول ، واستيعاب معطيات الدراسة التاريخية النقدية ، بالتحقق من صدق الرواية بواسطة التحليل والتأويل ، والاحتكام الى الرواية من خلال النصوص الموثقة

والمقابلة المباشرة تتيح للمؤرخ اللقاء الحي بمادته الأولية ليكسبها المفهوم التاريخي ، من الأحاطة بالتفاصيل والحيثيات التي يعجز عن بلوغها النص المكتوب ، وهي فرصة لاستجلاء معطيات وابعاداً جديدة ، تساعده في تقييم الأوضاع العامة للحقبة التي يعنى بدراستها والمتعلقة بتفسير الحوادث ، وهو بالمحصلة ليس كاتب حوادث أو مجرد مدون نصوص [2]

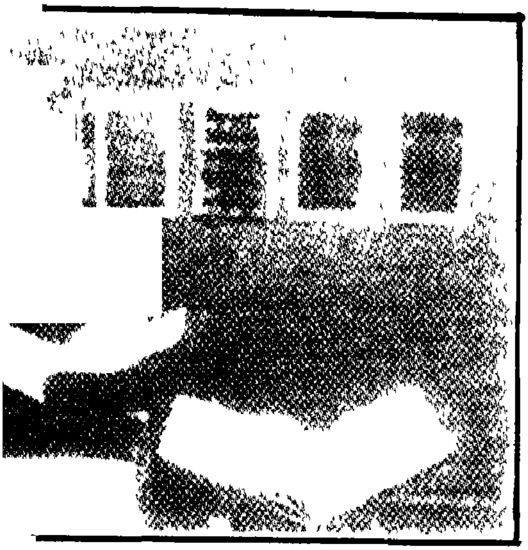
مراجعة في الأصول

مثلث الرواية المنقولة ، المصدر الرئيسي الذي تمت من خلاله تأسيس المعرفة التاريخية في مرحلة الاسلام الأولى وقد عنيت بشكل مركز بأحاديث الرسول (ﷺ) ، لما لهامن قيمة في الحياة العقائدية التي وسمت الأتجاه العام ، فكان «الاسناد» أساسا استوعبته السيرة النبوية ، التي مثلت بواكير الانتاج الثقافي التاريخي في الحياة الاسلامية ، ولكي لا نقفز على الحقائق لابد أن نشير ، الى أن السيرة النبوية قد أرست بدايات الوعي التاريخي ، ولم تكن مهتمة بانتاج تقارير عن الحياة الاسلامية ، وذلك امر استدعته حاجات المرحلة التاريخية ، التي ميزت حياة المجتمع

الاسلامي الأول فكانت العقيدة بحاجة الى تفاصيل وشروحات كثيرة ، ولاعتبارات تتعلق بالقدسية والخوف من المزلقات والشطط في التفسير ، بحد الرواة وقد أجهدوا أنفسهم في وضع سلسلة الأسناد حتى يرجعوها الى الرسول (ﷺ) مباشرة فكانت نشأة علم التاريخ في حصن التجربة العقائدية «العقل ـ الوعي» كنقطة شروع بدأها المؤرخ العربي [٣]

فكان تدوين الحديث وجمعه محاولة لتفسير النص القرآني ووضع الأحكام الدينية بالأضافة الى تنظيم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الاسلامي فكانت كتب السيرة والمغاري تحقيقاً لهذا الشروع وكان للاسلام فضل في انتشار القراءة والكتابة بشكل واسع ، مما وجه العناية نحو تدوين حوادثهم واحوالهم واخبارهم فكانت وسيلة لتثبيت الخبر وتحجيم الاختلال فيه[٤]

وقد استوعب المؤرخ العربي أهمية التدوين واثره البالغ في توجيه الافكار نحو تبني وجهة النظر هذه أو تلك فعملوا على وضع أسس وقواعد لما له من خطر بالغ وشأن عظيم في ترسيم الذاكرة الثقافية لمجتمع أو أمة والفرز والانتقاء ، ومحاولة الوقوف على الرواية الصحيحة ، ممارسة بدأها الصحابة والتابعون ، الذين شغلوا الذهن والعقل في جمع الاحاديث النبوية الشريفة ، ورجعوا الى مصدر الرواية الشفوية الذي شهد



الحديث بشكله المباشر[٥]

ارتبطت الحضارة العربية الأسلامية ، بالاتجاه نحو التدوين ومثل هذا التوجه عاملا حاسما في تكوين الحضارة ذات السمات والخصائص المميزة واتاحت للعلوم أن تنشأ في كنفها فبعد أن كانت «البداهة ـ الاعراف ـ الفطرة» المحركات التي تجعل العربي يعبر عن مشاعره وإبداعه في مجال الشعر ، من وزن أوقافية أو علم عروض ، اذ كانت الفصاحة تقوم على السليقة ، لا على قواعد ونحو بالاضافة الى ايلافهم الرحلات التجارية التي فرضتها الطبيعة والمسالك ، كما أن مجتمع البادية كان يسير وفق اعتبارات العرف والعادات والتقاليد حتى إنهم حين كانوا يتداكرون تاريخهم وايامهم انما كانوا يعمدون الى قصه وروايته شفاها ومثلث الكتابة تعبيرا

عن بروع الدولة الراشدية بحو التنظيمات ، فحين عمد عمر الى انشاء ديوان الجند ، كانت الأهمية تتلخص في تنظيم العطاء الى الجند ، وعثمان حين عمد الى جمع القرآن ونسخه ، انما كان ينطلق من رغبة صحيحة في ضبط وترتيب النص المقدس [٦]
وادا كانت الرواية الشفوية قد ميزت الذاكرة الثقافية لعرب البادية ، فان حواضر اليمن والحيرة ، قد أنتجت تراثا مكتوبا تمثل في الخط المسند الذي زين المباني اليمنية وأشار الى تواريخها ، كما ضمت أديرة وكنائس الحيرة مدونات أخبار الممالك العابرة[٧]

لم يأت البحث التاريخي العربي الاسلامي «عفويا» ، أو صدر بدون ثوابت أسس عليها وارتكز اليها فلقد نشأ «المخطط البحثي» نحو توجيه المعرفة التاريخية لتقديم الخدمة في مجال نمو المباحث التي تطلبتها «العقيدة والدين» وقد عمد المؤرخ العربي الاسلامي الى بناء دفاعات متقدمة لمواجهة المحاصرة والتشويه فكان مشروع التدوين التاريخي ، عملية واعية كان الغرض منها بناء نسق فكري واضح ، الا أن العملية برمتها ، خضعت لوصاية النص وهيمنة المباحث التقليدية حتى كان الخبر التاريخي وسند الرواية ، الاساس المعرفي المباشر ، الذي فعل فعله الواسع في النهج التاريخي[٨] وكان مشروع التدوين التاريخي فاصلا هاما بين الثقافة الجاهلية «الأيام - الشعر - الأدب» والمرحلة الجديدة التي أنتجت معطيات ثقافية تلائم المرحلة ومتطلباتها الفكرية والعقائدية فقد أضفى الاسلام على الأيام والأخبار ، صبغة تاريخية عميقة ، بحيث أن الحارث بن كلدة تعرض للاكفاء حين أقدم على منافسة الرسول (ﷺ) في هذا المجال فقد كان الخبر الجاهلي مفتقداً للروح

دعت حاجات الدولة العربية الاسلامية الى تمثل حياة الرسول (ﷺ) بكل تفاصيلها وجوانبها فكان الشروع في الاشتغال بموضوع الحديث النبوي الشريف والسيرة[٩] الا أن هذا لم يمنع من ظهور نتاج تاريخي تعرض لأخبار الأمم القديمة والديانات والانساب [١٠] الذي حفزته جملة مبررات يقع في مقدمتها ، معرفة الانساب لتقدير عطاء الجند ، اضافة الى محاولة لاستيعاب حالات التماثل والالتقاء بين من سبق من الأمم في السياسة وتنظيم العلاقات الأجتماعية كما استدعت حاجات الدولة العربية الاسلامية ، تدوين أخبار الفتوح لاعتبارات تتعلق بالجزية والخراج ، من حيث مافتح من البلدان عنوة أو بعهد [١١] بالاضافة الى تدوين أيام العرب للوقوف على الأغراض الشعرية ومعرفة أسبابها[١٢] وتطور التجربة السياسية العربية ، وعت السلطة

السياسية بشكل دقيق ماتمثلة الكتابة التاريخية من تهديد وفصح لأساليبها ودورها ، حتى أن عبدالملك بن مروان ٦٥ ـ ٨٦هـ امر باغفال الكتابة عن السيرة النبوية أو التعرض للخلفاء الراشدين خوفا من وقوف الناس على مقارنة الماضي بالحاضر الاموي[١٣]

وكان للاتجاهات السياسية أثرها الواضح ، في الانتقاء الذي تعرض له الخبر التاريخي ، حتى أن الرواية الرسمية الصادرة عن السلطة «البيانات» صارت تحظى بالرعاية والاعتماد [١٤] الا أن هذا لايعني أن التدوين التاريخي ، قد أغرق في حضم المجاملة ، فلقد برزت العديد من النتاجات الموضوعية التي جعلت من تقصي الحقيقة ديدنها فعمدت الى تنويع المصادر والأعتماد على الروايات المختلفة والتي تمثل فيها الشهادات الشخصية مكانة هامة

(الفرد في مواجهة المجموع)

كثيرا ما تتلبس كاتب المذكرات الشخصية ، [١٥] حالة من تضخم الذات حيث تبرز بين طيات الكتاب وثناياه «الأنا» المفخمة المضخمة ، حتى يغبا على القارىء في أحيان كثيرة ، من هو صاحب الدور الرئيسي والهام في حدث تاريخي بعينه والواقع أن كتباً كهذه تدخل المختص في كثير من الحيرة والشك والإرتياب وما اكثر الكتب التي ظهرت لتقص عن أدوار لأسماء مجهولة ، ادعت فيما إدعته ، بأنها كانت وراء نجاح العديد من العمليات الخطيرة وأنه لولا جهودها ، لما تمت المصالحة بين الاطراف المتنازعة الخ

ولا تقف معطيات الحكاية التاريخية الفردية ، عند حدود علاقة الفرد بالحدث ، إنما تتجاوزه لتبلغ الأثر الأجتماعي الهام من حيث «المكانة ـ التأثير ـ المشاركة» لتتيح للباحث إمكانية تلمس تأثير البيئة على الفرد ودرجة التفاعل التي يبديه معها فعلى سبيل المثال تتدرج معطيات الأدوار الشخصية في منعطفات تبرزها ، إسقاطات الانتماءات «القبلية ـ الاقليمية ـ الايديولوجية» فالفرد لابد أن يتبنى وجهة نظر ما ، إزاء الاوضاع والأحداث طالما انه ابن المجتمع الذي يعيش فيه وتتأثر مصالحة بعلاقاته ونشاطاته وهنا تأتي الفرصة الذهبية للمؤرخ التي تعني تميزه وتفرده في بلوغ إتجاه الرواية ، التي يستمع إليها مباشرة ، حيث يقدر له أن يقدر الأبعاد النفسية والأنفعالات والحركات التي يعمد إليها «العينة» فهو هنا أمام مصدر تاريخي من دم ولحم

لايمكن أن تنطلي على المؤرخ التلفيقات والمبالغات التي يعمد إليها بعض أصحاب الرواية الشفوية وإلا فإن المقابلة التاريخية ستتحول الى مقابلة صحفية فالمؤرخ مستوعب لأدواته خبير في مادته التي جاء يبحث عنها ، ويستقصي الحقيقة فيها بلوغاً لأتمام هدف البحث التاريخي الذي ينشده المؤرخ ويهدف إليه ، لا الشخص المقابل والعملية برمتها تسير الى صالح

المؤرخ الذي يكون في هذه الحالة الى جانب المجموع إزاء عينة المقابلة الذي يمثل نفسه فقط وعليه تكون مواجهة الفرد إزاء المجموع غير مجدية بالمرة فأي خلل في ترتيب الرواية وعدم وضوح ومبالغة أو إسقاطات يعمد إليها العينة ستكون فضحاً له ، لأن المؤرخ سيواجهه بكم المراجع والمصادر والوثائق والأخبار والانطباعات والتصورات التي توصل إليها وهو يواصل إتمام بحثه وعلى هذا فإن الحشية على الحدث التاريخي من الرواية الشفوية ، امر غير مبرر ومبالغ فيه الى درجة بعيدة

* عقد التخلف *

في مجتمعاتنا النامية التي عانت من الانقطاع وويلات الجهل والتخلف والتسلط ، تعرض قطاع الثقافة للانزواء وشحة الانتاج حتى إن المدونات ظلت تقبع في خزائن الوجهاء والموسرين وبقيت نغر حتى على المتعلمين في ظل ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية مريرة ، حتى كانت الذاكرة الشعبية ديوان الناس الذي يقص مآثر أسلافهم وسجايا الماضين وتحت وطأة ثقل الأمية وندرة النص المكتوب ، تعرضت الحكاية الى الكثير من المداخلات والمبالغات التي كان يعمد إليها القاص ، لشد الأنتباه إليه واكتساب الأعجاب في وسط إجتماعي محدود الثقافة ، ذي عقلية ناقدة الا انها غير مدربة

كان التصميم الثقافوي الذي مير بنية المجتمع ، قد وقع تحت طائلة الرغبات والأهواء الجامحة غير المستقرة ، التي كانت تقدم عليها سلطة أجنبية تملؤها الخشية والحذر من أي فعالية إجتماعية ، بالاضافة الى محدودية النشاط الاقتصادي ، الذي قنع باداء مهام متواضعة تحت هيمنة الرساميل الأجنبية الطامعة والمستظلة بدولها القوية ، والتي جعلت منها أدوات لتنفيذ مشروعها الأستعماري في المنطقة ، حتى استطاعت ثقافة الغالب أن تتسيد وتفرض عناصر خطابها الثقافي للأوضاع والوقائع ، من خلال عناصرها المدربة الحاذقة عبر تقارير الرحالة وسجلات الشركات والوكالات المتمركزة في المنطقة العربية إضافة الى تقارير القنصليات والبعثات الدبلوماسية ، فكان النتاج التاريخي الحديث والمعاصر ، وعلى الرغم من المنهجية العلمية [١٦] التي استند إليها ، قد ضم ركاماً هائلا من هذه المصادر حتى كانت الكثير من الدراسات مجرد صدى نقدي لما تقول به الرحالة والمندوبون والقناصل والأجانب

مثلما تم تكريس النموذج الأجنبي كتعبير عن الاعجاب بما ينتج عن الغالب في مجالات عديدة من واقع الحياة العربية فإن حيز الثقافة وأدوات التعبير الفكرية لم تكن بمنأى عن هذه التأثيرات فكان الإنسياق وراء تقليد «الموديل» الذي طرحته المؤسسة الثقافية العربية ، لتثبيت المصداقية ورصانة الأداء حتى تناسى البعض من العاملين في حقل التأريخ الى أن الرواية الشفوية ، كانت من صلب المصادر التي إستند إليها المؤرخ العربي الاسلامي في مرحلة الأزدهار ، ليسندها الى تيارات ومدارس تاريخية إستقت من رحم الثقافة العربية ذات الحظوة والجاه في مرحلتنا التاريخية

الراهنة

*** نحو تثبيت النص التاريخي ***

عادة ماتكون النظرة الى المصدر الشفوي ، مجرد رواية ينظر إليها بشك وعدم إرتياح ، واذا مادرجت فأن المؤرخ عادة ما يحاول أن يثبتها بالنصوص الوثائقية أو المراجع المكتوبة حتى لتبرز مشكلة جديدة تتمثل في محاولة تأكيد الرواية بدلاً من التوجه نحو الأمساك برمام الموضوع وتقديمه بالصورة التي تم تقديم النصوص السابقة أو اللاحقة في النص الذي يعمد المؤرخ الى كتابته

وبدلا من أن تكون الرواية الشفوية كشفاً لحقيقة جديدة لم يتوصل إليها الآخرون ، فأنها تكون عبئاً على المؤرخ الذي يحاول بوسائل متعددة أن يشير الى أهمية صاحب الرواية وعلاقته بالحدث ، ومكانته وحياديته من خلال استعراض علاقته بالاطراف الاخرى وقد تكون العملية هذه في مجال البحث الاجتماعي والاقتصادي «التاريخي» أقل عسراً مما لو كانت الرواية تتعلق بالتاريخ السياسي الذي يحمل بشكل واسع المبررات والتأويل والأتجاهات

وعلى هذا وجدت الرواية الشفوية طريقها يسيرا في بحوث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والمجال الثاني بالذات حقق استيعابا كبيراً ، من خلال رصده للعادات والتقاليد والمأثورات والاوضاع العامة ، التي كان يعيش في كنفها المجتمع فالذاكرة الاجتماعية في هذه الحالة ، تكون قدرتها أدق من أي نص مكتوب يمكن ان يتناول أي موضوع في هذا المجال وعلى هذا يمكن الأستدلال على أنه لا يمكن القول ، بان هناك مصدرا رئيسيا وآخر ثانويا ، فالمؤرخ بحذقه وخبرته وتجاربه ، هو الذي يوجه ويقود المصادر نحو خدمة البحث الذي يعمل فيه

ولنعد الى التاريخ السياسي ، المجال الذي يمثل عسراً وإشكالية في التناول ، لنشير إلى أن الرواية الشفوية كان لها الدور البالغ في كشف النقاب عن مداخلات وعلاقات وأحداث لم يجرؤ كاتب النص على تناولها لأمور تتعلق بالمنصب الذي يشغله ، ووعيه بالجهات العليا التي ترغب في حقائق بعينها لأسترضائهم إضافة الى الصعوبة التي تكتنف طبع النصوص التي لا تحبذها الرقابة أو يعمد المقص الى قطعها وفي هذا الاطار كثيراً ما حاول بعض الباحثين أن يلبسوا «ثوب المحرر» للوصول الى حقائق لم يجدوها في النصوص التي وقعت بين أيديهم لتبدأ رحلة من التقصي نحو مشروع ترجيح الرواية الشفوية التي وقع عليها ، ليبقى يدور في حلقة مفرغة من «الأقاويل» مما لا يعني ولا يفيد حتى تتقمصه الخيبة ، ليرجع نحو أوراقه ليشير الى الرواية بشكل هامشي ، أو ربما يعمد الى إهمالها ، خوفاً من المطالبة بالقرائن ، التي يتطلبها منهج البحث العلمي السليم

النص موجه نحو خدمة أغراض بعينها ، ولا يوجد في أي زمان ومكان نص من دون غرض أو غاية وهذا القول لا نبغي من خلاله تسجيل حقيقة جديدة لم يبلغها الآخرون ، بقدر ما هي محاولة لتقريب فكرة تعن علينا ، نحاول من خلالها الأشارة الى الأهمية التي ينطوي عليها المصدر الشفوي ولابد أن القارىء ، قد رصد التباين الذي تمت فيه الأشارة الى المصدر الشفوي ، فتارة ندعوها مصدراً واخرى رواية ، وذلك له مبرراته ، فهي رواية الى أن تستوفي

شروط الشرعية وتثبت في تتابع الاحداث التي يعتمدها المؤرخ ، لتكون بالتالي مصدراً شفوياً

سنحاول هنا تقريب الصورة إعتماداً على مقولة المؤرخ والفيلسوف الألماني ويليم ولثي الذي يقول : «المعرفة التاريخية تأمل على الذات والفهم ليس التفسير وليس وظيفة عقلية ، بل يتم بواسطة كل القوى الانفعالية للنفس ، والتفهم هو حركة من الحياة بأتجاه الحياة ، لأن الحقيقة حياة»[17] ومايبرره النص يتمثل في ثلاثة مفاهيم تتلخص في «الفهم ـ التفسير ـ التفهم» والواقع أن موضوع المصدر الشفوي يرتبط بشكل وثيق بمفهوم التفهم الذي أشار اليه «ولثي» ، فما قيمة الرواية الشفوية دون أن يتحللها الوعي بأتجاه حركة الحياة وخدمة الحقيقة ، والتي تمثل حل ما ينشد المؤرخ ومن دون هذا فان مطاردة الأشباح تكون اكثر يسراً وسهولة

فالتراكم المعرفي والخبرات التي يحصل عليها الفرد داخل المجتمع ، لابد أن توصله الى تحديد مرجعية فكرية تتيح له إتخاذ القرار وبناء وجهة نظر معينة إزاء ما يحدث امامه وعلى هذا فإن إهمال مثل هذا التراكم [18] الذي تجسده معرفة الأفراد ضمن المجتمع ، يعد إجحافاً بحق كم هائل من المصادر التاريخية ذات الأهمية الاستثنائية ـ وهنا يتم التطابق مع وجهة النظر التي نادى بها الفيلسوف والمؤرخ ، كارل جاسبرز من حيث أن «الوعي التاريخي هو إدراك يتعلق بالموجود الفردي وحده ، وليس الكلي على الاطلاق»[19].

الواقع ان النص المكتوب يحتل اهميته في نتاجنا المعرفي الثقافي إنطلاقاً من إتجاهين متناقضين ، إلا أنهما يسيران بشكل متوازٍ إلا أن كلا منهما يحمل سماته وخصائصه المميزة، الأول يشير اليه د. مسعود ضاهر ـ منهجية المدرسة التاريخية الأوربية المنتصرة والناشطة منذ الاكتشافات البحرية للسيطرة على العالم ، وفرض النظام الرأسمالي على جميع مناطقه وهذه المدرسة تشدد على الوثيقة أو النص المكتوب ، وتهمل عمداً كل نص شفوي ، أو ترفض الأستناد إليه إلا في الحالات النادرة »[20] أما الثاني فيتحدر في أصول التاريخ العربي الأسلامي الذي تنامت فيه عملية التدوين التاريخي وما رافقها من تحولات اكدت على الأسس التي استنها وجعلت الهدف الرئيسي فيها ، التوافق وعدم التداخل مع النص القرآني المقدس ، فهذا عمر بن عبد العزيز «٩٩ ـ ١٠١ هـ » يعمد الى منع تدوين الحديث لئلا يتداخل مع النص القرآني فيتداخل الأمر على الأمة [21]. فيما أشار الفقهاء الى أن الادارة تخضع للأجتهاد وليس الى التشرع [22] الا أن التدوين أخذ بعده الديني والسياسي في البحث عن سنن الرسول (ﷺ) والاقتداء به ، حتى أن الزهري عمد إلى تدوين سنن الصحابة [23] لأتمام الصورة عن الأحوال التي كانت تسود حياة المجتمع الأسلامي إبان حياة الرسول (ﷺ) وطبيعة العلاقة التي كانت تربط الصحابة فيما بينهم والعناية بأخبار السلف الصالح والأسوة الحسنة ، فرضت أهميتها في الواقع الثقافي الأسلامي ، الا أن الادارة السياسية كانت تمارس الأنتقاء في التدوين ، فالمنصور لم يضع كتابا يسير على هداه القضاة ، [24] وفي هذا الخضم المتداخل المتشابك تمكن التدوين أن يحظى بالمنزلة الرفيعة ويحقق تفوقا على الرواية الشفوية واستطاع أن يحافظ على

مكانته ، على الرغم من حالة الانقطاع الذي تعرضت له الأمة والأستلاب الذي وقعت تحت ظلاله فكان النص المدون اكثر قبولاً واكثر وقعاً في النفس ، لأنه مثل الدليل في زمن شحت فيه الأدلة والبينات

الانقطاع المعرفي الذي جاء نتيجة لعهود تسلط القوى الخارجية ولزمن طويل ، أفرز وقائع مثلت لحجمها وسعتها «البيئة» التي إستوعبت أنشطة المجتمع ، فكان للجهل والتخلف والفساد الذي مير السلطات المحتلة ان انعكس هذا برمته على عقول ومفاهيم وادراك المجموعة البشرية ، التي رزئت بهذا الواقع ، فكانت المحصلة ان برزت المبالغة وعدم الدقة وانحسار الموضوعية ، كتعويض عن حالة الاستلاب جراء غزو المصالح الماركنتلية والكولنيالية ومركب النقص الذي نتج واجتاح المجتمع الخاضع ، الذي لم يجد القدرة على مسايرة المكنة الأستعمارية التي استحوذت على أوسع الفعاليات ذات العلاقة المباشرة بحياة المجتمع وتفاصيل نشاطه

في أوضاع كهذه ساد الجهل وتفشت الأمية ، حتى عز وجود من يعرف القراءة والكتابة ، وتعرض التراث الفكري والثقافي للأهمال ، حتى بلغت الأمور ، أن المستشرقين هم الذين باتوا يعرفون بالأعلام من مفكرينا «٢٥» فيما تداخل الأسطوري بالتاريخي على يد فئة «القصاصين» «٢٦» الذين يشكون من ضعف الأداء اللغوي ليعوضوه بالأداء الحسي ، وبلغ الأمر حده الخطير وتهديده للعقيدة والدين على فئة «الملائية» الذين تركز نشاطهم في المجتمعات الفلاحية وجيوب الفقر المدينية ، حيث لفظتهم مراكز المدن نتيجة لفشلهم في المدارس الدينية ، فراحوا يرددون آيات الذكر الحكيم بلغة هي ليست من العربية بشيء مسرفين في معارلة الخيال الشعبي ، «٢٧» حتى جاءت «الانتلجنسيا» لتمارس دورها الطليعي ، فحصرت جهدها في البحث عن النص المكتوب وجعلته غايتها القصوى ، لتضمن المرجعية في نصوص شحيحة أقدم على تدوينها نفر قليل ، من الباحثين من تراك المرحلة التاريخية السكونية التي كانت تجتاح المجتمع العربي «٢٨»

إسماعيل نوري الربيعي
الجامعة الاردنية ـ كلية الآداب
قسم التاريخ ـ عمان ـ الاردن

الهوامش :

١ ـ د/ مسعود ضاهر ، التاريخ الاهلي والتاريخ الرسمي ، دراسة في اهمية المصدر الشفوي ، مجلة الفكر العربي ، حزيران ١٩٨٢ ، العدد ٢٧ ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ص ١٨٥

٢ ـ د/ عبد العزيز الدوري ، التاريخ والحاضر ـ من كتاب تفسير التاريخ ، تاليف الدوري وآخرون ، بغداد ، د ن ، ت ، ص ٣

٣ ـ غوستاف ريختر ، الصورة التاريخية في اعمال المؤرخين العرب القدامى ، ترجمة رضوان السيد ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٢ ـ ١٩٧٨ ، ص ص ١٨٦ ـ ١٨٧

٤ ـ د/ اميبة البيطار ، العرب والوعي التاريخي ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٧ ـ ١٩٨٢ ، ص ١٣٢

٥ ـ د/ عدنان درويش ، كتب التراجم منجم التاريخ العربي ، الفكر العربي ، العدد ٢٧ ـ ١٩٨٢ ، ص ص ١٥٠ ـ ١٥٢

٦ ـ د/ حسن حنفي ، لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم ، الفكر العربي ، العدد ٢٧ ـ ١٩٨٢ ، ص ٩٩

٧ ـ محمد بن جرير الطبري ، ٣١٠هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ، ٢ ص ٣٧

٨ ـ محمد حلوب فرحان ، دراسة تطبيقية على اوراق اليعقوبي التاريخية ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الأنماء القومي ، بيروت ، العدد ٢٩ ـ ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ ، ص ٩٣

٩ ـ كتب في السيرة ، عروة بن الزبير بن العوام ٩٣هـ ، إبان بن عثمان بن عفان ١٠٥هـ ، وهب بن منبه ١١٠هـ ، ثم دخل الموالي هذا المجال ، محمد بن إسحق ١٥٢هـ حيث تم احتصار السيرة التي كتبها على يد إبن هشام ٢١٨هـ ، محمد بن عمر الواقدي ٢٠٧هـ

١٠ ـ أهم من اشتغل في هذا المجال ، كعب الأحبار ٣٤هـ ، عبيد بن شرية ٧٠هـ ، وهب بن منبه ١١٠هـ

١١ ـ هرنشو علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادي ، مصر ١٩٤٤ ، ص ٣٦

١٢ ـ احمد حسن الزيات ، تاريخ الادب العربي ، ط ٢٨ ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٤٣١

١٣ ـ د/ رضوان السيد ، جدليات العقل والنقل التجربة التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الأسلامي ، الفكر العربي ، العدد ١٥ ـ ١٩٨٠ ، ص ٨٦

١٤ ـ د/ عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٠ ، ص ٥٣

١٥ ـ ما اكثر كتب المذكرات ، حتى ليكون درجها غير عملي بالمرة

١٦ ـ يفخر الكثيرون باعتمادهم على الارشيفات البريطانية والفرنسية الخ

١٧ ـ بوشنسكي ، الفلسفة المعاصرة في اوربا ، ترجمة د/ عزت قرني ، الكويت سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٢ ، ص ٢٠٧

١٨ ـ مفهوم التراكم ، يراجع د/ فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ١٩٧٨ ،

١٩ ـ بوشنسكي ، المصدر السابق ، ص ٣١٣

٢٠ ـ د/ مسعود ضاهر ، المصدر السابق ، ص ١٨٨

٢١ ـ تاريخ ابي زرعة الدمشقي ، تحقيق شكر الله نعمة الله القوجاني ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٢ ، ج ١ ـ ٢٠٢

٢٢ ـ ابي عبيد القاسم بن سلام ، الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٦٨ ، ص ١٤

٢٣ ـ الخطيب البغدادي ، تقييد العلم ، د/ م ، إحياء السنة النبوية ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٧

٢٤ ـ ابن عبد البر ، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د/ ، ت ص ٤١

٢٥ ـ اعاد المستشرق الفرنسي ماسينيون اكتشاف قبر ابي منصور الحلاج في بغداد

٢٦ ـ القصاصون من يقوم بقص الحكاية على جمهور المستمعين

٢٧ ـ د/ وميض جمال عمر ، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية «الاستقلالية» في العراق ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦

٢٨ ـ د/ ابراهيم بدران ، حول العقلية العربية ، بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية «الفلسفة في الوطن العربي» ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٧٥ ـ ٢٩٠

عرب الصحراء

مع البدو في مط



تأليف
هارولد ديكسون
ترجمة
حمد السعيدان

تقدم الوثيقة في هذه الصفحات الحلقة الأخيرة من كتاب هارولد ديكسون عرب الصحراء الذي ينشر لأول مرة بالعربية وقد ركز المؤلف في الحلقة الأخيرة على الحيوانات التي يربيها البدوي وخاصة الجياد والنوق كما رافق البدو في طرادهم للحبارى وغوصهم على اللؤلؤ والوثيقة بنشرها للكتاب انما تأمل أن تقدم صورة صادقة عن الحياة في البادية للأجيال الجديدة من الباحثين خاصة وأن الكاتب عايش هذه الحياة وشاهد بعينيه وسمع بأذنيه وعبر بقلمه هو دون النقل من الآخرين

الوثيقـة

٦

اردة الحبارى وصيد اللؤلؤ

يميل الناس في الغرب الى الاعتقاد بأن الجمال حيوانات لحمل الأثقال فقط ، ونتصورها نحن كأوروبيين تررع الصحراء جيئة ودهابا مقيدة من الرأس الى الدنب كأنها دياصورات طويلة تنقل الامتعة والحاجيات من مدينة الى أخرى لكن هده الصورة مختلفة تماما داخل الجزيرة العربية حيث تتحول القبائل البدوية الكبيرة ، فهيا موطن الجمال ، تنتقل من مرعى الى آخر بأعداد تصل الى مائة الف جمل

وتكمن أهمية تربية الجمال في الدرجة الأولى في كونها مصدراً للغذاء حيث يستفاد من حليبها ولحمها ثم تستخدم كوسيلة نقل ويتم الاحتفاظ بمجموعة منتقاة لعرض التوالد ونقل الأحمال الثقيلة كالخيام من مخيم الى آخر والقطعان الكبيرة تتكون من الإناث فقط والبعض منها يستعمل كمطية يسمح لها بالتوالد ومنها الدلول

تتزاوج الجمال في فصلي الشتاء والربيع ، وفي تلك الأثناء يترك الجمل بين قطيع الاناث ليدبر أمره بنفسه أما الجمال الضخمة فيشد وثاقها قرب الخيام الى أن يرغب مالكها بتزاوجها مع الأناث

وتعشر الجمال مع الإناث راكعة ، تربط أرجلها الأمامية بكتفها للحفاظ على سكونها ويساعد الرجال في إتمام عملية الجماع ويعشر الفحل الجيد

(ذكر الحمل) حوالي مائة أنثى في موسم الربيع المزدهر وبعد اثنى عشر شهرا تلد أنثى الحمل ويراقب الأطفال والنساء عملية الولادة وخروج الحمل الصغير الى الوجود ، ولا يصطنع البدو الحياء في هذه القضايا

ويجب أن نذكر بصورة خاصة الجمال الشروف وهي مفخرة قبيلة مطير منذ القدم ، ألوانها غامقة جدا تميل الى السواد ويعد ما تملكه مطير من جمال الشروف الأصيلة بثلاثمائة جمل

وتعتبر مطير الشروف رمزا مقدسا لها في السلم والحرب وتوليها إهتماما وحراسة شديدة ، وتدافع عنها بأعلى الأثمان وقد تخسر القبيلة كل ما لديها من جمال في حرب أو غزوة ولكنها تكون سعيدة مادامت شروفها بخير ولا يركب المطيري الجمل الشروف لأن لهذه الجمال مرتبة الشرف وتسير في مقدمة المقاتلين أثناء الهجوم بانتظام وانسجام

وترعى الجمال الشروف تحت حراسة مشددة بمعزل عن الجمال الأخرى ، وقيل أن الجمال السوداء تطرد أي جمال أخرى تدخل الى مراعيها وتختلط بها ، ولا يسمح للإناث الشروف الا بمجامعة الذكور الشروف فقط وقد كنت وزوجتي الأوروبيين الوحيدين اللذين سمح لهما بالتطلع الى هذه القطعان المحروسة رمز مطير المقدس كان ذلك في إبريل عام ١٩٣٩ عندما وجه شيخ الكويت دعوة خاصة الى الملك ابن سعود فقام الأخير بإرسال جماله الخاصة - خمسة وسبعين قطيعا - مع الجمال الشروف (مجموعها أربعة آلاف وخمسمائة جمل) إلى مقاطعات عريفجان والشعيبة في الكويت

في السابع من إبريل سمعت وزوجتي أن الشروف ترعى في الطرف الجنوبي من تلال الظهر على مقربة من آبار القرين فأخذنا سيارتنا يرافقنا سالم المزين وسرنا بسرية تامة حتى أشرفنا قبيل الغروب على تلك القطعان الشهيرة وهي تسير كوحدة متضامنة على بعد نصف ميل من الجمال الأخرى لم يكن في الجوار سوى راع واحد أخبرنا ، عند استفسارنا ، أن الشروف في رحلة يومية لم يرنا أحد من الحراس الذين كانوا خلف التلة يجمعون شتات الجمال الشاردة وهكذا دخلنا بين الجمال ورأينا عن قرب تلك الحيوانات السوداء البديعة وميزنا من بينها جمال ابن سعود والدوشان بعد أن حققنا مرادنا واستمتعنا برؤية ذلك المشهد البديع انسحبنا بهدوء جهة الشمال بدون أن يلحظنا أحد

بعد أسبوع وصلنا الى مخيم سالم المزين قرب الشعيبة لنقضي ليلتنا واليوم التالي ، وكنا قد دعونا خمسة من الشيوخ لتناول طعام الغداء معنا عند وصولنا أخبرنا سالم أن جمال الملك ترعى في الجوار وأن الشروف التي أمضت الليلة السابقة قرب خيامه ترعى الآن في المرتفع المجاور ، وأضاف أن الشيخ مسيار الشبلان المسؤول المباشر عن هذه الجمال

ينتظرنا في الخيمة لتقديم التحية والاحترام كان مسيار قبليا حاما ولكننا قدمنا له العداء والمبيت تلك الليلة في خيمة سالم ولما قررنا مشاهدة القطعان السوداء مرة أخرى استيقظنا مبكرين في اليوم التالى وأخذنا سالم في سيارتنا وقطعنا حوالى مسافة ميل وهناك في منخفض رأينا الشروف مرة أخرى فنزلنا من السيارة وذهبنا تجاه القطيع بدون أن يعلم أحد بزيارتنا حتى لا نلفت الأنظار الى وجودنا

وما أن أصبحنا على بعد نصف ميل من الجمال السوداء حتى سمعنا صراخ رجل مسلح يعدو نحمله ، وبادرنا بالسؤال عما نريد ، أجبنا بأننا نود مشاهدة الشروف ، قال (الشروف ليست هنا ليست هنا إنها في عريفجان) بعد ذلك إنضم إليه ثلاثة رجال آخرين مسلحين ثم الشيخ مسيار نفسه الذي ظهر من حيث لا ندرى فلما أصبح الأخير في مواجهتنا قال بأن القطيع الأسود أمامنا ولكن لديه أوامر صارمة من ابن سعود بعدم السماح لأى شخص بالاقتراب من القطيع ولا بالتقاط صور له قلنا له بأننا أصدقاء شخصيين للملك وأننا نجزم بأن لا مانع لديه ، ولكن الشيخ مسيار كان صلبا في موقفه بالرغم من أننا أعطيناه وعدا قاطعا بعدم نيتنا في التقاط صور للجمال ولن نخبر أى إنسان بمشاهداتنا لم يغير الشيخ مسيار رأيه بالرغم من تقديمى له طعام العشاء في الليلة الماضية ولا بالنظر الى أنني أنقذت حياة عمه ذات مرة ولكن ولكى لايجرح شعورى أكثر أمر الشيخ مسيار ثلاثة من الحراس بإحضار سلطانية من حليب الشروف ، وفعلا رأينا من على بعد الجمال الشهيرة تحلب ثم جيء بالحليب الدسم لنا فشربنا وتلذذنا بطعمه واستمتعنا بتلك الحفاوة والتقدير من جانب مطير

من أهم الخصائص الرئيسية التى تتميز بها الجمال الأصيلة وخاصة الباطنية مقدرتها وصمودها وقد أخبرنى الشيخ نايف بن حميد من عتيبه بأنه لما هرب من السجن في الرياض عام ١٩٢٥ وصل الى الناصرية في العراق على ظهر أحد أحسن الجمال التي تربيها قبيلته في خلال ثمانية أيام قطع فيها ثمانمائة ميل كذلك أخبرنى ابن سعود ذات مرة أن أنباء القتال في الشعيبة ، عندما ضرب البريطانيون الأتراك ، قد وصلته بواسطة أحد مبعوثيه الذي وصل الى الزبير في خلال خمسة أيام ونصف قطع خلالها مسافة خمسمائة وثلاثين ميلا ولكن جمله مات عند الوصول

عند القيام برحلات عادية ، يكون السفر أثناء النهار في فصل الشتاء ، وأثناء الليل في فصل الصيف يتخلله وقفات كل عشرين ميلا لشرب القهوة التى تكون جاهزة وتحتاج الى تسخين فقط وسرعة الجمل العادي أربعة أميال في الساعة أثناء السير العادي ، وثلاثة أميال إن كان محملا ويقطع الجمل عندما يستدعى الأمر السرعة

حوالى ثلاثة عشر ميلا في الساعة ضمن مسافة قصيرة أو عشرة أميال في الساعة لقطع مسافات طويلة تصل الى مائة ميل ، وتقطع الجمال العمانية أربعة عشر ميلا وتكون رؤوسها ورقابها ممدودة أمامها

والاحتياجات الرئيسية اللازمة للقيام برحلة على ظهر الجمل هى ما يلى سرج الجمل مع قربوسين طويلين فى المقدمة والمؤخرة ثم عدلي السرج الكبيرة اللتين تتدليان على الجانبين ثم المزيلة المصنوعة من الجلد التى تتدلى امام السرج وتمتد من على جانبى رقبة الجمل الى أسفل حتى ركبتيه وتسافر النساء فى سروج مغطاة تسمى المقصر وفى الجنوب والجنوب الشرقي يستعمل الرحال نوعا آخر من السروج مفصلة للأعمال الخفيفة والسريعة ويحتاج الراكب أيضا الى كيس جلد لبندقيته وعصا للجمل وكيس جلد للتمر وصندوق حليب مجفف وكيس لحمل القهوة وحب الهيل ويحمل الرجل ذخيرته في حزامه ويحفظ الذخيرة الاضافية فى كيس من الصوف يضعه فى عدلي السرج

يتميز الجمل بتعلقه الغريزى بموطنه وخاصة الجمال الصغيرة التى لم تترك ديرتها بعد ، لذلك عندما يأتى البدوى الى الكويت لابتياع مؤونته يحضر معه جمله مع حوالى دزينة أخرى من الجمال ومن المألوف جدا رؤية هذه الجمال تهرب من المدينة بأقصى سرعة وتعود الى مخيمها وتنطلق وراءها صيحات المطاردة الجنوبية التى لا تصدق الى أن تسمع وقد حكى لي مريط بن حويله من العجمان كيف هرب جمله فى الليل على مقربة من الكويت الى شمر فى الدليمية على بعد مئة وخمسين ميلا وكان مريط قد اشتراه من شمر قبل عدة أسابيع

الطعام الأساسي للجمل هو عشب النصي والعرفج فى الصحراء والعرفج أفضل غذاء معروف لدى البدوى للجمال لذلك ليس من قبيل الصدفة أن تنتج مقاطعة الحسا الغنية بشجر العرفج الوفير أجود أنواع الجمال وفي الربيع تأكل الجمال أيضا الزهور البرية والأعشاب المتنوعة كذلك تحب الجمال التمر ويقدم لها مع الحليب عند القيام برحلة شاقة وطويلة ويتغذى الجمل المريض على التمر والشعير المخلوط بالحليب مثل العصيدة ويتبع ذلك قطع صغيرة من الخبز العربي وفى الشتاء عندما تكون المراعي مزدهرة لا تحتاج الجمال الى الماء ، وعندما يبدأ الجو الدافىء تقدم الجمال للشرب كل سبعة أو تسعة أيام وتقل هذه الفترة كلما تقدم الصيف وزادت الحرارة حتى تصل الى شربة كل يومين في الأشهر الحارة جدا

عندما يحين وقت شرب الجمال يمتطى البدوى ناقة ويصرخ على باقى القطيع للحاق به الى البئر وتتبع الجمال البدوى بمنتهى الانصياع والطاعة ويصل عددها الى حوالى مئة جمل ويسحب الماء من البئر بواسطة دلاء جلدية تصنع من قطعة جلدية



مستديرة تضم أطرافها بواسطة
خيوط تتصل بحبل طويل ويصب
الماء بعد ذلك في وعاء جلدى أو في جرن
يوضع على مقعد خشبى وهو يوجد في
خيمة كل بدوي

للحفاظ على أن تظل الجمال بصحة
جيدة يجب أخذها الى مناطق تواجد
الأشجار المالحة وتسمى الحمض ،
فادا لم يتوفر الحمض يعطى الملح
للجمل باليد والجمل السليم الذي
يعطى الغذاء المناسب ويأخذ الملح على
فترات منتظمة يكبر سنامه ويسمن
أما اذا أصبح السنام هزيلا وغير
ملحوظ فالجمل يضعف ويبحل
والجمل حيوان رقيق ويحتاج الى
رعاية خاصة لذلك عندما تكون صحته

جيده وسنامه كبيراً لا يحتاج الى تدفئة فى الليل أثناء الجو البارد أما اذا كان ضعيفا وهزيلا يوضع بساط فوق ظهره وتترك فتحة للسنام وفي الجو القارس البرودة عندما تكون الرياح شديدة يتم في الليل احضار جميع الجمال الى الخيمة وتركيعها في زاوية بحيث تكون رؤوسها ورقابها في الداخل وهو ما يقيها عصف الرياح القارسة ويبقى الحراس القائمين على حراستها

من الأمراض التى تصيب الجمال الجرب أو الحكاك ، وينتشر هذا المرض بين القطعان مثل البرق وقد يؤدي الى وفاة الجمل فى خلال أربعين يوما وخاصة في فصل الصيف ، ويعالج هذا المرض بنزع شعر الجمل بواسطة خليط من الزرنيخ والليمون يوضع فوق كل جسده ثم يفرك جسده بخليط معد من الزبد المصفى وبودرة الكبريت وفلفل أحمر ثلاث مرات كل أربعة أيام بعد ذلك يغسل فى البحر أو في ماء مملح بدرجة كبيرة

وهناك أيضا مرض الغش الذي يصيب الجمل عن طريق لسعة ذبابة تعيش على ضفاف الفرات وجنوبى بحيرة الحمار وينتشر هذا الذباب فى فصل الصيف وعندما تلسع هذه الذبابة جملا يصاب بمرض النوم ويرفض الطعام ثم يموت بعد أربعين يوما ويكوى البدوى الجمل فى بطنه بخطين متقاطعين على شكل صليب ولكنه يعلم بأن لا تأثير يذكر لذلك ويؤدى الاكثار من أكل نبات الهرم المالح الذي ينمو فى الأرض السبخة الى اصابة الجمال بمرض رئوي يسمى المنحوس وهو مرض معد ينتشر بسرعة كبيرة لذلك يبعد الجمل المصاب بهذا المرض عن باقي القطيع في الحال ويموت حوالى نصف المصابين به

وهناك عادة غريبة عند بعض القبائل وهى ايمانهم الشديد بالعلاج بالسحر فاذا كان أحدهم يملك جملا أبيض اللون وآخر أسود وأصيب احدهما على سبيل المثال ، بعرج أوكساح فإنه يكوى الجمل الآخر فى نفس الموضع ، معتقدا أن هذا الكى سيزيل كساح الجمل الأول

وصاحب الجمل عادة ما يكوى جمله بعلامة (وسم) أو بشعار القبيلة أو فخذ القبيلة الذي ينتمى اليه ومثل هذه العلامات تستعمل ايضا على الآثار للدلالة على أصحابها ويتم كي الغنم بخط صغير أو علامة خاصة على الأذن للدلالة على أصحابها ويستثنى من ذلك الجياد والمهر كذلك يستعمل الوسم لحماية الامتعة الخاصة مثل حمولة جمل قد يموت فى الطريق فتترك الأمتعة في الصحراء ويرسم بجانبها على الأرض علامات الوسم وبهذه الطريقة لا يقترب أحد من هذه الأمتعة والوسم عبارة عن علامات هندسية ، وفيما يلى نماذج من وسم العجمان حصلت عليها من مارك بن هيف الحجرف ، شيخ السليمان من العجمان فى العاشر من إبريل عام ١٩٣٤

الهذلان على الخد الأيسر
الهادي على الخد الأيمن
الحجرف على يسار الرقبة
السليمان على أسفل يسار الرقبة
ابن عصيدان (شيخ السليمان) على يسار الرقبة
المحفوظ على الفخذ الأيسر
الصفران على يمين الرقبة
الجحان على الفخذ الأيمن
الصالح على يمين الرقبة
الريما على أعلى يسار الرقبة
الهدلان تحت الحنجرة
الثاني على يسار الرقبة

وينظر داخل الجزيرة العربية الى أحقية الفرد في جمله كحق مقدس ربما أكثر قدسية من حياته نفسها هذا وقد تحدثت في فصل سابق عن أهمية العرف وسوف أتحدث هنا عن بعض الإجراءات الأخرى التي يتخذها البدوي في حل النزاعات الخاصة بالجمال

إذا فر جمل أو أكثر من قطيع قبيلة ثم اكتشف أمر وجوده لدى قبيلة صديقة تتقدم القبيلة صاحبة الجمل الى شيخ القبيلة الصديقة وتسترد جملها عادة ، أما اذا لم تسترده فإنها تتحين الفرصة لتستولى على ممتلكات أو مواشي أو حتى رجال من القبيلة المعادية وتحتفظ بهم حتى يتم استلامها لممتلكاتها الخاصة وتعتبر سرقة الجمال الشاردة من أفعال الذكاء وليس الخطأ فإذا اكتشف أمرها تعاد الى أصحابها والا فهي مكسب كبير

وهناك بعض الغرامات التي تنص عليها هذه القواعد العامة فالرجل الذي يجد جملا شارداً ويرعاه يحق له أن يطالب صاحبه عند استرداده بمبلغ ريالين عن كل جمل وتدفع نفس القيمة مكافأة للرجل الذي يعثر على جمال هاربة في الصحراء ويعيدها الى أصحابها أما اذا خبأها فيضطر المالك الى إستئجار شخص يتجسس له على قطعان الجمال المجاورة لاكتشاف أمر الجمال الضائعة ، فإن وجدت تعاد الى أصحابها ويدفع الجاني - الى جانب الغرامة - أجرة الجاسوس ، وبذلك يبلغ مجموع ما يدفعه حوالى عشرين ريالا وهو مبلغ باهظ بالنسبة للبدوي

إذا نشبت قضية بين قبيلتين حول جمال مسروقة أو مخبأة أو شاردة ولم تتفق القبيلتان على تسوية الخلاف ، في تلك الحالة تحال القضية الى (الحاكم المحلي أو الى حاكم البلاد ، وبعد الفصل في القضية تدفع الجهة المخطئة (مصاريف خدمة) إلى معاوني الحاكم الذين قاموا بتحري

أبعاد القضية وأحصروا دلائل الإثبات والشهود

وهناك بعض المفقودات الأخرى التى تعاد الى أصحابها بأساليب مماثلة فعندما يكون البدو وعائلاتهم على سفر وخاصة وقت ترحال القبيلة بأكملها يحدث أن تتساقط بعض البسط والثياب أو معدات الخيمة عندما ترتطم الجمال بعضها البعض خاصة في الليل ولا يعتبر - وفق قانون الصحراء - أثما من يلتقط أى شيء من الأشياء الملقاة ولكن عليه أن يعيدها الى أصحابها عند التعرف عليهم حتى لا يتهم بالسرقة ، فإن كان الشيء المفقود جملا أو مهرة أو راس غنم يقدم صاحبها عادة مكافأة صغيرة لمن يعيدها اليه

ويطمح البدوى ، بعد بندقيته وجماله وروحته ، الى الحصول على مهرة وفلو والبدوى العادي لا يملك مهرة بأكملها ، وإنما يتقاسم ملكيتها حوالى ستة أشخاص او تكون لهم حصة في كل مهرة وعادة ما يعيش الشركاء على بعد مسافات كبيرة عن بعضهم البعض وكم هو مضحك ومقبض ى أن واحد بالنسبة للأوروبى الذي تعجبه مهرة ى الصحراء ويبغى شراءها أن يخبره صاحبها بأن لا مانع لديه أن يبيعه مقدمتها ولكن عليه أن يذهب الى شخص اخر قد يعيش على بعد مئة ميل ليشترى بقيتها ' وهذه الملكية المشتركة تنطوى أيضا على شروط تحدد من سيكون صاحب الفلو الأول والثانى وهكذا ، كذلك بعد أن يتفق الشارى مع جميع الأطراف المالكة بعد إجراء مفاوضات طويلة طبعا قد يقال له أن فلانا الذي يعيش على بعد ثلاثمائة ميل له حق إمتلاك أول مهرة صغيرة وعلى الشارى أن يذهب اليه لأخذ كلمته ى هذه الصفقة وعادة ما يرفض الأخير عملية البيع اذا علم أن المهرة ستغادر البلاد وبالتالى لن يحصل على مولودها

والحصان العربى ليس ذلك الحيوان المعتنى بهيئته وتنظيفه وتغذيته وإسكانه كما هو الحال في الاسطبلات الأوروبية ففى البادية تترك المهرة شعثاء بدون تنظيف أوصقل وتطلق شعورها على مداها وعادة ما تكون نحيلة الجسد مزرية الشكل فيما عدا وضع تشكالات حديدية ى قدميها الأماميتين وفي الشتاء يوضع بساط رث فوق ظهرها ليقيها البرودة وتعامل المهر مثل الجمال والغنم فتتجول ى منطقة الخيام السوداء ترعى حيث تشاء ثم تعود الى البيت لإرواء عطشها ولا تسقى المهر على فترات منتظمة ، ولكنها متى أحست بالعطش تأتى الى خباء النساء وتصهل او تقف تنتظر وفي الشتاء عندما تكون المراعى مزدهرة ووفيرة فهى لا تحتاج الى الماء لبضعة أيام وتقدم الحبوب للمهر لمدها بالقوة والنشاط اذا استدعى الأمر القيام باغارة أو حرب بين القبائل ، وفي الصيف عندما تكون المراعى فقيرة تعطى بالقدر الذي يبقيها على قيد الحياة لذلك فإن



حواد البدوي مهما كان تميبا يعتمد بالدرجة الأولى فى عدائه على الطبيعة وليس على ما يحود به الإنسان وتكون المهر صحيحة وقوية البنية فى الربيع وأوائل فصل الصيف حيث تكون المراعي مردهرة وعنية بالأعشاب ولكن حالتها تسوء فى الصيف

وتعامل المهر داخل الخيمة بمحبة ورعاية من أصحابها وكأنها ابنة لهم ومن الطريف جدا أن ترى كيف تدخل المهرة خيمة سيدها طلبا للدفء فى ليلة باردة أو تحطو الى جناح النساء فى منتصف نهار شديد الحرارة لتحتمى من أشعة الشمس اللادعة فى صيف عربى حارق وتأخذ المهرة مكانها فى الخيمة كحق طبيعى لها وتستقبل بترحاب ويقدم لها التمر والماء

ولا يحتفظ بالمهرة الا ادا كانت من أصل نبيل وحتى أن قيمتها قد تعلو أو تهبط بحسب العلامات التى تحملها في جسدها ويمير العرب خمسة انواع رئيسية من الخيول الأصيلة وهى

الكحيلان
عبيان
الصقلاوى
حمداني
العدنان

وخمسة أنواع فرعية هى

دهمان
مناقى
شويمان
حلفان
أبو عر كوب





وقد نتج عن تراوح النوعين ما يفوق مائتى نوع من الحياد الاصيلة لكل منها إسمها الخاص وعلى كل شيخ ذي مكانة رفيعة أن يوفر لأصحابه مهرة أو أكثر لكي تلد له نوعا خاصا فمثلا يحتفظ ابراهيم بك بن مرعل باشا السعدون من المنتفق حوالى ثلاثين مهرة أو اكثر من نوع الدهمان الشهير بينما يحتفظ شيوخ البحرين بمهر الشواف ذوات الأنوف الرومانية ويحتفظ ال الدويش من مطير بجياد الكروش الشهيرة وهذه الأنواع الثلاثة كلها تعود الى كحيلان ، أحد الأنواع الأصيلة الخمسة

من بين العلامات التى تحدد نوعية وقيمة الحصان حصلة من الشعر على جبهته تخرج من منبت واحد وتنمو على شكل دائرة ومن العلامات الجيدة الأخرى خط مستقيم من الشعر المتقابل على كلا الرجلين الخلفيتين أو خط مستقيم تحت البطن وإذا كان للجواد مثل هذين الخطين بين قدميه الأماميتين فهو ما يدل على حسن طالعه ولن يصاب راكبه بأذى ويعتبر اللون الكستنائي أحسن أنواع الجياد لأن الجواد الكستنائي معروف بهدوئه وإخلاصه وإذا اعترضه حادث لا يلقي براكبه أما الجواد الرديء فذلك الذي يملك رجلا بيضاء وثلاثة أرجل سوداء أو كستنائية والجواد الذي يكون لقدميه الأماميتين ما يشبه الجوارب البيضاء يؤدي الى موت راكبه اذا تعرض لحادث وهناك أيضا علامة شؤم على الحنجرة وهى من الشعر المتقابل تشير الى أن الراكب سيمزق ثيابه من الجرى والجرى

من أهم صفات المهرة الجيدة قدرتها على السرعة والتحمل حيث يبلغ مدى سباق الخيل الذي يعقد باستمرار من عشرة الى خمسة عشر ميلاً والاستعمال الأول للمهر هو الاعارة ومن الأهمية القصوى أن ينقذ الراكب بأمان إذا دارت المعركة ضده وقد سبق لى أن ذكرت حادثة تدل على القوة العجيبة للجواد العربى وتلك كانت مهرة (عرير الدويش) التى قطعت مئة وثمانين ميلا بعد كارثة أم الرثامة وتعمر المهرة العربية طويلا ويمكنها أن تؤدى عملا مرضيا وهى في سن العشرين وفى هذه السن أيضا أو حتى أكبر يمكن أن تلد المهرة فلاء

يحتفظ كل شيخ رفيع المقام بمجموعة من الجياد الفحول الأصيلة لغرض النسل وهذه تكون فى مكان منعزل عن المهر وهذه الجياد تكون فى رعاية عبد محظى يتقاضى مبلغا زهيدا من المال من كل شخص يحضر مهرته لغرض تناسلها مع الجواد الفحل وتتم هذه العملية بموافقة الشيخ طبعا ويتم إحضار المهرة للمجامعة عندما تبدو عليها علامات الشبق وأفضل وقت للمجامعة بالنسبة للمهرة الكستنائية اللون فى الليل عندما يكون القمر مكتملا ، وعندما يكون القمر هلالا فى حالة المهرة الرمادية وعادة ما تأتى النتائج إيجابية

ويعتقد البدو أن الفلو الذي يولد في النهار يكون محظوظا ، إحتفاء بهذه المناسبة يشق طوليا رأس إحدى أذنيه وتخاط رؤوس أذنى الفلو عند مولده لمدة أسبوع حتى تنمو مستقيمة وتسحب قدماه وتحك جيدا لتستقيم ويحرص البدوى حرصا كبيراً على أن يرضع الفلو من أمه لمدة إثنى عشر شهرا كقاعدة وما يزيد عن هذه المدة إذا كانت الأم ما تزال تدر الحليب مخافة أن تنمو عظامه ضعيفة وعندما يبلغ الفلو من العمر سنتين ونصف السنة أو ثلاث سنوات تمتطى صهوته ، ثم يؤخذ في نزهات تطول مسافتها تدريجا لاكتشاف أى ضعف

قد يوجد فى عظامه أو تضخم فى قصبة قائمته وعندما يبلغ سن الرابعة يعدو به راكب خفيف الوزن فى كل أرجاء المكان ويقيس البدوى بإبهامه المسافة من فوق حافر العلو الى عظم الركبة ليعرف مدى طوله عندما يكبر، فإن بلغت المسافة سبعة عشر إبهاما فأكثر يعني هذا أن العلو سيسمو طويلا إلى حوالى أربعة عشر شبراً ونصف الشبر أو أكثر

وترود جميع الجياد والمهر فى الصحراء حذوة في أقدامها ويستعمل النعل المسطح الذي يغطي أسفل قدم الحيوان بكامله ويحميه من كدمات الحرارة والحصى والبدو لا يستعملون اللجام مطلقا ويقاد الفرس بواسطة الرسن ويتكون من قطع مرركشة من خيوط الصوف الملون وهذا الجزء من الرسن يحيط بوجنتي الجواد وينتهي بحلقة معدنية واسعة تمر فوق الخياشيم ثم إلى أسفل تحت الذقن ويتصل بهذه الحلقة من تحت الذقن قيد من الصوف هو الوسيلة الوحيدة للتحكم بالجواد، ويمسك الراكب هذا الحبل بيده اليسرى لأن المهرة العربية تميل إلى حمل رأسها على الجانب الأيسر وتستعمل الشكيمة لدى بعض شيوخ القبائل فى العراق وبعض أمراء وحكام الجزيرة العربية

والبدو لا يلبسون جيادهم السروج والا الركاب ويمتطون ظهورها عارية فيما عدا الرسن الذي يتحكمون بواسطته في المطية وأثناء الهجوم لا يستطيع أحد أن يحدد حجم الهجوم ومهما كانت النيران مدمرة ومهما حاول الراكب أن يتراجع فلا يستطيع عمل أى شيء حتى تفسح له الجياد المهاجمة مجالا للانعطاف شمالا أو يمينا أو عندما يعدو خلال قوات العدو ومع أن البدوى يركب ظهر فرسه عاريا، إلا أن الشيوخ وميسورى الحال يضعون فوق ظهر الفرس سرجا من القماش الخفيف بدون ركاب

عندما تتقدم المهرة فى السن يقل إمتطاؤها شيئا فشيئا الى أن تتقاعد - إن صح التعبير - نهائيا عن العمل وتعامل معاملة حسنة إلى أن تموت ولا تقتل أبدا وعندما يحين أجلها ترقد وتموت مثل أختها الناقة وتقضى المهرة شيخوخة سعيدة إذا كانت ملكا لأمير أو شيخ لأن هؤلاء يستبقون لحيواناتهم الخاصة سواء كانت مهرا أو جمالا أو غنما مساحة كبيرة من المراعي الجيدة وتطلق المهر فى هذا المرعى على سجيتها إلى يوم وفاتها وتعطي حاجتها من الماء من خيام الحراس الرسميين وفي الصيف تعطى كميات صغيرة من الحبوب لتقتات بها في شهور الصيف الصعبة

الغنم والماعز

توجد فى كل مدينة في الجزيرة العربية قطعان كبيرة من الماعز، فكل عائلة تربى عنزة أو إثنتين وذلك للاستفادة بحليبها ولا تحتاج الماعز

إلى رعى بذلك القدر الذي تحتاجه العنم وفوق ذلك فهى أشد صلابة منها وعند شروق كل صباح تأخذ المرأة كل ما لديها من ماعز الى باحة أحد الرعيان الذين يعيشون في مناطق متعددة من المدينة وبعد أن تتجمع القطعان في تلك الباحة يخرج بها الراعي من الكويت الى المراعي في الصحراء ، ثم يعود بها عند الغروب ومشهد عودة الماعز الى ديارها مشهد مألوف وجميل ، إذ تتجمع البنات الصغيرات حول مدخل كل باحة في انتظار عودة القطعان ثم تأخذ كل فتاة ماعز عائلتها وتعود بها الى البيت وكثيراً ما تترك الماعز بنفسها القطيع وتذهب مباشرة الى بيتها حيث تكون أثداؤها مليئة بالحليب فتهرع الى سيدتها التي تحلبها في الحال

أما في الصحراء فتربية الماعز غير مألوفة إذ يفضل البدو إقتناء الغنم ومع هذا يربي من تيسرت حاله مجموعة من الماعز للاستفادة من شعرها في أقسام محددة من الخيمة نظراً لأن شعر الماعز أعلى وأفضل من صوف الغنم وفي الصحراء يقود الراعي الغنم في الصباح الى البراري لترعى هناك وتظل عينه تحرسها الى أن يحين موعد العودة بها وعندما يحس بالحاجة الى الراحة يغرز عصاه في الأرض ويعلق عباءته عليها وبذلك تتوهم الغنم بأن راعيها يقف مراقبا فلا تحاول الابتعاد وفي الليل ترقد الغنم (والماعز إن وجدت) في زاوية مكونة من الخيمة طلبا للدفء والحماية وخاصة في الشتاء حيث تكثر الذئاب الجسورة وتكون الغنم ملتصقة بالخيمة لدرجة أن حوالى نصف عددها يكون مستظلا تحت رفراف الخيمة ويربط كل حمل من رجله ورقبته بحبل مشدود إلى وتد داخل الخيمة وتدور كلاب الحراسة حول الخيمة طوال الليل واذا أحست بوجود ذئب في المنطقة تنبح نباحا مستمرا وعندما تكثر الذئاب في المنطقة تربض الجمال مقيدة القوائم حول الغنم فتشكل حزام أمان لها وخارج حلقة الجمال تشعل نار ويجلس بجانبها راعي الحراسة طوال الليل واذا كانت الخيمة لا تكفي لضم جميع الحملان تضم خيمتان إلى بعضهما البعض وتظل العائلة والضيوف في كلا الطرفين

وبالرغم من هذه الاحتياطات فإن الذئب الجسور يتسلل من بين الجمال ويمسك بحمل من عنقه ويهرب به بينما تحتال أنثاه في تلك الأثناء على كلاب الحراسة في إتجاه معاكس إلى أن يبعد الأول بفريسته ولحماية الحمل توضع ياقة غليظة من الصوف حول عنقه لأن الذئب عندما يخطف حملا فإن أول شيء يفعله به هو أن يمزق رقبته فإذا اكتشف أمره وطورد في الحال فسوف يعض الياقة ولن يكون لديه الوقت الكافي لقتل الحمل لأن الكلاب ستكون قد أطبقت عليه

من الأمور المدهشة عند البدو وقطعانهم الطريقة التي يتعرف بها

الرعيان على اغنامهم واشير هنا على وجه الخصوص الى قبيلة العوارم حيث يعطي كل راع إسما لكل نعجة عند ولادتها فذات يوم من عام ١٩٣٤ كنت موجوداً في ديار سالم المرين عندما عادت الحملان والأغنام في الليل فأردت أن أتأكد من صحة موضوع تسمية الغنم

كانت الحملان ترعى طوال النهار مع مرزوق ، العبد الأسود الصغير ، وحمود بن منيرة وعند الغروب تم إدخالها الى الخيمة وقيدها بحلقة متصلة بحبل من شعر الماعز مشدود الى وتد بعد الغروب بساعة جاء الراعيان العارميان ناصر وفلاح بالنعاج واوقفاها على بعد خمسين ياردة من الخيمة إلى أن تفقدا الحملان وأماكن كل منها بعد ذلك وتحت جنح الظلام امسك فلاح وسالم الاحدى وخمسين أما (٤٢ رأس غنم وتسعة من الماعز) بينما بدأ ناصر ينادي كل منها بالاسم ، وكلما تقدمت واحدة نزع سالم الأنشوطة من حول عنق الحمل وأعطاه إلى أمه لترضعه كان سالم يعرف كل نعجة وحملها بالتحديد حتى في الظلام كما أخبرني ناصر فيما بعد أن باستطاعته أن يتعرف الى كل أم وكل حمل وعيناه مغمضتان عن طريق اللمس فقط وقال بأن هذه المهارة شمولية بين قبائل العوارم والرعيان في الكويت ونجد

يتم تعشير الغنم في اواخر فصل الربيع ، وبعد خمسة اشهر من الحمل تضع حملانها في الفترة ما بين شهر اكتوبر وفبراير ، ويخدم الكبش الواحد مئة نعجة كقاعدة عامة ولمنع الذكور من مجامعة الإناث في غير الموسم المطلوب تلف قطعة قماش تتدلى الى الأرض وتثبت بواسطة خيط حول العضو التناسلي للكبش وهناك طريقة أخرى يجري فيها ربط العضو بخيط لعدة ساعات في اليوم ويأتي موسم جز الصوف في شهري مارس وإبريل

يصنع من حليب الغنم الروبة واللبن وروبة الاقط وهي عبارة عن لبن يتم تحضيره بغلي اللبن الى درجة سخونة الدم ثم يصب في وعاء مخصص من جلد الماعز ويغطى بساط لمدة أربع ساعات يتحول خلالها الى روبة بواسطة الخميرة المتبقية في الوعاء من قبل ويتم تحضير اللبن بوضع روبة باردة في وعاء من الجلد خاص باللبن يعلق على مرجل ثم تضاف كمية من الماء بقدر ثلث كمية الروبة بعد ذلك يخض الوعاء الى الأمام وإلى الخلف لمدة ساعتين ونصف حتى تطفو كتل الزبدة الى السطح ويبقى في الوعاء مخيض اللبن وهذه العملية عادة تأخذ مجراها قبل ساعتين من الفجر للحصول على الزبد ولتحضير الاقط تغلى الروبة لمدة ساعتين إلى أن تصبح غليظة ومحمصة ثم ترفع عن النار وتترك لتبرد ، بعد ذلك تعصر باليد ويتكون منها كعيكات مسطحة ومستديرة صغيرة وفي شهور الصيف وأثناء

السفر في الصحراء حيث لا تدر الغنم ولا الماعز ولا الجمال الحليب الكافي ، يسحق الاقط ويخلط بالماء ويشرب كاللبن

ويستعمل المرحل أيضا لنزع جلود الغنم والماعز وتذبح الغنم والماعز في منتصف الرقبة المعروف بتفاحة آدم خلف عظم الفك ثم تعلق الذبيحة على المرحل رأسها إلى أسفل ثم يشق الجلد من خلف الساقين تحت الذيل مباشرة ويسلخ الجلد الى أسفل باتجاه الرأس ولتحضيره للأكل يحشى من فتحة الرقبة وتخاط فتحة الدبر مع الرجلين أما الجمل فيذبح بقطع الوريد الوداجي من مكان خروج الرقبة من الجسم ويسلخ جلده بعمل شق من الرأس خلف الرقبة يمر على طول الجسم فالسنام حتى الذيل ثم يسلخ الجانبان بواسطة شق في وسط البطن وحتى الرقبة

وأخيراً يأتي دور كلاب الحراسة التي تقوم على حراسة الجمال والغنم في الليل لتحميها من الذئاب والأعراب وهذه الكلاب شرسة وعادة ما يتم قطع آذانها مما يزيد من شراستها وقت الهجوم ولهذه الكلاب رؤوس عريضة وأجسام قوية ويتم تدريبها لكي تدور حول الخيمة دورانا مستمرا طوال الليل وكثيراً ما ترعج هذه الكلاب الضيف القادم والغادي بالنباح بطريقة مرعجة ومقلقة فيضطر الى زجرها بعصاه عدة مرات لكي تتراجع عنه يساعده في ذلك صياح وزجر أهل الخيمة ولا يسمح بدخول الكلاب الى داخل الخيمة باعتبارها نجسة وتنام خارج جناح النساء وتتغذى بما يتبقى من طعام أصحابها من أرز وخبز وتمر

رحلات القنص

لكل خيمة كلب سلوقي أو إثنان وخاصة عند قبائل العجمان والعوازم ومطير وبخلاف كلاب الحراسة فالسلوقي مثل قرينه الانجليزي يعتبر نظيفا ويسمح له بدخول الخيمة والمبيت في جناح النساء وفي الجزيرة العربية يوجد نوعان من الكلاب السلوقية ، الأول شعره ناعم بالكامل وأذناه وذيله مثل ابن عمه الإنجليزي (وهذا النوع من الكلاب يوجد عند قبيلة مطير) ثم النوع الآخر وهو ناعم الشعر أيضا ويمتاز بشعره الحريري على الأذنين والذيل ويوجد عند العوازم وأغلبية ألوان النوع الأول حمراء أو أحمر مائل إلى البني أو أسود أما ألوان الثاني فالأبيض عامة ثم الرمادي الفرسي والأحمر الباهت والكلب السلوقي أصغر حجما من الكلب الانجليزي

يقتني الكلب السلوقي بالدرجة الأولى لأغراض الصيد ويدرب على كيفية ملاحقة الأرانب والغزلان والمهرة من هذه الكلاب تخرج وحدها وراء الطرائد لمسافة قصيرة وعندما تجد أرنبا تقتله وتعود به الى أصحابها ولكن المتبع عادة أن يذهب شابان أو ثلاثة مع كلبين سلوقيين أو ثلاثة

ويقطعون مثل هذه المسافة بحثا عن الأرانب ويتم تدريب الكلاب على الصيد منفصلة عن بعضها البعض كل في منطقة تبعد عن الأخرى حوالى عشرين أو ثلاثين ياردة وعندما يرى الكلب أرنبا يظل يلاحقه الى أن يمسك به ثم يكسر ظهره أو يطرحه أرضا الى أن يأتي سيده ويأخذ الطريدة

ويجرى صيد الأرانب بواسطة الكلاب السلوقية مشيا على الأقدام اما صيد الغزلان فركوبا على الجمال لأن علو الجمل يمكن الصياد من رؤية الغزال من على بعد ومن ثم ملاحقته لعدة أميال ومن المدهش أن الكلاب السلوقية المدربة تدريبا جيداً إذا ما أبصرت أرنبا فمن النادر أن يفلت منها إذ أنها تظل تعدو خلفه عدة أميال الى أن ينهار ويقع على الأرض إما من الرعب أو من شدة الإرهاق ، عند ذلك يمسك الكلب بفريسته حتى وصول الصياد الذي يترجل عن جمله ويقطع رقبة الأرنب والسعادة الكبرى التي لا توصف عندما يعود الصياد إلى خيمته باللحم فاذا كان الصيادون على بعد مسافة طويلة من الخيام قد تؤدي الى فساد لحم الطريدة قبل الوصول الى الخيمة فإنهم في تلك الحالة ينزعون الأضلاع والعظام الكبيرة ثم يقطعون اللحم شرائح طويلة ويملحونه ويفرشونه فوق ظهور الجمال ويتركونه مشكوفا

والكلب السلوقي بالنسبة للبدوى كلب شديد التوتر ويجب الا يصفع أو يضرب بالسوط أثناء التدريب لأن مثل هذه المعاملة تفسده وتضعفه ، لذلك يحتاج الكلب السلوقي في تدريبه إلى صبر طويل وعندما تلد الكلاب السلوقية لا يتخلص البدوى من صغارها وإنما يحفظها مع أمها لمدة شهر لأن حرمان الأم من صغارها في مراحل الطفولة له تأثير سيء عليها وفي الشتاء يشعر الكلب السلوقي بالبرد فيلبسه صاحبه معطفا يقيه برد الصحراء القارص

يستطيع البدوى أن يميز الكلب السلوقى الجيد بالنظر الى عدة أمور وهى أن يكون جر طومه طويلاً وضيقا وهو ما يشير الى نوعه وأن يكون صدره عريضا وهو ما يدل على قسوته وأن يكون وسطه رقيقا وهو دلالة على خفته وسرعته وأن يكون عرقوبه واطئا وأن يكون عرض المسافة ما بين رأس عظم الفخذين من الخلف شبرا واحدا ، بعد ذلك فإن الكلب الذي يوجد تحت ذقنه كتلتان من الشعر أفضل ممن له خصلة واحدة ، ومن له ثلاث أو أربع خصلات أفضل من غيره

وأحسن الكلاب السلوقية تلك التي تربيها قبيلة العوازم وهم أمهر مدربين في هذا المجال في شرقي الجزيرة العربية ويأتي بعدهم العجمان وأبناء عمومتهم المرة ثم مطير ويحرص البدوى على ألا يحدث جماع بين كلبة سلوقية وكلب حراسة عادي أو كلب نصف سلوقى لذلك عندما تكون الكلبة في حالة شبق تحتجز في الخيمة أو تربط رجلها الخلفية برقبتها

بواسطة حزام من الجلد وهذا الوضع غير مريح بالنسبة للحيوان الذي يجد الراحة في الاستلقاء وفي الصيف عند دنو ولادة الكلبة السلوقية تحفر المرأة أو أحد خدمها حفرة خارج خباء النساء وتغطيها بالقش وأغصان الشجر وتضع فوقها طبقة من التراب وتترك فتحة تعبر منها الأم الى مضجعها فتضع صغارها بهدوء وسلام

ينظر العرب منذ القدم إلى الصيد بواسطة الصقور على أنه رياضة الملوك وقد أدخلت هذه الرياضة الى أوروبا بعد الحملات الصليبية ثم دخلت أسبانيا عن طريق الفتح العربي لها وموطن هذه الرياضة في الوقت الحاضر شمال وشمال شرق الجزيرة العربية وهي المنطقة التي تستقبل الهجرة السنوية الأولى من الحبارى ويعتبر صيد الحبارى بواسطة الصقور الرياضة الرئيسية ، ومع هذا فإن صيد الغزلان والأرانب الوحشية نوع آخر من الرياضة

تظهر الحبارى على الشاطىء الشمالي الشرقي من الخليج العربي حوالى شهر أكتوبر من كل عام وتستمر الطيور في الظهور حتى شهر إبريل عندما تبدأ تدريجا في الرحيل الى مناطق باردة ، ويبقى عدد قليل منها في كل عام يتوالد محليا ولكنها بصورة عامة تهاجر وتعود الى هضاب إيران ، كما يعتقد العرب ، أو ربما الى وسط آسيا حيث تهاجر من هناك الى الجنوب عبر إيران فتتفادى المناطق الباردة

وعندما تصل الحبارى الى الجزيرة العربية تتغذى على الحشائش الصغيرة التى أفرزتها أمطار أوائل شهر أكتوبر فاذا ما تقدم الشتاء أكثر فأكثر تكثر الحشائش والأعشاب وتتفرق الطيور في المنطقة وتأخذ في التقدم شيئا فشيئا الى المناطق الداخلية في الشمال حتى الصحراء السورية وفي الجنوب حول الرياض وحول خريص ولا يتعدى قليل من الطيور غرب هذا الحزام

وفي الزبير وساحل عمان ينتظر موسم الحبارى بشوق كبير ويذهب الى هذا الصيد كل أمير وشيخ سواء كان كبيراً او صغيرا وكل من استطاع أن يدخر بعض النقود يشترى بها صقرا وفي الحقيقة يمارس هذا الصيد كل من ينظر لنفسه نظرة تقدير واحترام ويأمل في الحصول على صقر

ويستعمل العرب نوعين من الصقور أحدهما الحر أو الحرة والثانى الشاهين والأول هو الأفخم والأعلى ثمنا وتأتى أحسن الصقور من سواحل إيران ويتراوح سعر الواحد منها بين خمسين ومئة وخمسين روبية ويصطاد البدو المهرة في القنص صقور الحر والشاهين وتعتبر جزيرتا وربه وبوبيان أفضل مناطق القنص بالنسبة للبدو الكويتيين وتأتى بعدهما ، في اعتقادي ، شبه جزيرة الظهر أو جنوب القطيف

هناك طريقتان للقنص الأولى

عند العلم بوجود صقر في المنطقة تنصب شبكة مربعة مسوحة من خيوط خفيفة ورقيقة طول ضلعها ثلاثة أقدام تنصب على الأرض بتحدر فتشكل زاوية قدرها ستون درجة يثبت طرفها الأسفل على الأرض بواسطة اوتاد أو مسامير ويمسك الطرف العلوى بواسطة دعامتين عبارة عن عودين رقيقين ممسوكين بحبلين مثنتين الى الأرض ثم يوضع تحت الشبكة يربوع أو حمامة مربوطة الرجلين ومثبتة بوتد إلى الأرض وعندما يبصر الصقر الحمامة من على بعد ينقض عليها بدون أن يرى الشبكة التى تقتلع من الأرض في الحال وتلتف حوله ، وكثيراً ما يدخل رأس الصقر ورقبته في عيون الشبكة مما يسهل الإمساك به

والشبكة سهلة الحمل اذ يمكن طيها مثل كرة صغيرة ووضعها في محفظة الصياد ويحمل الدعامتين الرقيقتين داخل عصا خيزرانة يلقي بها فوق ظهره على غرار حمل البندقية ويحملها معظم البدو في الحسا والكويت كجزء من معداتهم خلال فصول الخريف والشتاء والربيع حيث تنتشر الحبارى في هذه الفصول

أما الطريقة الثانية للصيد فهى باستعمال شبكة ذات فتحات أصغر بكثير من الأولى مساحتها (٧ × ٣) أقدام تفرش الشبكة على الأرض ويتصل بها عيدان وخيط طويل ، وعند سحب الخيط ترتفع الشبكة الى أعلى ثم تهبط فتطبق على أي شيء يوجد على الأرض بعد ذلك يؤتى بحمامة وتثبت في الأرض بواسطة ربط أحد جناحيها بالقرب من أحد أطراف الشبكةويجلس القناص في حفرة تبعد حوالى مئة قدم في عكس إتجاه الشبكة ويغطي رأسه بأغصان الشجر ويمسك بيده خيطا طويلا آخر ينتهى طرفه الآخر بحلقة تقيد الحمامة ثم يحضر الصياد غرابا مدجنا ويضع بين رجليه قطعة من الصوف سوداء اللون ليوهم الصقر بأن هناك فريسة بين براثن الغراب ويربط رجل الغراب بخيط ثالث طوله مائتى قدم يمسك بطرفه ويطلق الغراب فيطير ويهبط فوق الشبكة وفي هذه الحالة يتوهم أى صقر أن بين مخالب الغراب طيرا فيهجم في الحال لخطفه

عندما يرى الغراب الصقر يفزع بشدة ويهبط على الأرض فيسحبه القناص ثم يهز الحمامة بواسطة الخيط الثانى ليجعلها تتخبط فيراها الصقر ويهجم عليها في الحال ويقتلها ويبدأ في التهامها ، في تلك الأثناء يسحب القناص الصقر وفريسته باتجاه الشبكة وعندما يصل الى الوضع الصحيح يهز خيط الشبكة فيسحبها فوق الصقر وبذلك تطبق عليه

ويعتبر رجال قبيلة الرشايدة أحسن مدربى الصقور في المناطق حول الكويت والرياض وقبيلة المرة في الجنوب عند الامساك بصقر يتم إدخال خيط رفيع في جفنه الأسفل ثم يمرر من رأسه عبر الجفن الأسفل

الآحر مما يؤدي الى إعلاق عيبيه بعد دلك يغطى رأسه معطاء من الحلد أو برقع

بحتاح الصياد الماهر إلى ثلاثة عشر يوما لتدريب صقر عمره عام ، ومن عشرين الى خمسة وعشرين يوما إدا كان عمر الصقر سنتين أو ثلاثا ويستطيع الصقر الحيد أن يقتل من أربعة الى خمسة حبارى في يوم واحد وقد علمت عن صقر عير عادى يقتل من سبعة الى ثمانية في اليوم وقد كان لشيخ الكويت صقر بارع لا يقدر بمال إسمه (نترول) يستطيع ان يقتل أحد عشر طيرا ، والصقر البارع الشهير هو الدي يكون دائما مستعدا للصيد وقد رأيت (نترول) دات مرة بعد أن قام بقتل عشرة طيور مستلقيا على ظهره في عاية الانهاك وكأنه على وشك الموت وفي هده الحالة يعطي جرعة من الاسبرين مدابا في الماء فيعود اليه نشاطه

هناك طريقتان متبعتان في الوقت الحاضر (١٩٣٥) لصيد الحبارى بواسطة الصقور الأولى ابتكرها ابن مشرى من الزبير وتبناها من بعده شيوخ الكويت ، وحسب هده الطريقة يربط الصياد أطول ريش في طرف جناح الطير بعضه ببعض بخيوط صغيرة مما يقلل من سرعته ويمنعه من اللحاق بحبارى قد تكون على بعد كبير من الصياد وهده الطريقة سائدة في الزبير والكويت ثم الطريقة القديمة والتي استبدل بها حاليا الطريقة المستحدثة في الكويت وهي أكثر رياضية لأنها تعطي الصقر حرية تامة في الطيران ولكن بهده الطريقة ضاع عدد كبير من الصقور وإن كانت مدربة تدريبا جيدا

أما الطريقة الحديثة فيطلق بموجبها الصقر في أرض مكشوفة فادا أبصر حبارى ينطلق من يد الصياد ويطير بأقصى سرعة بمحاداة الأرض وينقض على فريسته ممسكا إياها من العنق حتى وصول الصياد إلا إدا استطاع الحبارى الإفلات بمساعدة طير آخر ويستطيع الحبارى أن يعطل الصقر عن عمله لبقية اليوم بافراز مادة لزجة من فتحة شرجه على ريش الصقر وعينيه ورأسه مما يشوش نظره ويدبق ريشه فيلتصق بعضه ببعض ولا يقوى على الطيران إلا بعد غسله وتجفيفه

ويمكن أن يحاول الحبارى النجاة بالإستلقاء ساكنا وبدون الإتيان بأي حركة بحيث لا يراه الصقر عندما يصل للموقع ، ولكن الصقر المدرب تدريبا جيدا يعلم أن الطريدة تقبع في تلك المنطقة فيجثم في الحال وينتظر قدوم الصياد الذي يجول هنا وهناك حول الصقر فما أن يحاول الحبارى النهوض حتى يطلق الصياد عليه النار في الحال وعادة ما يتم صيد حوالى نصف دزينة من الطيور بهده الطريقة لأن الطير يخاف أن يتحرك طالما يقبع الصقر في المنطقة وبذلك يعطي الفرصة للصياد أثناء تفحصه المنطقة بالدوس فوقه بدون أن يتحرك وادا كان الصياد يعتقد بوجود الحبارى في

المنطقة يبرع برقع الصقر ويرفعه عاليا ويطلق صرخة مثل (اهوه اهوه اهو) يعقبها بطلقات نارية (ها ها ها) والغرض من ذلك هو ترويع الطائر وتخويفه مما يجعله يدير رأسه ولو بحركة خفيفة فيلاحظ الصقر الحركة ولو من على بعد نصف ميل فينطلق من يد الصياد مسرعا نحو فريسته

وعندما تكون الهجمة ناجحة ينقض الصقر على فريسته فيقتلع ريش صدرها الذي يتطاير في الحال في الهواء ثم يمسكها من عنقها في محاولة لنهش لحمها ، في تلك الأثناء يجب على الصياد أن يسرع قبل اللحظة الحاسمة فيذبح الحبارى ويسمح للصقر بأخذ عدة عضات من صدره ثم يبعده عن الفريسة بحيلة وهي أن يضع قطعة كبيرة من الجلد مستديرة الشكل بين الصقر وبين الفريسة ويزلقها بحركة خفيفة ثم يلبس الصقر البرقع مرة أخرى ويضع الحبارة في كيس

كذلك يمكن اصطياد الغزلان بواسطة الصقور ويمارس البدوي هذا النوع من الرياضة أكثر من الحضري لرغبته في الحصول على لحم طازج ، وكثيراً ما يستعين بالكلب السلوقي في عملية الصيد هذه فأولا يتم تدريب صقر خاص على مهاجمة الغزال حال رؤيته له ثم يفصله عن باقي القطيع ويبدأ بالدوران حول رأسه من مسافة قريبة وبسرعة شديدة ويحاول أن يخمش الغزال بمخالبه في وجهه وعينيه فيحاول الغزال اليائس الفرار ولكن لا مفر من عدوه ، عند ذلك يقف ساكنا ويحاول أو ينطح الطير عندما يهجم عليه ولكنه سرعان ما يصاب بالدوار والإرتباك إثر الهجوم المتكرر من الصقر الذي يبدأ بتجريح وجه الغزال براثنه الى أن يعميه في بعض الأحيان وفي هذه المرحلة ينهار الغزال على الأرض ويأتي الصياد الذي يحصل على فريسته في غاية السهولة

وهناك عدة أنواع من الطيور إلى جانب الحبارى تحلق في سماء الكويت خلال فصل الربيع ، وتقل في فصل الخريف موسم هجرة الطيور ويذهب معظم صبيان الكويت والقبائل التي تقيم على الساحل الجنوبي لاصطياد هذه الطيور من باب التسلية وتؤكل طيور الصيد أو تباع الى أطفال آخرين أو للصيادين فيطعمونها صقورهم خارج موسم الصيد وتستعمل عدة أنواع من الفخاخ لصيد الطيور الصغيرة تختلف كلية عن فخاخ الصيد بالصقور وهي بالنسبة للأطفال ضرب من أنواع اللعب ويستعمل الفخ لاصطياد صقر العوسق (الترياص) الذي يظهر بعشرات الآلاف في مدينة الكويت خلال أواخر شهر مارس وإبريل ويستعمل العوسق كطعم في فخ حيث تربط رجلاه بحجر ثقيل بالقرب من شجرة تجتمع حولها الطيور وتنصب حول الطير الأسير عدة فخاخ مثبتة بوتد في الأرض ومغطاة بطبقة رملية رقيقة

لا يبدو منها سوى ديدان عالقة بها وعندما ترى الطيوررفيقا لها على الأرض تتجمع حوله وتقترب شيئا فشيئا منه وما أن تحاول التقاط الديدان حتى تطبق عليها الفخاخ فيخرج الصبيان أصحاب الفخاخ من مخابئهم خلف جدار أو في بقعة متوارية في المنطقة ويندفعون لالتقاط الطيور التي ترفرف في محاولة منها للافلات بعد ذلك يحمل كل صبي طيره على رسغه ويمشي مقلدا الشيوخ صيادي الصقور وتصاد طيور الصرد (الحمامي) بمثل هذا النوع من الفخاخ أيضا

وهناك أيضا فخاخ (الصلاية) وتنصب على سطوح المنازل في الكويت داخل أجمة مقطوعة من أغصان الشجر ترتب وتوضع بعناية فوق السطوح لهذا الغرض ويمكن نصب حوالى ستة فخاخ في كومة واحدة من الأغصان كذلك ينصب هذا النوع من الفخاخ بمحاذاة جدران واطئة من الطين في حدائق واطئة خارج المدينة أو بين الورود أو أى مكان آخر وتنجذب الطيور إلى مثل هذه الأغصان لوجودها في أماكن يندر فيها وجود الشجر ، فيحط الطير على وتد يتصل به خيط فما أن يقع الوتد حتى تمسك قدماه بالخيط ثم تؤخذ الطيور وتوضع في سلة صغيرة مصنوعة من سعف النخيل وتباع في الشوارع والأسواق

وهناك نوع ثالث من المصائد يسمى (ساليه) ويتكون من شبكة مثبتة باطار مقوس من الخيزران وتنصب هذه المصيدة فوق شجرة صغيرة بحيث يميل طرفها وحوافها الى الأرض حيث توضع حجارة ثقيلة مما يوهم الطيور بوجود جحر مدخله إلى أعلى فوق الشجرة وتأتى الطيور فتحط فوق الشجرة وفى الصباح الباكر تدفع الى أسفل وتقع في شرك الشبكة على الأرض ثم تمسك بسهولة

صيد اللؤلؤ

في خلال الفترة من ٢٠ مايو الى ١٠ يونيه من كل عام تعم البهجة شواطىء مدينة الكويت ، فهذا موسم صيد اللؤلؤ والسفن على أهبة الاستعداد للغوص ويشارك في هذا الموسم إلى جانب القطاع الأكبر من سكان الكويت عدد كبير من بدو العوازم والعجمان والمطران الذين يتركون خيامهم في فصل الصيف ويأتون الى الداخل لينالوا حظهم من اللؤلؤ في موسمه السنوي

ومع اقتراب موسم الغوص يبدأ قبطان السفينة بجمع أفراد بحرية سفينته الذين يحتفظ بأسمائهم مدونة في كتابه من السنة السابقة وبما انهم مدينون للنوخذة فإنهم يلبون النداء في الحال ثم يجرى تنظيف السفن ودهن جزئها العلوى بزيت سمك القرش وطلاء الأجزاء السفلية المغمورة تحت سطح الماء بخليط من دهن الغنم والنورة لوقايتها من

العمل بعد ذلك يقوم البحارة بسحب سفنهم من اليابسة إلى الماء على وقع دق الطبول والأغاني والأهازيج

بعد أن يتم إعداد السفينة ووضع الماء والطعام ـ مؤونة الرحلة ـ يسمح للبحارة الذين يتراوح عددهم من اربعين الى ستين رجلا بزيارة بيوتهم وتوديع أهلهم وزوجاتهم وعائلاتهم يدفع القبطان لكل منهم مبلغ خمساً وثلاثين روبيه كمقدم أجر يتركها البحارة لعائلاتهم ينفقون منها أثناء غيابهم ويحدد شيخ الكويت هذا المبلغ في كل عام

تسافر السفن التي تتكون من السمبوك أو الشوعي أو الجالبوت عبر ساحل الجزيرة العربية لمسافة حوالى مئة ميل جنوبي الكويت حيث تكون الصفاف مالحة وعميقة بدرجة معقولة وتلتقي مئات السفن هناك وينضم اليها أميرال أسطول اللؤلؤ في (البتيل) وتبدأ عمليات الغوص

يقسم طاقم البحارة الى سيوب وغواصين مهمة السيوب ملاحظة الغواصين في قاع البحر بواسطة الحبال التي يمسك بها الطرفان ومهمة الغواصين البحث عن المحار يقف كل غواص عند نزوله الى القاع بواسطة ثقل من الحجارة يتصل بالسفينة بواسطة حبل وهذا الحجر يسهل عملية نزوله في أقصر وقت ممكن مما يحفظ له نشاطه ويجنبه الإرهاق ، وعندما يجيء وقت التنفس يسحب السيب الحبل والحجر الى أعلى يعوم الغواص الى سطح الماء يسد الغواص أنفه بواسطة (فطام) ملقط خشبي منعا لنفاذ الماء الى خياشيمه ثم يعلق سلة فوق صدره مدعومة بأنشوطة يمررها حول عنقه كما أنه يتسلح بسكين يخلص بها المحار من قاع الصخور ويلبس في كل يد قطعة صغيرة من الجلد مثل الكف لحماية أصابعه

والغواص لا يلبس عادة إلا مئزراً صغيراً يستر عورته أما في حالة وجود مخلوق (الدول) سمك الهلامي (أو رئة البحر) اللساعة فإنه يلبس بدلة سوداء تغطي كل جسده ورأسه ويديه وقدميه ويترك بها فتحتان للعينين فقط يغطس الغواصون الى القاع ثم يطفون الى السطح لمدة حوالى ست أو ثماني ساعات يوميا يتخللها دقائق قليلة على فترات محددة للأكل والراحة أما عمل السيب فيعتبر سهلا نسبيا بالقياس الى عمل الغواص وإن كانوا يسحبون الحبل والحجارة عدة مرات في اليوم

بعد أن يمسح الغواصون المنطقة الواقعة تحت القارب مباشرة ومن حوله من المحار يحركون القارب الى منطقة أخرى بواسطة المجاديف أو بسحب الحبال المشدودة إلى المراسي

ومع غروب الشمس يأتي الفرج للغواص والسيب ويتناول كلاهما وجبة خفيفة لأن الاكثار من الطعام يقلل من نشاطهما وقدرتهما على التحرك وفي المساء تفتح أصداف المحار ويأتي التجار في قوارب شراعية أو قوارب بحارية ويقومون بدورات

حول الأسطول يتفحصون حلالها اللؤلؤ ثم يأخدون ما يريدون من مشتروات وتتم الصفقات على الحساب حيث تسجل في سجل الديون وإن كان بعض النواخدة (القباطنة) يصرون على استلام الثمن نقدا

في منتصف شهر سبتمبر وبعد أربعة شهور مضنية يأتي أمير الغوص إلى مكان وجود الأسطول ويطلق أعيرة نارية إيذانا بانتهاء الموسم وفي الحال يهب الجميع مهللين فرحين بالعودة الى بيوتهم فادا كانت الريح مواتية يبحر ثلاثمائة أو اربعمائة قارب في وقت واحد وبكامل أشرعتها في سباق إلى الكويت فما أن تبدأ هده القوارب في الظهور على شواطىء الكويت حتى يزداد دق الطبول وإطلاق النار وتلبس النساء أحلى ثيابهن وتهرعن الى الشاطىء ويسود المنطقة جو من الفرحة والترحيب فتصطف النساء والأطفال مبتسمين ضاحكين في انتظار أول طلائع موكب عودة الأزواج والآباء

عند الوصول يسمح للغواصين بالذهاب مباشرة الى بيوتهم أما السيوب فيتخلفون الى حين الانتهاء من جمع المعدات وحفظها حتى الموسم التالي وسحب القارب من البحر وكشط بدنه ثم أعادة تزييته ويحمل القبطان اللؤلؤ الى السماسرة ويبدأ في مساومات البيع وبما أن هده الفترة قد تستغرق من شهر الى ستة أسابيع فإن القبطان يدفع للطاقم الدي لا يتقاضى راتبا وإنما جزءا من مردود المبيعات ، دفعة أخرى على الحساب وهدا المبلغ مثل سابقه ينفقه البحارة على عائلاتهم ولكنهم في نفس الوقت يرتبطون مع النواخدة للعمل في الموسم التالي بعد الانتهاء من عملية البيع يبعث القبطان في طلب طاقمه ويدفع لكل منهم حصته بعد أن يخصم منها جزءا من أو كل المبالغ المدفوعة مقدما وكدلك المصروفات وينال الغواص حصته راضيا هانئا عندما يكون مردود البيع جيداً ، وفي هده الحالة يعتمد أفراد البحرية على أمانة القبطان إد لا يسمح لأي منهم بحضور عمليات البيع أو المشاركة فيها وهكدا بعد أن يتم فرز اللؤلؤ ووزنه وبيعه ينقل الى البحرين وهو السوق التجاري للؤلؤ في الخليج حيث يتجمع هناك في كل عام التجار الهنود والأوروبيون لعقد صفقاتهم

والغوص في الخليج بحثا عن اللؤلؤ من أشق وأقسى الأعمال التي من الممكن أن يقوم بها الانسان لأسباب كثيرة

أولها أنه لا يسمح باستعمال بدلة غوص على النمط الأوروبي

ثانيها أن موسم اللؤلؤ يستمر خلال أربعة أشهر الصيف شديدة الحرارة حيث تكون الشمس حارقة والسكون الدي لا يتخلله نسمة هواء

ثالثها يتناول الغواص الحد الأدنى من الطعام ويقتصر طعامه على قليل من التمر والأرز للحفاظ على قدرته على البقاء تحت الماء لأطول وقت

ممكن

رابعها يتسبب الماء المالح وتعرضهم للشمس الحارقة وعدم توفر الماء العذب للاستحمام بعد الغوص في إصابتهم بتقرحات جلدية مؤلمة وأخيرا تعرضهم الدائم لخطر سمك القرش وسمك الراى اللساع (اللحمة) والسمك الهلامي (الدول)

ومشهد عودة الغواصين الى بيوتهم بهزالهم وبحولهم مشهد محزن حتى وإن كانت رحلتهم ناجحة ولكنها مأساة عندما يجرون أذيال الفشل من ورائهم فإضافة الى أن ذلك يعني ضياع أربعة اشهر من العمل الشاق المضني بدون أي مكافأة فإنه يكبل أعضاء الطاقم بالديون إلى قبطان السفينة الذى يحق له ، تبعا للأعراف المعمول بها منذ القدم ، أن يخصم جزءا من تكاليف الابحار والحبال والطعام والماء وإعداد السفينة ونسبة من استهلاكها من أجرهم

تشتهر الكويت بصناعة السفن وأحسن سفن الخليج تصنع في الكويت ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى أن الأخشاب تجف وتقسو بسبب جفاف الجو هناك ويستعمل قارب السمبوك بالدرجة الأولى للغوص من أجل اللؤلؤ لأن له مؤخرة مربعة وقاعه ضيق مما يساعد على سحب القارب بالمجاديف عدة مرات بصورة دائمة وسريعة ولهذا القارب صاريان

ويشبه قارب التبوعي السمبوك الى درجة كبيرة فيما عدا أنه أصغر منه ، والفارق الحقيقي بينهما في رأس مقدمته ، كذلك عدم وجود نقوش في مؤخرته كما هو الحال بالنسبة لقارب السمبوك ويستعمل السمبوك لصيد اللؤلؤفقط

كذلك يوجد نوع غريب ومميز من القوارب يندر رؤيتها في الوقت الحاضر في الكويت وهي (البتيل) التى يستعملها أمير الغوص فقط وهذا القارب سريع جدا وكان القراصنة يستعملونه في العصور الغابـرة

المجداف الأمامي مقـوس وغريب الشكل وفي المؤخرة نقشت صورة رأس حصان مما يجعله مميزا بين القوارب الأخرى ولكنه بدون شك آخذ في الانقراض لأن نفقاته كثيرة بالقياس الى حجم الحمولة التى يستوعبها

أحسن القوارب التى يتم بناؤها في الـوقت الحاضر في الكـويت هي (البوم) مع أن أفضلها في السابق كان (البغلة) الذي يمتاز بمؤخرة مربعة ونوافذ خلفية وللبوم مساحة للشحن أكبر وأفضل مما في البغلة وهو بمؤخرته الانسيابية أسرع وأفضل قارب ملاحة ويوجد بأحجام مختلفة من الزورق الى السفينة التى تبلغ حمولتها ثلاثمائة طن وعادة ما يكون له صاريان وللبوم الكبير ثلاثة صوار احيانا المقدمة طويلة ومستقيمة وطرفها مطلى بدهان أسود مع حلقة بيضاء

ربمايكون من الأهمية بمكان أن

أذكر كلمة الداو التى طالما إعتقد العربيون أنها الإسم الصحيح لسفن الكويت ومنطقة الخليج إلا أن هذا الإسم لا يستعمله العرب وقد سألت عدداً كبيراً من العرب ما هو الداو ؟ ولكن أحداً منهم لم يسمع به إطلاقا وقد أخبرني شيخ الكويت بأنه عثر على هذا الإسم مكتوبا مرة واحدة فقط في سجل يعود تاريخه إلى أواخر القرن الثامن عشر

عبارات وأمثال وأقوال

التحيات

التحية التقليدية هى (السلام عليكم) والرد عليها (وعليكم السلام)

وهناك تحية البدو (القوة) والرد عليها (الله يقويك) والتحية المعتادة في المدن هى (صبحكم الله بالخير)، يعقبها سلسلة من الأسئلة حول الصحة والأحوال، ولكل هذه الأسئلة أجوبة مناسبة وتقال في أعقاب بعضها على التوالي

عند عودة صديق حميم أو شخص على قرابة من سفر فإن تحية إستقباله تكون (قرة عينك) والجواب (بوجه نبيك)

عندما كنت وزوجتي نزور أحد البيوت أو الخيام يحيينا أهلها بالقول (حياك الله يا أبو سعود) أو (ياهلايا أبو سعود، كيف حال الأولاد)

وتقال نفس هذه التحيات بين النساء، ولكن هناك أسئلة أكثر حول العائلة لأن المرأة تستطيع أن تسأل صديقتها أو صيفتها عن صحة زوجها وأحواله وسائه إن وجدن بينما لا تبيح الأعراف والتقاليد للرجل بأن يسأل عن زوجة صديقه أو حتى يتطرق الحديث في أي حال من الاحوال إلى ذكرها إلا إذا كانا على صلة قرابة أو علاقة وطيدة فيسأل (شلون أم العيال ؟)

أما التحية أثناء أيام الأعياد فهى (عيدك مبارك) والجواب على ذلك (أيامكم سعيدة) أو (عساك من العايدين الفائزين)

ويعقب التحية بين الأصدقاء والمقربين أو تحية شيخ ما قبلة على الأنف وهى الأكثر شيوعا أو على الوجنتين وكان هذا النمط من التحيات يبعث الضيق في نفسي خاصة إذا كنت مضطرا للسلام على مجموعة من الأشخاص في آن واحد

إذا قابل البدوي أخته أو زوجة صديق كبير في الصحراء فإنه يسلم عليها بتقبيل يدها أووجنتها عبر البرقع ولا يفعل ذلك أمام الغرباء لأنه من ضروب العيب

إذا إلتقى صديقان في الصحراء أو في المدينة يصافح كلاهما الآخر يدا بيد وينهالان على بعضهما البعض بسيل من الأسئلة والتحيات المختلفة ويظلان يمسكان بيديهما إلى حين الإنتهاء من سيل السلامات التقليدية أما النساء فتقبل كلاهما

وحنة الأخرى من تحت البرقع أو عبر زاوية مفتوحة في الحجاب ومثل هذه التحيات مسموحة أمام الرجال

والإبن لا يصافح والده كما يصافح أي رجل آخر إذ عليه أن يظهر لوالده المزيد من الخضوع والإحترام ويشير إلى والده بـ (الوالد) أكثر من (أبوي) وهي عبارة متداولة في المدن وينادي الإبن الشاب أباه بقوله يا طويل العمر) أو يا حضرة الوالد) وينادي الأب ولده بالقول

(يا ولدي) ويستعمل الشيخ هذه العبارة عندما يخاطب أحد رجاله

وينادي الأب أبناءه للسلام على ضيف بالقول (يا عيال تعالوا سلموا على فلان)

ويخاطب العبد سيده بالقول (ياعمي) ويسلم عليه بتقبيل يده ولا يصافح السيد عبده ولكنه يسأل عن أحواله وصحته إذا لم يره لفترة ما

في الكويت وغيرها من مدن الجزيرة العربية لا يقف الرجل الجالس للسلام على من هو أعلى منه شأناً لأن في ذلك تقرباً وتملقاً يهدف إلى الحصول على منافع خاصة والقاعدة المعمول بها أن يبدأ كبير الشأن بالقاء التحية ، كذلك يطرح السلام أولاً الواقف أو الماشي على الجالس ، ومن كان على ظهر فرس يلقي بالتحية على الجالس أو الماشي ، عندها فقط ترد التحية بالقول
(عليكم السلام)

الأكـــــل

يدعو المضيف ضيوفه للبدء في الأكل بالقول (تفضلوا) ، ويستعمل نفس العبارة للترحيب بشخص ودعوته إلى خيمته أو بيته وقبل البدء في تناول الطعام يذكر كل شخص إسم الله بالقول (بسم الله) ويقال للضيف هنيئاً بعد أن يشرب والجواب عليها (الله يهنيكم) أو (هناكم الله بالايمان) وكذلك بعد الانتهاء من الطعام ومن باب الأدب أن يشكر الضيف مضيفه بالقول (الله يكثر خيرك) أو (أنعم الله عليك)، والجواب على ذلك (هني وعافية) أو (مال الله ومالك)

التعـــاري

عبارات التعزية المتداولة هي أن يقال لمن فقد ولداً له (الله يخلف عليكم) والرد على ذلك (لله الحمد والشكر) ، ويقال لمن فقد قريباً له في ريعان الشباب (الله يعظم أجركم) ولمن فقد طفلاً (الله يحسن أجركم)

عبارات متداولة أخرى

* (والله) و (بالله) ، و (إيه بالله والله) هذه العبارات يقسم بها المتكلم ليؤكد بأنه يقول الحقيقة

* وتقال العبارات (في أمان الله) ، و (حفظكم الله) ، و (وداعة الله) لتوديع صديق أو ضيف وهي بصورة عامة عبارات الوداع

* وتستعمل العبارات (توكل على الله) ، و (توكلنا على الله) ، للمباشرة في القيام بعمل أو سفر أو ما شابه ذلك

* وتستعمل عبارة (الله كريم) ، للتعبير عن الاستسلام لأمر الله أو

الأمل في العوص عندما لا تسير الأمور حسب المشتهى
* وتقال عبارة (ساعدكم الله) ، و (قواكم الله) التي تختصر إلى (القوة) لتشجيع شخص على القيام بعمل ما
* وتستعمل عبارة (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ، للتعبير عن الإندهاش إثر حادث أو منظر غريب
* ويقال (استغفر الله) ، و (لا إله إلا الله) ، لدفع الأذى
مختارات من الأمثال والأقوال العربية
* هناك ثلاثة أشخاص يسيطرون عليك إذا لم تسيطر عليهم وهم من يعمل في أرضك ، وروجتك ، وعبدك
* ثلاثة أشياء تنزع الحيطة من صدر الرجل وهي الماء الجاري ، والمرج الأخضر ، والوجه الحسن
* جارك ، ثم جارك ، ثم جارك (واجبك تجاه جارك يأتي قبل كل شيء)
* (ياضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل)
* إضرب الكلب يتأدب الأسد
* البيت بيتك لكن المسجد أدفأ لك ، (إشارة للضيف بعدم الترحيب به ، ويعتبر الجامع ملجأ وملاذا شرعيا لمن لا بيت له)
* ما دمت في دارهم فدارهم
* (إذا دليت البدوي على باب بيتك إفتحه علشان يدخل بعيره) هذا القول يدل على أن البدوي طماع فإن دعوته إلى بيتك يحضر معه قبيلته
* لماذا تشغل نفسك بشجرة

ووجودها ؟
* المشاهد غير اللاعب ، (معناها من السهل عليك أن تنتقد إن لم تكن أنت اللاعب)
* حافظ على سرية مهامك أو أعمالك الهامة
* (خبز خبزتيه بالرفلاء أكليه) ، أيتها المرأة البلهاء عليك أن تأكلي الخبز الذي خبزتيه بنفسك
* لا تركب ناقة عمانية ولا تتروج من بنات قبيلة رعاب فالأولى تنهك الإبل من الجيش والثانية ستغضب روجاتك من الغيرة (مثل بدوي يمدح سرعة الجمل العماني وجمال وذكاء نساء قبيلة رعابية)
* الصبر مفتاح الفرج
* في التأني السلامة وفي العجلة الندامة





دراسة موضوعيّة وفنية ١

الشاعر علي بن المقرب

العيوني

بقلم: الدكتور أحمد موسى الخطيب

بالشعرِ.. أرّخ ابن المقرب



دولة العيونيين

هــذا البحــث

الشاعر البحريني القديم والشهير علي بن المقرب العيوني لا تكمن اهميته فقط في انه أحد الشعراء المجيدين الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي وإنما ترجع اهميته في أنه يعتبر المرجع الأهم بل يكاد يكون المصدر الوحيد لتاريخ دولة كاملة هي دولة العيونيين التي حكمت البحرين لأكثر من ١٥٠ عاما بدأت مع أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وشغلت مساحة ليست بسيطة في تاريخ هذه الجزر العريق وكأنما كان الشاعر علي بن المقرب يعرف أن مصادر تاريخ هذه الدولة سوف تضيع فأرخ بشعره لها ولحكامها ورسم بقلمه صورا دقيقة لواقع الحياة خلال الفترة التي عاشها وعايش فيها دولة العيونيين وإذا كان البحث في تاريخ علي بن المقرب وشعره أمرا اكثر أهمية بالنسبة للباحث في الأدب واللغة الا أنه سيظل دائماً أمراً هاماً بالنسبة للباحث في تاريخ دولة البحرين بصفة عامة وعصر العيونيين بصفة خاصة وذلك ما دفعنا إلى أن نعرض على صفحات الوثيقة هذا البحث القيم للباحث الدكتور / أحمد موسى الخطيب راجين أن يحقق الهدف منه وهو توفير بعض المادة التاريخية عن تاريخ هذه الدولة للباحثين في تاريخ البحرين

(الوثيقــة)

الرجل .. عصره .. وحياته
(عصره : الزمان)

حرى بنا قبل الوقوف على البيئة الخاصة للشاعر، أن نلقي نظرة على البيئة العامة له، ونقصد بذلك عصره، وأحوال سائر الأمصار العربية الأخرى، وذلك لأن الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية للأمة العربية كل لا يتجزأ، مهما تباعدت أقطارها، فهي مشدودة - دائما - بأواصر متينة اذا فدراسة أى قطر عربي بمعزل عن الاطار القومي العام، تعد دراسة ينقصها الكثير من الكمال

لقد ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة الى لواء الخلافة زهاء قرنين من الزمان، ثم بدأت الخلافة المركزية في الضعف، وأخذت أجزاؤها تتفرق واحدة بعد

واحدة ، ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده ، وإنما يرجع في بعض أسبابه الى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطورا ، جعل بقاء الوحدة الشاملة أمرا غير ميسور ، ونعني بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية ، واتجاهها نحو القوة ، وميلها الى بدء حياة قومية جديدة فلما كان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، والسنوات الأولى من القرن الرابع كانت الدولة العباسية الكبرى قد بدأت أركانها تتصدع ، وأمصارها تستقل ، وولاياتها تنفصل عنها ، وأصبحت العاصمة «بغداد» مركزا للدسائس والمؤامرات ، فتقلص ظل الخلافة ، ودالت سطوتها ، وأصبح الخليفة أسير قصوره وقواده ، لايكاد يملك من أمر نفسه شيئا [1]

ولم يلبث الفرس أن طردوا ، حين أظهروا عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الامبراطورية الاسلامية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أحس العباسيون بالخطر الذي سيجلبه عليهم تسلط الفرس على أمور الدولة ، ولذلك حاولوا التخلص منهم ، فجاءوا بالترك ، وسلطوهم عليهم ، وكان هذا بلاء جديدا ، ومرضا أفتك من المرض الأول ، دخل جسم الأمة العربية ، لأن الفرس كانوا قوما ذوي حضارة قديمة ، وعلم موروث ، فلما توطدت أركانهم في الدولة العربية نشروا علمهم ، وبعثوا حضارتهم ، أما الترك فقوم لم يعرفوا بحضارة ، ولا روي عنهم علم موروث ، فلما استولوا على زمام أمر الدولة العربية ، سيطر عليها الجهل وعمت الفوضى ، وفشا الفساد ، وأصبح من الطبيعي أن تصل الدولة العربية الى حالة مرعجة من الفساد»[2] حتى في عهد أقوى شخصياتها الوزير نظام الملك[3]«الذي ترك رسالة رائعة ، كشف فيها النقاب عن مساوىء الادارة في الامبراطورية السلجوقية» [4]

وسرعان ما تجزأت الامبراطورية السلجوقية ، وفقد الأمراء من هذا البيت سلطانهم بالكلية ، بعد أن استبد بها من دونهم من الأتابك ، الأوصياء عليهم [5]

وهكذا كان العالم العربي عامة ، والعراق خاصة في فجر القرن السابع ، على حالة مرعجة من الاضطراب والفوضى ، والسر في ذلك يرجع الى الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد الأعاجم من الأتراك والسلاجقة ، يتصرفون بالبلاد كما يشاءون ، ويقضون على القومية العربية بما يريدون [6]«وقد كان خلفاء بني العباس المتأخرين ، وهم قادة المسلمين اسميا ، لا يتمتعون الا باحترام معنوي خارج مملكتهم الصغيرة ، التي لم تكن تقدم لهم من الامكانات ، ما يساعدهم على النهوض بواجب سياسي خطير [7]«وكان الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ)[8] هو أول هؤلاء الخلفاء الذين بدأ الغزو المغولي في عهدهم ، وقد اشتد في أيامه انحلال الامبراطورية السلجوقية ،[9] «وكان الناصر قبيح السيرة في رعيته ظالما متعسفا ، أكثر عليهم الجواسيس ، واشتط في فرض الضرائب ، وأخذ أموال الناس حتى خرب العراق في عهده ، وتفرق أهله في البلاد ، وكان يفعل الشيء " وضده ، فكان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف آبائه »[1] والواقع أن هذا الخليفة الذي يعد آخر الدهاة من بني

العباس ، كان يحاول أن يمكن لسلطته الهزيلة المتقلة ، بعمل بارع قوامه موالاة الشيعة ورعايتهم (١١)

ولما الت الخلافة الى المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ)(١٢) ، ثم الى المستعصم بالله (٦٤ - ٦٥٦هـ)(١٣) ازدادت الفوضى ، واضطرب حبل الامن ، وبخاصة في عهد الاخير ، فقد كان ضعيف الرأى لا يسمع له قول(١٤) ، منصرفا الى اللهو وسفاسف الامور ، ولم تكن حاشيته ورجال بلاطه أفضل منه ولما اخذ خطر التتريقوى ، وسرعت أخبارهم تصل الى بغداد ، حاول بعض العقلاء من رجال الدولة تقويم اعوجاج الخليفة ، واصلاح حال الحاشية ، والدعوة الى الاخذ بأسباب النهوض بالبلاد والدفاع عنها من الخطر الداهم ، ولكن الخليفة الأخرق ، وحاشيته الخبيثة ظلوا سادرين في غيهم ، لا يسمعون لنصح المخلصين ، ولا يعملون على اصلاح حال البلاد ، وانقاذها مما هي فيه من الاضطراب والفساد (١٥)

وأطل القرن السابع على الجزيرة وهي غارقة في سبات عميق ، وجهل مطبق ، فقد اهملها خلفاء بني العباس ، الا مكة والمدينة ، فانهم قد وجهوا اليهما بعض العناية ، لما لهما من المكانة الدينية ، والقداسة التاريخية ، اما سائر المدن في الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وغيرها من بقاع الجزيرة العربية الواسعة ، فقد كانت الفوضى ضاربة اطنابها فيها ، وكانت أخلاق الناس في بلاد العرب سائرة نحو الانحلال ، وكانت البلاد مقسمة الى دويلات وامارات ، يحكم كلا منها حاكم مستبد مستقل ، ولا سلطان لاحد عليه ، حتى ليخيل للمرء أن الجزيرة العربية قد عادت الى جاهليتها الأولى أو كادت (١٦) وهكذا كان حال الحاضرة العربية ، أما البادية فحدث عن فوضاها ، وتناحر قبائلها ماشئت ، واذا كانت نفس البدوى في طبيعتها لا تقبل النظام ، حتى في عصور القوة ، والحكومات الرشيدة ، والامارات الفاضلة ، فاحرى بها أن لا تقبل شيئا من النظام في عصور الضعف ، والحكومات الفاسدة ، والامارات الجاهلة ، واذا كانت هذه حال الجزيرة ، فمن الطبيعي أن تنقطع الصلات التاريخية بينها وبين كثير من أجزاء العالم العربي ، وهكذا كان الأمر ، فقد أصبحت أخبارها شبه مجهولة ، وتاريخها غامضا ، أو كالغامض ، ولذلك صار علمنا عنها قليلا (١٧)

أما الولايات الاسلامية الأخرى كالجزيرة ومصر ومعظم بلاد الشام فلم تكن أحسن حالا ، نظرا لانقسام الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل - أخي صلاح الدين عام ٦١٥هـ - بين أولاده ، الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب ، وتهديد الدويلات الصليبية ، التي كانت قائمة في سوريا وفلسطين ومصر" (١٨)

«وكانت فكرة الحرب في سبيل الأرض المقدسة قد انكمشت في تلك الفترة ، ولكن «أندراوس» ملك المجر ، لم يلبث أن بعثها من مرقدها عام ٦١٤هـ ، قبيل وصول الحملة الى دمياط» (١٩) وقد أشار ابن المقرب في مدحه للملك الأشرف (ت ٦٣٥)(٢٠) الى الدور الذي نهض به في قتال الصليبيين ، ودفع خطرهم عن دمياط عام ٦١٧هـ حين سار اليهم من أرض الجزيرة في الشام

سل الكفر من اودى بدمياط ركبه
وقصر اعلى فرعه وهو باسق
يحدث صدقا ان موسى هو الدى
بصارمه ساقت عليه البوائق
وقد جاءت الافرنج من كل وجهة
كأن تداعيها السيول الدوافق
كتائب ملء البر والبحر من بدت
له قال دا صبح من الليل عاسق[21]

ثم يصف المعركة وهولها ، وبطولة الملك الأشرف ، وما أوقعه فيهم من قتل ، سال على اثره بحر من الدماء على شاطىء دمياط

فسال دم لو سال في الارض لاستوى
بها ردع ما عمرت ومرالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه
إلى الآن من بعد الاقاحي شقائق[22]

ونتيجة لهدا وداك من الظروف السيئة ، التى شملت العالم العربي ، فقد تعدر اقامة حلف او جبهة اسلامية تستطيع الوقوف في وجه المغول ، ولدلك لم يكن سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ حدثا مفاجئا ، وانما كان نتيجة حتمية لضعف العالم الاسلامي

«ولئن كان الاتراك قد أوقعوا أعظم الأدى - خلال قرون متطاولة من سوء الادارة - بحضارة ايران والعراق ، التى بلغت في يوم غاية ما بعدها من الازدهار ، فقد كان من نصيب أسلافهم التتار أو المغول ، في مستهل القرن الثالث عشر ، القضاء نهائيا على تلك الحضارة» [23]

اضطربت الحالة العامة في العراق اضطرابا شديدا مند فجر القرن السادس ، واستمر هدا الاضطراب الى هدا القرن السابع ، ففي القرن الماضي كان الأمر بيد الأعاجم من الفرس ، والأتابكة والترك ، ولكنهم كانوا على شيء من معرفة الادارة والاطلاع على السياسة ، وحشية الجانب العربي ، أما في هدا القرن ، فقد ساءت حالة أولى الأمر ، وبخاصة الخلفاء الى درجة أصبح معها من المستحيل بقاء الحكم في أيديهم ولو اسميا ، لأنهم استسلموا للمماليك والخصيان والجوارى ، الدين سيطروا على قصورهم ، وتحكموا فيهم كل تحكم [24] وقام النزاع بين القواد ، الدين طالبوا بزيادة أرزاقهم ، وتفاقمت العداوة والبغضاء بين الشيعيين والسنيين ، واشتد خطر فيضان دجلة ، فاختل الأمن ،[25] وشاع نظام المصادرة والتعدى على الناس والقضاء على الحريات ، ومحو العدل والمساواة ، ولم تكن حالة الشعب أفضل من حالة الخليفة ورجالات عصره ، فقد كان عامة الناس على جانب عظيم من التفسخ الخلقى ، والفساد الاجتماعي ، لأن العناصر الدخيلة قد دخلت بينهم ، وأعملت فيهم فسادا وتمزيقا ، حتى انقسموا على أنفسهم شيعا ، كل شيعة تناصر احدى الدول الأجنبية المجاورة ، حتى فقدت العصبية العربية تماما ، وكان لدسائس الفرس والترك ، أثر كبير في هدا التفرق والفساد ، وبخاصة ملاحدة الباطنيين ، وأتابكة الترك ، ومفسدى المغول ،[26] أضف الى هدا انتشار طائفة من المفاسد والأمراض الاجتماعية ، التى ما دخلت أمة الا أهلكتها ، وسلبت عزتها ، وكرامتها القومية ، من الخلاعة ، واستيلاء الخصيان والمماليك والجوارى على زمام الأمور ، والى جانب هدا وداك طائفة من الأمراض والأوبئة التى استوطنت

العراق كالحميات والطواعين [٢٧]

وادا كانت هده حال العراق - وهو مهد الحلافة العباسية ، وميراث الامبراطورية الاسلامية - فكيف تكون حال سائر ممالك الحلافة التابعة لها ؟ والحق أنها كانت في حالة مرعجة ، سواء من حيث التفكك أو الجهل أو الفساد أو الاصطراب

تميز القربان السادس والسابع بعد الهجرة ، بتقدم رراعي ، وتنوع في الثورة الرراعية ، وقد أدى هدا بدوره الى قيام صناعات عديدة ، ترتكز على الحاصلات الرراعية ، والثروة المعدنية وكدلك تحلى في هدا العصر انتعاش التجارة الداحلية ، كما نشطت حركة التبادل التجاري بين مدن العراق ، وبلاد المشرق الاسلامي ، بفصل انشاء الطرق وتأمينها وكان من أثر وفرة المحاصيل الرراعية وتنوعها ، وتقدم الصناعات واردهارها ، ونشاط حركة التجارة أن رحصت الأسعار ، وتحسنت أوضاع الناس المعيشية [٢٨]

ويمكن القول أن النشاط الرراعي في العراق حلال القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع كان جيدا ، وأن القرى والمدن كانت عامرة [٢٩]

وكانت التجارة مهنة نشيطة حلال العصر العباسي الأول ، وقد استمرت كدلك حتى هده الفترة [٣٠] وقد كانت مصنوعات الحديد العراقية تستهوي التجار فيستوردونها الى أوطانهم [٣١] ، كما فعل شاعرنا علي بن المقرب العيوني ، اد اشترى حديدا من بغداد ، وانحدر به الى البصرة ، مارا بواسط ، وقد استوقفه بواسط ضامن المكوس ، وأحد منه مكسا يقدر بنصف الثمن ، حيث كان ثمن المنّ الواحد ببغداد دينارين ، بينما كانت الضريبة دينارا واحدا على كل منّ حديد ، لدا هجا ابن المقرب ضامن المكوس بواسط بقوله

بع واسطا بالناى والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
ارض يدبرها ابن صائغة
شانت مفارقها من الكفر [٣٢]

ثم يشير الى اجحافهم في الضريبة ، الى حد وصفه لهم بقطاع طرق ، لاضامني مكوس

اسرفت في ظلم العباد أما
للبعث في ناديك من دكر
واعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر
نصف البضاعة حين تطفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر
وكلت عثمانا فوافقني
فيها وتابعه أبو بكر
حتى خرجت على حسابهما
مما حلبت براحة صفر [٣٣]

ولكن مهزلة «قطاع الطرق» من رجال المكوس لم تنته عند هدا الحد ، فلما وصل ابن المقرب البصره ، أحد منه ضامن مكسها ضريبة يسيره ، ثم عاوده ليأحد منه مرة أحرى [٣٤] ، فكتب ابن المقرب قصيدته التى تقع في ثمانية أبيات ، وبعث بها الى أمير البصرة شمس الدين باتكين [٣٥] ، يشكوه دلك ، ويطلب منه دفع قيمة المكس

يا شمس دين الله كم لك من يد
يثنى بها باد ويشهد حاضر
ولدي اعمدة قليل قدرها
حدا وللديوان وال قادر
لا شيء عندي مكسها لكنني
أخشى يقول الناس جاهك قاصر
ولقد جرى فيها بواسط وقعة
ما كان لى فيها هنالك ناصر (٣٦)

ثم يختتم هذه الابيات بقوله

فادفع بجاهك أو بمالك مبعما
عني فما لك للعفاة ذخائر

ويتضح جليا من هاتين القصيدتين أن الريادة في المكس واقعة من قبل الضامن ، وليس للحكومة ممثلة بخليفتها أو ولاتها علم بذلك . ولذلك طلب الشاعر مساعدة والى البصرة

لقد أثبتت كتب التاريخ والأدب أن الحركة العلمية والأدبية ، كانت مزدهرة في هذا العصر في بلاد العراق ، والمشرق الاسلامى ، فاهتم كثير من العلماء والفقهاء بالاشتغال بالعلوم الدينية واللسانية ، من قراءات وتفسير وحديث وظهرت عدة مراكز للثقافة العلمية ، ولكن بغداد احتفظت بمركزها الخاص

وكان لاستقلال بعض الدول عن الخلافة أثره في نشاط الحركة الفكرية ، ورواج الثقافة ، فزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ، ومن ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، والأمويين في الأندلس ، والمرابطين والموحدين في المغرب (٣٧)

«وهكذا كانت الثقافة العربية الاسلامية تمتد - في القرنين السادس والسابع الهجريين - من الهند الى الأندلس ، وتبادل العلم والعلماء قائم بين هذه الدول جميعا ، وان تباعدت أصقاعها ، واختلفت ألوانها السياسية ، أو تعادى ملوكها وحكامها ، فان الثقافة العربية حينئذ لم تعترف بالحدود الاقليمية ولا السلطان والفوارق السياسية أو العنصرية ، فيخرج العلماء من شتى بلاد المشرق ، أو يجوبون هذا العالم العربي الاسلامي ، من حدود الهند وأذربيجان الى أقصى حدود المغرب والاندلس» (٣٨)

ويجب أن لا نغفل في هذا المقام دور كثير من الفرق ، التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية ، وخير مثل لذلك الآثار التي خلفها العلماء من السنيين والشيعيين (٣٩)

وقد تميزت الحركة العلمية والأدبية ، في العراق والمشرق على عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) بميزتين أساسيتين ، تندرج تحت كل منهما خصائص فرعية متنوعة ، أولاهما صفة الشمول التي اتسمت بها افاق النشاط الذهني ، فاتسع نطاق البحث حتى شمل مختلف العلوم والآداب والفنون وثانية الخصائص تتعلق بالأسلوب ، فقد تجلت الصناعة اللفظية في كتب العلوم والآداب والفنون (٤٠)

أما حال الشعر في هذا العصر فقد تغيرت عما كانت عليه قبله ، بعد ذهاب سيف الدولة ، والصاحب بن عباد وغيرهما من الآخذين بناصر الأدباء والشعراء وصارت أكثر أمور الدولة الى

الأعاجم، وانصرفت القرائح الى الفقة والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية ، وظهر الأدب الشعبي نتيجة لفقدان الرعاية ، فأصبح الشاعر لا يطمع رغبة في الجائزة ، أو تنافسا في التقدم لدى ولاة الأمر ، وانما يطمع في الأكثر ارضاء لقريحته ، فتغيرت أغراض الشعراء من النظم ، وقل النابغون منهم ، ومع اتساع الدولة الاسلامية ، وطول هذا العصر ، لم ينبغ فيه من الشعراء البلغاء بنصف ما نبغ في العصور السابقة ونظرا لما توالى على الدولة الاسلامية من الإحن والفتن ، كسدت سوق الشعر ، وأصبح المنتجع من الشعراء لا يستنكف من شكوى الفقر وطلب الرفد بصراحة ويمتاز هذا العصر باتقان الصناعة اللفظية على الاجمال ، ولحق الشعر منها حظ كبير فأصبح الشاعر يصرف همه الى اللفظ ولو سحر له المعنى أحيانا [١]

هكذا فقد شهد هذا العصر قدرا كبيرا من الفوضى والاضطراب ، وضعف السلطة المركزية ، وتفكك أطراف الدولة الكبرى ، وصراع هذه الدويلات وتنافسها ، وترتب على هذا سوء الأحوال الاجتماعية ، وانتشار الأوبئة الاجتماعية والمادية وعلى الرغم من هذا وذاك ، فقد شهد هذا العصر تقدما زراعيا وصناعيا ، وشيئا من الرخاء الاقتصادي ، حال رجال المكوس دون تمتع الرعية بهذا الرخاء ، وذلك التقدم وكانت الحياة العلمية والأدبية أحسن حظا من سائر حيوات هذا العصر ، ولكن الشيء المتفق عليه ، أن هذه الفترة قد تميزت بالمحاكاة ، وخلت ـ أو كادت تخلو ـ من الابداع والابتكار ، وحال الشعر خير دليل على هذا

(٢)

مع مطلع القرن الرابع الميلادي استولى سابور (ملك الفرس) على البحرين ، ونكل بأهلها ، وعندها أصبحت تابعة لمملكة الفرس ،[٤٢] «وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي» ،[٤٣] وكان بها خلق كثير من عبدالقيس ، وبكر بن وائل ، وتغلب ، وتميم ،[٤٤] وكانت «عبدالقيس» قد جاءت من تهامة الى البحرين ، يقودها عمرو بن الجعيد بن الدؤل بن شن بن أفصى بن عبدالقيس ، فزاحمت قضاعة واياد ، وغلبتهما ، واستوطنت فيها [٤٥] وحين خرجت رسل الخير من «يثرب» تحمل بشرى الدين الجديد الى أطراف شبه الجزيرة ، أنفذ الرسول ﷺ العلاء بن عبدالله الحضرمي ليدعو أهلها الى الاسلام أو الجزية ، فأسلم أهلها العرب وبعض المجوس [٤٦] وكانت رياستها في صدر الاسلام لبني الجارودي [٤٧] وبقيت البحرين تحت سلطة الدولة العباسية حتى عام ٢٤٩ هـ ، الى أن هاجمها الزنج بثورتهم المشهورة ، وأصبحت تحت سلطانهم مدة احدى وعشرين سنة ، وعندما هلك صاحب الزنج عام ٢٧٠ هـ رجعت البحرين الى تبعية الدولة العباسية حتى زمن المستكفي[٤٨] بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٨ هـ) [٤٩] وفي عام ٢٨٦ هـ ظهرت بالبحرين جماعة القرامطة[٥٠] بزعامة أبي سعيد الجنابي ، والتفت حوله جماعة من الاعراب ، فقوى أمره ، واستولى على القطيف ، ثم عبر الى أوال ،[٥١] وفي السنة التالية أغار على نواحي هجر ، وبعد ذلك توالت غاراتهم

داحل الحريرة وحارحها ، وأحدهم الحاح عيرة مرة [٥٢]

وفي عام ٣٠١ هـ يقتل رعيمهم أبو سعيد الحسن س بهرام الحنابي بعد أن استولى على هجر ، والاحساء ، والقطيف ، والطائف ، وسائر بلاد البحرين [٥٣] وكان لموت مقدمهم هدا أثر كبير على أوضاعهم السياسية التي بدأ الضعف يدب فيها ، ولكنهم مع هدا استمروا عائثين في الأرض ناشرين الفزع ، ومحلفين الموت والدمار ، وبلغ بهم التطرف والاستهتار الى حد اقتلاع الحجر الأسود عام ٣١٧ هـ وأحده الى الاحساء مدة اثنتين وعشرين سنة [٥٤]

وفي عام ٣٢٦ فسدت حالهم وقتل بعضهم بعضا ،[٥٥] ومع هدا توالت عاراتهم الى دمشق ، ومنها الى الرملة ، فالديار المصرية ،[٥٦] ومع بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري يبدأ الجموح القرمطي في الانحسار ، ويرى ابن الأثير[٥٧] أن زوال ناموسهم كان بهزيمة صمصام الدولة لهم عام ٣٧٥ هـ ، وقتل مقدمهم وغيره ، وأسر جماعة منهم ، ونهب سوادهم ويرى ابن خلدون[٥٨] مثل هدا في تفرق أمرهم وتلاشي دعوتهم بعد تلك الهزيمة ، وكلا المؤرخين متفق على أن ظهور الأصفر (الأصعر) ابن أبي الحسن التغلبي - من بني المنتفق - على مسرح الأحداث عام ٣٧٦ هـ كان ايدانا بدهاب دولتهم ،[٥٩] فقد حشد لهم جمعا كبيرا ، وتمكن من هزيمتهم ، وقتل مقدمهم ، وأسر العديد منهم ، وتتبعهم الى الاحساء ، فتحصنوا منه ، فعدل الى القطيف ، فاخد ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم ، وسار بها الى البصرة ،[٦٠] ثم تمكن عام ٣٩٨ هـ من الاستيلاء على الاحساء ، والخطبة للخليفة العباسي ، وبهدا فقد أدهب دولتهم ، وأقر الأمر له ولبنيه [٦١] ولكننا نجد أن باحثا[٦٢] معاصرا يبكر قليلا في انهاء دولتهم الى نحو منتصف القرن الرابع الهجري ، اد دخلوا عام ٣٥٨ هـ في طاعة الخليفة العباسي ، وخطبوا له على المنابر ، ولعله بهدا يشير الى تولي أبي علي الحسن بن أحمد أمر القرامطة عام ٣٥٩ هـ وكان يلقب بالأعصم وقيل الأعسم ، وطالت مدته ، وبغى جمعا كثيرا من ولد أبي طاهر الى جزيرة أوال ، وحج بنفسه ، ولم يتعرض للحاج ولا أنكر الخطبة للخليفة العباسي [٦٣]

ولكن ابن المقرب يضعنا أمام حقيقة أخرى حين يشير الى الدور الذي نهضت به اسرته في القضاء على القرامطة فيقول

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما
من بعد ان جل بالبحرين شانهم
وارجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها
ارض العراق وتغشى تارة ادما
وحرقوا عبد قيس في منازلها
وصيروا العز من ساداتها حمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا
شهر الصيام ونصوا منهم صنما
وما بنوا مسجدا لله نعرفه
بل كل ما ادركوه قائما هدما[٦٤]

ثم يواصل حديثه عن دور قومه في حربهم ، والقبائل التي اررت القرامطة ، كالأزد ، وعامر خاصة وهده الاشارة تشرحها الموجز حينا ، والمفصل حينا آخر ، في أكثر من مخطوطة ، وأكثر من مطبوعة للديوان ، واستناد عدد من

الباحثين والمؤرخين المعاصرين اليها في التأريخ لنهاية القرامطة ، وقيام الدولة العيونية ، يجعلنا نقف حائرين في كيفية التوفيق بين ما قاله المتقدمون حول تلك النهاية ، وتحديدها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وبين ما جاء في شرح بعض مخطوطات[٦٥] الديوان وتحديد تلك النهاية بعام ٤٦٩ هـ [٦٦]

ولعله من المعقول ، والأقرب الى فهم الحقيقة أن نتصور نهايتين للقرامطة ، احداهما نهاية سياسية وكانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وتمثلت في انحسار موجاتهم ، وتقوقعهم في البحرين ، والخطبة للخليفة العباسي والأخرى مذهبية وكانت على يد العيونيين في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وقد حرص العيونيون على استئصال بقايا بدعهم أثناء حكمهم ، والى مثل هذا يشير ابن المقرب في ميميته المشهورة

منا الذي أبطل «الماشوش»[٦٧]» فانقطعت
اثاره وانمحى في الناس وانطمسا[٦٨]

يرجع نسب العيونيين الى قبيلة عبدالقيس ، والتي ينتهي نسبها الى ربيعة ، التي تنحدر من العرب العدنانية وقد عاشت قبيلة ربيعة في الجاهلية في منطقة تهامة .[٦٩] على ساحل البحر الأحمر من غربي الجزيرة العربية ، وحين وقعت الحرب بين بطونها ، أدى ذلك الى تفرقها ، وارتحال بعضها الى أماكن أخرى ، فاتجهت عبدالقيس يقودها عمرو بن الجعيد بن الدؤل بن شن بن أفصى بن عبدالقيس صوب الشرق من الجزيرة العربية .[٧٠] واستقرت على أرض البحرين بعد أن أرسلت روادها الذين أجمعوا على اختيار المنطقة ، وكانت تعيش على أرض البحرين يومها قبائل اياد ، والأزد ، وتميم ، وبكر بن وائل [٧١] فاقتتلت عبدالقيس مع تلك القبائل ، وانتصرت عليها ، وأجلت بعضها عن البلاد ، واقتسمت الأرض ، واختلطت بالسكان [٧٢]

وذكر في الأنساب أنه قد ولد لعبدالقيس أفصى ولبؤ ،[٧٣] واللبؤ حي عظيم ، رحل قسم منهم وسكن مدينة توج في بلاد فارس [٧٤] أما أفصى فكان منه ولدان شن ولكيز ، وهما بطنان عظيمان في عبدالقيس ،[٧٥] فكانت لشن سيطرة وسطوة ، ومنهم الأفكل ـ عمرو بن الجعيد ـ سيد عبدالقيس في الجاهلية وقائد جموعها من تهامة الى البحرين ، وشن هي التي أطبقت على قبيلة اياد ، وأجبرتها على الرحيل من البحرين الى العراق[٧٦] واستقرت في أماكنها شمالي البحرين

أما «لكيز» فهي قبيلة كبيرة انحدرت منها بطون وديعة ، وصباح ، ونكرة[٧٧] ومن قبيلة نكرة لمع نجم أكثر من شاعر ، كالمثقب ، والممزق ، والمفضل ، وكانت منازلها قرب مدينة القطيف حاضرة عبدالقيس في القديم [٧٨] وكلا القبيلتين ـ شن ولكيز ـ «قد شغلتا الناس بما كان لهما من تراث شعري ضخم ، ومجد حربي كبير » [٧٩]

ولكن الى أي قبيلة من عبدالقيس يرجع نسب العيونيين ؟ «فالمصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا في تحديد تلك الصلة ، حتى في مخطوطات الديوان المشروحة لا نجد سلسلة الأبوة لمؤسس الدولة العيونية عبدالله بن علي بن

عبدالله بن ابراهيم العيقسي

فمن عيص ابراهيم تنمي فروعها
ومن بحر عبدالله يجري عبابها(٨)

وكان الرجوع الى ديوان ابن المقرب خير سبيل للكشف عن تلك الصلة ، فمن قصيدة لابن المقرب يمدح فيها الأمير الحاكم للاحساء ، محمد بن ماجد بن عبدالله بن علي العيوني يبدو منها جليا أن «آل ابراهيم» ينحدرون من قبيلة ربيعة

ولو سئلت يوما ربيعة من بهم
لها خضعت وارتحت الشرق والعرب
ومن خيرها طرا قديما وسالفا
وأنجبها عقبا اذا أخلف العقب
لأخبر أهل العلم أن ربيعة
رحى «ال ابراهيم» في سرها القطب[٨١]

ثم نجد ابن المقرب ـ في موقف اخر ـ يجلو هذه الصلة أكثر ، فيقول من قصيدة له يشكو فيها حقه المضيع

فإن ضيعت حقي لكيز وانكرت
بنو عامر[٨٢] سعيي لها واجتهاديا
فقد ضيعت قبلي رباب نبيها
وما كنت ادري لابن أفصى[٨٣] مساويا[٨٤]

ويقول في موضع اخر مخاطبا قومه ، منكرا عليهم تخاذلهم

أعيذ كم أن تقبلوا ذا وأنتم
ذؤابة افصى كلها وسنامها[٨٥]

ويقول في موضع اخر مخاطبا قومه

أما حان يا فرعي ربيعة ان ارى
بنات الوغى يعلو الروابي قتامها[٨٦]

وتتردد تلك الصلة جلاء ووضوحا عند ابن المقرب ، في قصيدة ، نظمها حين كان بالعراق ، بعيدا عن وطنه « الاحساء » ، يكابد مرارة الغربة

فياراكبا وجناء تستغرق البرى
ويطوى الفيافي خطوها وانجذابها
اقم صدرها قصد الى الخط[٨٧] واحتقب
رسالة ود انت عندى كتابها
فحين ترى الحصن المعلى مقابلا
ويبدو من الدرب الشمالى بابها
فلج بسلام أمنا تلق بلدة
مقدسة الاكناف رحبا جنابها
بها كل قرم من ربيعة ينتمي
الى دروه تعلو الرواسي هضابها
لكيزيه[٨٨] انسابها عامرية
يلوذ المناوى ضيمها واعتصابها
اذا ثوب الداعي بها يال عامر
اتت مثل اسد الغاب غلب رقابها
مقدمها من صلب عوف[٨٩] بن عامر
الى الموت فتيان شديد غلابها
من الحارثيين[٩٠] الاولى في اكفهم
بحار ،لدى مسجورة لاتعابها
وعن مالك[٩١] بنت الغطارس عامر
فوارس ارواح الاعادى نهابها[٩٢]

وقد تعددت الاشارة[٩٣] في ديوان ابن المقرب الى انتساب قومه العيونيين الى قبيلة عبدالقيس وحسبنا منها قوله في مدح الامير العيونى ابن الفضل بن أحمد بن عبدالله بن على ، حين ملك القطيف

ينمى الى النسم العطارف والذرى
من حارث والسادة الحكام
ولحارث عرفت رئاسة عامر
في جاهليتها وفي الاسلام[٩٤]

فالعيونيون ـ كما يتضح جليا من شعر ابن المقرب ـ ينتمون الى أحد بطون عامر بن الحارث بن انمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس بن أفصى بن

دعمي بن حديلة بن ربيعة بن برارس معد بن عدنان ولكن ديوان الشاعر لم يسعفنا في تحديد ذلك البطن من عامر الذي ينتمي اليه العيونيون والاقرب الى الظن أن هذا البطن هم « آل ابراهيم » الذين أشار اليهم وسموا بالعيونيين نسبة الى موضع بالبحرين يقال له « العيون » ، يقع في أقصى شمال الاحساء على بعد عشرين ميلا شمالي مدينة الهفوف(٩٥) الحالية

سبق أن أشرنا الى أن الربع الاخير من القرن الرابع الهجري ، قد شهد نهاية المد القرمطي ، وتوقف حملاتهم الحربية وتقوقعهم في البحرين وفي النصف الأول من القرن الخامس أخذت أحوالهم في التردي ، وتمكن أبو البهلول العوام بن محمد بن يوسف بن الزجاج - وهو من قبيلة عبدالقيس صاحبة السلطة السابقة في البحرين - من اقناع ابن أرحم ناظر القرامطة في أوال ، ان يتدخل لاقناع القرامطة بالسماح لهم ببناء جامع سني في « أوال » من البحرين تقام فيه صلاة الجمعة ، بهدف تشجيع التجار السنيين على زيارة الجزيرة ، وكان لهم ما أرادوا مقابل مبلغ من المال ، وعند ما تم بناء الجامع عام ٤٥ هـ ، نهض خطيب الجمعة الوليد أخو أبي البهلول، وخطب باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فغضب المتعصبون للقرامطة من تصرفه ، ولكنهم لم يفلحوا في منعه (٩٦) و قوى بعد ذلك نفوذ السنة في أوال وازداد عدد التجار بها ، مما شجع أبا البهلول على طرد الناظر القرمطي من أوال وتسميته نفسه بالامير وقد حاول القرامطة استعادة نفوذهم عليها ، والتخلص من أبي البهلول ، فسيروا اليه حملات متلاحقة ، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك ، بل هلك كثير من قبيلة عامر ربيعة من عقيل - ممن كانت تعتمد عليهم في حربه -(٩٧) في موقعة كسكوس أوال البحرية(٩٨)

وكانت قبائل اليمن في الاحساء قد تركت القرامطة في تدبير أمورهم منذ عام ٤٥٩هـ وتسمى بعضهم بالأمير ،(٩٩)وليس من شك في أن هذه الاحداث كانت بمثابة مؤشرات واضحة ودالة على بداية النهاية للقرامطة ، اذ بدأوا يفقدون نفوذهم على أجزاء من دولتهم وأصبحوا عاجزين عن تأديب الخارجين عليهم ، والطامعين في سلطتهم من الداخل ، مما حدا بيحيى بن عياش الى الظهور على مسرح الصراع في البحرين ، يبغي الانفراد بجزء من التركة القرمطية ، أو بها كلها ، فيتصدى لحرب القرامطة في القطيف ، ويهزمهم ، ويجليهم عنها ، ثم يعلن استقلاله بها ، وتتطلع نفسه بعد ذلك الى بسط سيادته على جزيرة أوال ، ويتم له ما أراد ، منهيا امارة ابي البهلول عليها (١٠٠)

وحين حقق ابن عياش هذه الانتصارات المتلاحقة على القرامطة في القطيف ، وعلى أبي البهلول في جزيرة أوال ، شجع هذا الصراع شخصية جديدة على الظهور في البحرين فنهض عبدالله بن علي العيوني لقتال القرامطة في الاحساء عام ٤٦٢هـ وانتصر عليهم ، فتحصنوا في الاحساء (١٠١) ويبدو أن ظهور العيونيين بزعامة عبدالله بن علي في الاحساء ، كان ثأرا لأبي البهلول من ابن عياش الذي قضى عليه وأخضع أوال لسلطانه وضمها الى القطيف ، واستكمالا لدوره في حرب القرامطة

والقضاء على مابقي لهم من نفوذ ، وذلك لأن العيونيين شركوا أبا البهلول ثورته على القرامطة ، وحربه لهم ، وقاد نشر بن مفلح العيوني جيش أبي البهلول الذي هزم جموع القرامطة وأنصارهم في موقعة كسكوس أوال[21]

ولم يكن في مقدور عبدالله العيوني حقيقة أن ينهض بمفرده بهذا الدور الخطير في قتال القرامطة ، والحد من أطماع ابن عياش ، الذي أخذ يطمع في بسط سيطرته على الاحساء ، فقد كان أعوان العيوني قلة لا يربو عددهم على اربعمائة مقاتل

وجمعنا في مئتين اربع قصرت
عدا ، لكنها أعلى الورى قدما[31]

ولكنه - على ما يبدو - كان يتمتع بقدر من الدهاء والحنكة ، فبعد ان ابدى صدق النية في قتال القرامطة ، وشرع يقاتلهم طامعا في الأحساء ، منذ عام ٤٦٢ هـ [41] وحقق بعض الانتصارات ، طلب المعونة من الخليفة العباسي عام ٤٦٧هـ [51] فكتب الى جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه السلطان السلجوقي ، والخليفة يومئذ ابو جعفر القائم بأمر الله (ت ٤٦٧هـ) والوزير نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ)، وشرح له أحوال القرامطة وضعفهم ، وأنه يريد أخذ الاحساء منهم ، واقامة الدعوة للدولة الجلالية العباسية في الاحساء ، ويميت سنن القرامطة [61] وهنا تجدر الاشارة الى أن أبا البهلول قد سبق له مثل هذا الطلب من الخليفة العباسي[71] ولكن ابن عياش لم يمهله ، وعاجله بالقضاء عليه قبل أن يحصل على موافقة الخلافة بمده بالمعونة اللازمة لقتال القرامطة ، وهذا مما أثار غضب الخلافة على ابن عياش ، لأنه قضى على شخصية موالية لها في أوال من البحرين ، لذا فحين أجاب الخليفة طلب الأمير العيوني عام ٤٦٨هـ [81] ، وبعث اليه سبعة آلاف مقاتل بقيادة اكسك سلار ، متجها من البصرة الى الاحساء ، كان الهدف الاول لهذا الجيش تأديب ابن عياش في القطيف ، الذي هرب معتصما بجزيرة أوال ، ثم انضم اكسك سلار الى الامير العيوني وحاصرا القرامطة في الاحساء ، حتى أشرفوا على الهلاك ولكن جند الخليفة لم يحتملوا مدة الحصار الطويلة ، فعاد اكسك سلار الى الخليفة ، ثم طلب منه العودة لاستئصال القرامطة ، وكان له ما أراد ، وحين عاد الى الاحساء وجد عبدالله العيوني انتهى من حصارهم ، ، وانهاء أمرهم ، وتم له ذلك عام ٤٦٩هـ [91] على الرغم من استنجادهم بقبائل عامر

فاستنجدت عامراً من بأسها فأتت
معدة لا ترى في سيرها يتما[101]

وسارع ابن عياش لا نتزاع الاحساء من العيونيين ، قبل أن يستفحل أمرهم ، ويتهدد وجوده في المنطقة ، فحشد جموعه ، وسارا بها نحوها ، فبرز له العيونيون ، ودارت بينهم معركة شرسة ، في مكان يعرف « بخوباطرة » أسفرت عن هزيمة ابن عياش و تقهقره الى القطيف (قصبة حكمه) ، ومن ثم الى أوال فتبعه العيونيون الى جزيرة أوال ، حيث احتل عبدالله العيوني القطيف ، ووجه ابنه « الفضل » إثر جموع ابن عياش في أوال واستطاع ان يحقق نصرا حاسما ، تخلى إثره ابن

عياش عن أوال «وقتل نفسه»[111] ، بعد ان فقد وزيره ، وقائده ، وساعده الايمن « العكروت »[112] والى هذا يشير ابن المقرب بقوله

ولم يبح ابن عياش بمهجته
يوم اذا ما يراه الناظر ارتسما
اتى معيرا فواق حو ناظرة
فعاين الموت منا دون مارغما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبل السلامة الا السوط والقدما
فانصاع نحو أوال يبتغي عصما
اذ لم يجد في نواحي الخط معتصما
فاقحم البحر منا خلفه ملك
مازال مذ كان للاهوال مقتحما
فحاز ملك اوال بعد ما ترك الـ
عكروت بالسيف للبوغاء ملترما
فصار ملك ابن عياش وملك ابي الـ
بهلول مع ملكنا عقدا لنا نظما

ويسجل ابن المقرب ـ في موضع اخر ـ هذه المسيرة الظافرة لقومه من الاحساء[113] فالقطيف ، فأوال ، فيقول

فعن هجر دادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان[114]
وساروا الى ارض القطيف فلم يكن
ليمنعها منهم حصون وحيطان
ولم تمتنع منهم اوال بمربد
من اليم ترجيه شمال ومرحان[115]

ولم يكد عبدالله العيوني يلتقط انفاسه ، حتى ظهر خطر بني عامر ممن انحازوا الى القرامطة ضده ، وقد قطع ما كان لرؤسائهم من العوائد والجرايات أيام القرامطة ، فجاءوا مطالبين بتلك العوائد ، وأجمعوا على حربه ولكنه استطاع هزيمتهم وتبديدهم ، ولم ينج منهم الا رئيسهم احمد بن مسعر ، وأبو فراس بن الشباش ، في جماعة قليلة هربوا الى العراق[116] والى هذا يشير ابن المقرب في ميميته المشهورة

وطالبتنا بنو الاعمام عادتنا
فلم تجد بكما فينا ولا صمما[117]

وكانت قبيلة الازد تؤازر بني عامر في حربهم لعبدالله العيوني

فاقبلت ورجال الازد تقدمها
كالأسد قد جعلت سمر القنا اجما[118]

ثم يسجل ابن المقرب وصفا لتلك الجولة الحاسمة ، وما أسفرت عنه

ثم انثنينا لعوف بعدما ورمت
انوفها فشفينا ذلك الورما
دسناهم دوسة مرية جمعت
اشلاهم وصاع الجو والرخما
لم ينج غير رئيس القوم تحمله
جيفانة كظليم ريع تحت سما
ثم انثنينا بجرد الخيل نجنبها
بقائدا وافانا السبي والنعما[119]

ولم يكد ينتهي العيونيون من حسم أمر القرامطة ، ومن حالفهم ، حتى جاء ركن الدين والدولة السلجوقي يبغي الثأر «للبغوش» أخي اكسك سلار

والترسكية اذ جاءت تطالبنا
دم البغوش وفينا تقسم القسما[120]

وكان البغوش قد طمع في الاحساء بعد معونة أخيه للعيونيين ، فقتله عبدالله العيوني وقد تمكن العيونيون من صد أولئك الموتورين الطامعين ، والى هذا يشير ابن المقرب بقوله

ونحن حميناه الاعاجم بعدما
أقامت تروم الملك حولا محرما
ضربنا وجوه الترسكية دونه
واقفاءها بالسيف حتى تثلما

وقد عررتهم من سرار ويعرب
لشانكم قوم وقوم ترما
معدنا نبيض دكرتهم حدودها
نما كان من اخبار كسرى ورستما
فولوا وراح الركن منهم كانة
صريع عقار نات منها محشما(١٢١)

وكان عليه أن يواجه بعض الطامحين في بسط سيادتهم على الاحساء كالحسن بن يحيى الذي كانت له السيادة على منطقة القطيف ابان تأسيس دولتهم وقد حاول استقطاب بعض الأمراء العيونيين ، ببذل المال والذهب والبساتين لهم ، وكان دابأس وقوة ، وقد سير اليهم جيشه مرارا للاغارة على الاحساء ، ولكن محاولاته لم تؤت ثمارها المرجوة وفي هذا يقول ابن المقرب

وحول ابن يحيى لم تصاهل جيادنا
وقد كان بحرا دا عباب فلهدما
ادال لنا الاموال درا وعسجدا
وتبرا ونخلا يانعا ومكمما
فعفنا سنيات العطايا حمية
عليكم ودسنا الشر حتى تشرما
وحتى ملكتم ملكه واقتصرتم
مقاصيره اللاتى بناها فاحكما
وقد كان يزجي كل يوم كتيبة
اليكم وجيشا دا زهاء عرمرما
وقاد اليه الناس باس ورغبة
وعر يامى يدبلا ويلملما(١٢٢)

وقتل ابن يحيى « حماد البائل » ، وهو من بنى بائل الذي احتمعت حوله أحلاف عرب الاحساء ، وتصدى لفتنته هذه أمير القطيف أبو مقدم شكر بن علي بن عبدالله بن علي العيوني ، فهزمه ، وقتل قائد جموعه السبيع بن عقيلة أحد رجالات البائل ، وأطلق على المكان « الحائس » لكثرة من قتل من جماعة البائلي

منا الذي عام حرب البائل جلا
يوم السبيع ويوم الحائس العمما(١٢٣)

كما كان عليه أيضا أن يواجه أعداء المنطقة التقليديين من العجم الطامعين ، غير من دكرناهم من (التركسيين) السلاجقة ، كالقاروني احد ملوك العجم ببلاد قارون

وسل بقارون هل فارت كتائبه
لما اتتنا وهل كنا لهم غنما(١٢٤)

ولقد حرص مؤسس الدولة العيونية عبدالله بن علي العيوني ، منذ بدء حربه للقرامطة وصراعه مع منافسيه على أن يقيم جسرا متينا من العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية فقد رحب الخليفة القائم بأمر الله بعرضه ، حين طلب المعونة العسكرية للقضاء على القرامطة ، ولا يخفى على أحد ما عانته الخلافة العباسية من غارات القرامطة على جميع أطرافها ، حتى بغداد لم تسلم من اداهم

وهكذا شهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، نهاية الدولة القرمطية ، واماتة سببها ، وبقايا بدعها ، وتصفية أعوانها في المنطقة ، وشهد قيام دولة فتية حديدة ، امتد نفوذها من البصرة الى عمان وكان العيونيون قد توزعوا نفوذهم بعد وفاة مؤسس دولتهم ، فاستقل ال علي بن عبدالله بحكم الاحساء ونواحيه بينما اقتصر حكم ال الفضل بن عبدالله على القطيف ونواحيه ، وادى هذا الى نشوء نوع من الصراع بين الفرعين القويين

للاسرة العيونية ثم تمكن الفضليون من بسط نفوذهم على سائر البحرين ، ولكن الصراع بقي مستمرا ،[١٢٥] وكان على الفروع العيونية الأخرى أن تحدد ميلها وولاءها ، وعلى أساس من هذا الولاء وذلك الميل كانت تلقى احترامها ، وأضطهادها ، كما حدث لشاعرنا ابن المقرب ، الذي دفع ثمن ميله للفضليين غاليا من الفرع الاخر المناوىء لهم

وقد تعاور الامارة العيونية ، منذ قيام دولتهم ، وحتى سقوطها في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، ما يقارب العشرين أميرا [١٢٦] وبلغت على يد الرعيل الاول منهم حدا من المهابة وسعة النفوذ ، والى هذا يشير ابن المقرب في مدحه للامير الحاكم أبي شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني

بني المعالي لهم فضل وشيدها
ابو سنان[١٢٧] قريع العجم والعرب
وأحمد[١٢٨] ابنه الملك الذي منعت
ما بين سروى[١٢٩] سراياه الى حلب[١٣٠]

وبعد الامير محمد بن أحمد أبي الحسين بن محمد أبي سنان بن الفضل بن عبدالله العيوني (٥٨٤ ـ ٦٠٣ هـ) اهم امراء الاسرة العيونية واخر النخبة المتازة من حكامهم وقد عاصره شاعرنا ، ومدحه ، وسجل مآثره وحربه لخصومه ، ورثاه عند موته

وقد استفحل ملك العيونيين في زمن هذا الامير ، وامتد نفوذهم الى نجد ، وبادية الشام ، وجعل له الخليفة العباسي الناصر لدين الله خفارة الحاج اذا خرج من بغداد ، حتى يصل الى مكة ، ويرجع منها ، وقرر له في كل سنة ألفا وخمسمائة حمل من البر ، وألفا ومائتي ثوب من عمل مصر ،[١٣١] والى هذه العلاقة الطيبة يشير ابن المقرب بقوله

ومال امير المؤمنين بوده
اليه وسماه زعيم الاعارب
حمى البر من حد العراق فحازه
الى الشام واستولى على حد ناعب[١٣٢]

وقد تمكن من تأديب الكثيرين من خصوم دولته ، كبني عامر حين تحالفوا على حربه عام ٦٠٢هـ [١٣٣] ، ويخاطبهم ابن المقرب مهددا محذرا

واقسم إن نبهتم الحرب ساعة
وصممكم نحو الامير معار
لتصطبحن كاسا عليكم مريرة
يطول لكم سكر بها وخمار
بها شربت من قبل عوف بن عامر
غداة دعتها سرقة ونفار
بكف ابيه لا بكف ابيكم
فراحت وفيها ذلة وصغار[١٣٤]

ثم يتوجه اليهم ناصحا بالخضوع لأمره

فما الراى الا ان تدلوا لحكمه
فليس عليكم في المذلة عار
وتمسوا كما كنتم جميعاً رعاءة
عسى ان تنالوا نصفة وتجاروا[١٣٥]

وقد واجه في عهده أطماع البدو ، كبني مالك ، الذين خرجوا على طاعته ، وجاءوا لحربه ، ولقيهم على « ماء الدجانى » ، في الجانب الغربي من الدهناء ، فلقنهم درسا قاسيا ، قتلا ، وسبيا وقتل الكثير منهم جوعا ، وعطشا ، وقد وصف ابن المقرب هذه الوقعة في لاميته وصفا دقيقا

كأنكم لم تعرفوا سطواته
اذا الحرب فارت من لظاها مراجل

سلوا تخبروا من عير جهل لعغله
بنى مالك فالحر بالحق قائل
ألم يحلف الحرد العتاق شواربا
من الحط تتلوها المطايا المراسل
الى أن أساخت بالدجابى بعدما
براها السرى والاين فهى بواحل
فصحن حيا لم تصح حلاله
قديما ولا رامت لقاه الجحافل
فكم قرم قوم عادرته مجد لا
تقط شواه الخامعات العواسل
وكم مال بحام من القوم أصبحت
تقسم عصيا جله والعقائل(١٣٦)

تم يواصل حديثه عن هريمته لهم بقية القصيدة

كما يصف لنا ابن المقرب وقعة أحرى لهذا الامير مع قبائل عبس ، وطيء ، وريد ، وعرب الشام ، وكانوا قد انحدروا صائلين على قبائل قيس ، فاهمها ذلك ، واستعانت بالأمير العيوبى ، فلم يخيب رجاءهم ، وحمل عليهم ، ومزقهم شر ممزق

وكان لهم بالحزم يوم عصبصب
وقد حشدت للحرب تلك القبائل
عبس وال الفضل من ال برمك
وكلهم للعر أنف وكاهل
وجاءت ربيد كالجراد وطيىء
وكل يمنى نفسه ما يحاول(١٣٧)

تم يقول

فضاقت على أحياء قيس رحابها
من الحوف وانسدت عليها المناهل(١٣٨)

تم يتحدث عن دور ال الفضل من العيوبيين فى صد هده الهجمة ، الى أن يقول

واقبل ليث الغاب أعنى محمداً
يفتش عن اتساله ويسائل
فقيل له تحت العجاجة دابهم
طعان العدى فى حيث تخفى المقاتل
فأوردهم صدر الحصان كأنه
باخذ نفوس القوم بالسيف كافل
فطاروا سلالا من اسير وهارب
ومن هالك تبكى عليه الثواكل(١٣٩)

ويشير ابن المقرب فى نونيته ، الى الحملات التى قادها هذا الأمير ، والجهد الذي تحمله فى المحافظة على تماسك دولتهم ، والاعداء الدين هزمهم ، ممن كانوا يطمعون فى دولتهم ـ عير من سبق ذكرهم ـ كأهل القطيف ، وبنى سليمان ، وبنى لبيد ، وأهل عمان ، وعدوان ، فيقول

لما أتت أهل القطيف بجحفل
متوقد كتوقد النيران
فى ال جحاف وال شبانه
مثل الاسود بحافتى خفان
وتسربلوا حلق الحديد واقبلوا
بالخيل والرايات كالعقبان
فرى الامير جموعهم فتمزقت
كالشاء اذ حفلت من السرحان
وتحكمت فيهم حدود سيوفه
ضربا فويق معاقد التيجان(١٤٠)

تم يشير الى حملات أحرى قادها بغية تأديب من حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعته

وهو الذي قاد الجياد عوابسا
تحت العجاج الى بنى سلمان
وبنى لبيد كلها فاجتاحها
بدراك غارات وحسن طعان
واتت اليه بالخراج مطيعة
خوفاً من الغارات اهل عمان
وترعرعت رهبا فجاءت تبتغى
منه الدمام التم من عدوان(١٤١)

وقد سار هذا الامير على سياسة من

سبقه من حكام دولتهم ، في الولاء للخلافة العباسية ، وقد سبقت الاشارة الى تكليف الخليفة له بحماية قوافل الحج ، كما ساعد الخلافة في الضرب على أيدي بعض العصاة والخارجين من عرب البادية ، أمثال قوم دهمش بن سند بن أجود ، فقد شكاه الحاج الى الخليفة الناصر لدين الله ، الذي بعث بدوره رسولا الى الأمير محمد بن أبي الحسين يخبره بذلك ، ويحثه على النهوض اليه وقومه والتنكيل بهم ، فكان له ما أراد ، اذ لقيهم بظاهر الكوفة وهزمهم ، ونكل بهم ، ولجأ زعيمهم الى مشهد الامام علي - كرم الله وجهه - وأقام به مستجيرا ، حتى جاء رجال الخليفة ، وقبضوا عليه ، واستاقوه الى بغداد [١٤٢] والى هذا يشير ابن المقرب في ميميته المشهورة

بما الذي ضربت حمر القباب له
بالمشهدين واعطى الأمن وانتقما
لولا عياذ بني الجراح منه به
لصاحبت دهمشا او الحقت درما[١٤٣]

وترسم ابنه الامير الفضل بن محمد بن أبي الحسين - من بعده - سياسته في الابقاء على صلاتهم الطيبة مع الخلافة العباسية ، متحملا المهام التي نهض بها والده بتكليف منها ، بطير مساعدات عسكرية ، كانت الخلافة في بغداد - على ما يبدو - قد التزمت بها للأمراء العيونيين ، لينهضوا بما تكلفهم به من مهام والى هذا يشير ابن المقرب في مدحه للأمير الفضل بن محمد بن أبي الحسين

رضي الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجزيل الأوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين ابناء البيت وقيذر
وأمده بخزائن لو صححت
ذات العماد لأذنت بتدعثر
فيها المجانيق العظام يحفها
نفط تأجج ناره بتسعر
وقسي اسد لا ترد نصالها
زبر الحديد ولا صفيح المرمر
وقضى اليه ان حكمك نافذ
ماض باكناف العراق وتستر[١٤٤]
فاضمم اليك الجيش وانهض وافتتح
ماشئت من بلد وجد وشمر[١٤٥]

والمعروف ان شاعرنا قد سفر يوما لدولته ، لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله عام ٦١٠هـ ، الخرائب من بغداد الخرائب التي امد بها الناصر الفضل بن محمد بن أبي الحسين بعد مقتل والده [١٤٦]

ولكن الملاحظ ان شعره في الفترة الأخيرة ، التي شهدت ضعف حكامهم ، وصراعهم على السلطة ، وتوترهم ببعض ، قد خلا من مثل هذه الاشارات ، الى تلك العلاقات الطيبة الوطيدة ، بين خلفاء بني العباس وحكام الاحساء ، ولعل هذا يعود لأمرين

اولهما أن الحكام العيونيين قد أصبحوا عاجزين عن أداء خدماتهم للخلافة

وثانيهما أن الخلافة نفسها كانت تعاني مرض الشيخوخة ، وقد أوشكت نهايتها ، فلم تعد قادرة على الاستمرار في مثل هذه العلاقات ، التي تكلفها ماليس في وسعها

وعلى الرغم مما بذله الامير محمد بن أبي الحسين من جهود ، الا أنه قد قتل غيلة [١٤٧] ، بمؤامرة حاكها رجال من

أسرته ومن بني عامر وقد رثاه ابن المقرب رثاء يفيض أسى ولوعة ، وكأنه بحسه المرهف كان يعرف ما يعنيه موت هذا الامير ، وقد اتضح فعلا من ديوانه ، ان موته كان نقطة تحول خطيرة في تاريخ الدولة العيونية فقد بدأ الضعف يدب في كيانها من مناح مختلفة بعد ذلك

يا سوء حظ بني نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
رجعت لمهلكه البلاد وزلزلت
وعدا مناخ الذل في حجراتها
ان نبك مصرعه أسى فلقد بكت
جزعا عليه الجن من سبراتها
كانت به البحرين جنة مارب
أيام بهجتها وطيب حياتها
حتى اذا ما الترب واري شخصه
امتدت يد الايام عن سوآتها(١٤٨)

وقد آثرت الوقوف عند هذه الشخصية العيونية القوية ، والتي بلغت دولتهم في عهده قمة أوجها ، وعرضت في هذه العجالة للجهود المضنية التي تجسمها في المحافظة على هيبة دولته ، لتحد من الأطماع التقليدية في سلطتهم ، وللحيلولة دون ظهور طامعين جدد

فقد أردت من خلال هذا تقديم صورة لوضع هذه الدولة ، والتي - كما يبدو - قد حرمت الاستقرار والأمن ، حتى في عهود الأقوياء من رجالها ، وبالطبع كان لهذا الوضع المهتز ، القائم على التوجس ، والحذر ، والريبة ، أثره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقلية وان كنا لا نستبعد أن تكون هذه الدولة قد نعمت بشيء من الرخاء في عهد أمرائها الأول ، ففي مطولة ابن المقرب «الميمية» عدة اشارات الى العطايا السخية لأولئك الأمراء

ويرى الدكتور شوقي ضيف «أن هذه العطايا لتدل على الرخاء الذي نعمت به تلك الديار في عهد هؤلاء الأمراء (١٤٩) ولكن ينبغي الحيطة من الأخذ بما جاء في شرح هذه الأبيات ، والاتخذها دليلا أكيدا على رخاء تلك الديار آنذاك فقد أسهب الشارح في ايراد قصص الكرم العيوني ، وهي قصص لا تخلو من مبالغة ، مما يرجح الظن أن شارح الديوان الذي مازال مجهولا يمت بصلة قوية الى البيت العيوني وبالاضافة الى ذلك ، فليس معنى سخاء حاكم ما أن رعيته تعيش في بحبوحة من العيش ، بل كثيرا ما تكون مظاهر بذخ الحكام واسرافهم على حساب رخاء رعاياهم

كما نجد في «ميمية» الشاعر اشارات يسيرة الى عطايا هؤلاء الأمراء لبعض الشعراء ، مما حدا بالدكتور شوقي ضيف أن يقول «أن هذه العطايا للشعراء في عهد أولئك الأمراء ، لتدل على أنه كانت هناك نهضة أدبية ، رعوها خير رعاية»(١٥٠)

يروي لنا شارح الديوان أن أمير القطيف أبا سنان محمد بن الفضل ، كان بحرا فياضا مثل أبيه الفضل ، وأن عامله على البحرين جاء اليه بمال

لآلىء وجواهر كثيرة وتصادف أن كان في مجلسه شاعر عراقي يعرف بالثعلبي دبج فيه مدائح كثيرة فقال للعامل ادفع المال اليه ، وكان فيه جوهرة بألف دينار ، فبهت العامل ، ومات على الاثر وفي ذلك يقول ابن المقرب

منا الذي من نداه مات عامله
غما واصبح في الاموات محترما [١٥١]

كما يذكر الشارح أن أبافراس عزيز بن محمد أبي سنان قد امتدحه يوما التغلبي شاعر أبيه بقصيدة فطلب الى صاحب خزائنه أن يعطيه جميع مفاتيحها ، ويتنحى بعيدا ليأخذ منها مايريد ، فقال التغلبي في بعض ذلك على وسعه ، ويكفيني ألف دينار ، فأمر بأربعة آلاف له وفي ذلك يقول ابن المقرب

منا الذي جاد إيثارا بما ملكت
كفاه لا يدخريها ولا رحما [١٥٢]

ويذكر الشارح أن أمير القطيف أبا الحسن بن عبدالله بن علي قد حضره ذات يوم أربعون شاعرا ، فأعطاهم أربعين فرسا مسرجا ملجما، وفي ذلك يقول ابن المقرب

وجاد في بعض يوم وهو مرتفق
بأربعين جوادا تعلك اللجما [١٥٣]

وقد استوقفني طويلا أخبار الشارح تلك ، ولكن حذري منها حال دون أخذي بها وشجعني على ذلك أن الثعلبي شاعر مجهول تماما ، ولا يعني تردد شاعر مجهول على بلاطهم ان هناك نهضة أدبية ، وانهم رعوها خير رعاية كما ان وفادة أربعين شاعرا ذات يوم على أمير ، أمر مبالغ فيه ، ولم نسمع به في عصور الازدهار ، الا فيما نعلم عن بلاط دار الخلافة وسيف الدولة وما أشبهه أو اذا كانوا من أولئك البدو ممن يتحلقون للسمر في بيوت الأمراء ، ويتناشدون الأشعار النبطية أو ما شابه ذلك ، ولا يعد وجودهم دليل نهضة أدبية ، كما أننا لم نسمع عن شاعر من تلك الدولة سوى ابن المقرب وربما كانت هذه الأخبار اشارات الى خطوات على طريق نهضة أدبية ، لم تتح لها ظروف دولتهم المضطربة أن تنمو وتزدهر

ومع مطلع القرن السابع الهجري ، كانت الدولة العيونية ، تشهد آخر عهود الأقوياء من حكامها ، بزعامة الأمير محمد بن أبي الحسين لها ، والذي كان من حسن طالعه ، تألق نجم شاعرنا أيامه ، فسجل لنا هذه الفترة من خلال مدحه له ، واعجابه ببطولاته وما أن طويت صفحة هذا الأمير ، حتى أطلت الفتنة برأسها ، وكان على الأمير الجديد الفضل بن محمد بن أبي الحسين أن يملأ الفراغ الذي خلفه والده ، فسعى جاهدا للصمود في وجه التحديات والأخطار ، وكانت له مواقف مشرفة ، كتأديبه لبني عقيل المتآمرين على الدولة ، فقد دعوا أهل السيب [١٥٤] من عرب العراق ، وتحالفوا معهم

للقصاء على العيونيين ، ولكنهم هرموا شر هريمة أمام الفضل ورجاله

أشبهت والدك الهمام وانما
عرفت بنو الآساد من اصواتها
وحميت دار ابيك منك بهمة
الجود والأقدام من هاماتها
من بعد ماجمعت عقيل كيدها
بالرأي من عقالها وغواتها
ودعت بأهل السيف فابتدات بها
من شط دجلتها وشط فراتها
تتلو المعلي حيث سار وانه
للفارس الولاج في غمراتها
فصبرت صبر الأكرمين ولم تخم
عن زحفها يوماً ولا غاراتها(١٥٥)

ثم يواصل وصفه لما أوقعه فيهم من خسائر ، الى أن يقول من القصيدة ذاتها

تركت نساء السيف تبكي حسرة
لولاتها وتطيل من ويلاتها

ولكن الأمير الفضل لم يستطع أن يواصل صمود وسلفه ، فقد اضطر عام ٦٠٦هـ الى توقيع صلح من ملك جزيرة قيس غياث الدين شاه بن تاج الدين جمشيد وتنص معاهدة الصلح هذه على تنازلات عيونية كبيرة (١٥٦)

وقد شعر ابن المقرب بهذا الضعف الذي بدأ يدب في كيان دولتهم ، فأخذ يحذر وينصح ، ولم يجد اذانا صاغية ، بل لقد قوبل بالاهانة والسجن والنفي

أوليس جهلاً ان تسيم بمرتع
اكلت به المعري لحوم رعاتها
اعربت حين دعوت الا انه
لا يبلغ الأموات صوت دعاتها
فانهض وسل الهم عنك بجسرة
روحاتها تربي على غدواتها
وارغب بنفسك أن تقيم ببلدة
عصفورها يسطو بشهب بزاتها
إن يرض قومي الهون في فطالما
عمداً أهنت النفس في مرضاتها
كم قد غدوت ورحت غير مقصر
في لم فرقتها وجمع شتاتها(١٥٧)

الى أن يقول من القصيدة ذاتها

ولرب لاح قال لي وجفونه
سكري الى الاماق من عبراتها
هون فقومك يا علي حياتها
كمماتها ومماتها كحياتها
لو كان فيهم من همام ماجد
لم تسق مر الضيم من راحاتها

ثم يتولى الأمير علي بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين بن محمد بن الفضل الحكم بعد عمه الفضل ، فيعيد الى البحرين شيئاً من الاستقرار ، وينهض ببعض الاصلاحات

لله درك يا علي فلم يعد
الا في هذا الزمان مهذب
اصبحت بل الاحساء ساكنه وقد
رجفت بمن فيها وكادت تقلب
لو لم تداركها وتراب صدعها
لغدت بها خيل الهلاك توثب
احييتها بعد الممات وبعدما
قامت بواكيها تنوح وتندب
ومنعتها من بعد ماكانت سدى
في كل ناحية تغار وتنهب
وملأتها عدلاً وكانت عممت
جوراً تعوره الديار وتخرب
حتى كأنك والمشبه صادق
عمريها وكأنها لك يثرب(١٥٨)

ولم تمنع مهانتهم وسعة نفوذهم الطامعين في دولتهم ، من الاستمرار في محاولاتهم للسيطرة على أجزاء منها ، وخاصة جزيرة (أوال) ، التي كانت محطا لاطماع حكام جزيرة (قيس)[١٥٩] ، لأهمية موقعها ، وشهرة لآلئها ووفرتها ، فابن المقرب يشير في ميميته المشهورة ، الى الدور الذي نهض به الأمير الحاكم أبو علي الحسن بن عبدالله بن علي العيوني في صد احدى حملاتهم عنها ، وكانت بقيادة ملكهم أبي كرزار بن سعد بن قيصر ، وقد نزلت جموعه بشبه جزيرة «سترة»[١٦٠] في أوال ، فأرسل الأمير أبو علي أخاه أبا مقدم على رأس جيش من القطيف ، فعبر اليه ، وهزمه ، وقتل من جيشه ألفين وثمانمائه ، وأسر «نام سار» أخا الملك أبي كرزار [١٦١]

ويوم سترة مما كان صاحبه
لاقت به شامه[١٦٢] والحاشك الرقما
الفين غادر منهم مع ثمان مئي
صرعي فكم مرضع من بعدها يتما[١٦٣]

ولكن بعد مقتل الأمير محمد بن أبي الحسين - جد الأمير علي بن ماجد - علة أحد الصراع العيوني يشتد ، وتنافسهم على السلطة يزداد ، ويتخذ شكلا دمويا

وإلى هذا يشير ابن المقرب متحسرا

رزئت ملوكا لو بكيت لفقدهم
دما ما كفاني عمر نوح ولقمان
بهم كنت ارمي من رماني واتقي
بهم نائبات الدهر من حيث تلقاني
بأسيافهم ذاقوا الردى وتجرعوا
حسا الموت لا أسياف قيس وعيلان
[١٦٤]

وقد أعطى هذا الصراع المتفاقم الضوء الأخضر لاعدائهم المتآمرين من زعماء عبد القيس بان يتغلغلوا ويتدخلوا لا في شئون الدولة فحسب ، بل في تعيين الحكام وعزلهم فهاهم جماعة من رؤساء عبدالقيس يثورون على الأمير علي بن ماجد ، ويخرجونه من البلاد ، ويبايعون الأمير مقدم بن عزيز بن الحسن بن شكر بن علي[١٦٥] ، وكان مقدم هذا قد نشأ نشأة بدوية ، فلم تكن له دراية بشئون الحكم والسياسة ، فتكالب الطامعون على الدولة ، وفقدت الامارة العيونية هيبتها ، وضعفت وساء تدبيرها ، وصارت العامة تقدم من تريد من السلاطين ، واذا ما ملك أحدهم ، أخرج جميع أهل الفضل والشرف من البلاد ، وخوت خزائن الحكام ، ولم يعد في مقدورهم ان يجندوا الجند ، فاجترأت الرعية ، وصار كل يريد الملك على يديه ، وجعلوا همهم تصفية رجال الأسرة الحاكمة ،[١٦٦] والى هذا يشير ابن المقرب بقوله

ومالي ارى السادات إما مشردا
بأرض الأعادي او مقيما مكبلا [١٦٧]

وقد أطاعهم مقدم لجهله بمكرهم وخداعهم ، فقبض على عدة رجال منهم ، وألقاهم في السجن ، ونهب ما في خزائنهم ، فجاءه ابن المقرب ، وقبح عليه فعلته ، ولكنه ادعى الجهل فيما حدث ، واسنده الى أحد زعماء الاحساء ابي علي ابراهيم بن عبدالله بن عزيز بن إبراهيم ابي جروان [١٦٨] وهنا ينتفض ابن المقرب ، هاجيا رجال

عبدالقيس ، مقبحا استسلامهم لكيد عدوهم ، وصراعهم وتنافسهم

ارحـال عبـدالقيس كم ادعـوكم
في كـل حـي للـعـلا واوان
فتـراكم مـوتى فـاسكت ام تـرى
حلقـت رءوسكـم بـلا اذان
كم ذا تسـامـون الهـوان وانتم
حصـع الرقـاب تطاس الحصيـان
تكلتكـم الاعـداء تكـلا عـاجـلا
يـاعصبة الاحـوان والجـيران
القـوم تـاكلكم ويـاكل بعضكم
بعضـا كاكم من الحيتـان (١٦٩)

تم يتسير الى ازدياد نفود البدو ، ومحاولة الحكام كسبهم بالأموال والبساتين

لـم يـعصب البـدوى الا قلتـم
سـدوه كي يـرضى بمـال فـلان
والسـد احـرب مـاربـا فتيقـوا
بعد انفتاح السد بالطوفان (١٧٠)

وتتكرر هده الاشارة في قصيدة احرى ، في محاولاتهم لكسب عدوهم ، ولكنها هده المرة تقطر مرارة والما ، لتيقن شاعرنا بالنتائج العكسية والسلبية لهده السياسة ، التى تنم عن ضعفهم ، وسوء أحوالهم ، وجهل حكامهم

ومن اعجب الاشياء والدهر كله
عجـائب يـاتي فـدهـا وتـوامهـا
اذا نحن ردنـا في عطايـا قبيلـة
لكف اداهـا زاد منـا انتقـامهـا
هي النـار ان شبهتها وعطاؤنـا
لها حطب مازاد زاد اضطرامها(١٧١)

تم تنتهى بهم هده السياسة الضعيفة ، الى حال لا يحسدون عليها ، فقد لا حظنا كيف فقدوا سلطتهم ونفودهم ، وصاروا حكاما بلا سلطة ، والان أصبحوا حكاما بلا سلطة وبلا ارض

لم يبق مـال تتقـوى بـه العـدى
لـربيعـة فيـهـا ولا قحطـان
احدوا من الاحسا الكثيب(١٧٢) الى محا
ديث (١٧٣)العيون الى نقا حلوان (١٧٤)
والحط (١٧٥)من صفواء (١٧٦)حاروها فما
ابقوا بها شبرا الى الطهران (١٧٧)
والبحر فاستولوا على ما فيه من
صيد الى در الى مرجان
ومنازل العظماء منكم أصبحت
دورا لهم تكرى بلا أثمان
وامض سيء للقلوب قطائع
بالمروران (١٧٨)الهم وكرر (١٧٩)كان (١٨٠)

تم يتوجه باللوم والنصح لأبي علي ابراهيم بن أبي حروان ، ممن كانوا يحططون لخراب الدولة

ابلـغ هديت انـا علـى ذا العلى
عنـي السـلام وقـل لـه ببيـان
اتـراك تردى ان يحدث جاهـل
او عـالـم مـن سـارح أو دان
فيقـول كـان خراب دار ربيعـة
بعد العمارينو ابي حروان (١٨١)

وتتوالى صرخات ابن المقرب ، ويحاول أن يبصر السادة من قومه ، بمواطن الضعف في سياستهم ، وماقد يترتب على استمرارهم فيها

ومن يعط خصما درعه وحسامه
وسـابقـه فليلبس الـدل متمـلا
ومن ملك الاعداء تدبير امره
فذاك الذى يدعى العديم المتكلا
ومن رام طول العمر بالدل والعنا
راى الموت مراى عاجلا ومؤجلا
ومن لم تكن انصاره من رجاله
احيف واضحى بالجنايات مبسلا
ومن لان يوما للعدى هان واصطلى
على الكره من نيرانها شر مصطلى (١٨٢)

وكان منتهى أمل شاعرنا أن يسمعه

قومه ، ويعوا ما يقول

فـاه لقـومي لـو اطعت لـديهم
دورا ان فيهم حارم الراى فيصلا (١٨٣)

تم تمصي الايام بهده الدولة ، من سيء الى اسوا ، ويحاول بعص حكامها ، كالأمير ابى سنان مسعود س محمد س عبدالله ، رأب صدعها ، ولم سملها ، وأعادة شيء من الهيبة لها ، فكان لها كالجرعة المنشطة

ابوسـان حليف المكـرمات ومن
اـاف سؤدده السامى عـلى زحل
محي البلاد وقد اشفت على حرف
هار ومانعها بالبيص والاسل (١٨٤)

وقد جاءت ولاية هدا الامير بعد ان بلغت الاحوال حدا من السوء ، دعا اصحاب الارض الى الهجرة الى العراق ، وفارس هربا من الظلم الدى نالهم

وانعث الى المدن بالبشرى محبرة
بملـك اروع لاعـي ولا كـل
كيمـا تعـود الى الأوطـان ابـة
قوم راوا قبل فيهـا خيبة الامـل
حلاهم الضيم عنها فاعتدوا هربا
من عـير ما نعصة منهم ولاملـل
في أرض فارس لا يحصى عديدهم
وفي العراقين ملء السهل والجبل
مـدـدـيـن عـن الاوطـان كلهـم
من شدة الشوق والتدكار في شعل
ومن اقـام بهـا قـامت قيـامتـه
وعاين النار من خلف ومن قبل (١٨٥)

وينادى ابن المقرب الطيور المهاجرة في فارس والعراق ، ويدعوهم الى العودة لوطنهم

يا هاجر الدار من خوف هلم فقد
نادى بك الامن ان اقدم على عجل
ولا تخف فالدى قـد كنت تعهده
ازاله سيد الاملاك مند ولى (١٨٦)

وتحلت همة هدا الأمير ، في الحد من صولجان البادية برعامة بنى عقيل ، حين جاءوا مغيرين على الاحساء

سل عنه يـوم اغارت في كتـائبها
حيل القطيف من القرحا(١٨٧) **الى الجبل**
يحتهـا من عقيـل كـل دى اشر
مولى فوارس لا ميل ولا عزل (١٨٨)

فقد استطاع ان يعيد الى البحرين شيئا من استقرارها ومنعتها ، بعد طول اضطراب ودل

به انارت قرى البحرين وابتهجت
بقـاعـهـا وتسمـت قـرة المقـل
واصبحت بعد ثوب الدل قد لبست
ثوبا من العردا وشى ودا حمل (١٨٩)

ومثل هده الجرعة المنشطة ، سرعان ما انتهى مفعولها ، ويبدو ان الدولة قد بلغت حدا من الضعف ، أصبح فيه تحديد الداء ، ووصف الدواء ، غير دى جـدوى ، فلا تكـاد تخلو قصيـدة لابن المقرب في هده الفترة ، من النصح والتحدير ، وانتقاد سياسة حكامهم ، الى حد السخرية منهم

وكم ابدب الموتى واسترشح الصفا
واستنهص الزمنى واعتان بالرمـد
(١٩٠)

ويقول من قصيدة أخرى

تكلتـهـم الاعـداء إن حياتـهـم
غم الصـديق وفـرحـة الأعـداء
جلـد الجمال عـلى الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء (١٩١)

تم يتولى الحكم الأمير ابو القاسم مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله ، ولكنه كان عظيم الركون الى بطانة الفساد ، ممن كانوا يعملون في هلاك دولته (١٩٢) ، وفي عهده قام أهل الاحساء

بقتل بدوى قاطع طريق من بنى عقيل ، فجاء اهله يطالبون الأمير بديته ، فأنكرت أهل الاحساء عليه ذلك ، وينتهز ابن المقرب الفرصة ، مرغبا قومه في الصبر والحرب ، مقبحا عليهم خضوعهم [192] ، فيقول

الى كم مداراة العدى واحترامها
وكم يعتريبا ضيمها واهتضامها
اما حان يافرعي ربيعة أن ارى
بنات الوغى يعلو الروابي قتامها
ردوا الحرب ورد الظامئات حياضها
حوامس يغتال النصال ازدحامها [194]

ثم يقول من القصيدة ذاتها

صلوا بالخطا قصر السيوف فانها
تطول ولايغني غناء كهامها
ضربا وطعنا بالصوارم والقنا
فلا عذر حتى يخضب السيف هامها
ولا تهنوا واستشعروا الصبر جنة
وعزما فما للحرب الا اعتزامها

وتستعل بطانة السوء من حول ابى القاسم ركونه اليهم ، فيتواطئون مع رؤساء قبيلة بنى عقيل بن عامر (وهم بنو عصفور) ، بأن يسنوا الحرب على الامير ، ويحصروا الاحساء ، ويطلبوا الصلح مقابل مبلغ من الذهب يعجز الامير عنه ، وهنا يشيرون على الامير برهن ما بقى من ممتلكات اسرته . وكان لهم ما أرادوا ، وتمت المؤامرة في غيبة من الشاعر ابن المقرب في القطيف ، فلم يتركوا لاسرته ملكا يعرف باسم او يحد بحد ، فجاء معاتبا ابا القاسم على ذلك فأنكره ، وحلف أنه لم يفعله [195] ، ثم أنشا قصيدته التي مطلعها

نعض الذى بالنا يادهر يكفينا
فامنن بنقيا واودعها يدا فينا [196]

وقد جاءت هذه القصيدة نفثة مصدور ، تدفقت زفرات حرى ، وحسرات مؤلمة على عزهم الذاهب ، وهو يراه يتحول الى من لا يستحقونه

يا ضيعة العمر يا خسران صفقتنا
يا شؤم حاضرنا الأشقى وماضينا
كنا نخاف انتقال الملك في مضر
فمرحبا بك يا ملك اليمانينا
فان تولت ملوك الروم ما بلغت
معشار ما صنعت اخواننا فينا
كنا نصح من الحرمان عندهم
ونطلب الجاه فيهم والبساتينا
فاليوم نفرح ان يبقوا لموسرنا
من ارث جديه سهما من ثمانينا [197]

ثم يسجل اعترافه بنجاح سياسة اعدائهم ، وبيلهم لمآربهم ، بما التوى من السبل او كان واضحا صريحا

بال المعاند منا ما يحاوله
سرا وجهرا وتعريضا وتعيينا [198]

وحين نقرا قصائده لهذه الفترة ، التي صورت انحطاط شانهم ، وتدهور احوالهم ، نحس بقدر كبير من المرارة فيها ، اذ لم يبق لهم سوى السيادة الاسمية على البحرين ، والسلطة الفعلية قد اصبحت لاعدائهم البدو المتمتعين بكامل خيراتها وحسبنا عينيته التي مطلعها

دع الدار بالبحرين تعفو ربوعها
وسقها ولو لم يبق الا نسوعها [199]

والتي يقول فيها

وليس لنا في البدر الا محاره
ولا في عذوق النخل الا قموعها [200]
فبعدا لدار خيرها لعدوها
وقوم بأسوا كل حظ قنوعها

وتبلغ المرارة قمتها حين يقول

عفاء على البحرين لو قيل ابيعت
رباسير واديها وحادت رروعها
فهل داك الا للعدو وعصبة
سيشقى بها متبوعها وتبوعها[١ ٢]

وكان لهذا الاضطراب السياسي ، ومقدار السلطة الحاكمة لهيبتها أثره في الحياة الاجتماعية . فانحطت الأخلاق ، وتشاع الفساد ، وتدهورت القيم الأخلاقية ، وأصبح المال غاية همهم، باهيك عن التمس

وسوداء مومسة احل لديهم
من عالم حبر وادى مقعدا
ومصلح لا يل بالفى مصلح
لا يعدلون حبيث اصل مفسدا
لو قيل كن هودا لأترف رتبة
منهم ودونك درهما لتهودا[٢ ٢]

وهدا موشر واضح وقوى ، على النهاية الحتمية الوشيكة لدولتهم ، بعد ان اصبحت بلادهم

اماكنا لعبت اهل الفساد بها
فدمروها بلا فكر ولا نظر[٣ ٢]

وقد ترتب على سوء تصرف الأمير ابى القاسم مسعود بن محمد ، ان سخطت عليه الاسرة العيونية ، وبفصت يدها من مناصرته ، لتجريدهم ممتلكاتهم ، فتلاشت سلطته ، وتقلص نفوذ العيونيين من ذلك الحين ، وما هى الا سنوات قليلة ، سيطر بعدها بنو عصفور رؤساء بنى عقيل بن عامر على شئون الحكم ، وذلك في العقد الرابع من القرن السابع من الهجرة[٠ ٢]

كما يذكر ابن خلدون في تاريخه[٥ ٢] « ان ابن سعد قال سألت اهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية عام ٦٥١هـ عن البحرين ، فقالوا الملك فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن عقيل ، وبنو تغلب من حملة رعاياهم ، وبنو عصفور منهم أصحاب الاحساء »

وفي عام ٦٣٣هـ يطغى المد الزحفي الفارسي على المنطقة ، بقيادة أبي بكر بن سعيد الزنجي ، الذي وسع مملكة فارس ، فاستولى على جزيرة قيس عام ٦٢٦هـ ، وكان بها بنو قيصر ، فانتزع الجزيرة منهم ، ثم استولى على جزيرة أوال ، ثم عبر منها الى القطيف عام ٦٤١هـ فاحتلها ، وزحف بجنده نحو الاحساء ، فانتزعها من أهلها .[٦ ٢]

وأرى ان هذه النهاية للدولة العيونية ، التي اتفق عليها - تقريبا - من أرخوا لهذه الدولة ، أو اهتموا بتاريخ هذه المنطقة ، تعد نهاية منطقية ، وحتمية لتطور الأحداث والتي عرضها ابن المقرب عرضا صادقا ووافيا ، يسهل منه توقع نهاية هذه الدولة وتحديدها فاذا ماوضعنا في أذهاننا أن وفاة شاعرنا كانت عام ٦٣هـ فالأدنى للمنطق ان تنتقل السلطة الى سواهم ، بعد وفاته بقليل ، اى في وقت لا يزيد عن العقد الرابع من القرن السابع الهجرى

وهكذا دام حكم العيونيين مائة وسبعين عاما تقريبا ، وليس صحيحا أنه استمر ثلاثة قرون كما يذكر العبيدى[٧ ٢] وكان الفضل بن محمد بن مسعود اخر حكامها[٨ ٢]

وبعد هذا العرض السريع لقيام الدولة العيونية ، والذي وقفنا فيه عند مؤسسها عبدالله بن علي ، والدور الكبير الذي نهض به في اقرار سلطتهم ، عند اخر حكامها الاقوياء محمد بن أبي الحسين وخرجنا من هذه الوقفة بأن أمراء هذه الدولة كانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم ، وكانت هذه الدولة عربية

بحته ، وعصبتها يمثلون كثرة ساحقه في البحرين ، وأن الطابع البدوى كان مسيطرا الى حد كبير على أجهزة الدولة ، وعلى نظام الحكم فيها ، وأنها قد افتقرت طوال مدة حكمها للاستقرار والامن ، وأن أعداءها ـ وهم كثر ـ لم يكفوا عن ازعاجها ولم تحل هيبة حكامها الأقوياء دون أطماعهم فيها ، وقد لاحظنا مع مطلع القرن السابع ان أحوالها قد أخذت تسوء ، وتؤذن بزوال فمبيت في اخر أيامها بعدد من الحكام الضعاف ممن كانت تنقصهم الدراية بسياسة البدو ، وفي العقد الرابع من هذا القرن ، كانت السلطة قد خرجت تماما من أيديهم الى بني عصفور ، زعماء بني عقيل بن عامر

ولعله من المناسب أن نوجز العوامل التي أضعفت دولتهم

ـ وفي مقدمة هذه العوامل « الصراع القبلي » بين العيونيين وبدو الاحساء ، كبني عامر ، وبني عقيل ، وبني مالك وغيرهم ، وقد عانت الدولة كثيرا من هذا الصراع ، الذي استنزف الكثير من طاقاتها ، منذ تاسيسها وحتى سقوطها

ـ يلي هذا عامل لا يقل عن سابقة أهمية ، وهو انقسام الاسرة العيونية ، وتنافس أمرائها على السلطه ، وتوثبهم ببعض ، وقد اتخذ تنافسهم شكلا دمويا في أخريات أيام دولتهم ، وكان أعداؤهم من البدو حريصين على هذا التنافس ، وذلك الانقسام ، وتدبير الاغتيالات لبعض امرائهم وكان النزاع على الحكم بين فرعي فضل وعلي ، أقوى فروع الاسرة العيونية

ـ ثم وفاة الأمير محمد بن أبي الحسين ، ومجيء حكام ضعاف تنقصهم الخبرة بسياسة البدو ، مثل عزيز بن الحسن ، وماجد بن محمد ، وأبو القاسم مسعود بن محمد

ـ صراعهم مع حكام جزيرة « قيس »

ـ والوقوف في وجه العجم الطامعين في في الاحساء « كالقاروني » والتركسيين الذين جاءوا بقيادة ركن الدولة للثأر « « للنعوش » أخي اكسك سلار

ـ صراعهم مع بعض الشخصيات القوية في الاحساء ، ممن كانوا يتمتعون بالسيادة على اجزاء منها أبان تاسيس دولتهم كالحسن بن يحيى ، وحماد النائلي

ـ ويجب ان لا نغفل سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، فقد عانت البحرين ايام حكمهم من تلاحق الغارات عليها ، وتجريد الحملات لاخماد الفتن فيها ، وتفشي الظلم الذي راح ضحيته عدد من ابناء الاسرة العيونية نفسها ، ممن لم يعجبهم تخاذل حكامهم ، وأدى بالتالي ـ الى خروجهم عن وطنهم ، قاصدين العراق وفارس ، وكان شاعرنا ابن المقرب الضحية الاولى والكبرى الذي ذاق ألوانا من ضيم ذوي قرباه ، ولم تكن الرعية احسن حالا ، فقد كثرت اشارات ابن المقرب الى سوء احوالها ، وفساد اخلاقها ، وضعف النفوس فيها

ولم يكن من الممكن ازدهار حياة عقلية في دولة كان هذا حالها ، وذاك طابعها فلم نجد في شعر ابن المقرب اشارات لاهتمام حكامهم بالعلم والعلماء ، ولم نسمع عن شاعر قد سعى مادحا الى بلاطهم ، سوى ذلك الشاعر المغمور المسمى « بالتغلبي » كما كان يفعل حكام الدويلات المستقلة عن الخلافة ، حين كانوا يحاولون الظهور بمظهر يليق باستقلالهم فاستكثروا في

بلاطهم من العلماء والشعراء
ولعل هذا لم يكن ذنب العيونيين ، بقدر ما هو ذنب العصر الذي أقاموا فيه دولتهم ، عصر انحطاط الدولة الاسلامية وتمزق أوصالها ، واحاطتها شتى الأخطار كما أن تاريخ هذه الدولة لا زال بحاجة الى المزيد من جهد الباحثين والمتخصصين لالقاء المزيد من الضوء عليه

عصره : المكان

تحتل المنطقة التى عرفت قديما باسم « البحرين » ثم باسم « هجر » ثم باسم «الاحساء » ثم أطلق عليها فى عهدنا الحاضر اسم « المنطقة الشرقية » الممتدة على الساحل العربي للخليج العربي ، والتى تمثل الحد الشرقى الاقصى للوطن العربي ، موقعا فريدا بالنسبة للعالم ، فسواحلها العربية تضم المنافذ الطبيعية للاقاليم الداخلية الفسيحة لشبه الجزيرة العربية ، كما تجاور ساحلها العربي أغنى اماكن العالم بزيت النفط

وتبرز اهمية الموقع الاستراتيجي للخليج العربي بين قارات العالم اسيا وأوربا وأفريقيا بانه ذراع المحيط الهندى البحرى ، والذي يقرب المسافة عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط والبحر المتوسط ، فموقعه المتوسط هذا جعل منه ممراهاما يصل الهند من ناحية ، وشط العرب من الناحية الأخرى (٢٩)

أما عن أهمية الموقع بالنسبة للجزيرة العربية ، وما جاورها من الامصار ، فحسبنا أن نذكر أن الجزيرة العربية قد عرفت منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل التجارية بين طرفيها الشمالى والجنوبى ويبدأ الطريقان من « ظفار » التى كانت المركز الاساسى لتجارة البخور ، التى يعتمد عليها الشطر الاكبر من التجارة العربية ، ويجرى الطريقان الى الشرق والغرب منها ، ليتجنبا احتراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة بالربع الخالى أما الطريق الشرقى فيمضى متاخما لقوس عمان الساحلى متجها الى القطيف على الخليج العربي ، التى كانت مرفأ تحمل اليه بضائع الهند ومن القطيف عن طريق تدمر الى فلسطين وصور بسوريا ، وليس من شك في أن هذا الطريق كان الطريق الاساسى الذي تنقل فيه بضائع الهند الى صنعاء باليمن ، ومنها الى ثغور البحر الاحمر أو الى الحجاز » (٢١)

وقد شهدت هذه المنطقة ـ لأهمية موقعها ـ صراعا طويل الأمد بغرض الاستحواذ على طرقها التجارية وخيراتها ، فكانت مسرحا للاطماع والغزوات الخارجية عبر قرون عديدة ، ومن أمم مختلفة « والمنطقة الشرقية » من أحفل الأقطار العربية بالحوادث التاريخية ، التى تدعو المؤرخين الى العناية والاهتمام ، فقد كانت مهدا لشعوب عريقة فى الحضارة ، كما دلت على ذلك الآثار التى كشف عنها حديثا فى سواحل هذه البلاد ، وفى جزيرة « أوال » المعروفة الآن باسم « البحرين » ثم هذا القطر من حيث الخصوبة والموقع المتوسط يعد من خيرة أقطار الجزيرة العربية وأصلحها للاستيطان ، فتنازعته قبائل عربية مختلفة ، من « تنوخ » و « إياد » ، و « ربيعة » وغيرها من القبائل

فصار مسرحا لكثير من حوادث البطولة في العصر الجاهلي[٢١١]

ومن هذا القطر أيضا انطلقت ثورتان عنيفتان عربيتان في تاريخ الاسلام، ثورة «صاحب الزنج» التي دعت الى تحرير العبيد، وثورة «القرامطة» التي دعت الى نوع من العدالة الاجتماعية المتطرفة، فأزعجت بني العباس، وعاثت فسادا في سائر الاقطار العربية، حتى أطلق بعض المؤرخين على دولتهم «الامبراطورية القرمطية».

ولكن حين نقلب كتب التاريخ العربي – على ضخامتها وكثرتها – نجد أنها قد أغفلت هذه المنطقة الهامة من العالم العربي، فيما عدا تأريخها لهاتين الثورتين اللتين استطاعتا لفت انظار العالم الاسلامي ابان الى هذه المنطقة لفترة محدودة، وبقي تاريخ البحرين القديم مفصم الحلقات غير متصل، حيث أن الفصول التي عثر عليها منه تكاد تكون مفصومة، للوقت الحاضر[٢١٢]

ولعل سبب اهمال تاريخ هذا القطر – على أهميته – ان تاريخنا هو تاريخ حكومات وأفراد، لا تاريخ أمم وشعوب وأقاليم[٢١٣] هذا من جانب، ومن جانب اخر عدم قيام دويلة مستقلة على أرضه، في ذلك الزمان تتمتع بقدر من المدنية، ونظم الحكم المستقرة كالتي شهدناها في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامي في العصر العباسي الثاني، فقد كان لهذه الدويلات من المكانة، ما جعلها تنافس الخلافة في بغداد أما عن الدولة العيونية – وسيأتي الحديث عنها – التي حكمت زهاء قرنين في البحرين في أواخر العصر العباسي الثاني، فقد كانت الى طابع البداوة أقرب، كما أنها قد حرمت نعمة الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي

ثم يصمت التاريخ عن هذه المنطقة الشاسعة، وتتقوقع على نفسها، ومثلها سائر شبه الجزيرة العربية، اللهم الا اليمن، ومكة، والمدينة التي بقيت نابضة بالحياة وعادت القبائل العربية تتنازع السيطرة على ارجائها، معيدة بذلك سيرتها الأولى

ومع بداية هذا القرن أخذت الحياة تدب على أرض الاحساء قوية نشطة، وزادت أهميتها بكتشف موارد البترول في ارضها، فقد قلب هذا السائل السحري مجرى تاريخ طبيعة البلاد، ورفع مستواها[٢١٤] وليس بين أقاليم المملكة العربية السعودية اقليم يصارع مقاطعة الاحساء أو يدانيها في شهرتها العالمية، فقد اكتشف الخبراء ان تحت سطح أرضها مستودعات زاخرة بالنفط، ولا يقل احتياطيها من البترول عن ثلثي الاحتياطي العربي»[٢١٥]

تقع البحرين في شرقي الجزيرة العربية ويقول صاحب معجم البلدان [٢١٦] «والبحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند (الخليج العربي) بين البصرة وعمان» وقد اختلف جغرافيو [٢١٧] العرب القدامي في تحديد رقعتها، وكانت تحديداتهم لها مرتبطة بالحدود السياسية، وهذه الحدود لم تكن تعرف الثبات انذاك، فهي تتسع تارة، وتضيق أخرى، تبعا لقوة السلطة الحاكمة أو ضعفها، فحين يعد بعضهم «اليمامة» من أعمالها، يرى ياقوت أنها عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين [٢١٨]

وكما اختلف جغرافيو العرب في تحديد رقعتها، اختلفوا في تحديد قصبتها، فقيل هي قصبة هجر، وقيل هجر قصبة البحرين [٢١٩] «والهجرة بلغة حمير والعرب العاربة القرية، فمنها هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان وهجر مدينة، وهي قاعدة البحرين، وربما قيل الهجر بالألف واللام، وقيل ناحية البحرين كلها هجر» [٢٢] ويقول الهمداني «ومدينتها هجر» [٢٢١] اما القلقشندي فيقول «وقاعدتها عمان» [٢٢٢]

والبحرين هي الخط، والقطيف، والآرة، وهجر، وبيونه، والزارة، وجواثا، والسابور، ودارين، والغابة، وقصبة هجر الصفا والمشقر [٢٢٣]، والفروق والشبوں [٢٢٠]، وعمـاية، وتعالة، وأجرب، وصاحة [٢٢٥]، وهذا دليل قاطع على اتساع أرض البحرين قديما

وهذه المنطقة التي كان يطلق عليها البحرين مرة، وهجر مرة أخرى تضم الآن، قطـر، والبحرين، والكـويت والجزر المقابلة لها، والاحساء [٢٢٦]

وهناك تعليلات كثيرة مختلفة لاطلاق اسم «البحرين» على هذه المنطقة، لدى القدماء والمعاصرين من جغرافي العرب، قيل في المشترك [٢٢٧] نقلا عن الازهري انما سميت هجر بالبحرين لبحيرة عند الاحساء، قدرها ثلاثة اميال، وماؤها مر زعاق، وهي البحـيرة المعروفـة والمشهورة الآن بالأصفر في آخر قرى الاحساء الشرقية» [٢٢٨]

ويرى بعضهم أنها سميت البحرين من أجل نهرها محلم ولنهر عين الجريب [٢٢٩] أو ربما اطلق عليها هذا الاسم لأنها على شاطىء البحرين، بحر عمان، وبحر فارس [٢٣]

وبالنسبة لهذه التعليلات، فالرأي الأول ـ عندي ـ هو الأرجح، شأنها في ذلك شأن بعض البلاد التي عرفت واشتهرت باسم مدينة فيها أو موضع، فمصر مثلا اسم يطلق على الاقليم العربي المعروف، وقد يقصد به مدينة القاهرة، وهذا ابن بطوطة [٢٣١] يقول في تحفته والبحرين مدينة كبيرة حسنـة ذات بساتين ولم يسبق ـ في مدى علمي ـ أن ذكر أحد قبله مدينة باسم البحرين، وانما قد زار عاصمتها انذاك ومثله ـ في اطلاق اسم البحرين على قصبتها ـ ابن خلدون [٢٣٢] فقد عرفت هذه المنطقة بالبحرين نسبة لتلك البحيرة العربية والمشهورة حتى الآن، ثم عرفت باسم هجر حين صارت يوما عاصمة، الى أن جاء أبو طاهر القرمطي فابتنى الاحساء واتخذها عاصمة [٢٣٣] ويبدو ان اسم المدينة «الاحساء» [٢٣٤] قد غلب على الاقليم كله، وخاصة حينما تنوسيت كلمة هجر، وأطلقت كلمة «البحرين» على مجموعة الجزر المعروفة الآن في الخليج العربي [٢٣٥]، بالقرب من الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب، ونحن لا نستطيع أن نعين تاريخا دقيقا لانتقال اسم البحرين من الأرض نفسها الى الأرخبيل المجاور لها [٢٣٦]، فحتى نهاية العصر العباسي الثاني ـ كما نفهم من شعر ابن المقرب ـ كان اسم البحرين ما يزال يطلق على الساحل الشرقي للجزيرة العربية بما فيها ذلك الأرخبيل المجاور لها

«والاحساء بالفتح والمد جمع حسي بكسر الحاء وسكون السين وهو الماء

الذي تشبه الأرض من الرمل ، فادا صار الى صلابة أمسكته ، فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه وفي البادية أحساء كثيرة على هده الصفة ، منها احساء بني سعد بحداء هجر ، واحساء القطيف وغير دلك» (٢٣٧)

والاحساء في مجموعها اراض منبسطة قليلة الارتفاع اد يتراوح ارتفاعها بين ثلاثين مترا وثلاثمائة متر ، تميل ميلا خفيفا نحو الشرق ، أي نحو الخليج العربي (٢٣٨) ويمكن ان يستدل على دلك من اتجاه الينابيع (٢٣٩)
والقسم الأكبر من الاحساء سهل صحراوي ، ويوجد كثير من التلال المتقطعة ، تستخدم كحدود للمناطق ، ويوجد خط من التلال على طول وادي المياه وجبل الطف ممتدة الى الجنوب ، كما يمتد مرتفع الصمان الصحرى ، موازيا لساحل الخليج العربي متوسطا بين الاحساء والدهناء حيث يفصل هذا القسم عن نجد ، والمنطقة الساحلية سبخة على العموم ، ويوجد بها عدد عظيم من الآبار وماؤها قريب من سطح البحر (٢٤٠) وتربتها خفيفة رملية ، ومع أنه توجد بقاع قاحلة صغيرة هنا وهنالك ، الا أن ارضها خصبة بوجه عام ، (٢٤١) وتكاد تغص بالعيون الدافئة منها والحارة (٢٤٢) ، وهي ذات بساتين واشجار وأنهار ، وبها حدائق النخل والرمان والاترج ، ويزرع بها القطن (٢٤٣) ، كما تعد أكبر مخزن لتكوينات البترول التي تجمعت في المناطق القبابية ، التي تمتد على طول الخليج العربي كما تعد أكبر مخزن للمياه الباطنية (٢٤٤)

وعلى الرغم من وفرة المياه فيها ، وخصوبة الارض ، وكثرة البساتين والأشجار ، وانتشار العشب في مراعيها في الربيع ، فانها لا تتمتع بجو صحي فجوها يشبه جو المناطق المنخفضة ، والقسم الشرقي من الاحساء يشبه جو تهامه (٢٤٥)

وهواء القطيف كثير الرطوبة وغير صحي (٢٤٦) والاحساء شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها (٢٤٧) والخليج العربي ككل لموقعه بين خطي عرض عشرين درجة وثلاثين درجة شمال خط الاستواء في العروض المدارية ، جعل من مناخه أكثر انواع المناخ ارهاقا لطول مدة ظهور الشمس في الأفق حيث يبلغ ظهورها (ثلاث عشرة ساعة ونصف) (صيفا) ، وعشر ساعات ونصف) (شتاء) ، مما يؤدي الى عظم تاثير ضوء الشمس في ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، لقلة تاثير مسطح الخليج المائي تاثيرا محسوسا ، وخلوها من الغطاءات النباتية الأمر الذي يؤدي الى ارتفاع نسبة الرطوبة والحرارة (٢٤٨) لذا فمناخ الخليج العربي بعامة له شهرة لا يحسد عليها

***

الهوامش

١ ـ د مصطفى الشكعة سيف الدولة الحمداني ص٧ دار القلم القاهرة ١٩٥٩م
٢ ـ محمد طلس تاريخ الأمة العربية حـ٤/ص٥ دار الاندلس بيروت ١٩٦٣
٣ ـ نظام الملك ابو علي الحسن بن علي بن اسحق ت ٤٨٥هـ ، وقد تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحوا من ثلاثين سنة ، وكان عالما دينيا جوادا عادلا حليما ، محبا للعلماء ، وقد بنى المدارس في سائر الأقطار والبلاد (انظر ابن الأثير الكامل ٨/١٦١ ـ ١٦٣ مطبعة الاستقامة بالقاهرة)
٤ ـ بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص١٣٥ ترجمة نبيه فارس ، ومنير بعلبكي دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٨م
٥ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ١٣٥
٦ ـ انظر تاريخ الامة العربية ج٤ ص٥
٧ ـ جعفر حسين العراق في عهد المغول ٥ مطبعة العاني بغداد الطبعة الأولى ١٩٦٨
٨ ـ الناصر لدين الله احمد ـ ابو العباس ـ بن المستضيء بامر الله ، ولي الخلافة عام ٥٧٥هـ ، كان من افاضل الخلفاء واعيانهم ، بصيرا بالأمور ، مجربا ، مهيبا ، طالت مدته وصفا له الملك ، كان وقته مصروفا الى تدبير امور المملكة ، والى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الاموال ، توفي عام ٦٢٢هـ (ابن طباطبا ـ تاريخ الدولة الاسلامية ٣٢٢ دار صادر ، بيروت ١٩٦٠م)
٩ ـ العراق في عهد المغول ١٣
١٠ ـ السيوطي تاريخ الخلفاء ٤٨٠ تحقيق لجنة من الأدباء دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) وانظر ابن الاثير الكامل ٩/٣٣١ ، ٣٦١
١١ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ٢٥٨
١٢ ـ المستنصر بالله ابو جعفر منصور بن الظاهر بامر الله ، ولي الخلافة عام ٦٢٣هـ عرف بكرمه وشهامته ، وله من الآثار الجليلة «المستنصرية» كانت

أيامه طيبة ، والدنيا في زمانه ساكنة ، توفي عام ٦٤٠هـ (انظر تاريخ الدولة الاسلامية ٣٣٠ وانظر تاريخ الخلفاء ٤٩٠)

١٣ - المستعصم بالله قتيل التتار ، تولى الخلافة عام ٦٤٠هـ ، وتوفي عام ٦٥٦هـ (انظر تاريخ الدولة الاسلامية ص٣٣٣ انظر تاريخ الخلفاء ص٤٩٧)

١٤ - تاريخ الدولة الاسلامية ص٣٣٣

١٥ - انظر تاريخ الأمة العربية ٥/٤

١٦ - انظر تاريخ الأمة العربية ١٢١/٤

١٧ - انظر المرجع السابق نفسه ١٢١/٤ - ١٢٢

١٨ - د حسن ابراهيم تاريخ الاسلام السياسي ١٣٥/٤ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧

١٩ - انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٢٦

٢٠ - الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب الملقب بالملك الأشرف ، وهو احد ملوك بني ايوب ، كان سلطانا كريما ، حليما ، واسع الصدر ، كريم الاخلاق ، ولد عام ٥٧٨هـ ، وتوفي بدمشق عام ٦٣٥هـ (انظر وفيات الاعيان ٤١٣/٤) تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، النهضة المصرية ١٩٤٨

٢١ - عبدالفتاح الحلو ديوان ابن المقرب ٣٠٠ مطبعة الحلبي القاهرة الطبعه الأولى ١٩٦٣م وباقت عليه البوائق اصابته الشرور والدواهي

٢٢ - الديوان ٣٠٠

٢٣ - تاريخ الشعوب الاسلامية ٢٥٣

٢٤ - انظر تاريخ الامة العربية ٨/٤

٢٥ - تاريخ الاسلام السياسى ١٣٥/٤

٢٦ - انظر تاريخ الامة العربية ٥/٤ - ٦

٢٧ - انظر المرجع نفسه

٢٨ - انظر محمد صالح الحياة السياسيه في العراق في العصر العباسي الاخير ٣ مطبعة القضاء النجف الاشرف ١٩٧٠م

٢٩ - انظر بدرى فهد تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ٣٣٨ مطبعة الارشاد ببغداد ١٩٧٣م

٣٠ - بدرى فهد تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ٣٥٠

٣١ - المرجع نفسه ٣٧٠ - ٣٧١

٣٢ - الديوان ٢٢٤

٣٣ - القصيدة السابقة ٢٢٧ - ٢٢٨

٣٤ - الديوان ٢١٣

٣٥ - شمس الدين باتكين الرومى الناصرى ، كان مملوكا لابنة الخليفة المستنجد بالله سلمت اليه البصرة بحربها وحراحها ، فاقام بها ثلاثا وعشرين سنة ،

فعمرها واحسن السيرة في اهلها ، ولما ملك الخليفة «اربل» استدعى من البصرة وانفد اليها واليا كان متعددا كثير التلاوة للقران ، والمداكرة للعلوم والسير والتاريخ والاحبار ، والأشعار ، وله بطم حسن
(ابطر لابن الفوطى ١٨١ ـ ١٨٢ ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة) ، المكتبة العربية ببغداد ١٣٥١هـ

٢٦ ـ الديوان ٢١٢ ـ ٢١٣
٢٧ ـ ابطر تاريخ الاسلام السياسي ٤/٤٢٠
٣٨ ـ انظر محمد زغلول سلام الأدب في العصر الايوبي ٦ ـ ٧ دار المعارف بالقاهرة ١٩٧١ م
٣٩ ـ ابطر تاريخ الاسلام السياسي ٤/٤٢٠
٤٠ ـ الحياة السياسية في العراق ٣٦٥
٤١ ـ جورجي زيدان تاريخ اداب اللغة العربية ٣/١٢ ـ١٣ مطبعة الهلال ١٩٣١ م
٤٢ ـ ابطر اربولد ويلسون الخليج العربي ١٦٠ مطبعة الأمل الكويت (بدون تاريخ)
٤٣ ـ ابن خلدون العبر وديوان المبتدا والخبر ٤/١٩٧ دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨
٤٤ ـ ياقوت الحموي معجم البلدان ١/٣٤٨ ١/ مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٦
٤٥ ـ ابطر محمد عبدالقادر الانصاري تحفة المستفيد ٥٦ ـ ٥٧ ط ١ الرياض ١٩٦٠
وابطر ابن حزم جمهرة انساب العرب ٢٨٢ دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م
٤٦ ـ ابطر محمد بن خليفة النبهاني التحفة النبهانية ٧٨ المطبعة المحمدية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ
٤٧ ـ العبر ٤/١٩٧
٤٨ ـ المستكفي بالله بويع بالخلافة عام ٣٣٣ هـ ـ واستولى البويهيون في زمنه على مقاليد السلطة ، واعتقله معز الدولة بن بويه ، ولم يفرج عنه حتى توفي عام ٣٣٨ هـ (ابطر تاريخ الخلفاء ٤٢٧)
٤٩ ـ حصر بعمان العبيدي البحرين من امارات الخليج العربي ٢٦ مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٩
٥٠ ـ القرامطة الواحد قرمطي وهم جماعة من غلاة الباطنية، عرفوا بفساد عقيدتهم وكبيرهم ابو سعيد بن بهرام الجنابي القرمطي ظهر بالبحرين ودعا الناس الى نحلته وعظم امره ، وحارب الخلافة العباسية بعد أن استولى على سائر حواضر البحرين ، فقتله خادمه في الحمام عام ٣٠١ هـ

وانظر في ابتداء أمرهم وفساد عقيدتهم ابن الأثير الكامل جـ ٧ / ١٦٠ ـ ١٦١ المطبعة الكبرى بالقاهرة ١٢٩٠ هـ

٥١ ـ الكامل ٧/١٧٥ وانظر البحرين من امارات الخليج العربي

٥٢ ـ انظر الكامل ٧/١٧٧ وما بعدها

٥٣ ـ المصدر نفسه ٨/١٩

٥٤ ـ انظر المصدر نفسه ٨/٧١ وما بعدها ، ١٧٥ ويذكر ابن الأثير أن ابا طاهر القرمطي قد هجم على مكة (عام ٣١٧ هـ) في يوم التروية ، فنهب هو وأصحابه اموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وقلع الحجر الأسود ، ونقله الى هجر ، وقلع باب البيت ، وطرح القتلى في بئر زمزم وأخذ كسوة الكعبة ، ونهب دور اهل مكة بعد أن قتل اميرها فلما بلغ ذلك المهدي أبا محمد عبيدالله العلوي بافريقيه كتب اليه ينكر عليه ذلك ، ويلومه ويلعنه ، ويرميه بالكفر والالحاد فلما وصله كتابه اعاد الحجر الاسود في ذي القعدة من عام ٣٣٩ هـ ، وقالوا اخذناه بامر واعدناه بامر

٥٥ ـ المصدر نفسه ٨/١٢٣

٥٦ ـ انظر المصدر نفسه ٨/٢٢٠ وما بعدها

٥٧ ـ المصدر نفسه ٩/١٥ ، ١٦

٥٨ ـ العبر ٤/١٩٥ وما بعدها

٥٩ ـ انظر الكامل ٩/١٥ ، ١٦ وانظر العبر ٤/١٩٥ وما بعدها
*صمصام الدولة هو ابن عضد الدولة البويهي (٣٧٢ هـ ـ ٣٨٨ هـ)
كتاب الوزراء
هلال الصابي ص ١٦٩ تحقيق عبدالستار فراج الحلبي ١٩٥٨

٦٠ ـ انظر الكامل ٩/١٥ ـ ١٦

٦١ ـ انظر العبر ٤/١٩٥ وما بعدها

٦٢ ـ انظر العصر العباسي الثاني د شوقي ضيف ٤١ دار المعارف بمصر ١٩٧٣ م

٦٣ ـ انظر العبر ٤/١٩٥ وما بعدها

٦٤ ـ الديوان ٥٣١/٥٣٢ وادم بئر على مرحلة من مكة (القاموس ٤/٧٣)

٦٥ ـ انظر نسخة برنستون المخطوطة تسلسل ٤٤ ، ونسخة برلين المخطوطة تسلسل ١٩٨ ونسخة المكتبة البريطانية المخطوطة تسلسل ٧٢٨٨

٦٦ ـ انظر . JAS IX. T v 1895. Page 1
وانظر تحفة المستفيد ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وجاء في دائرة المعارف الاسلامية (مادة البحرين) ان نهايتهم كانت بعد سنوات قلائل من عام ٤٥٠ هـ على

ايدي أسرة حديدة حاكمة من اهل الاحساء هم العيوبية من عبدالقيس انطر حـ ٤٥/٣١٩/ دار الشعب القاهرة (بدون تاريخ)

٦٧ - الماشوش
بدعة ابتدعها القرامطة في البحرين وحعلوها دينا ، وهو ان يجمع الرجال والنساء في ليلة العاشر من محرم ، واول ليلة من برج الحمل المسمى النيرور ، ويشعلون الشمع ويرقصون ويختلطون ، ثم يطفئون الشمع ، ويقبض كل منهم يد امراة من الجمع ويواقعها سواء أكانت من محارمه أم أجنبية ، فحين ملك عبدالله بن علي العيوني البحرين وصارت تلك الليلة ركب ابو شكر المبارك بن الحسن بن ابي مقرب العيوني ومعه علمائه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم ، واماتوا بدعتهم من البحرين فما بقيت تعرف انطر شرح الديوان ٥٥١

٦٨ - الديوان ٥٥١

٦٩ - انطر ابو عبيد البكري معجم ما استعجم ١/٧٩ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥

٧٠ - تحفة المستفيد ٥٦

٧١ - انطر معجم ما استعجم ١/٨١

٧٢ - انظر معجم ما استعجم ١/٨١

٧٣ - انطر جمهرة انساب العرب ١٩٧ ، ٢٩٥ ، وانطر ابن عبدربه العقد الفريد ٣/٣٥٧ مطبعة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م

٧٤ - The Encyelopedia of Islam Vol 1 : 74, Leideu Brill 1960

٧٥ - ابن منطور لسان العرب حـ٣/٢٧٣ الدار المصرية للتاليف والترجمة (بدون تاريخ)

٧٦ - معجم ما استعجم ١/٨١ وانطر الجمهرة ٢٩٩

٧٧ - جمهرة انساب العرب ٢٩٥

٧٨ - معجم ما استعجم ١/٨٤

٧٩ - دائرة المعارف الاسلامية ١/٧٣ - ٧٤

٨٠ - الديوان ٤٥ والعيص / الشجر الكثير الملتف

٨١ - المصدر نفسه ٢٨/٢٩

٨٢ - بنو عامر هم بنو عامر بن الحارث بن انمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس (انطر الجمهرة ٢٩٥)

٨٣ - ابن افصى كناية عن نفسه ، وإفصى هو ابن عبدالقيس انظر الجمهرة ٢٩٥ ورباب احياء ضبة لأنهم أدخلوا ايديهم في رب وتعاقدوا (القاموس ١/٧١)

٨٤ - الديوان ٦٦٢

٨٥ ـ الديوان ٤٦١
٨٦ ـ المصدر نفسه ٤٥٦
٨٧ ـ الخط مرفا للسفن بالبحرين واليها تنسب الرماح الخطية
٨٨ ـ لكيزية نسبة الى لكيز بن إفصى بن عبدالقيس (الجمهرة ٢٩٥)
٨٩ ـ عوف احد بطون قبيلة عامر (الجمهرة ٢٨٠)
٩٠ ـ الحارثيين نسبة الى الحارث بن انمار بن وديعة بن لكيز وكان هذا البطن اشهر بطون انمار انظر جمهرة انساب العرب ٢٩٥
٩١ ـ مالك احد بطون قبيله عامر (الجمهرة ٢٨١)
٩٢ ـ الديوان ٤٢ ـ ٤٣
٩٣ ـ انظر المصدر نفسه ٣٦٧ ، ٤٦٢ ، ٥٦٦
٩٤ ـ الديوان ٥٠٤
٩٥ ـ دليل الخليج ٢/٨٢٢
٩٦ ـ انظر مخطوطة برلين المشروحه تسلسل ١٩٨ ، ومخطوطة برنستون المشروحه تسلسل ٤٤ وانظر Jas. Page 16 – 17 ، وانظر تحفة المستفيد ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وانظر دائرة المعارف الاسلاميه ٤٥/٣١٩
٩٧ ـ انظر مخطوطه برلين المشروحة تسلسل ١٩٨ وانظر دائرة المعارف الاسلامية ٤٥/٣١٩
٩٨ ـ ديوان ابن المقرب المطبعة الهنديه ٤٤٤ مطبعة دت برساد بومبى ١٣١١هـ وانظر دائرة المعارف الاسلامية ٤٥/٣١٩
٩٩ ـ انظر مخطوطه برلين المشروحه تسلسل ١٩٨ شرح قصيدته الميمية
١٠٠ ـ انظر التحفة النبهانية ٩٥
١٠١ ـ انظر Jas Page 16 – 17 ، وانظر تحفة المستفيد ٩٨ وما بعدها النسخة الهندية ٤٤٤ وما بعدها
١٠٢ ـ انظر النسخة الهندية ، ٤٤٤ ، وانظر الديوان ٥٣٣
١٠٣ ـ الديوان ٥٣٤
١٠٤ ـ انظرا Jas. Page 16 – 17
١٠٥ ـ انظر المرجع السابق نفسه وانظر مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصريه تسلسل ٦٣٧ تاريخ
١٠٦ ـ انظر تحفة المستفيد ٩٨ وما بعدها
١٠٧ ـ انظر مخطوطة برلين المشروحة ، وقد ورد فيها نص رسالته الى الخلافة العباسية كاملة وتقع في اثنتي عشرة صفحة
١٠٨ ـ Jas. Page 16 – 17
١٠٩ ـ انظر تحفة المستفيد ٩٨ وما بعدها ، وانظر التحفة النبهانية ٩٦ ، وانظر الديوان ٥٣٣ وانظر Jas. Page 16 – 17 وانظر نسخة برنستون المشروحة تسلسل ٤٤ (شرح الميمية)

١١٠ ـ الديوان ٥٣٤ واليتم الابطاء (القاموس ٤/١٩٣)
١١١ ـ انظر ابن المقرب حياته وشعره ٤٢
١١٢ ـ التحفة النبهانية ٩٥ . وانظر نسخة بريستون المشروحة تسلسل ٤٤ (شرح الميمية)
١١٣ ـ الديوان ٥٣٨ ـ ٥٣٩
١١٤ ـ عتيك قبيلة تنسب الى عتيك بن الارد بن عمران بن عمرو مريقاء الكهلاني القحطاني (الجمهرة ٣٤٨) حدان قبيلة تنسب الى حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن نصر بن الازد ، معجم قبائل العرب ـ لعمر رضا كحالة ط ١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠ المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩م
١١٥ ـ الديوان ٥٩٠
١١٦ ـ انظر تحفة المستفيد ١٠١ وانظر التحفة النبهانية ٩٦ ، وانظر شرح الديوان/ ٥٣٣
١١٧ ـ الديوان ٥٣٢
١١٨ ـ نفسه ٥٣٣
١١٩ ـ نفسه ٥٣٧ وناقة خيفانة سريعة والظليم ذكر النعام والنقيذ فرس انقذته من العدو
١٢٠ ـ والترسكية لعلها التركمية ، الديوان ٥٣٨
١٢١ ـ الديوان ٤٦٩
١٢٢ ـ المصدر نفسه ٤٧٠ يذبل جبل مشهور بنجد ، ويلملم جبل على مرحلتين من مكة (القاموس ٤/١٧٧)
١٢٣ ـ الديوان ٥٤٦
١٢٤ ـ المصدر نفسه ٥٣٨
* ـ جاء في هامش الديوان ص ٥٣٨ ان ملكا من ملوك العجم كان ببلاد قارون (ولعلها حوض نهر قارون ببلاد فارس) فخرج يريد الاحساء في جيش عظيم ، وكان اميرها حينئذ عبدالله بن علي العيوني الذي استطاع ان يضللهم في الصحراء بمساعدة الادلاء من البدو ، ما بين البحرين وعمان ، وافسد بالتالي خططهم ، واهدافهم
١٢٥ ـ عمران محمد العمران ابن مقرب حياته وشعره ٤٤
١٢٦ ـ التحفه النبهانية ٩٩
١٢٧ ـ ابوسنان هو محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني
١٢٨ ـ احمد هو ابو الحسين بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني
١٢٩ ـ ذروى الذروة جبل بعمان وهو قصبة الجوارح في عمان (القاموس الفيروزابادي ٤/٣٩٥)
١٣٠ ـ الديوان ٧٨ ـ ٧٩
١٣١ ـ تحفة المستفيد ١٠٤

١٣٢ ـ الديوان ٥١ ـ حد باعب حي من العرب
١٣٣ ـ الديوان ٢٠٧
١٣٤ ـ الديوان ٢٠٨
١٣٥ ـ الديوان ٣١٠
١٣٦ ـ الديوان ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ، والتسارب الصامر ، والمراسل الابل السهلة السير والدحابى اسم ماء في الحانب العربي من الدهناء ، والأين التعب والنصب ، والتسوى البدان والرحلان والأطراف والحامعات الدئاب او الصباع ، والعسال الدئب ، والنحام النحيل
١٣٧ ـ الديوان ٣٥٥
١٣٨ ـ نفسه ٣٥٥
١٣٩ ـ نفسه ٣٥٧ ، وانسل وتسلل انطلق في استحفاء
١٤٠ ـ الديوان ٦٢١ وحفان ماسده
١٤١ ـ الديوان ٦٢١ ـ ٦٢٢
١٤٢ ـ ينظر الديوان ٥٤٧ ـ ٥٤٨
١٤٣ ـ نفسه ٥٤٧ ودرم اسم رحل قتل فلم يدرك بثاره فصار مثلا « اودى درم » اللسان درم
١٤٤ ـ تستر اعظم مدينة نحورستان ، وهي على مرتفع من الارض ، وتستر تعريب ششتر (نقلا عن الديوان ٢٢٣)
١٤٥ ـ نفسه ٢٢٣ والبيت ابو حي باليمن ، اسمه عمرو بن مالك (القاموس ١/١٥٨) وقيدار بن اسماعيل ابو العرب (القاموس ٢/١١٥)
١٤٦ ـ الديوان ٥٩٤
١٤٧) ابن مقرب ـ حياته وشعره ٤٧
١٤٨ ـ الديوان ١١٠
١٤٩ ـ د شوقي صيف سحل شعري تاريحي فريد مقالة بمحلة محمع اللغة العربية عدد ٣٨ ، ١٩٧٦
١٥٠ ـ د شوقي صيف سحل شعري تاريحي فريد مقالة بمحلة محمع اللغة العربية عدد ٣٨
١٥١ ـ الديوان ٥٤١
١٥٢ ـ القصيدة ذاتها ٥٤٢
١٥٣ ـ القصيدة ذاتها ٥٤٤
١٥٤ ـ السيب نهر بالبصرة وفي قرى كثيرة (مراصد الاطلاع ح ٢/٧٦٣) تحقيق علي البحاوي دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤م
١٥٥ ـ الديوان ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣
١٥٦ ـ تحفة المستفيد ١٠٨ ـ ١٠٩ وانظر مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل ٦٣٧ تاريخ

١٥٧ ـ الديوان ١٠٥ ـ ١٠٦
١٥٨ ـ المصدر نفسه ٨٩
١٥٩ ـ قيس (كيش) وهو تعحيم قيس ، حزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس ، لأن اهلها فرس ، وتعد من أعمال عمان (معجم البلدان ٧/٣٠٦) وجاء في دائرة المعارف الاسلامية ان قيس حريرة صغيرة في بحر عمان ، وأن أسرة من قبيلة القيس استطاعت في زمن النبي محمد (ﷺ) أن تقيم لها دولة فيها وظهرت اهمية هده الحريرة في نهاية العصر الوسيط عندما برز أمير من جنوب الجزيرة العربية ، واحتلها ، وبنى أسطولا ، وأخذ ينشر نفوذه ، وبدأت الجزيرة تتمتع بازدهار متواصل ، اصبحت مركزا للتجارة الهندية الفارسية الصينية وقد خلط ابن بطوطه في تحفته (ص ٣٤٤) بين سيراف كمدينة تقع على الساحل الشمالي القريب من الجزيرة ، وبين جزيرة قيس
(Incyclopeedia of Islam Leyden London 1927 vol 74 · 649)
١٦٠ ـ سترة هي شبه جزيرة سترة بالبحرين الحالية ، تكتسب اهميتها الآن من وجود أكبر مصفاة لتكرير النفط في المنطقة بها
١٦١ ـ انظر الديوان ٥٥٠
١٦٢ ـ شامة والحاتنك لعله يقصد بهما قوم الملك أبي كرزار ، والرقم الداهية (القاموس ٤/ ١٢١)
١٦٣ ـ الديوان ٥٥٠

١٦٤ ـ المصدر السابق نفسه ٥٩٤ ـ ٥٩٥
١٦٥ ـ ابن مقرب حياته وشعره ٤٧
١٦٦ ـ انظر الديوان ٦٣١ وقيس وعيلان خصومهم لأنهم اعراب بادية بأرضهم
١٦٧ ـ المصدر نفسه ٣٦٩
١٦٨ ـ انظر المصدر نفسه ٦٣١
ابو علي ابراهيم بن عبدالله بن عزيز بن ابراهيم بن ابي حروان ، وعزيزا أحد بني برق ، وهو عمرو بن عبدالله بن مالك بن عامر ، وكانت صلة ابن المقرب به طيبة ، لما بينهما من خلطة ولحمة نسب ، وقد مدحه بقصيدتين يفهم منهما انه من قبيلة عبدالقيس ومن زعماء الاحساء (الديوان ١٦٧

ساد الورى طفلا وبرز يافعا
لم يتعر وبني المكارم امردا
اباؤه من عبدقيس خيرها
حسبا واكرمها واوسعها ندى

(الديوان ١٦٧)
ويقول من قصيدة اخرى

فتـى حـل مـن عليـا لكيـر وعـامـر
بـاعـلى محـل مـن درى وقـلال
أخ وابـن عـم حـين أدعـو ووالـد
شقيـق وحـل لا يحـون وكـالى
كفـى سـاكـن البحـريـن كـل عظيمـة
وبـاء بـاعبـاء تكـون تقـال
الديوان ٣٧٧ ـ ٣٧٨
١٦٩ ـ الديوان ٦٣٢ ـ ٦٣٣
١٧٠ ـ المصدر نفسه ٦٣٤
١٧١ ـ المصدر نفسه ٤٦٤
١٧٢ ـ الكثيب طرف الاحساء الجنوبى
١٧٣ ـ والعيون طرفها الشمالى والمحاديث من ارض العيون
١٧٤ ـ وحلوان مكان بين الاحساء والقطيف
١٧٥ ـ والخط هى القطيف
١٧٦ ـ وصفواء طرف القطيف الشمالى
١٧٧ ـ والظهران طرف القطيف الجنوبى
١٧٨ ـ ١٧٩ ـ المروزان وكرزكان قريتان في جزيـرة اوال (الديـوان ٦٣٨/٦٣٩)
١٨٠ ـ نفسه ٦٣٨ ـ ٦٣٩
١٨١ ـ نفسه ٦٤٠ ـ ٦٤١
١٨٢ ـ الديوان ٣٦٩
١٨٣ ـ المصدر نفسه (٣٧٠)
١٨٤ ـ المصدر نفسه ٣٨٥ ـ ٣٨٦
١٨٥ ـ الديوان ٣٨٤ ـ ٣٨٥
١٨٦ ـ نفسه ٣٨٥
١٨٧ ـ القرحا سيف القطيف (الديوان ٣٨٧ ـ
١٨٨ ـ نفسه ٣٨٧
١٨٩ ـ نفسه ٣٨٨ ـ ٣٨٩
١٩٠ ـ نفسه ١٣٤
١٩١ ـ نفسه ١٤
١٩٢ ـ الديوان ٦١٠
١٩٣ ـ نفسه ٤٥٦
١٩٤ ـ نفسه ٤٥٦ ـ ٤٥٧
١٩٥ ـ نفسه ٦١٠ ـ ٦١١
١٩٦ ـ نفسه ٦١١

١٩٧ ـ الديوان ٦١٥ ـ ٦١٦
١٩٨ ـ نفسه ٦١٦
١٩٩ ـ نفسه ٢٥٥
٢٠٠ ـ نفسه ٢٥٥
٢٠١ ـ نفسه ٢٥٧
٢٠٢ ـ الديوان ١٦٩
٢٠٣ ـ نفسه ٢٤٢
٢٠٤ ـ انظر تحفة المستفيد ١١٨ وانظر ابن مقرب حياته وشعره ٤٨
٢٠٥ ـ تاريخ ابن خلدون ٤ ١٩٦
٢٠٦ ـ انظر التحفة النبهانية ٩٩ ـ ١٠٠
٢٠٧ ـ البحرين من امارات الخليج العربي ٢٦
٢٠٨ ـ ابن مقرب حياته وشعره ٤٨
٢٠٩ ـ انظر عبدالحميد عنيم مشكلات الحدود السياسية في الساحل العربي للخليج العربي ٣ ـ ٤ رسالة مُخطوطة بمكتبة اداب القاهرة ، ١٩٧٥
٢١٠ ـ يوسف خليف الشعراء الصعاليك ١٢٥ ـ ١٢٦ ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٩
٢١١ ـ تحفة المستفيد من المقدمة لحمد الجاسر
٢١٢ ـ البحرين من امارات الخليج العربي ٢٠
٢١٣ ـ تحفة المستفيد من المقدمة لحمد الجاسر
٢١٤ ـ تحفة المستفيد ١٩
٢١٥ ـ مشكلات الحدود السياسية ٥

٢١٦ ـ ياقوت الحموي معجم البلدان ٢/٧ ، وانظر البكري معجم مااستعجم وانظر ابن خلدون العبر وديوان المبتدا والخبر ٤/١٩٧
٢١٧ ـ انظر المقدسي احسن التقاسيم ٥٩ مطبعة بريل ليدن ١٩٠٩م ومعجم البلدان ١/٣٤٦ ، والعبر ٤/١٩٧
٢١٨ ـ معجم البلدان ٢/٧٢
٢١٩ ـ المصدر السابق نفسه ٢/٧٢
٢٢٠ ـ المصدر السابق نفسه ٨/٤٤٦
٢٢١ ـ الهمداني صفة جزيرة العرب ١٣٦ ، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٣م
٢٢٢ ـ القلقشندي صبح الاعشى جـ ١٣/٥٥ المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٤م
٢٢٣ ـ معجم البلدان ٢/٧٣

٢٢٤ ـ ابن خرداذبه المسالك والممالك ١٥٢ مطبعة بريل ليدن ١٨٨٩م
٢٢٥ ـ صفة جزيرة العرب ١٧٨

٢٢٦ ـ عمر رضا كحالة جغرافية شبه جزيرة العرب ٢٦١ المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٤
٢٢٧ ـ ابو الفداء تقويم البلدان ٩٩ دار الطباعة السلطانية باريس ١٨٤٠م
٢٢٨ ـ تحفة المستفيد ٣
٢٢٩ ـ صفة جزيرة العرب ٣٦ ويقول ابن سيده والزجاج والازهري كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر ـ لسان العرب (مادة بحر)
٢٣٠ ـ امين الريحاني ملوك العرب ٢٢٣ دار صادر، ريحاني بيروت ١٩٥١م
٢٣١ ـ ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار ١/١٧٧ مطبعة الاستقامة ١٩٧٦م وجاء في لسان العرب ان سيبويه يقول بحراني في النسب الى البحرين التي هي مدينه (انظر اللسان مادة بحر)
٢٣٢ ـ العبر ٤/١٩٧ معجم البلدان ١/١٣٧
٢٣٣ ـ معجم البلدان ١/١٣٧
٢٣٤ ـ «واحساء القرامطة غير الاحساء الموجودة الان. وانما موقعها عين الجوهريه، والمكان المعروف بالبطاليه واما الاحساء الموجودة الان فهي من بناء الاتراك بعهد الوالي فروح باشا»
(ديوان ابن المقرب المكتب الاسلامي بدمشق الطبعه الثانيه ١٩٦٨ ـ من المقدمة من رسالة بعث بها الشيخ يوسف بن راشد المبارك للمكتب بدمشق مصححا بعض المعلومات الواردة في الطبعة الاولى)
٢٣٥ ـ عبد الفتاح الحلو شعراء هجر جـ من المقدمة مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٩٥٩م
٢٣٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٤٥/٣١٩
٢٣٧ ـ معجم البلدان ١/١٣٦ ـ ١٣٧

٢٣٨ ـ محمد متولي حوض الخليج العربي ٦٣ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠م
٢٣٩ ـ حافظ وهبة جزيرة العرب ٦٨ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٦م
٢٤٠ ـ انظر لوريمر دليل الخليج (القسم الجغرافي) جـ ٢/٨٢٠ ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني امير دولة قطر (بدون تاريخ)
٢٤١ ـ المرجع السابق نفسه ٢/٨٢٠
٢٤٢ ـ جزيرة العرب ٦٩

٢٤٣ ـ تحفة النطار ١/١٧٧
٢٤٤ ـ حوض الخليج العربي ٦٣
٢٤٥ ـ انظر حزيرة العرب ٦٩
٢٤٦ ـ المرجع نفسه ٧٢
٢٤٧ ـ تحفة النطار ١/١٧٧ وانظر العبر ٤/١٩٧
٢٤٨ ـ انظر مشكلات الحدود السياسية في الساحل العربي للخليج العربي ٨

البرتغاليون بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن السادس عشر

بقلم الدكتور رأفت غنيمي الشيخ



كانت البرتغال جزءا من الدولة الإسلامية بالأندلس ، ولكن الأجزاء الشمالية منها هي التي إستخلصتها إمارة قشتالة المسيحية لنفسها وبقيت الأجزاء الجنوبية خاضعة للمسلمين بالأندلس ، وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي تحررت الأجزاء الشمالية من سيطرة قشتالة على يد ملكها ألفونسو الأول Alfonso 1 في عام ٤٨٨ هـ الموافق لعام ١٠٩٥ م

وقد نجح هذا الملك عام ٥٤٠ هـ الموافق لعام ١١٤٧ م في أخذ مدينة لشبونة عاصمة البرتغال الحالية ـ من المسلمين ، كما نجح ألفونسو الثالث عام ٥٤٦ هـ الموافق لعام ١١٥١ م في أخذ مناطق العرب من البلاد التي



عرفت فيما بعد باسم البرتغال وسميت هذه المناطق ، العرب لأنها الجزء العربي من الأندلس الإسلامية

وأما اسم البرتغال فيرجع الى ما أطلقه المؤرخون على المناطق الشمالية العربية من الأندلس باسم «بورتوكاليس» نسبة الى ميناء بورتس كالي ـ أي ميناء كالي والمعروف الى اليوم باسم أبورتو ، ومن هنا جاء اسم البرتغال من بورتوجال أو بورتوكال Portogal التي أكتملت مقوماتها كدولة وطنية حديثة ذات حكومة مركزية قوية أخذت من مدينة لشبونة Lisboa عاصمة لها وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي صارت البرتغال ـ كما يذكر سردار بانيكار نصيرة المسيحية وراعيتها ضد الاسلام والمسلمين فقد كان الأيبيري المخلص لديه المتفاني في حب وطنه أسبانيا كان أو برتغاليا يعد القتال ضد المسلمين ضرورة ماسة ويراه خليطا يجمع على حد سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية [1] ولذلك لا نعجب أن نجد البرتغال أسبق الدول الأوروبية في الدوران حول أفريقيا لتطويق المسلمين من الخلف وهي الحركة المعروفة بحركة الكشوف الجغرافية والإستعمار

وفي بداية القرن الخامس عشر اصبحت البرتغال تتمتع بالإستقرار السياسي والإقتصادي تحت حكم الملك يوحنا الأول John I أحد ملوك أسرة آفير Avis فكلف ابنه الثالث هنري Henry بغزو مدينة سبته المغربية يدعمه رجال أقوياء من التجار المغامرين والبحارة الذين رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية التقليدية المألوفة انذاك وأخذوا يسيرون في طريق الإستعمار يملؤهم الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم الحصون والقلاع [2]

ورغم أن نشاط المستكشفين البرتغاليين كان موجها في الأصل الى البحث عن طريق موصل الى الهند حيث منابع تجارة التوابل لانتزاعها من أيدي التجار المسلمين وتوصيلها الى أوروبا عن طريق البلاد الإسلامية الواقعة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط ، فإن أفريقيا كانت هذا الطريق الذي يبحث عنه المستكشفون البرتغاليون طالما أراد هؤلاء تجنب الإصطدام بالمسلمين المسيطرين على طرق التجارة التقليدية من الهند الى أوروبا

ويرجع الى البرتغاليين الفضل في كشف السواحل الأفريقية المطلة على المحيطين الأطلسي والهندي ، إذ بدأت عملية الكشوف البرتغالية بنزول الأمير هنري الملاح ابن ملك البرتغال يوحنا الأول الى مدينة سبتة المغربية عام ١٤١٥ م ، ومنذ ذلك التاريخ ومن هذا المركز الإستعماري البرتغالي الأول في الساحل الأفريقي استمرت حركة المستكشفين البرتغاليين للدوران حول أفريقيا التي انتهت بنجاح الملاح

البرتغالي فاسكو دي جاما في الدوران حول الطرف الجنوبي للقارة الأمريكية الذي أطلق عليه رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ م ، ثم واصل سيره في المحيط الهندي بمعرفة ملاح عربي من رأس الخيمة هو أحمد بن ماجد الى أن وصل الى ساحل الملبار في شبه القارة الهندية حيث بدأت أولى خطوات تاسيس امبراطورية برتغالية في الشرق

ومما تجب ملاحظته انه لم يكن هدف البرتغاليين من كشف السواحل الأفريقية إقامة مستعمرات بل إقامة محطات ومراكز عند مصاب الأنهار ، ومن ثم لم يهتموا كثيرا بالتوغل داخل القارة ، وإن اهتموا بحماية مراكزهم ومحطاتهم ضد إغارات الافارقة وكانت هذه المراكز والمحطات تقام في مناطق تصلح لرسو السفن ويمكن فيها إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوي على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة محطات ومساكن التجار البرتغاليين وخدمهم من الافارقة [٣]

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت البرتغال تسبق الدول الأوروبية في مجال الكشف الجغرافي والإستعمار ، وفي الاجابة على هذا التساؤل نذكر النقاط الآتية

١ ـ سادت الروح الصليبية في البرتغال وأصبحت محركا للسياسة البرتغالية خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مما أعطى البرتغال زعامة على العالم المسيحي في حرب أوروبا في الحرب ضد المسلمين

٢ ـ وقوع البرتغال متاخمة لامارات إسلامية في الاندلس وفي شمال أفريقيا مما جعل الحرب مستمرة بين الامارات المسيحية والامارات الإسلامية

٣ ـ وقوع البرتغال على شاطىء المحيط الاطلسي على مقربة من القارة الافريقية اعطاها أهمية استراتيجية وتجارية حيث كانت عاصمتها لشبونة مركزا للتجارة الهندية والافريقية المستوردة الى أوربا

٤ ـ استعانة البرتغال بملاحين من جنوة نقلوا خبراتهم الملاحية البحرية الى البرتغاليين الى جانب العلماء والجغرافيين الذين استفادت منهم البرتغال في وضع المصورات والخطط لانشاء امبراطورية برتغالية في الشرق تبدأ بافريقيا ، وأصبح الملاح البرتغالي الى جانب إتقانه الملاحة محاربا قويا خصوصا في القارة الأفريقية المسلح ابناؤها باسلحة بدائية امام بارود البرتغال ومدافعهم [٤]

وعندما حصل البرتغاليون من البابا «مارتن الخامس» على مرسوم باكتشاف الطريق الى الهند وشن الحرب ضد المسلمين عام ١٤٥٤ م زمن رحلات الامير هنري الملاح أعلنت البرتغال امتلاكها لجميع الشواطىء الأفريقية جنوب مراكش ، في الوقت الذي كانت فيه أسبانيا تنشط في مجال الكشف والاستعمار في العالم الجديد مما أدى الى حدوث صراع بين الطرفين

لامتلاك الشواطىء والجزر الأفريقية

وقد استمر الصراع البرتغالي الأسباني حتى عقدت بين الطرفين معاهدة «ترود سيلاس» Trodisellas عام ١٤٩٤ م بمساعي بابا روما نصت على امتلاك البرتغال جميع الأراضي الأفريقية التي تصل اليها ابتداء من جنوب مراكش حتى الهند ، وأن تظل أسبانيا تمتلك جزر كناريا ، وأن تعترف البرتغال بمصالح أسبانيا في مراكش واستعمارها للعالم الجديد [٥]

ويمكن أن نحدد مظاهر الكشف والاستعمار لأفريقيا والهند في النقاط الآتية :

أ ـ لم تكن أفريقيا تمثل هدفا عند البرتغاليين يصلون اليه ويحققونه ، وإنما كانت وسيلة يصلون عن طريقها الى تحقيق هدفهم الأسمى وهو احتكار تجارة الهند والسيطرة على البحار الهندية وشواطئها ، وانحصر الإهتمام البرتغالي بأفريقيا في تأمين طريق الوصول الى البحار الهندية بإقامة حصون ومحطات على الشواطىء الأفريقية العربية والشرقية

ب ـ لم يكن هدف البرتغاليين في البداية إنشاء مستعمرات بل إقامة محطات أو مراكز مسلحة ، ولذلك لم يهتموا كثيرا بالتوغل من الساحل الى الداخل سواء بالنسبة للقارة الأفريقية أو للهند أو حتى للخليج العربي ، ومن ثم اختاروا أماكن تصلح لرسو السفن

ويمكن إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوى على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة المحطات

ج ـ اعتنق البرتغاليون فكرة أن تجارة الهند لن تخلص لهم وحدهم إلا بالقضاء على التجار العرب والمسلمين في تلك الجهات ، ومن ثم فقد هاجموا ودمروا جميع المدن العربية والإسلامية المزدهرة على الشاطىء الشرقي لافريقيا وفي الشاطىء العربي للهند وفي شواطىء الخليج العربي ، وأقاموا مكان هذه المدن محطات ومراكز خاصة بهم [٦]

وبعد عودة دي جاما الى لشبونة في شهر سبتمبر عام ١٤٩٩ م بعد رحلة استغرقت حوالي عامين ، بدأت حملات البرتغاليين الحربية بقصد الغزو والإستعمار بعد مرحلة الكشف الجغرافي ، ومن ثم أرسل الملك عمانويل ملك البرتغال حملة بقيادة بدرو الفارير كابرال Pedro Alfares Cabral مكونة من ٣٢ سفينة غادرت لشبونة في ٩ مارس عام ١٥٠٠ م والذي وصل الى الهند واصطدم مع الزاموريين حاكم قاليقوط أو كاليكوت

ثم تتالت الحملات الإستعمارية البرتغالية فكان منها حملة فاسكو دي جاما الثانية في مارس سنة ١٥٠٢ م مكونة من ٢ سفينة ، والتي اتخذت مواقف عدائية من المدن والإمارات شرق أفريقيا وبالهند حتى أنه هاجم سفينة حجاج مسلمين وأحرقهم

سفينتهم في عرض مياه المحيط الهندي ، ثم عاد الى لشبونة في ديسمبر عام ١٥٠٣ م حاملا ثروة عظيمة سلبها من السفن العربية والإسلامية

ثم جاءت حملة الفونسو البوكيرك التي غادرت لشبونة في ٦ ابريل ١٥٠٣ م بهدف الانتقام من الراموريين حاكم قاليقوط ، وقد تمكن البوكيرك من تنفيذ مهمته ، ونتيجة لهذه الحملة احتلت البرتغال مركز الصدارة في التجارة الشرقية ، وبدأ الهجوم على العرب والمسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي الذي استكمله فرانسسكو الميدا منذ عام ٥ ١٥ م ، وافونسودا البوكيرك مرة ثانية منذ عام ١٥٠٧ م حتى عام ١٥١٣ م

أحمد بن ماجد

للحديث عن علاقة البرتغاليين برأس الخيمة لا بد أن نتطرق الى الحديث عن أحمد بن ماجد مواطن رأس الخيمة لماذا ؟ لأن الحديث عن دور البرتغال في الدوران حول أفريقيا للوصول الى الهند يبرز قضية هامة تدور حول من أرشد فاسكو دي جاما الى الهند وقاد الحملة البرتغالية الكشفية من «مالندي» شرق افريقيا الى «قاليقوط» بساحل المليبار بالهند (الساحل الغربي لشبه القارة الهندية المطل على المحيط الهندي) اهو أحمد بن ماجد هذا الملاح العماني الشهير أم أحد غيره ؟

من هو أحمد بن ماجد ؟ ان اسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك من أصل عربي ومسقط رأسه مدينة «جلفار» - رأس الخيمة - اشتهر بالملاحة واكتسب خبرة كبيرة في ركوب البحر بين عمان والهند وشرق أفريقيا حتى ذاع صيته ، وقد أطلق عليه لقب «أسد البحر» أو «ليث البحر» (٧)

وأما علاقته بالبرتغاليين فترجع الى أنه عايش فترة محاولات البرتغاليين الدوران حول الطرف الجنوبي لافريقيا ، وعندما فشل «بارتلميو ديار» الملاح البرتغالي عام ١٤٨٧ م في مواصلة السير باتجاه شرق أفريقيا بعد ان واجهته عواصف عند الطرف الجنوبي لأفريقيا انتقده أحمد بن ماجد في قصيدة من الشعر العامي تعرف باسم «الأراجيز» جمع ارجوزة جاء فيها

رلوا بها على الموسم
في عيد ميكال بالتوهم
قام عليها موج تلك الروس
في سفالة بقي معكوس
وانقلبت أدقالهم في الماء
والسفن فوق الماء يا جاني
غرقا يروى بعضهم لبعض
ولكن عارفا موسم تلك الأرض (٨)

وعندما وصل فاسكو دي جاما الملاح البرتغالي الذي نجح في الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا وأطلق عليه اسم راس الرجاء الصالح ـ كما ذكرنا ـ الى مدينة «مالندي» شرق أفريقيا في ١٥ مارس عام ١٤٩٨ م

شغل نفسه بالبحث عن ملاح من هذه المنطقة ليقود رحلته في المحيط الهندي ، وكان ملك «مالندي» يشعر بالود نحو الأفرنج ، فأشار على فاسكو دي جاما بأخذ أحمد بن ماجد مرشدا وقائدا الرحلة

وقد رضي فاسكودى جاما كل الرضا عن احمد بن ماجد خاصة بعد التحدث معه وبعد أن عرض أحمد بن ماجد عليه خريطة لكل الشواطىء الهندية مرسومة بكل وضوح وعندما عرض دى جاما علي ابن ماجد « اسطرلابا » كبيرا من الخشب كان قد أحضره معه ، وكذلك اسطرلابات معدنية أخرى لقياس ارتفاع الشمس والنجوم لم يندهش ابن ماجد وقال ان الملاحين العرب يستخدمون أجهزة مثلثية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس وخصوصا النجم القطبي ، كما أنهم يستخدمون أجهزة أخرى غير الاسطرلاب ، وقد عرضها ابن ماجد مما جعل دي جاما يعتبر ابن ماجد ثروة كبيرة[٩]

ركب أحمد بن ماجد سفينة القيادة في حملة فاسكودى جاما الاولى الى الهند وقاد الرحلة التى أبحرت من « مالندى » في ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨م متجهة الى الهند فوصلت « قاليقوط » أو « كاليكوت » على الشاطىء العربي لشبه القارة الهندية في ٢٠ مايو من نفس العام ، أى بعد حوالى شهر ، ولأول مرة وبفضل خبرة أحمد بن ماجد الملاح العربي الخليجي تمهد الطريق البحرى من أوروبا الى ثروات الشرق الأقصى التى كان الاوروبيون يتحرقون شوقا اليها ، وإن كان لهذا الحدث تأثير مضاد على الشرق ، فالشعوب المطلة على المحيط الهندى قاست بعدها من ويلات القراصنة والمحتلسين والمستغلين ذوى المآرب الهادفة الى الغنى عن طريق الثروة الموجودة على اليابسة ، وكل هذا مصحوب بإرساء قواعد السيطرة البرتغالية في المنطقة الممتدة من شرق أفريقيا الى الهند[١]

ونتيجة لأفعال البرتغاليين في شرق أفريقيا وفي الخليج العربي وفي الهند من أعمال تتصف بالبربرية كقتل الناس وتدمير المدن المرد هرة ، فقد شعر أحمد بن ماجد بتأنيب الضمير على قيامه بارشاد سفن حملة فاسكودى جاما من شرق أفريقيا الى الهند وقد سجل مشاعره الحربية هذه في صورة شعرية تنطق مصورة أعمال المستبدين البرتغاليين كما تنطق بعذاب ماجد المصحوب عليه والحسرة والندم على ما أقدم عليه والنقمة والغضب على البرتغاليين

وقد جاء في شعره

وجاالكاليكوت حد دي الفايدة
لعام تسعماية وست رايده
وباع فيها واشترى وحكما
والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس في خوف واهتمام
وانقطع المكى عن أرض السامرى
وشد جرد افون للمسافرى

وخبـرني مـا حملـه الفـرنجـي
من جـانب السـودان شط اللجي
وهـو الـدي قـد قهـر المعـارنـة
وانـد لس في حكمه مـاسـة[11]

وهكذا يتضح ان أحمد بن ماجد الملاح العربي ، هو الذي قاد سفن حملة فاسكودى جاما الأولى من شرق أفريقيا الى الهند ، ولا يمكن القاء اللوم على ابن ماجد لما قام به نحو البرتغاليين فلم يكن يعلم أن هذه الحملة مقدمة لحملات عسكرية معادية للعرب المسلمين في هذه المناطق سواء في الجزيرة العربية أو في شرق أفريقيا أو في الهند

كما لا يمكن لنا الموافقة على ما جاء في مخطوط « قطب الدين النهر والى » كاتب القرن السادس عشر من أن كبير الفرنج (فاسكودى جاما) صاحب أحمد بن ماجد وعاشره في السكر فأعلمه الطريق الى الهند في حالة سكره ، اذ لا يعقل أن يقوم ملاح بارشاد وقيادة سفن وهو في حالة السكر[12]

وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة عمل معظم أفرادها بالملاحة ، فاذا كان قد أطلق على نفسه لقب « المعلم » فقد كان أبوه وجده « معلمين » ، والمعلم في مصطلح أهل البحر الشخص الذي له المام تام بالسفن أو بعاطسها اذا كان كبيرا أو صغيرا وله دراية بعلم الفلك ، وقدرة على تحمل المسئولية في قيادة السفينة وسلامتها وأمن من معه من العاملين على السفينة ، كما يكون على معرفة بمواقع المواني والشواطيء المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة والهضاب والجبال ، وعليه ان يكون أخر من يترك السفينة في أى ظرف كان[13]

وإذا كان أحمد بن ماجد قد أرخ لقدوم فاسكودى جاما الى ماليندى والهند عام ٩٠٦هـ الموافق لعام ١٤٩٨م ، فقد ذكر عن قدوم الحملات البرتغالية بعد ذلك وخاصة عامى ١٥٠٠ و ١٥٠١م فيقول

وبعـد ذا من عـام تسـعمـايـة
وست جـاءوا الهـند يـا اخـايـة
واشتـروا البيـوت ثـم سكنـوا
وصـاحبـوا وللسـوامـر ركنـوا
والنـاس تضرب فيهم الظنـونـا
ذا حـاكـم او سـارق محبـونـا
وتضرب السكـة وسط البنـدر
بنـدر كـاليكـوت بـين السفـر
يـا ليت شعـرى مـا يكـون منهم
والنـاس معجبـين من أمـرهم[14]

وهكذا أثبت أحمد بن ماجد قدرته على متابعة الاحداث منذ مقابلته لفاسكودى جاما في مدينة ماليندى الأفريقية ومصاحبته إياه في رحلته الأولى الاستكشافية الى ساحل الملبار بالهند ثم متابعة ما أحدثه البرتغاليون من سلوك يتنافى مع التحضر الذي ادعوه عند قدومهم حين هاجموا المدن الاسلامية والسفن الاسلامية سواء بشرق أفريقيا أو في البحر الاحمر والبحر العربي أو في ساحل الهند العربي أو في الخليج العربي

ورغم أن أحمد بن ماجد أرشد

البرتغاليين الى طريق الهند ، فإنه لم يكن يعرف الا انهم جاءوا للتجارة ولم يكن يعلم بنواياهم التدميرية ضد العرب والمسلمين ، ويكفي ابن ماجد فخرا أنه المواطن الخليجي ، الذي ينتسب الى جلفار ـ رأس الخيمة ـ شهرته الملاحية في ركوب البحر لمدة ذكرها في أراجيزه تزيد عن خمسين عاما

رأس الخيمة (الخليج العربي)):

رأس الخيمة أقيمت مكان مدينة جلفار القديمة ، وقد أخذت رأس الخيمة مكان جلفار في زعامة البحر ، أي ان رأس الخيمة حلت محل جلفار اسما ومعنى[١٥] وتقع أطلال جلفار القديمة شمال رأس الخيمة بين الرمس والمعيرض ، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية لفارس واليها ينسب الملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد ، كما سبق أن ذكرنا

ومن الناحية الجغرافية فإن رأس الخيمة هي أولى المشيخات من ناحية الشرق أو بالأحرى هي أقصى جزء من المشرق العربي ، وتقع بين خطي عرض ٢٥ و ٢٦ شمالا وخطي طول ٦٠.٥٥ شرقا . وتطل على مشارف مدخل الخليج العربي ، ومضيق هرمز باب السلام ، وتكثر فيها المزارع والبساتين والاشجار البرية التي تضفي على المنطقة جمالا طبيعيا تجتذب سكان الساحل العماني ، وتتمتع مدينة رأس الخيمة بمركزمهم على الساحل العماني من حيث الموقع والطبيعة الجغرافية اذ يشق المدينة لسان مائي عميق (خور) يعتبر ملجأ للسفن ومراكب الصيد

وتوجد برأس الخيمة عدة اثار لها جذورها التاريخية منها حصن ضاية ، وهو حصن جبلي يقع في المنطقة الجبلية الى الشرق من بلدة الرمس ، ومنها قصر الزباء الذي يقع فوق مرتفع جبلي أيضا ومن بقاياه اجزاء من السور المحيط وبعض البرك وخزانات المياه ، واحدى الغرف والقاعات ومنها اثار مدينة جلفار الباقية بعد معارك الاساطيل الغازية للمدينة[١٦]

وقد تعرضت رأس الخيمة (جلفار) للغزو من جانب البرتغاليين اوائل القرن السادس عشر بعد ما سيطروا على مياه المحيط الهندي في اطار الهجوم على مملكة هرمز الاسلامية المزدهرة وبقية مشيخات الخليج ، فقد كانت مملكة هرمز تقع عند مدخل الخليج العربي في اتصاله بالمحيط الهندي وتضم جزيرة هرمز وما يحيط بها من جزر صغيرة بالاضافة الى الشريط الساحلي العربي المواجه لها

وكانت سياسة الفونسو البوكيرك الاستعمارية تقوم على أساس ان استخلاص الهند للبرتغال وحدها لن يتحقق الا بالقضاء على الكيانات العربية والاسلامية بالخليج العربي والبحر الاحمر ومن ثم حاول الاستيلاء على مسقط عام ١٥٠٧م ثم

تحول الى هرمز حتى انتصر على ملكها وفرض عليه دفع اتاوة سنوية للبرتغال ، وفي عام ١٥١٥م أصبح للبرتغال قلعة في هرمز تشرف على مدخل الخليج وتؤكد سيطرة البرتغال على هرمز وبناء القلاع البرتغالية يحقق استراتيجية البوكيرك الرامية الى السيطرة على المناطق الافريقية والهندية والخليجية دون أن تتحمل البرتغال تكاليف انشاء مستعمرات

واتبع البوكيرك سياسة عدوانية تخريبية ضد السفن والموانى العربية ، خاصة بعد أن استولى على سوقطرة الواقعة بالقرب من مدخل البحر الاحمر الجنوبى عام ١٥٠٧م وأقام بها حصنا عسكريا للبرتغاليين يهاجمون منه السفن العربية المتجهة للبحر الاحمر ، ويهاجم الساحل العربي الجنوبى حتى رأس الحد بالساحل العمانى الذي كان خاضعا لسيادة مملكة هرمز فهاجمه وأضرم النار فيه وأغرق سبع عشرة سفينة كانت راسية بميناء رأس الحد ، ثم هاجم مدينة مسقط وضربها بالمدافع فأحرق كثيرا من مبانيها ومسجدها وجميع السفن الراسية بالميناء ، وأخذ من أهلها أسرى كثيرين استخدمهم في سفنه وترك الاطفال والنساء والرجال الضعاف بعد أن شوههم أوجدع أنوفهم وقطع اذانهم وكانت مسقط تخضع لمملكة هرمز وتدفع جزية لملك هرمز(١٧)

وكان الهجوم البرتغالى على مسقط - رغم عدم الاستقرار بها - بمثابة إنذار لمملكة هرمز التي قاومت ما وسعتها المقاومة حتى اضطرت لتوقيع اتفاق مع البوكيرك كما ذكرنا يدفع بموجبه ملك هرمز اتاوة سنوية ويسمح باقامة حصن برتغالى في اراضى المملكة وكان هذا الاتفاق بداية سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج ، تلك السيطرة التى استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، على الرغم من الثورات التى لم تتوقف من الأهالى وسكان الساحل العربي المواجه للجزيرة

وبعد عام ١٥١٥م تاكدت السيطرة البرتغالية على مملكة هرمز ، ونجح البوكيرك في هذه السنة في الاستيلاء على جزيرة قسم الى جانب جزء من ساحل فارس الى الشمال والشمال العربي من هرمز وذلك من أجل تقوية مركزه في الخليج ولتأمين التموين من مياه الشرب والمواد الغذائية للقاعدة البرتغالية في هرمز(١٨) وبذلك سيطر البرتغاليون على الموانى الرئيسية على جانبى الخليج ، فكانت هرمز على الجانب الفارسى ومسقط والبحرين على الجانب العربى قواعد ارتكازهم الاساسية الى جانب السيطرة على مياه الخليج واحتكار الاتجار فيه وأخذ البرتغاليون ينظمون العمليات التجارية في المنطقة باجازات يمنحونها ، ويتحكمون في مدخل الخليج عن طريق قلاعهم القوية في هرمز ولهذا أصبح من المتعذر على أى من مشيخات الخليج وأقطاره تحدى قوة البرتغال البحرية خلال تلك

الفترة[١٩]

وتأكيدا للسيطرة البرتغالية في المنطقة فقد نقل البوكيرك مركز القيادة والسيطرة من كوشين الواقعة جنوب ساحل الملبار الى ميناء جوا Goa الواقع وسط هذا الساحل والذي أصبح منذ عام ١٥٠٩م قاعدة البرتغاليين الرئيسية في شبه القارة الهندية ومن هذا الموقع اندفعوا أكثر ناحية الشرق الى جزر التوابل (اندونيسيا والملايو) ليؤسسوا لمائة السنة التالية احتكارا لتجارة التوابل مع أوروبا قائما على المحطة التجارية الكبرى التي أسسوها في ملقا Malacca[٢٠] منذ عام ١٥١١م

ومنذ نقل البوكيرك مقر إدارة الممتلكات البرتغالية في الشرق الى ميناء جوا عام ١٥١٠م ازدادت التوسعات البرتغالية المقرونة بالارهاب والقسوة ، مما جعل سلطان كجرات الهندي يوافق على اقامة محطة برتغالية تجارية وحصنا للبرتغاليين في ديو ، كما عقدت كاليكوت صلحا معهم وسمحت لهم باقامة قلعة في أراضيها ، ومن جوا اتجه الى احتلال ميناء ملقا ـ كما ذكرنا ـ الذي يعد من أهم الموانئ التجارية في العالم حيث كانت أهم المراكز لتجميع منتجات الهند الشرقية وغيرها من مناطق الشرق الاقصى حتى الصين شرقا[٢١]

وكان البوكيرك قد حدد النقاط الرئيسية التي تكون قواعد امبراطوريته الجديدة والتي تتمثل ـ هذه المراكز ـ فيما يلي

١ ـ هرمز للسيطرة على منافذ الخليج العربي

٢ ـ سوقطرة أو عدن للسيطرة على مدخل البحر الاحمر الذي كان يمثل طريق الاتصال مع أوروبا عن طريق برزخ السويس

٣ ـ ملقا للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الذاهبة أو القادمة من المحيط الهندي والشرق الاقصى

٤ ـ سيلان وجوا في الهند لتكون مركز القيادة والمراقبة والادارة للحكام البرتغاليين في المنطقة[٢٢]

وكانت السيطرة على الخليج العربي ـ كموقع متوسط ـ تمثل أهمية كبرى للبرتغاليين ومن تم تضررت أقطاره من السياسة البرتغالية الارهابية القاسية ومنها مدخل الخليج حيث موقع رأس الخيمة الحالية

الهند :

كانت الهند معروفة لدى أوروبا منذ أقدم عصور التاريخ ، وما وصول الاسكندر الاكبر الى هذه البلاد سوى دليل معرفة الأوروبيين بالهند وحضارتها القديمة ، ولذلك لاريب ان وصول فاسكودي جاما الملاح البرتغالي على رأس حملة بحرية الى ميناء كاليكوت على الشاطىء الجنوبي الغربي للهند في ٢٧ مايو عام ١٤٩٨م

يسجل نقطة تحول في تاريخ بلاد الهند وأوروبا(٢٣)

وفي كاليكوت استقبل حاكمها الراموررين فاسكودى حاما ورحاله متسائلا عن سبب محيئهم الى بلاده فأجاب فاسكودى حاما بإيجاز « المسيحية ثم البهارات » ولذلك عندما عاد الى لشبونة بحملته كانت سفنه محملة بشحنة كبيرة من البهارات والاحجار الكريمة ، ثم عاد البرتغاليون في السنوات التالية وأنشأوا أول مستعمرة لهم في « كوتشين » الى الجنوب من كاليكوت وكان مجيء فاسكودى حاما الى كاليكوت قبل دخول بابر الى دلهى بنحو ثلاثين سنة(٢٤)

وكان يحكم الهند في تلك الفترة ملوك الطوائف بعد غزو تيمور لنك لشبه الجزيرة الهندية عام ١٣٩٨م الذي ادى الى تفكك الدولة الاسلامية التى بدأ تأسيسها على يد محمود الغزنوى أواخر القرن الرابع الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، والتي أصبحت في أيدى الغوريين في القرن السادس الهجرى الموافق للقرن الثانى عشر الميلادى ، ثم المماليك وأولهم قطب الدين أيبك أوائل القرن السابع الهجرى الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى ، وغير هؤلاء مثل الخلجيين وآل تغلق حتى ظهور ملوك الطوائف أوائل القرن التاسع الهجرى الموافق لأوائل القرن الخامس عشر الميلادى

ويهمنا من امارات الهند تلك التى كان لها علاقات بالبرتغال ، وأعني تلك الواقعة غرب شبه القارة الهندية على ساحل الملبار ، ومن هذه الامارات « الكجرات » التى تعد ثانى امارات الهند الاسلامية بعد « دهلى » حيث كانت باب التجارة الهندية العربي منذ القدم ومنفذها الى أفريقية وآسيا ، فمن شاطئها عند « سورات » وخليجها « كمباى » كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وتمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة الى اوروبا عبر الخليج العربي والبحر الاحمر

والى سلطان الكجرات محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، الذي يعد أعظم حكامها يرجع الفضل في مقاومة الوجود البرتغالى بساحل الهند العربي ، ذلك الوجود الذي كان معاديا للاسلام والمسلمين ، مما دفع بالسلطان محمود أن يستنجد بالسلطان المملوكي قانصوه الغورى في مصر لمحاربة هؤلاء الدخلاء الذين كانوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج(٢٥)

وكانت الهند خلال القرن الخامس عشر منقسمة يتنافس حولها سلاطين الأتراك والافغان ويحتفظون للهندوس بالوطائف الصغيرة ، وبعد أن تمكن « بابر » الحفيد الخامس لتيمور لنك ـ من مد حكمه من « سمر قند » الى « كابل » الى « دهلى » اصبحت كل الهند تحت حكمه وحكم حفيده « أكبر » ما عدا أقصى جنوب شبه

القارة الهندية فأصبح الحاك الاعظم ، وبذلك تمكن أحفاد المغول من حكم الهند ، التي صارت امبراطورية المغول الكبرى التي بلغت مساحتها مليون ونصف مليون كيلومتر مربع وبلغ عدد سكانها مليون نسمة[٢٦].

وكان ساحل شبه القارة الهندية العربي يخضع لبعض الأمراء الصغار وهي المنطقة المعروفة باسم « مليبار » أو « كيرالا » الممتدة من « منجالور » الى «رأس قومورين » وهي منطقة الفلفل المثلى التي ظلت السفن زهاء ألفى سنة من الزمان تقلع منها دون توقف الى الخليج العربي والبحر الاحمر وكان أهم حاكم بتلك المنطقة هو الزامورين صاحب كاليكوت التي كانت المركز الاساسي لتجارة التوابل سواء المنتجة من شبه قارة الهند أو المنقولة اليها من جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى وكل ذلك جعل كاليكوت تعيش عصر رخاء

وبسبب موقع كاليكوت استفادت من الرياح الموسمية في منطقة المحيط الهندى كما كان لها علاقات بتجار القاهرة والاسكندرية ومدينة فاس المغربية ، ورغم أن الزامورين كان هندوكيا الا أن علاقته بالمسلمين كانت جيدة ، ولذلك كان له دور مع المسلمين في مقاومة الوجود البرتغالي في المياه الهندية ذلك الوجود الارهابي الذي مثله كل من فاسكودى جاما في رحلته الثانية وكابرال وفرنسسكو ألميدا وافونسودا البوكيرك[٢٧]

وذلك أنه نتيجة للروح العدائية الصليبية التي يكنها البرتغاليون للمسلمين فقد استجاب السلطان المملوكي قانصوه الغوري سلطان دولة المماليك في مصر والشام الى دعوة الامراء الهنود والعرب فأقام ترسانة بحرية في السويس لاعداد اسطول يتجه الى المياه الهندية للتعامل مع الغزو البرتغالي للمنطقة ، الى جانب انشاء دور ـ للصناعة في كل من الروضة وبولاق بمصر[٢٨]

وعندما تهيأت القوة للقتال التي أمر الغورى باعدادها عين لقيادتها الامير حسين الكردى ، وخرجت من القاهرة في ٦ جمادى الآخرة عام ٩١١هـ الموافق لعام ١٥٠٥م الى بلاد الهند لمحاربة البرتغاليين واجلائهم عن المراكز التي نزلوا بها في الشواطىء الهندية ، الى جانب تحصين ميناء جدة وعدن وسواكن وعندما وصلت الحملة الى الهند تحالف الامير حسين الكردى مع بعض الامراء الهنود مثل أمراء كجرات وبيجامور وأحمد باجايال وكاليكوت وكمران واستطاعوا الحاق الهزيمة بالبرتغاليين في شوال ٩١٤هـ الموافق لعام ١٥٠٨م ، ولكن التحالف المملوكي الهندى استقر بجزيرة ديو حيث فاجأهم فرنسسكو ألميدا بهجوم خاطف انتصر فيه على هذا التحالف في ٣ فبراير ١٥٠٩م الموافق لعام

٩١٥هـ ، واصطر الامير حسين الكردى للانسحاب بما سلم من سفنه الى حدة[٢٩]

وكان للخيانة دور في هزيمة التحالف الملوكى الهندى وقد تمثلت الخيانة فى أن «مالك إياس» وهو أوروبي حاكم ديو من قبل ملك جوجيرات (أو كجرات) انضم سرا الى البرتغاليين وحرم الامير حسين الكردى من المدد والمؤن ، فاضطر حسين الكردى أن يعتمد فى مدده على سفن الراموريين ونتيجة لانسحاب حسين الكردي بعد هزيمة ٣ فبراير ١٥٠٩م تأكدت ادعاءات البرتغاليين بانهم سادة الملاحة في البحار الشرقية[٣٠] واستمرت سياسة البرتغاليين فى محاربة الاسلام والمسلمين متعاونين فى ذلك مع بعض الامراء الهندوس ، ومن ذلك تأخر سقوط ديو تحت سيطرة البرتغاليين الى عام ٩٤٢هـ الموافق لعام ١٥٣٥م وبعد معركة ديو تم تعيين إفونسودا البوكيرك نائبا للملك البرتغالى في كوشين بدلا من فرنسسكو الميدا[٣١]

تعليق :

وهكذا يتضح الدور البرتغالى الاستعمارى فى الشرق سواء بشرق افريقيا أو في الهند مرورا بالبحر الاحمر والخليج العربي ، وحيث كان هذا الدور البرتغالى معاديا للاسلام والعرب فقد قاسى منه عرب الخليج كما قاسى منه مسلمو شرق أفريقيا وشبه القارة الهندية ، واستمرت هذه المعاناة أكثر من قرن ونصف حتى تم إجلاء البرتغاليين عن منطقة الخليج العربي وإن ظلوا يعتبرون مدينة جوا الهندية مركزا استعماريا لهم حتى الربع الأخير من القرن العشرين

وإذا كانت مدينة رأس الخيمة بزعامة القواسم قد ظهرت ككيان سياسى منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادى فإن تاريخها القديم شاهد على وجودها وإن كان باسم جلفار ، ذلك الاسم الذي حمل شهرة أحد أبنائه ليث البحر شهاب الدين أحمد بن ماجد الملاح الذي ذاع صيته طوال القرن الخامس عشر الميلادى ، وعندما نتابع نشاط الملاحين القواسم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فى عملياتهم البحرية الحربيئة التى نعرفها باسم الجهاد البحرى الاسلامى ضد السفن المعادية للاسلام والمسلمين ، نتذكر احمد بن ماجد ومن جاء من بعده في مواجهة الارهاب البرتغالى فى الخليج العربى والمحيط الهندى

وعندما نلاحظ الآن توترا بين المسلمين والهندوس في شبه قارة الهند نتذكر تلك الايام الخوالى قبل واثناء الغزو البرتغالى لساحل الملبار بالهند واتفاق الهندوس مع البرتغاليين ضد المسلمين

د. رافت غنيمي الشيخ
استاذ التاريخ الحديث المعاصر
جامعة الزقازيق ـ مصر

الهوامش

١ ـ ل م ساپيكار اسيا والسيطرة العربية ـ ترجمة عبدالعزيز توفيق حاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٥

٢ ـ جيمس دفي ترجمة الدسوقي حسين المراكبي الاستعمار البرتغالي في افريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٣

٣ ـ د رافت عبيمي الشيخ افريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤

٤ ـ د زاهر رياض استعمار افريقيا ص ٢٢

٥ ـ د رافت الشيخ افريقيا في التاريخ المعاصر ص ١٩

٦ ـ د رافت الشيخ افريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ ـ ٥٥

٧ ـ احمد بن ماجد ثلاث أزهار في معرفة البحار ص ٨٤

٨ ـ نفس المرجع ص ٤٠

٩ ـ د رافت الشيخ افريقيا في التاريخ المعاصر ص ٢١

١٠ ـ أحمد بن ماجد المرجع السابق ص ٨٦ ـ ٨٧

١١ ـ نفس المرجع ص ٤٣

١٢ ـ نفس المرجع ص ٨٧

١٣ ـ د حسين أمين احمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية من أبحاث ندوة راس الخيمة التاريخية ـ اغسطس ١٩٨٧م

١٤ ـ أحمد بن ماجد المرجع السابق ص ٨٨

١٥ ـ سالم بن حمود السيابي ايضاح المعالم في تاريخ القواسم ، مراجعة احمد التدمري ـ رأس الخيمة ١٩٧٦م ص ١٩

١٦ ـ نفس المرجع ص ٢١ ـ ٢٧

١٧ ـ وزارة الاعلام والثقافة مسقط عمان وتاريخها البحري ص ٥٨

١٨ ـ لوريمر دليل الخليج مجلد اول

١٩ ـ

٢٠ ـ المرجع السابق ص ٢١

٢١ ـ د السيد مصطفى سالم الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤م ص ٦٧

٢٢ ـ محمد عدنان مراد صراع القوى في المحيط الهندي والخليج

العربي - جدوره التاريخية وابعاده القاهرة ١٩٨٤م ص ١٣٠

٢٣ - ك م بانيكار المرجع السابق ص ١٩

٢٤ - محمد مرسي أبو الليل *الهند تاريخها ، تقاليدها ، جعرافيتها ، القاهرة* ١٩٦٥ ص ١٧٧

٢٥ - أحمد محمود الساداتي تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم حران ، القاهرة ١٩٥٧ جزء أول ص ١٨٢ - ١٨٣

٢٦ - د حلال يحيى التاريخ الأوروبي الحديث ، الاسكندرية ، ص ٣٩٢

٢٧ - ك م بانيكار المرجع السابق ص ٣٦ - ٤٢

٢٨ - د أحمد محتار العبادي تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام حامعة بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢٣

٢٩ - د محمد عبدالعال البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٤٩٨

٣٠ - ك م بانيكار المرجع السابق ص ٤٤

٣١ - د السيد مصطفى سالم المرجع السابق ص ٦٤

المراجع

١ ـ صالح محمد العابد دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠م بغداد ١٩٧٦

٢ ـ سالم حمود السيابي إيضاح المعالم في تاريخ القواسم مراجعة أحمد التدمري رأس الخيمة ١٩٧٦م

٣ ـ محمد مرسى أبو الليل الهند ، تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة (الألف كتاب) ١٩٦٥م

٤ ـ ك م بانيكار ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد مراجعة أحمد خاكي آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة ١٩٦٢م

٥ ـ د أحمد محمود الساداتي تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزان ، القاهرة ١٩٥٧م

٦ ـ جيمس دفى ترجمة الدسوقى حسين المراكبى الاستعمار البرتغالى في افريقيا القاهرة ١٩٦٣م

٧ ـ د السيد مصطفى سالم الفتح العثمانى الأول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م) القاهرة ١٩٧٤م

٨ ـ د أحمد مختار العبادى تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، جامعة بيروت ١٩٧٢م

٩ ـ د محمد عبدالعال البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه الاسكندرية ١٩٨٠م

١٠ ـ د رأفت غنيمي الشيخ افريقيا في العلاقات الدولية ، القاهرة ١٩٧٥م

١١ ـ د رأفت غنيمي الشيخ افريقيا في التاريخ المعاصر القاهرة ١٩٨٥م

١٢ ـ د زاهر رياض استعمار أفريقيا القاهرة ١٩٧٢م

١٣ ـ احمد بن ماجد ثلاث ازهار في معرفة البحار مخطوط تحقيق المستشرق الروسى شوموفسكي ترجمة وتعليق د محمد منير مرسى القاهرة ١٩٧٤م

١٤ ـ د حسين أمين احمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية ، من ابحاث ندوة راس الخيمة التاريخية اغسطس ١٩٨٧م

١٥ ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ مسقط سلطنة عمان ـ عمان وتاريخها البحرى

١٦ ـ لوريمر دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ الجزء الاول تعريب ونشر الديوان الاميرى القطرى

١٧ ـ محمد عدنان مراد صراع القوى في المحيط الهندى والخليج العربي ، جذوره التاريخية وابعاده ، القاهرة ١٩٨٤م

ابن ماجد وشرق أفريقيا

دراسة من خلال مؤلفاته



لا أريد بهذه المقدمة ان أؤرخ للعلاقات العمانية الافريقية ، وانما الهدف هو تقديم موجز عن علاقات عمان بشرق افريقيا من حيث دوافعها واسبابها وطبيعة هذه العلاقة ولكي أصل منها الى اهتمام ابن ماجد الكبير بشرق افريقيا وصلته بها والواقع انني لا أتي بشيء جديد اذا ما قلت أن علاقة العرب بشرق افريقيا بدأت منذ وقت مبكر قبل الاسلام ، وكان العمانيون فضلا عن اليمنيين والحضارمة «أول رواد لساحل أفريقيا الشرقي» وأكثر تأثيراً في المنطقة من اي فريق آخر

وقد ساعدت عوامل عدة على الاتصال بين العمانيين وسكان شرق افريقيا يأتي في مقدمتها العلاقة المكانية المتأتية من موقع عمان الجغرافي المهم ، فهي تمتد مواجهة للخليج العربي والمحيط الهندي ، وتقع على طريق التجارة البحرية التي تأتي من أسواق المحيط الهندي ، وهذا ما جعلها مركزا لتجميع السلع الآتية من افريقيا ومن الهند والصين الى انحاء العالم المعروف آنذاك (١)

فالتجارة هي التي حملت العمانيين الى افريقيا ، وبحكم نمو التبادل التجاري بين الطرفين وصلت مراكب العمانيين الى مناطق سفالة (موزمبيق) والواق واق - آخر أرض الزنج (٢)

الدكتورة صباح
ابراهيم الشيخلي

علاقات عمان بشرق أفريقيا حتى القرن ١٠هـ/١٦م

ان ارتباط الشاطيء العماني بالبحر منذ وجوده ، جعل من شعبه ملاحين مهرة وأصحاب سفن قاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط الى الاراضي في شرق افريقيا ، فقد ذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن «أهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربرى) الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار الزنج والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن الخليج المعروف بالبربري ، وهم يعرفونه ببحر بربري .. موجه عظيم كالجبال الشواهق ... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من اهل عمان عرب من الأزد وينتهي هؤلاء في بحر الزنج الى قنبلو على ما ذكرنا» والى بلاد سفالة والواق واق من اقاصي أرض الزنج وأسافل من بحرهم ... [illegible] ركبت هذا البحر من مدينة [illegible] بلاد عمان» (٣)

ان اشارة المسعودي هذه [illegible] دليلا قاطعا على وجود [illegible] ونشطة بين عمان وشرق [illegible] أصحاب السفن العمانيين [illegible]

بمراكبهم الى اقصى جهات الساحل الشرقي لافريقيا

ومما ساعد عرب عمان في التوجه البحري والتجاري نحو شرق افريقيا معرفتهم الجيدة بالبحر وطرق الملاحة وقوانينها ، ولا سيما الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي ، والتي مكنت سفنهم الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود - ففي الخريف تدفع الرياح نحو الجنوب الغربي فتخرج السفن من خليج عمان الى المحيط الهندي ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقي وفي الربيع تدفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن من العودة الى قواعدها في ساحل عمان وهكذا استغل أهل عمان مهارتهم البحرية فاندفعوا الى الشرق الافريقي خدمة لأغراضهم التجارية[٤]

وفضلا عن ذلك فقد أسهمت الاوضاع السياسية والدينية بعد تكوين الدولة العربية في عمان في هجرة الكثير من العمانيين الى شرق افريقيا والاستقرار فيها لبعد هذه المنطقة عن الاحداث في الخليج العربي ففي النصف الاول من القرن الاول للهجرة/ السابع للميلاد ، وبعد انتفاضة حكام عمان الازديين من آل الجلندي على حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، هاجر سليمان وسعيد ابنا الجلندي مع بني قومهم الى شرق افريقيا ، بعد هزيمتهم على يد جيش الخليفة الذي أرسله الى عمان بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي عامله على العراق من أجل اخضاع عمان لسلطة الخلافة أولا ومن أجل السيطرة على الطريق التجارية البحرية التي تربط عمان بالشرق الاقصى من جهة وشرق افريقيا من جهة أخرى[٥]

ويعتقد أن هذه هي أول هجرة عربية الى مناطق الساحل الشرقي لافريقيا وهذا يعني أن العمانيين أول من أقام مستعمرات لهم في هذه الجهات[٦]

ولا نعرف على وجه الدقة المكان الذي استقر فيه هؤلاء الازد ، ولكن المعروف أنهم أقاموا في باتا (احدى جزر أرخبيل لامو شمالي كينيا ، بل تذهب الروايات الى أنهم أسسوا مدينة باتا[٧]

أما الهجرة العمانية الاخرى المهمة الى شرق أفريقيا فهي هجرة الاسرة النبهانية والمعروف أن القبائل النبهانية كانت قد فرضت سيطرتها على عمان في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وبعد خلافاتهم مع اليعاربة وانهيار دولتهم هاجر النبهانيون (عام ٦٠١هـ/١٢٠٣م) ، بزعامة سليمان النبهاني الى شرق افريقيا واستقروا في مدينة باتا وقد تزوج الحاكم النبهاني من ابنة حاكم باتا العربي الباتاوي وأصبح حاكما على المنطقة ، كما أن باتا نفسها أصبحت مركزا للسلطة النبهانية التي استحوذت على ساحل افريقيا الشرقي وعدت باتا في

القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أقوى دولة على الساحل، وانتعشت فيها حركة التجارة، وظلت هكذا حتى القرن التاسع عشر الميلادي [٨]

وبذلك يكون العمانيون قد نجحوا في مد سلطانهم إلى ساحل افريقيا الشرقي واقامة امارات تابعة لهم

وفي ضوء العلاقات الوثيقة لعمان بشرق افريقيا، يبدو طبيعيا أن يكون لرحل البحار ابن ماجد العماني اهتمام كبير بها، وهذا ما سنحاول بحثه في الصفحات التالية

ابن ماجد وشرق افريقيا:

دفع اهتمام العمانيين باقامة علاقات بحرية وتجارية وسياسية مع شرق افريقيا، البعض من رحالها لدراسة قواعد واصول الابحار اليها بل وتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات عنها، والى هذه المجموعة ينتسب ابن ماجد

لا نجد صعوبة في التعرف على ابن ماجد، فهو يعرف بأصله ونسبه وثقافته ونتاجه العلمي الذي يعد اسهاما مهما في مجال الحضارة الانسانية فاسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي [٩] ويدل نسبة على أن أصل أسرته من وسط الجزيرة العربية من نجد في الحجاز أما هو نفسه فمدينته جلفار (عمان سابقا ورأس الخيمة حاليا) [١]

وينحدر ابن ماجد من اسرة ربابنه، فقد ورث العمل في البحر من جده وأبيه فقد كان جده ملاحا مشهورا، أما أبوه فقد كان يلقب (بربان البحرين)، وقد دون تجاربه الملاحية في مصنف ضخم هو (أرجوزته الحجازية) [١١]

ونشأ ابن ماجد وترعرع في بيئة بحرية وأسرة اهتمت بالبحر، فأثر ذلك في اختيار مهنته كملاح يركب البحار الى آخر أيام حياته التي عاشها في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، مع العلم أننا نجهل تاريخ ميلاده أو وفاته

كانت شرق افريقيا واحدة من الجهات التي، قصدها ابن ماجد وهو يقود مركبه في البحار [١٢]

أما متى بدأت علاقته بشرق أفريقيا، فليس لدينا أي إشارة عن ذلك، ولكن من الواضح انها بدأت مع بداية اهتمامه بالبحر وركوبة فيه، والمعروف أن ابن ماجد كان قد تولى قيادة المراكب وهو بعد حدث صغير مع أبيه وهو في سن العاشرة من عمره، وعند بلوغه سن العشرين تولى مسؤلية المركب مسؤولية تامة [١٣]

فقاد سفن المسافرين والتجار من عمان الى شرق افريقيا

ان زيارات ابن ماجد الى شرق افريقيا التي لا تعد ولا تحصى، ولمدة تزيد على نصف قرن، قد اكتسبت تجربة عميقة عن المنطقة وسكانها، وحكامها ومنتجاتها، وجغرافيتها،

وفنون الملاحة البحرية في مياهها، كما انها اطلعته على ما عند سكان المنطقة من معرفة ملاحية وجغرافية للمياه والسواحل وقد أخذ منها الصحيح وانتقد الخطأ وصوبه [١٤]

كانت تجربة ابن ماجد الشخصية الغنية في مسالك البحار (وضمنها مياه شرق افريقيا)، فضلا عن تجربة جده وابيه التي أخذها، قد أغنتها اطلاعاته الواسعة على عدد من مؤلفات من سبقوه في ميدان اختصاصه [١٥] فضلا عن المؤلفات الاخرى في ميادين متعددة [١٦] فقد واظب ابن ماجد على طلب المعرفة التي نذر نفسه لها واجتهد في سؤال معاصريه طوال حياته [١٧]

بدأ ابن ماجد، وبما أحرزه من تجربة شخصية طويلة، بتحبير مؤلفاته شعرا ونثرا عن المناطق التي رحل اليها ومن بينها شرق افريقيا، والتي اثبت فيها مقدرة نادرة في معرفة سواحل المحيط الهندي، ونال الحظوة عند بعض حكام شرق افريقيا [١٨]

مؤلفات ابن ماجد عن شرق افريقيا:

ذاع صيت ابن ماجد ليس كملاح محنك بل ككاتب كثير الانتاج أيضا وقد بقي من مؤلفاته الى اليوم ما يربو على الاربعين مؤلفا شعرا ونثرا والمهم في الامر ان ابن ماجد قد خصص نصيبا مهما في مؤلفاته عن شرق افريقيا

وفي كتابه «الفوائد في اصول علم البحر والقواعد» يجد الباحث شذرات مهمة وطريفة عن شرق افريقيا، وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالنثر

أما تاريخ تدوينه فان ابن ماجد أثناء عرضه للكتاب يذكر عدة تواريخ [١٩] مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف اليه عدة مرات وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول بأن الكتاب قد كتب بين عامي ٨٨٠ - ٨٩٥هـ/ ١٤٧٥ - ١٤٨٩م و يبدأ الكتاب بالتاريخ الاول

ويعكس ابن ماجد في كتابه أحسن ما حصل عليه من خبرات علمية اكتسبها عبر عدة عقود كقائد بحري أثناء رحلاته في المحيط الهندي. كما يستعرض فيه المعلومات الواسعة عندما ينقل عن عدد كبير ممن سبقوه في مضمار الجغرافية و الملاحة والفلك، ومبينا ضعف تآليفهم، فيرى نفسه مدفوعا الى نشر ما عنده خشية الضياع ولكي تستفيد منه الاجيال بعده ويحاول ابن ماجد أن يشعر القارىء بأن ما صنفه في كتاب « الفوائد » قد نال استحسان معاصريه من أهل مهنته وعملوا به واعتمدوا عليه [٢٠]

ويعد ابن ماجد على حق في ذلك، اذ آثار كتابه هذا ليس اعجاب معاصريه فحسب، بل الكتاب المحدثين أيضا، الذين عدوه ذروة ما ألف في مجال الملاحة والفلك، وأول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة[٢١]

وكتاب « الفوائد » مبوب الى اثنى عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها أسم « فائدة »، وتحتوى بعض هذه

الاقسام على معلومات قليلة عير انها مهمة عن شرق افريقيا يمكن حصرها بالآتي

١ ـ في الفائدة الرابعة المخصصة للمبارل وورود الرياح وتسمى (الاحبان) المرتبطة بطلوع نجوم معينة ومغيبها . يشير ابن ماجد الى (الاحبان) الخاصة بالساحل الافريقي التي يجب أن يعرفها ملاحو هذه المياه[٢٢]

٢ ـ في الفائدة التاسعة التي تتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا ، فيها وصف للسواحل، ومنها ساحل افريقيا الشرقي باقسامه المتعددة (بربرا الريح ، سفاله ، وما بعدها) والمدن المنتشره على ساحله[٢٣]

٣ ـ والفائدة التاسعة تهتم ايضا بوصف الجزر الكبار المشهورات والمعمورات حيث نجد ذكرا لبعض جزر شرق افريقيا ، كجزر القمر ، وجزيرة زنجبار[٢٤]

٤ ـ اما الفائدة الحادية عشره التي يتناول الكلام فيها مواسم السفر في البحر ، نجدها تتضمن السفر الى شرق افريقيا[٢٥]

وسوف نفصل في قيمه هذه المعلومات وأهميتها في الصفحات التالية

أما المصنف الثاني الذي خصصه ابن ماجد عن شرق افريقيا ، فهو أرجوزته المسماه بـ (السفالية) ، نسبة الى منطقة سفالة في ساحل افريقيا الشرقي ان هذه التسمية تعكس لنا مدى اهمية شرق افريقيا عند ابن ماجد ، وان هذه الاهمية كانت حجر الزاوية في العلاقات العربية الافريقية في الفترة التي عاشها ابن ماجد أيضا

وتعد « السفالية » صورة كاملة للساحل الافريقي الشرقي ودليلا للملاحه فيه وتنحصر أهميتها ، بالنسبة للموضوع ، في كونها تتضمن معلومات جغرافية وتاريخية ودلالات سياسية في غاية الاهمية ، وذلك فضلا عن الجوانب الاساسية المختلفة للملاحه في مياه شرق افريقيا

ويبين ابن ماجد في سفاليته سبب تأليفه لها والموضوعات التي كتبت فيها واهميتها بقوله

هي سبع مايةْ بيت تريد عنها
عن أحمد السعدي أحفظها
وادع لي في الموت والحياة
من الالة عافر الزلات
نظمتها ولم أر السؤال
كلا ولا رأيت السائل
شتان بين السائل المجود
وبين من لم للسؤال يهتدي
عرفتها حتى نقى ربانها
يسألني عنها وعن شعبانها
وحصني والى البلاد بالسفر
من دون غيري بالهدى والظفر
لاشك ان من يرى بالعين
تركن اليه الناس باليقين
كفى بذا في جودة السؤال
تصورت بالقلب بالكمال
شعبانها والبر والقياس
والريح والموسم ثم الناس

ثم المطارح ودحول الحــرر
حققت بالتدقيق اسم شور
واعبر لها بالحرم والصلاة
على النبى اتحد وصاتى[٢٦]

فاں ماحد لم يؤلف سفاليته المتكويه من أكثر من سبعمائة بيت من الشعر ، الا بعد أن عرف شرق افريقيا وتحصص بالسفر الى تلك البلاد ، وبال الحظوة عبد حكامها الى درحة أبه منح حق السفر اليها دوں عيره لأنه اهتدى الى طرقها وبحح ى الوصول اليها دائما ، فكان دلك سببا في لحوء الباس وربابنة السفن عن قباعة اليه يسألونه أن يصف لهم شرق افريقيا تاركين عيره من الدين يؤمون تلك البلاد عرف اس ماحد تلك المنطقة بالعين المحردة ، فكتب عن موضوعات متنوعة ى سفاليته ، فوصف بر تلك المنطقة وشعابها ، وقياسات ومواسم السفر والرياح التى يحب ان يسافر الباس فيها ، وباس تلك المنطقة، كما دكر المطارح ودحول الحرر ولم يكتب دلك كله الا بعد التحقيق الدقيق ، فحق له بعد دلك أن يطلب ممن يقرأ قصيدته السفالية بأن يدعــو له بالعفران

أما الطريقة التى دوں بها اس ماحد معلوماته عن شرق افريقيا ، فقد اتصفت ـ كما يدكر هو بفسه ى (السفالية) ـ بالشمول ، والصدق ، وصحة المعلومات بسبب علمه الكبير بالمنطقة ومعرفته بها كما سحل ما هو متفق عليه وما يلائم المسافر الى تلك المناطق ويهديه الى بهايتها فاں ماحد بعد دلك محق بأن يعتبر هده (الارحورة) الدليل الوحيد للطريق الى حـــوب الســـاحـــل الافـــريقي الشرقي[٢٧]

اما مصادر كتابته للسفالية فلا بحد لها دكرا ى الارحورة بصورة صريحة ولكن كثيراً ما بحده يشير الى أنـــه أحـــد (عـــں دوى التحارب)[٢٨] وبقل (عن حابر قد حربه)[٢٩] ، (وقيل لى)[٣٠] و (ممن يصدق هدا الحبر)[٣١] فهو ادا لم يحدد مصادره ، وهدا يعنى أنه أحد عمن سبقه ى المهنة من الملاحين ذوى التحارب والمعرفة

كما أنه قرأ المرشدات البحرية ، ولكنه لم يعتمدها كمصدر من مصادر تدوينه للسفالية لانها عديمة الفائدة بعــد تبدل الاسمــاء وتعيرهـــا ى أيامه[٣٢] كما انه أحــد بعض المعلـومات عن الافـــرنـــج (يعني البرتغاليين) بعد وصولهم[٣٣] أما المصادر المتعلقة بتحاربه الحاصة فلها مكان واسع ى سفاليته حيث يسحل اس ماحد مرات عديدة أن الطواهر والموضوعات التى يصفها قد رآها وحبرها بنفسه[٣٤] فصلا عن تحاربه وحبرته الطويلة ى مهنته حمل اس ماحد دلك كله في دهبه عبدما بدأ يكتب عن شرق افريقيا فكان ماكتبه ى مجموعه يمثل صورة كاملة للساحل الافريقي الشرقي ويمكن أن بقسم مادونه عن تلك المنطقة الى قسمين الاول جعرافي وملاحي والثاني تاريخي

معلومات ابن ماجد الجغرافية والملاحية عن شرق افريقيا :
١ـ المعلومات الجغرافية :

يعد الجانب الجغرافي الذي كتبه ابن ماجد عن شرق افريقيا مبنيا على المعلومات المأخوذة والمنقولة من الكتب الجغرافية الوسيطة للجغرافيين العرب فضلا عما عرفه عن جغرافية تلك المنطقة من خلال خبرته الشخصية

قسم ابن ماجد الساحل الافريقي الشرقي الى اربعة أقسام

بربرا ، والزنج ، وسفالة والمنطقة الرابعة ما يقع بعد سفالة من بلاد[٣٥] وهو نفس التقسيم الذي اتبعه الجغرافيون العرب مثل المسعودي في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الحموي في كتابه « معجم البلدان » وابن سعيد في كتابه « الجغرافية » . ولكن مما يثير الانتباه ان الجغرافيين العرب يطلقون على المنطقة الرابعة في تقسيم ساحل افريقيا الشرقي اسم (واق واق) بعدها ارض مجهولة غامضة لم يصلوا إليها[٣٦] ولاترد التسمية عند ابن ماجد بهذه الصورة ، مما يشير الى عدم استعمالها في أيامه والسبب واضح في ذلك وهو وصول العرب المسلمين الى تلك المنطقة ، فلم تعد المناطق بعد سفالة مجهولة غامضة عندهم ، فقد ذكر ابن ماجد عددا من مدنها وجزرها منها مليوبى ، وجوزر مومة ، وملاتى ،[٣٧] وكلوابى ومن جزرها شربوه وجزيرة واره وهي اخر ما وصله العرب في أيام ابن ماجد[٣٨] وبهذا يكون ابن ماجد قد أضاف اضافة مهمة إلى معلومات الجغرافيين العرب الذين سبقوه بخاصة فيما يتعلق بتعريف المنطقة الرابعة وتقسيمها للساحل الافريقي الشرقي

لا نجد في تحديد المناطق الثلاث المتبقية (بربرا ، والزنج ، وسفالة اختلافا واضحا بين ابن ماجد والجغرافيين العرب الذين سبقوه فبلاد بربرا وخليجها (الخليج البربرى) تبدأ في أرض الحبشة وتنتهي ببلاد الزنج سواء عند ابن ماجد[٣٩] أو عند من سبقوه[٤٠] باستثناء أنه أضاف مزيدا من المعلومات عن هذه المنطقة حيث يذكر مدنها ، فبدايتها عنده بندر موسى وجردفون ثم بخد حافون باتجاه الجنوب[٤١]

اما ارض الزنج ، فقد حددها الجغرافيون العرب بصورة دقيقه قبل ان يكتب ابن ماجد عن شرق افريقيا بعدة قرون ، وهى المنطقة الممتدة بين مدينة مقديشيو (في الصومال) الى بلاد سفالة[٤٢] فقد قدر المسعودى مساحة هذه المنطقة بنحو سبعمائة فرسخ بما فيها الاودية والجبال والرمال[٤٣] أما ابن ماجد فقد أعطانا مزيدا من المعلومات عن مدن هذه المنطقة والشريط الساحلى المتكون من عدد كبير من الجزر اذ يتكلم عن مقديشيو وبراوة ومنبسه وكلوه وعن

الجزر الكبيرة مثل زنجبار والعديد من الجزر الصغيرة[٤٤] ومما يثير الدهشة ان ابن ماجد يضفي على منطقة الزنج الممتدة من مقديشيو الى سفالة أسم أرض الحبشة الجنوبية الشرقية[٤٥] وهي تسمية لم ترد عند الجغرافيين العرب الذين سبقوه في وصف هذه المنطقة ويبدو انه أراد بهذه التسمية تحديد موقع المنطقة وكونها جزءا من أرض الحبشة

أما سفالة ، القسم الثالث من الساحل الافريقي الشرقي ، فيسميها ابن ماجد سفال وسفاليه وسفالة[٤٦] وهي أرض الذهب عند من كتب قبله عن سفالة[٤٧] وقد فصل ابن ماجد في ذكر موانئها وجزرها بشكل لم يسبقه إليه أحد

وتتضح معلومات ابن ماجد الجغرافية عندما يصف مدن الساحل الافريقي الشرقي فهو يحدد الموقع ، المسافات بين المدن ، طبيعة الارض والمياه فضلا عن حديثه أحيانا عن المزروعات والحيوانات والثروة المعدنية

كذلك نجده يصف جغرافية الشريط الساحلي المتكون من الجزر سواء أكانت كبيرة أم صغيرة

وعندما يتكلم ابن ماجد عن مدن بلاد الزنج يبدأ بمقديشيو ، ثم ينتقل الى مدينة مركة وبراوة ، حيث نجده يقدر المسافة بينهما بيوم واحد ، فيقول

لمركة ثم الى براوة
تقطعها في يوم بالتلاوة[٤٨]

كما يشير الى شدة الحر في هذه المنطقة ، لاسيما قبل الدخول الى براوة ثم يسير ابن ماجد جنوبا الى مدينة كتاوة (باتا) ، حيث يصف الخور الطويل الذي تقع في بدايته وعلى الجهة اليمنى بالضبط ، والى اليسار من هذا الخور تقع مدينة لامو[٤٩] والمعروف أن باتا (كتاوة) ولامو مدينتان من جزر أرخبيل لامو ومن الصعب الفصل بينهما ، فالاولى كانت العاصمة السياسية والثانية العاصمة التجارية في هذا الارخبيل[٥٠] ولذا نجد أن ابن ماجد قد أشار إلى الاثنين معا

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مالندي ويصف مالندي بأنها واقفة على رأس بحري طويل واضح للمسافر[٥١] والى الجنوب منها مدينة ممبسة الواقعة على ضفة خور كبير تدخله المراكب ، ويصفها بأنها جزيرة قريبة جدا من البر[٥٢] وهذا الوصف يطابق ما جاء عند من سبقه من الجغرافيين العرب[٥٣] كما يشير الى احدى أهم مميزات ممبسة وهي عمق البحر قربها وكفايته لحمل السفن للدخول الى مينائها[٥٤] ، هذا ما يؤكده الربان الفرنسي جيان الذي زار المنطقة بعد ابن ماجد[٥٥]

ينتقل ابن ماجد بعد ذلك الى وصف مدينة من أهم مدن الساحل في أيامه وهي مدينة كلوة وهنا نجده يسهب في وصف الجزر القريبة منها ، ويشير الى تميز هذه الجزر بوجود الاشجار العالية فيها[٥٦] كما نجده يحذر

المسافرين من شعب كلوة ويطلب منهم محاراته حتى يدخل البحر ومن هناك الى المدينة(٥٧)

ومن كلوة الى بلاد سفالة ، حيث ينصح ابن ماجد بالسير بمحاذاة الشاطىء لأن طريق سفالة غير مأمون لاختلاف الريح فيه كما يشير الى علو الماء في مدخل منطقة سفالة ، ومن علامات الدخول الى خور هذه المنطقة وجود الاشجار(٥٨)

ويشير ابن ماجد بصورة متكررة الى وجود الذهب في سفالة ، ويحدد مناجمه فيقول بأنها تقع في منطقة مياه (انهار) حيث يسكن هناك مجموعات من الناس الهمج ، كما يذكر كثرة الحيوانات المتوحشة من السباع والفيلة فيها(٥٩)

ويذكر ابن ماجد أن الجزر الواقعة بعد مناطق سفالة مثل جزيرة شربوبة تحتوى على العاج والعنبر(٦٠)
وأخيرا يصف المستنقعات والجبال الواقعة جنوب منطقة سفالة ، ويقول أن جزيرة وارة آخر ما وصل اليه العرب في سفراتهم ، أما بعدها فلا يعلمه الا الله ، حيث يدور البر الى الغرب

ما بعدهم سوى جزيرة وارة
ولا جنوبيها احد قد جاره
دقاق اوساخ معها جبال
يعلمها ربي ذو الجلال
هو الذى تعرفه يا صاحب
والبر هناك يدور في المغارب(٦١)

ويبدو في هذه الابيات أن ابن ماجد لم يصل الى تلك المناطق الواقعة جنوب سفالة

وتنال جزر شرق افريقيا اهتمام ابن ماجد فمن الجزر التي يذكرها جزيرة القمر وهي عنده تقع على يسار أرض سفالة لاخذ في يمينها أى برارى وجنوبها البحر بظلماته ممتد(٦٢)
ويعد ابن ماجد جزيرة القمر من الجزر الكبار ، ومع ذلك لا يذكر مساحتها لاختلاف الآراء في ذلك ، فيقول
« واختلف الرواة في طولها وعرضها ، لأنها محجبة عن عمارة الدنيا وعن الاقاليم المسكونة في الدنيا فلذلك وقع فيها الاشتباه وقد ذكروا في الكتب الكبار أنها أعظم جزائر الارض المعمورة ، وطولها قريب عشرين درجة ، وبينها وبين بر سفالة وجزره جزائر وشعبان ، ومع كل ذلك لا يمنع المسافر أن يجوز بينهما وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عامر بن سام بن نوح عليه السلام (٦٣)
وهذه المرة الوحيدة التى يحاول فيها ابن ماجد ذكر الاساطير الخاصة بشرق افريقيا ، ويبدو من كلامه أنه غير مقتنع بها
ومن الجزر التى جاء ذكرها في كتابات ابن ماجد (منفية) ، حيث يذكر انها جزيرة تمر بها المراكب قبل وصولها الى كلوة وهى مثلثة الشكل معمورة بالناس ويبدو أن ابن ماجد معجب بهذه الجزيرة على الرغم من صغرها ، فيقول عنها

لمنفية نعم فيها جزيرة
مختصرة مثلثة معمورة(٦٤)

اما جزيرة واسيبى ، الواقعة قرب مدينة ممبسة ، فيبدو أنها تتصل بمستنقع ناحية الجنوب ، ولهذا

يحطىء ابن ماجد الربوح من سكان المنطقة الدين يعتقدون ان المستنقعات تتصل بها من ناحية الشمال ، فيقول

كذلك واسيبى عليها وسح
متصلا الى الجنوب يا حى
وقالت الربوح أن منها
لكن في القلب فاحفظها
وداك عندى خطأ يا صاح
اسمع لوصفى تلتقى الصلاح[٦٥]

ونظرا لوجود المستنقعات هذه يطلب ابن ماجد من المسافر في هذه المنطقة ان يلتزم بالمجرى المعروف في سيره والذي يربط واسيبى بزنجبار والواقعة جنوبها[٦٦]

يتقدم ابن ماجد بعد ذلك جنوبها الى الجزيرة الخضراء ، واصفا للمسافرين الطريق المسلوك الذي يربطها مع جزيرة القمر جنوبها ، ويعد ابن ماجد الخضراء من الجزر الكبار في المنطقة[٦٧] ، كما يصف عددا من الجزر الصغيرة والمنتشرة بين واسيبى وزنجبار منها (رأس الحمام) ، والمستنقعات الخفية التي يجب على المسافر تجنبها بالميل الى ناحية اليمين من أجل سلامته ثم يذكر ان السفر من رأس الحمام ولمدة ليلة واحدة يوصل المركب الى جزيرة زنجبار[٦٨]

وجزيرة زنجبار من الجزر التى تنال الحظوة في كتابات ابن ماجد إذ يعدها احدى الجزر الكبار في شرق افريقيا فهو يقول

مكل هده الجزر كبار
اعني لك الخضرا وزنجبار[٦٩]

ويذكر ان حولها ما يربو على الست عشرة جزيرة من ناحية الغرب والجنوب وتكثر المستنقعات فيها بين هده الجزر

وحول زنجبار هجلةجزر
قريب ستة عشر أعلم وأدرى
وهي في الجنوب والمغارب
عن زنجبار برسخ يا صاحب[٧٠]

ويذكر من هذه الجزر الست عشرة ، جزيرة الكافر ورأس النيل وكوالة وجزيرة الشرفاء وأسمها الزنجي كما ذكره ابن ماجد (ايكوها جويدة)[٧١]

ويعطي ابن ماجد صفة العظمة لجزيرة زنجبار ويعدها مركزاً للحكم الاسلامي منذ وقت مبكر ومازالت كذلك في زمانه فقد عد المساجد الجامعة فيها فوجدها أربعين مسجدا جامعا ، وهو يقول في ذلك

وزنجبار جزيرة عظيمة
بأربعين خطبة قديمة

ويقول عنها في الفوائد أيضا « ومنها أربعون خطبة ، يحكم عليها سلاطين الاسلام »[٧٢] ويحفظ ابن ماجد عدة أسطر في كتابه الفوائد ايضا لجزيرة زنجبار واصفا طبيعتها الجغرافية ، من أنهار وأشجار ومياه ، فيقول « ممتدة على أرض الزنج وهي ذات أشجار وأنهار وهى جزيرة وخيمة »[٧٣]

٢ ـ المعلومات الملاحية

تشكل المعلومات الملاحية والفلكية عند ابن ماجد جزءا مهما في كتاباته عن شرق افريقيا فقد أعدها ملامح دائب السفر وأحد ربابنة السفن المشهورين في مياه تلك المنطقة ، وسنحاول أن نتناول شذرات متفرقة منها للتدليل على أهمية وضرورة هذه المعلومات للمسافرين والتجار من مناطق شرق افريقيا واليها ولندع ابن ماجد يفصل فيما ذكره من معلومات ملاحية وفلكية تخص شرق افريقيا ـ فهو يقول في مقدمة ارجوزته المعروفة « بالسفالية » والتى خصها لشرق افريقيا الآتى

هذه الارجوزة المسماة بالسفالية ومعناها يقتضي معرفة المجارى والقياسات من نواحي الساحل والريح وأرض السفال والقمر وجزره وبواد علوم جميع ما في تلك النواحي الى آخر الارض في الجنوب وذكرت قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة في جميع الاحيان ووصف نوادر في تلك الطريق من القياسات والدير والمجارى وسكان الارض وملوكها ومواسمها وسفرها على ما يليق بذلك المكان »[٧٤]

وقال شعرا في السفالية ، يتضمن الموضوع نفسه

ذكرت ما جليت منه مجرى
ان جرت في عمرك هذا البحرا
تلقى بها قولى وجحة فعلى
لأنـه علـم كـبير عقـلى
وصح أن البر والقمر هنا
ثمـانية أزوام مـا بينهما
في آخر القمر في الجنوب
متفـق عليـه يـا حبيبـي
وحـرر طير البرح والقصار
من نسل آدم كل بذاك دارى
ثم الكور في القياس والدبر
أو شعب أو جزيرة بلا ستر
أو شدة الماء ومرسى ترسه
فالفحل من دبر فيه نفسه
دقق وحقق اذا أحدث منها
خلاص ياربان من صنفها
ثم تـأمله لـدى السفالية
تهديك في الجنوب حد عقاليه
لا غيرها في هـذه الطـريق
نعم ، فيها علم بالتحقيق[٧٥]

وهكـذا يـذكـر ابن مـاجـد كل ما يحتاجه المسافر الى مناطق شرق افريقيا من أمور ملاحية وفلكية ، فهو يبدأ بتعريف القياسات التى يجب اتباعها في تحديد المجرى الذي يتخذه المسافر في مياه شرق افريقيا كما يعطي أوصافا لطبيعة المجري من حيث عمقه أو ضحالة المياه فيه ثم بيان حركة المد والجزر والشعب والرؤوس والجبال والمنارات في تلك المياه ، كما يفصل في الدوامات واتجاه الرياح في ذلك الساحل في مختلف أوقات السنة التي تحدد مواسم السفر وفي رأيه أن من يتبع تعليماته بدقه وتحقيق يصل الى أقصى مناطق شرق افريقيا بسلام[٧٦]

ففي مـواسـم السفر الى شرق افريقيا ، يبدو من كلام ابن ماجد أن لكل منطقة من مناطق الساحل موسم

خاص للسفر اليه وقد فصل في ذلك في « ارجوزته السفالية » فهناك موسم للسفر إلى مقديشيو وآخر الى كلوة وثالث الى سفالة وجزر القمر وهذه المواسم تتفق مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر في البحر [77] ويرى ابن ماجد أن مواسم السفر تتحكم فيها حالات المد والجزر والامطار أيضا [78]

أما مسألة الكواكب (النجوم) التي تتحكم في تحديد الخروج أو عدمه الى بحر الشرق الافريقي ، فيفصل ابن ماجد فيها ويبين الاتجاه الذي يزيد أو ينقص معه تأثير هذا العامل [79]

ومن المرشدات البحرية التي يتعرض ابن ماجد الى ذكرها ، فضلا عن النجوم ، القاع الطيني والحشائش والنباتات وبعض أنواع الطيور والاسماك ، فمثلا من يرى طيور (القرعا والمنجي » وأسماك (البتان والبهلول) عليه أن يعرف أن بينه وبين بر الصومال مسير نحو ١٢ ساعة تقريبا بالشراع اذا كانت الريح مواتية [80]

وهكذا كان ابن ماجد الملاح يجمع الخبرة بعالم البحر والعلم بطرقه الملاحية البحرية وبالآلتها والظواهر البحرية ، وقد سجلها في مصنفاته ليفيد منها كل من ركب مياه شرق افريقيا

معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا :

تعد معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا ، اقل قسم كتب فيه إذا قورنت بمعلوماته الجغرافية والملاحية ولكن قيمة هذه المعلومات تكمن في كونها قائمة على مشاهداته الشخصية ، لذا يمكن استخدامها في اثبات ونفي الاحداث التاريخية التي تتضمنها الكتب التاريخية والجغرافية التي اهتمت بالكتابة عن تلك المنطقة

يشتمل ما أورده ابن ماجد من معلومات تاريخية عن شرق افريقيا جوانب سياسية واقتصادية ففي القسم السياسي تأتي معلوماته في سياق الحديث عن مدن وجزر تلك المنطقة حيث يشير الى الوضع السياسي فيها بين الحين والآخر

وفي الوقت الذي لاتنال مدن ساحل منطقة (بربرا) منه سوى ذكر أسماء بعضها [81] نجده يبدأ بذكر مدن (بلاد الزنج) مبتدئا بمقديشيو تلك المدينة التي بلغت أوج ازدهارها في القرنين ٧ و ٨هـ ١٣ و ١٤م ، ونالت اهتمام الكثير من الكتاب العرب

ففي القرن ٧هـ / ١٣م يشير ابن سعيد أن مدينة مقديشيو أول أرض الزنج وهي « مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين » [82] اما ابن بطوطة في القرن ٨هـ / ١٤م فإنه يتكلم بصورة تفصيلية عن هذه المدينة ويعدها مركز الحكم العربي الاسلامي في المنطقة ويذكر أن العرب آقاموا فيها حكما قائما على الشورى [83]

اما اس ماحد فلم ترد عنه أي من هـده التفاصيـل عن مقديشيـو ، والسب ق دلك يعود لأن هده المدينة كانت في أيامه قد فقدت أهميتها السياسة والتحارية معا ، حيث بدأ النفود العربى الاسلامى يمتد نحو الجنوب نصورة أكتر ، فحرمها من أهميتها كمركز سياسي وتحاري مند منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م [٨٤]

وكدلك الحال بالنسبة لمدن مركة وبراوة وكاوة ولامو الواقعة جنوب مقديتيو حيث لم يهتم اس ماحد الا بالنواحى الجعرافية والملاحية التي تتعلق بها[٨٥]

يسافر اس ماحد بعد دلك الى مدينة مالندى ، تلك المدينة الصعيرة التى لم تحظ باهتمام الكتاب العرب حتى القرن ٦هـ / ١٢م حيث دكرها الادريسى لاول مرة علي انها مدينة من مدن الربوح المهمة[٨٦] وقد أحدت هده المدينة في الاردهار حتى بلعت مركرا مرموقا ق القرن ٩هـ / ١٥م ، الا أن دلك الاردهار لم يؤهلها للسيطرة السياسيـة على مـناطق الساحل الافريقي الاحرى واكتفت بمركرها التحاري في المنطقة ، ومن هدا المنطلق ، على ما يبدو ، اراد اس مـاحد ان يتـد انتباه المسـافر اليها[٨٧]

ينتقل اس ماحد الى مدينة كلوة ، ويسميها كلوة الملوك ويعدها مقرا لحكام كتير من مناطق الساحـل الافريقي على أيامه ، ترد كلوة في ارحورة اس ماحـد (السفاليـة) بصورة متكررة ، مؤكدا في ذلك على سيطرة هده المدينة على كثير من مدن الساحل متل مبنسه وسفالة الواقعة حنوبها وريحبار وما فيا الواقعـة شمالها[٨٨] بلعت مدينة كلوة مند القرن ٦هـ / ١٢م درحة كبيرة من السطوة والنفود وقد منحها موقعها المتوسط ق ساحل افريقيا الترقي قوة سياسية في المنطقة ، فاستحودت عليهـا بالقـوة تارة وبـالسياسـة والمصاهرة تارة أحرى ، ولم تفقد نفودها الا بعد محيء البرتعاليين الى المنطقة[٨٩]

أما منطقة مناحم الدهب ق سفالة فيبدو أنها كانت مستقلة بنفسها وليس لاحد سيادة عليها ، ولها ملك حـاص بها يسميـة اس مـاحـد (الرساوى) ويقول أن مركر حكمه في مدينة (حور كوامه) ، والناس الدين يحكمهم ملك هده المنطقة ما رالوا كفاراً [٩٠]

كتب اس ماحد عن مدن شرق افريقيا بصورة متفرقة دون أن يحاول الربط بينها ، وهو بهدا يؤكد ما نعرفه عن الـوضع السيـاسي للسـاحـل الافريقي الترقي ، حيث أن العرب لم يستطيعوا ان يكونوا دولة واحدة قوية تحمعهم في تلك المنطقة ، بل كونوا امارات مستقلة عن بعضها البعض ، وان كان قسم من تلك الامارات قد فرض سيادة واسعة على المنطقة احمعها[٩١] اما ايام اس ماحد فقد كان لكلوة دور السيادة على مناطق

الساحل شمالها وجنوبها ، كما أشرنا

والشيء الذي يثير الدهشة ان ابن ماجد لم يشر الى الخلافات التي كانت قائمة بين بعض مشايخ الامارة في هذا الساحل والتي أدت الى اخفاقها ، اذ كانت المنافسات على أشدها فيما بينهم من أجل توسيع مناطق نفوذهم على حساب البعض من جهة ، والسيطرة على مناطق الذهب في سفالة الغنية من جهة أخرى ، وإنما اكتفى بذكر سيطرة كلوة على الساحل بما فيه سفالة[٩٢]

وهناك ناحية مهمة تخص الوضع السياسي للعرب في منطقة شرق افريقيا قبل ابن ماجد وفي أيامه فالامارات العربية التي نشأت في تلك المنطقة لم تتعمق الى الداخل لتفرض سيطرتها السياسية والحضارية ، وانما اكتفت باقامة علاقات تخدم مصالحها التجارية بشكل يؤمن لها وصول منتجات الداخل من ذهب وعاج وغيرهما[٩٣]

وهذا الوضع يفسر لنا لماذا لم يكتب ابن ماجد الا عن مدن الساحل ولم يحاول أن يتعمق في داخل شرق افريقيا ، بل نجده يشير صراحة الى ان مناطق العمق في المنطقة ما تزال مواطن الهمج والكفار لعدم وصول العرب المسلمين اليها[٩٤]

أما أهم معلومة تاريخية وصلتنا عن ابن ماجد ، فهي تسجيله لدخول البرتغاليين الى شرق افريقيا ، وقد كان فيها شاهد عيان

ان ارجوزة ابن ماجد (السفالية) هي الوحيدة التي جاء فيها ذكر الافرنج (يقصد البرتغاليين) ، حيث ورد أسمهم ١٤ مرة ، وجاء ذلك لاول مرة عند وصف الرياح الموسمية التي تهب على الشاطىء الشرقي لافريقيا لمنطقة كلوة ، وعدم معرفتهم بمواعيد هبوب هذه الرياح مما ادى الى الحاق الكوارث بسفنهم وهو يقول

رلوا بها الافرنج علق الموسم
في عند ميكال بالتوهم
قام عليهم موج تلك الروس
في سفالة بقي معكوس
وانقلبت أدقالهم في الماء
والسفن فوق الما يا جائي
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن غارقا موسم تلك الارض[٩٥]

ويسجل لنا ابن ماجد ان الذي دفع الافرنج الى المجيء الى شرق افريقيا هو الطمع حيث كان هدفهم السيطرة على ما هو موجود فيها من معادن ، لاسيما في منطقة سفالة من ذهب ونحاس وفضه[٩٦] وقد اشار ابن ماجد الى أن سفن الافرنج أبحرت بحذاء ساحل سفالة في عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م وهي في طريقها الى الهند ، وبعد أن ظلت سنتين عادت هذه السفن الى شاطىء افريقيا الشرقي ، فيقول

جارتها في عام تسعمائة
مراكب الافرنج يا جاية
تعبر عامين كاملين
فيها ومالوا الهند بالبقين

من حاول (السين يحاف مالا
ما يرتجى والا ترك الا مالا
ورحعوا من هدهم للربح
في هده الطريق الافربح[٩٧]

وادا كانت أحبار اس ماحد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا قد اتسمت في البداية بوصف هدا الوصول دون تعليق ، فاننا نحد أن اس ماحد سرعان ما شاهد واقع الاستعمار البرتغالي بنطامه الدخيل على المحيط الهندي الذي أساء الى الملاحة العربية[٩٨] وعرف عن كتب عروهم للساحل الافريقي الشرقي وحرره ابتداءً من المناطق الواقعة حنوب سفالة وامتلاكهم لها ، حيث يقول

وسعدنا على الحنوب تأتي
حزر « شربوه » وهم ثلاث
ثلاثة محربة محررة
عمن رآها من قبل محررة
وحتشب الافربح قد حاؤوها
وملكوها بعد أن حاروها
وما من بعدهم سوى حريرة وارة
ولا حنوبيها أحد قد حارة[٩٩]

يطهر أن اس ماحد مثل عيره ممن شهد وصول البرتغاليين لشرق افريقيا لم يقدر أبعاد هدا الوصول بل الأنكى من دلك أن بعض سكان شرق افريقيا كانوا طنوا أن البرتغاليين من المسلمين حاءوا من العرب فقدموا المساعدة كما كانوا يفعلون مع المسلمين دائماً لمعرفتهم بأهدافهم ونواياهم تحاه المنطقة ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة للجميع بما فيهم أحمد بن ماجد بنفسه ولدا فقد اعتبر السيطرة على مناطق المحيط الهندي حالة حرب ، وتمنى لو أن الله أطال في عمره ليشهد (رمان الصلح) حتى يمكن أن يحقق آماله وأحلامه[١٠٠]

لأنهم لم يتركوا هدا الطرف
فسوف علمهم لديك تعرف
ان طالت الأيام والليالي
فإنها تسفر على الروال
لو كنت أحيا لرمان الصلح
كنت علما يستحق المدح[١٠١]

وهكدا فان أحلام اس ماحد وآماله كانت في التحلص من السيطرة البرتغالية التي فرضت نفسها على الساحل الافريقي الشرقي بالقوة

تعد معلومات اس ماحد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا وسيطرتهم عليه مادة تاريخية دات قيمة كبيرة لأنه شهد الأحداث بعينيه فهو مصدر معاصر لا غنى للباحث عنه في تاريخ شرق افريقيا للقرن السادس عشر

أما معلومات اس ماحد الاقتصادية ، فعلى الرغم من قلتها فانها تفيدنا في رسم معالم النشاط التجاري الذي شهدته مناطق الشرق الافريقي والذي اقترن بوصول العرب الى تلك المناطق فقد كان العرب وحتى القرن ١٠ هـ/ ١٦م سادة المحيط الهندي والمتحكمين في تجارته وقد نشطت تجارتهم في شرق افريقيا من أجل الحصول على

منتجاتها وحملها الى مراكز الاستهلاك ، وكانت أهم هذه المنتجات الذهب والفضة والعاج والحديد والعنبر وغيرها

ان اهتمام العرب بتجارة الذهب في شرق افريقيا قد بلغت ذروتها في نهاية القرن ٩ هـ/ ١٥م وبداية القرن ١٠ هـ/ ١٦م(٢ ١) ولذا يؤكد ابن ماجد ولمرات عديدة على منطقة سفالة حيث مناجم الذهب فيصف الطريق الملاحي التجاري الذي يؤدي اليها ابتداءً من الخليج العربي والجزيرة العربية ، مفصلاً في كل مرحلة من مراحله ، مبيناً للمسافر الموانىء والمدن الموجودة على طوله ، موضحاً مخاطر هذا الطريق ومصاعبه والأسس التي يجب مراعاتها في السير في مياه شرق أفريقيا وصولاً الى سفالة(٣ ١)

تنال منطقة سفالة ، حيث معادن الذهب ، الحظوة في كتابات ابن ماجد كما أشرنا ، فقد وضح حدودها وأسماء مدنها وموانئها ، واصفاً بدقة مناجم الذهب في سفالة والتي تقع على مسيرة شهر من مدينة سفالة باتجاه الغرب من مناطق معمورة بالمياه (الأنهار) ، وهذه المناجم هي امتداد لمناجم الذهب في النوبه ويقدر ابن ماجد مساحة منجم ذهب سفالة بمسيرة سبعة أيام ، فهو يقول في ذلك

مع هؤلاء المكين السفالى
ومعدن النوبه لهم يوالي
يتصلوا ببعضهم البعض
وبينهم النحر وجل بارض
راصي على النحر من المغارب
حربي عنهم دوي التجارب
مسيرة يا أخي سبعة أيام
يحوى بالبشاشات يا همام(٤ ١)
ويبطرون لطلوع الكفرة
بل في بحر العرب هذا المخبرة

ومن السلع التجارية التي يذكر ابن ماجد المسافرين الى شرق أفريقيا بهاهي العاج والعنبر

والمعروف ان هذه السلع متوفرة في عدة مناطق من شرق افريقيا ، ولكن ابن ماجد أراد التعرف بها حيث يذكر منها « ملنوبي » (ميناء بين كلوة وسفالة) ، جزيرة « شربوه » جنوب سفالة ، فيقول

منها على القطب ملنوني ترى
لمعدن الرحوين ثم العنبرا(٥ ١)
وبعدها على الجنوب تأتي
جزيرة (شربوه) وهم ثلاث
أحمرهم يا صاحبي وشيكا
والعاج والعنبر فيها يذكا(٦ ١)

كما يشير ابن ماجد الى كثرة الحيوانات من السباع والفيلة في المناطق الواقعة جنوب سفالة ، ولعل هذه تذكرة للراغبين في الحصول على العاج والجلود(٧ ١)

ويذكر ابن ماجد زوار المنطقة دائماً بالمراكز التجارية المهمة فيها ، فمثلاً يشير الى أن ممبسه مركز تجاري غني

فادخل « هبيت » بمبرات السفر
الممبسة فيها المبيع والظفر(٨ ١)

والـواقع ، كمـا يستوحي من اشارات ابن ماجد ، ان الجزر الواقعة في منطقة سفالة ، مراكز مهمة للبيع والشراء عامرة بالحركة(١٠٩)

ترتب على النشاط التجاري الذي شهده شرق افريقيا على يد العرب ان ارتبطت هذه المنطقة عبر طرق التجارة البحرية بالخليج العربي والشرق الأقصى (الهند والصين) ، وهذا ما أشار اليه ابن ماجد حيث وصف هذه الطرق في (سفاليته) ومن المعلومات الحضارية التي يؤكد عليها ابن ماجد انتشار الاسلام الواسع في شرق افريقيا ، ففي جزيرة زنجبار - مركز الحكم الاسلامي المبكر - يذكر بأن هناك ٤٠ مسجداً جامعا منتشرا في أنحائها(١١٠)

ويؤكد ابن ماجد في هذا المجال الحقيقة المعروفة وهي وصول الاسلام والحضارة العربية الاسلامية حيث المناطق التي وصلها العرب المسلمون في شرق افريقيا بينما ظلت المناطق الأخرى مواطن للكفار والهمج ، ومنها البلاد الواقعة جنوب سفالة(١١١) كما نجد أن بعض المناطق ، لاسيما بين كلوة وسفالة ، قد انتشر الاسلام بين سكانها على الرغم من بقاء حكامها على كفرهم(١١٢)

لا يكاد يوجد لدينا بين معلومات ابن ماجد عن شرق افريقيا شيء عن طبقـات المجتمـع أو عن الحيـاة الاجتماعية ، التي لابد أنه عرفها عن كثب ولمسها شخصياً في رحلاته ، ولكن نستطيع أن نستشف من كتاباته أن المدن والامارات العربية في شرق افريقيا قد ضمت العرب والافارقة وهذه حقيقة واقعة ، حيث ان العرب توافدوا الى هذه المنطقة واختلطوا بسكانها من الافارقة وأصبحت مدنهم واماراتهم التي أنشأوها في شرق افريقيا تحمل في نظمها وتقاليدها أصولاً عربية وافريقية ، خاصة بعد التقارب والتمازج الذي حصل بين العرب وسكان المنطقة(١١٣)

لم يشر ابن ماجد الى شيء من هذا ، فلا نسمع منه شيئاً عن الشعب السواحيلي الذي هو نتاج التمازج بين العرب والافارقة واللغة السواحيلية التي هي مزيج من العربية واللهجات الافريقية كما لم يذكر ابن ماجد ، مـع الأسف ، شيئا عن مظـاهر الحضارة العربية الاسلامية التي نقلها العرب الى شرق افريقيا والتي شهـد بهـا حتى المستعمـريـن الأوروبيين(١١٤)

ان بيانات ابن ماجد الخاصة بالوضع السياسي والاقتصادي في شرق افريقيا والقائمة على مشاهداته الشخصية من خلال زياراته لموانيء المنطقة وجزرها تجعلنا نعد ما كتبه ابن ماجد مصدراً مهماً في تدوين تاريخ شرق افريقيا وحق عـلى مؤرخينا أن يولوا كتاباته مزيداً من الاهتمام

د. صباح ابراهيم الشيخلي
جامعة بغداد - كلية الاداب

الهوامش:

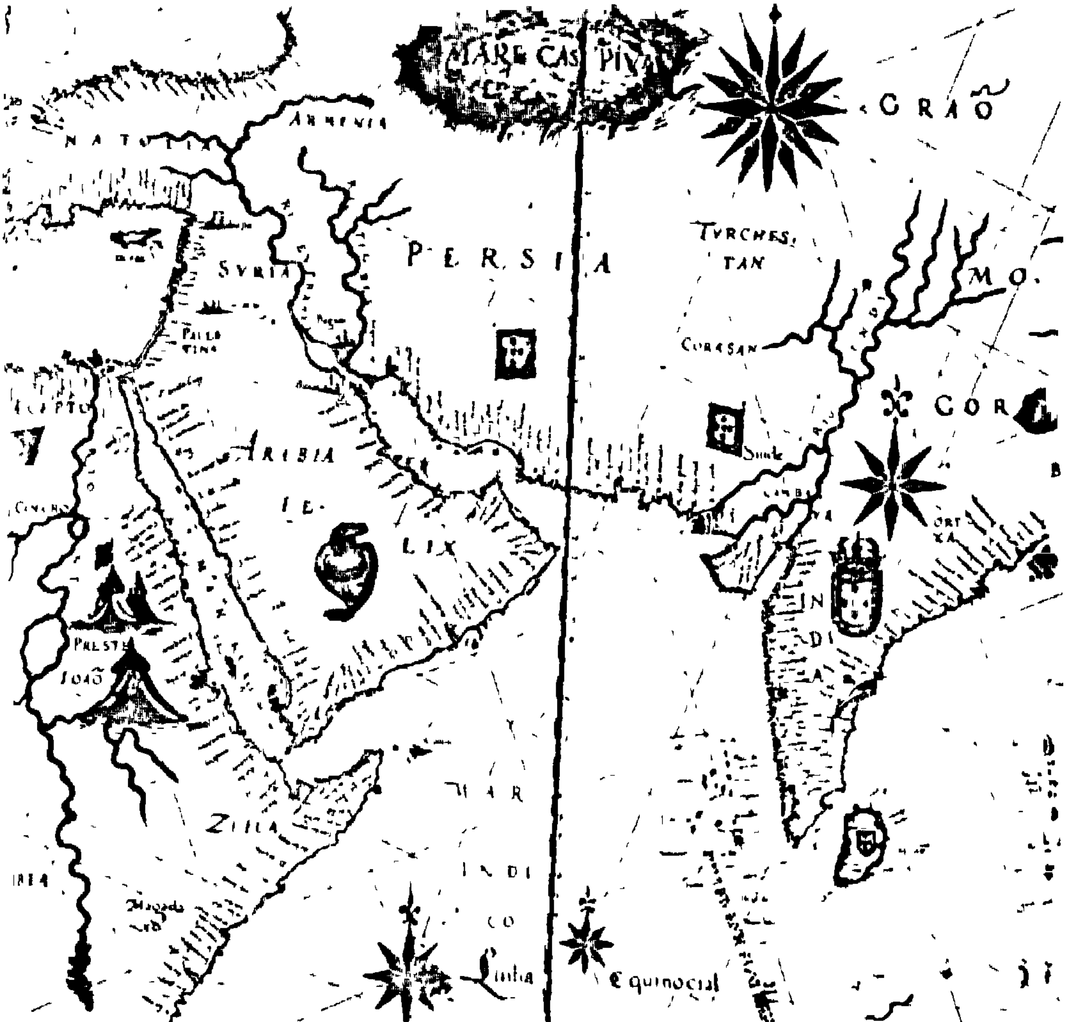
١ ـ عبدالرحمن عبدالكريم العاني ، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الاسلامية القرن الرابع الهجرى (سلطنة عمان ، ١٩٨١) ص ١٩ ٣٢ ـ ٣
٢ ـ ابو الحسن على بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (القاهرة ، ط٣ ١٩٥٨-) ج ١ ١٠٧ ـ ٨
٣ ـ المصدر نفسه
٤ ـ شوقي الجمل دور العرب الحضارى في شرق افريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ندوة العلاقات بين الخليج وشرق افريقيا ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧ ، ص ١١ انظر أيضاً R.cupland,East Africa and its invaders (London,1934) b 21)
٥ ـ عبدالرحمن العاني ، عمان في العصور الاسلامية الاولى (بغداد ١٩٧٧) ص ٨٨ ، عامر محمد المحرى ، تاريخ العلاقات العمانية ـ الافريقية ، بداية التواجد العماني في شرق افريقيا ، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة ، قطر ، ١٩٧٦) ج ٢ ص ص ٧٧٦ ـ ٠٧٧
٦ ـ أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرقي افريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله (سلطنة عمان ، ١٩٨٠) ص ٠٤٤
٧ ـ عبدالرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في افريقيا (القاهرة ، ١٩٧٠ ج ١ ص ٧٧ ـ ١١٩ ، المحرى ـ المصدر السابق ص ٠٧٧٧
٨ ـ جولة شاكر الدجيلي ، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجرى ، اطروحة دكتوراة غير منشوره (جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٨٠) ٧٨ ـ ٠٨١
٩ ـ احمد بن ماجد النجدى ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد تحقيق ابراهيم خورى وعزة حسن (دمشق ، ١٩٧١) ص ٠١٠
١٠ ـ اغناطيوس كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٥٧٣

١١ - انور عبدالعليم ، ابن ماجد الملاح (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٣ ، كراتشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٣
١٢ - بن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣
١٣ - أحمد محمد عطية ، المعلم والاستاد والشاعر والفلكي والملاح ورائد علم المرشدات البحرية ، الوثيقة ، العدد ٢ ، السنة الاولى (١٩٨٣) ص ١٥٨
١٤ - احمد بن ماجد ، ثلاث ازهار في معرفة البحار ، تحقيق ثيودور شوموبسكي ، ترجمة محمد منير مرسى (القاهرة ، ١٩٦٩) ، ص ١١ ، ٤٢ ، ١٢٣
١٥ - المصدر نفسه ، ص ١٤ ، ٢٣٥
١٦ - اطلع ابن ماجد على كثير من المؤلفات الجغرافية التاريخية للمسعودي وابن حوقل وابي الفدا وغيرهم المصدر نفسه ص ١٠٠ ، ص ١٧١
١٧ - ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣
١٨ - المصدر نفسه ، ص ٧ (المقدمة) ثلاث أزهار ، ص ٥١
١٩ - الفوائد ، ص ١٨
٢٠ - المصدر نفسه ، ص ١٨
٢١ - كراتشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٧
٢٢ - ابن ماجد ، الفوائد ص ص ١٥٩ - ١٦٠
٢٣ - المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٩ - ٧١ ، ٢٧٢
٢٤ - المصدر نفسه ، ٢٩٢ ، ٢٩٩
٢٥ - المصدر نفسه ، ص ص ٣٢٨ - ٣٣٤
٢٦ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٥١
٢٧ - المصدر نفسه ، ص ٥١
٢٨ - المصدر نفسه ، ص ص ٣٢ - ٤١ - ٤٤
٢٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٢
٣٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٧
٣١ - المصدر نفسه ص ٤٩
٣٢ - المصدر نفسه ، ص ٤٨
٣٣ - المصدر نفسه ، ص ٤٢
٣٤ - المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٢٠ ، ٢٣
٣٥ - المصدر نفسه ، ص ١٧ - ١٨ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ص ٢٧٢ - ٣
٣٦ - المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦
٣٧ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٤
٣٨ - المصدر نفسه ، ص ٤٤
٣٩ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢
٤٠ - المسعودى المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ ياقوت الحموى معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) ج ٢ ص ١٠٦ ابن سعيد المغربى كتاب الجغرافية تحقيق

اسماعيل العربي (بيروت ١٩٧٠) ص ٨٢
٤١ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢
٤٢ ـ المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ ، الحموى ، ج ٥ ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر بيروت ١٩٦٠) ص ٦٢
٤٣ ـ مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦
٤٤ ـ انظر الصفحات التالية
٤٥ ـ ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٤١
٤٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧ ، ٢٧ ، ٤١ الفوائد ٢٧٢
٤٧ ـ ثلاث أزهار ، ص ٤٤ ، المسعودى ، ح ١ ص ١٠٧ ، أبو عبدالله بن محمد الادريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة البودلاين اكسفورد ، مخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي (رقم ١٥ ـ جغرافية) ورقة ٧٠
٤٨ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧
٤٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩
٥٠ ـ الدجيلي ، المصدر السابق ، ص ٨٢
٥١ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩
٥٢ ـ المصدر نفسه
٥٣ ـ الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣٣
٥٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٣٠
٥٥ ـ المسيوجان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية ، ترجمة يوسف كمال (القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٢٤
٥٦ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٦
٥٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٧
٥٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩
٥٩ ـ المصدر نفسه ، ٤٤
٦٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥
٦١ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٤٤ ـ ٥
٦٢ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢
٦٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩٢
٦٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٥
٦٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١
٦٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ ـ ١٢٧
٦٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ ـ ٣٢
٦٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١

٦٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢
٧٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢
٧١ ـ المصدر نفسه ص ص ٣٣ ـ ٤
٧٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢
٧٣ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٢٩
٧٤ ـ المصدر نفسه
٧٥ ـ ابن ماجد ،ثلاث ازهار ، ص ١٧
٧٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١
٧٧ ـ المصدر نفسه ص ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١
٧٨ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٣٢٨
٧٩ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازدهار ص ص ١٨ ـ ١٩ وما بعدها كما ذكر ابن ماجد معلومات مفصلة عن المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التي يهتدى بها الربان في كتابة الفوائد في الفائدة الثالثة والفائدة الرابعة ، ص ص ٣١ ـ ١٧٨
٨٠ ـ الفوائد ، ص ٢٥٠
٨١ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٢
٨٢ ـ ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٨٢
٨٣ ـ محمد بن عبدالله اللواتي المشهور بابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطه (بيروت١٩٧٩) ، ج ١ ص ٢٨٢
٨٤ ـ Durate Barbosa, The book of Durate Barbosa: an account of the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants completed about the year 1518 A.D, translated from the Portuguese text by M.L. Dames Vol-1 (LONDON, HAK. Soc. 1918) No. 1.P.31.
٨٥ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧
٨٦ ـ الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣١
٨٧ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩
٨٨ ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٨
٨٩ ـ حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨
٩٠ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢
٩١ ـ الجمل المصدر السابق ، ص ١٨
٩٢ ـ حيان المصدر السابق ، ٢٤٦
٩٣ ـ الجمل المصدر السابق ، ص ١٨
٩٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ ـ ٢٠٠
٩٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٠
٩٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢

٩٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥
٩٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٨
٩٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤
١٠٠ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٢
١٠١ـ المصدر نفسه ، ص ٤٨
١٠٢ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ٢٠
١٠٣ـ انظر ما ذكرناه سابقا
١٠٤ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢
١٠٥ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨
١٠٦ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤
١٠٧ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥
١٠٨ـ المصدر نفسه ، ص ٣٠
١٠٩ـ المصدر نفسه ، ص ٤٩
١١٠ـ ابن ماجد ، الفوائد ،ص ٢٢٩
١١١ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ ـ ٢
١١٢ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨
١١٣ـ هذا ما اشار اليه الكتاب العرب قبل ابن ماجد انظر ابن بطوطة ، رحلة ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ واشار الكتاب البرتغاليون الى ذلك أيضا انظر ، الجمل المصدر السابق ، ص ٤٢
١١٤ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٧



تجّار كجرات والتجّ

بَعض الملاحظات المبنيّة على المص

الدكتور ماكراند مهتا والدكتورة شيرين مهتا



لا يسع أى مؤرخ ان يجهل كجرات وهو يناقش موضوع العلاقات التاريخية بين الخليج العربى والقارة الهندية ويرجع السبب في ذلك للعلاقات الثقافية والتجارية المتينة التى كانت تربط الهند بالدول العربية قبل ان يدمر البرتغاليون النظام التجارى الناجح النافع الذى كان قائماً في كل من آسيا وافريقيا في القرن السادس عشر وقد احتلت كجرات مكاناً حيوياً بسبب كثرة موانيها مما سهل هذه الاتصالات منذ القدم وقد تلقت مزيداً من الدعم في الفترة التى يتناولها هذا البحث فقد شهدت هذه الفترة حركة التمدن السريع في كل من الجزيرة العربية وكجرات لاسباب مختلفة ففيما يتعلق بكجرات قد انشأت سلالة «سولانكى» (٩٤٢ ـ ١٣٠٠م) والحكام المسلمون المستقلون فيها خاصة سلاطين كجرات (١٤١١ ـ ١٥٧٣م) شبكة بيروقراطية واسعة أدت الى استقرار سياسى وتشجيع للحركة التجارية[١] ومن جهة ثانية فقبل مجيء الاسلام وانتشاره في حوالى منتصف القرن الثامن شهدت البلدان العربية تقدما سريعا في التحول الى التمدن والتجارة وفي هذه الفترة برز في الأفق عدد كبير من الموانيء المزدهرة كعدن وجده وهرمز التى كانت مواقعها على منافذ الطرق البرية التى عبرتها القوافل حاملة منتجات كل من الهند وغرب آسيا وأفريقيا والبحر المتوسط والهدف من هذا البحث هو دراسة العلاقات التجارية بين كجرات والتجار العرب

رالعرب من ٩٤٢م إلى ١٥٠٠م
.رالمعاصرة



كان في كحرات مدن موانىء عديدة مـردهرة كـ «ـروش» و«كـامبي» و«سـومـنـات» و«مـاـدـاوى» و«ـادريتـوار» و«ديـو» وغـوغـا» و«بوربندر» ويقول عالم برهمي يسمى «سوميتسوار» كان يعيش تحت رعاية حكام «سولانكى» «بيم ديو الثانى» (١١٧٨م ـ ١٢١٢م) و«فيسال ديو» (١٢٤٤م ـ ١٢٥٣م) ، في كتـابـه المسمى «كيرتي كومدى «ان كلا من «فاستوبال» و«تيج بال» كانا من التحار الكبار من طائفة «حين» ومن أصـدقـائهمـا الخاصـين وكـان «فاستوبال» يشغل منصب الوزير أيضا وقد قام بتطوير ميناء «كامبي» ويضيف ان «فاستوبال» أدخل بعض الاصـلاحات في دائـرة المـوانىء (المسماة «فيلاكول كارن») وشجع المـلاحـين الهـنود («سـوفيتيك» و«سايتريك») على ممارسة مهنتهم وكذلك شجع المسلمين (مليحا او ياماما) في الخارج على «الإستيطان» في كل من «كامبي» و«انهل واد باتان» واماكن تجارية اخرى[٢]

ورغم وجود موانىء كثـيرة في كجرات الا ان ميناء «كامبى» كان يتمتع بشهرة كبيرة وفي الفترة التى تناولها هذا البحث كان يمثل الباب الهندى الى مكة المكرمة وبلغت سمعتها درجة اطلق معها هذا الاسم على ولاية كحرات كلها قبل القرن الســادس عشر وكــانــت شـهـرة الكجراتيين كبيرة في عالم التجارة

ويدل على ذلك ما ورد في ملاحظات السائح الفرنسي «فرانسوا بيرارد» (١٥٨٠م ـ ١٦١٢م) الـذى زار كجرات في عام ١٦٠٨م إذ قال

«ان اللغة الرائحة في تلك الأقاليم بما فيها «حرابد موغور» و«سغال» والمناطق المجاورة هي اللغة الكجراتية وهى منتشرة ومفهومة أكثر من اية لغة هندية أخرى»[٣]

ومن ميزات النظام الإقتصادى لكجرات ان المنطقة كانت خصبة زراعيا ومتطورة ومتمدنه لدرجة كبيرة وقامت المراكز المدنية بتصنيع سلع كالنيلة والسكر وملح البارود والعقاقير والعقيق والورق لكن صناعتها القديمة الأساسية كانت عبارة عن صناعة المنسوجات التى كانت من المقومات الأسـاسية لتجـارتهـا الـداخليـة والخارجية

ومن جهة أخرى يجدر التأكيد على انه بعد وفاة الرسول «ﷺ» في عام ٦٣٢م بدأ إنتشار الإسلام والمدنية في البلدان العربية بسرعة فائقة وكان ظهور الاسلام عنصراً حيوياً في تصاهر وتلاحم القبائل العربية التى اقامت امبراطورية قوية تم تأسيسها على ايدى الخلفاء وشملت كلا من الجزيرة العربية وسوريا والعراق وايران ومصر وشمال افريقيا واسبانيا وتولى العباسيون السلطة كخلفاء في بغداد اواسط القرن الثامن وظلت الدولة العباسية من أقوى وأغنى الإمبراطوريات في العالم وفي ذروة

محدها صمت كافة المراكز الحضارية في المناطق المدكورة وحتى في الفترة اللاحقة سيطر العرب على المراكز الإبتاحية في كل من عرب آسيا وشمال أفريقيا وكان لهم السيطرة على الطرق التجارية الهامة التى كانت تربط بين البحر المتوسط والهند والصين وقد ادى انتشار الامن والسلامة اللدين وفرهما التجار والملاحون العرب لهده الطرق التجارية الى رخاء وإزدهار تلك المناطق وكان المحيط الهندى همزة الوصل بين كجرات والموانىء الخليجية كخمسرون وهرمز وحسك والبصرة وجدة وعدن ومخا

ان هجرة العرب المبكرة الى شرق افريقيا والسند وكجرات رفعت مكانة اللغة العربية في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية كلغة متداولة على نطاق واسع[٤] وفي الحقيقة فقد اثر العرب على اللغة الكجراتية نفسها تأثيراً عميقاً

ومن الصعب ان نحدد بالضبط متى وكيف تأثرت اللغة الكجراتية باللغة العربية لكن المؤكد انه نتج عن التعامل الطويل خلال وقت ليس بالقصير وقد تدوولت بعض الكلمات العربية لدرجة انها تستخدم حتى اليوم في كجرات بمنتهى الطلاقة ودون أدنى عناء ولا يشعر الكجراتيون بخلفية التعامل المستمر مع العرب الذى يكمن وراء تخصيب اللغة الكجراتية واذكر على سبيل المثال الكلمات الاتية

برف (ثلج) وبندوق (بندقية) وخاص بازار (السوق الرئيسى) ومشعل وحوض ومعرفة (بمعنى الوساطة) وصراف وقاصد (بمعنى الرسول) وحبر ودكان ونقد وضامن (بمعنى الكفيل) ورقم (بمعنى المبلغ) وجهاز (بمعنى السفينة) وفراجه (بمعنى الجمرك) وعقيق ودلال (بمعنى السمسار) وزكواة (بمعنى الرسوم الجمركية) ومسافر ومحصول وكاغد (بمعنى الورق)[٥] وقد ذكرت هده الكلمات كأمثلة للتسلل اللغوي الذي تطور عبر بضعة قرون وهذا موضوع هام ويعطي مجالا واسعا للبحث ويقول الاستاذ شمسي

«ان دراسة اللغة العربية في الهند قد ترداد في الحال وعلاقاتنا مع الشرق الأوسط تعود الى حوالى الفى سنة وإضافة الى العلاقات التاريخية ودعوة الدين الإسلامى توجد ثلاث مقتضيات ملحة في المجالات السياسية والثقافية والتجارية للتعامل مع العرب لإن العرب اصدقاؤنا في المجال السياسى واللغة العربية اكثر أهمية لنا ثقافياً بعد اللغة الإنجليزية»[٦]

وكان من بين التجار والجغرافيين والسياح العرب والعجم الذين زاروا كجرات كل من سليمان السيرافى (٨٥١م) وبزرك بن شهريار (٩١٢م) وابوالحسن المسعودى (٩١٥م) وابواسحق ابراهيم الاصطخرى (٩٥١م) وابن حوقل البغدادى (٩٧٦م) والبيرونى (١٠٣٠م)

والادريسى (١١٠٠م) ومحمد عوفى (١٢١١م)[٧]

وتفيد كتاباتهم أن العرب كانوا مستقرين بأحسن وجه في «أنهل وادباتان» عاصمة حكام سولانكى في الفترة بين ٩٤٢م و١٣٠٠م وكانت لهم مستوطنة واسعة وفيها مسجد جميل ومستوطنتان مماثلتان في كل من «بروش» وكامبى» ومن القرن العاشر الى القرن الخامس عشر كانت كامبى» ميناء رئيسيا وكان من منتجاتها المانجو وجوز الهند والليمون والارز والعسل كما كان من صناعاتها الصناعات الجلدية وقامت كامبى بتصدير الأحذية والمصنوعات الجلدية الاخرى الى كل من مخا وعدن وجده وكان من بين صادراتها الأخرى النيلة والشمع الأحمر والشعير الهندى واساور العاج والقمح والارز والعقيق والسكر وكان من بين وارداتها من الموانىء الخليجية الخيول والنحاس والزئبق والزعفران وماء الورد والحرير والتمور والمرجان واللؤلؤ والمخمل [٨]

وكانت قوة كجرات تكمن في منتجاتها الزراعية كالمنسوجات القطنية والنيلة والسكر ويقول عبدالله وصاف (١٢٣٨م) «ان الأرض في كجرات قوية لدرجة ان شجيرة القطن تنتشر اعصانها مثل الصفصاف او البلابيرة المائية وتؤتى ثمارها لسنوات عديدة»[٩]

وحسب أقوال الجغرافي المصرى ابوالعباس النويرى (ت ١٣٣٢م) كانت المنسوجات البروشية مشهورة باسم «بروح» او«بروجى» والمنسوجات من صناعة كامبى اشتهرت باسم «كامبايانى» وكان هذان الصنفان يدعيان «باروج» و«كامبايانى» على أساس انهما صنعا في هاتين المدينتين [١]

ولقيت هذه الملاحظات مزيداً من التأكد بما ورد في مخطوطات منقوشة على أوراق النخل (مكتوبة باللغة البراكريتية) التى اكتشفت اخيرا في الارشيفات الجينية في كامبى واسم المخطوطة هو «سود اشتاباشاريام» وتحمل التاريخ السموت «بطام هندى» ١٢٤٤ المطابق ١١٨٨م واسم الكاتب مجهول لكن المخطوطة تقول ان كجرات قامت بتصدير المنسوجات القطنية والحريرية وجوز التانبول وجوز الهند وصناعات العاج والعود الى البلدان الإسلامية وتشير المخطوطة الى المسلمين باسم «مليتشا» ونظراً لانه تم العثور على المخطوطة حديثا فإنها لا تزال تحت الدراسة[١١] ويقول المؤلف «هيماشاندراشاريا» (١٠٨٩ ـ ١١٧٣م) وهو عالم ونحوى بارز من طائفة «الجين» في كتابة «داواشرايا مهاكافيا» ان كلا من «سدراج جاياسيها» (١٠٩٤ ـ ١١٤٣م) و«كومارپال» ((١١٤٤ ـ ١١٧٣)م من الحكام السولانكى قد شجعا التجار البحارة من

«باتولا» في راحستان على الهجرة الى كجرات[١٢] ويشير الكتاب «فارباك سموشايا» الى الصناع المهرة كالنساجين والصباغين والطباعين مما يؤكد تطور صناعة المنسوجات في كجرات ووصولها الى مستوى عال جدا ويشير نفس المصدر الى التنوع في انتاج المنسوجات[١٣] وكانت رقتها موضع تقدير لدى سليمان السيراق الذي يقول بان هذه الانواع كانت مقبولة عند الجماهير في البلدان العربية[١٤]

ومن المحتمل انه يشير الى صنف «الباتولا» من القماش الذي كان انتاجه يتطلب مهارة فائقة ويقول الكاتب «مارتيما» (١٥٠٣م ـ ١٥٠٨م) ان ولاية كجرات قامت بتصدير أنواع مختلفة من القماش الى البلدان العربية[١٥] وقد أورد الراهب الجيني الشهير «لافاياساماايا» الذي الف كتاب «فيمال راباندا» في اواخر القرن السادس عشر ان الأسواق في مدينة «انهل وادباتان» كانت مليئة بالمصنوعات القطنية والمنسوجات في القرنين الحادى عشر والثاني عشر ويضيف الكاتب قائلاً بان المدينة كان فيها عدد كبير من الصرافين والسماسرة وكان «فيمال» تاجراً كبيراً وكان على علاقة ودية مع حاكم السولانكي «بيم ديو الأول» (١٠٢٢ ـ ١٠٧٢م) وكان يوجه دعوات ليس للتجار الهنود من ولايات أخرى فحسب بل للتجار من بلدان خارجية أيضاً من اجل تطوير كجرات ومدينة باتان تجاريا وإقتصاديا ولا يستخدم «لافاياساماايا» كلمة «العرب» بالذات وانما يستخدم كلمة عامة هي «يافانا» والمراد من كلمة «يافانا» كل من كان يعتنق الإسلام وعلى كل حال فإن حكام «السولانكي» كانوا حريصين على ان يستوطن المسلمون من الخارج موانيء كجرات[١٦] وعلى الرغم من ان المصدر الكجراتي المذكور انها يستخدم مصطلحات عامة للإشارة الى المسلمين فان باربوسا الذي زار كجرات والهند بين ١٥م و١٥١٧م وضع نقاطاً على الحروف وأشار الى المسلمين من مملكة «كامبايا» باسم الاتراك والمماليك والعرب والفرس وكانوا ينطقون بلغات ستى بما فيها اللغات العربية والكجراتية والتركية ويشترون التوابل والعقاقير والحرير الخ ويقومون بتصديرها للسويس عن طريق جده ، ميناء مكة وقد نقلت هذه البضائع من جدة بواسطة مراكب صغيرة ومن ثم على ظهور الجمال عبر البر الى القاهرة ومن القاهرة نقلها التجار الآخرون الى الاسكندرية ويستطرد باربوسا» قائلاً تأتي السفن من كافة الموانيء الى ميناء عدن خاصة من ميناء جدة حيث تنقل اليه النحاس والزئبق والقرمز والمرجان والصوف والحرير ويؤخذ العشر على البضائع عند عودتها وتتكون من

التوابل والعقاقير والمسوحات القطنية والصناعات الأخرى التى تحملها لملكة «كامبايا»(١٧)

وانتجت كجرات خام السكر والدبس وقامت بتصديرهما للبلدان العربية ويذكر الكتاب «مارساك ساموشايا» تسعة أنواع من الدبس و١٤ نوعاً من السكر المصنوع من قصب السكر وكان الجهاز الذى يستخدم لسحق قصب السكر يدعى «كولهو»(١٨)

وكانت النيلة المنتجة في كجرات مقبولة في البلاد الخارجية وكانت تزرع في كامبي ولاحقا في ساركيج بالقرب من أحمد اباد ويشير «ماركوبولو» (القرن الثالث عشر) الى كثرة النيلة في كجرات وتصديرها الى الموانىء الخليجية(١٩) ويذكر هيم تشاندراتشاريا (١٠٨٩ - ١١٧٣م) مادة النيلة بصفة خاصة(٢٠) الا ان المصادر الكجراتية لم تورد وصفاً لصناعة النيلة في الفترة التي يغطيها هذا البحث ونظراً لأنه لم يطرأ اى تغيير رئيسى في الأساليب الفنية الإنتاجية بين القرن الثاني عشر والسابع عشر يمكننا من ان نثق بما ورد في كتابات تاجرفرنسى جين باتيستا تافرنيير في منتصف القرن السابع عشر في هذا الموضوع يقول الكاتب في وصفه انتاج هذه المادة في مدينة«ساركيج» الهندية

تؤخذ النيلة من شجيرة تزرع سنويا بعد الأمطار وقبل تصنيعها تشبه الكتان الى حد كبير وبعد قطعها يرميها الهنود في أحواض الجير (الكلس) كي تصبح صلبة كأنها كتلة واحدة من المرمر ويبلغ محيط الحوض من ٨٠ الى ١٠٠ قدم وترمى الشجيرات المقطوعة فيه وهو ملىء بالماء الى نصفه او اكثر ثم يخلطها الهنود ويحركونها حتى تصبح الأوراق كالطين ، ويترك الخليط لبضعة أيام حتى ترسب المادة الى الاسفل ويبقى الماء الصافي في الاعلى ، وتفتح ثقوب في الحوض لاخراج الماء وتملأ السلال بعد ذلك بمادة لاصقة وكل صاحب سلة يأخذ العجينة اللاصقة في يده ويجعل منها قطعاً صغيرة في حجم نصف البيضه مسطحة في الاسفل ومدببة في الاعلى واما بالنسبة للنيلة المصنوعة في أحمد اباد فكانت بشكل كعكة صغيرة ، ويجب ان نلاحظ بصفة خاصة ان التجار كانوا ينقون شحنات النيلة المرسلة من اسيا الى أوروبا من شوائب التراب والغبار لتجنب تسديد الضرائب على أوزان لالزوم لها ثم يبيعون هذا التراب محلياً لإستخدامه في صناعة الصباغة(٢١)

وفضلاً عن المسوحات القطنية والسكر والنيلة الخ قامت كجرات بتصدير العقيق الى البلدان الخليجية واستوردت منها اللالىء ويقول كل من «هارتاما» و«باربوسا» (في بداية القرن السادس عشر) إن حجم التجارة بين كامبى ومنطقة الخليج كان بارزا للغاية(٢٢) ووجد عدد كبير من العرب في كامبى وجاء العرب بالخيول واللآلىء وأخذوا معهم العقيق والاحجار الكريمة الملونة بشكل الأختام ومقابض السيوف والخناجر والأساور الى سواحل البحر الأحمر ومن هناك جاءوا الى أوربا عن

طريق القاهرة والاسكندرية[٢٣] وتحدر الملاحظة ان الإصطلاح الإنجليزيAgate مبنى على الأصل العربي «عقيق» اى (قاع النهر) مما يدل على إنعكاس العلاقات التجارية القديمة على العلاقات اللغوية والثقافية ايضاً وكان تجار العقيق قد أسسوا في كامبي نقابات خاصة بهم كانت تسمى «جماعات عقيقية» وحتى يومنا هذا يتداول نفس الاصطلاح بين صفوف منتجي ومصدري الصناعات العقيقية في كامبي الذين يتعاملون مع افريقيا والبلدان الخليجية[٢٤]

وقد تلقت صناعة العقيق في كامبي في العصور الوسطى دعماً ملحوظاً من التجار العرب الذين اشتروا منتجاتها بالجملة وقاموا بتصديرها للأسواق الآسيوية والأفريقية وفي أواخر القرن الخامس عشر استوطن معامر تجاري حبشي اسمه «باب غور» كجرات واسس مصنعا صغيراً في «رتنبور» في ولاية بروس الهندية بمنطقة «راج بيلا» وهي منطقة معروفة بمناجم العقيق خاصة بالقرب من قرية «نيمودرا» الواقعة على بعد ١٠كم من «رتنبور» وقام «باب غور» بتشغيل المصنع بالتعاون مع إخوته واخته المسماه «ماى مريم» وقد أسست العائلة مصنعا اخر للإنتاج في كامبي نظراً لملاءمة موقعها الذى يظهر بوضوح في الخريطة كموقع يقع في وسط المراكز الانتاجية ما بين الشرق الأقصى والملايو وجزر التوابل وما وراءها والصين واليابان من جهة والموانىء العربية والفارسية من جهة أخرى فكان من الطبيعي ان يستوطن باب غور ، وعائلته

كامبي وقبل وفاته كان قد وسع نطاق صلاته التجارية ليشمل البلدان الخليجية العربية والفارسية وكان له كبير الأثر في تطوير صناعة وتجارة العقيق حتى سميت مناجم راج بيلا ، مناجم بابا غور ، وأصبح شخصية أسطورية وقد بنى معبد تكريما له حيث يؤدى منتجو العقيق حتى اليوم الصلاة ومنهم الهندوس وغيرهم كما يسمى العقيق الأحمر باسمه التجارى «ماى مريم»[٢٥] وكان منتجو كامبي يقدرون بالإضافة الى العقيق من مناجم «بابا غور» الأحجار شبه الكريمة من كل من البصرة وعدن[٢٦]

ان مصدراً تاريخيا اخر في كجرات ذا أهمية يلقى مزيداً من الضوء على العلاقات التجارية التى كانت قائمة بين التجار العرب وتجار كجرات وهو عبارة عن قصيدة بعنوان «جاكدوشارت» باللغة السانسكريتية كتبها عالم جيني في حوالى ١٣١٩م[٢٧] وفيها يسرد الكاتب سيرة تاجر جيني اسمه جاكدو ذاع صيته في القرن الثالث عشر وانقذ كثيرا من الأرواح اثناء المجاعة التى اجتاحت البلاد من ١٢٥٦م الى ١٢٥٨م وعلى الرغم من ان القصيدة لا تخلو عن المبالغات الا انها تخلو من السخافة مثلما ورد لاحقا في كتابات الكتاب الآخرين ونظراً لأهميتها بالنسبة للموضوع سنتعرض بعض نصوصها السانسكريتية

كان «جاكدو» طبقاً لنص القصيدة من طائفة الجين من «كاشا» وزار عدن وهرمز كثيرا برفقة مساعده «جايانت سينغ» وكانت سفنه تجوب البحار بين

«بادريتشوار» الواقعة على بعد حوالى ٦٠كم من ميناء «مانداوى» في «كاتش» وكل من عدن وهرمز وكانت السفن تحمل بضائع متنوعة وذات يوم أرسل حاكدو مساعده «حايابت سيبع» الى الميناء الممتاز «عدن» وعقب وصوله هناك قابل تاجراً تركياً من «كامبى» وشاهد التاجر التركى حجراً ثميناً كبيراً في الميناء ونافس «حايابت سيبع» في شرائه لان ضابط الميناء بدأ المساومة حول سعره وكان حايابت سيبع ، مستعداً ليدفع ١٠ دينار لكن التاجر التركى عرض ٢ دينار وفي المزايدة التى تلت اشترى «حايابت سيبع» الحجر مقابل ٣٠ دينار ومرة سافر «حاكدو» الى عدن حيث أسس فيها سوقاً لبيع سلعه وفى هذه الاثناء اتصل به بعض القراصنه الذين كانوا قد نهبوا سفينة محملة بشحنة شمع واقترحوا عليه شراء السفينة فاشتراها «حاكدو» ورجع بها الى «بادريتشوار» ولما اذاب الشمع وجده يحتوي على ٥ طاسوقة ذهبية وهكذا ربح أموالاً طائلة من مجرد صفقة واحدة وتقول القصيدة ان حاكدو ، جمع ارباحاً خيالية من تجارته مع المسلمين في عدن وبنى مسجداً جميلاً في «بادريسوار» باسم «المسجد الجملى»[٢٨]

ان القصيدة المذكورة عن سيرة حاكدو ، تشبه قصة الحوريات وقد يرفضها المؤرخ الحديث بسرعة لكنه يجب علينا ان ندرك بأنه بالمقارنة مع العرب والمسلمين المعاصرين كان الهندوس غير مهتمين بالتاريخ او بكلمات أخرى انهم كانوا مقيدين بالنظم الفردية والأسطورية في تفكيرهم[٢٩] ولم يكن المؤرخ الهندوسي يبالى بما اذا كان ملك من الملوك قد حكم ٣٠ سنة او ٣٠٠ سنة او أن تاجرا من التجار اشترى أحجاراً كريمة بسعر ٣٠٠٠ دينار او مليون دينار لذلك يجب علينا ان نلجأ الى الإستنتاجات من تراثهم الأدبي ان كان متاحاً ولم يكن حاكدو ، وحيداً في بناء مسجد بل كان «ماستوبال» هو الثاني في القرن الثالث عشر الذى شيد مسجداً حسبما ورد في «البرابانـدا الساسكريتية»

وتقول المصادر المعاصرة ان حكام السولانكى ، كانوا متسامحين نحو الإسلام وشيدت عدة مساجد في المدن كـ «باتان» و«كامبى» و«بروش» وخطب فيها الائمة غير الهنود والأمر الذى حث «ماستوبال» و«حاكدو» على تشييد المساجد كان روح التسامح التى سادت اذاك وقد يكون للاعتبارات التجارية دور اكبر وراء هذه الظاهرة ويقول سوميشوار (القرن الثالث عشر) بان «ماستوبال» كان تاجراً كبيراً وفي نفس الوقت مديراً لميناء كامبى وانه استورد عدداً كبيراً من الخيول وعلينا الا ننسى ان روح التسامح الدينى التى سادت انئذ لم تكن تياراً باتجاه واحد فالمصادر الأوروبية للقرن السابع عشر تقول ان الهندوس بنوا معابدهم في كل من هرمز وجمرون واصفهان وعدن ، وكانت توجد في المدن الموانىء جاليات هندوسية يسميها الاوربيون «جنتوس» و«البانيان» واحتفلت هذه الجاليات بأعيادها مثل «عيد الأنوار» وغيره بحرية تامة[٣٠] والمهم ان المقتضيات لدى التجار والحكام

الدين اهتموا بالتجارة وكان كل من الكجراتيين والعرب حريصين على ان تزدهر موانيهم ومراكزهم التجارية وقد جاء فيما كتب ماركوبولو في القرن الثالث عشر ان ملك عدن يملك أموالاً طائلة مكتسبة من نظام الضرائب والرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من الهند(٣١)

ان كجرات مدينة للعرب بمعرفتها أساليب صناعة الورق ويفترض على العموم ان كلا من كشمير والبنجاب كانتا من أوائل المناطق التى عرفت المهارات المطلوبة في صناعة الورق من ايران والبلدان المجاورة في القرن السابع عشر ولكن اذا أخذنا بعين الإعتبار العلاقات التجارية والثقافية القائمة بين الكجراتيين والعرب في ضوء الشهادات المتوفرة من المصادر المعاصرة فقد نعيد النظر في صحة هذا الإفتراض يقول «نيكولاوكونتو» وهو سائح ايطالى زار كجرات في بداية القرن الخامس عشر «يستخدم سكان كامبى ، فقط الورق ويكتب الهنود الآخرون على أوراق الاشجار ويجعلون منها أوراقاً جميلة»(٣٢)

ولقد لقيت الإتصالات بين العرب وكجرات دعما منذ وسط القرن الثامن عشر لأسباب شرحناها انفا وتعلم العرب أسلوب صناعة الورق من الصينيين في حوالى عام ٧٥٠م وكان للعرب مستوطنة ليس فقط في كامبى ، بل في «احمد اباد» أيضاً عقب تأسيس تلك المدينة في عام ١٤١١م على يد السلطان احمد شاه ويوجد حتى الآن حى في مدينة احمد اباد يسمى «كوتساراب» حيث يعيش فيه أخلاف منتجي الورق وكان هذا الحى مركزاً هاماً لانتاج الورق قبل القرن التاسع عشر وتعتقد أسر «كاجدى» في صحة الإفتراض التقليدى القائل ان العرب اسسوا مستوطنه في «كوتساراب» على ضفة نهر سابارمتي» وليست كلمة «كوتساراب» الاتحريفا لكلمة «كوجه عرب» اى «حارة العرب» وتقودنا هذه الدلائل الى النتيجة بأن كجرات عرفت صناعة الورق بفضل إتصالاتها بالعرب(٣٣) وان هذا الإجتهاد الفنى كان له أثر طيب في القرن السادس عشر عندما حل الورق المصنوع الحديث محل اوراق الأشجار(٣٤)

ونستنتج مما سبق بأن التعامل المتبادل بين التجار العرب والتجار الكجراتيين استمر دون إنقطاع وكانت صلاتهم التجارية قائمة على منتجات بلادهم من ناحية أخرى اتخذت التجارة صيغ التعامل المتعددة الأطراف مما ساعد في التقارب والتكاتف بين التجار العرب والتجار الكجراتيين مؤدياً الى إستفادتهم المشتركة من النظام التجارى العالمى القائم قبل القرن السادس عشر ولا ندرى مدى تاثير كجرات على ثقافة العرب ولغتهم ومما لا شك فيه ان كجرات إستفادت من إتصالها بالعرب من نواح عديدة وتعلمت صناعة الورق منهم وساعدت هذه الميزة فقط في إحراز تقدم مفاجىء في نظام الاعلام وتحمل اللغة العربية نفس الدرجة من الاهمية في تأثيرها على كجرات بادخال كلمات ومصطلحات جديدة بل وأساليب التعبير نفسها عبر بضعة قرون وكانت كجرات مستعدة تماماً لإستيعاب تأثيرات عربية سواء في حقل اللغة أو الثقافة

الهوامش

1. For details see Asoke Kumar Majumdar, Chaulukyas of Gujarat A Survey of History and Culture of Gujarat From the Middle of the Tenth to the End of the Thirteenth Century (Bombay, 1956); S.C. Misra, Rise of Muslim Power in Gujarat (Bombay, 1963); S.C. Misra, Muslim Communities in Gujarat (Baroda, 1963); Ajaz Bano, "Nobility Under the Sultans of Gujarat", Indian History Congress, Proceedings, Kashmir University, Srinagar, 1986, pp. 290-96; Pushpa Prasad, "Feudal Organisation in Pre-Sultanate Gujarat", Indian History Congree, Proceedings, Annamalai University, 1984, pp. 330-35

2. Vibhuti Bhatt, Someshwarni Krutio: Aitihasik ane Sanskrutic Adhyayan The Works of Someshwar: A Historical and Cultural Study (Ahmedabad, 1989); A V. Katharate, Kirtikanmud; A Life of Vastupal, Minister of Lavanprasad and Virdhaval Vaghelas (Bombay, 1883).

3. Albert Gray and H.C.P. Ball (eds), The Voyages of Francois Pyrard of Laval to the East Indies the Maldives the Moluccas and Brazil, 2 vols., 2, pt. 1 (London, 1888), p. 250.

4. For details see K.N. Chaudhuri, Trade and Civilization in the Indian Ocean an Economic History from the Rise of Islam to 1750 (Cambridge, 1985).

5. For details see Chhotubahi Nayak, Gujarati Par Arabi-Farsini Asar Influence of Arabic-Persian languages on the Gujarati Language (Ahmedabad, 1954); Prabhakar Ramachandra Pandit, Apabrashtha Shabdaprakash A Dictionary of Gujarati Language showing how it went on Changing as a Result of the Impact of Sanskrit, Persian, and Arabic Languages (Bomaby, 1880); T.K. Samshi, Arabi-Gujarati Dictionary, 2 vols. (Surat, 1966).

6. Samshi, Ibid., p. 1 (Introduction).

7. For details see Henry Elliot, The History of India as Told by its Own Historians, 8 vols. (London, 1867-77).

8. Mansel Dames (ed.), The Book of Duarte Barbosa, 2 vols., I (London, 1918), pp. 47-48.

9. Elliot, op. cit., vol. 3, p. 31.

10. Majumdar, op. cit., p. 260.

11. This manuscript is in possession of the L.D. Institute of Indology, Ahmedabad. Our source of information is Ms. Salona Joshi, Lecturer in Prakrit, L.D. Institute of Indology who showed us this rare palm-leaf manuscript

12 Rasiklal Parikh and Hariprasad Shastri (eds.), Gujaratno Rajkiya ane Sanskrutik Itihas, 8 vols., vol. 4 (Ahmedabad, 1976), pp. 242-43.

13 Bhogilal Sandesara and R N Mehta, Varnak-Samucchaya, vol. 2 (Baroda, 1959), pp 140-48.

14. Parikh and Shastri, op. cit., vol. 3, pp 164-65

15. John Winter Jones, The Travels of Ludovico DI Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Arabia Felix in Persia, India, and Ethiopia A D. 1503-1508 (London, 1863), pp 106-07.

16. Dhirajlal Dhanjibhai Shah, Lavanyasamaya Virachit Vimalprabandh (Ahmedabad, 1956), pp 31-32, 155-59

17. Mansel Dames, The Book of Duarate Barbosa, vol 1 (London, 1918), pp. lxv (introduction), 55, 108.

18. The local technical terms for the products and for the artisans who produced them are described in detail in B.J. Sandesara and J.P. Thakar, "Some Important Vocables from Sanskrit Commentaries on Jain Canonical Texts", Journal of the Oriental Institute, vol. 15, Nos. 3-4 (Baroda, 1966).

19. John Masefield, The Travels of Marco Polo (London, 1926), pp. 384-85.

20. Majumdar, op. cit., p. 259.

21. V. Ball, Travels in India by Jean Baptiste Tavernier Baron of Aubonne, 2 vols., vol. 1 (London, 1889), pp. 8-12.

22. Jones, Varthema, op. cit., pp. 106-07; Dames, Barbosa, op. cit., pp. 47-55.

23. Barbosa, Ibid., pp. 142-44.

24. Makrand Mehta, "The Agate Industry of Cambay", in A.V. Narasimha Murthy and K.V. Ramesh (eds.), Essays in Indology (Delhi, 1987), pp. 109-22

25. Ibid.

26. Ibid , Also see Dames, Barbosa, vol. 1, op. cit., pp. 43-47.

27. For details see Maganlal Dalpatram Khakhhar (ed.), Shri Jagduchartt (Bombay, 1896).

28. Ibid.

29 For the Hindu World-view of History see Albam G. Widgery, Interpretations of History (London, 1916), pp. 43-63; For a strong defence of this view see Ashis Nandy, Alternative Sciences. Creativity and Authenticity in Two Indian Scientists (New Delhi, 1980), pp. 1-12

30. T.H Esquire, A Relation of Some Years of Travaile Begunne Anno 1626 Into Afrique and Greater Asia by T.H. Esquire (London, 1634), pp. 48-50; "A Voyage Round the World by Dr. John Francis Gamelli Careri in the 17th Century" in A Collection of Voyages and Travels, 6 vols., vol. 4 (London, 1732), pp. 174-76.

31. Masefield, Marco Polo, op cit., p. 402.

32. Quoted by George Watt, The Commercial Products of India (London, 1908), p. 863.

33. Makrand Mehta, "Indigenous Paper Industry and Muslim Entrepreneurship", Indian Journal of History of Science (Indian National Science Academy, New Delhi, vol. 17, No. 1, May 1982, pp. 46-58

34. Sarabhai Manilal Nawab, Jain Kalpadrum (Ahmedabad, 1936), pp. 25-26, 55.

20. V.O.C. 1251. Extracts from Batavian report to the Directors. 30 Jan 1666
21. V.O.C. 1259. p. 3320. Letter from Gambroon to G.G. 12 Jan 1666
22. V.O.C. 1259 1669.
23. V.O.C. 1278
24. V.O.C. 1539 pp. 133-135
25. V.O.C. 323, Holland to Batavia. 8-7-1693.
26. Arnold Wilson. Op Cit.p. 134
27. Travels. Vol 3. 1720 AD p. 165 1927 II Edn.
28. Travels of Traverniere 1684 Vol 2 pp. 145 & 95
29. Renault. History of Eastern & Western Islands.
30. Aitchison Treaties .. Vol 11 p.190 Delhi 1933
31. J. Moriere. Travels in Iran. 1808-09 p.52
32. Durand. Administrative Report of the Gulf. 1877-78
33. Memo. R.G.S. Magazine. Vol 3 1833.
34. Bombay Selections. Vol 24 1856. p. 560
35. Wellsteadt. Travel to the Land of Caliphs. 1840. Vol 1 p. 114
36. Bombay Selections. op cit. p. 67
37. Teleg. 299 of 31 May 1871. Col Pelley to Ruler of Bahrain.
38. F.O. 78 2444 Letter 32 of 16 Jun 1871 to India Office.
39. F.O. 78 5108. Pt 3. 1879-1884
40. Landen. A. Review of the History of Bahrain. pp. 53, 54 1983.

REFERENCES

1. Dr. Sami Saeed al Ahmed. Tarikh al Khaleejil Arabi, pp 210, 240, Basra 1985
2. Royal Geographical Society Magazine. Vol 12 / 1890. G.N. Kenys & C.H. Stevenson The Book of Pearls. London 1908.
   Arnold Wilson, The Arab Gulf p.30 1928.
3. Dr. Al Ghunaim, Abdullah Yusuf, Al Ghus ala Al Lulu. p.30. Kuwait 1973.
4. Nasir Khusro. Safarnama, p. 144. Dr Yahya al Khasshab
5. Al Idrisi. Jazirat al Arab Min Nuzhat il Mushtaq, pp. 51-54, Baghdad. 1971.
6. Al Watheeqa 3/81/92 (Al Juboor etc by Dr. Ali Aba Hussain).
7. Al Watheeqa 103/4, 121, 123. Letters of Afonso de Albuquerque. Vl 1. Letter 50 pp. 264-265. Document 48 Archive Tori Tombo 20 Oct. 1514.
   Duarte Barbosa Pt 1, p. 80, 1921.
8. G.H. Van Linschoten. Book of Hormuz Kings. 1596.
9. Travels of Pedro Texeira in 1604. pp. 175-177 London 1902.
10. Jehangir Qaimuqam. Hormuz & Portuguese-Iranian Relations. Persian Magazine Dirasat Tareekhiyya. 1975.
11. Ottoman Register of Important Documents 1123 / 3, p.379 18 Shaban 967H.
12. Ottoman Register of Important Documents. 33 / p.43 981 H / 1573 AD
13. Ottoman Register of Important Documents 27 p. 197 12 Shawwal 983 H 1575 AD & Document 145 / 1 (Portuguese Influence in Bahrain).
14. V.O.C. 1146 of 23 Nov. 1643
15. V.O.C. 1144 20 Dec 1643
16. V.O.C. 1203 2 May 1645
17. V.O.C. 1243 / 1244 5 May 1663
18. V.O.C. 1248. pp. 1375-76
19. V.O.C. 1148

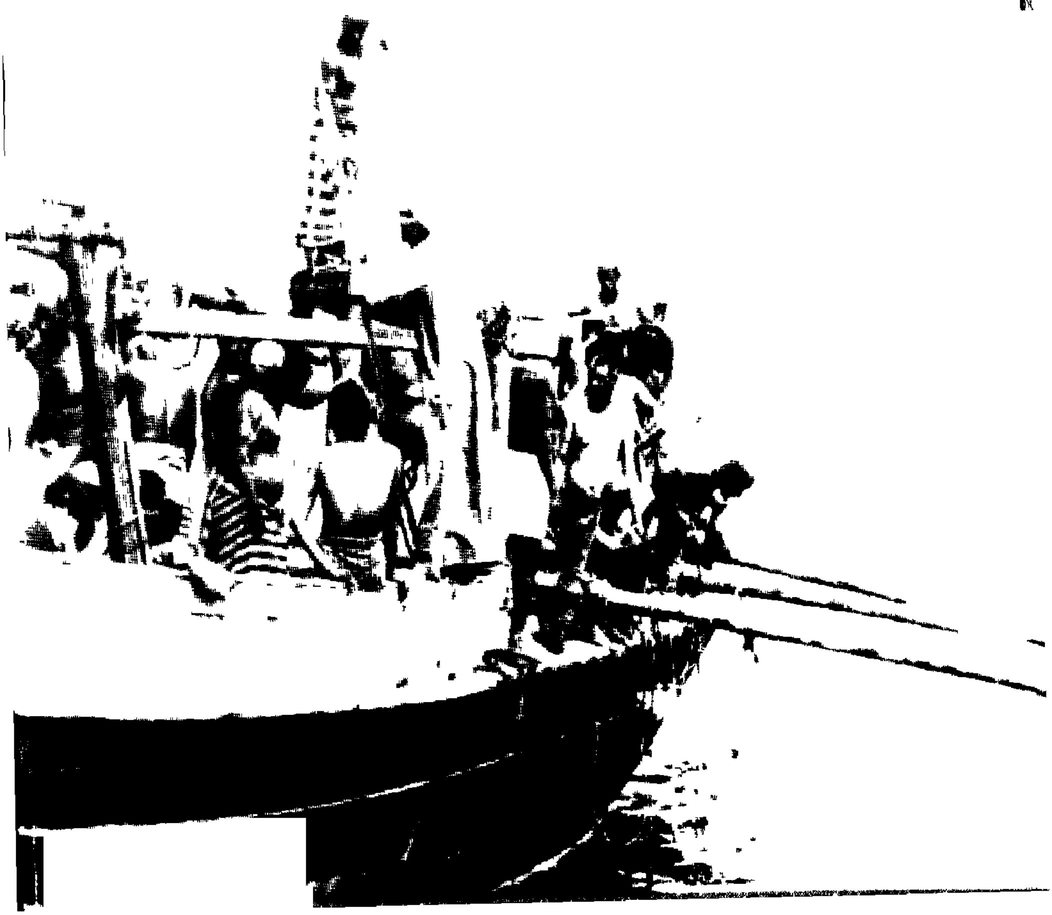
ceeded against the Omani attempts to dominate the Gulf trade Thanks to peace and security which prevailed in the Gulf the pearl-trade saw the expansion and sea-transportation of merchandise by Bahraini sailors in ever-increasing modes As early as 1830s a number of Indian merchants established themselves in Bahrain under British protection This in turn facilitated bilateral movement of merchandise between India and Bahrain However the internal disturbances which rocked Bahrain in the thirties and forties caused material losses to farmers, merchants and businesmen Some of them migrated as a result, to adjacent coastal areas In the beginning of the 1860s the British sea-traffic in the Gulf waters increased greatly and cargoes were shipped to India from the Gulf at the expense of local ship-owners This was despite the fact that the British steamers did not halt in Bahrain regularly until 1904. The local ships largely confined themselves to short hauls within the Gulf waters [40]

When Lorimer published his Gazetteer he mentioned that 917 ships were employed on pearl-fishing in Bahrain in 1907 and the produce in the year 1905-1906 reached a level of a million rupees in pearls or an equivalent of 1,434,399 pounds sterling

waters around the pearl banks and also to increased demands for it.

The Bahrain pearl exports reached a level of 50,000 pounds in 1790 AD The estimates cast at the beginning and middle of the 19th century of the volume of pearl trade showed wide divergence The estimate for 1830 was 35,000 pounds It was exaggerated no doubt. The export of pearls in 1975 reached 180,000 pounds which is reasonable and logical The production could even have been higher because some of it was concealed to avoid payment of tax

Similar to pearl production the general trade of Bahrain also registered an upward swing between 1783 and 1875 despite the ups and downs witnessed in Bahrain's economic life during this period It was during this period that the Al Khalifa came to Bahrain and along with them came a band of experienced seamen and traders from the Utoobi establishments in Zubara The Al Khalifa suc-



says The only Shaikh who has an imperative need for a battle-fleet is the Shaikh of Bahrain who has to face greedy and ambitious foreigners and danger to his pearl-banks and other wealth He can retain his independence only through naval superiority [36] During the second half of the 19th Century Britain undertook the responsibility for sending warships to Bahrain to protect the Pearl Banks The Shaikh of Bahrain was informed of it [37] A telegram from Pelley to Shaikh Isa Bin Ali Al Khalifa, the Shaikh of Bahrain said "The interests of the people who live in your Islands & conduct pearl-fishing will be defended by us HMS Hugh Rose has sailed for Bahrain with the Assistant Resident on board for this purpose [38] This British precaution was taken in view of the Ottoman intervention in Bahrain & the spread of Ottoman influence in the Al Hasa Coast All the agreements and treaties which were entered into with Bahrain provided for British defence of Bahrain pearl-banks which were under the control of Bahrain The British, thus, incidentally recognised the sovereignty of the Ruler of Bahrain over his terriotories implicit in the agreements concluded with him. [39] Thus the question of delimiting the boundaries of pearl-fishing was done according to tradition and custom as inherited according to Miles, who was the Political Resident in 1886 and who assumed several posts in the Gulf He has recorded his observations after carrying out a personal study of the problem. His memoirs were published by his wife after his death. He says The famous pearl-banks of the Gulf extend from Kuwait to Sharjah, a distance of 330 miles The people here have been pursuing pearlfishing since ancient times This continues to be just as important today because of the quantity and quality of production particularly around the Sheikhdom of Bahrain extending from Qatar to Qatif About 2500 ships sail there every year for purposes of pearl-fishing.

The period 1783 to 1875 AD witnessed a particularly productive phase in pearl-production This is attributable to the calm prevailing in Gulf

subject: The longest and biggest pearl-banks lie in the vicinity of the Bahrain Islands. 1500 boats take part in pearl-diving operations and each boat pays to the Shaikh of Bahrain 5 Crowns [33] Capt. Brucks of the Indian Navy supports Wilson's observations Brucks conducted a survey of the Gulf and alluding to Bahrain said 30,000 divers are engaged in diving operations The Shaikh of Bahrain has 2430 ships with a crew of 8 to 20 on each The Shaikh imposes a nominal tax on each boat for providing it protection. Apart from the 5 armed ships, the Shaikh of Bahrain sends his own boats at own expense for ensuring security He can put to sea another 15 to 20 battle-ships if the need arose for the same [34] Describing the pearl-banks in the course of his survey operations in the Gulf between 1820-1829 AD Brucks says The pearl-banks start from the Qarn Island and extend upto Sharjah and their extent varies from place to place The richest of them is along the Bahrain coast which extends from Lat 27° N, Long. 50 E to the eastern corner near the descent of the coast Due to the prevailing freedom of action along those coasts the people of the Gulf avail themselves of the opportunity of fishing there in peace and security under the protection of the Ruler of Bahrain

It is worth mentioning that Lieut J.R Wellsteadt, a colleague of Brucks in the Indian Navy and operating with him in survey operations has also recorded his personal impressions in a book [35] He says· The right to pearl-fishing is a common right enjoyed by Gulf citizens except that everyone traditionally respects the areas being the preserve of certain parties Over the centuries Bahrain has had a lion's share in these areas. The people of Bahrain are sea-faring and subsist on the products of the sea and submarine resources. They have imposed their control over the archipelago including all islands, shoals and reefs where their ships seek shelter from the ravages of weather It has abundance of sweet water which is of great importance to divers and all merchant ships

Campbell, the Assistant Resident in the Gulf in 1844 AD

However, all of them seem to be agreed that whoever controlled Bahrain controlled its wealth in pearls and pearl-banks It was thus necessary for Bahrain to defend the pearl banks and impose taxes for providing protection Thus the pearl-banks became an integral part of Bahrain particularly in the 19th Century This situation continued until the end of the pearl-fishing era and the beginning of the oil era in the Al Khalifa reign We shall briefly touch on the contents of travelogues, diplomatic reports, books and British documents. Among these is a travelogue of a secretary of the British Embassy in Iran who wrote as follows in 1808 AD "The Bahrain Islands are the richest in pearlwealth in the Gulf and the Shaikh of Bahrain imposes a tax on pearl-fishing [31]

Both Lieut Bruce and Capt Taylor who were Residents in the Gulf, in a letter dated 26 Jan 1817 addressed to the Governor of Bombay say that what the Utoobi Shaikhs are doing is merely a revival of past practices The Ruler of Bahrain imposed a tax of two Tomans on every boat annually The Shaikh himself owned 7 war ships to protect the pearl-fishing fleet during the season. The Fleet went out into the diving areas and escorted the pearl-boats home in all safety

Captain Durand supports this assertion in his memoirs when he says. In the year 1816 AD (i e, before 80 Years) the Shaikh of Bahrain imposed a tax so that he could raise a battle-fleet with this income for defending the pearl-banks and the coastal harbour areas where the boats laid anchor The Shaikh of Bahrain had four battle-ships equipped with weapons to constantly patrol the diving areas These ships had a share in the catch of the pearl-boats [32] This tax was known as Nobe It was regularly paid to the Shaikh of Bahrain and thus was a source of prosperity Taxes used to be collected immediately on departure of the boats to diving areas. According to Durand the same system continued later Colonel Wilson, the Political Resident has emphasised the importance of Bahrain in pearl-fishing and says in his memorandum on the

under the guise of trade supported by the Shah of Iran in return for their assistance against the Portuguese

Ralph Fitche has described in his travelogue the admirable qualities of Bahrain pearls and how these circular shaped pearls of quality found their way to Hormuz [26]

The French envoy in Iran between 1671 and 1677 (Chardin) has recorded in his diary the following) Pearl-banks are found along the Arab Gulf coast particularly around Bahrain [27] Another Frenchman Tower Nyere, has devoted a chapter in his book to pearl banks and diving and has said Excellent pearl-banks are found around Bahrain [28]

Almost a century later the traveller Niebuhr (1765AD) described the Awal Island and its surroundings located in the western part of the Gulf each one by its disctinct name. He has narrated their immense wealth and estimated their income from pearlfishing and dates as 30,0000 French Livres or 100,000 Rs. The Governor of Bahrain collected the duty and enjoyed military powers which he exercised to maintain security in the diving areas Two years after Niebuhr's travel, i e , in 1767 AD Renault wrote saying that Bahrain was more important and more rich pearl-wise than any other coast-line The Arabs practised this trade and paid taxes to the Ruler of Bahrain. [29] The Shaikh of Bahrain owns a battle-fleet which carries out patrolling of the pearl-banks It is no wonder that the Rulers of Bahrain protect the source of their wealth and their citizens against piracy so that they do not lose their pearl coasts.

It is worth mentioning that Bahrain was always the bone of contention among the various foreign powers because of its pearl wealth [30] In spite of it the Utoob exercised wisdom and sagacity in dealing with the aggressors and thus preserved their sovereignty over Bahrain A study of official and unofficial documents written by British Agnets and other diplomats and travellers of the 19th Century shows that they contain minute and detailed information even though they are influenced by their personal dispositions

of certain varieties If this happens in future this will be charged to the personal accounts of those who purchase such wasteful pearls [25]

It is worth mentioning that Valentine prepared a realistic report mentioning in it what the western writers had written about pearl banks and pearl-divers and the protection money they paid to the Shaikh of Bahrain for guaranteeing their security in the Arab Gulf appears in the chronicle describing how a Briton, Ralph Fitsch by name along with his colleagues returned to Britain and narrated to the authorities there how rich the Arab Gulf was and how this wealth could be appropriated through trade The British were convinced of their eyewitness account and thus came into being the East India Company in 1600 AD The British established their bridgehead in the Arab Gulf



transactions to Ceylon so that they could be forwarded to Holland for the determination of profitability and the issuance of further instructions During the last year the Agent ordered the purchase worth 10,000 Gilders annually Koopman informed the Ambassador in writing that pearls should be bought in Cong and not in Bahrain Koopman Richajen was despatched so that he could obtain more accurate information Rinchajen wrote to us recently from Cong stating that pearls should be bought in Bahrain and not in Cong His justification is contained in the attached extracts from his letter Koopman was unable to spend 50,000 Gilders during the last season for buying pearls He could expend only 34,291/17/6 Gilders for the purpose because of the enthusiasm shown by Indian merchants in sending pearls to Surat. The prices went up because of this and Koopman was unwilling to pay the enhanced price as commercially it made no sense to Holland Based on the orders of the esteemed Ambassador we sent different commodities from here to Cong for assessing the market trends and potential there We raised the Dutch flag in the colony of Dutch residents in Gambroon This raised a storm of protest by the Portuguese with the King. The Portugues lowered their own flag Thereafter the Shah Bunder lowered the flag of the Company and removed the mast and all its attachments The Shah Bunder pleaded that the flag had been raised without the King's permission and that he had ordered its removal in writing The written order was however, not shown to us No copy of the order was given to the resident (24)

The following appeared in a letter from Holland addressed to the Batavian Government "With regard to the pruchase of pearls from Cong or Bahrain wherever a better deal could be struck against a specified amount of investment, suffice it to say that if our employees followed our instructions we shall certainly make profit If they exceed the brief and follow their own inclinations as has been happening we shall lose instead of gaining This is obvious from an analysis of the sales

slightly higher this year compared to previous years The reason for it is traceable to bigger purchases by the Jews of Venice this year compared to last year Large quantities were also exported to Surat since the British removed the barrier on it after several years and trade with Surat has now become free consequent to the signing of a peace treaty between the British and the Moors

I used my discretion in buying some pearls of sizes bigger than you ordered out of belief that they would fetch good profit in Holland If it be true and you would like larger quantities of these types to be bought please inform us immediately indicating the types which have fetched good prices so that I may select that lot

During my stay here I hope to buy a pearl necklace whose every pearl would weigh 24 or 25 grains As for seed pearls of 4 to 12 grains I hope to send large quantities of them every year for the current prices It is likely that their prices will come down in due course. I shall exercise maximum caution in all transactions However I am very sorry that I could not sell the ducats which I received in Gambroon at the rate of 16 Muhammadis for more than 14 5 Muhammadis That is considered a high price here because of shortage of Muhammadis The moneychangers exchange a ducat for 13 60 Muhammadis. It is better for the Gambroon office, in future, to pay me Muhammadis than ducats every year to enable me to cater to your requirements because the merchants are reluctant to accept ducats

With regard to pearl-fishing in future, I do not recommend it to your Excellency because of low profits I engaged ten boats for the purpose but not one could earn enough to cover its own expenses Pearl-fishing is conducted every year purely on hope and sepculation by a group of people who have nothing else to do

In a report sent from Gambroon to the Governor General in 1969 the following appears "As regards the buying of pearls, Koopman was sent there in 1690 by the Agent Van Reed with necessary instructions We sent the results of commercial



heavy and their rates vary from 130 to 150 Muhammadis depending upon the yellow/black colour-mix and the roundness of shape The same weight of Banja is sold for 60 or 70 Muhammadis for the same considerations The Pea is sold for 16 or 17 Muhammadis for the same weights In the case of Kabisa it should be noted that the prices quoted above are not for circular ones whose weights are 2 5 grains or more as their weighing and pricing is done on an individual basis The standard of 24 is used to classify the pearls according to their three types for purposes of customs duty These are the considerations that apply to pearl-trade and pricing index which I have applied in purchasing them as can be seen in the accompanying list I have no doubt that my purchases will receive your Honour's appreciation although they have cost us

local language and the Arab mind He should be given suitable instructions to find out the types of merchandise which could be sold profitably and the stores which could be loaded in the returning ships He should know all matters which would promote continued commerce in view of the reputation of Muscat as an important centre of trade Muscat continues to prosper because of the large number of Indian merchants who visit it annually It seems its market has a potential from the Company's point of view Once the study is completed it may be possible to analyse it It is not necessary to despatch a team there hastily We should first wait for the announcement by the Arab Ruler as to what concessions he is going to grant to us in customs duty We should not show excessive interest in our trading with that country He has himself invited us several times to trade with Muscat

We are hoping that he would grant us customs concessions but if he does not come out with specific concessions and confines himself to expressing generalities like he did in his last letter only to keep us in good humour then we should conduct our business under the garb of buying some horses There are very few horses of the type in Iran We should bring some horses of a strong build which are available in plenty in Muscat Under this guise we can gather the information we want

We have completely stopped buying pearls in Cong and Bahrain We shall not revive it unless we receive fresh instructions from your Honour [23]

Koopman stated in his letter dated 15-10-1690 "I went to Bahrain on 19 July in a small boat which I hired for two months to gain the experience of pearl-diving operations on behalf of the Company and take some other measures in regard to pearl trade This report contains the result of my investigation Let me begin by saying that the pearls here are divided into three kinds They are called Kabisa, Barija and Pea respectively This will be clear from the attached specimens The Kabisa is sold for weights lesser than 3 5 grains because the Arabs consider half an ounce as

ited amount taken for this purpose as a trial balloon to know if it would be in the Company's interest to enter this trade [20]

In his reply to the Governor General, the Director of the Dutch Company states that he sent Koopman to Cong to buy a quantity of pearls to be sent to Holland but that he could buy no more than 303 carats (443 pearls) and 637 seed pearls for a total price of 1319/-/12 Gilders It means that the trial proved abortive and there was no need for the Company to repeat the trial. If the Company had on its rolls an experienced person capable of striking a deal about mixed lots of pearls he could have bought the stuff from Bahrain without depending on the Banian Unless we are able to employ a senior official of the Company with experience in this field all our efforts will come to nought nor shall we be able to discover the secrets of this trade in a proper manner [21]

The Dutch Director in Gambroon said the following in his letter to the Governor General. We sent our representative during two successive years to Cong to explore the possibility of buying quantities of pearls suitable for Holland but the effort was fruitless We could buy only very limited quantities which showed that this had no future If your Honour çan secure the services of a Dutch citizen who has competence in this field he may be asked to try it out in Bahrain on a modest scale The Company may wish then to pursue this trade When I reach Batavia I shall submit a report to your Honour in this regard as I had done in the past through the medium of urgent letters We do not have a qualified person on our staff in this office to carry out the trial as should be done unless you agree to spare the services of Koopman for 4 or 5 months He is a reliable person [22] The Dutch Director in Gambroon says in his letter to the Governor General: "The Board of Directors discussed on 9 May 1669 AD the question of establishing a permanent office of the esteemed company in Muscat We need to send a competent person to Muscat at an appropriate time to study the subject He should be conversant with the

In another letter from the Director of the Dutch Company (Hendrique) to the Governor General in Batavia dated 8 February 1664 the following appears "Holland has ordered the purchase of pearls worth 50,000 Gilders including quantities of seed pearls The catch in Bahrain last year was not impressive but this year it is expected to be plentiful We shall delegate someone this year too to purchase pearls of the two types in Bahrain We shall also depute a person in Sep and Oct to buy pearls in Cong where the pearls from Bahrain are sent for sale We can thus atleast partly meet the demands of Holland The Council has unanimously decided to entrust this task to Koopman who will reach there soon [18]

The following are the extracts from a letter sent by the Governor General in Batavia dated 23 Dec 1644.

"You will receive 2961 pearls weighing 1986 carats which were purchased by our men in Bahrain for trial purposes through the Ship 'Oliphant' Your Honour may please inform us of your impression about them We have suspended pearl-trade until we receive fresh instructions from you. [19]

The Iranian reports generally indicate that pearl-trade will not fetch profit to the Company there Koopman William Bosom visited Cong for this purpose where he stayed for 50 days but could not spend more than 17 4 & 902 Gilders for ordinary and seed pearls of good quality There is no need for the Company to deny itself this kind of pearl because considerable quantities of it come from Tuticorin

Director Van Weik wished to send a person to Bahrain which was the main commercial centre where pearls of different types could be bought directly since you mentioned in your letter that good pearls are suitable for Dutch markets and bad ones for the Russian market We could not send this team because the purchase of pearls requires expertise and such expertise is not available among the employees of the Company It is also unwise to depend on the Banian as he may betray the trust reposed in him However it may be possible to spend a lim-

a small quantity of pearls as specimens. In his opinion if your Excellency wished to pursue this trade one or two experienced merchants should be sent to Bahrain for a period of time during the normal pearl season or to Julfar where this operation takes place These merchants should remain there from the beginning to end and discover the secrets of this trade A letter from the Dutch Director of Gambroon (Bandar Abbas) says If the Gulf remained free of British and Portuguese ships and if we did not have any interference from them then we should send a representative with an experienced Banian from Cong to Bahrain according to our suggestion We hope our action meets with your approval.(16)

These are extracts from the letter of the Dutch Director in Gambroon to the Governor General of Batavia dated 5 May 1663 AD "We are sending herewith 785 small pearls for Holland according to their demand Their prices exceed the previous prices greatly as the season in Bahrain has been very lean. Pearls of more than 2 carats are available in plenty but are very expensive Merchants who bought them and carried them to Surat suffered a heavy loss as much as 40% because pearls are cheaper in Surat than in Bahrain or Gambroon The small pearls mentined above were bought by the Banian in Bahrain especially for the Dutch Company Otherwise we would have hesitated to pay that price We are hoping that the prices of small sized pearls would come down in due course to their normal level so that we may meet your demands in the coming year (17)





We have previously sent to you a report about Iran along with a report about the visit of Director Sarsenus to Cong for buying pearls We learn through his letter of 21 Mar that according to the practise followed there good and bad pearls are sold mixed He accordingly took the steps needed under the circumstances to enter into profitable deals. As a trial he bought a quantity of small pearls for 1750/4 Gilders and sent them here so that we could select the bright ones among them and send them to you and send the balance of poor quality pearls to Surat. They fetch a reasonable profit in Surat because of a poor harvest in the previous year Because of the purchase of available costly pearls for H.M the King, Sarcenus was unable to carry out your instructions and was constrained to buy only

without saucers as mentioned in the list and the vouchers Try to sell them for a good price in that region. Here we have sold them for the following prices. Camphor 40, Black Pepper 24 5, Sandal wood 36 Larens & 30 Pounds, Coffee-cups without saucers at the rate of 20 Cups with Saucers at the rate of 12 Larens. You should maintain a complete written record You should be accurate and cautious in all your transactions so that no harm comes to the Company and you do not have to suffer loss of face because of negligence. The Director of the Company has been credited with a sum of 25,000 Larens for the purchase of pearls from Bahrain and Cong

The reports state that the pearl season this year (1643) has been very productive I am hopeful that Koopman will bring with him quality pearls The reports say that he was attacked during his journey from Cong to Bahrain by two pirates near Naban. They also usurped the property of the Company (32,000 Muhammadis) After a few days the looted property was restored to them near Bahrain at Asaloo an amount of 1200 or 1300 Muhammadis which had been misappropriated by the pirates. (14)

In a letter dated 10 Dec 1643 AD the Director of the Dutch Company said in a letter to Batavia. To the extent our budget permits us we purchase certain categories of profitable pearls but it seems that we cannot make much profit We hope we shall be more certain about it in future The last season this year has been very lean

We should learn the tricks of this trade more dilligently and if it appears to us that it would be profitable we shall inform your Excellency accordingly in future From what we gather this trade is conducted both in Bahrain and Qatif in a very complicated fashion. We do not think our people can profitably engage in this business It is a venture which requires adequate knowledge and we need to employ men of rich experience (15)

The following appears in a letter addressed by the Government General of Dutch East Indies to Amsterdam in 1652

weighs one Carat If you find the like of these in shape, size and quality then you may buy from 1000 to 2000 for 6 or 7 Muhammadis or even slightly more so that you spend minimum possible on account of pearls Therein lies the advantage to the Company Five pearls weighing 2 carats in all cost me 8 Muhammadis per piece If you find pearls of the same quality for the same price or even a slightly higher price you may buy between 2 to 3 thousand of them

If you get an offer of pearls of 2 carats or more and if they are round and clear then you are free to buy about 1000 pearls at 15 to 20 Muhammadis I should warn you against defective pearls which may have stains or impurities It is important that they are white and clear If you find pairs of big white round pearls suitable for ornaments you may offer 300 to 350 Muhammadis If such a price is agreed upon you may buy 10 to 12 pairs of these I cannot specify exact prices for pearls You should exercise discretion according to the prevailing market conditions of demand and supply and the quality of the pearls The Banian is well-versed in this field and has a good idea of the approximate prices I am sending the Banian for your assistance and I would like to draw your attention to his experience but at the same time I do not want you to totally depend on him You should strike the deal yourself Your knowledge of Arabic should help you. Pay to the Banian 350 Muhammadis to cover his travel expenses He should meet food expenses himself

I advise you to investigate the volume of trade annually in terms of quality and quantity in this region We shall then know if the company stands to gain from this trade or not

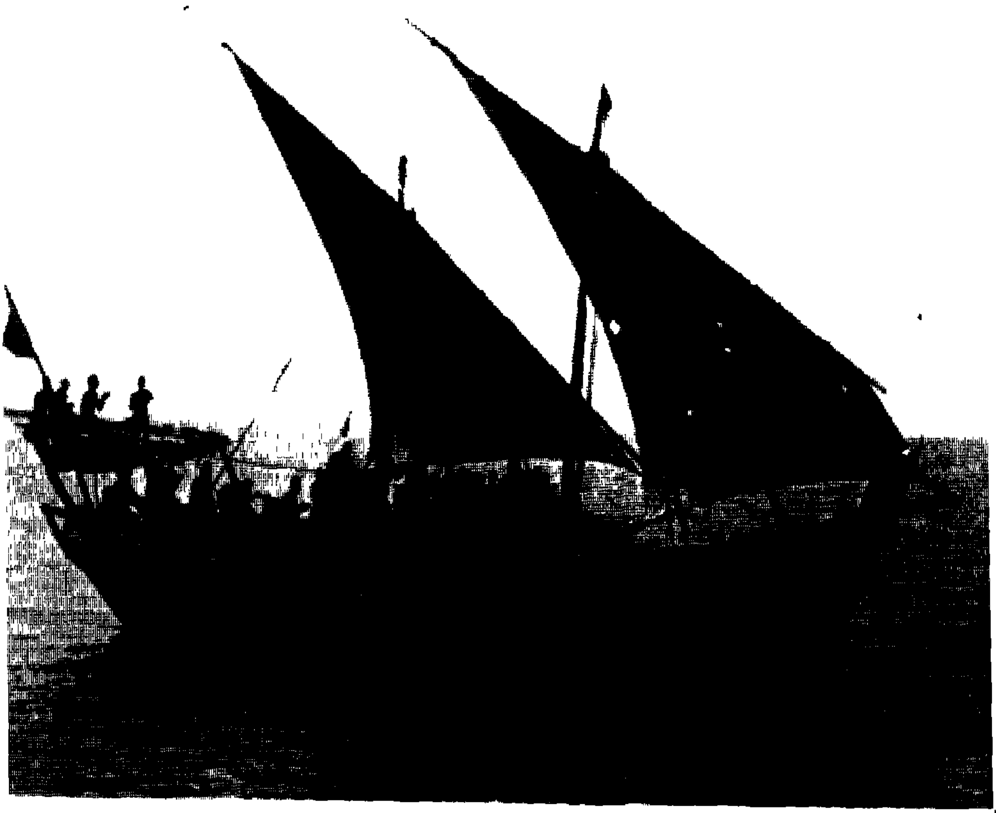
I am sending to you as a matter of experiment the following items of merchandise through the wellknown merchant Mayer

20 cartons of Japanese camphos

Black Pepper Cellars (50 men)

Sandalwood Boxes (For 50 men)

14 packets containing crockery and coffee cups with and



selling these for a profit in your own country (We are now allied to the Portuguese and enjoy freedom of movement everywhere) You should assert that you have come with different merchandise for this purpose In the meantime you should watch out for buying pearls of 1/4, 1/2, 1 1/4, 1 1/2 and 2 carats from the best quality Do not buy mixed lots with onethird of good quality and the rest yellowish and opaque unless you think the deal to be profitable as a whole If you buy clear pearls for reasonable prices and the poor quality ones very cheap then such a mixed lot is permissible provided the overall deal is profitable

It is better for you to buy the round, clear pearls free of water from among those that are offered to you even for a little extra price than the normal rates I am sure that you will be able to obtain some beautiful pearls I am sending herewith 10 pearls as specimen each one of which cost me 6 Muhammadis The biggest of them

even considered sending representatives of the company to Bahrain and Julfar (Ras al Khaima) for purchasing pearls but did not actually do so because of the standing dispute betwen them and the Portuguese in the region of Ceylon where the Dutch had established their sway over its pearl-banks They preferred to ignore the Gulf pearls The Director of the Dutch Office in Gambroon (Bandar Abbas) issued instructions to Koopman Henrique in Cong on 22 May 1643 A D for buying pearls from Bahrain and asked him to set sail for it in June accompanied by an Indian banian, Seekbet by name The two started the journey and with them were a pair of horses, a pair of camels/mules to carry their luggage They boarded a ship belonging to a Moor in Cong and rented a house on arrival in Bahrain They were to stay there until October, make purchases of pearls and carry them thereafter to Holland

The Dutch documents describe pearl-fishing operations The pearl-fishers set forth for their task from Bahrain, Congo, Qatif and Julfar (Ras al Khaima) in their boats in the first phase of the operations After a reasonable catch they proceed to a few small islands located about 10 or 12 miles from Bahrain They open the shells in the presence of the owners of the boats earmarked for this purpose The pearls are then handed over to the leaders authorised to collect them which are certified by the captains of the boats, then they are sealed They sail again for a second diving operation and then for the third time and repeat counting and sealing as described which takes them to the middle of September when all of them return to mostly Bahrain They are sold for a good price The buyers then take them to various countries Continuing his advise to Koopman the Dutch Director says I advise you to make every effort to buy white, round pearls free of water for reasonable prices Do not show much enthusiasm for buying them Play cool and dont let your enthusiasm make the sellers adopt a haughty and nonchalant attitude Pretend (and it is a fact) that you are only exploring the possibility of

and Qatif were embroiled in a conflict with Ottoman governors on the one hand and Aal Orai'ar on the other which led to the migration of some pearl merchants alongwith their boats to Bahrain The economy of Hasa and Qatif stagnated as a result particularly after Mustafa Pasha usurped the properties of Aal Rahal, the pearl merchants who had migrated to Bahrain with other traders No longer was the pearl spoken of but the Ottoman Sultan ordered the return of the properties to their owners as long as they paid the government taxes [11] An Ottoman document bearing the seal of the Ottoman Amir of Al Hasa sent in 981H/1573 A D states. "Bahrain has more than 300 villages. Its annual income is 40,000 Floris (mainly from pearlfishing) It is easy to conquer it The Prime Minister asks how, when and with what can Bahrain be conquered? He then asks about the soldiers of Bahrain and about the country's income [12]

The Sultan ordered a fort to be built in Manama harbour in 939H This is the second time that we come across the mention of the Manama harbour The first mention of it was during the unsuccessful attempt made by Mustafa Pasha against the Portuguese in Bahrain in 966H/1559 AD [13]

Dutch documents, however, mention the pearls of Bahrain and describe how, in the year 1634 A D, Nicolas Overschie, the Dutch Director in Gambroon bought a small quantity of pearls on an experimental basis and sent them over to Holland These had a poor reception in the Dutch markets due to their high prices Nevertheless they provoked Dutch interest in Bahrain in 1640 A D particularly after the decline of Dutch trade with Iran and the deterioration of conditions in Gambroon (Bandar Abbas) The Dutch were looking for fresh pastures and pearl trade as a choice but their repeated attempts to gain entry into the pearl market came to nought for one reason or the other During the fifties of the 17th century the Dutch East India Company exerted a great deal to extend its interests in Asia The Dutch

men during the season, each ship carrying 5 to 14 men The pearl-fishing operations present a festive appearance marked by enthusiasm and activity The Portuguese occupied it in the beginning of the 16th Century and established therein and in Qatif trade centres monopolising pearl-trade Once the pearls are extracted from the shells they are handed over to the owner of the ship who in turn divides them into three groups by passing them through three brass sieves of different sizes Those that do not pass through the one with the largest holes are separated and are known as "Ras" the second and third quality sizewise are respectively known as Batin and Dizel These three groups are sold for prices according to a complicated system of pricing depending on the weight, size, colour and shape of the pearls The merchants regroup them in smaller packets and send them to India Generally speaking the Bahraini pearls are not as white as the Ceylonese pearls but they are bigger and more beautiful in shape and their shine lasts longer [9]

A Bahraini merchant Shaikh Muhammad by name came to Hormuz in 1528 A D carrying with him a very precious pearl indeed and offered it for sale for 2000 Ashrafis but the Commander of the Portuguese Fort in Hormuz usurped the pearl and ordered the merchant to be severely beaten and thrown out of Hormuz with his body tied up in a bundle with a rope However, the Chief, Sharafuddin released Shaikh Muhammad which provoked hostility between De Mello and Sharafuddin De Mello demanded from Sharafuddin payment of 5000 Ashrafis for releasing Shaikh Muhammad Shaikh Muhammad submitted a complaint against De Mello to the Portuguese Governor General in India (Lobo Vaz) The Governor General asked Sharafuddin to investigate the complaint against De Mello Finally, the Portuguese King imposed a fine on De Mello and had the rights of both Sharafuddin and Shakih Muhammad restored to them [10]

The Ottomans tried to capture Bahrain because of its bounties mainly in pearls Thus Al Hasa

tuguese influence until 1602 AD/1011H. They repeated their attempts to regain control over it until 1602 AD/1032H but the resistance offered by the Bahrainis came in the way Ultimately he grew desperate and concluded a treaty with Shah Abbas in 1625 AD according to whose terms Portugal surrendered her claims to all coastal territories except the Bahrain Coasts which were rich in pearls [8]

The Portuguese traveller Pedro Texiera who commenced his travels on (Feb 9 1604 AD) from Goa to Hormuz and then to Bahrain and Basra said in his travelogue. " Bahrain is famous for its pearls both for their quality as well as quantity I shall only briefly touch upon it because it is well known generally There are two big pearl-fisheries in the east, one of them in Bahrain in the Gulf and the other in Manar near Ceylon "

The pearl season starts in Bahrain in June or July usually and lasts till August The fleet consists of 200 boats (cruisers) out of which 100 belong to Bahrain, 50 to Julfar and 50 to Nakhiloo. The Bahrain pearls are the best in weight and quality If two pearls of the same size are compared the Bahrain pearl is heavier The annual value of pearl-trade in seed pearls and ordinary pearls is 50,000 ducats. The value of trade in smuggled pearls is about 100,000 ducats. Smuggling is resorted to becaue of their usurpation by the Portuguese representative in Bahrain. The measuring standard is Carats or Abs (1 Carat=3 Abs). Misqal=24 Carats or 73 grams. Pearl is categorised on the basis of 20, 30 or 40 seeds per Misqal The Bahraini divers dive to a depth of 70 to 90 feet."

In a footnote the writer describes Bahrain as an island 30 miles long and 9 miles wide. He quotes Indian reports stating that the Bahraini pearl-fishing season lasts from June to October and the Bahraini pearl-fisheries are 24 to 30 feet deep and profusely productive

He goes on to say "The Gulf employs 4500 ships and 30,000

place in the presence of the traders The traders collect the sale proceeds and disperse only to gather once again during the next year The Ruler sends the best pearl to the Abbasid Caliph [5]

The famous traveller Ibn Batuta (d 779H) who visited Bahrain has described the diving operation He says that the divers paid a fifth as tax to the Ruler of Bahrain

The sailor Ibn Majid, in his book Al Fawayid, (893)H has described the Islands of Bahrain He says The Awal Islands and many surrounding islands are termed mines of pearls. Around a 1000 boats of various Arab tribes and merchants gather here At the time of writing these belong to the King of Bahrain Ajwad Bin Zamil Bin Hussain al Aamiri al Jabari [6]

Bahrain was subjected to external aggression at the beginning of Tenth Century of Hijra/ 16th Century A D It was the Portuguese invasion and the most important reason for it was the economic prosperity of Bahrain particularly due to pearls. This is borne out by the letters exchanged between the Portuguese commander Afonso Albuquerque and the King of Portugal In a letter of 20 October 1514/920H Albuquerque represented to the king that he would like to annex Bahrain because of its riches in pearls He called the Barem (Bahrain) pearls as pearls of excellent quality which were sent to the various parts of the Portuguese colonies such as Hormuz and Goa and sold for great profit by the merchants of Bahrain who organised the diving operations Albuquerque ended his letter by saying "Bahrain is too rich a prize to be left to the Muslims " [7] Commander Albuquerque convinced the King of Portugal who sent four ships under the command of his cousin (Piro) for the purpose of scouting He was followed by Albuquerque himself The representative of the King lived in Bahrain then for conducting pearlfishing. Thereafter Albuquerque sent commander Antonio Correa (1521 AD/928H) who occupied Bahrain It remained under Por-

whoever ruled Bahrain controlled all areas of pearl-fishing around it. Al Khatib al Baghdadi (d.463 H) has mentioned that Haroon al Rasheed appointed one of his governors over a vast area in the Arab Gulf including Bahrain and over its pearl-diving operations These tasks were then allotted to Mohammed Bin Suleiman Bin Ali Bin Abdullah Bin Abbass Bin Abdul Muttalib and others He was made responsible to pay the taxes to antoher ruler as had been done earlier by the ruler of Bahrain in 628 H Such a one was Fadl Bin Ali Al Ayouni who paid the taxes to Atabek Abi Bakr Sa'd Bin Zenki al Salgari after the lapse of the system whereby his predecessor used to pay it to the ruler of QAIS. (3)

Al Maqdasi (d 380H) has referred to Bahrain, its coasts and to pearl-fishing therein

Nasir Khusro who went on Haj pilgrimage in 443H described Bahrain during his return journey. He has mentioned its date-palm groves and pearl-diving operations. During those days the Ayounis used to take half c the proceeds of pearlfishing. (4)

While describing the Aw Islands, Al Shareef al Idris (d.560H) says Awal is the capital of Bahrain It is a flourishing town The Awal Islanc and all areas between Bahrain and Oman are inhabited b Arabs There is an independent Amir in Awal The coastal population is enamoured of his sense of justice and fairplay anc his religiosity. The pearling magnates live in this town and merchants from all over assemble here with abundant money and stay on for several months until the pearling season starts in August and September More than 200 boats set out for pearling When they depart from Awal the divers are headed by a guide and the boats follow in a column. No one is allowed to break ranks even if he has finished his operations The catch is brought to Awal in packets on which the owner's name is written. On landing in Awal these packets are taken from the traders and put in the custody of the Ruler of Bahrain who arranges to sell them at a public

of Ur and to the fame of Dilmon as the exporter of pearls. Similarly eight slabs have been found in the temple of Ninkal pertaining to the Third Ur Dynasty According to the Sumerian legend, the Sumerian Hero of Tempests, Oton-abishtam, desired immortality and hence resided in Dilmon which was the choice of everyone. Perhaps the 'flower of immortality' described by Oton-abishtam (Gilgamesh) refers to the Pearl [1] The mention of pearl-fishing along the coasts of the Arab Gulf has been made during the Macedonian period Greek sources have emphasied the location of most pearl-banks near the sandy coastlines of Bahrain. The Greeks and Romans had commercial relations with Bahrain particularly during the period of Alexander of Macedonia Ptolemy has devoted a chapter to the pearl-banks of Tylos, a name given to the mother-Island of Bahrain by the Romans According to Pliny (c.325 B.C.) Tylos Island was situated opposite Gerrha (Ogair) and was known for its pearls and in Tylos there was a town of the same name. [2]

In spite of the paucity of material on pearl-fishing in the Arab Gulf in the writings of ancient Western writers there are travellers and geographists who have written about precious stones and diamonds of the Arabs The poets of the pre-Islamic pagan period as well as the Omayyed period have thrown light on this industry in their poetry Their writings are treated as authentic documents by virtue of their being eye-witnesses They have described what they saw and have narrated the relations that existed between Bahrain and other contemporry countries as well as the geographical and economic characteristics of the archipelago of Bahrain in addition to pearl-fishing around the Islands of Bahrain. Rarely you would find a book that describes pearl-fishing in the Gulf without mentioning Bahrain The term Bahrain in those days was applied to the eastern coast of the Arabian peninsula including the Awal Island and other surrounding islands They invariably linked Bahrain to pearl-fishing. One who reads these travelogues learns that



HISTORICAL DOCUMENTS CONCERNING PEARL-FISHING IN BAHRAIN

Dr. Ali Aba Hussain
B.K. Narayan

The ancient historical documents about the people of Bahrain have preserved records of their links with pearl-fishing in areas contiguous to the Islands of Bahrain This association has lasted until the present days This is borne out from a stone slab which was discovered among the ruins of the Sumerian city of Ur in Mesopotamia which dates back to about 2000 B.C. This is the most ancient historical artefact which has been preserved in the British Museum. A photograph of it is kept in the Historical Documents Centre of Bahrain which has been reproduced and appended to this article. It states that Ur imported certain items such as copper, wood and pearls through Dilmon This testifies to commercial exchanges between Dilmon (present-day Bahrain) and the Sumerian city

This, in my opinion, is the general frame-work of the suggestion I have made whcih is neither impossible of achievement nor difficult to implement. The effort which has been put in this field is enormous but scattered. The suggestion offered will contribute to its organisation, categorisation and publication within the folds of a sizeable book which will act as a reliable and dependable source-material for generations of scholars to come. It will be an impartial and authentic record of the history of the area from which a scholar will derive satisfaction, in which every student will put his trust and to which every researcher in the history of the area will turn.

Abdullah Bin Khalid Al Khalifa

through the formation of a Coordinating Committee under its General Scretariat. Such a Committee should consist of a number of historians and others who are capable of contributing to this task. This Committee should lay down the general frame-work for the Encyclopaedia and form several Branch Committees; one in each Gulf State I think that the general frame-work suggested could start with the Sumerian civilisation as a majority of scholars prefer to consider it as the launching point into the ancient history of the world. The first part of the Encyclopaedia should be devoted to Gulf history starting from the Sumerian civilisation and covering a period upto the advent of Islam. The second part should be devoted to the history of the Gulf covering the period of the establishment of the Islamic State beginning with the age of the Prophet(s) and ending with the fall of the Ottoman Caliphate The third part should be earmarked for the history of the Gulf during the modern period beginning with the formation of political units and the emergence of States in the Gulf, foreign invasions beginning with the Portuguese invasion and the conflicts involving foreign states The fourth part may present the history of the Gulf States since their gaining their independence showing the landmarks of their renaissance and all other information covering various fields This is a part which should be kept open for the coming generations to record their achievements and the developments which take place during their time Each one of the various parts should be further sub-divided into periods and phases in accordance with the importance and dimensions of any events or developments which take place during that phase The topics will be distributed among the educational institutions and universities of all Gulf States through the agency of the Branch Committees The Main Committee will collect the research papers and undertake their publication after they are checked by specialists in the field

pen to the paper. They reviewed the documents, the treatment of subject and the analyses and offered new opinions, interpretations and viewpoints on many of the happenings and developments on the chess-board of history This great work augured well in two directions On the one hand it placed at the disposal of professional research scholars a lot of raw information for their analytical study and on the other it offered them a forum for sharing their researched articles through the columns of their specialist journals. This process of work, innovation, research and production of studies has now gone on long enough and we belive the time has come to enter the main phase of our work and realise our main goal for the sake of which all this work was initiated We believe that this task is to produce or prepare to produce an Encyclopaedia of Gulf History to act as the basic or main reference-work of the history of the region which would take an honoured and foremost place with the scholars concerned with Gulf history Perhaps the main incentive for this initiative lay in the fact that the only encyclopaedia one turned to hitherto was and continues to be the monumental work of Lorimer and the collections of British documents Despite the advantages which these two sources confer on the scholars there is no gainsaying the fact that they have been written by foreigners not belonging to the region with a certain measure of reservations Very often these writings have emanated from a totally different viewpoint and undoubtedly they bear the stamp of cartain events or circumstances which have coloured the judgement However much one may try to be sincerely objective it cannot be calimed that one has been totally impartial, a quality that is expected of a major source of information on as important a subject as this one

In our opinion any project in this regard which is mooted should be a joint Gulf endeavour to be initiated and promoted by the Gulf Cooperation Council under its wings

IN THE NAME OF GOD THE BENEFICENT, THE MERCIFUL

TOWARDS A BIG ENCYCLOPAEDIA OF GULF HISTORY

by

Shaikh Abdullah Bin Khalid Al Khalifa

For more than a decade now there has been an active movement in all Gulf States displaying interest in history and its recording In pursuance of this trend many Governments patronised the establishment of Centres whose major concern was the collection of documents from all parts of the world Through these Centres of Documents which mushroomed all over the region and which devoted much effort in this direction, a number of specialist journals appeared on the horizon playing a considerable role in bringing documents to the surface and activating the process of history-writing This movement threw a flood of light on hitherto unknown areas of both ancient and modern history These journals delineated for themselves a clear-cut path and proceeded along the same with mutual cooperation and collaboration They made great strides and were able to get a large number of Arab and foreign historians to put their

ENGLISH SECTION:

CONTENTS

ARABIC SECTION:

AL-WATHEEKAH

Devoted to The Heritage, Thought and History of

Bahrain And The Gulf

Bahrain P B 28882

Telephone — Historical Documents Centre — **664854**

All Correspondence to be Addressed to The Editor-in-Chief

AL WATHEEKAH

A Half-Yearly Journal Published by

The Historical Documents Centre

The State of Bahrain

ISSUE NO. 23 – 11th Year

AL MUHARRAM – 1414 A.H. July 1993 A.D.

IN THE NAME OF GOD THE BENEFICENT, THE MERCIFUL